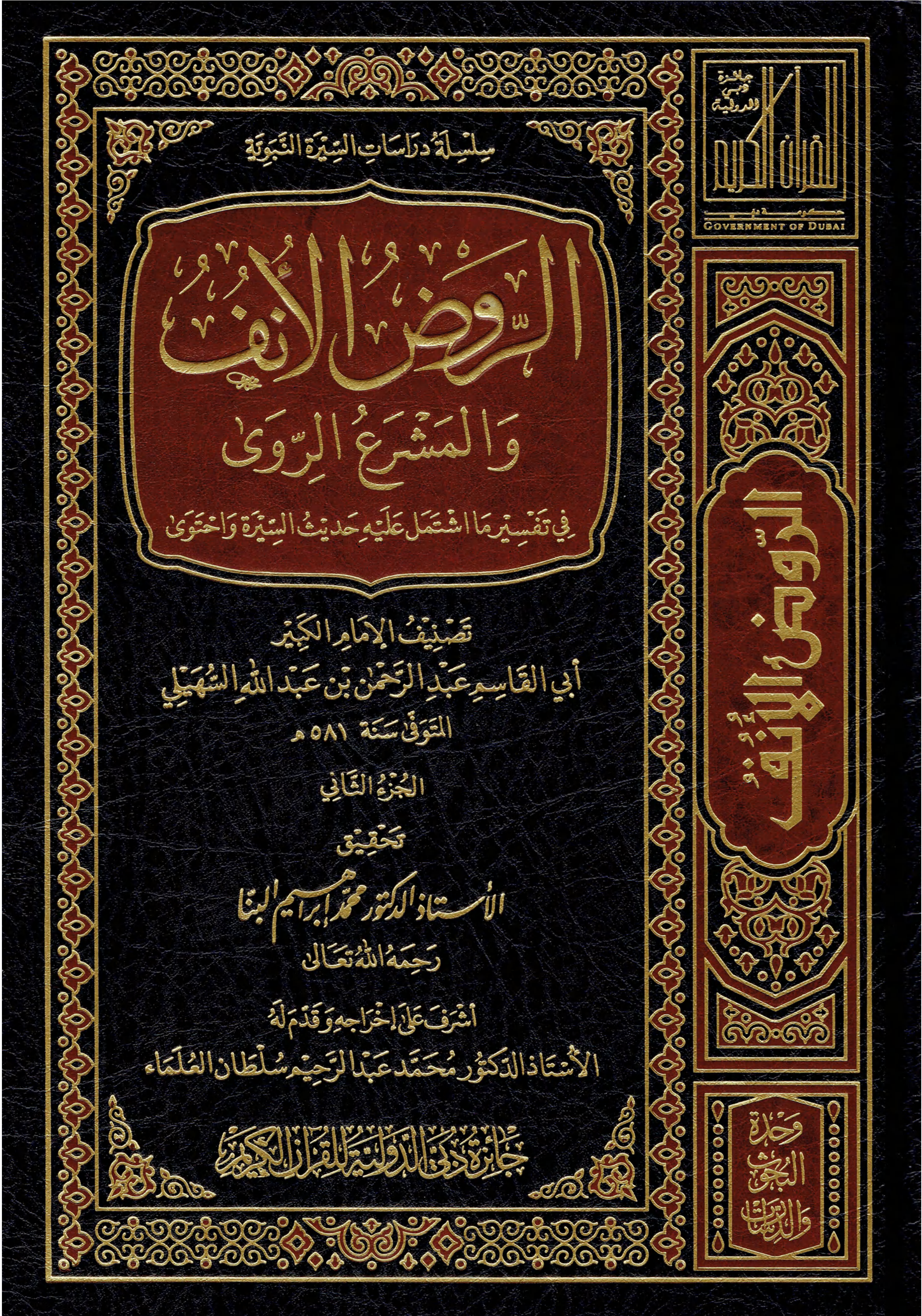
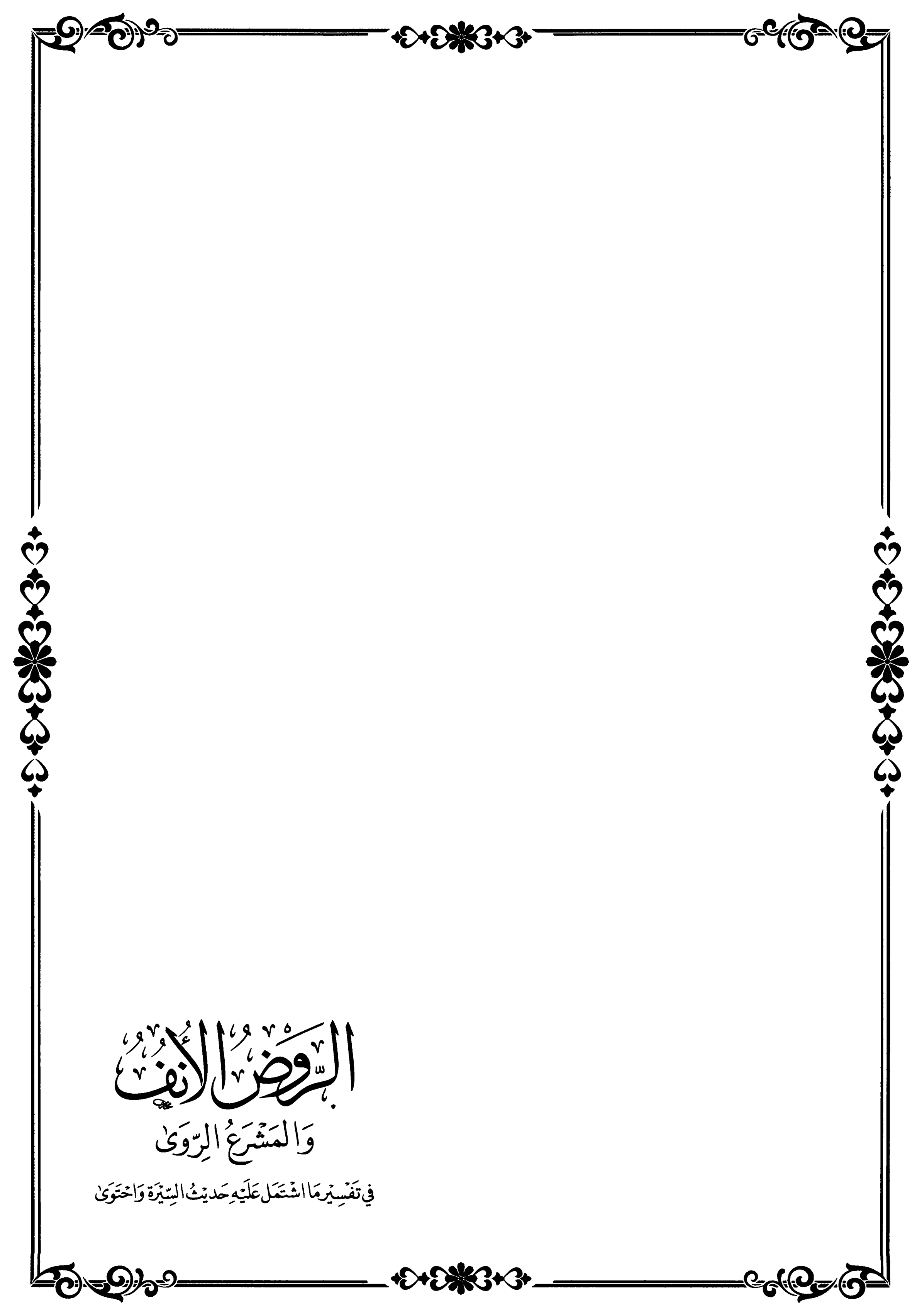

سلسلة دراسات السيرة النبوية
الروض الأنف
والمشرع الروى
في تفسير ما اشتمل عليه حديث السيرة واحتوى
تصنيف الإمام الكبير
أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي
المتوفى سنة ٥٨١ هـ
الجزء الثاني
تحقيق
الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم البنا
رحمه الله تعالى
أشرف على إخراجه وقدم له
الأستاذ الدكتور محمد عبد الرحيم سلطان العلماء
جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم
GOVERNMENT OF DUBAI
وحدة البحوث والدراسات


الروض الأنف
والمشرع الروى
في تفسير ما اشتمل عليه حديث السيرة واحتوى

الرّوض الأنف والمشرع الرّوى في تفسير ما اشتمل عليه حديث السيرة واحتوى

تصنيف الإمام الكبير : أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي

تحقيق : الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم البنّا

الطبعة الأولى : ١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م

طبع بموجب إذن طباعة من المجلس الوطني للإعلام بدولة الإمارات العربية المتحدة

رقم (MC-03-01-2218168) تاريخ (٣٠/ ٠٣/ ٢٠٢١م)

الترقيم الدولي (ISBN) : 978-9948-8664-1-1







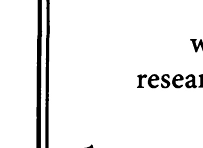
ص.ب: ٤٢٠٤٢ دبي - الإمارات العربية المتحدة

هاتف: ٢٦١٠٦٦٦ ٤ ٩٧١ +

فاكس: ٢٦١٠٠٨٨ ٤ ٩٧١ +

الموقع على الإنترنت : www.quran.gov.ae

البريد الإلكتروني : research@quran.gov.ae







جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم
وحدة البحوث والدراسات

سلسلة دراسات السيرة النبوية



الروض الأنف
والمشرع الروى
في تفسير ما اشتمل عليه حديث السيرة واحتوى

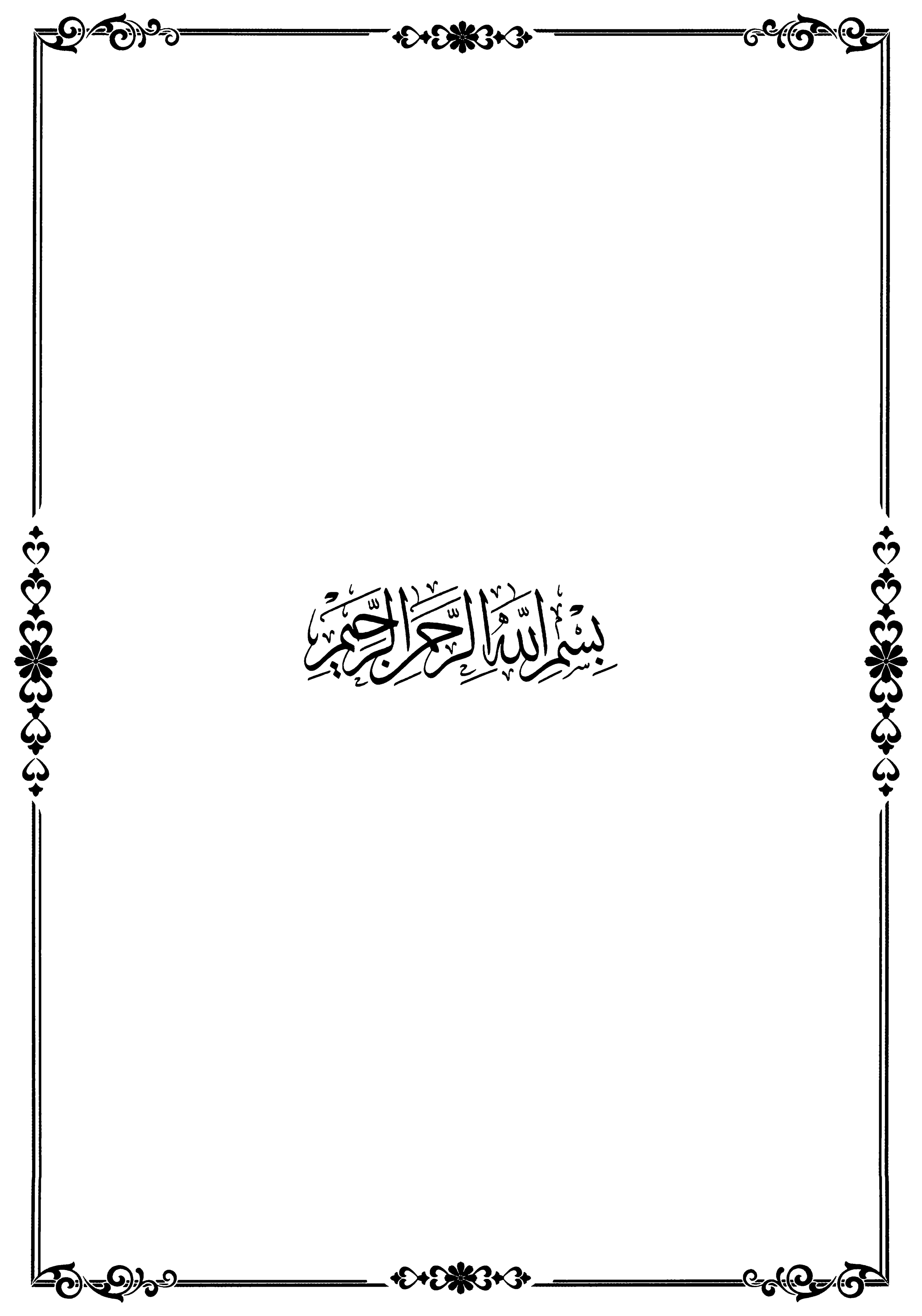
تصنيف الإمام الكبير
أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي
المتوفى سنة ٥٨١ هـ

الجزء الثاني

تحقيق
الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم البنا
رحمه الله تعالى

أشرف على إخراجه وقدم له
الأستاذ الدكتور محمد عبد الرحيم سلطان العلماء

جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم


بسم الله الرحمن الرحيم

[رَسُولُ الله ﷺ وأُمَّهاتُهُ]

قالَ ابنُ هِشامٍ: فوَلَدَ عَبْدُ الله بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ رَسُولَ الله ﷺ سَيِّدَ ولَدِ آدَمَ، مُحَمَّدَ بنَ عَبْدِ الله بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، صَلَواتُ الله وسَلامُهُ ورَحْمَتُهُ وبَرَكاتُهُ عَلَيْهِ وعلى آلِهِ. وأُمُّهُ: آمِنةُ بِنْتُ وهْبِ بنِ عَبْدِ مَنافِ بنِ زُهْرةَ بنِ كِلابِ بنِ مُرّةَ بنِ كَعْبِ بنِ لُؤَيِّ بنِ غالِبِ بنِ فِهْرِ بنِ مالِكِ بنِ النَّضْرِ.

وَأُمُّها: بَرّةُ بِنْتُ عَبْدِ العُـزّى بنِ عُثْمـانَ بنِ عَبْدِ الـدّارِ بنِ قُصَيِّ بنِ كِلابِ بنِ مُرّةَ بنِ كَعْبِ بنِ لُؤَيِّ بنِ غالِبِ بنِ فِهْرِ بنِ مالِكِ بنِ النَّضْرِ.

وأُمُّ بَرّةَ: أُمُّ حَبِيبِ بِنْتُ أَسَـدِ بنِ عَبْدِ العُـزّى بنِ قُصَيِّ بنِ كِلابِ بنِ مُرّةَ بنِ كَعْبِ بنِ لُؤَيِّ بنِ غالِبِ بنِ فِهْرِ بنِ مالِكِ بنِ النَّضْرِ.

وأُمُّ أُمِّ حَبِيبٍ: بَرّةُ بِنْتُ عَوْفِ بن عُبَيْدِ بنِ عُوَيْجِ بنِ عَدِيِّ بنِ كَعْبِ ابنِ لُؤَيِّ بنِ غالِبِ بنِ فِهْرِ بنِ مالِكِ بنِ النَّضْرِ.

قالَ ابنُ هِشامٍ: فرَسُولُ اللهِ ﷺ أشْرَفُ ولَدِ آدَمَ حَسَبًا، وأفْضَلُهُمْ نَسَبًا مِنْ قِبَلِ أبيه وأمّه ﷺ.

أُمّهاتُ النَّبيِّ ﷺ

ذَكَرَ في آخِرِهِنَّ بَرّةَ بِنْتَ [عَوْفِ بنِ][1] عُبَيْدِ بنِ عُوَيْجِ بن عَدِيٍّ، وهُنَّ كُلُّهُنَّ

(١) ما بين المعقوفين سقط من النسخ، وأثبتاه عن «السيرة»، و«المحبّر» لابن حبيب: (ص: ٩).

قُرَشِيّاتٌ؛ ولِذلك وقَفَ في بَرّةَ، وإنْ كانَ قد ذَكَرَ أهْلُ النّسَبِ بَعْدَ هذا أُمَّ بَرّةَ، وأُمَّ أُمِّها، وأُمَّ أُمِّ الأُمِّ، ولَكِنَّهُنّ مِنْ غَيْرِ قُرَيْشٍ.

قالَ مُحَمّدُ بنُ حَبيبٍ(١): وأُمُّ بَرّةَ: قِلابةُ بِنْتُ الحارِثِ بنِ مالِكِ بنِ طابِخَةَ ابنِ صَعْصَعةَ بنِ عادِيَةَ بنِ كَعْبِ بنِ طابِخَةَ بنِ لحْيانَ [بنِ هُذَيْلٍ. وأُمُّ قِلابةَ: أُمَيْمةُ بِنْتُ مالِكِ بنِ غَنْمِ بنِ لحْيانَ بنِ عادِيَةَ [بنِ كَعْبٍ، وأُمُّ أُمَيْمةَ: دَبّةُ بِنْتُ الحارِثِ بنِ لحْيانَ](٢) بنِ عادِيَةَ(٣)](٤)، وأُمُّها بِنْتُ كَهْفِ الظُّلَمِ مِنْ ثَقِيفٍ.

وذَكَرَ الزُّبَيْرُ قِلابةَ(٥) بِنْتَ الحارِثِ، وزَعَمَ أنَّ أباها الحارِثَ كانَ يُكَنّى: أبا قِلابةَ، وأنّهُ أقْدَمُ شُعَراءِ هُذَيْلٍ، وذَكَرَ مِنْ قَوْلِهِ: [من البسيط]

لا تَأْمَنَنَّ وإنْ أمْسَيْتَ في حَرَمٍ ... إنَّ المَنايا بِجَنْبَيْ كُلِّ إنْسانِ
واسْلُكْ طَرِيقَك تَمْشِي غَيْرَ مُخْتَشِعٍ ... حَتّى تُلاقِيَ ما يَمْنِي لَكَ المانِي
فالخيرُ والشَّرُّ مَقْرونانِ في قَرَنٍ ... بِكلِّ ذلكَ يَأتِيكَ الجَدِيدانِ

بابُ مَوْلِدِ رسولِ اللهِ(٦) ﷺ

وذَكَرَ نَسَبَ أُمِّهِ آمِنةَ بِنْتِ وهْبِ بنِ عَبْدِ مَنافِ بنِ زُهْرةَ، وأنَّ زُهْرةَ هُوَ ابنُ كِلابٍ، وفي «المَعارِفِ» لِابنِ قُتَيْبَةَ: أنّ زُهْرةَ اسْمُ امْرَأةٍ عُرِفَ بِها بَنُو زُهْرةَ(٧). وهَذا مُنْكَرٌ غَيْرُ مَعْرُوفٍ، إنّما هُوَ اسْمُ جَدِّهِمْ، كَما قالَ ابنُ إسْحاقَ.

---

(١) «المحبَّر» (ص: ٩)، مع خلاف غير يسير في سلسلة النَّسب.
(٢) سقط «أم أميمة» من «المحبَّر». (٣) بعده في (ف): «بن كعب».
(٤) ما بين المعقوفين سقط من (ب)، (ج).
(٥) انظر: «نسب قريش» لمصعب: (ص: ٢١).
(٦) في (ف): «باب مولد الرسول».
(٧) «المعارف» (ص: ١٣١).

والزُّهْرةُ في اللّغةِ: إشْراقٌ في اللّوْنِ، أيّ لَوْنٍ كانَ مِنْ بَياضٍ أوْ غَيْرِهِ.

وزَعَمَ بَعْضُهُمْ أنّ الأزْهَرَ هُوَ الأبْيَضُ خاصّةً، وأنّ الزّهْرَ اسْمٌ للأبيض من النّوّار[1].

وخَطَّأ أبُو حَنِيفةَ مَنْ قالَ بِهَذا القَوْلِ، وقالَ: إنّما الزُّهْرةُ إشْراقٌ في الألْوانِ كُلّها، وأنْشَدَ في نَوْرِ الحَوْذانِ ـ وهُوَ أصْفَرُ[2] ـ: [من الطويل]

تَرى زَهَرَ الحَوْذانِ حَوْلَ رِياضِهِ ... يُضِيءُ كَلَوْنِ الأتْحَمِيِّ المُوَرَّسِ

وَفي حَدِيثِ يَوْمِ أُحُدٍ: نَظَرْت إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ وعَيْناهُ تزهران تحت المِغْفَر[3].

وذَكَرَ فيهِ خَبَرَ إسْماعِيلَ وأُمّهِ، وقَدْ تَقَدّمَ طَرَفٌ مِنْهُ[4].

* * *

(١) بعده في (ف): «خاصة».

(٢) لم أجده فيما طبع من «النبات»، وقد نقل الزبيري ذلك في «التاج» عن السهيلي: (زهر).

(٣) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٢: ٢٣)، رقم (١١٠٤)، من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه، دلائل النبوة لأبي نُعيم الأصبهاني ص٤٨٢. (ج)

(٤) انظر: (١/ ٢٣٩).

إشارةٌ إلى ذِكْرِ احْتِفارِ زَمْزَمَ

[شَيْءٌ عَنْ زَمْزَمَ]

قالَ مُحَمَّدُ بنُ إسْحاقَ المُطَّلِبِيُّ: بَيْنَما عَبْدُ المُطَّلِبِ بنُ هاشِمٍ نائِمٌ في الحِجْرِ، إذْ أُتِيَ فأُمِرَ بِحَفْرِ زَمْزَمَ، وهِيَ دَفْنٌ بَيْنَ صَنَمَيْ قُرَيْشٍ: إسافٍ ونائِلَةَ، عِنْدَ مَنْحَرِ قُرَيْشٍ. وكانَتْ جُرْهُمٌ دَفَنَتْها حِينَ ظَعَنُوا مِنْ مَكَّةَ، وهِيَ بِئْرُ إسْماعِيلَ بنِ إبْراهِيمَ عَلَيْهِما السَّلامُ، الَّتِي سَقاهُ اللهُ حِينَ ظَمِئَ وهُوَ صَغِيرٌ، فالتَمَسَتْ لَهُ أُمُّهُ ماءً فلَمْ تَجِدْهُ، فقامَتْ إلى الصَّفا تَدْعُو اللهَ وتَسْتَغِيثُهُ لإِسْماعِيلَ، ثُمَّ أتَتِ المَرْوَةَ ففعَلَتْ مِثْلَ ذلك. وبَعَثَ اللهُ تَعالى جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلامُ، فهَمَزَ لَهُ بِعَقِبِهِ في الأَرْضِ، فظَهَرَ الماءُ، وسَمِعَتْ أُمُّهُ أصْواتَ السِّباعِ فخافَتْها عَلَيْهِ، فجاءَتْ تَشْتَدُّ نَحْوَهُ، فوَجَدَتْهُ يَفْحَصُ بِيَدِهِ عَنِ الماءِ مِنْ تَحْتِ خَدِّهِ ويَشْرَبُ، فجَعَلَتْهُ حِسْيًا.

وذَكَرَ أنّ جِبْرِيلَ هَمَزَ بِعَقِبِهِ في مَوْضِعِ زَمْزَمَ، فنَبَعَ الماء، ولذلك زمزم تُسَمّى: هَمْزَةَ جِبْرِيلَ، بِتَقْدِيمِ المِيمِ على الزّاء، ويُقالُ فيها أيْضًا: هَزْمَةُ جِبْرِيلَ؛ لِأنّها[1] هَزْمَةٌ في الأرْضِ، وحُكِيَ في اسْمِها: زُمازِمُ وزَمْزَمُ. حُكِيَ ذَلِكَ عَنِ

(١) من هنا انفردت (هـ) بالنص هكذا: «لأنها هزَمَتْهُ، يقال: هزمت البئر: حفرتها، وبئرٌ هزيمة: خسفت وكسر حبلها حتى فاض ماؤها. وأصل الهزم: الكسر، ومنه: هزم الجيش إنما هو كسره، وقصب منهزم ومهزَّم، أي: مكسّر. فهزمةُ جبريل عليه السلام لزمزمَ، أي: ضربها =

المُطَرِّزِ، وتُسَمّى أيْضًا: طَعامَ طُعمٍ، وشِفاءَ سُقمٍ.

وقال الحَربيُّ: سُمِّيَتْ زَمْزَمَ، بِزَمْزَمةِ الماءِ، وهو[١] صَوْتُهُ. وقالَ المَسْعُودِيّ: سُمّيَتْ زَمْزَمَ؛ لِأنّ الفُرْسَ كانَتْ تَحُجُّ إلَيْها في الزّمَنِ الأوّلِ، فزَمْزَمَتْ عَلَيْها. والزّمْزَمةُ: صَوْتٌ تُخْرِجُهُ الفُرْسُ مِنْ خَياشِيمِها عِنْدَ شُرْبِ الماءِ. وقَدْ كَتَبَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى عُمّاله: أن انهُوا الفُرْس عن الزّمزمة. وأنشد المسعودي[٢]:

[من الرجز]

زَمْزَمَتِ الفُرْسُ على زَمْزَمِ وذاكَ[٣] في سالِفِها الأقْــدمِ

وَذَكَرَ البَرْقِيُّ عَن ابنِ عَبّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أنّها سُمّيَتْ زَمْزَمَ لِأنّها زُمَّتْ بِالتّرابِ؛ لِئَلّا يَأْخُذَ الماءُ يَمِينًا وشِمالًا، ولَوْ تُرِكَتْ لَساحَتْ على الأرْضِ حَتّى تَمْلأَ كُلّ شَيْءٍ.

وقالَ ابنُ هِشامٍ: والزّمْزَمةُ عِنْدَ العَرَبِ: الكَثْرةُ والِاجْتِماعُ، قالَ الشّاعِرُ:

[من الرجز]

وَباشَـرَتْ مَعْطَنَهـا المُدَهْثَما[٤] ويَمّمَتْ[٥] زُمْزُومَها[٦] المُزَمْزَما

= برجله، فنبع الماء. مِن هزمتُ البئر: إذا حفرتَها، ويقال للفرس الذي يُسمَع لصهيله هزمةٌ: هزيم. وهزمة الرعد: صوت فيه كالانشقاق في الأرض، وحُكي في اسمها...».

(١) في (ف): «وهي».

(٢) «مروج الذهب ومعادن الجوهر» (١: ٢٦٥)، و«التنبيه والإشراف» (١: ٩٥) كلاهما للمسعودي. (ج)

(٣) في (ف): «ذلك».

(٤) في (ب): «المزمزما». وفي (ج)، (هـ): «المدهشا»، وفي (ف): «المدهمشا». والصواب ما أثبت، ففي «تاج العروس»: «والدهثم: الأرض السهلة».

(٥) في (ف): «وتممت».

(٦) في (ف): «زمزمها».

[المُدَهْثَمُ[١]: اللَّيِّنُ.

وكانَ سَبَبُ إنْزالِ هاجَرَ وابنِها إسْماعِيلَ مَكَّةَ][٢] ونَقْلِها إلَيْها مِنَ الشّام: أنّ سارةَ بِنْتَ عَمّ إبْراهِيمَ عَلَيْهِ السّلامُ شَجَرَ بَيْنَها وبَيْنَ هاجَرَ أمْرٌ، وساءَ ما بَيْنَهُما، فأُمِرَ إبْراهِيمُ عليهِ السّلامُ أنْ يَسِيرَ بِها إلى مَكّةَ، فاحْتَمَلَها على البُراقِ، واحْتَمَلَ مَعَهُ قِرْبَةَ ماءٍ ومِزْوَدَ تَمْرٍ، وسار بها حَتّى أنْزَلَها بمَكّةَ في مَوْضِعِ البَيْتِ، ثُمّ وَلّى راجِعًا عَوْدَهُ على بَدْئِهِ، وتَبِعَتْهُ هاجَرُ وهِيَ تَقُولُ: آللهُ أمَرَكَ أنْ تَدَعَنِي وهَذا الصّبِيَّ في هَذا البَلَدِ الوَحْشِ، ولَيْسَ مَعَنا أنِيسٌ؟! فقالَ: نَعَمْ، فقالَتْ: إذًا لا يُضَيِّعُنا، فجعلت تَأْكُلُ مِن التّمْرِ، وتَشْرَبُ مِنْ ماءِ القِرْبَةِ، حَتّى نَفِدَ الماءُ، وعَطِشَ الصّبِيُّ، وجَعَلَ يَنْشَغُ[٣] لِلْمَوْتِ، وجَعَلَتْ هِيَ تَسْعى مِن الصّفا إلى المَرْوةِ، ومِن المَرْوةِ إلى الصّفا؛ لِتَرى أحَدًا، حَتّى سَمِعَتْ صَوْتًا عِنْدَ الصّبِيّ، فقالَتْ: قَدْ[٤] أسْمَعْتَ، إنْ كانَ عِنْدَكَ غَوْثٌ[٥]، ثُمّ جاءَتِ الصَّبِيَّ، فإذا الماءُ يَنْبُعُ مِنْ تَحْتِ خَدّهِ، فجَعَلَتْ تَغْرِفُ بِيَدَيْها، وتَجْعَلُ في القِرْبَةِ.

قالَ النّبِيُّ ﷺ: «لَوْ تَرَكَتْهُ لَكانَ عَيْنًا»، أوْ قالَ: «نَهَرًا مَعِينًا»، وكَلَّمَها المَلَكُ ـ وهُوَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السّلامُ ـ وأخْبَرَها أنّها مَقَرُّ ابنِها ووَلَدِهِ إلى يَوْمِ القِيامَةِ، وأنّها مَوْضِعُ بيت الله الحرام، ثم ماتت هاجَرُ وإسْماعِيلُ ابنُ عِشْرِينَ سَنةً، وقبرُها في الحِجْر، وثَمَّ قبرُ إسماعيل عليه السلام، وكانَ الحِجْرُ قَبْلَ بِناءِ البَيْتِ زَرْبًا[٦]

(١) في (ف): «المدهشم».
(٢) سقط من (ب).
(٣) أي: يشهق حتى كاد يُغشى عليه.
(٤) «قد» ليس في: (ف).
(٥) في (أ): غُواث، والغواث: الإغاثة، ويقال: أغاثه الله إغاثةً، وغاثه غوثًا وغياثًا.
(٦) الزَّرْب ـ بفتح الزاي وكسرها ـ: حظيرة الغنم.

لِغَنَمِ إسْماعِيلَ عليه السلام. ويُقالُ: إنّ أوّلَ بَلَدٍ مِيرَتْ[١] مِنْهُ أُمُّ إسْماعِيلَ وابنُها التّمْرَ: القَرْيةُ الّتِي تُعْرَفُ بالفُرْعِ[٢] مِنْ ناحِيةِ المَدِينةِ، واللهُ أعْلَمُ.

أمْرُ جُرْهُمٍ ودَفْنِ زَمْزَمَ

[وُلاةُ البَيْتِ]

قالَ ابنُ هِشامٍ: وكانَ مِنْ حَدِيثِ جُرْهُمٍ، ودَفْنِها زَمْزَمَ، وخُرُوجِها مِنْ مَكّةَ ومَنْ ولِيَ أمْرَ مَكّةَ بَعْدَها إلى أنْ حَفَرَ عَبْدُ المُطّلِبِ زَمْزَمَ: ما حَدّثَنا بِهِ زِيادُ بنُ عَبْدِ اللهِ البَكّائِيُّ، عَنْ مُحَمَّدِ بنِ إسْحاقَ المُطّلِبِيِّ، قالَ:

لَمّا تُوُفِّي إسْماعِيلُ بنُ إبْراهِيمَ ولِيَ البَيْتَ بَعْدَهُ ابنُهُ نابِتُ بنُ إسْماعِيلَ ما شاءَ اللهُ أنْ يَلِيَهُ، ثُمَّ ولِيَ البَيْتَ بَعْدَهُ مُضاضُ بنُ عَمْرٍو الجُرْهُمِيُّ.

فَصْلٌ

وذَكَرَ نُزُولَ جُرْهُمٍ وقَطُوراءَ على أُمّ إسْماعِيلَ. وجُرْهُمُ[٣]: هُوَ ابنُ قَحْطانَ ابنِ عابِرِ بنِ شالِخَ بنِ أرْفَخْشَذَ[٤] بنِ سامِ بنِ نُوحٍ، ويُقالُ: جُرْهُمُ بنُ عابِرٍ، وقَدْ قِيلَ: إنّهُ كانَ مَعَ نُوحٍ عَلَيْهِ السّلامُ في السّفينةِ، وذَلِكَ أنّهُ مِنْ وَلَدِ ولَدِهِ، وهُمْ

(١) مار أهله يميرهم ميرًا: أعدّ لهم الميرة ـ وهو الطعام ـ وجلبه لهم من القرى إلى البادية.

(٢) نقل ياقوت في «معجمه» عن السهيلي أنه بضمتين، وما ذكره هنا من أنه أول قرية مارث إسماعيل وأمه. وذكر ياقوت أنّ بينها وبين المدينة أربع ليالٍ.

(٣) انظر في هذا: «النسب المنمق» لابن حبيب: (ص: ٢٠)، و«المعارف» لابن قتيبة: (ص: ٢٧).

(٤) في (ف): «أرفخشد».

مِن العَرَبِ العارِبةِ، ومِنْهُمْ تَعَلَّمَ إسْماعِيلُ العَرَبيّةَ. وَقِيلَ: إنّ اللهَ أَنْطَقَهُ بِها إنْطاقًا وهُوَ ابنُ أرْبَعَ عَشْرةَ سَنةً.

وَأمّا قَطُوراء فهُوَ قَطُوراء بنُ كَرْكَرَ.

وأمّا السّمَيْدَعُ [الّذِي ذَكَرَهُ فهُوَ السّمَيْدَعُ][1] بنُ هَوْثَرَ - بثاءٍ مُثَلّثةٍ، قَيّدَها البَكْرِيُّ[2] - بن لأي بنِ قَطُوراءَ بنِ كَرْكَرَ بنِ عِمْلاقٍ، ويُقالُ: إنّ الزّبّاءَ المَلِكةَ كانَتْ مِنْ ذُرّيّتِهِ، وهِيَ بِنْتُ عَمْرِو بنِ أُذَيْنةَ بنِ ظَرِبِ بنِ حَسّانَ، وبَيْنَ حَسّانَ وبَيْنَ السّمَيْدَعِ آباءٌ كَثِيرةٌ، ولا يَصِحُّ قَوْلُ مَنْ قالَ: إنّ حَسّانَ ابنُهُ لِصُلْبِهِ؛ لِبُعْدِ زَمَنِ الزّبّاءِ مِنْ زمانِ[3] السَّمَيْدَعِ، وقَدْ ذَكَرْنا[4] الِاخْتِلافَ في اسْمِها في غَيْرِ هَذا المَوْضِعِ.

وذَكَرَ الحارِثَ بنَ مُضاضٍ الأكْبَرَ، وهو ابنُ مضاض بنِ عمرو بن سعد بن الرقيب بن هَي بن نبت بن جُرْهُمٍ.

* * *

---

(١) سقط من (أ)، (ب).

(٢) «معجم ما استعجَم» لأبي عبيد البكري: (١: ٢٦). (ج)

(٣) في (ف): «زمن».

(٤) انظر: (١/ ١٨٥).

[جُرْهُمٌ وقَطُوراءُ، وما كانَ بَيْنَهُما]

قالَ ابنُ هِشامٍ: ويُقالُ: مُضاضُ بنُ عَمْرٍو الجُرْهُمِيُّ.

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وبَنُو إسْماعِيلَ وبَنُو نابِتٍ مَعَ جَدِّهِمْ مُضاضِ بنِ عَمْرٍو وَأَخْوالِهِمْ مِنْ جُرْهُمٍ. وجُرْهُمٌ وقَطُوراءُ يَوْمَئِذٍ أَهْلُ مَكَّةَ، وهُما ابنا عَمٍّ، وكانا ظَعَنا مِنَ اليَمَنِ، فأقْبَلا سَيّارةً، وعلى جُرْهُمٍ مُضاضُ بنُ عَمْرٍو، وعلى قَطُوراءَ السَّمَيْدَعُ، رَجُلٌ مِنْهُمْ. وكانُوا إذا خَرَجُوا مِنَ اليَمَنِ لَمْ يَخْرُجُوا إلّا ولَهُمْ مَلِكٌ يُقِيمُ أمْرَهُمْ. فلَمّا نَزَلا مَكّةَ رَأيا بَلَدًا ذا ماءٍ وشَجَرٍ، فأعْجَبَهُما فنَزَلا بِهِ، فنَزَلَ مُضاضُ بنُ عَمْرٍو بِمَنْ مَعَهُ مِنْ جُرْهُمٍ بِأعلى مَكّةَ بِقُعَيْقِعانَ فما حازَ، ونَزَلَ السَّمَيْدَعُ بِقَطُوراءَ، أَسْفَلَ مَكّةَ بِأجْيادٍ فما حازَ، فكانَ مُضاضٌ يَعشُرُ مَنْ دَخَلَ مَكّةَ مِنْ أعْلاها، وكانَ السَّمَيْدَعُ يَعْشُرُ مَنْ دَخَلَ مَكّةَ مِنْ أسْفَلِها، وكُلٌّ في قَوْمِهِ لا يَدْخُلُ واحِدٌ مِنْهُما على صاحِبِهِ. ثُمَّ إنَّ جُرْهُمًا وقَطُوراءَ بَغى بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ، وتَنافَسُوا المُلْكَ بِها، ومَعَ مُضاضٍ يَوْمَئِذٍ بَنُو إسْماعِيلَ وبَنُو نابِتٍ، وإلَيْهِ وِلايةُ البَيْتِ دُونَ السَّمَيْدَعِ، فسارَ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ، فخَرَجَ مُضاضُ بنُ عَمْرٍو مِنْ قُعَيْقِعانَ في كَتِيبَتِهِ سائِرًا إلى السَّمَيْدَعِ، ومَعَ كَتِيبَتِهِ عُدَّتُها مِنَ الرِّماحِ والدَّرَقِ والسُّيُوفِ والجِعابِ، يُقَعْقِعُ بِذلك مَعَهُ، فيقالُ: ما سُمِّيَ قُعَيْقِعانُ بِقُعَيْقِعانَ إلّا لِذلك. وخَرَجَ السَّمَيْدَعُ مِنْ أجْيادٍ ومَعَهُ الخَيْلُ والرِّجالُ، فيقالُ: ما سُمِّيَ أجْيادٌ أجيادًا إلّا لِخُرُوجِ الجِيادِ مِن الخَيْلِ مَعَ السَّمَيْدَعِ مِنْهُ. فالتَقَوْا بِفاضِحٍ، واقْتَتَلُوا قِتالًا

شَدِيدًا، فقُتِلَ السَّمَيْدَعُ، وفُضِحَتْ قَطُوراءُ. فيقالُ: ما سُمِّيَ فاضِحُ فاضِحًا إلّا لِذلك. ثُمَّ إنَّ القَوْمَ تَداعَوْا إلى الصُّلْحِ، فسارُوا حَتّى نَزَلُوا المَطابِخَ ـ شِعْبًا بِأعلى مَكّةَ ـ واصْطَلَحُوا بِهِ، وأسْلَمُوا الأمْرَ إلى مُضاضٍ. فلَمّا جُمِعَ إلَيْهِ أمْرُ مَكّةَ فصارَ مُلْكُها لَهُ، نَحَرَ لِلنّاسِ فأطْعَمَهُمْ، فاطّبخ النّاس وأكلوا، فيقالُ: ما سُمِّيَت المَطابِخُ المَطابِخَ إلّا لِذلك. وبَعْضُ أهْلِ العِلْمِ يَزْعُمُ أنَّها إنَّما سُمِّيَت: المَطابِخَ، لِما كانَ تُبَّعٌ نَحَرَ بِها وأطْعَمَ، وكانَتْ مَنْزِلَهُ. فكانَ الَّذي كانَ بَيْنَ مُضاضٍ والسَّمَيْدَعِ أوّلَ بَغْيٍ كانَ بِمَكّةَ فيما يَزْعُمُونَ.

[أوْلادُ إسْماعِيلَ وجُرْهُمٍ بِمَكّةَ]

ثُمَّ نَشَرَ الله ولَدَ إسْماعِيلَ بِمَكّةَ، وأخْوالُهُمْ مِنْ جُرْهُمٍ وُلاةُ البَيْتِ والحُكّامُ بِمَكّةَ، لا يُنازِعُهُمْ ولَدُ إسْماعِيلَ في ذلك؛ لِخُؤولَتِهِم وقَرابَتِهِمْ، وإعْظامًا لِلْحُرْمةِ أنْ يَكُونَ بِها بَغْيٌ أوْ قِتالٌ، فلَمّا ضاقَتْ مَكّةُ على ولَدِ إسْماعِيلَ انْتَشَرُوا في البِلادِ، فلا يُناوِئُونَ قَوْمًا إلّا أظْهَرَهُم الله عَلَيْهِمْ بِدِينِهِمْ فوَطِئُوهُمْ.

فصْلٌ

وذَكَرَ وِلايةَ جُرْهُمٍ البَيْتَ الحَرامَ دُونَ بَنِي إسْماعِيلَ إلى أنْ بَغَوْا في الحَرَمِ، وكانَ أوّلَ بَغْيٍ في الحَرَمِ ما ذَكَرَهُ مِنْ حَرْبِ جُرْهُمٍ لِقَطُوراء.

وَأمّا أجْيادٌ فلَمْ تُسَمَّ بأجْيادٍ مِنْ أجْلِ جِيادِ الخَيْلِ كما ذَكَرَ؛ لِأنّ جِيادَ الخَيْلِ لا يُقالُ فيها: أجيادٌ، وإنما أجيادٌ: جمعُ جِيدٍ[١].

---

(١) ذكر ياقوت في «معجمه» (أجياد) تعقيبًا على كلام السهيلي: «وقد قدمنا أن الجوهري حكى =

وَذَكَرَ أَصْحابُ الخبرِ أنّ مُضاضًا ضَرَبَ في ذَلِكَ المَوْضِعِ أَجْيادَ مئة رَجُلٍ مِن العَمالِقةِ، فسُمّيَ المَوْضِعُ بِأجْياد، وهَكَذا ذَكَرَ ابنُ هِشامٍ في غَيْرِ هَذا الكِتابِ.

ومِنْ شِعْبِ أجْيادٍ تَخْرُجُ دابّةُ الأرْضِ الّتِي[١] تُكَلِّمُ النّاسَ قَبْلَ يَوْمِ القِيامةِ، كَذَلِكَ رُوِيَ عَنْ صالِحٍ مَوْلى التّوْأمةِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بن عَمْرِو بنِ العاصِ.

وذَكَرَ غَيْرُهُ في «أخْبارِ مَكّةَ» أنّ قُعَيْقِعانَ سُمّيَ بِهَذا الِاسْمِ حِينَ نَزَلَ تُبَّعٌ مَكّةَ، ونَحَرَ عِنْدَها وأطْعَمَ، ووَضَعَ سِلاحَهُ وأسْلِحةَ جُنْدِهِ بِهَذا المَكانِ، فَسُمِّيَ قُعَيْقِعانَ بِقَعْقَعةِ السّلاحِ فيهِ، واللهُ[٢] أعْلَمُ.

* * *

= أن العرب تجمع الجواد من الخيل على أجياد، ولا شك أن ذلك لم يبلغ السهيلي، فأنكره».
وفي «الصحاح»: «وجاد الفرسُ؛ أي: صارَ رائعًا، يجود جُودةً، فهو جواد، للذكر والأنثى، من خيل جيادٍ وأجيادٍ وأجاويد».

(١) «التي» ليس في: (ف).

(٢) في (ف): «فالله».

اسْتِيلاءُ قَوْمِ كِنانةَ وخُزاعةَ على البَيْت ونفي جُرْهُمٍ

[بَغْيُ جُرْهُمٍ بِمَكّةَ وطَرْدُ بَنِي بَكْرٍ لَهُمْ]

ثُمَّ إنَّ جُرْهُمًا بَغَوْا بِمَكّةَ، واسْتَحَلُّوا خِلالًا مِن الحُرْمةِ، فظَلَمُوا مَنْ دَخَلَها مِنْ غَيْرِ أهْلِها، وأكَلُوا مالَ الكَعْبةِ الَّذي يُهْدى لَهَا، فرَقَّ أمْرُهُمْ، فلَمّا رَأتْ بَنُو بَكْرِ بن عَبْدِ مَناةَ بنِ كِنانةَ، وغُبْشانُ مِنْ خُزاعةَ ذلك، أجْمَعُوا لِحَرْبِهِمْ وإخْراجِهِم مِنْ مَكّةَ، فآذَنُوهُمْ بِالحَرْبِ فاقْتَتَلُوا، فغَلَبَتْهُمْ بَنُو بَكْرٍ وغُبْشانُ فنَفَوْهُمْ مِنْ مَكّةَ، وكانَتْ مَكّةُ في الجاهِلِيّةِ لا تُقِرُّ فيها ظُلْمًا ولا بَغْيًا، ولا يَبْغِي فيها أحَدٌ إلّا أخرَجَتْهُ، فكانَتْ تُسَمّى: النّاسّةَ، ولا يُرِيدُها مَلِكٌ يَسْتَحِلُّ حُرْمَتَها إلّا هَلَكَ مَكانَهُ، فيقالُ: إنَّها ما سُمِّيَتْ بِبَكّةِ إلّا أنَّها كانَتْ تَبُكُّ أعْناقَ الجَبابِرةِ إذا أحْدَثُوا فيها شَيْئًا.

[بَكّةُ لُغةً]

قالَ ابنُ هِشامٍ: أخْبَرَنِي أبو عُبَيْدةَ: أنَّ بَكّةَ اسْمٌ لِبَطْنِ مَكّةَ؛ لِأنَّهُمْ يَتَباكُّونَ فيها، أيْ: يَزْدَحِمُونَ. وأنْشَدَنِي:

إذا الشَّرِيبُ أخَذَتْهُ أكَّهْ ... فخَلِّـهِ حَتّى يَبُـكَّ بَكَّهْ

أيْ فدَعْهُ حَتّى يَبُكَّ إبِلَهُ، أيْ: يُخَلِّيَها إلى الماءِ فتَزْدَحِمَ عَلَيْهِ، وهُوَ مَوْضِعُ البَيْتِ والمَسْجِدِ، وهذانِ البَيْتانِ لِعامانَ بنِ كَعْبِ بنِ عَمْرِو بنِ سَعْدِ بنِ زَيْدِ مَناةَ بنِ تَمِيمٍ.

قالَ ابنُ إسْحاقَ: فخَرَجَ عَمْرُو بنُ الحارِثِ بنِ مُضاضٍ الجُرْهُمِيُّ بِغَزالَيِ الكَعْبةِ وبِحَجَرِ الرُّكْنِ، فدَفَنَها في زَمْزَمَ، وانْطَلَقَ هُوَ ومَنْ مَعَهُ مِنْ جُرْهُمٍ إلى اليَمَنِ، فحَزِنُوا على ما فارَقُوا مِنْ أمْرِ مَكّةَ ومُلْكِها حُزْنًا شَدِيدًا. فقالَ عَمْرُو بنُ الحارِثِ بنِ عَمْرِو بنِ مُضاضٍ في ذلك ـ ولَيْسَ بِمُضاضٍ الأكْبَرِ ـ:

وَقائِلَـةٍ والدَّمْـعُ سَـكْبٌ مُبادِرُ ... وقَدْ شَرِقَتْ بِالدَّمْعِ مِنْها المَحاجِرُ
كَأنَّ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الحَجُونِ إلى الصَّفا ... أنِيـسٌ ولَمْ يَسْـمُرْ بِمَكّةَ سـامِرُ
فَقُلْتُ لَهَـا والقَلْبُ مِـنِّي كَأنَّما ... يُلَجْلِجُـهُ بَـيْنَ الجَناحَـيْنِ طائِرُ
بَـلى نَحْـنُ كُنّـا أهْلَهـا فأزالَنا ... صُرُوفُ اللَّيالِي والجُـدُودُ العَواثِرُ
وَكُنّـا وُلاةَ البَيْتِ مِـنْ بَعْدِ نابِتٍ ... نَطُوفُ بِـذاكَ البَيْتِ والخَيْرُ ظاهِرُ
وَنَحْنُ ولِينا البَيْـتَ مِنْ بَعْدِ نابِتٍ ... بِعِزٍّ فمـا يَحْظـى لَدَيْنـا المُكاثِرُ
مَلَكْنـا فعُزِّزْنا فأعْظِـمْ بِمُلْكِنا ... فلَيْـسَ لِـحَيٍّ غَيْرِنا ثَـمَّ فاخِرُ
ألَمْ تُنْكِحُوا مِنْ خَيْرِ شخص عَلمته ... فأبنـاوه مِنّـا ونَحْـنُ الأصاهِـرُ
فَـإنْ تَنْثَنِ الدُّنْيـا عَلَيْنـا بِحالِها ... فَـإنَّ لَها حـالًا وفيها التَّشـاجُرُ
فَأخْرَجَنـا مِنْهـا المَلِيـكُ بِقُدْرةٍ ... كَذلك يـا لَلنّاسِ تَجْـرِي المَقادِرُ
أقُـولُ إذا نـامَ الخَـلِيُّ ولَـمْ أنَمْ ... أذا العَرْشِ لا يَبْعَدْ سُـهَيْلٌ وعامِرٌ
وَبُدِّلْـتُ مِنْهـا أوْجُهًـا لا أُحِبُّها ... قَبائِـلُ مِنْهـا حِمْـيَرٌ ويُحابِـرُ
وَصِرْنـا أحادِيثًـا وكُنّـا بِغِبْطـةٍ ... بِذلك عَضَّتْنـا السِّـنُونَ الغَوابِرُ
فَسَـحَّتْ دُمُوعُ العَيْنِ تَبْكِي لِبَلْدةٍ ... بِهـا حَرَمٌ أمْـنٌ وفيها المَشـاعِرُ
وَتَبْـكِي لِبَيْتٍ لَيْسَ يُـوذى حَمامُهُ ... يَظَـلُّ بِـهِ أمْنًـا وفيـهِ العَصافِرُ
وَفيـهِ وُحُـوشٌ لا تُـرامُ أنِيسـةٌ ... إذا خَرَجَـتْ مِنْهُ فلَيْسَـتْ تُغادِرُ

قالَ ابنُ هِشامٍ: قَوْلُهُ: «فَأبناؤُهُ منا» عَنْ غَيْرِ ابنِ إسْحاقَ.

فصلٌ

وذَكَرَ اسْتِحْلالَ جُرْهُمٍ لِحُرْمَةِ الكَعْبَةِ، فمِنْ ذَلِكَ أنّ إبْراهِيمَ عَلَيْهِ السّلامُ كانَ احْتَفَرَ بِئْرًا قَرِيبَةَ القَعْرِ عِنْدَ بابِ الكَعْبَةِ، كانَ يُلْقى فيها ما يُهْدى إلَيْها، فلَمّا فسَدَ أمْرُ جُرْهُمٍ سَرَقُوا مالَ الكَعْبَةِ مَرّةً بَعْدَ مَرّةٍ، فيُذْكَرُ أنّ رَجُلًا مِنْهُمْ دَخَلَ البِئْرَ لِيَسْرِقَ مالَ الكَعْبةِ، فسَقَطَ عَلَيْهِ حَجَرٌ مِنْ شَفيرِ البِئْرِ فحَبَسَهُ فيها، ثُمّ أُرْسِلَتْ على البِئْرِ حَيّةٌ لَها رَأْسٌ كَرَأْسِ الجَدْيِ، سَوْداءُ المَتْنِ، بَيْضاءُ البَطْنِ، فكانَتْ تُهَيّبُ مَنْ دَنا مِنْ بِئْرِ الكَعْبَةِ، وقامَتْ[1] في البِئْرِ ـ فيما ذَكَرُوا ـ نَحْوًا مِنْ خَمْسِ مئة عامٍ، وسَنَذْكُرُ قِصّةَ رَفْعِها عِنْدَ بُنْيانِ[2] الكَعْبَةِ إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

فصلٌ

فلَمّا كانَ مِنْ بَغْيِ[3] جُرْهُمٍ ما كانَ، وافَقَ تَفَرُّقَ سَبَإٍ مِنْ أجْلِ سَيْلِ العَرِمِ، ونُـزُولَ حارِثَـةَ بنِ ثَعْلَبَةَ بنِ عَمْـرِو بنِ عامِـرٍ أرْضَ مَكّةَ، وذَلِكَ بِأمْرِ طَرِيفَةَ الكاهِنَةِ، وهِيَ امْرَأةُ عَمْرِو بنِ[4] مُزَيْقِيا، وهِيَ مِنْ حِمْيَرَ، وبأمْرِ عِمْرانَ بن عامِرٍ، أخِي عَمْرٍو، وكانَ كاهِنًا أيْضًا، فنَزَلَها هُوَ وقَوْمُهُ، فاسْتَأْذَنُوا جُرْهُمًا أنْ يُقيمُوا بِها أيّامًا حَتّى يُرْسِلُوا الرُّوّادَ، ويَرْتادُوا مَنْزِلًا حَيْثُ رَأوْا مِن البِلادِ، فأبَتْ عَلَيْهِمْ جُرْهُمٌ وأغْضَبُوهُمْ، حَتّى أقْسَمَ حارِثَةُ ألّا يَبْرَحَ مَكّةَ إلّا عَنْ قِتالٍ وغَلَبةٍ، فحارَبَتْهُمْ جُرْهُمٌ، فكانَت الدّوْلَةُ لِبَنِي حارِثَةَ عَلَيْهِمْ، واعْتَزَلَتْ بَنُو إسْماعِيلَ،

---

(١) في (ف): «وأقامت».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» عند الآية ٨٢ من سورة النمل: (٦: ٢٦٤١).

(٣) في (ب): «من أمر جرهم».

(٤) «بن» ليس في: (ف).

فَلَمْ تكُنْ مَعَ أَحَدٍ مِن الفَرِيقَيْنِ، فعِنْدَ ذَلِكَ مَلَكَتْ خُزاعةُ ـ وهُمْ بَنُو حارِثَة ـ مَكَّةَ، وصارَتْ وِلايةُ البَيْتِ لَهُمْ.

وكانَ رَئِيسُهُمْ عَمْرَو بنَ لُحَيّ الّذِي تَقَدّمَ ذِكْرُهُ قَبْلُ، فشَرّدَ بَقِيّةَ[١] جُرْهُمٍ، فسارَ فَلُّهُمْ[٢] في البِلادِ، وسُلّطَ عَلَيْهِم الذَّرُّ[٣] والرُّعافُ، وأهْلَكَ بَقِيّتَهُم السّيْلُ بِإضَمَ، حَتّى كانَ آخِرَهُمْ مَوْتًا امْرَأَةٌ رُئِيَتْ تَطُوفُ بِالبَيْتِ بَعْدَ خُرُوجِهِمْ مِنْها بزَمانٍ، فعَجِبُوا مِنْ طُولِها وعِظَمِ خِلْقَتِها[٤]، حَتّى قالَ لَها قائِلٌ: أجِنّيّةٌ أمْ إنْسِيّةٌ؟! فقالَتْ: بَلْ إنْسِيّةٌ مِنْ جُرْهُمٍ، وأنْشَدَتْ رَجَزًا في مَعْنى حَدِيثِهِمْ، واسْتَكْرَتْ بَعِيرًا مِنْ رَجُلَيْنِ مِنْ جُهَيْنَةَ، فاحْتَمَلاها على البَعِيرِ إلى أرْضِ خَيْبَر. فلَمّا أنْزَلاها بِالمَنْزِلِ الّذِي رَسَمَتْ لَهُما، سَألاها عَن الماءِ، فأشارَتْ لَهُما إلى مَوْضِعِ الماءِ، فوَلَّيا عَنْها، وإذا الذّرّ قَدْ تَعَلّقَ بِها، حَتّى بَلَغَ خَياشِيمَها وعَيْنَيْها، وهِيَ تُنادِي بِالوَيْلِ [والثُّبُورِ][٥] حَتّى دَخَلَ الذَّرُّ حَلْقَها، وسَقَطَتْ لِوَجْهِها، وذَهَبَ الجُهَنِيّانِ إلى الماءِ، فاسْتَوْطَناهُ، فمِنْ هُنالِكَ صارَ مَوْضِعَ جُهَيْنَةَ بِالحِجازِ وقُرْبَ المَدِينَةِ، وإنّما هُمْ مِنْ قُضاعةَ، وقُضاعةُ: من ريف العراق.

فصْلٌ

رَجْعُ الحَدِيثِ: وكانَ الحارِثُ [بنُ مُضاضٍ][٦] بن عمرو بن سعد بن

---

(١) «بقية» ليس في: (ف).

(٢) أي: ما انهزم منهم.

(٣) الذرّ: النمل الأحمر الصغير، وعضة الذرّة تقتل. والرعاف: الدم يخرج من الأنف.

(٤) في (ف): «خلقها».

(٥) سقط من (أ).

(٦) سقط من (ب)، (ج)، (هـ).

الرقيب بن هي بنِ نَبْتِ بنِ جُرْهُمٍ الجُرْهُمِيّ قَدْ نَـزَلَ بِقَنَوْنى[١] مِنْ أَرْضِ الحِجازِ، فضَلّتْ لَهُ إبِلٌ، فبَغاها حَتّى أتى الحَرَمَ، فأرادَ دُخولَهُ لِيَأْخُذَ إبِلَهُ، فنادى عَمْرُو بنُ لُحَيّ: مَنْ وجَدَ جُرْهُمِيًّا فلَمْ يَقْتُلْهُ، قَطَعْتُ يَدَهُ. فسَمِعَ بِذَلِكَ الحارِثُ، وأشْرَفَ على جَبَلٍ مِنْ جِبالِ مَكّةَ، فرَأى إبِلَهُ تُنْحَرُ، ويُتَوَزّعُ[٢] لَحْمُها، فانْصَرَفَ بائِسًا خائِفًا ذَلِيلًا، وأبْعَدَ في الأرْضِ، وهِيَ غُرْبةُ الحارِثِ بنِ مُضاضٍ الّتِي يُضْرَبُ بِها المَثَلُ، حَتّى قالَ الطّائِيّ[٣]: [من الخفيف]

غُرْبـةٌ تَقْتَـدِي بِغُرْبَـةِ قَيْسِ بْـ ـنِ زُهَيْرٍ والحارِثِ بنِ مُضاضِ

وَحِينَئِذٍ قال الحارث الشِّعر الذى رسمه ابن إسحاق، وهو قوله:

كَأنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الحَجُونِ إلى الصّفا... الشّعْرَ، وفيهِ: [من الطويل]

وَنَبْكِي لِبَيْتٍ لَيْسَ يُؤْذى[٤] حَمامُهُ تَظَـلُّ بِـهِ أمْنًـا وفيـهِ العَصافِـرُ

أرادَ: العَصافيرُ، وحَذَفَ الياءَ ضَرُورةً، ورَفَعَ «العَصافيرَ» على المَعْنى، أيْ: وَتَأْمَنُ فيهِ العَصافيرُ، وتَظَلُّ بِهِ أمْنًا، أيْ: ذاتَ أمْنٍ، ويَجُوزُ أنْ يَكُون «أمْنًا» جَمْعَ آمِنٍ، مِثْلُ: رَكْبٍ وراكِبٍ، وفيهِ:

ولَمْ يَسْـمُرْ بِمَكّةَ سامِرُ

السّامِرُ: اسْمٌ لجَماعةٍ يَتَحَدّثُونَ بِاللّيْلِ، وفي التّنْزِيلِ: ﴿ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٧].

---

(١) قَنَوْنى: من أودية السراة، والسراة: الجبال والأرض الحاجزة بين تِهامة واليمن، يصب إلى البحر في أوائل أرض اليمن من جهة مكة.

(٢) أي: يَتَقَسَّمونه بينهم.

(٣) «ديوان أبي تمام» بشرح التبريزي: (٢: ٣٠٩). (ج)

(٤) في (ف): «تؤذى».

والحَجُونُ ـ بفَتْحِ الحاءِ ـ على فرْسَخٍ وثُلُثٍ مِنْ مَكّةَ، قالَ الحُمَيْدِيُّ: كانَ سُفْيانُ رُبّما أنْشَدَ هَذا الشّعْرَ، فزادَ فيهِ بَعْدَ قَوْلِهِ: «فلَيْسَتْ تُغادِرُ» [من الطويل]

وَلَــــمْ يَتَرَبّعْ واسِـــطًا وجَنُوبَهُ إلى السّــرّ مِنْ وادِي الأراكةِ حاضِرُ
وَأبْدَلَنــــا رَبِّـــي بِهـــا دارَ غُرْبةٍ بِها الجُوعُ بادٍ، والعَدُوُّ المُحاصِرُ[1]

قالَ الحُمَيْدِيّ: واسِطٌ: الجَبَلُ الّذِي يَجْلِسُ عِنْدَهُ المَساكِينُ إذا ذَهَبْتَ إلى مِنًى.

وقَوْلُهُ فيهِ: «لا يَبْعَدْ سُهَيْلٌ وعامِرُ»؛ عامِرٌ: جَبَلٌ[2] مِنْ جِبالِ مَكّةَ، يَدُلّ على ذَلِكَ قَوْلُ بِلالٍ[3]: [من الطويل]

وهَلْ يَبْدُوَنْ لِي عامِرٌ وطَفيلُ؟

على رِوايةِ مَنْ رَواهُ هَكَذا.

وجُرْهُمٌ هَذا هُوَ الّذِي تَتَحَدّثُ به[4] العَرَبُ في أكاذِيبِها، وكانَ مِنْ خُرافاتِها في الجاهِلِيّةِ أنّ جُرْهُمًا ابنٌ لِمَلَكٍ أُهْبِطَ مِن السّماءِ لِذَنْبٍ أصابَهُ، فغُضِبَ عَلَيْهِ

---

(١) في (ف): «المخاصم».

(٢) ذكر ذلك ياقوت في «معجم البلدان» في «عامر» عن السهيلي وحده.

(٣) الرواية الأشهر: «شامة وطفيل». وبلال: هو ابن رباح رضي الله عنه، وأخرج الحديث البخاري: كتاب فضائل المدينة، باب كراهية النبي ﷺ أن تَعْرى المدينة، رقم (١٨٨٩) من حديث عائشة رضي الله عنه، قالت: وكان بلال إذا أقلع عنه الحمى يرفع عَقيرته يقول:

ألا لَيْــتَ شِــعْرِي هل أبيتَــنَّ لَيلةً بِــوادٍ وحَولِــي إذْخِــرٌ وجَلِيــلُ؟
وَهَــلْ أَرِدَنْ يَوْمًــا مِيــاهَ مَجَنّــةٍ؟ وَهَلْ يَبْدُوَنْ لِي شَامَةٌ وطَفِيلُ؟ (ج)

(٤) «بها» ليست في: (ف).

مِنْ أجْلِهِ، كَما أُهْبِطَ هارُوتُ ومارُوتُ، ثُمّ أُلْقِيَتْ فيهِ الشّهْوةُ، فتَزَوّجَ امْرَأةً، فوَلَدَتْ لَهُ جُرْهُمًا، قال[١] قائلُهم[٢]: [من الرجز]

لاهُمّ إنّ جُرْهُمًا عِبادُكا النّاسُ طِرْفٌ وهُمُ تِلادُكا

مِنْ كِتابِ «الأمْثالِ» للأصبهاني.

فصْلٌ

وذَكَرَ مَكّةَ وبَكّةَ، فقَدْ قِيلَ في بَكّةَ ما ذَكَرَهُ مِنْ أنّها تَبُكُّ [أعناقَ][٣] الجَبابِرةِ، أيْ: تكْسِرُهُمْ وتَقْدَعُهُمْ. وقِيلَ: مِن التّباكِّ، وهُوَ: الِازْدِحامُ[٤]. ومَكّةُ مِنْ تَمَكّكْتُ العَظْمَ: إذا اجْتَذَبْتَ ما فيهِ مِن المُخّ، وتَمَكّكَ الفَصِيلُ ما في ضَرْعِ النّاقةِ. فكَأنّها تَجْتَذِبُ إلى نَفْسِها ما في البِلادِ مِن النّاسِ والأقْواتِ الّتِي تَأْتِيها في المَواسِمِ، وقِيلَ: لَمّا كانَتْ في بَطْنِ وادٍ، فهِيَ تُمَكّكُ الماءَ مِنْ جِبالِها وأخاشِبِها عِنْدَ نُزُولِ المَطَرِ، وتَنْجَذِبُ إلَيْها السّيُولُ، وأمّا قَوْلُ الرّاجِزِ الّذِي أنْشَدَهُ ابنُ هِشامٍ[٥]: [من الرجز]

إذا الشَّرِيبُ أخَذَتْهُ أكَّهْ فخَلِّهِ حَتّى يَبُكَّ بَكَّهْ

(١) في (ف): «وقال».

(٢) في «المناقب المزيدية في أخبار الملوك الأسدية» (ص: ٣٠٧) أن البيت لمضاض بن عمرو بن الحارث بن عمرو بن مضاض، وكان سيد جُرهم. (ج)

(٣) عن (أ)، (د).

(٤) يقال: تباكّ القوم: ازدحموا.

(٥) الرجز في «نوادر أبي زيد» (٣٨٥) غير منسوب. وهو في «الأضداد» لأبي الطيب اللغوي: (١: ٧١)، و«الجمهرة» لابن دريد: (١: ١٩) منسوبًا لعامان بن كعب التميمي، شاعر جاهلي. وانظر: «الخزانة» (١: ٣٦)، و«التاج» و«اللسان» (أكك).

فالأَكَّةُ: الشِّدّةُ، وإكاكُ الدّهْرِ: شدائده.

وَذَكَرَ أَنّهُ كانَ يُقالُ لَها: النّاسّةُ، وهُوَ مِنْ نَسَسْتُ الشّيْءَ: إذا أذْهَبْتَهُ، والرّوايةُ في «الكِتابِ» بِالنّونِ. وذَكَرَ الخَطّابِيُّ[1] أَنّهُ يُقالُ لَها: الباسّةُ أيْضًا بِالباءِ، وهُوَ مِنْ ﴿ بُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴾ [الواقعة: ٥]؛ أيْ: فُتِّتَتْ وثُرِّيَتْ كَما يُثَرّى السّوِيقُ، قالَ الراجز[2]: [من الرجز]

لا تَخْبِزا خَبْزًا وبُسّا بسّا

يَقُولُ: لا تَشْتَغِلا بِالخَبْزِ، وثَرِّيا[3] الدّقِيقَ والتَقِماهُ. يُقالُ: إنّ هَذا البَيْتَ لِلِصٍّ أعْجَلَهُ الهَرَبُ.

وَذَكَرَ أَبُو عُبَيْدٍ أَنّ الخَبْزَ: شِدَّةُ السَّوْقِ، والْبَسّ: أَلْيَنُ منه. وبعده: [من الرجز]

ما تَرَكَ السَّيْرُ لَهُنَّ بَسّا

وَمِنْ أَسْماءِ مَكّةَ أَيْضًا: الرَّأْسُ، وصَلاحِ[4]، وأُمّ رُحْمٍ[5]، وكُوثى، وأمّا الّتِي يَخْرُجُ مِنْها الدّجّالُ فهِيَ كُوثى رَبّا، ومِنْها كانَتْ أُمّ إبْراهِيمَ عَلَيْهِ السّلامُ، وقَدْ تَقَدّمَ اسْمُها[6]، وأبُوها هُوَ الّذِي احْتَفَرَ نَهْرَ كُوثى، قالَهُ الطّبَرِيّ[7].

---

(١) «غريب الحديث» له: (٣: ٧١).

(٢) «الرجز في معجم الشعراء» للمرزباني: (ص: ٤٩٢) منسوب إلى الهفوان العقيلي، ويراجع تعليقه في «النوادر» لأبي زيد: (ص: ٦١).

(٣) ثرّى السَّوِيق: بلّه. «تاج العروس» (٣٧: ٢٧٣) (ثرى). (ج)

(٤) في «اللسان»: «صلاحِ وصلاحٌ من أسماء مكة، شرّفها الله تعالى»؛ أي: أنها رُويت بروايتَين، بالبناء على الكسر، وبالإعراب. وعلى ذلك شواهد انظرها في: «اللسان» (صلح).

(٥) يقال: أم رُحْم وأمّ الرُّحْم.

(٦) انظر: (١/ ١٣٩).

(٧) «تاريخ الرسل والملوك» (١: ٣١٠). (ج)

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وقالَ عَمْرُو بنُ الحارِثِ أيْضًا يَذْكُرُ بَكْرًا وغُبْشانَ، وساكِنِي مَكّةَ الَّذينَ خَلَفُوا فيها بَعْدَهُمْ:

يا أيُّها النّاسُ سِيرُوا إنَّ قَصْرَكُمُ أنْ تُصْبِحُوا ذاتَ يَوْمٍ لا تَسِيرُونا
حُثُّوا المَطِيَّ وأرْخُوا مِنْ أزِمَّتِها قَبْلَ المَماتِ وقَضُّوا ما تُقَضُّونا
كُنّا أُناسًا كَما كُنْتُمْ فغَيَّرَنا دَهْرٌ فأنْتُمْ كَما كُنّا تَكُونُونا

قالَ ابنُ هِشامٍ: هذا ما صَحَّ لَهُ مِنْها. وحَدَّثَنِي بَعْضُ أهْلِ العِلْمِ بِالشِّعْرِ: أنَّ هَذِهِ الأبْياتَ أوَّلُ شِعْرٍ قِيلَ في العَرَبِ، وأنَّها وُجِدَتْ مَكْتُوبَةً في حَجَرٍ بِاليَمَنِ، ولَمْ يُسَمَّ لِي قائِلَها.

اسْتِبْدادُ قَوْمٍ مِنْ خُزاعةَ بِوِلايةِ البَيْتِ

قالَ ابنُ إسْحاقَ: ثُمَّ إنَّ غُبْشانَ مِنْ خُزاعةَ ولِيَت البَيْتَ دُونَ بَنِي بَكْرِ بنِ عَبْدِ مَناةَ، وكانَ الَّذي يَلِيهِ مِنْهُمْ عَمْرُو بنُ الحارِثِ الغُبْشانِيُّ، وقُرَيْشٌ إذْ ذاكَ حُلُولٌ وصِرَمٌ، وبُيُوتاتٌ مُتَفَرِّقُونَ في قَوْمِهِمْ مِنْ بَنِي كِنانةَ، فوَلِيَتْ خُزاعةُ البَيْتَ يَتَوارَثُونَ ذلك كابِرًا عَنْ كابِرٍ، حَتّى كانَ آخِرَهُمْ حُلَيْلُ ابنُ حَبْشِيّةَ بنِ سَلُولَ بنِ كَعْبِ بنِ عَمْرٍو الخُزاعِيُّ.

قالَ ابنُ هِشامٍ: يُقالُ: حُبْشِيّةُ بنُ سَلُولَ.

[تَزَوُّجُ قُصَيِّ بنِ كِلابٍ حُبّى بِنْتَ حُلَيْلٍ]

فَصْلٌ

وذَكَرَ قَوْلَ الحارِثِ بنِ مُضاضٍ: [من البسيط]

يا أيّها النّاسُ سِيرُوا إنّ قَصْرَكُمُ ... أنْ تُصْبِحُوا ذاتَ يَوْمٍ لا تَسِيرُونا

وَذَكَرَ ابنُ هِشام أنّها وُجِدَتْ بِحَجَرٍ باليَمَنِ، ولا يُعْرَفُ قائِلُها، وأَلْفَيْتُ في كِتابِ أبِي بَحْرٍ سُفْيانَ بنِ العاصِي خَبَرًا لهذه الأبيات، وسَندهُ[1]: أبو الحارث مُحَمّدُ بنُ أحْمَدَ الجُعْفيّ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عَبْدِ السّلامِ البَصْرِيّ، [قالَ: أخبرنا إسْحاقُ بنُ إبْراهِيمَ بنِ سُلَيْمانَ التّمَّارُ، قالَ: أخْبَرَنِي ثِقةٌ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ أهْلِ اليَمامةِ، قالَ][2]: وُجِدَ في بِئْرٍ باليَمامةِ ثَلاثةُ أحْجارٍ، وهِيَ بئر طسم وجَدِيس، يُقالُ للقريةِ: مُعْنِقُ[3]، بَيْنَها وبَيْنَ الحِجْرِ مِيلٌ، وهُمْ بَقايا عادٍ، غَزاهُمْ تُبّعٌ، فقَتَلَهُمْ، فوَجَدُوا في حَجَرٍ مِن الثّلاثةِ الأحجارِ مكتوبًا: [من مجزوء الكامل]

يــا أيُّهــا المَلِــكُ الّذِي ... بِالمُلْــكِ ســاعَدَهُ زَمانُهْ

ما أنْــتَ أوَّلَ مَــنْ عَلا ... وعَلا شُؤُونَ النّاسِ شانُهْ

أقْصِــرْ عَلَيْــك مُراقِبًــا ... فالدّهْــرُ مَخْــذُولٌ أمانُهْ

كَمْ مِــنْ أشَــمَّ مُعَصَّبٍ ... بالتّاجِ مَرْهُــوبٍ مَكانُهْ

قَــدْ كانَ ســاعَدَهُ الزّما ... نُ وكانَ ذا خَفْضٍ جِنانُهْ

تَجْرِي الجَــداوِلُ حَوْلَهُ ... لِلْجُنْــدِ مُتْرَعــةً جِفانُهْ

قَــدْ فــاجَــأَتْــهُ مَنِيّــةٌ ... لَمْ يُنْجِــهِ مِنْهــا اكْتِنانُهْ

وَتَــفَــرّقَــتْ أجْـنــادُهُ ... عَنْــهُ ونــاحَ بِــهِ قِيانُــهْ

---

(١) في (أ): «وأسنده».

(٢) سقط من (أ).

(٣) انظر بعض خبرها في: «معجم البلدان»: مُعنق.

وَالدّهْـرُ مَـنْ يَعْلَـقْ بِهِ يَطْحَنْـهُ مُفْتَرِشًـا جِرانُهْ
وَالنّاسُ شَتّى في الهَوى كالمَـرْءِ مُخْتَلِـفٌ بَنانُهْ
[والصِّدْقُ أفْضَلُ شِيمةً والمَـرْءُ يَقْتُلُـهُ لِسـانُهْ
والصّمْتُ أسْـعَدُ لِلْفَتى ولَقَـدْ يُشَـرِّفُهُ بَيانُهْ](١)

وَوُجِدَ في الحَجَرِ الثّانِي مَكْتُوبًا أبْياتٌ:

كُـلُّ عَـيْشٍ تَـعِـلَّـةْ(٢) لَيْـسَ لِلدّهْـرِ خُلَّـةْ
يَـوْمُ بُـؤْسٍ ونعْمَةٍ واجْـتِـمـاعٍ وقِـلّـةْ
حُبّنـا العَيْـشَ والتَّكا ثُـرَ جَهْـلٌ وضَلَّـةْ
بَيْنَمـا المَـرْءُ ناعِـمٌ في قُصُـورٍ مُطِلَّـةْ(٣)
في ظِـلالٍ ونِعْمةٍ ساحِبًـا ذَيْـلَ حُلّـةْ
لا يَرى الشّمْسَ مِ الغَضا رَةِ إذْ زَلَّ زَلَّـةْ
لَـمْ يُقَلْهـا(٤) وبُدِّلَتْ عِـزّةُ المَـرْءِ ذِلَّـةْ
آفـةُ العَيْـشِ والنّعِـ ـيمِ كُـرُورُ الأهِلّـةْ
وَصْـلُ يَـوْمٍ ولَيْلةٍ(٥) واعْـتِـراضٌ بِـعِـلّـةْ
والمَنايـا حوائـمٌ(٦) كالصّقُـورِ المُدِلّـةْ

(١) سقط من (أ).
(٢) التَّعِلَّة: ما يُتعلَّل به ويُتلهّى.
(٣) كذا في (هـ). وفي غيرها: «مظلة». وأطلّ الشيء: علا وارتفع.
(٤) يقال: أقال الله فلانًا عثرته: صفح عنه.
(٥) في (ب): «بليله».
(٦) كذا في (ج)، وفي غيرها: «جوائم». وأدلّ الرجل على غيره: أخذه على غرَّةٍ، وكذلك يقال: أدل البازي على صيده.

بِالَّـذِي تَكْـرَهُ النُّـفُـ ـوسُ عَلَيْهـا مُظِلَّـةْ

وَفي الحَجَرِ الثَّالِثِ مَكْتُوبًا أبياتٌ: [من البسيط]

يا أيّها النّاسُ سِيرُوا إنّ قَصْرَكُمُ[1] أنْ تُصْبِحُوا ذاتَ يَوْمٍ لا تَسِيرُونا
حُثّوا المَطِيّ وأرْخُوا مِنْ أزِمّتِها قَبْلَ المَماتِ وقَضّوا ما تُقَضّونا
كُنّـا أُناسًـا كَمـا كُنْتُـمْ فغَيّرَنا دَهْـرٌ فأنْتُمْ كَمـا كُنّـا تكُونُونا

وَذَكَرَ أبُو الوَلِيدِ الأزْرَقِيّ في كِتابِهِ في «فضائِلِ مَكّةَ» زِيادةً في هَذِهِ الأبْياتِ، وهِيَ[2]: [من البسيط]

قَدْ مالَ دَهْـرٌ عَلَيْنا ثُمّ أهْلَكَنا بِالبَغْيِ فينا وندّ النّاسِ ناسُونا
إنّ التّفَكّرَ لا يُجْدِي بِصاحِبِهِ عِنْدَ البَدِيهَـةِ في عِلْمٍ لَهُ دُونا
قَضّوا أُمُورَكُمْ بِالحَزْمِ إنّ لَها أُمُورَ رُشْدٍ رَشَدْتُمْ ثَمّ مَسْنُونا
واسْتَخْبِرُوا في صَنِيعِ النّاسِ قَبْلَكُمُ كَما اسْتَبانَ طَرِيقٌ عِنْدَهُ الْهُونا
كُنّا زَمانًا مُلُوكَ النّاسِ قَبْلَكُمُ بِمَسْكَنٍ في حَرامِ اللهِ مَسْكُونا

وَوُجِدَ على حائِطِ قَصرٍ بِدِمَشْقَ لِبَنِي أُمَيّةَ مَكْتُوبًا: [من مجزوء الكامل]

يـا أيّهـا القَصْـرُ الـذي كانتْ تَحُفُّ بِـهِ المواكبْ
أيْـنَ المَواكِـبُ والمَضَـا رِبُ والنّجائِبُ والجَنائِبْ؟
أيْـنَ العساكِـر والدّسـا كِرُ والمقانِـبُ والكتائبْ؟
مـا بالهـم لَـمْ يَدْفعُـوا لَمّـا أتَتْ عَنْـك النّوائِبْ؟
مـا بـالُ قَصْـرِك واهِيًـا قَدْ عادَ مُنْهَدّ[3] الجَوانِبْ؟

(١) أي: غايتكم.
(٢) «أخبار مكة» للأزرقي: (١: ٩٩). (ج)
(٣) في (ب)، (ج): «منهدم».

وَوُجِدَ في الحائِطِ الآخَرِ مِنْ حِيطانِها جَوابُها: [من مجزوء الكامل]

يـا سـائِلِي عَمّـا مَضـى   مِـنْ دَهْرِنا ومِـن العَجائِبْ
والقَصْرِ إذْ[1] أوْدى فأضْحى   بَعْـدُ مُنْهَـدّ الجَوانِـبْ
وَعَن الجُنُـودِ أُولِـي العُقُو   دِ ومَـنْ بِهِـمْ كُنّـا نُحارِبْ
وَبِـهِـمْ قَـهَـرْنـا عَـنْـوةً   مَـنْ بالمَشـارِقِ والمَغارِبْ
وَتَقُـولُ: لِـمْ لَـمْ يَدْفعُـوا   لَمّا أتَتْ عَنْـك[2] النّوائِبْ؟
هَيْهـاتَ لا يُنْجِـي مِـن الـ   ـمـوت الكتائـب والمقانب

* * *

(١) في (ف): «قد».
(٢) في (ج)، (هـ): «عنا». (ب): «غيل».

[أَوْلادُ قُصَيٍّ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: ثُمَّ إنَّ قُصَيَّ بنَ كِلابٍ خَطَبَ إلى حُلَيْلِ بنِ حُبْشِيّةَ ابنَتَهُ حُبّى، فرَغِبَ فيهِ حُلَيْلٌ فزَوَّجَهُ، فوَلَدَتْ لَهُ عَبْدَ الدّارِ، وعَبْدَ مَنافٍ، وعَبْدَ العُزّى، وعَبْدًا. فلَمّا انْتَشَرَ ولَدُ قُصَيٍّ، وكَثُرَ مالُهُ، وعَظُمَ شَرَفُهُ، هَلَكَ حُلَيْلٌ.

[تَوَلِّي قُصَيٍّ أمْرَ البَيْتِ ونُصْرةَ رِزاحٍ لَهُ]

فَرَأى قُصَيٌّ أنَّهُ أوْلى بِالكَعْبةِ وبِأمْرِ مَكّةَ مِنْ خُزاعةَ وبَنِي بَكْرٍ، وأنَّ قُرَيْشًا قُرْعةُ إسْماعِيلَ بنِ إبْراهِيمَ وصَرِيحُ ولَدِهِ، فكَلَّمَ رِجالًا مِنْ قُرَيْشٍ وبَنِي كِنانةَ وَدَعاهُمْ إلى إخْراجِ خُزاعةَ وبَنِي بَكْرٍ مِنْ مَكّةَ، فأجابُوهُ.

فَصْلٌ

في حَدِيثِ قُصَيّ ذَكَرَ فيهِ أنّ قُرَيْشًا قُرْعةُ ولَدِ إسْماعِيلَ، هَكَذا بِالقافِ هِيَ الرّوايةُ الصّحِيحةُ، وفي بَعْضِ النّسَخِ: «فرْعةُ» بِالفاءِ، والقُرْعةُ بِالقافِ هِيَ: نخبة الشَّيء وخِيارُهُ، وقَرِيعُ الإبِلِ: فحْلُها، وقَرِيعُ القَبِيلةِ: سَيّدُها، ومِنْهُ اشْتُقّ الأقْرَعُ بنُ حابِسٍ وغَيْرُهُ مِمّنْ سُمِّيَ بالأقرعِ مِن العَرَبِ.

وَذَكَرَ انْتِقالَ وِلايةِ البَيْتِ مِنْ خُزاعةَ إلَيْهِ، ولَمْ يَذْكُرْ مِنْ سَبَبِ ذَلِكَ أكْثَرَ مِنْ أنّ قُصَيًّا رَأى نَفْسَهُ أحَقَّ بِالأمْرِ مِنْهُمْ. وذَكَرَ غَيْرُهُ أنّ حُلَيْلًا كانَ يُعْطِي مَفاتِيحَ البَيْتِ ابنَتَهُ حُبّى حِينَ كَبِرَ وضَعُفَ، فكانَتْ بِيَدِها، وكانَ قُصَيّ رُبّما أخَذَها في

بَعْضِ الأحْيانِ، ففَتَحَ البَيْتَ لِلنّاسِ وأغْلَقَهُ، فلَمّا هَلَكَ حُلَيْلٌ أوْصى بِولايةِ البَيْتِ إلى قُصَيّ، وأبَتْ خُزاعةُ أنْ تُمضيَ ذَلِكَ لِقُصَيّ، فعِنْدَ ذَلِكَ هاجَت الحَرْبُ بَيْنَهُ وبَيْنَ خُزاعةَ، وأرْسَلَ إلى رِزاحٍ[1] أخِيهِ يَسْتَنْجِدُهُ عَلَيْهِمْ.

وَيُذْكَرُ أيْضًا أنّ أبا غُبْشانَ مِنْ خُزاعةَ ـ واسْمُهُ: سُلَيْمٌ، وكانَتْ لَهُ وِلايةُ الكَعْبةِ ـ باعَ مَفاتِيحَ الكَعْبةِ مِنْ قُصَيّ بِزِقّ خَمْرٍ، فقِيلَ: أخْسَرُ مِنْ صَفْقةِ أبِي غُبْشانَ. ذَكَرَهُ المَسْعُودِيّ والأصْبَهانِيّ في «الأمْثالِ»[2].

وَكانَ الأصْلُ في انْتِقالِ وِلايةِ البَيْتِ مِنْ ولَدِ مُضَرَ إلى خُزاعةَ: أنّ الحَرَمَ حِينَ ضاقَ عَنْ ولَدِ نِزار، وبَغَتْ فيهِ إيادٌ، أخْرَجَتْهُمْ بَنُو مُضَرَ بن نزار، وجَلَّوْهُمْ عَنْ مَكّةَ، فعَمَدُوا في اللّيْلِ إلى الرُّكْنِ الأسْوَدِ، فاقْتَلَعُوهُ، واحْتَمَلُوهُ على بَعِيرٍ، فرَزَحَ[3] البَعِيرُ بِهِ، وسَقَطَ إلى الأرْضِ، وجَعَلُوهُ على آخَرَ، فرَزَحَ أيْضًا، وعلى الثّالِثِ ففَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ، فلَمّا رَأوْا ذَلِكَ دَفَنُوهُ وذَهَبُوا، فلَمّا أصْبَحَ أهْلُ مَكّةَ ولَمْ يَرَوْهُ، وقَعُوا في كَرْبٍ عَظِيمٍ، وكانَت امْرَأةٌ مِنْ خُزاعةَ قَدْ بَصُرَتْ بِهِ حِينَ دُفِنَ، وأعْلَمَتْ قَوْمَها بِذَلِكَ، فحِينَئِذٍ أخَذَتْ خُزاعةُ على وُلاةِ[4] البَيْتِ أنْ يَتَخَلَّوْا لَهُمْ عَنْ وِلايتِهِ ويَدُلُّوهُمْ على الحَجَرِ، ففَعَلُوا ذَلِكَ، فمِنْ هُنالِكَ صارَتْ وِلايةُ البَيْتِ لِخُزاعةَ، إلى أنْ صَيَّرَها أبُو غُبْشانَ إلى عَبْدِ مَنافٍ. هَذا مَعْنى قَوْلِ الزُّبَيْرِ.

---

(١) هو رِزاح بن ربيعة بن حرام، ينتهي نسبه إلى بني عُذرة من قضاعة، وهو أخو قُصَيّ بن كلاب لأمه. انظر: كتاب «المنمق» لابن حبيب: (ص: ٢٩) وما بعدها، و«جمهرة أنساب العرب» لابن حزم: (ص: ٤٤٨).

(٢) انظر: «مروج الذهب ومعادن الجوهر» (٢: ٣١). وفي «جمهرة الأمثال» (١: ٣٨٧): «أندم من أبي غبشان، وأخسر من أبي غبشان، وأحمق من أبي غبشان». (ج)

(٣) رزح البعير يرْزَحُ رَزْحًا ورُزوحًا: سقط من الإعياء أو الهزال ولصق بالأرض.

(٤) في (أ)، (ب)، (هـ): «ولاية».

وكانَ رَبِيعةُ بنُ حَرامٍ مِنْ عُذْرةَ بنِ سَعْدِ بنِ زَيْدٍ قَدْ قَدِمَ مَكّةَ بَعْدَ هُلْكِ كِلابٍ، فتَزَوَّجَ فاطِمةَ بِنْتَ سَعْدِ بنِ سَيَلٍ، وزُهْرةُ يَوْمَئِذٍ رَجُلٌ، وقُصَيٌّ فطِيمٌ، فاحْتَمَلَها إلى بِلادِهِ، فحَمَلَتْ قُصَيًّا مَعَها، وأقامَ زُهْرةُ، فوَلَدَتْ لِرَبِيعة رِزاحًا.

فلَمّا بَلَغَ قُصَيٌّ وصارَ رَجُلًا أتى مَكّةَ، فأقامَ بِها، فلَمّا أجابَهُ قَوْمُهُ إلى ما دَعاهُمْ إلَيْهِ، كَتَبَ إلى أخِيهِ مِنْ أُمِّهِ رِزاحِ بنِ رَبِيعةَ يَدْعُوهُ إلى نُصْرَتِهِ والقِيامِ مَعَهُ. فخَرَجَ رِزاحُ بنُ رَبِيعةَ ومَعَهُ إخْوَتُهُ: حُنُّ بنُ رَبِيعةَ، ومَحْمُودُ بنُ رَبِيعةَ، وجُلْهُمةُ بنُ رَبِيعةَ، وهُمْ لِغَيْرِ فاطِمةَ، فيمَنْ تَبِعَهُمْ مِنْ قُضاعةَ في حاجِّ العَرَبِ، وهُمْ مُجْمِعُونَ لِنُصْرةِ قُصَيٍّ. وخُزاعةُ تَزْعُمُ أنَّ حُلَيْلَ بنَ حُبْشِيّةَ أوْصى بِذلك قُصَيًّا وأمَرَهُ بِهِ حِينَ انْتَشَرَ لَهُ مِن ابنَتِهِ مِن الوَلَدِ ما انْتَشَرَ. وقالَ: أنْتَ أوْلى بِالكَعْبةِ وبِالقِيامِ عَلَيْها، وبِأمْرِ مَكّةَ مِنْ خُزاعةَ، فعِنْدَ ذلك طَلَبَ قُصَيٌّ ما طَلَبَ. ولَمْ نَسْمَعْ ذلك مِنْ غَيْرِهِمْ، فاللهُ أعْلَمُ أيَّ ذلك كانَ.

فَصْلٌ

وذَكَرَ أنّ قُصَيًّا نَشَأ في حَجْرِ رَبِيعةَ بنِ حَرامٍ، ثُمّ ذَكَرَ رُجُوعَهُ إلى مَكّةَ، وزادَ غَيْرُهُ في شَرْحِ الخَبَرِ فقالَ: كانَ قُصَيّ رَضِيعًا حِين احْتَمَلَتْهُ أُمّهُ مَعَ بَعْلِها رَبِيعةَ، فنَشَأ ولا يَعْلَمُ لِنَفْسِهِ أبًا إلّا رَبِيعةَ، ولا يُدْعى إلّا لَهُ، فلَمّا كانَ غُلامًا يَفعةً[1]، أوْ

(١) يَفَع الغلام: راهق العشرين، ويقال: غلام يَفَعٌ ويافع ويفعةٌ. والحزور ـ بزنة جعفر، وبفتح الزاي والواو مشدّدة مفتوحة ـ: الغلام القويّ.

حَزَوَّرًا، سابَّهُ رَجُلٌ مِنْ قُضاعةَ، فعَيّرَهُ بالدِّعْوةِ[١]، وقالَ: لَسْتَ مِنّا، وإنّما أنْتَ فينا مُلْصَقٌ، فدَخَلَ على أُمّهِ، وقَدْ وَجَمَ[٢] لِذَلِكَ، فقالَتْ لَهُ: يا بُنَيّ، صَدَقَ؛ إنّك لَسْت مِنْهُمْ، ولَكِنْ رَهْطُك خَيْرٌ مِنْ رَهْطِهِ، وآباؤُك أشْرَفُ مِنْ آبائِهِ، وإنّما أنْتَ قُرَشِيّ، وأخُوك وبَنُو عَمّك بمَكّةَ، وهُمْ جِيرانُ بَيْتِ اللهِ الحَرامِ، فدَخَلَ في سَيّارةٍ حَتّى أتى مَكّةَ، وقَدْ ذَكَرْنا أنّ اسمه: زيدٌ، وإنما كانَ قَصِيًّا ـ أيْ: بَعِيدًا عَنْ بَلَدِهِ ـ فسُمّيَ: قُصَيًّا.

❋ ❋ ❋

(١) الدِّعوة ـ بكسر الدال ـ: ادِّعاء الولد الدعيّ غير أبيه، يقال: دعِيٌّ بيِّن الدِّعوة والدِّعاوة.

(٢) وَجَمَ يجِم وَجْمًا ووُجُومًا: سكت على غيظ، وعبس وأطرق، وسكت عن الكلام لشدّة الحزن.

ما كانَ يَلِيهِ الغَوْثُ بنُ مُرٍّ مِن الإجازةِ لِلنّاسِ بِالحَجِّ

وَكانَ الغَوْثُ بنُ مُرِّ بنِ أُدِّ بنِ طابِخَةَ بنِ إلْياسَ بنِ مُضَرَ يَلِي الإجازةَ لِلنّاسِ بِالحَجِّ مِنْ عَرَفَةَ، وَوَلَدُهُ مِنْ بَعْدِهِ، وكانَ يُقالُ لَهُ ولِوَلَدِهِ: صُوفةُ. وإنَّما ولِيَ ذلك الغَوْثُ بنُ مُرٍّ؛ لِأَنَّ أُمَّهُ كانَت امْرَأَةً مِنْ جُرْهُمٍ، وكانَتْ لا تَلِدُ، فنَذَرَتْ لله إنْ هِيَ ولَدَتْ رَجُلًا أنْ تَصَّدَّقَ بِهِ على الكَعْبَةِ عَبْدًا لَها يَخْدُمُها ويَقُومُ عَلَيْها. فوَلَدَت الغَوْثَ، فكانَ يَقُومُ على الكَعْبةِ في الدَّهْرِ الأَوَّلِ مَعَ أَخْوالِهِ مِنْ جُرْهُمٍ، فوَلِيَ الإجازةَ بِالنّاسِ مِنْ عَرَفَةَ؛ لِمَكانِهِ الَّذي كانَ بِهِ مِن الكَعْبةِ، ووَلَدُهُ مِنْ بَعْدِهِ حَتّى انْقَرَضُوا. فقالَ مُرُّ بنُ أُدٍّ لِوَفاءِ نَذْرِ أُمِّهِ:

إنِّي جَعَلْتُ رَبِّ مَنْ بَنِيَّهْ ... رَبِيطةً بِمَكّةَ العَلِيَّهْ
فَبارِكَنَّ لِي بِها أَلِيَّهْ ... واجْعَلْهُ لِي مِنْ صالِحِ البَرِيَّهْ

وَكانَ الغَوْثُ بنُ مُرٍّ ـ فيما زَعَمُوا ـ إذا دَفَعَ بِالنّاسِ قالَ:

لاهُمَّ إنِّي تابِعٌ تَباعَهْ ... إنْ كانَ إثْمٌ فعلى قُضاعَهْ

[صُوفةُ ورَمْيُ الجِمارِ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: حَدَّثَنِي يَحْيى بنُ عَبّادِ بنِ عَبْدِ الله بنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ أبيهِ عَبّادٍ، قالَ: كانَتْ صُوفةُ تَدْفَعُ بِالنّاسِ مِنْ عَرَفةَ، وتُجِيزُ بِهِمْ إذا نَفَرُوا مِنْ مِنًى، فإذا كانَ يَوْمُ النَّفرِ أتَوْا لِرَمْيِ الجِمارِ، ورَجُلٌ مِنْ صُوفةَ يَرْمِي لِلنّاسِ،

لا يَرْمُونَ حَتّى يَرْمِيَ، فكانَ ذَوُو الحاجاتِ المُتَعَجِّلُونَ يَأْتُونَهُ، فيقُولُونَ لَهُ: قُمْ فارْمِ حَتّى نَرْمِيَ مَعَكَ، فيقُولُ: لا واللهِ، حَتّى تَمِيلَ الشَّمْسُ. فيظَلُّ ذَوُو الحاجاتِ الَّذينَ يُحِبُّونَ التَّعَجُّلَ يَرْمُونَهُ بِالحِجارةِ ويَسْتَعْجِلُونَهُ بِذلك، ويَقُولُونَ لَهُ: ويْلَكَ! قُمْ فارْمِ، فيأْبى عَلَيْهِمْ، حَتّى إذا مالَت الشَّمْسُ قامَ فرَمى ورَمى النّاسُ مَعَهُ.

فَصْلٌ

وذَكَرَ قِصّةَ الغَوْثِ بنِ مُرٍّ ودَفْعِهِ بِالنّاسِ مِنْ عَرَفةَ، وقالَ بَعْضُ نَقَلةِ الأَخْبارِ: إنّ وِلايةَ الغَوْثِ بنِ مُرٍّ كانَتْ مِنْ قِبَلِ مُلُوكِ كِنْدةَ.

وَقَوْلُهُ: «إنْ كانَ إثْمًا فعلى قُضاعه» إنَّما خَصّ قُضاعةَ بِهَذا؛ لِأَنّ مِنْهُمْ مُحِلّينَ يستحلُّون الأشهر الحُرُم، كما كانت خَثْعَم وطَيِّئٌ تَفْعَلُ ذلك. وكَذَلِكَ كانَت النّسَأةُ تَقُولُ إذا حَرّمَتْ صَفَرًا وغَيْرَهُ مِن الأَشْهُرِ بَدَلًا مِن الشَّهْرِ الحَرامِ، يَقُولُ قائِلُهُمْ: قَدْ حُرِّمَتْ عَلَيْكُم الدِّماءُ إلّا دماءَ المُحلِّين.

فَصْلٌ

وأَمّا تَسْمِيةُ الغَوْثِ ووَلَدِهِ: صُوفةَ، فاخْتُلِفَ في سَبَبِ ذَلِكَ:

فَذَكَرَ أَبُو عبدِ اللهِ الزُّبَيْرُ بنُ أَبِي بَكْرٍ القاضِي في «أَنْسابِ قُرَيْشٍ» لَهُ حينَ ذَكَرَ صُوفةَ، البَيْتَ الواقِعَ في «السّيرةِ» لِأَوْسِ بنِ مَغْراءَ السّعْدِيّ، وهُوَ: [من البسيط]

لا يَبْرَحُ النّاسُ ما حَجّوا مُعَرّفَهُمْ

... البَيْتَ.

وبَعْدَهُ: [من البسيط]

مَجْـدٌ بَناهُ لَنـا قِدْمًـا أوائِلُنا ... وأوْرَثُـوهُ طَوالَ الدّهْرِ أُخرانا

وَمَغْراءُ: تَأْنِيثُ أمْغَرَ، وهُوَ الأحْمَرُ، ومِنْهُ قَوْلُ الأعْرابِيّ لِلنّبِيّ ﷺ: أهُوَ هَذا الرّجُلُ الأمْغَرُ(١)؟

ثُمّ قالَ: قالَ أبُو عُبَيْدَةَ: وصُوفةُ وصُوفانُ يُقالُ لِكُلّ مَنْ ولِيَ مِن البَيْتِ شَيْئًا مِنْ غَيْرِ أهْلِهِ، أوْ قامَ بِشَيْءٍ مِنْ خِدْمَةِ البَيْتِ، أوْ بِشَيْءٍ مِنْ أمْرِ المَناسِكِ، يُقالُ لهم: صُوفة وصوفانُ. قال أبو عبيدة: لِأنّهُم بِمَنْزِلةِ الصّوفِ؛ فيهِم القَصِيرُ والطّوِيلُ، والأسْوَدُ والأحْمَرُ، لَيْسُوا مِنْ قَبِيلةٍ واحِدةٍ.

وذَكَرَ أبُو عَبْدِ اللهِ: أنّهُ حَدّثَهُ أبُو الحَسَنِ الأثْرَمُ، عَنْ هِشامِ بنِ مُحَمّدِ بنِ السّائِبِ الكَلْبِيِّ(٢)، قالَ: إنّما سُمّيَ الغَوْثُ بنُ مُرٍّ: صُوفةَ؛ لِأنّهُ كانَ لا يَعِيشُ لِأُمّهِ ولَدٌ، فنَذَرَتْ: لَئِنْ عاشَ لَتُعَلّقَنّ بِرَأْسِهِ صُوفة، [ولَتَجْعَلَنّهُ رَبِيطًا(٣) لِلْكَعْبةِ، ففَعَلَتْ، فقِيلَ لَهُ: صُوفةُ](٤)، ولِوَلَدِهِ مِنْ بَعْدِهِ، وهُوَ الرّبِيطُ.

وحَدّثَ إبْراهِيمُ بنُ المُنْذِرِ، عَنْ عَبْدِ(٥) العَزِيزِ بنِ عِمْرانَ، قالَ: أخْبَرَنِي عِقالُ بنُ شَبّةَ، قالَ: قالَتْ أُمّ تَمِيمِ بنِ مُرّ ووَلَدَتْ نِسْوةً، فقالَتْ: لله عَلَيّ لَئِنْ ولَدْتُ غُلامًا لَأُعَبّدَنّهُ(٦) لِلْبَيْتِ، فوَلَدَتِ الغَوْثَ، أكْبَرَ ولَدِ ابنِ مُرٍّ، فلَمّا رَبَطَتْهُ

---

(١) أخرجه النسائي: كتاب الصيام، باب وجوب الصيام، رقم (٢٠٩٤) من حديث أبي هريرة رضيَ الله عنه. (ج)

(٢) انظر «جمهرة النسب» للكلبي: (ص: ١٨٩).

(٣) الربيط: فعيل بمعنى مفعول، ويقال: ربطه فهو مربوط وربيط، أي: شدَّه. ثم لُقّب به الغوث.

(٤) سقط من (ب).

(٥) في (ط): عن عمر بن عبد العزيز بن عمران، وهو خطأ. انظر: «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم: (٥: ٣٩٠).

(٦) أي: لأجعله عبدًا للبيت يخدمه.

عِنْدَ البَيْتِ أصابَهُ الحَرُّ، فمَرّتْ بِهِ وقَدْ سَقَطَ وذَوى واسْتَرْخى، فقالَتْ: ما صارَ ابني إلّا صُوفة، فسُمِّيَ صُوفةَ.

[تَوَلِّي بَنِي سَعْدٍ أمْرَ البَيْتِ بَعْدَ صُوفةَ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: فإذا فرَغُوا مِنْ رَمْيِ الجِمارِ وأرادُوا النَّفْرَ مِنْ مِنًى، أخَذَتْ صُوفةُ بِجانِبَيِ العَقَبةِ، فحَبَسُوا النّاس، وقالُوا: أجيزي صُوفةُ، فلَمْ يَجُزْ أحَدٌ مِن النّاسِ حَتّى يَمُرُّوا، فإذا نَفَرَتْ صُوفةُ ومَضَتْ خُلِّيَ سَبِيلُ النّاسِ فانْطَلَقُوا بَعْدَهُمْ، فكانُوا كَذلك حَتّى انْقَرَضُوا، فوَرِثَهُمْ ذلك مِنْ بَعْدِهِمْ بِالقُعْدُدِ بَنُو سعدِ بنِ زيدِ مَناةَ بنِ تَمِيمٍ، وكانَتْ مِنْ بَنِي سَعْدٍ في آلِ صَفْوانَ ابنِ الحارِثِ بنِ شَجْنةَ.

[نَسَبُ صَفْوانَ]

قالَ ابنُ هِشامٍ: صَفْوانُ بنُ جَنابِ بنِ شَجْنةَ بنِ عُطارِدِ بنِ عَوْفِ بنِ كَعْبِ بنِ سَعْدِ بنِ زَيْدِ مَناةَ بنِ تَمِيمٍ.

[صَفْوانُ وكَرِبٌ والإجازةُ في الحَجِّ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وكانَ صَفْوانُ هُوَ الّذي يُجِيزُ لِلنّاسِ بِالحَجِّ مِنْ عَرَفةَ، ثُمَّ بَنُوهُ مِنْ بَعْدِهِ، حَتّى كانَ آخِرَهُم الَّذي قامَ عَلَيْهِ الإسْلامُ كَرِبُ بنُ صَفْوانَ.
وقالَ أوْسُ بنُ تَمِيمِ بنِ مَغْراءَ السَّعْدِيُّ:

لا يَبْرَحُ النّاسُ ما حَجُّوا مُعَرَّفَهُمْ ... حَتّى يُقالَ: أجِيزُوا آلَ صَفْوانا

قالَ ابنُ هِشامٍ: هذا البَيْتُ في قَصِيدةٍ لِأوْسِ بنِ مَغْراءَ.

فَصْلٌ

وذَكَرَ وِراثةَ بَنِي سَعْدٍ إجازةَ الحاجّ بِالقُعْدُدِ[١] مِنْ بَنِي الغوث بن مُرٍّ؛ وذَلِكَ أنّ سَعْدًا هُوَ ابنُ زَيْدِ مَناةَ بنِ تَمِيمِ بنِ مُرّ، وكانَ سَعْدٌ أقْعَدَ بِالغَوْثِ بنِ مُرٍّ مِنْ غَيْرِهِ مِن العَرَبِ، وزَيْدُ مَناةَ بنُ تَمِيم [بنِ مُرٍّ][٢] يُقالُ فيهِ: مَناةُ ومَناءَةُ؛ بِالهَمْزِ وتَرْكِهِ، ويَجُوزُ أنْ يَكُونَ إذا هُمِزَ مَفْعَلةً مِنْ ناءَ يَنُوءُ، ويَجُوزُ أنْ يَكُونَ فَعالةً مِن المَنِيئةِ[٣]، وهِيَ: المَدْبَغةُ، كَما قالَت امْرَأةٌ مِن العَرَبِ لِأُخْرى: أعْطِينِي نَفْسًا أوْ نَفْسَيْنِ أمْعَسُ بِها مَنِيئَتِي؛ فإنّي أفِدةٌ.

النَّفْسُ: قِطْعةٌ مِن الدِّباغِ[٤]، والمَنِيئةُ: الجِلْدُ في الدّباغِ، وأفِدةٌ: مُقارِبةٌ لِاسْتِتْمامِ ما تُرِيدُ صَلاحَهُ وتَمامَهُ مِنْ ذَلِكَ الدباغ.

وأنشد أبو حنيفة[٥]: [من الطويل]

إذا أنْـتِ باكَرْتِ المَنِيئـةَ باكَرَتْ ... قَضِيبَ أراكٍ باتَ في المِسْكِ مُنْقَعًا

---

(١) القُعْدُد في النسب: قريب الآباء من الجدّ الأكبر.

(٢) عن (أ).

(٣) اختلف في اشتقاق المنيئة؛ فقيل: من منأ، ووزنها فعلية. وقيل: تَفْعلة من اللحم النّيء، وإليه ذهب أبو علي الفارسي. انظر «اللسان» (منأ).

(٤) في «اللسان» (نفس): «والنَّفس من الدِّباغ: قدْر دبغةٍ أو دبغتين ممّا يُدبغ به الأديم من القرَظ وغيره، يقال: هبْ لي نفْسًا من دباغ». ثم ذكر عن الأصمعي قول هذه المرأة، وقال: «فإنّي أفدةٌ؛ أي: مستعجلة لا أتفرغ لاتِّخاذ الدِّباغ من السُّرعة، أرادت: قدْر دَبْغة أو دبغتَين من القرظ الذي يُدبغ به».
ومَعس: دَبَغ. وأصل المَعْسِ: الدّلك للجِلد بعد إدخاله في الدباغ.

(٥) «النبات» (ص: ١١٥)، وقدّم للبيت بقوله: «قال الشاعر لامرأةٍ عيَّرها بأخرى». وعقّب عليه بقوله: «تغدين أنتِ على الدِّباغة، وتغدو هي على سواكٍ متطيّب فتستاك به».

وَأَنْشَدَ يَعْقُوبُ][1]: [من الطويل]

إذا أَنْتِ باكَرْتِ المَنِيئَةَ باكَرَتْ مَداكًا لَها مِـنْ زَعْفَرانٍ وإثْمِدا

ما كانَت عَلَيْهِ عَدْوانُ من إفاضة المزْدَلِفة

[شِعْرُ ذِي الإِصْبَعِ في إفاضَتِهِمْ بِالنّاسِ]

وَأَمّا قَوْلُ ذِي الإِصْبَعِ العَدْوانِيِّ، واسْمُهُ: حُرْثانُ، مِنْ عَدْوانَ بنِ عَمْرٍو، وإنَّما سُمِّيَ: ذا الإِصْبَعِ لِأَنَّهُ كانَ لَهُ إِصْبَعٌ فقَطَعَها:

عَذِيرَ الـحَيِّ مِنْ عَدْوا نَ كانُوا حَيَّـةَ الأَرْضِ

بَـغى بَعْضُهُـمُ ظُلْمًـا فلَـمْ يُـرْعِ على بَعْضِ

وَمِنْهُـم كانَت السّـادا تُ والمُوفُـونَ بِالقَرْضِ

وَمِنْهُـمْ مَـن يُجِيزُ النّا سَ بِالسُّـنّةِ والفَـرْضِ

وَمِنْهُـمْ حَكَمٌ يَقْضِي فلا يُنْقَضُ مـا يَقْضِي

وهَذِهِ الأَبْياتُ في قَصِيدةٍ لَهُ؛ فلِأَنَّ الإفاضةَ مِن المُزْدَلِفةِ كانَتْ في عَدْوانَ ـ فيما حَدَّثَنِي زِيادُ بنُ عَبْدِ الله البَكّائِيُّ، عَنْ مُحَمَّدِ بنِ إسْحاقَ ـ يَتَوارَثُونَ ذلك كابِرًا عَنْ كابِرٍ.

فَصْلٌ

وأمّا قَوْلُهُ: «فلِأنّ الإفاضةَ مِن المُزْدَلِفةِ كانَتْ في عَدْوانَ»، والمُزْدَلِفةُ[2]:

---

(١) «إصلاح المنطق» (ص: ٩٤، ٣٨٣).

(٢) في (ف): «فالمزدلفة».

مُفْتَعِلَةٌ مِن الإزْدِلافِ، وهُوَ الاجْتِماعُ. وفي التنزيل: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٦٤]، وقِيلَ: بَل الازْدِلافُ: هُوَ الاقْتِرابُ، والزّلْفَةُ: القُرْبَةُ، فسُمِّيَتْ مُزْدَلِفَةً[١]؛ لِأَنّ النّاسَ يَزْدَلِفُونَ فيها إلى الحَرَمِ، وفي الخَبَرِ: أنّ آدَمَ عَلَيْهِ السّلامُ لَمّا أُهْبِطَ إلى الأرْضِ لَمْ يَزَلْ يَزْدَلِفُ إلى حَوّاءَ وتَزْدَلِفُ إلَيْهِ حَتّى تَعارَفا بِعَرَفَةَ، واجْتَمَعا بِالمُزْدَلِفةِ فسُمّيَتْ: جَمْعًا، وسُمّيَت: المُزْدَلِفَةَ.

وَأمّا ذُو الإصْبَعِ الّذِي ذَكَرَهُ فهُوَ: حُرْثانُ بنُ عَمْرٍو، ويُقالُ فيهِ: حُرْثانُ بنُ الحارِثِ بنِ مُحَرّثِ بنِ رَبِيعَةَ بنِ هُبَيْرَةَ بن ثعلبة بن ظَرِب، وظَرِبٌ هو: والدُ عامرِ بنِ الظّرِبِ الّذِي كانَ حَكَمَ العَرَبِ، وذَكَرَ ابنُ إسْحاقَ قِصّتَهُ في الخُنْثى، وفيهِ يَقُولُ الشاعر[٢]: [من الطويل]

لِذِي الحِلْمِ قَبْلَ اليَوْمِ ما تُقْرَعُ العَصا
وما عُلّمَ الإنْسانُ إلّا لِيَعْلَما

وَكانَ قَدْ خَرِفَ حَتّى تَفَلَّتَ ذِهْنُهُ، فكانَت العَصا تُقْرَعُ لَهُ إذا تَكَلَّمَ في نادِي قَوْمِهِ تَنْبِيهًا لَهُ؛ لِئَلَّا تَكُونَ لَهُ السّقْطةُ في قَوْلٍ أوْ حُكْمٍ. وكَذَلِكَ كانَ ذُو الإصْبَعِ [حَكَمًا في زَمانِهِ، وعُمّرَ ثَلاثَ مئة سَنةٍ، وسُمِّيَ: ذا الإصْبَعِ][٣]؛ لِأَنّ حَيّةً نَهَشَتْهُ في إصْبَعِهِ.

وَجَدُّهُمْ ظَرِبٌ: هُوَ ابنُ عَمْرِو بنِ عِياذِ[٤] بنِ يَشْكُرَ بنِ بَكْرِ بنِ عَدْوانَ،

---

(١) انظر: «غريب الحديث» للخطابي: (٢: ٢٤).

(٢) البيت للمتلمس، «ديوانه» (ص: ٢٦)، وهو في «المؤتلف والمختلف» للدارقطني: (٣: ١٥٢٧).

(٣) سقط من (أ).

(٤) كذا في (أ)، و«المؤتلف والمختلف» للدارقطني: (٣: ١٥٢٧). وفي سائر النسخ: «عباد».

واسْمُ عَدْوانَ: تَيْمٌ، وأُمّهُ: جَدِيلةُ[1] بِنْتُ أُدِّ بنِ طابِخةَ، وكانُوا أَهْلَ الطّائِفِ، وكَثُرَ عَدَدُهُمْ فيها حَتّى بلغوا زُهاء سَبْعِينَ أَلْفًا، ثُمّ هَلَكُوا بِبَغْيِ بَعْضِهِمْ على بعض، وكان ثقيف ـ وهُوَ قَسِيّ بنُ مُنَبِّهٍ ـ صِهْرًا لِعامِرِ بنِ الظَّرِبِ؛ كانَتْ تَحْتَهُ زَيْنَبُ بِنْتُ عامِرٍ، وهِيَ أُمّ أَكْثَرِ ثَقِيفٍ، وقِيلَ: هِيَ أُخْتُ عامِرٍ، وأُخْتُها لَيْلى بِنْتُ الظَّرِبِ هِيَ: أُمّ دَوْسِ بنِ عَدْنانَ، وسَيَأْتِي طَرَفٌ مِنْ خَبَرِهِ فيما بَعْدُ إنْ شاءَ اللهُ.

فلَمّا هَلَكَتْ عَدْوانُ وأَخْرَجَتْ بَقِيّتَهُمْ ثَقِيفٌ مِن الطّائِفِ، صارَت الطّائِفُ بِأَسْرِها لِثَقِيفٍ إلى اليَوْمِ.

وَقَوْلُهُ: «حَيّةَ الأَرْضِ»، يُقالُ: فُلانٌ حَيّةُ الأَرْضِ، وحَيّةُ الوادِي؛ إذا كانَ مَهِيبًا يُذْعَرُ مِنْهُ، كَما قالَ حَسّانُ: [من البسيط]

يا مُحكَمَ بنَ طُفَيلٍ قَدْ أُتِيحَ لَكُم ... للهِ دَرّ أَبِيكُمْ حَيّةِ الوادِي

[يَعْنِي بِـ(حَيّةِ الوادِي): خالِدَ بنَ الوَلِيدِ][2].

فَصْلٌ

وقَوْلُهُ[3]: «عَذِيرَ الحَيِّ مِنْ عَدْوانَ» نَصَبَ «عَذِيرًا» على الفِعْلِ المَتْرُوكِ إظْهارُهُ، كَأَنّهُ يَقُولُ: هاتُوا عَذِيرَهُ، أيْ: مَنْ يَعْذِرُهُ، فيَكُونُ العَذِيرُ بِمَعْنى: العاذِرِ، ويَكُونُ أَيْضًا بِمَعْنى: العُذْرِ مَصْدَرًا، كالحَدِيثِ ونَحْوِهِ.

* * *

(١) انظر: «جمهرة أنساب العرب» لابن حزم: (ص: ٢٤٣).
(٢) سقط من (أ).
(٣) انظر: «جمهرة أنساب العرب» لابن حزم: (ص: ٢٤٣).

[أبو سَيّارةَ وإفاضَتُهُ بِالنّاسِ]

حَتّى كانَ آخِرَهُم الَّذي قامَ عَلَيْهِ الإسْلامُ أبو سَيّارةَ عُمَيْلَةُ بنُ الأعْزَلِ.

فَفيهِ يَقُولُ شاعِرٌ مِن العَرَبِ:

نَحْنُ دَفَعْنا عَنْ أبي سَيّارَهْ ... وعَنْ مَوالِيهِ بَني فزارَهْ

حَتّى أجازَ سالِمًا حِمارَهْ ... مُسْتَقْبِلَ القِبْلَةِ يَدْعُو جارَهْ

قالَ: وكانَ أبو سَيّارةَ يَدْفَعُ بِالنّاسِ على أتانٍ لَهُ، فلِذلك يَقُولُ: «سالِمًا حِمارَهُ».

وَذَكَرَ أبا سَيّارةَ، [وهُوَ عُمَيْلةُ بنُ الأعْزَلِ][1] في قَوْلِ ابنِ إسْحاقَ، وقالَ غَيْرُهُ: اسْمُهُ: العاصِي. قالَهُ الخَطّابِيّ. واسم الأعزل: خالد، ذكره الأصبهاني، وكانت لَهُ أتانٌ عَوْراءُ، خِطامُها لِيفٌ، يُقالُ: إنّهُ دَفَعَ عَلَيْها في المَوْقِفِ أرْبَعِينَ سَنةً، وإيّاها يَعْنِي الرّاجِزُ في قَوْلِهِ[2]: [من الرجز]

«حَتّى يُجِيزَ سالِمًا حِمارَهْ»

وَكانَتْ تِلْكَ الأتانُ سَوْداءَ؛ ولِذَلِكَ يَقُولُ: [من الرجز]

لا هُمَّ ما لي في الحِمارِ الأسْوَدْ ... أصْبَحْتُ بَيْنَ العالَمِينَ أُحْسَدْ؟

---

(١) عن (ب)، (ج)

(٢) الرجز في «اللسان»: جوز، غير منسوب، وقبله:

خلُّوا الطريق عن أبي سَيَّارة

فَـقِ أبـا سَـيّارةَ المُحَسَّــدْ مِنْ شَـرِّ كُلِّ حاسِدٍ إذْ يَحْسُدْ

وَأبُو سَيّارةَ هَذا هُوَ الّذِي يَقُولُ: أَشْرِقْ ثَبِيرُ؛ كَيْما نُغِيرُ.

وهُوَ الّذِي يَقُولُ: [من الرجز]

لا هُمّ إنّـي تابِـعٌ تَباعَهْ

وكانَ يَقُولُ في دُعائِهِ: اللهُمّ بَغِّضْ بَيْنَ رِعائِنا، وحَبِّبْ بَيْنَ نِسائِنا، واجْعَل المالَ في سُمَحائِنا. وهُوَ أوّلُ مَنْ جَعَلَ الدّيَةَ مئةً مِن الإبِلِ فيما ذَكَرَ أبُو اليَقْظانِ، حَكاهُ عَنْهُ حَمْزةُ بنُ الحَسَنِ الأصْبَهانِيُّ.

[وَقَوْلُهُ: [من الرجز]

وعَــنْ مَوالِيهِ بَنِــي فزارَهْ

يَعْنِي بِمَوالِيهِ: بَنِي عَمّهِ؛ لِأنّهُ مِنْ عَدْوانَ، وعَدْوانُ وفَزارةُ مِنْ قَيْسِ عَيْلانَ][1].

وقَوْلُهُ: [من الرجز]

مُسْتَقْبِلَ القِبْلَةِ يَدْعُو جارَهْ

أيْ: يَدْعُو اللهَ عَزّ وجَلّ، يَقُولُ: اللهُمَّ كُنْ لنا جارًا ممَّنْ نخافه؛ أي: مجيرًا.

* * *

(١) سقط من (ب).

أَمْرُ عامِرِ بنِ ظَرِبِ بنِ عَمْرِو بنِ عِياذِ بنِ يَشْكُرَ بنِ عَدْوانَ

[قَضاؤُهُ في خُنْثى، ومَشْوَرةُ جارِيَتِهِ سُخَيْلَةَ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وقَوْلُهُ «حَكَمٌ يَقْضِي»، يَعْني: عامِرَ بنَ ظَرِبِ بنِ عَمْرِو ابنِ عِياذِ بنِ يَشْكُرَ بنِ عَدْوانَ العَدْوانِيَّ. وكانَت العَرَبُ لا يَكُونُ بَيْنَها نائِرةٌ ولا عُضْلةٌ في قَضاءٍ إلّا أَسْنَدُوا ذلك إلَيْهِ ثُمَّ رَضُوا بِما قَضى فيهِ. فاخْتُصِمَ إلَيْهِ في بَعْضِ ما كانُوا يَخْتَلِفُونَ فيهِ؛ في رَجُلٍ خُنْثى، لَهُ ما لِلرَّجُلِ، ولَهُ ما لِلْمَرْأةِ، فقالُوا: أَتَجْعَلُهُ رَجُلًا أو امْرَأةً؟ ولَمْ يَأْتُوهُ بِأَمْرٍ كانَ أَعْضَلَ مِنْهُ. فقالَ: حَتّى أَنْظُرَ في أمركُم، فواللهِ ما نَزَلَ بِي مِثْلُ هَذِهِ مِنْكُمْ يا مَعْشَرَ العَرَبِ! فاسْتَأْخَرُوا عَنْهُ. فباتَ لَيْلَتَهُ ساهِرًا يُقَلِّبُ أَمْرَهُ، ويَنْظُرُ في شَأْنِهِ، لا يَتَوَجَّهُ لَهُ مِنْهُ وجْهٌ. وكانَتْ لَهُ جارِيةٌ يُقالُ لَها: سُخَيْلةُ تَرْعى عَلَيْهِ غَنَمَهُ، وكانَ يُعاتِبُها إذا سَرَحَتْ، فيقُولُ: صَبَّحْتِ واللهِ يا سُخَيْلُ! وإذا أراحَتْ عَلَيْهِ، قالَ: مَسَّيْتِ واللهِ يا سُخَيْلُ! وذلك أَنَّها كانَتْ تُؤَخِّرُ السَّرْحَ حَتّى يَسْبِقَها بَعْضُ النّاسِ، وتُؤَخِّرُ الإراحةَ حَتّى يَسْبِقَها بَعْضٌ. فلَمّا رَأَتْ سَهَرَهُ وقِلّةَ قَرارِهِ على فِراشِهِ قالَتْ: ما لَكَ لا أبا لَكَ؟! ما عَراكَ في لَيْلَتِكَ هَذِهِ؟

قالَ: ويْلَكِ! دَعِينِي، أَمْرٌ لَيْسَ مِنْ شَأْنِكِ. ثُمَّ عادَتْ لَهُ بِمِثْلِ قَوْلِها، فقالَ في نَفْسِهِ: عَسى أَنْ تَأْتِيَ مِمّا أنا فيهِ بِفَرَجٍ، فقالَ: ويْحَكِ! اخْتُصِمَ إلَيَّ في مِيراثِ خُنْثى أأَجْعَلُهُ رَجُلًا أو امْرَأةً؟ فواللهِ ما أَدْرِي ما أَصْنَعُ، وما يَتَوَجَّهُ لِي فيهِ وجْهٌ.

قالَ: فقالَتْ: سُبْحانَ اللهِ! لا أبا لَكَ! أَتْبِعِ القَضاءَ المَبالَ، أَقْعِدْهُ؛ فإنْ بالَ مِنْ حَيْثُ يَبُولُ الرَّجُلُ فهُوَ رَجُلٌ، وإنْ بالَ مِنْ حَيْثُ تَبُولُ المَرْأَةُ فهِيَ امْرَأَةٌ.

قالَ: مَسِّي سُخَيْلُ بَعْدَها أَوْ صَبِّحِي، فرَّجْتِها واللهِ. ثُمَّ خَرَجَ على النّاسِ حِينَ أَصْبَحَ، فقَضى بِالَّذِي أشارَتْ عَلَيْهِ بِهِ.

غَلَبُ قُصَيِّ بنِ كِلابٍ على أَمْرِ مَكَّةَ وجَمْعُهُ أَمْرَ قُرَيْشٍ ومَعُونَةُ قُضاعَةَ لَهُ

[هَزِيمةُ صُوفةَ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: فلَمّا كانَ ذلك العامُ فعَلَتْ صُوفةُ كَما كانَتْ تَفْعَلُ، وقَدْ عَرَفَتْ ذلك لَها العَرَبُ، وهُوَ دِينٌ في أَنْفُسِهِمْ في عَهْدِ جُرْهُمٍ وخُزاعةَ ووِلايَتِهِمْ.

فَأَتاهُمْ قُصَيُّ بنُ كِلابٍ بِمَنْ مَعَهُ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ قُرَيْشٍ وكِنانةَ وقُضاعةَ عِنْدَ العَقَبةِ، فقالَ: لَنَحْنُ أَوْلى بِهذا مِنْكُمْ، فقاتَلُوهُ، فاقْتَتَلَ النّاسُ قِتالًا شَدِيدًا، ثُمَّ انْهَزَمَتْ صُوفةُ، وغَلَبَهُمْ قُصَيٌّ على ما كانَ بِأَيْدِيهِمْ مِنْ ذلك.

فَصْلٌ

وذَكَرَ عامِرَ بنُ الظَّرِبِ وحُكْمَهُ في الخُنْثى، وما أَفْتَتْهُ بِهِ جارِيَتُهُ سُخَيْلةُ، وهُوَ حُكْمٌ مَعْمُولٌ بِهِ في الشَّرْعِ، وهُوَ مِنْ بابِ الِاسْتِدْلالِ بِالأَماراتِ والعَلاماتِ، ولَهُ أصل في الشريعة، قال الله سبحانه: ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾

[يوسف: ١٨]، وجْهُ الدّلالةِ على الكَذِبِ في الدّمِ: أنّ القَمِيصَ المُدَمّى لَمْ يَكُنْ فيهِ خَرْقٌ ولا أثَرٌ لِأنْيابِ الذِّئْبِ، وكَذَلِكَ قَوْلُهُ سبحانهُ: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ [يوسف: ٢٦] الآيَةَ.

وقَوْلُ النّبيّ ﷺ في المَوْلُودِ: «إنْ جاءَتْ بِهِ أوْرَقَ جَعْدًا جُمالِيًّا فهُوَ لِلّذِي رُمِيَتْ بِهِ»[1].

فالِاسْتِدْلالُ بالأماراتِ أصْلٌ يَنْبَنِي عَلَيْهِ كَثِيرٌ مِن الأحْكامِ في الحُدُودِ والمِيراثِ، وغَيْرِ ذَلِكَ.

والحُكْمُ في الخُنْثى: أنْ يُعْتَبَرَ المَبالُ، ويُعْتَبَرَ بِالحَيْضِ، فإنْ أشْكَلَ مِنْ [كُلِّ][2] وجْهٍ، حُكِمَ فيهِ بِأنْ يَكُونَ لَهُ في المِيراثِ سَهْمُ امْرَأةٍ ونِصْفٌ، وفي الدّيةِ كَذَلِكَ، وأكْثَرُ أحْكامِهِ مَبنِيّةٌ على الاجتهاد.

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (١: ٢٣٩) من حديث طويل عن ابن عباس. وأبو داود في «سننه»، كتاب الطلاق، باب: في اللعان: (٢: ٢٧٦-٢٧٨).

(٢) سقط من (أ).

[مُحارَبةُ قُصَيٍّ لِخُزاعةَ وبَنِي بَكْرٍ وتَحْكِيمُ يَعْمَرَ بنِ عَوْفٍ]

وانْحازَتْ عِنْدَ ذلك خُزاعةُ وبَنُو بَكْرٍ عَنْ قُصَيٍّ، وعَرَفُوا أنَّهُ سَيَمْنَعُهُمْ كَما مَنَعَ صُوفةَ، وأنَّهُ سَيَحُولُ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ الكَعْبةِ وأمْرِ مَكّةَ. فلَمّا انْحازُوا عَنْهُ بادَأهُمْ وَأجْمَعَ لِحَرْبِهِمْ، وَثَبَتَ مَعَهُ أخُوهُ رِزاحُ بنُ رَبِيعةَ بِمَنْ مَعَهُ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ قُضاعةَ.

وَخَرَجَتْ لَهُ خُزاعةُ وبَنُو بَكْرٍ فالتَقَوْا، فاقْتَتَلُوا قِتالًا شَدِيدًا بِالأبْطَحِ، حتّى كَثُرَت القَتْلى في الفَرِيقَيْنِ جَمِيعًا، ثُمَّ إنَّهُمْ تداعَوْا إلى الصُّلْحِ وإلى أنْ يُحَكِّمُوا بَيْنَهُمْ رَجُلًا مِن العَرَبِ، فحَكَّمُوا يَعْمَرَ بنَ عَوْفِ بنِ كَعْبِ بنِ عامِرِ ابنِ لَيْثِ بنِ بَكْرِ بنِ عَبْدِ مَناةَ بنِ كِنانةَ، فقَضى بَيْنَهُمْ بِأنَّ قُصَيًّا أوْلى بِالكَعْبةِ وأمْرِ مَكّةَ مِنْ خُزاعةَ، وأنَّ كُلَّ دَمٍ أصابَهُ قُصَيٌّ مِنْ خُزاعةَ وبَنِي بَكْرٍ مَوْضُوعٌ يَشْدَخُهُ تَحْتَ قَدَمَيْهِ، وأنَّ ما أصابَتْ خُزاعةُ وبَنُو بَكْرٍ مِنْ قُرَيْشٍ وكِنانةَ وقُضاعةَ ففيهِ الدِّيةُ مُؤَدّاةٌ، وأنْ يُخَلّى بَيْنَ قُصَيٍّ وبَيْنَ الكَعْبةِ ومَكّةَ.

[سَبَبُ تَسْمِيةِ يَعْمَرَ بِالشَّدّاخِ]

فَسُمِّيَ يَعْمُرَ بنُ عَوْفٍ يَوْمَئِذٍ: الشَّدّاخَ؛ لِما شَدَخَ مِن الدِّماءِ ووَضَعَ مِنْها.

قالَ ابنُ هِشامٍ: ويُقالُ: الشُّداخُ.

فَصْلٌ

وذَكَرَ يَعْمَرَ الشَّدّاخَ بنَ عَوْفٍ حِينَ حَكَّمُوهُ، وأَنَّهُ سُمّيَ بِالشّدّاخِ؛ لِما شَدَخَ مِنْ دِماءِ خُزاعةَ. ويَعْمَرُ الشّدّاخُ هُوَ جَدّ بَنِي دَأْبٍ الّذِينَ أُخِذَ عَنْهُمْ كَثِيرٌ مِنْ عِلْمِ الأَخْبارِ والأَنْسابِ؛ وهُمْ: عِيسى[1] بنُ يَزِيدَ بن دَأْبٍ، [وأَبُوهُ يَزِيدُ، وحُذَيْفةُ ابنُ دَأْبٍ][2]، ودَأْبٌ هُوَ: ابنُ كُرْزِ بنِ أَحْمَرَ[3] مِنْ بَنِي يَعْمَرَ بنِ عَوْفٍ الّذِي شَدَخَ دِماءَ خُزاعةَ، أَيْ: أَبْطَلَها، وأَصْلُ الشّدْخِ: الكَسْرُ والفَضْخُ، ومِنْهُ: الغُرّةُ الشّادِخةُ؛ شُبّهَتْ بِالضّرْبةِ الواسِعةِ.

والشّدّاخُ بِفَتْحِ الشّينِ كَما قالَ ابنُ هِشامٍ، والشُّدّاخُ بِضَمّها إنّما هُوَ جَمْعٌ، وجائِزٌ أَنْ يُسَمّى هُوَ وبَنُوهُ: الشُّدّاخَ، كَما يُقالُ: المَناذِرةُ في المُنْذِرِ وبَنِيهِ، والأَشْعَرُونَ في بَنِي الأَشْعَرِ مِنْ سَبَأٍ، وهُوَ بابٌ يَكْثُرُ ويَطُولُ.

وأُمّ يَعْمَرَ الشَّدّاخِ اسْمُها: السُّؤْمُ بِنْتُ عامِرِ بنِ جُرّةَ؛ بِضَمِّ الجِيمِ[4]. وسَيَأْتِي ذِكْرُ جِرّةَ بِالكَسْرِ؛ ذَكَرَهُ ابنُ ما كولا.

ومِنْ بَنِي الشَّدّاخِ: بَلْعاءُ بنُ قَيْسِ بنِ عبد الله بن يَعْمَرَ الشَّدّاخِ، الشّاعِرُ المَذْكُورُ في شِعْرِ «الحَماسةِ»، اسْمُهُ: حُمَيْضةُ، ولُقِّبَ: بَلْعاءَ لِقَوْلِهِ: [من الرجز]

أنا ابنُ قَيْسٍ سَــبُعًا وابنَ سَبُعْ ... أبارَ مِــنْ قَيْسٍ قَبِيــلًا فالتمعْ

كَأَنّمــا كانُوا طَعامًــا فابْتُلِعْ

---

(١) انظر: «جمهرة أنساب العرب» لابن حزم: (ص: ١٨١).

(٢) سقط من (ب).

(٣) كذا في النسخ، و«تاج العروس»، وفي «جمهرة الكلبي» (ص: ١٤٠): أحمز، بالزاي.

(٤) كذا، وفي «تبصير المنتبه» (١: ٤٢٦) بكسر الجيم. يُراجع: ابن ماكولا: (ص: ١٩٩).

[قُصَيٌّ أمِيرًا على مَكّةَ، وسَبَبُ تَسْمِيَتِهِ: مُجَمِّعًا]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: فوَلِيَ قُصَيٌّ البَيْتَ وأمْرَ مَكّةَ، وجَمَعَ قَوْمَهُ مِنْ مَنازِلِهِمْ إلى مَكّةَ، وتَمَلَّكَ على قَوْمِهِ وأهْلِ مَكّةَ، فمَلَّكُوهُ، إلّا أنَّهُ قَدْ أقَرَّ لِلْعَرَبِ ما كانُوا عَلَيْهِ، وذلك أنّهُ كانَ يَراهُ دِينًا في نَفْسِهِ لا يَنْبَغِي تَغْيِيرُهُ؛ فأقَرَّ آلَ صَفْوانَ وعَدْوانَ والنَّسَأةَ ومُرّةَ بنَ عَوْفٍ على ما كانُوا عَلَيْهِ، حَتّى جاءَ الإسْلامُ فهَدَمَ اللهُ بِهِ ذلك كُلَّهُ.

فكانَ قُصَيٌّ أوَّلَ بَنِي كَعْبِ بنِ لُؤَيٍّ أصابَ مُلْكًا أطاعَ لَهُ بِهِ قَوْمُهُ، فكانَتْ إلَيْهِ الحِجابةُ، والسِّقايةُ، والرِّفادةُ، والنَّدْوةُ، واللِّواءُ، فحازَ شَرَفَ مَكّةَ كُلَّهُ. وقَطَعَ مَكّةَ رِباعًا بَيْنَ قَوْمِهِ، فأنْزَلَ كُلَّ قَوْمٍ مِنْ قُرَيْشٍ مَنازِلَهُمْ مِنْ مَكّةَ الّتِي أصْبَحُوا عَلَيْها.

ويَزْعُمُ النّاسُ أنَّ قُرَيْشًا هابُوا قَطْعَ شَجَرِ الحَرَمِ في مَنازِلِهِمْ، فقَطَعَها قُصَيٌّ بِيَدِهِ وأعْوانِهِ، فسَمَّتْهُ قُرَيْشٌ: مُجَمِّعًا لِما جَمَعَ مِنْ أمْرِها، وتَيَمَّنَتْ بِأمْرِهِ، فما تُنْكَحُ امْرَأةٌ، ولا يَتَزَوَّجُ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وما يَتَشاوَرُونَ في أمْرٍ نَزَلَ بِهِمْ، ولا يَعْقِدُونَ لِواءً لِحَرْبِ قَوْمٍ مِنْ غَيْرِهِمْ؛ إلّا في دارِهِ، يَعْقِدُهُ لَهُمْ بَعْضُ ولَدِهِ، وما تَدَّرِعُ جارِيةٌ إذا بَلَغَتْ أنْ تَدَّرِعَ مِنْ قُرَيْشٍ إلّا في دارِهِ، يَشُقُّ عَلَيْها فيها دِرْعَها ثُمَّ تَدَّرِعُهُ، ثُمَّ يُنْطَلَقُ بِها إلى أهْلِها. فكانَ أمْرُهُ في قَوْمِهِ مِنْ قُرَيْشٍ في حَياتِهِ ومِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ كالدِّينِ المُتَّبَعِ لا يُعْمَلُ بِغَيْرِهِ، واتَّخَذَ لِنَفْسِهِ دارَ النَّدْوةِ، وجَعَلَ بابَها إلى مَسْجِدِ الكَعْبةِ، ففيها كانَتْ قُرَيْشٌ تَقْضِي أُمُورَها.

قالَ ابنُ هِشامٍ: وقالَ الشّاعِرُ:

قُصَيٌّ لَعَمْرِي كانَ يُدْعى مُجَمِّعًا ... بِهِ جَمَّــعَ اللهُ القَبائِلَ مِنْ فِهْرِ

قالَ ابنُ إسْحاقَ: حَدَّثَني عَبْدُ المَلِكِ بنُ راشِدٍ، عَنْ أبيهِ، قالَ: سَمِعْتُ السّائِبَ بن خَبّابٍ صاحِبَ المَقْصُورةِ يُحَدِّثُ، أنَّهُ سَمِعَ رَجُلًا يُحَدِّثُ عُمَرَ ابنَ الخَطّابِ وهُوَ خَلِيفةٌ حَدِيثَ قُصَيِّ بنِ كِلابٍ، وما جَمَعَ مِنْ أمْرِ قَوْمِهِ، وإخْراجِهِ خُزاعةَ وبَنِي بَكْرٍ مِنْ مَكّةَ، ووِلايَتِهِ البَيْتَ وأمْرَ مَكّةَ، فلَمْ يَرُدَّ ذلك عَلَيْهِ ولَمْ يُنْكِرْهُ.

وِلايةُ قُصَيٍّ البَيْتَ

ذَكَرَ فيهِ أمْرَ قُصَيّ وما جَمَعَ مِنْ أهْلِ مَكّةَ، وأنْشَدَ: [من الطويل]

قُصَيٌّ لَعَمْرِي كانَ يُدْعى مُجَمِّعًا

... البَيْتَ وبَعْدَهُ: [من الطويل]

هُمُ مَلَؤُوا البَطْحاءَ عِزًّا وسُؤدَدًا ... وهُمْ طَرَدُوا عَنّا غُواةَ بَنِي بَكْرِ

وَيُذْكَرُ أنّ هَذا الشِّعْرَ لِحُذافةَ بنِ جُمَحَ.

وَذَكَرَ أنّ قُصَيًّا قَطّعَ مَكّةَ رِباعًا، وأنّ أهْلَها هابُوا[1] قَطْعَ شَجَرِ الحَرَمِ للبُنيان.

[وقال الواقِدِيّ: الأصَحّ في هَذا الخَبَرِ: أنّ قُرَيْشًا حِينَ أرادُوا البُنْيانَ][2] قالُوا لِقُصَيٍّ: كَيْفَ نَصْنَعُ في شجر الحرم؟ فحذَّرهم قَطعَها، وخوَّفهم العُقُوبةَ

(١) في (أ): «أبوا».
(٢) سقط من (أ).

في ذَلِكَ، فكانَ أحَدُهُمْ يَحُوقُ[١] بِالبُنْيانِ حَوْلَ الشّجَر حَتّى يكُونَ في مَنْزِلِهِ.

قالَ: وأوَّلُ مَنْ تَرَخَّصَ في شَجَرِ الحَرَمِ للبُنيان: عبدُ الله بن الزُّبَيْرِ حِينَ ابْتَنى دُورًا بِقُعَيْقِعانَ، لَكِنّهُ جَعَلَ دِيَةَ كُلّ شَجَرةٍ بَقَرةً، وكَذَلِكَ رُوِيَ عَنْ عمر أنّهُ قَطَعَ دَوْحةً كانَتْ في دارِ أسَدِ بنِ عَبْدِ العُزّى، وكانَتْ تَنالُ أطْرافُها ثِيابَ الطّائِفينَ بِالكَعْبةِ، وذَلِكَ قَبْلَ أنْ يُوَسَّعَ المَسْجِدُ، فقَطَعَها عُمَرُ ووَداها بَقَرةً.

ومذهب مالك في ذلك: أنْ لا دِيَةَ في شَجَرِ الحَرَمِ، قالَ: ولَمْ يَبْلُغْنِي في ذَلِكَ شَيْءٌ، وَقَدْ أساءَ مَنْ فعَلَ ذَلِكَ.

وأمّا الشّافِعِيّ فجَعَلَ في الدَّوْحةِ بَقَرةً، وفيما دُونَها شاةً.

وقالَ أبُو حَنِيفةَ: إنْ كانَت الشّجَرةُ الّتِي في الحَرَمِ مِمّا يَغْترِسُها[٢] النّاسُ ويَسْتَنْبِتُونها، فلا فِدْيةَ على مَنْ قَطَعَ شَيْئًا مِنْها، وإنْ كانَ مِنْ غَيْرِها ففيهِ القِيمةُ بالِغًا ما بَلَغَتْ.

وَذَكَرَ أبُو عُبَيْدٍ: أنّ عَبْدَ اللهِ بنَ عُمَرَ أفْتى فيها بِعِتْقِ رقبة.

وَذَكَرَ أنّ قُصَيًّا اتّخَذَ دارَ النّدْوةِ، وهِيَ الدّارُ الّتِي كانُوا يَجْتَمِعُونَ فيها لِلتّشاوُرِ، ولَفْظُها مَأْخُوذٌ مِنْ لَفْظِ النَّدِيِّ والنّادِي والمُنْتَدى، وهُوَ مَجْلِسُ القَوْمِ الّذِي يَنْدُونَ حَوْلَهُ، أيْ: يَذْهَبُونَ قَرِيبًا مِنْهُ، ثُمّ يَرْجِعُونَ إلَيْهِ، والتّنْدِيةُ في

---

(١) كذا في (ب)، (د). وفي (أ): «يحزق». وفي (هـ)، (ط): «يحوف». ولعلّ ما أثبتناه هو الصواب؛ ففي وصية أبي بكر حين بعث الجند إلى الشام ـ كما في «اللسان» ـ: «ستجدون أقوامًا مُحوَّقة رؤوسهم». وفُسّر بأنه يجوز أن يكون من الحُوق: وهو الإطار المحيط بالشيء المستدير حوله». وكذلك يقال هنا: بأن أحدهم كان يجعل البنيان يحيط بالشجر كما يحيط الإطار. والإطار: كل ما أحاط بالشيء من خارج.

(٢) في (ب)، (هـ): «يغرسها».

الخَيْلِ: أنْ تُصْرَفَ عَنِ [الوِرْدِ إلى][١] المَرْعى قَرِيبًا، ثُمّ تُعادَ إلى الشِّرْبِ[٢]، وهُوَ المُنَدّى.

وهَذِهِ الدّارُ تَصَيَّرَتْ بَعْدَ بَنِي عبد الدار إلى حكيم بن حزام بن خُوَيْلِدِ بنِ أسَدِ بنِ عَبْدِ العُزّى بنِ قُصَيّ، فباعَها في الإسْلامِ بِمِئة ألْفِ دِرْهَمٍ، وذَلِكَ في زَمَنِ [مُعاوِيَةَ، فلامَهُ مُعاوِيةُ][٣] في ذَلِكَ، وقالَ: أبِعْتَ مَكْرُمةَ آبائِك وشَرَفَهُمْ؟! فقالَ حَكِيمٌ: ذَهَبَت المَكارِمُ إلّا التّقْوى، واللهِ لَقَد اشْتَرَيْتها في الجاهِلِيّةِ بِزِقّ خَمْرٍ، وقَدْ بِعْتها بِمِئة ألْفِ دِرْهَمٍ، وأُشْهِدُكُمْ أنّ ثَمَنَها في سَبِيلِ اللهِ، فأَيُّنا المَغْبُونُ؟! ذَكَرَ [خَبَرَ حَكِيمٍ][٤] هذا الدارقطنيُّ في «أسْماءِ رِجالِ المُوَطّأ» لَهُ[٥].

* * *

---

(١) سقط من (ب).

(٢) الشِّرب: الماء يشرب، ومورد الماء. وفي «اللسان»: «والموضع مُندًّى».

(٣) سقط من (أ).

(٤) سقط من (أ).

(٥) بعده في (ف): «فصل».

[شِعْرُ رِزاحٍ في نُصْرَتِهِ قُصَيًّا، ورَدُّ قُصَيٍّ عَلَيْهِ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: فلَمّا فرَغَ قُصَيٌّ مِنْ حَرْبِهِ، انْصَرَفَ أخُوهُ رِزاحُ بنُ رَبِيعةَ إلى بِلادِهِ بِمَنْ مَعَهُ مِنْ قَوْمِهِ، وقالَ رِزاحٌ في إجابَتِهِ قُصَيًّا:

لَمّـا أتى مِـنْ قُصَيٍّ رَسُـولُ ... فقالَ الرَّسُولُ: أجِيبُوا الخَلِيلا
نَهَضْنا إلَيْـهِ نَقُـودُ الجِيادَ ... ونَطْرَحُ عَنّا المَلُولَ الثَّقِيلا
نَسِيرُ بِها اللَّيْلَ حَتّى الصَّباحِ ... ونَكْمِي النَّهـارَ لِئَلّا نَزُولا
فَهُـنَّ سِراعٌ كَـوِرْدِ القَطا ... يُجِبْنَ بِنا مِنْ قُصَيٍّ رَسُـولا
جَمَعْنا مِن السِّرِّ مِنْ أشْمَذِينَ ... ومِـنْ كُلِّ حَيٍّ جَمَعْنـا قَبِيلا
فيـا لَـكِ حَلْبـةَ مـا لَيْلةٍ ... تَزِيدُ على الألف سَيبًا رَسِيلا
فَلَمّا مَـرَرْنَ على عَسْجَدٍ ... وأسْهَلْنَ مِنْ مُسْتَناخٍ سَبِيلا
وَجاوَزْنَ بِالرُّكْنِ مِنْ ورِقانَ ... وجاوَزْنَ بِالعَرْجِ حَيًّا حُلُولا
مَـرَرْنَ على الحِلِّ مـا ذُقْنَهُ ... وعالَجْنَ مِنْ مَـرَّ لَيْلًا طَوِيلا
نُـدَنِّي مِـن العُـوذِ أفْلاءَها ... إرادةَ أنْ يَسْـتَرِقْنَ الصَّهِيلا
فَلَمّـا انْتَهَيْنـا إلى مَكّـةَ ... أبَحْنـا الرِّجالَ قَبِيـلًا قَبِيلا
نُعاوِرُهُـمْ ثَمَّ حَدَّ السُّـيُوفِ ... وفي كُلِّ أوْبٍ خَلَسْنا العَقُولا
نُخَبِّزُهم بصلاب النُّسُـو ... رِ خَبْزَ القَوِيِّ العَزِيزَ الذَّلِيلا
قَتَلْنـا خُزاعـةَ في دارِهـا ... وبَكْرًا قَتَلْنا وجِيلًا فجِيلا
نَفيناهُـمُ مِنْ بِـلادِ المَلِيكِ ... كَما لا يَحِلُّونَ أرْضًا سُـهُولا
فَأصْبَـحَ سَـبْيُهُمُ في الحَدِيدِ ... ومِنْ كُلِّ حَيٍّ شَـفينا الغَلِيلا

وذَكَرَ شِعْرَ رِزاحٍ، وفيهِ: «ونكْمِي النّهارَ» أيْ: نَكْمُنُ ونَسْتَتِرُ، والكَمِيُّ مِن الفُرْسانِ: الّذِي تكَمّى بِالحَدِيدِ. وقِيلَ: الّذِي يُكْمِي شَجاعَتَهُ ـ أيْ: يَسْتُرُها ـ حَتّى يُظْهِرَها عِنْدَ الوَغى.

وفيهِ: [«مَرَرْنَ على عَسْجَرٍ»][١]، وهُوَ: اسْمُ مَوْضِعٍ، وكَذَلِكَ «وَرِقانُ»: اسْمُ جَبَلٍ[٢]، ووَقَعَ في نُسْخَةِ سُفْيانَ: «ورَقانُ» بِفَتْحِ الرّاءِ، وقَيّدَهُ أبُو عُبَيْدٍ البَكْرِيّ «وَرِقان» بكسر الراء، وأنشد الأحوص: [من الطويل]

وَكَيْفَ يُرجِّي الوَصْلَ مِنْها وأصْبَحَتْ ذُرى وَرِقانٍ دُونَها وحَفِيرُ؟

وَيُخَفَّفُ، فيُقالُ: وَرْقانُ. قالَ جَمِيلٌ: [من الخفيف]

يا خَلِيلَيّ إنْ بُثَيْنةُ بانَتْ يَوْمَ وَرْقانَ [بِالفُؤادِ سَبِيّا

وَذَكَرَ أنّهُ مِنْ أعْظَمِ الجِبالِ، وذكر أنَّ فيه أوشالًا[٣] وعُيُونًا عِذابًا، وسُكّانُهُ: بَنُو أوْسِ بنِ مُزَيْنَةَ.

وَذَكَرَ أيْضًا الحَدِيثَ، وهُوَ قَوْلُ النّبِيّ ﷺ: «ضِرْسُ الكافِرِ في النّارِ مِثْلُ أُحُدٍ،..

---

(١) في النسخ: «مَررنا». والشاعر يتحدث عن جماعة الخيل، والبيت بتمامه:

فلما مَررْنَ على عسجرٍ وأسهلنَ في مستناخٍ سبيلا

فصوابه: مرَرْنَ على عسجر، لا: بعسجر. وقد أثبته ياقوت «عسجد». وذكر أنه يُروى «عسجر» بالراء، وذكره محقّقو «السيرة» بالدال اعتمادًا على إحدى النسخ، ولم يزد ياقوت عن اسم موضع بعينه.

(٢) قال ياقوت: «جبل أسود بين العرج والرويثة على يمين المُصعِد من المدينة إلى مكة، ماؤه إلى رئم».

(٣) الأوشال: جمع وَشَلٍ، وهو الماء القليل يتحلّب من جبل أو صخرة، ولا يتّصل قَطْرُه.

وفَخِذُهُ مِثْلُ وَرِقانَ»(١)](٢).

وفي حَدِيثٍ آخَرَ: أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ذَكَرَ آخِرَ مَنْ يَمُوتُ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ، فقالَ: «رَجُلانِ مِنْ مُزَيْنَةَ يَنْزِلانِ جَبَلًا مِنْ جِبالِ العَرَبِ يُقالُ لَهُ: وَرِقانُ». كُلُّ هَذا مِنْ قَوْلِ البَكْرِيِّ في كِتابِ «مُعْجَم ما اسْتَعْجَمَ»(٣).

فَصْلٌ

وذَكَرَ «مِنْ أَشْمَذِينَ» بِكَسْرِ الذّالِ، وفي حاشِيَةِ كِتابِ سُفْيانَ بنِ العاصِي: الأَشْمَذانِ: جَبَلانِ(٤)، ويُقال: اسم قَبِيلتَين، ثمَّ قال في الحاشِيَةِ: «فعلى هَذا تَكُونُ الرِّوايَةُ بِفَتْحِ الذّالِ وكَسْرِ النّونِ مِنْ أَشْمَذَيْنِ».

قالَ المُؤَلِّفُ: فإِنْ صَحَّ أَنَّهُما اسْمُ قَبِيلَتَيْنِ، فلا يَبْعُدُ أَنْ تَكُونَ الرِّوايَةُ كَما في الأَصْلِ: أَشْمَذِينَ [بِكَسْرِ الذّالِ؛ لِأَنَّهُ جَمْعٌ في المَعْنى. واشتقاق الأَشمَذِين](٥) من: شَمَذَتِ النّاقةُ بِذَنَبِها: إذا رَفَعَتْهُ، ويُقالُ لِلنَّحْلِ: شُمَّذٌ؛ لِأَنَّها تَرْفَعُ أَعْجازَها.

وَفيهِ: «مَرَرْنَ على الحَيْلِ»، وفَسَّرَهُ الشَّيْخُ في «حاشِيَةِ الكِتابِ»، فقالَ: هُوَ الماءُ المُسْتَنْقِعُ في بَطْنِ وادٍ، ووَجَدْتُ في غَيْرِ أَصْلِ الشَّيْخِ رِوايَتَيْنِ؛ إِحْداهُما: «مَرَرْنَ على الحِلِّ»، والأُخْرى: «مَرَرْنَ على الحَلْيِ»(٦)، فأَمّا الحِلّ: فجَمْعُ

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجنة، باب: النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء: (٤: ٤١٨٩). وانظر: «غريب الحديث» لابن قتيبة: (٣: ٧٤٦).

(٢) سقط من (أ).

(٣) «معجم ما استعجم» (٤: ١٣٧٧، ١٣٧٨).

(٤) نقل ياقوت أنهما جبلانِ بين المدينة وخيبر تنزلهما جهينة وأشجع.

(٥) سقط من (ب).

(٦) يقضي الوزن أن يكون بهذا الضبط، ولم نجد الحليَ ثمرًا أو نبتًا كما فسَّره السهيلي، وإنما =

حِلّةٍ، وهِيَ بَقْلةٌ شاكّةٌ[١]. ذَكَرَهُ ابنُ دُرَيْدٍ في «الجَمْهَرةِ». وأمّا الحِلْيُ فيُقالُ: إنّهُ ثمر القُلقُلان، وهو نبتٌ.

وَقَوْلُهُ فيها: «نُخَبِّزُهُمْ» أيْ: نَسُوقُهُمْ سَوْقًا شَدِيدًا، وقَدْ تَقَدّمَ قَوْلُ الرّاجِزِ:

[من الرجز]

لا تَخْبِزا خَبْزًا وبُسّا بَسّا

* * *

= هو حَليٌّ على وزن فعيل. وانظر: «شرح السيرة» للخشني: (ص: ٤٣).

(١) في (هـ): «شائكة». وما أُثبِت موافق لما في «تاج العروس».

وَقالَ ثَعْلَبَةُ بنُ عَبْدِ اللهِ بنِ ذُبْيانَ بنِ الحارِثِ بنِ سَعْدِ بنِ هُذَيْمٍ القُضاعِيُّ في ذلك مِنْ أمْرِ قُصَيٍّ حِينَ دَعاهُمْ فأجابُوهُ:

جَلَبنا الخَيْـــلَ مُضْمَرَةً تَغالى ... مِنَ الأعْرافِ أعْرافَ الجِنابِ

إلى غَـــوْرَيْ تِهامــــةَ فالتَقَيْنا ... مِـــنَ الفَيْفاءِ في قـــاعٍ يَبابِ

فَأمّـــا صُوفةُ الخُنْـــثى فخَلَّوْا ... مَنازِلَهُـــمْ مُحـــاذَرةَ الضِّرابِ

وَقـــامَ بَنُـــو عَـــلِيٍّ إذْ رَأَوْنا ... إلى الأسْيافِ كالإبِلِ الطِّرابِ

وقالَ قُصَيُّ بنُ كِلابٍ:

أنا ابنُ العاصِمِـــينَ بَنِي لُؤَيٍّ ... بِمَكّةَ مَـــنْزِلي وبِهـــا رُبِيتُ

إلى البَطْحاءِ قَدْ عَلِمَتْ مَعَدٌّ ... ومَرْوَتُها رَضِيتُ بِها رَضِيتُ

فَلَسْـــتُ لِغالِبٍ إنْ لَمْ تَأَثَّلْ ... بِهـــا أوْلادُ قَيْـــذَرَ والنَّبِيتُ

رِزاحٌ نـــاصِرِي وبِهِ أُســـامِي ... فلَسْتُ أخافُ ضَيْمًا ما حَيِيتُ

وَذَكَرَ شِعْرَ رِزاحٍ[1] الآخَرَ، وفيهِ: [من الوافر]

مِنَ الأعْرافِ أعْرافِ الجِنابِ

بِكَسْرِ الجِيمِ، وهُوَ مَوْضِعٌ مِنْ بِلادِ قُضاعةَ.

وَفيهِ: «وقامَ بَنُو عَلِيّ» وهُمْ بَنُو كِنانةَ، وإنّما سُمُّوا........................

(١) كذا، وقائله في «السيرة» هو ثعلبة بن عبد الله بن ذبيان القضاعي. وكذلك نُسِب إلى ثعلبة في «شرح السيرة» للخشني: (ص: ٤٤).

بِبَنِي[1] عليٍّ؛ لأنّ عبدَ مَناةَ بنَ كِنانةَ كانَ رَبِيبًا لِعَلِيّ بنِ مَسْعُودِ بنِ مازن من الأزدِ[2]، جدِّ سَطِيحِ الكاهِنِ، فقِيلَ لِبَنِي كِنانةَ: بَنُو عَلِيّ، وأَحْسَبُهُ أرادَ في هَذا البَيْتِ بَنِي بَكْرِ بن عَبْدِ مَناةَ؛ لِأَنّهُمْ قامُوا مَعَ خُزاعةَ.

وَذَكَرَ شِعْرَ قُصَيّ: [من الوافر]

أنا ابــنُ العاصِمِينَ بَنِي لُؤَيّ

... الأبْيات. ولَيْسَ فيها ما يُشكل.

[ما كانَ بَيْنَ رِزاحٍ وبَيْنَ نَهْدٍ وحَوْتَكةَ، وشِعْرُ قُصَيٍّ في ذلك]

فلَمّا اسْتَقَرَّ رِزاحُ بنُ رَبِيعةَ في بِلادِهِ، نشره الله ونشَر حُنًّا، فهُما قَبِيلا عُذْرةَ اليَوْمَ. وقَدْ كانَ بَيْنَ رِزاحِ بنِ رَبِيعةَ حِينَ قَدِمَ بِلادَهُ وبَيْنَ نَهْدِ بنِ زَيْدٍ وحَوْتَكةَ بنِ أسْلُمٍ ـ وهُما بَطْنانِ مِنْ قُضاعةَ ـ شَيْءٌ، فأخافَهُمْ حَتّى لَحِقُوا بِاليَمَنِ وأجْلَوْا مِنْ بِلادِ قُضاعةَ، فهُم اليَوْمَ بِاليَمَنِ. فقالَ قُصَيُّ بنُ كِلابٍ، وكانَ يُحِبُّ قُضاعةَ ونَماءَها واجْتِماعَها بِبِلادِها؛ لِما بَيْنَهُ وبَيْنَ رِزاحٍ مِن الرَّحِمِ، ولِبَلائِهِمْ عِنْدَهُ إذْ أجابُوهُ إذْ دَعاهُمْ إلى نُصْرَتِهِ، وكَرِهَ ما صَنَعَ بِهِمْ رِزاحٌ:

ألا مَنْ مُبْلِغٌ عَــنِّي رِزاحًا؟ ... فإنِّي قَــدْ لَحَيْتُــكَ في اثْنَتَيْنِ

لَحَيْتُكَ في بَــنِي نَهْدِ بنِ زَيْدٍ ... كَما فرَّقْــتَ بَيْنَهُــمُ وبَيْنِي

وَحَوْتَكةَ بنِ أسْلُمَ إنَّ قَوْمًا ... عَنَوْهُمْ بِالمَســاءةِ قَدْ عَنَوْنِي

قالَ ابنُ هِشامٍ: وتُرْوى هَذِهِ الأبْياتُ لِزُهَيْرِ بنِ جَنابٍ الكَلْبِيِّ.

---

(١) في (ف): «بنو».

(٢) انظر: «نسب قريش» لمصعب: (ص: ١٠)، و«جمهرة ابن حزم» (ص: ١٨٨).

[ما آثَرَ بِهِ قُصَيٌّ عَبْدَ الدّارِ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: فلَمّا كَبِرَ قُصَيٌّ ورَقَّ عَظْمُهُ، وكانَ عَبْدُ الدّارِ بِكْرَهُ، وكانَ عَبْدُ مَنافٍ قَدْ شَرُفَ في زَمانِ أبيهِ وذَهَبَ كُلَّ مَذْهَبٍ، وعَبْدُ العُزّى وعَبْدٌ. قالَ قُصَيٌّ لِعَبْدِ الدّارِ: أما واللهِ يا بُنَيَّ لَأُلْحِقَنَّكَ بِالقَوْمِ، وإنْ كانُوا قَدْ شَرُفُوا عَلَيْكَ؛ لا يَدْخُلُ رَجُلٌ مِنْهُم الكَعْبَةَ حَتّى تَكُونَ أنْتَ تَفْتَحُها لَهُ، ولا يَعْقِدُ لِقُرَيْشٍ لِواءً لِحَرْبِها إلّا أنْتَ بِيَدِكَ، ولا يَشْرَبُ أحَدٌ بِمَكّةَ إلّا مِنْ سِقايَتِكَ، ولا يَأْكُلُ أحَدٌ مِنْ أهْلِ المَوْسِمِ طَعامًا إلّا مِنْ طَعامِكَ، ولا تَقْطَعُ قُرَيْشٌ أمْرًا مِنْ أُمُورِها إلّا في دارِكَ. فأعْطاهُ دارَهُ ـ دارَ النَّدْوةِ ـ الّتِي لا تَقْضِي قُرَيْشٌ أمْرًا مِنْ أُمُورِها إلّا فيها، وأعْطاهُ الحِجابَةَ واللِّواء، والسقاية والرِّفادة.

[الرِّفادة]

وَكانَت الرِّفادةُ خَرْجًا تُخْرِجُهُ قُرَيْشٌ في كُلِّ مَوْسِمٍ مِنْ أمْوالِها إلى قُصَيِّ ابنِ كِلابٍ، فيصْنَعُ بِهِ طَعامًا لِلْحاجِّ، فيأْكُلُهُ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ سَعةٌ ولا زادٌ؛ وذلك أنَّ قُصَيًّا فرَضَهُ على قُرَيْشٍ، فقالَ لَهُمْ حِينَ أمَرَهُمْ بِهِ: يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إنَّكُمْ جِيرانُ اللهِ، وأهْلُ بَيْتِهِ، وأهْلُ الحَرَمِ، وإنَّ الحاجَّ ضَيْفُ اللهِ وزُوّارُ بَيْتِهِ، وهُمْ أحَقُّ الضَّيْفِ بِالكَرامةِ، فاجْعَلُوا لَهُمْ طَعامًا وشَرابًا أيّامَ الحَجِّ حَتّى يَصْدُرُوا عَنْكُمْ. ففَعَلُوا، فكانُوا يُخْرِجُونَ لِذلك كُلَّ عامٍ مِنْ أمْوالِهِمْ خَرْجًا فيدْفَعُونَهُ إلَيْهِ، فيصْنَعُهُ طَعامًا لِلنّاسِ أيّامَ مِنًى، فجَرى ذلك مِنْ أمْرِهِ في الجاهِلِيّةِ على قَوْمِهِ حَتّى قامَ الإسْلامُ، ثُمَّ جَرى في الإسْلامِ إلى يَوْمِكَ هذا، فهُوَ الطَّعامُ الّذي يَصْنَعُهُ السُّلْطانُ كُلَّ عامٍ بِمِنًى لِلنّاسِ حَتّى يَنْقَضِيَ الحَجُّ.

قالَ ابنُ إسْحاقَ: حَدَّثَنِي بِهذا مِنْ أمْرِ قُصَيِّ بنِ كِلابٍ، وما قالَ لِعَبْدِ الدّارِ فيما دُفِعَ إلَيْهِ مِمّا كانَ بِيَدِهِ؛ أبي إسْحاقُ بنُ يَسارٍ، عَنِ الحَسَنِ بنِ مُحَمَّدِ بنِ عَلِيِّ بنِ أبي طالِبٍ رَضِيَ الله عَنْهُمْ، قالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ ذلك لِرَجُلٍ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدّارِ يُقالُ لَهُ: نُبَيْهُ بنُ وهْبِ بنِ عامِرِ بنِ عِكْرِمةَ بنِ عامِرِ بنِ هاشِمِ ابنِ عَبْدِ مَنافِ بنِ عَبْدِ الدّارِ بنِ قُصَيٍّ.

قالَ الحَسَنُ: فجَعَلَ إلَيْهِ قُصَيٌّ كُلَّ ما كانَ بِيَدِهِ مِنْ أمْرِ قَوْمِهِ، وكانَ قُصَيٌّ لا يُخالَفُ، ولا يُرَدُّ عَلَيْهِ شَيْءٌ صَنَعَهُ.

وَذَكَرَ أنّ رِزاحًا حِينَ اسْتَقَرّ في بِلادِهِ نشر[1] الله ولَدَه وولد حُنّ بن رَبِيعةَ، فهُما حَيّا عُذْرةَ.

قالَ المُؤَلّفُ: في قُضاعةَ عُذْرَتانِ: عُذْرةُ بنُ رُفَيْدةَ، وهُمْ مِنْ كلبِ بنِ وبْرةَ. وعُذْرةُ بنُ سَعْدِ بنِ سَودِ بنِ أسْلُمِ بنِ الحاف بنِ قُضاعةَ، وأسْلُمُ هَذا هُوَ بِضَمّ اللّامِ، مِنْ ولَدِ حُنّ بنِ رَبِيعةَ أخِي رِزاحِ بنِ رَبِيعةَ، جَدّ جَمِيلِ بن عبد الله بنِ مَعْمَرٍ صاحِبِ بُثَيْنةَ، ومَعْمَرٌ هُوَ ابنُ الحارث بن خيبري بنِ ظَبْيانَ، وهُوَ الضّبيسُ بنُ حُنّ. وبُثَيْنةُ أيْضًا مِنْ ولَدِ حُنّ، وهِيَ بِنْتُ حبّانَ بنِ ثَعْلَبةَ بنِ الهَوْذِيّ بنِ عَمْرِو بنِ الأحَبّ بنِ حُنّ[2].

وَذَكَرَ حَوْتَكةَ بنَ أسْلُمٍ وبَنِي نهدِ بن زيدٍ، وإجلاءَ رِزاحٍ لهم. وَحَوْتَكةُ هُوَ: عَمّ نَهْدِ بنِ زَيْدِ بنِ أسْلُم، [ولَيْسَ في العَرَبِ أسْلُم بِضَمّ اللّامِ إلّا ثَلاثةٌ، اثْنانِ مِنْها في قُضاعةَ، وهُما: أسْلُمُ بنُ ....

(١) انظر: «جمهرة ابن حزم» (ص: ٤٤٩).

(٢) انظر: «المؤتلف والمختلف» للدارقطني: (١: ٢١١، ٥٠٦-٥٠٧)، (٤: ٢٣٢٤).

الحافِ][(١)] هَذا، وأسْلُمُ بنُ تَدُولَ بن تيم اللّات بن رُفَيدة بن ثور بن كَلْبٍ، والثّالِثُ في عَكّ: أَسْلُمُ بنُ القَياتةِ بنِ غافق بنِ الشّاهِدِ بنِ عَكّ، وما عَدا هَؤُلاءِ فأسْلَمُ بِفَتْحِ اللّامِ. ذَكَرَهُ ابنُ حبيب في «المؤتلف والمختلف»[(٢)].

وذَكَرَ تَنازُعَ بَنِي عَبْدِ مَنافٍ وبَنِي عَبْدِ الدّارِ فيما كانَ قُصَيّ جَعَلَ إِلَيْهِمْ، وذَكَرَ [في ذَلِكَ][(٣)] حِلْفَ المُطَيَّبِينَ، وسَمّاهُمْ، وذَكَرَ أَنّ امْرَأَةً مِنْ نِساءِ[(٤)] عَبْدِ مَنافٍ هِيَ الّتِي أَخْرَجَتْ لَهُمْ جَفْنَةً مِنْ طِيبٍ، فغَمَسُوا أَيْدِيَهُمْ فيها، [فسُمُّوا: المُطيِّبين][(٥)] ولَمْ يُسَمِّ المَرْأَةَ، وقَدْ سَمّاها الزّبَيْرُ في مَوْضِعَيْنِ مِنْ كِتابِهِ، فقالَ: هِيَ أُمّ حَكِيمٍ البَيْضاءُ بِنْتُ عَبْدِ المُطّلِبِ، عَمّةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وتَوْأمةُ أبيهِ.

قالَ: وكانَ المُطَيَّبُونَ يُسَمّوْنَ: الدّافةَ، جَمْع دائِفٍ بِتَخْفيفِ الفاءِ؛ لِأَنّهُمْ دافوا الطِّيب[(٦)].

وَذَكَرَ أَنّ القَبائِلَ سُونِدَ بَعْضُها إلى بَعْضٍ؛ لِتَكْفِيَ كُلّ قَبِيلَةٍ ما سُونِدَ إِلَيْها، فسُونِدَ: مِن السّنادِ، وهِيَ مُقابَلَةٌ في الحَرْبِ بَيْنَ كُلّ فرِيقٍ وما يَلِيهِ مِنْ عَدُوّهِ، ومِنْهُ أُخِذَ سِنادُ الشِّعْرِ؛ وهُوَ أَنْ يَتَقابَلَ المِصْراعانِ مِن البَيْتِ، فيَكُونُ قَبْلَ حَرْفِ[(٧)] الرّويّ حرف مدٍّ ولِين، ويَكُونُ في آخِرِ البَيْتِ الثّانِي قَبْلَ حَرْفِ الرّوِيّ

---

(١) سقط من (أ).

(٢) بعده في (ف): «فصل».

(٣) سقط من (ب).

(٤) بعده في (ف): «بني».

(٥) سقط من (هـ) و(ف).

(٦) داف المسكَ أو الطِّيب: خلطه، يقال: دافه في الماء، أو بَلّه، أو سَحَقه.

(٧) في (ف): «حروف».

حَرْفُ لِينٍ، وهِيَ ياءٌ أوْ واوٌ مَفْتُوحٌ ما قَبْلَها، كَقَوْلِ عَمْرِو بنِ كُلْثُومٍ(١): [من الوافر]

أَلا هُبِّي بِصَحْنِك فاصْبَحِينا

ثُمّ قابَلَهُ في بَيْتٍ آخَرَ بِقَوْلِهِ(٢): [من الوافر]

تُصَفِّقُهُ(٣) الرِّيـاحُ إذا جَرَيْنا

فكَأنّ الياءَ المَفْتُوحَ ما قَبْلَها قَدْ سُونِدَتْ إلى الياءِ المَكْسُورِ ما قَبْلَها، فتَقابَلَتا ـ وهُما غَيْرُ مُتَّفِقَتَيْنِ في المَدّ ـ كَما تَتَقابَلُ القبيلتانِ وهما مختلفتانِ متعاديتانِ.

وأما الإقواء(٤) فهُوَ أنْ تنْقُصَ قُوّةٌ مِن المِصْراعِ الأوّلِ، كَما تَنْقُصُ قُوّةٌ مِنْ قُوى الحَبْلِ؛ وذَلِكَ أنْ يَنْقُصَ مِنْ آخِرِ المِصْراعِ الأَوّلِ حَرْفٌ مِن الوَتَدِ، كَقَوْلِهِ(٥): [من الكامل]

أَفَبَعْـدَ مَقْتَلِ مالِـكِ بنِ زُهَيْرٍ   تَرْجُو النّساءُ عَواقِبَ الأَطْهارِ؟

وَكَقَوْلِ الآخَرِ(٦): [من الكامل]

---

(١) انظر «شرح معلقة عمرو بن كلثوم» لابن كيسان: (ص: ٤٤)، وعجزه:
ولا تُبقِـي خمورَ الأندرينا

(٢) «شرح المعلقة» (ص: ١٠٥)، وفيه: «تصفِّقها»، وصدره:
كأنّ غصونهـنّ متونُ غَدْرٍ

(٣) في (ف): «تصفقها».

(٤) يطلقون الإقواء على اختلاف حركات الرّوي ـ وهو كثير في الشعر وإن كان عيبًا ـ كما يطلقونه على نقصان الحرف من العروض، وهو ما يُراد به: القطع. انظر: «الشعر والشعراء» (١: ٩٥)، و«اللسان» (قوا).

(٥) الربيع بن زياد العبسي، كان سيِّدًا في قومه. انظر: «الحماسة بشرح المرزوقي» (ص: ٤٧١، ٤٨٤).

(٦) حَجْلُ بن نضلة، جاهلي وبيته في «الشعر والشعراء» (١: ٩٦)، وهو ثاني بيتَين لا ثالث =

لَمّا رَأتْ ماءَ السّلى[1] مَشْرُوبًا والفَرْثَ يُعْصَرُ في الإناء أرنَّتِ

وَكانَ الأصْمَعِيّ[2] يُسَمِّي هَذا الإقْواءَ[3]: المُقْعَدَ، ذَكَرَهُ عَنْهُ أبُو عُبَيْدٍ[4]، وقالَ عَدِيّ بنُ الرّقاعِ[5] في السّنادِ: [من الطويل]

وَقَصِيدةٍ قَدْ بِتُّ أجْمَعُ بَيْتَها حَتّى أُثَقّفَ مَيْلَها وسِنادَها

❊ ❊ ❊

= لهما، وأولهما:

حنّتْ نوارُ ولاتَ هنّا حَنَّتِ وبدا الذي كانتْ نوارُ أجنَّتِ

(١) السّلى: الجلدة الرقيقة التي يكون فيها الولد من الناس والخيل والإبل. وبكتْ نوارُ لأنها تيقَّنتْ في تلك المفازة الهلاك؛ حيث لا ماءَ إلّا ما يُعصَر من الغرث، وما خرج من المشيمة من بطونها.

(٢) نُسِبَ في «تاج العروس» (قعد) إلى الخليل بن أحمد.

(٣) في (أ)، (د): «من الإقواء».

(٤) في «التاج»: أبو عبيدة.

(٥) أموي، وكان شاعرًا محسنًا. انظر: «الشعر والشعراء» (٢: ٦١٨)، والبيت في: (٢: ٦١٩).

ذِكْرُ ما جَرى مِن اخْتِلافِ قُرَيْشٍ بَعْدَ قُصَيٍّ وحِلْفِ المُطَيَّبِينَ

[الخِلافُ بَيْنَ بَنِي عَبْدِ الدّارِ وبَنِي أعْمامِهِمْ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: ثُمَّ إنَّ قُصَيَّ بنَ كِلابٍ هَلَكَ، فأقامَ أمْرَهُ في قَوْمِهِ وفي غَيْرِهِمْ بَنُوهُ مِنْ بَعْدِهِ، فاخْتَطُّوا مَكَّةَ رِباعًا بَعْدَ الَّذي كانَ قَطَعَ لِقَوْمِهِ بِها، فكانُوا يَقْطَعُونَها في قَوْمِهِمْ وفي غَيْرِهِمْ مِنْ حُلَفائِهِمْ ويَبِيعُونَها، فأقامَتْ على ذلك قُرَيْشٌ مَعَهُمْ لَيْسَ بَيْنَهُم اخْتِلافٌ ولا تَنازُعٌ، ثُمَّ إنَّ بَنِي عَبْدِ مَنافِ ابن قُصَيٍّ ـ عَبْدَ شَمْسٍ، وهاشِمًا، والمُطَّلِبَ، ونَوْفَلًا ـ أجْمَعُوا على أنْ يَأْخُذُوا ما بِأيْدِي بَنِي عَبْدِ الدّارِ بنِ قُصَيٍّ مِمّا كانَ قُصَيٌّ جَعَلَ إلى عَبْدِ الدّارِ؛ مِن الحِجابةِ واللِّواءِ، والسِّقايةِ والرِّفادةِ، ورَأوْا أنَّهُمْ أوْلى بِذلك مِنْهُمْ؛ لِشَرَفِهِمْ عَلَيْهِمْ، وفَضْلِهِمْ في قَوْمِهِمْ، فتَفَرَّقَتْ عِنْدَ ذلك قُرَيْشٌ، فكانَتْ طائِفةٌ مَعَ بَنِي عَبْدِ مَنافٍ على رَأْيِهِمْ يَرَوْنَ أنَّهُمْ أحَقُّ بِهِ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدّارِ؛ لِمَكانِهِمْ في قَوْمِهِمْ، وكانَتْ طائِفةٌ مَعَ بَنِي عَبْدِ الدّارِ يَرَوْنَ ألّا يُنْزَعَ مِنْهُمْ ما كانَ قُصَيٌّ جَعَلَ إلَيْهِمْ.

[مَنْ ناصَرُوا بَنِي عَبْدِ الدّارِ، ومَنْ ناصَرُوا بَنِي أعْمامِهِمْ]

فَكانَ صاحِبَ أمْرِ بَنِي عَبْدِ مَنافٍ عَبْدُ شَمْسِ بنُ عَبْدِ مَنافٍ؛ وذلك أنَّهُ كانَ أسَنَّ بَنِي عَبْدِ مَنافٍ، وكانَ صاحِبَ أمْرِ بَنِي عَبْدِ الدّارِ عامِرُ بنُ هاشِمِ بنِ عَبْدِ مَنافِ بن عَبْدِ الدّارِ، فكانَ بَنُو أسَدِ بنِ عَبْدِ العُزّى بنِ قُصَيٍّ،

وبَنُو زُهْرةَ بنِ كِلابٍ، وبَنُو تَيْمِ بنِ مُرّةَ بنِ كَعْبٍ، وبَنُو الحارِثِ بنِ فِهْرِ بنِ مالِكِ بنِ النَّضْرِ؛ مَعَ بَنِي عَبْدِ مَنافٍ.

وَكانَ بَنُو مَخْزُومِ بنِ يَقَظةَ بنِ مُرّةَ، وبَنُو سَهْمِ بنِ عَمْرِو بنِ هُصَيْصِ بنِ كَعْبٍ، وبَنُو جُمَحَ بنِ عَمْرِو بنِ هُصَيْصِ بنِ كَعْبٍ، وبَنُو عَدِيِّ بنِ كَعْبٍ؛ مَعَ بَنِي عَبْدِ الدّارِ، وخَرَجَتْ عامِرُ بنُ لُؤَيٍّ ومُحارِبُ بنُ فِهْرٍ، فلَمْ يَكُونُوا مَعَ واحِدٍ مِن الفَرِيقَيْنِ.

فَعَقَدَ كُلُّ قَوْمٍ على أمْرِهِمْ حِلْفًا مُؤَكَّدًا على ألّا يَتَخاذَلُوا، ولا يُسْلِمَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ما بَلَّ بَحْرٌ صُوفةً.

[مَنْ دَخَلُوا في حِلْفِ المُطَيَّبِينَ]

فَأخْرَجَ بَنُو عَبْدِ مَنافٍ جَفْنةً مَمْلُوءةً طِيبًا، فيزْعُمُونَ أنَّ بَعْضَ نِساءِ بَنِي عَبْدِ مَنافٍ أخْرَجَتْها لَهُمْ، فوَضَعُوها لِأحْلافِهِمْ في المَسْجِدِ عِنْدَ الكَعْبةِ، ثُمَّ غَمَسَ القَوْمُ أيْدِيَهُمْ فيها، فتَعاقَدُوا وتَعاهَدُوا هُمْ وحُلَفاؤُهُمْ، ثُمَّ مَسَحُوا الكَعْبةَ بِأيْدِيهِمْ تَوْكِيدًا على أنْفُسِهِمْ، فسُمُّوا: المُطَيَّبِينَ.

[مَنْ دَخَلُوا في حِلْفِ الأحْلافِ]

وَتَعاقَدَ بَنُو عَبْدِ الدّارِ وتَعاهَدُوا هُمْ وحُلَفاؤُهُمْ عِنْدَ الكَعْبةِ حِلْفًا مُؤَكَّدًا؛ على ألّا يَتَخاذَلُوا ولا يُسْلِمَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فسُمُّوا: الأحْلافَ.

[تَوْزِيعُ القَبائِلِ في الحَرْبِ]

ثُمَّ سُونِدَ بَيْنَ القَبائِلِ، ولُزَّ بَعْضُها بِبَعْضٍ، فعُبِّيَتْ بَنُو عَبْدِ مَنافٍ لِبَنِي سَهْمٍ، وعُبِّيَتْ بَنُو أسَدٍ لِبَنِي عَبْدِ الدّارِ، وعُبِّيَتْ زُهْرةُ لِبَنِي جُمَحَ، وعُبِّيَتْ

بَنُو تَيْمٍ لِبَنِي مَخْزُومٍ، وعُبِّيَتْ بَنُو الحارِثِ بن فِهْرٍ لِبَنِي عَدِيِّ بنِ كَعْبٍ، ثُمَّ قالُوا: لِتُفْنِ كُلُّ قَبِيلةٍ مَنْ أُسْنِدَ إِلَيْها.

[ما تَصالَحَ القَوْمُ عَلَيْهِ]

فَبَيْنا النّاسُ على ذلك قَدْ أَجْمَعُوا لِلْحَرْبِ؛ إِذْ تَداعَوْا إلى الصُّلْحِ على أَنْ يُعْطُوا بَنِي عَبْدِ مَنافٍ السِّقايةَ والرِّفادةَ، وأَنْ تَكُونَ الحِجابةُ واللِّواءُ والنَّدْوةُ لِبَنِي عَبْدِ الدّارِ كَما كانَتْ، ففَعَلُوا ورَضِيَ كُلُّ واحِدٍ مِن الفَرِيقَيْنِ بِذلك، وتَحاجَزَ النّاسُ عَن الحَرْبِ، وثَبَتَ كُلُّ قَوْمٍ مَعَ مَنْ حالَفُوا، فلَمْ يَزالُوا على ذلك حَتّى جاءَ اللهُ تَعالى بِالإسْلامِ، فقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ما كانَ مِنْ حِلْفٍ في الجاهِلِيّةِ، فإِنَّ الإسْلامَ لَمْ يَزِدْهُ إِلّا شِدّةً».

حِلْفُ الفُضُولِ

[سَبَب تَسْمِيتِه كَذلك]

قالَ ابنُ هِشامٍ: وأَمّا حِلْفُ الفُضُولِ فحَدَّثَنِي زِيادُ بنُ عَبْدِ اللهِ البَكّائِيُّ، عَنْ مُحَمَّدِ بنِ إِسْحاقَ، قالَ:

تَداعَتْ قَبائِلُ مِنْ قُرَيْشٍ إلى حِلْفٍ، فاجْتَمَعُوا لَهُ في دارِ عَبْدِ اللهِ بنِ جُدْعانَ بن عَمْرِو بنِ كَعْبِ بنِ سَعْدِ بنِ تَيْمِ بنِ مُرّةَ بنِ كَعْبِ بنِ لُؤَيٍّ؛ لِشَرَفِهِ وسِنِّهِ، فكانَ حِلْفُهُمْ عِنْدَهُ: بَنُو هاشِمٍ، وبَنُو المُطَّلِبِ، وأَسَدُ بنُ عَبْدِ العُزّى، وزُهْرةُ بن كِلابٍ، وتَيْمُ بنُ مُرّةَ. فتَعاقَدُوا وتَعاهَدُوا على أَلّا يَجِدُوا بِمَكّةَ مَظْلُومًا مِنْ أَهْلِها وغَيْرِهِمْ مِمَّنْ دَخَلَها مِنْ سائِرِ النّاسِ إِلّا قامُوا مَعَهُ، وكانُوا على مَنْ ظَلَمَهُ حَتّى تُرَدَّ عَلَيْهِ مَظْلِمَتُهُ، فسَمَّتْ قُرَيْشٌ ذلك الحِلْفَ: حِلْفَ الفُضُولِ.

حِلْفُ الفُضُولِ

وذَكَرَ ابنُ هِشامٍ الحِلْفَ الّذِي عَقَدَتْهُ قُرَيْشٌ بَيْنَها على نُصْرةِ[١] كُلِّ مَظْلُومٍ بِمَكّةَ، قالَ: «ويُسَمّى: حِلْفَ الفُضُولِ»، ولَمْ يَذْكُرْ سَبَبَ هَذِهِ التّسْمِيةِ، وذَكَرَها ابنُ قُتَيْبةَ، فقالَ: كانَ قَدْ سَبَقَ قُرَيْشًا إلى مِثْلِ هَذا الحِلْفِ جُرْهُمٌ في الزّمَنِ الأوّلِ، فتَحالَفَ مِنْهُمْ ثَلاثةٌ هُمْ ومَنْ تَبِعَهُمْ؛ أحَدُهُمْ: الفَضْلُ بنُ فضالةَ، والثّانِي: الفضل بن وداعة، والثالث: الفضل بن الحارث. هَذا قَوْلُ القُتَبِيّ.

وقالَ الزّبَيْرُ: الفضلُ بنُ شُراعةَ، والفَضْلُ[٢] بنُ نُصاعة[٣]، والفَضْلُ بنُ قُضاعةَ، فلما أشبه حلفُ قُرَيْشٍ الآخرُ فِعْلَ هَؤُلاءِ الجُرْهُمِيّينَ سُمّيَ: حِلْفَ الفُضُولِ، والفُضُولُ[٤]:

جَمْعُ فضْلٍ، وهِيَ أسْماءُ أُولَئِكَ الّذِينَ تَقَدّمَ ذِكْرُهُمْ.

وهَذا الّذِي قالَهُ ابنُ قُتَيْبةَ حَسَنٌ، ولَكِنْ في الحَدِيثِ ما هُوَ أقْوى مِنْهُ [وأوْلى][٥].

رَوى الحُمَيْدِيُّ عَنْ سُفْيانَ، [عَنْ عَبْدِ اللهِ][٦] بنِ مُحَمّدٍ وعَبْدِ الرّحْمَنِ بنِ أبِي بَكْرٍ، قالا: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَقَدْ شَهِدْت في دارِ عَبْدِ اللهِ بنِ جُدْعانَ حِلْفًا، لَوْ دُعِيت بِهِ في الإسْلامِ لَأجَبْت؛ تَحالَفُوا أنْ تُرَدّ الفُضُولُ على أهْلِها،

(١) نُصْرَةِ

(٢) في (ب): «فضل». وفي (هـ)، (ج): «فضيل».

(٣) في (ف): «وداعة».

(٤) «والفضول» ليس في: (ف).

(٥) ليست في (ب)، (ج).

(٦) ليست في (ب).

وألّا يَعُزّ ظالِمٌ مظلومًا»[١]. ورواهُ في «مسندِه» الحارثُ بنُ أبِي أُسامةَ التّمِيمِيّ.

فقَدْ بَيّنَ هَذا الحَدِيثُ لِمَ سُمّيَ: حِلْفَ الفُضُولِ.

وكانَ حِلْفُ الفُضُولِ بَعْدَ الفِجارِ؛ وذَلِكَ أنّ حَرْبَ الفِجارِ كانَتْ في شَعْبانَ، وكانَ حِلف الفضول في ذِي القَعْدةِ قَبْلَ المَبْعَثِ بِعِشْرِينَ سَنةً، وكانَ حِلْفُ الفُضُولِ أكْرَمَ حِلْفٍ سُمِعَ بِهِ، وأشْرَفَهُ في العَرَبِ، وكانَ أوّلَ مَنْ تكَلّمَ بِهِ ودَعا إلَيْهِ: الزّبَيْرُ بنُ عَبْدِ المُطّلِبِ.

وكانَ سَبَبُهُ: أنّ رَجُلًا مِنْ زُبَيْدٍ قَدِمَ مَكّةَ بِبِضاعةٍ، فاشْتَراها مِنْهُ العاصِي ابنُ وائِلٍ، وكانَ ذا قَدْرٍ بِمَكّةَ [وشَرَفٍ][٢]، فحَبَسَ عَنْهُ حَقّهُ، فاسْتَعْدى عَلَيْهِ الزُّبَيْدِيّ الأحْلافَ: عَبْدَ الدّارِ، ومَخْزُومًا، وجُمَحَ، وسَهْمًا، وعَدِيّ بنَ كَعْبٍ، فأبَوْا أنْ يُعِينُوهُ[٣] على العاصِي بنِ وائِلٍ، وزَبَرُوهُ - أيْ: انْتَهَرُوهُ - فلَمّا رَأى الزُّبَيْدِيّ الشّرَّ أوْفى[٤] على أبِي قُبَيْسٍ عِنْدَ طُلُوعِ الشّمْسِ، وقُرَيْشٌ في أنْدِيَتِهِمْ حَوْلَ الكَعْبةِ، فصاحَ بِأعْلى صَوْتِهِ[٥]: [من البسيط]

يـا آلَ فِهْـرٍ لِمَظْلُـومٍ بِضاعَتُهُ ... بِبَطْـنِ مَكّةَ نائِي الـدّارِ والنّفَرِ

وَمُحْرِمٍ أشْعَثٍ لَمْ يَقْضِ عُمْرَتَهُ ... يا لَلرّجالِ وبَيْنَ الحِجْرِ والحَجَرِ

إنّ الحَرامَ لِمَنْ تَمّتْ كَرامَتُهُ[٦] ... ولا حَرامَ لِثَوْبِ الفاجِرِ الغُدَرِ

---

(١) أخرجه أيضًا الطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (١٥/ ٢٢١) برقم (٥٩٧١)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٦/ ٥٩٦).

(٢) سقط من (أ).

(٣) في (ف): «يعينوا».

(٤) في حاشية (أ): «أي ارتفع».

(٥) انظر الأبيات في: «الأغاني» (١٧: ١٨٥)، و«المنمق» (ص: ٥٢-٥٣).

(٦) في (ب): «إمامته».

فَقامَ في ذَلِكَ الزُّبَيْرُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ، وقالَ: ما لِهَذا مُترَكٌ؟ فاجْتَمَعَتْ هاشِمٌ وزُهْرةُ[١] وتَيْمُ بنُ مُرّةَ في دارِ [عبدِ اللهِ][٢] بنِ جُدْعانَ، فصَنَعَ لَهُمْ طَعامًا، وتَحالَفُوا في ذِي القَعْدةِ في شَهْرٍ حَرامٍ قِيامًا، فتَعاقَدُوا، وتعاهدوا بالله: ليكونُنَّ يدًا واحدةً مَعَ المَظْلُومِ على الظَّالِمِ، حَتّى يُؤَدّى إلَيْهِ حقُّه ما بلَّ بحرٌ صوفةً، وما رسا حِراءٌ وثَبيرٌ مَكانَهُما، وعلى التَّأسّي في المَعاشِ، فسَمّتْ قُرَيْشٌ ذَلِكَ الحِلْفَ: حِلْفَ الفُضُولِ، وقالُوا: لَقَدْ دَخَلَ هَؤُلاءِ [القومُ][٣] في فضْلٍ مِن الأمْرِ، ثم مشَوا إلى العاصي بن وائِلٍ، فانْتَزَعُوا مِنْهُ سِلْعةَ الزُّبَيْدِيّ، فدَفَعُوها إلَيْهِ، وقال الزُّبير: [من الوافر]

حَلَفتُ لنعقِـدَنْ حِلْفًا عَلَيْهِمْ وإنْ كُنّـا جَمِيعًـا أهْـلَ دارِ
نُسـمِّيه: الفُضـول إذا عَقَدنا يُعَزُّ به الغَرِيبُ لَدى الجِوارِ[٤]
ويَعْلَمُ مَنْ حَوالِـي البَيْتِ أنّا أُبـاةُ الضَّيْـمِ نَمْنَـعُ كُلَّ عارِ

وَقالَ [الزُّبَيْرُ بنُ][٥] عَبْدِ المُطَّلِبِ: [من الكامل]

إنّ الفُضُولَ تَحالَفُوا وتَعاقَدُوا ألّا يُقِيـمَ بِبَطْـنِ مَكّـةَ ظالِمُ
أمْرٌ عَلَيْهِ تحالفوا[٦] وتَعاهَدُوا فالجارُ والمُعْتَرُّ فيهِمْ سالِمُ[٧]

وَذَكَرَ قاسِمُ بنُ ثابِتٍ في «غَرِيبِ الحَدِيثِ»: أنّ رَجُلًا مِنْ خَثْعَمَ قَدِمَ مَكّةَ

---

(١) في (أ): «فاجتمعت زهرة»، وسقط ذكر هاشم.
(٢) من (أ)، (د).
(٣) من (أ)، (د).
(٤) في (أ): «جار».
(٥) ليس في (أ).
(٦) في (ف): «توثقوا».
(٧) كذا في (أ). وفي (ب): «تعاهدوا وتوافقوا». وفي (ج)، (هـ): «تعاقدوا وتواثقوا».

مُعْتَمِرًا، أوْ حاجًّا، ومَعَهُ بِنْتٌ لَهُ يُقالُ لَها: القَتُولُ[١]، مِنْ أوْضَأ نِساءِ العالَمِينَ، فاغْتَصَبَها مِنْهُ نُبَيْهُ بنُ الحَجّاجِ وغَيّبَها عَنْهُ، فقالَ الخَثْعَمِيّ: مَن يُعدِيني[٢] على هَذا الرّجُلِ؟ فقِيلَ لَهُ: عَلَيْك بحِلْفِ الفُضُولِ، فوَقَفَ عِنْدَ الكَعْبةِ، ونادى: يا لَحِلْفِ الفُضُولِ! فإذا هُمْ يُعْنِقُونَ[٣] إلَيْهِ مِنْ كُلّ جانِبٍ، وقَد انْتَضَوْا أسيافَهم، يقولون: جاءكَ الغوثُ، فما لكَ؟ فقالَ: إنّ نُبَيْهًا ظَلَمَني في بِنْتِي، وانْتَزَعَها مِنّي قَسْرًا. فسارُوا مَعَهُ، حَتّى وقَفُوا على بابِ دارِه، فخَرَجَ إلَيْهِمْ، فقالُوا لَهُ: أخْرِج الجارِيَةَ ويْحَكَ، فقَدْ عَلِمْتَ مَنْ نَحْنُ، وما تَعاقَدْنا عَلَيْهِ! فقالَ: أفْعَلُ، ولَكِنْ مَتِّعُونِي بِها اللّيْلَةَ. فقالُوا لَهُ: لا واللهِ، ولا شَخْبَ لِقْحةٍ، فأخْرَجَها إلَيْهِمْ، وهُوَ يَقُولُ: [من الوافر]

راحَ صَحْبِي ولَمْ أُحَيّ القَتُولا ... لَـمْ أُوَدّعْهُمْ وداعًـا جَمِيلا
إذ أَجَـدَّ الفُضُولُ أنْ يَمْنَعُوها ... قَدْ أرانِي ولا أخافُ الفُضُولا
لا تَخالِي أنّي عَشِـيّةَ راح الرْ ... رَكْـبُ هُنْتُمْ عَلَـيّ ألّا أقُولا

في أبْياتٍ غَيْرِ هَذِهِ ذَكَرَها الزّبَيْرُ، وذَكَرَ مِنْ قَوْلِهِ فيها أيْضًا: [من الكامل]

حَلّـتْ تِهامـةُ حِلّةً ... مِـنْ بَيْتِهـا ووِطائِها
وَلَهـا بِمَكّـةَ مَنْـزِلٌ ... مِنْ سَـهْلِها وحِرائِها
أخَذَتْ بشاشـة قلْبِهِ ... ونأتْ وكيف بِنائِها؟

[في أبياتٍ][٤].

---

(١) في (ب): «القتور».
(٢) أي: من ينصرني عليه؟
(٣) أي: يسرعون إليه.
(٤) عن (ب)، (ج)، (د).

[حَدِيثُ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَنْ حِلْفِ الفُضُولِ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: فحَدَّثَني مُحَمَّدُ بنُ زَيْدِ بنِ المُهاجِرِ بنِ قُنْفُذٍ التَّيْمِيُّ، أَنَّهُ سَمِعَ طَلْحةَ بنَ عَبْدِ الله بنِ عَوْفٍ الزُّهْرِيَّ يَقُولُ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَقَدْ شَهِدْتُ في دارِ عَبْدِ الله بنِ جُدْعانَ حِلْفًا، ما أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ، ولَوْ أُدْعى بِهِ في الإسْلامِ لَأَجَبْتُ».

فَصْلٌ

وذَكَرَ قَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «لَقَدْ شَهِدْتُ في دارِ عَبْدِ اللهِ بنِ جُدْعانَ [حِلْفًا ما أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ، ولَوْ دُعِيت إِلَيْهِ في الإِسْلامِ لَأَجَبْت».

وعَبْدُ اللهِ بنُ جُدْعانَ هَذا تَيْمِيّ، هُوَ: ابنُ جدعان][1] بن عمرو بنِ كَعْبِ ابنِ سَعْدِ بنِ تَيْمٍ، يُكَنّى: أبا زُهَيْرٍ، ابنُ عَمّ عائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْها، ولِذَلِكَ قالَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: إنّ ابنَ جُدْعانَ كانَ يُطْعِمُ الطّعامَ، ويَقْرِي الضّيْفَ، فهَلْ يَنْفَعُهُ ذَلِكَ يَوْمَ القِيامةِ؟ فقالَ: «لا؛ إنّهُ[2] لَمْ يَقُلْ يومًا: ربّ اغفر لي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدّينِ»[3]. خرَّجَهُ مُسْلِمٌ[4].

---

(١) سقط من (ب).

(٢) في (أ): «لأنه».

(٣) مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على الكفر لا ينفعه عمل: (١: ١٩٦).

(٤) انفردت (ج) بعده بما يأتي: «وفي مراسيل أبي داود أنه عليه السلام قال لها: «إنه لَيُخفّف عنه بسخائه»، أو نحو هذا الكلام».

ومِنْ «غَرِيبِ الحَدِيثِ» لِابنِ قُتَيْبةَ[١]: أنّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ: «كُنْتُ أسَتَظِلُّ بظِلّ جَفْنةِ عَبْدِ اللهِ بنِ جُدْعانَ صَكّةَ عُمَيٍّ، يَعْنِي: في الهاجِرةِ، وسُمّيَت الهاجِرةُ: صَكّةَ عُمَيٍّ بخبرٍ[٢] عجيبٍ[٣] ذَكَرَهُ أبُو حَنِيفةَ في «الأنْواءِ»: أنّ عُمَيًّا رَجُلٌ مِن عَدْوانَ، وقِيلَ: مِنْ إيادٍ، وكانَ فقِيهَ العَرَبِ في الجاهِلِيّةِ، فقَدِمَ في قَوْمٍ مُعْتَمِرًا أوْ حاجًّا، فلَمّا كانَ على مَرْحَلَتَيْنِ مِنْ مَكّةَ قالَ لِقَوْمِهِ وهُمْ في نَحْرِ الظّهِيرةِ: مَنْ أتى مَكّةَ غَدًا في مِثْلِ هَذا الوَقْتِ كانَ لَهُ أجْرُ عُمْرَتَيْنِ، فصَكّوا الإبِلَ صَكّةً شَدِيدةً حَتّى أتَوْا مَكّةَ مِن الغَدِ في مِثْلِ ذَلِكَ الوَقْتِ، وأنْشَدَ: [من الطويل]

وَصَكَّ بِها نَحْرَ الظّهِيرةِ صَكّةً عُمَيٌّ وما يَبْغِيــنَ إلّا ظِلالَها

في أبْياتٍ.

وعُمَيّ: تَصْغِيرُ أعْمى على التّرْخِيمِ، فسُمّيَت الظّهِيرةُ: صَكّةَ عُمَيٍّ بِهِ.

وقالَ البَكْرِيّ في «شَرْحِ الأمْثالِ»: عُمَيٌّ: رَجُلٌ مِن العَمالِيقِ أوْقَعَ بِالعَدُوّ في مِثْلِ ذَلِكَ الوَقْتِ، فسُمّيَ ذَلِكَ الوَقْتُ: صَكّة عُمَيٍّ.

والذي قاله أبو حنيفة أوْلى، وقائِلُهُ أعْلى.

وقالَ يَعْقُوبُ: عُمَيٌّ: الظّبْيُ يَتَحَيّرُ بَصَرُهُ في الظّهِيرةِ مِنْ شِدّةِ الحَرّ.

قالَ ابنُ قُتَيْبةَ[٤]: وكانَتْ جَفْنَتُهُ يَأْكُلُ مِنْها الرّاكِبُ على البَعِيرِ، وسَقَطَ فيها صَبِيّ، فغَرِقَ، أيْ: ماتَ. وكانَ أُمَيّةُ بنُ أبِي الصّلْتِ قَبْلَ أنْ يَمْدَحَهُ قَدْ أتى بَنِي

---

(١) «غريب الحديث» (١: ٤٥٥).

(٢) في (ف): «لخبر».

(٣) «عجيب» ليس في: ف.

(٤) «غريب الحديث» (١: ٤٥٥). وفي (هـ): «وسقط فيها صغير».

الدّيّانِ من بني الحارث بنِ كَعْبٍ، فرَأى طَعامَ بَنِي عَبْدِ المَدانِ مِنْهُمْ لُبابَ البُرّ والشُّهْدَ[١] والسّمْنَ، وكانَ ابنُ جُدْعانَ يُطْعِمُ التّمْرَ والسّوِيقَ ويَسْقِي اللّبَنَ، فقالَ أُمَيّةُ: [من الكامل]

وَلَقَدْ رَأيْتُ الفاعِلِينَ وفِعْلَهُمْ   فرَأيتُ أكْرَمَهُمْ بَنِي الدّيّانِ
البُرّ يُلْبَكُ بِالشِّهادِ طَعامُهُمْ   لا ما يعلّلنا بنو جُدعانِ[٢]

فَبَلَغَ شِعْرُهُ عَبْدَ اللهِ بنَ جُدْعانَ، فأرْسَلَ ألْفَيْ بَعِيرٍ إلى الشّام، تَحْمِلُ إلَيْهِ البُرّ والشّهْدَ والسّمْنَ، وجَعَلَ مُنادِيًا يُنادِي على الكَعْبَةِ: ألا هَلُمُّوا إلى جَفْنَةِ عَبْدِ اللهِ بنِ جُدْعانَ، فقالَ أُمَيّةُ عِنْدَ ذَلِكَ[٣]: [من الوافر]

لَهُ داعٍ بِمَكّةَ مُشْمَعِلٌّ[٤]   وآخَرُ فَوْقَ كَعْبَتِها يُنادِي
إلى رُدُحٍ[٥] مِن الشّيزى عَلَيْها   لُبابُ البُرّ يُلْبَكُ بِالشِّهادِ

وَكانَ ابنُ جُدْعانَ في بَدْءِ أمْرِهِ صُعْلُوكًا تَرِبَ اليَدَيْنِ، وكانَ مَعَ ذَلِكَ شِرّيرًا فاتكًا، لا يَزالُ يَجْنِي الجِناياتِ، فيَعْقِلُ عَنْهُ أبُوهُ وقَوْمُهُ، حَتّى أبْغَضَتْهُ عَشِيرَتُهُ، ونَفاهُ أبُوهُ وحَلَفَ: ألّا يُئْوِيَهُ أبَدًا؛ لِما أثْقَلَهُ بِهِ مِن الغُرْمِ، وحمَّله من الدِّياتِ، فخَرَجَ في شِعابِ مَكّةَ حائِرًا بائِرًا، يَتَمَنّى المَوْتَ أنْ يَنْزِلَ بِهِ، فرَأى شَقًّا في جَبَلٍ، [فظَنّ][٦] فيهِ حَيّةً، فتَعَرّضَ لِلشّقّ يَرْجُو أنْ يَكُونَ فيهِ ما يَقْتُلُهُ فيَسْتَرِيحَ،

(١) الشَّهد ـ بفتح الشين وضمها ـ: عسل النحل ما دام لم يُعصَر من شمعه، والقطعة منه شُهدة، والجمع: شِهادٌ.
(٢) يُلبَك، أي: يُخلَط. وعلَّل فلانًا بطعام أو غيره: شَغَله به ولهَّاه.
(٣) «ديوانه» (ص: ٦٣)، و«اللسان» (ردح، شيز، شمعل، لبك).
(٤) اشمعلّ القومُ في الطلب: إذا بادروا فيه وتفرقوا.
(٥) الرُّدُح: جمع رَداح، وهي الجفنة العظيمة. والشيزى: خشب أسود تُتّخذ منه الجفان.
(٦) سقط من (أ).

فلَمْ يَرَ شَيْئًا، فدَخلَ فيهِ، فإذا[١] ثُعْبانٌ عَظِيمٌ لَهُ عَيْنانِ تَقِدانِ كالسّراجَينِ.

فَحَمَلَ عَلَيْهِ الثُّعْبانُ، فأفْرَجَ لَهُ، فانْسابَ عَنْهُ مُسْتَدِيرًا بِدارةٍ [عِنْدَها بَيْتٌ، فخَطا خُطْوةً][٢] أُخْرى، فصَفَرَ[٣] بِهِ الثّعْبانُ، وأقْبَلَ إلَيْهِ كالسّهْمِ، فأفْرَجَ لهُ، فانْسابَ عَنْهُ قُدُمًا[٤] لا يَنْظُرُ إلَيْهِ، فوَقَعَ في نَفْسِهِ أنّهُ مَصْنُوعٌ، فأمْسَكَهُ بِيَدِهِ، فإذا هو مصنوع من ذَهَبٍ، وعيناه ياقوتتانِ، فكَسَّرَهُ، وأخَذَ عَيْنَيْهِ، ودَخلَ البَيْتَ، فإذا[٥] جُثَثٌ على سُرُرٍ[٦] طِوالٍ لَمْ يُرَ مِثْلُهُمْ طُولًا وعِظَمًا، وعند رؤوسِهم لوحٌ من فضّةٍ فيه تاريخُهم، وإذا هُمْ رِجالٌ مِنْ مُلُوكِ جُرْهُمٍ، وآخِرُهُمْ مَوْتًا: الحارث ابنُ مُضاضٍ صاحِبُ الغُرْبةِ الطّوِيلةِ، وإذا عَلَيْهِمْ ثِيابٌ لا يَمَسُّ مِنْها شَيئًا إلّا انْتَثَرَ كالهَباءِ مِنْ طُولِ الزّمَنِ، وشِعْرٌ مَكْتُوبٌ في اللّوْحِ فيهِ عِظاتٌ، آخِرُ بَيْتٍ مِنْهُ[٧]:

[من الخفيف]

صَاحِ هَلْ رَيْتَ أوْ سَمِعْتَ بِراعٍ
رَدَّ في الضَّرْعِ ما قَرى في الحِلابِ؟[٨]

---

(١) في (أ): «فرأى ثعبانًا عظيمًا».

(٢) سقط من (أ).

(٣) صَفَر به: دعاه بالصفير. وفي (ج): «ضَفَز»، ومعنى ضفز: وثب وعدا.

(٤) أي: إلى الأمام.

(٥) بعده في (ف): «فيه».

(٦) في (ف): «سرير».

(٧) البيت في «الأغاني» (٤: ٥٣٨) منسوبًا إلى إسماعيل بن يسار النَّسائي، شاعر أموي، وكان معروفًا بالشعوبية. وقد نقل البغدادي في «شرح شواهد الشافية» (ص: ٣٢٢) ما ذكره صاحب «الأغاني»، وقال: «ورأيت هذه الأبيات لأبي نُفَيلة، وكان من المعمَّرين». كذا قال، وسيأتي فيما ساقه السهيلي أنه نفيلة بن عبد المدان.

(٨) ريت: أصله رَأيتَ، فحذف الهمزة. والحِلاب: الإناء الذي يُحلبُ فيه. ويُروى: العِلاب، =

وَقالَ ابنُ هِشام: كانَ اللّوْحُ مِنْ رُخام، وكانَ فيهِ: أنا نُفيلة بن عبد المَدانِ ابن خَشْرَمِ بنِ عَبْدِ ياليلَ بنِ جُرْهُم بنِ قَحْطانَ بنِ هُودٍ نَبيِّ اللهِ، عِشْت خَمْسَ مئة عام، وقَطَعْت غَوْرَ الأرْضِ باطِنَها وظاهِرَها في طَلَبِ الثَّرْوةِ والمَجْدِ والمُلْكِ، فلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ [مِن المَوْتِ يُنْجِيني][1]. وتَحْتَهُ مَكْتُوب: [من الخفيف]

قَدْ قَطَعْت البِلادَ في طَلَبِ الثَّرْ ... وةِ والمَجْدِ قالِصَ الأثْوابِ[2]

وَسَرَيْت البِلادَ قَفْرًا لِقَفْرٍ ... بِقَناتِي وقُوّتي واكتسابي

فَأصابَ الرَّدى بَناتِ فُؤادِي ... بِسِهام مِن المَنايا صِيابِ[3]

فانْقَضَتْ شِرَّتِي وأقْصَرَ جَهْلِي ... واسْتَراحَتْ عَواذِلِي مِنْ عِتابِي[4]

وَدَفَعْت السَّفاهَ بِالحِلْمِ لَمّا ... نَزَلَ الشَّيْبُ في مَحَلِّ الشّبابِ

صاحِ هَلْ رَيْتَ أوْ سَمِعْت بِراعٍ ... رَدّ في الضَّرْعِ ما قَرى في الحِلابِ؟!

وَإذا في وسَطِ البَيْتِ كَوْمٌ عَظِيمٌ[5] مِن الياقُوتِ واللّؤْلُؤِ، والذّهَبِ، والفِضّةِ، والزّبَرْجَدِ، فأخَذَ مِنْهُ ما أخَذَ، ثُمّ عَلّمَ على الشّقِّ بِعَلامةٍ، وأغْلَقَ بابَهُ بِالحِجارةِ، وأرْسَلَ إلى أبِيهِ بِالمالِ الّذِي خَرَجَ بِهِ يَسْتَرْضِيهِ ويَسْتَعْطِفُهُ، ووَصَلَ عَشِيرَتَهُ كُلَّهُمْ، فَسادَهُمْ وجَعَلَ يُنْفِقُ مِنْ ذَلِكَ الكَنْزِ، ويُطْعِمُ النّاسَ، ويَفْعَلُ المَعْرُوفَ.

= جمع عُلبة، إناء يُحلَب فيه أيضًا. ومعنى البيت كقول المتنبِّي:

وما ماضي الشباب بمُستَرَدٍّ ... وما يومٌ يمرُّ بمُستعادِ

(١) كذا في (أ)، (د). وفي سائر النسخ: «ينجيني من الموت».

(٢) القالص من الثياب: المُشَمَّر القصير.

(٣) يقال: صابَ السهم يصيب صيبًا، كيصوب صوبًا: أصاب، وسهم صيوب: صائب، ويُجمَع على: صُيُب ككُتُب، وعلى فِعال كجبال. انظر: «مستدرك تاج العروس».

(٤) الشِّرّة: الحرص والرغبة والنشاط.

(٥) بعده في (هـ) زيادة: «الكوم ـ بالفتح ـ: اسم المكان المرتفع من الأرض كالرابية».

ذَكَرَ حَدِيثَ [كَنْزِ][1] ابنِ جُدْعانَ مَوْصُولًا بِحَدِيثِ الحارث بنِ مُضاضٍ: ابنُ هِشامٍ في غَيْرِ هَذا الكِتابِ، ووَقَعَ أيْضًا في كِتابِ «رِيّ العاطِشِ، وأُنْسِ الواحِشِ» لِأحْمَدَ بنِ عَمّارٍ[2].

وابنُ جُدْعانَ مِمّنْ حَرّمَ الخَمْرَ في الجاهِلِيّةِ بَعْدَ أنْ كان مُغرًى بها؛ وذلك أنّهُ سَكِرَ، فتَناوَلَ القَمَرَ لِيَأْخُذَهُ، فأُخْبِرَ بِذَلِكَ حِينَ صَحا، فحَلَفَ: ألّا[3][4] يَشْرَبَها أبَدًا[5].

ولَمّا كَبِرَ وهَرِمَ أرادَ بَنُو تَيْمٍ أنْ يَمْنَعُوهُ من تبديد[6][7] ماله، ولامُوهُ في العَطاءِ، فكانَ يَدْعُو الرّجُلَ، فإذا دَنا مِنْهُ لَطَمَهُ لَطْمةً خَفيفةً، ثُمّ يَقُولُ لَهُ: قُمْ فانْشُدْ لَطْمَتَك، واطْلُبْ دِيَتَها، فإذا فعَلَ ذَلِكَ أعْطَتْهُ بَنُو تَيْمٍ مِنْ مالِ ابنِ جُدْعانَ حَتّى يَرْضى، وهُوَ جَدُّ عبدِ[8] اللهِ بن أبِي مُلَيْكَةَ الفَقِيهِ.

والّذِي وقَعَ في هذا الحديث من ذِكر نُفَيلة، أحْسَبُهُ: نُفَيْلةَ بِالنّونِ والفاءِ؛ لِأنّ بَنِي نُفَيْلةَ كانُوا مُلُوكَ الحِيرةِ، وهُمْ مِنْ غَسّانَ، لا مِنْ جُرْهُمٍ، واللهُ أعْلَمُ.

---

(١) سقط من (أ).

(٢) هو أبو العباس أحمد بن عمّار المهدوي المقرئ، أصله من المهدية في القيروان، ورحل إلى الأندلس، تُوفِّي في نحو ٤٤٠هـ.

(٣) في (ج)، (هـ): «ألا يشربها».

(٤) في (ف): « لا».

(٥) انظر: «المحبر» لابن حبيب: (ص: ٢٤٠-٢٤١)، و«المنمق» له: (ص: ٤٢٢).

(٦) في (ج)، (هـ): «تبذير».

(٧) في (ف): «تبذير».

(٨) في (ف): «عبيد الله».

[نازَعَ الحُسَيْنُ الوَلِيدَ في حَقٍّ، وهَدَّدَ بِالدَّعْوةِ إلى حِلْفِ الفُضُولِ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وحَدَّثَني يَزِيدُ بنُ عَبْدِ الله بنِ أُسامةَ بنِ الهادِي اللَّيْثِيُّ، أنَّ مُحَمَّدَ بنَ إبْراهِيمَ بنِ الحارِثِ التَّيْمِيَّ حَدَّثَهُ: أنَّهُ كانَ بَيْنَ الحُسَيْنِ بنِ عَليِّ ابنِ أبي طالِبٍ رَضِيَ الله عَنْهُما، وبَيْنَ الوَلِيدِ بن عُتْبَةَ بنِ أبي سُفيانَ ـ والوَلِيدُ يَوْمَئِذٍ أميرٌ على المَدِينةِ أمَّرَهُ عَلَيْها عَمُّهُ مُعاوِيةُ بنُ أبي سُفيانَ ـ مُنازَعةٌ في مالٍ كانَ بَيْنَهُما بِذِي المَرْوةِ، فكانَ الوَلِيدُ تَحامَلَ على الحُسَيْنِ رَضِيَ الله عَنْهُ في حَقِّهِ لِسُلْطانِهِ، فقالَ لَهُ الحُسَيْنُ: أحْلِفُ بالله لَتُنْصِفَنِّي مِنْ حَقِّي أوْ لَآخُذَنَّ سَيْفي، ثُمَّ لَأقُومَنَّ في مَسْجِدِ رَسُولِ الله ﷺ، ثُمَّ لَأدْعُوَنَّ بِحِلْفِ الفُضُولِ. قالَ: فقالَ عَبْدُ الله بنُ الزُّبَيْرِ وهُوَ عِنْدَ الوَلِيدِ حِينَ قالَ الحُسَيْنُ رَضِيَ الله عَنْهُ ما قالَ: وأنا أحْلِفُ بالله، لَئِنْ دَعا بِهِ لَآخُذَنَّ سَيْفي، ثُمَّ لَأقُومَنَّ مَعَهُ حَتّى يُنْصَفَ مِنْ حَقِّهِ، أوْ نَمُوتَ جَمِيعًا. قالَ: فبَلَّغْتُ المِسْوَرَ ابنَ مَخْرَمةَ بنَ نَوْفَلٍ الزُّهْرِيَّ، فقالَ مِثْلَ ذلك، وبَلَّغْتُ عَبْدَ الرَّحْمنِ بنَ عُثْمانَ ابنِ عُبَيْدِ الله التَّيْمِيَّ، فقالَ مِثْلَ ذلك، فلَمّا بَلَغَ ذلك الوَلِيدَ بنَ عُتْبةَ أنْصَفَ الحُسَيْنَ مِنْ حَقِّهِ حَتّى رَضِيَ.

[سَألَ عَبْدُ المَلِكِ مُحَمَّدَ بنَ جُبَيْرٍ عَنْ عَبْدِ شَمْسٍ وبَنِي نَوْفَلٍ ودُخُولِهِما في حِلْفِ الفُضُولِ، فأخْبَرَهُ بِخُرُوجِهِما مِنْهُ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وحَدَّثَني يَزِيدُ بنُ عَبْدِ الله بنِ أُسامةَ بنِ الهادِي اللَّيْثِيُّ، عَنْ مُحَمَّدِ بنِ إبْراهِيمَ بنِ الحارِثِ التَّيْمِيِّ، قالَ: قَدِمَ مُحَمَّدُ بنُ جُبَيْرِ بنِ مُطْعِمٍ

ابنِ عَدِيِّ بنِ نَوْفَلِ بنِ عَبْدِ مَنافٍ ـ وكانَ مُحَمَّدُ بن جُبَيْرٍ أَعْلَمَ قُرَيْشٍ ـ على عَبْدِ المَلِكِ بنِ مَرْوانَ بنِ الحَكَمِ حِينَ قَتَلَ ابنَ الزُّبَيْرِ، واجْتَمَعَ النّاسُ على عَبْدِ المَلِكِ، فلَمّا دَخَلَ عَلَيْهِ قالَ لَهُ: يا أبا سَعِيدٍ، أَلَمْ نَكُنْ نَحْنُ وأَنْتُمْ ـ يَعْني: بَنِي عَبْدِ شَمْسِ بنِ عَبْدِ مَنافٍ، وبَنِي نَوْفَلِ بنِ عَبْدِ مَنافٍ ـ في حِلْفِ الفُضُولِ؟ قالَ: أَنْتَ أَعْلَمُ، قالَ عَبْدُ المَلِكِ: لِتُخْبِرَنِّي يا أبا سَعِيدٍ بِالحَقِّ مِنْ ذلك، فقالَ: لا واللهِ، لَقَدْ خَرَجْنا نَحْنُ وأَنْتُمْ مِنْهُ، قالَ: صَدَقْتَ.

تَمَّ خَبَرُ حِلْفِ الفُضُولِ.

فَصْلٌ

وذَكَرَ خَبَرَ الحُسَيْنِ مَعَ الوَلِيدِ بنِ عُتْبَةَ، وقَوْلَهُ: «لَآخُذَنَّ سَيْفي، ثُمّ لَأَدْعُوَنَّ بِحِلْفِ الفُضُولِ» إلى آخِرِ القِصّةِ.

وفيهِ مِن الفِقْهِ: تَخْصِيصُ أَهْلِ هَذا الحِلْفِ بالدّعْوةِ وإظْهارِ التّعَصّبِ إذا خافُوا ضَيْمًا، وإنْ كانَ الإسْلامُ قَدْ رَفَعَ ما كانَ في الجاهِلِيّةِ مِنْ قَوْلِهِمْ: «يا لَفُلانٍ!» عِنْدَ التّحَزّبِ والتّعَصّبِ، وقَدْ سَمِعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ المُرَيْسِيعِ رَجُلًا يَقُولُ: يا لَلْمُهاجِرِينَ! وقالَ آخَرُ[1]: يا للأَنْصارِ! فقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ[2]: «دَعُوها؛ فإنّها[3] مُنْتِنةٌ»، وقالَ عليهِ السّلام[4]: «مَن ادّعى بِدَعْوى الجاهِلِيّةِ،

(١) في (ف): «الآخر».

(٢) أخرجه البخاري ومسلم. انظر: «فتح الباري»، كتاب التفسير: (٨: ٦٥٢)، ومسلم، كتاب البر: (٤: ١٩٩٨-١٩٩٩).

(٣) في (ف): «إنها».

(٤) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٥: ١٣٦).

فأعِضُّوهُ بِهَنِ أبِيهِ ولا تكْنُوا[(١)]».

ونادى رجل في البصرة: يا لَعامر! فجاءَهُ النّابغةُ الجعديُّ بعُصيّةٍ له، فضَرَبَهُ أبُو مُوسى الأشْعَرِيّ خَمْسِينَ جَلْدةً؛ وذَلِكَ أنّ اللهَ سُبحانَهُ جَعَلَ المُؤْمِنِينَ إخْوةً، فلا يُقالُ إلّا كَما قالَ عُمَرُ: يا للهِ ويا لَلْمُسْلِمِينَ؛ لِأنّهُمْ كُلَّهُمْ [حِزْبٌ][(٢)] واحِدٌ، وإخْوةٌ في الدّينِ إلّا ما خَصّ الشّرْعُ بِهِ أهْلَ حِلْفِ الفُضُولِ، والأصْلُ في تَخْصِيصِهِ: قَوْلُهُ ﷺ: «ولَوْ دُعِيتُ بِهِ اليَوْمَ لَأجَبْتُ»، [يُرِيدُ: لَوْ قالَ قائِلٌ مِن المَظْلُومِينَ: [يا لَحِلْفِ الفُضُولِ لَأجَبْت][(٣)]؛ وذَلِكَ أنّ الإسْلامَ إنّما جاءَ بِإقامةِ الحَقّ، ونُصْرةِ المَظْلُومِينَ][(٤)]، فلَمْ يَزْدَدْ بِهِ هَذا الحِلْفُ إلّا قُوّةً.

وقَوْلُهُ عَلَيْهِ السّلامُ: «وَما كانَ مِنْ حِلْفٍ في الجاهِلِيّةِ، فلَنْ يَزِيدَهُ الإسْلامُ إلّا شِدّةً»[(٥)]، لَيْسَ مَعْناهُ: أنْ يَقُولَ الحَلِيفُ: يا لَفُلانٍ لِحُلَفائِهِ فيُجِيبُوهُ، بَل الشّدّةُ الّتِي عَنى رَسُولُ اللهِ ﷺ إنّما هِيَ راجِعةٌ إلى مَعْنى التّواصُلِ والتّعاطُفِ والتّآلُفِ، وأمّا دَعْوى الجاهِلِيّةِ فقَدْ رَفَعَهُ الإسْلامُ، إلّا ما كانَ مِنْ حِلْفِ الفُضُولِ كَما قَدّمْنا، فحُكْمُهُ باقٍ، والدّعْوةُ بِهِ جائِزةٌ.

وقَدْ ذَهَبَتْ طائِفةٌ مِن الفُقَهاءِ إلى أنّ الحَلِيفَ يَعْقِلُ مَعَ العاقلة إذا وجبت الدّيةُ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ: «وما كانَ مِنْ حِلْفٍ في الجاهِلِيّةِ، فلَمْ يَزِدْهُ الإسْلامُ إلّا شِدّةً»،

---

(١) زيد في (هـ) بعده: «ويُروى: ومن تعزّى بعزاء الجاهلية. خرجه أبو عبيد، وهو حديث لا يصح».

(٢) ليست في (أ).

(٣) سقط من (ب).

(٤) سقط من (أ).

(٥) أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة: (٤: ١٩٦١).

ولِقَوْلِهِ أيْضًا لِلّذِي حَبَسَهُ في المَسْجِدِ[١]: «إنّما حَبَسْتُك بِجَرِيرةِ حُلَفائِك»[٢].

فَصْلٌ

وذَكَرَ بَنِي عَبْدِ مَنافٍ الأرْبَعةَ، وقَدْ كانَ لَهُ ولَدٌ خامِسٌ، وهُوَ أبُو عَمْرٍو، واسْمُهُ: عُبَيْدٌ، دَرَجَ[٣] ولا عَقِبَ لَهُ، ذَكَرَهُ البَرْقِيّ والزُّبَيْرُ. وكَذَلِكَ ذَكَرَ البَرْقِيُّ أنّ قُصَيًّا كانَ سَمّى ابنَهُ: عَبْدَ قُصَيّ، وقالَ: سَمَّيْتُه بِنَفْسِي، وسَمَّيْتُ الآخَرَ بِدارِ الكَعْبةِ، يَعْنِي: عَبْدَ الدّارِ، ثُمّ إنّ النّاسَ حَوّلُوا اسْمَ عَبْدِ قُصَيٍّ، فقالُوا: عَبْدُ بنُ قُصَيّ، وقالَ الزّبَيْرُ أيْضًا: كانَ اسْمُ عَبْدِ الدار عبدَ الرحمن.

* * *

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب النذر: (٣: ١٢٦٢).

(٢) زيد بعده في (هـ): «وهي الجناية حيث وقعت؛ أي: ما جنى حلفاؤك عليك. وهو حديث صحيح».

(٣) في حاشية (أ): «يُقال درج فلان: إذا مات ولم تبق له ذُرِّية».

[وِلايةُ هاشِمٍ الرِّفادةَ والسِّقايةَ وما كانَ يَصْنَعُ إذا قَدِمَ الحاجُّ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: فوَلِيَ الرِّفادةَ والسِّقايةَ هاشِمُ بنُ عَبْدِ مَنافٍ؛ وذلك أنَّ عَبْدَ شَمْسٍ كانَ رَجُلًا سفارًا قَلَّما يُقِيمُ بِمَكّةَ، وكانَ مُقِلًّا ذا ولَدٍ، وكانَ هاشِمٌ مُوسِرًا، فكانَ ـ فيما يَزْعُمُونَ ـ إذا حَضَرَ الحاجُّ قامَ في قُرَيْشٍ، فقالَ: «يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إنَّكُمْ جِيرانُ الله وأهْلُ بَيْتِهِ، وإنَّهُ يَأْتِيكُمْ في هذا المَوْسِمِ زُوّارُ الله وحُجّاجُ بَيْتِهِ، وهُمْ ضَيْفُ الله، وأحَقُّ الضَّيْفِ بِالكَرامةِ ضَيْفُهُ، فاجْمَعُوا لَهُمْ ما تَصْنَعُونَ لَهُمْ بِهِ طَعامًا أيّامَهُمْ هَذِهِ الَّتي لا بُدَّ لَهُمْ مِن الإقامةِ بِها؛ فإنَّهُ والله لَوْ كانَ مالِي يَسَعُ لِذلك ما كَلَّفْتُكُمُوهُ». فيُخْرِجُونَ لِذلك خَرْجًا مِنْ أمْوالِهِمْ، كُلُّ امْرِئٍ بِقَدْرِ ما عِنْدَهُ، فيصنع بِهِ للحُجّاج طَعامًا حَتّى يصْدُرُوا مِنْها.

[شَيْءٌ مِنْ أعْمالِ هاشِمٍ]

وَكانَ هاشِمٌ ـ فيما يَزْعُمُونَ ـ أوَّلَ مَنْ سَنَّ الرِّحْلَتَيْنِ لِقُرَيْشٍ: رِحْلَتَي الشِّتاءِ والصَّيْفِ.

وَأوَّلَ مَنْ أطْعَمَ الثَّرِيدَ بِمَكّةَ، وإنَّما كانَ اسْمُهُ: عَمْرًا، فما سُمِّيَ هاشِمًا إلّا بهَشْمِه الخُبزَ بمَكّةَ لِقَوْمِهِ. فقالَ شاعِرٌ مِنْ قُرَيْشٍ، أوْ مِنْ بَعْضِ العَرَبِ:

عَمْرُو الَّذي هَشَمَ الثَّرِيدَ لِقَوْمِهِ ... قَوْمٍ بِمَكّةَ مُسْـنِتِينَ عِجافِ
سُـنَّتْ إلَيْهِ الرِّحْلَتانِ كِلاهُما ... سَفَـرُ الشِّتاءِ ورِحْلةُ الأصْيافِ

قالَ ابنُ هِشامٍ: أنْشَدَنِي بَعْضُ أهْلِ العِلْمِ بِالشِّعْرِ مِنْ أهْلِ الحِجازِ:

قَوْمٌ بِمَكّةَ مُسْنِتِينَ عِجافِ

[ولايةُ المطَّلِبِ الرِّفادةَ والسِّقايةَ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: ثُمَّ هَلَكَ هاشِمُ بنُ عَبْدِ مَنافٍ بِغَزّةَ مِنْ أرْضِ الشّامِ تاجِرًا، فوَلِيَ السِّقايةَ والرِّفادةَ مِنْ بَعْدِهِ المُطَّلِبُ بنُ عَبْدِ مَنافٍ، وكانَ أصْغَرَ مِنْ عَبْدِ شَمْسٍ وهاشِمٍ، وكانَ ذا شَرَفٍ في قَوْمِهِ وفَضْلٍ، وكانَتْ قُرَيْشٌ إنَّما تُسَمِّيهِ الفيضَ؛ لِسَماحَتِهِ وفَضْلِهِ.

وَذَكَرَ هاشِمًا [وما صَنَعَ في أمْرِ الرّفادةِ وإطْعامِ الحَجِيجِ، وأنّهُ سُمِّيَ هاشِمًا][1] لِهَشْمِهِ الثّرِيدَ لِقَوْمِهِ، والمَعْرُوفُ في اللّغةِ أنْ يُقالَ: ثَرَدْت الخُبْزَ، فهُوَ ثَرِيدٌ ومَثْرُودٌ، فلَمْ يُسَمَّ: ثارِدًا، وسُمّيَ: هاشِمًا، وكانَ القِياسُ كَما لا[2] يُسَمّى الثّرِيدُ: هَشِيمًا ـ بَلْ يُقالُ فيهِ: ثَرِيدٌ ومَثْرُودٌ ـ أنْ يُقالَ في اسْمِ الفاعِلِ أيْضًا كَذَلِكَ، ولَكِنْ سَبَبُ هَذِهِ التّسْمِيةِ يَحْتاجُ إلى زِيادةِ بَيانٍ.

ذَكَرَ أصْحابُ الأخْبارِ أنّ هاشِمًا كانَ يستعينُ على إطعامِ الحاجّ بقريش، فيرْفِدُونه بِأمْوالِهِمْ، ويُعِينُونَهُ، ثُمّ جاءَتْ أزْمةٌ شَدِيدةٌ فكَرِهَ أنْ يُكَلّفَ قُرَيْشًا شيئًا مِنْ أمْرِ الرِّفادةِ[3]، فاحْتَمَلَ إلى الشّامِ بِجَمِيعِ مالِهِ، واشْتَرى بِهِ أجْمَعَ كَعْكًا ودَقِيقًا، ثُمّ أتى ذلكَ المَوْسِمَ، فهَشَمَ ذَلِكَ الكَعْكَ كُلّهُ هَشْمًا، ودَقَّهُ دَقًّا، ثُمّ صَنَعَ لِلْحاجِّ طَعامًا شِبْهَ الثّرِيدِ، فبِذَلِكَ سُمِّيَ: هاشِمًا؛ لِأنّ الكَعْكَ اليابسَ لا

---

(١) سقط من (أ).

(٢) في (ف): «لم».

(٣) في (أ): «من أمر الزاد». وكلمة «أمر» ساقطة من (ب)، (ج)، (هـ).

يُثْرَدُ، وإنّما يُهْشَمُ هَشْمًا، فبِذَلِكَ مُدِحَ، حَتّى قالَ الشاعر ـ وهُوَ عَبْدُ اللهِ[١] بنُ الزِّبَعْرى ـ: [من الكامل]

كانَتْ قُرَيْشٌ بَيْضةً فتَفَلَّقَتْ فالمُخُّ خالِصُهُ لِعَبْدِ مَنافِ
الخالِطِينَ فقِيرَهُمْ بغنيِّهم والظاعنين[٢] لِرِحْلةِ الأَصْيافِ
والرّائِشِينَ ولَيْسَ[٣] يُوجَدُ رائِشٌ والقائِلِينَ: هَلُمَّ لِلْأَضْيافِ
عَمْرُو العُلا هَشَمَ الثّرِيدَ لِقَوْمِهِ قَوْمٍ[٤] بِمَكّةَ مُسْنِتِينَ عِجافِ[٥]

قالَ ابنُ هِشامٍ: كذلكَ أنشدَنيهِ بعضُ أهلِ العِلم.

قُلتُ: ورُوِيَ: «ورجالُ مكّةَ مُسنِتُونَ[٦]...»، ولكنَّ ابنَ هِشامٍ حكى ذلكَ عنْ بعضِ أهل العِلم بالشِّعرِ مِنْ أهلِ الحِجاز».

وَكانَ سَبَبُ مَدْحِ ابنِ الزِّبَعْرى بِهَذِهِ الأبْياتِ وهُوَ سَهْمِيٌّ لِبَنِي عَبْدِ مَنافٍ ـ فيما ذَكَرَهُ ابن إسحاق في رِوايةِ يُونُسَ ـ: أَنّهُ كانَ قَدْ هَجا قُصَيًّا بِشِعْرٍ كَتَبَهُ في أَسْتارِ الكَعْبةِ، أوّلُهُ: [من البسيط]

أَلْهى قُصيًّا عن المجدِ الأساطِيرُ ومِشْيةٌ مِثْلُ ما تَمْشِي الشّقارِيرُ

فاسْتَعْدَوْا عَلَيْهِ بَنِي سَهْمٍ[٧]، فأَسْلَمُوهُ إلَيْهِمْ، فضَرَبُوهُ وحَلَقُوا شَعْرَهُ،

---

(١) «عبد الله» ليس في (ف).
(٢) في (ف): «الراحلين».
(٣) في (ف): «ليست».
(٤) في (ف): «قومًا».
(٥) عن حاشية (د) مصحّحًا. ولفظ ابن هشام في «السيرة»: «أنشدني بعض أهل العلم بالشعر من أهل الحجاز:
قوم بمكّة مُسنتينَ عجاف».
(٦) بعده في (ف): «عجاف».
(٧) «بني سهم» في (ف): «بنو هاشم».

وربَطُوهُ إلى صَخْرةٍ بالحَجُونِ، فاسْتَغاثَ قَوْمَهُ فلَمْ يُغيثُوهُ، فجَعَلَ يَمْدَحُ قُصَيًّا ويَسْتَرْضِيهِمْ، فأطْلَقَهُ بَنُو عَبْدِ مَنافٍ مِنْهُمْ، وأكْرَمُوهُ، فمَدَحَهُمْ بِهَذا الشعر، وبأشعار كثيرةٍ، ذكرها ابن إسحاق في رِوايةِ يُونُسَ.

[زَواجُ هاشِمٍ]

وَكانَ هاشِمُ بنُ عَبْدِ مَنافٍ قَدِمَ المَدِينةَ فتَزَوَّجَ سَلْمى بِنْتَ عَمْرٍو أحَدِ بَنِي عَدِيِّ بنِ النَّجّارِ، وكانَتْ قَبْلَهُ عِنْدَ أُحَيْحَةَ بنِ الجُلاحِ بنِ الحَرِيشِ ـ قالَ ابنُ هِشامٍ: ويُقالُ: الحَرِيسُ ـ بنُ جَحْجَبى بنِ كُلْفةَ بنِ عَوْفِ بنِ عَمْرِو بنِ عَوْفِ ابنِ مالِكِ بن الأوْسِ، فوَلَدَتْ لَهُ عَمْـرَو بنَ أُحَيْحةَ، وكانَتْ لا تَنْكِحُ الرِّجالَ ـ لِشَرَفِها في قَوْمِها ـ حَتّى يَشْتَرِطُوا لَها أنَّ أمْرَها بِيَدِها، إذا كَرِهَتْ رَجُلًا فارَقَتْهُ.

[مِيلادُ عَبْدِ المُطَّلِبِ، وسَبَبُ تَسْمِيَتِهِ كَذلك]

فَوَلَدَتْ لِهاشِمٍ عَبْدَ المُطَّلِبِ، فسَمَّتْهُ: شَيْبَةَ، فتَرَكَهُ هاشِمٌ عِنْدَها حَتّى كانَ وصِيفًا أوْ فوْقَ ذلك، ثُمَّ خَرَجَ إلَيْهِ عَمُّهُ المُطَّلِبُ لِيَقْبِضَهُ فيُلْحِقَهُ بِبَلَدِهِ وقَوْمِهِ، فقالَتْ لَهُ سَلْمى: لَسْتُ بِمُرْسِلَتِهِ مَعَكَ، فقالَ لَها المُطَّلِبُ: إنِّي غَيْرُ مُنْصَرِفٍ حَتّى أخْرُجَ بِهِ مَعِي؛ إنَّ ابنَ أخِي قَدْ بَلَغَ، وهُوَ غَرِيبٌ في غَيْرِ قَوْمِهِ، ونَحْنُ أهْلُ بَيْتِ شَرَفٍ في قَوْمِنا، نَلِي كَثِيرًا مِنْ أُمُورِهِمْ، وقَوْمُهُ وبَلَدُهُ وعَشِيرَتُهُ خَيْرٌ لَهُ مِن الإقامةِ في غَيْرِهِمْ، أوْ كَما قالَ. وقالَ شَيْبَةُ لِعَمِّهِ المُطَّلِبِ ـ فيما يَزْعُمونَ ـ: لَسْتُ بِمُفارِقِها إلّا أنْ تَأْذَنَ لِي، فأذِنَتْ لَهُ، ودَفَعَتْهُ إلَيْهِ، فاحْتَمَلَهُ فدَخَلَ بِهِ مَكّةَ مُرْدِفَهُ مَعَهُ على بَعِيرِهِ، فقالَتْ قُرَيْشٌ: عَبْدُ المُطَّلِبِ ابْتاعَهُ، فبِها سُمِّيَ شَيْبَةُ: عَبْدَ المُطَّلِبِ. فقالَ المُطَّلِبُ: ويْحَكُمْ! إنَّما هُوَ ابنُ أخِي هاشِمٍ، قَدِمْتُ بِهِ مِن المَدِينةِ.

فَصْلٌ

وذَكَرَ نِكاحَ هاشِمٍ [سَلْمى بِنْتَ عَمْرٍو النَّجّارِيّةَ، وولادَتَها لَهُ عَبْدَ المُطَّلِبِ ابنَ هاشِمٍ](١)، ومِنْ أَجْلِ هَذِهِ الولادةِ قالَ سَيْفُ بن ذي يَزَنَ ـ أو ابنُهُ مَعْدِي كَرِبَ ابنُ سَيْفٍ ـ مَلِكُ اليَمَنِ لِعَبْدِ المُطَّلِبِ حِينَ وفَدَ عَلَيْهِ رَكْبٌ مِنْ قُرَيْشٍ: مَرْحَبًا يا ابنَ أُخْتِنا؛ لِأَنَّ سَلْمى مِن الخَزْرَجِ، وهُمْ مِن اليَمَنِ مِنْ سَبَأٍ، وسَيْفٌ مِنْ حِمْيَرَ بنِ سَبَأٍ، ثُمّ قالَ لَهُ: مَرْحَبًا وأَهْلًا، وناقَةً ورَحْلًا، ومَلِكًا سِبَحْلًا، يُعْطِي عَطاءً جَزْلًا. ثُمّ بَشَّرَهُ بالنّبيّ ﷺ وأَنّهُ مِنْ ولَدِهِ، فقالَ لَهُ عَبْدُ المُطَّلِبِ: مِثْلُك أَيُّها المَلِكُ سَرَّ وبَرَّ، ثُمّ أَجْزَلَ المَلِكُ حِباءَهُ، وفَضَّلَهُ على أَصْحابِهِ، وانْصَرَفَ مَغْبُوطًا على ما أَعْطاهُ المَلِكُ، فقالَ: واللهِ لَما بَشَّرَنِي بِهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ ما أَعْطانِي. في خَبَرٍ(٢) فيهِ طُولٌ.

وَذَكَرَ [نَسَبَ](٣) أُحَيْحةَ بنِ الجُلاحِ بنِ الحَرِيشِ بنِ جَحْجَبى، وقالَ ابنُ هِشامٍ: هُوَ الحَرِيسُ. يَعْنِي: بِالسّينِ المهملة. وقال الدّارَقطنيُّ(٤) عَن الزُّبَيْرِ بنِ أَبي بَكْرٍ: إِنّ كُلّ ما في الأَنْصارِ فهُوَ حَرِيسٌ بِالسّينِ غَيْرَ مُعْجمةٍ إلّا هَذا، ووَجَدْت في حاشِيَةِ كِتابِ أَبِي بَحْرٍ رَحِمَهُ اللهُ صَوابَ هَذا الِاسْمِ، يَعْنِي: في نَسَبِ أُحَيْحةَ بنِ الجُلاحِ: الحريش بالشين المعجمة، على لفظ الحريش بن كَعْبٍ؛ البَطْنِ الّذِي في عامِرِ بنِ صَعْصَعةَ.

* * *

(١) سقط من (هـ)، (ف).

(٢) انظر الخبر في: «المنمق» (ص: ٤٢٩)، و«الأغاني» (١٧: ٣١٤)، و«العقد الفريد» (١: ٢٩٠-٢٩٣).

(٣) ليست في (ب).

(٤) «المؤتلف والمختلف» (٢: ٦٠٩-٦١٠).

[مَوْتُ المُطَّلِبِ وما قِيلَ في رِثائِهِ مِن الشِّعْرِ]

ثُمَّ هَلَكَ المُطَّلِبُ بِرَدْمانَ مِنْ أَرْضِ اليَمَنِ، فقالَ رَجُلٌ مِن العَرَبِ يَبْكِيهِ:

قَدْ ظَمِئَ الحَجِيجُ بَعْدَ المُطَّلِبْ بَعْدَ الجِفانِ والشَّرابِ المُنْثَعِبْ
لَيْتَ قُرَيْشًا بَعْدَهُ على نَصَبْ

وقالَ مَطْرُودُ بنُ كَعْبٍ الخُزاعِيُّ، يَبْكِي المُطَّلِبَ وبَنِي عَبْدِ مَنافٍ جَمِيعًا حِينَ أَتاهُ نَعْيُ نَوْفَلِ بنِ عَبْدِ مَنافٍ، وكانَ نَوْفَلٌ آخِرَهُمْ هُلْكًا:

يا لَيْلَةً هَيَّجْتِ لَيْلاتِي إِحْدى لَيالِيَّ القَسِيّاتِ
وَما أُقاسِي مِنْ هُمُومٍ وما عالَجْتُ مِنْ رُزْءِ المَنِيّاتِ
إذا تَذَكَّرْتُ أَخِي نَوْفَلًا ذَكَّرَنِي بِالأَوَّلِيّاتِ
ذَكَّرَنِي بالأُزُرِ الحمر والـ ـأردية الصُّفْرِ القَشِيباتِ
أَرْبَعَةٌ كُلُّهُمُ سَيِّدٌ أبناءُ ساداتٍ لِساداتِ
مَيْتٌ بِرَدْمانَ ومَيْتٌ بِسَلْـ ـمانَ ومَيْتٌ عِنْدَ غَزّاتِ
وَمَيِّتٌ أُسْكِنَ لَحْدًا لَدى الْـ مَحْجُوبِ شَرْقِيَّ البَنِيّاتِ
أَخْلَصُهُمْ عَبْدُ مَنافٍ فهُمْ مِنْ لَوْمِ مَنْ لامَ بِمَنْجاةِ
إِنَّ المُغِيراتِ وأبناءَها مِنْ خَيْرِ أَحْياءٍ وأَمْواتِ

وكانَ اسْمُ عَبْدِ مَنافٍ: المُغِيرةَ، وكانَ أَوَّلُ بَنِي عَبْدِ مَنافٍ هُلْكًا هاشِمًا، بِغَزَّةَ مِنْ أَرْضِ الشّامِ، ثُمَّ عَبْدَ شَمْسٍ بِمَكّةَ، ثُمَّ المُطَّلِبَ بِرَدْمانَ مِنْ أَرْضِ اليَمَنِ، ثُمَّ نَوْفَلًا بِسَلْمانَ مِنْ ناحِيَةِ العِراقِ.

فَقِيلَ لِمَطْرُودٍ ـ فيما يَزْعُمُونَ ـ: لَقَدْ قُلْتَ فأحْسَنْتَ، ولَوْ كانَ أفْحَلَ مِمّا قُلْتَ كانَ أحْسَنَ، فقالَ: أنْظِرْنِي لَيالِيَ، فمَكَثَ أيّامًا، ثُمَّ قالَ:

يا عَيْنُ جُودي وأذْرِي الدَّمْعَ وانْهَمِرِي … وابْكِي على السِّرِّ مِنْ كَعْبِ المُغِيراتِ

يا عَيْنُ واسْحَنْفِرِي بِالدَّمْعِ واحْتَفِلِي … وابْكِي خَبِيئةَ نَفْسِي في المُلِمّاتِ

وابْكِي على كُلِّ فيّاضٍ أخِي ثِقةٍ … ضَخْمِ الدَّسِيعةِ وهّابِ الجَزِيلاتِ

مَحْضِ الضَّرِيبةِ عالِي الهَمِّ مُخْتَلِقٍ … جَلْدِ النَّحِيزةِ ناءٍ بِالعَظِيماتِ

صَعْبِ البَدِيهةِ لا نِكْسٍ ولا وَكِلٍ … ماضِي العَزِيمةِ مِتْلافِ الكَرِيماتِ

صَقْرٍ تَوَسَّطَ مِنْ كَعْبٍ إذا نُسِبُوا … بُحْبُوحةَ المَجْدِ والشُّمِّ الرَّفِيعاتِ

ثُمَّ انْدُبِي الفيضَ والفيّاضَ مُطَّلِبًا … واسْتَخْرِطِي بَعْدَ فيضاتٍ بِجُمّاتِ

أمْسى بِرَدْمانَ عَنّا اليَوْمَ مُغْتَرِبًا … يا لَهْفَ نَفْسِي عَلَيْهِ بَيْنَ أمْواتِ

وابْكِي، لَكِ الوَيْلُ، إمّا كُنْتِ باكِيةً … لِعَبْدِ شَمْسٍ بِشَرْقِيِّ البَنِيّاتِ

وَهاشِمٍ في ضَرِيحٍ وسْطَ بَلْقَعةٍ … تَسْفِي الرِّياحُ عَلَيْهِ بَيْنَ غَزّاتِ

وَنَوْفَل كانَ دُونَ القَوْمِ خالِصَتِي … أمْسى بِسَلْمانَ في رَمْسٍ بِمَوْماةِ

لَمْ ألْقَ مِثْلَهُمُ عُجْمًا ولا عَرَبًا … إذا اسْتَقَلَّتْ بِهِمْ أُدْمُ المَطِيّاتِ

أمْسَتْ دِيارُهُمُ مِنْهُمْ مُعَطَّلةً … وقَدْ يَكُونُونَ زَيْنًا في السَّرِيّاتِ

أفْناهُمُ الدَّهْرُ أمْ كَلَّتْ سُيُوفُهُمُ … أمْ كُلُّ مَنْ عاش أزْوادُ المَنِيّاتِ؟

أصْبَحْتُ أرْضى مِن الأقْوامِ بَعْدَهُمُ … بَسْطَ الوُجُوهِ وإلْقاءَ التَّحِيّاتِ

يا عَيْنُ فابْكِي أبا الشُّعْثِ الشَّجِيّاتِ … يَبْكِينَهُ حُسَّرًا مِثْلَ البَلِيّاتِ

يَبْكِينَ أكْرَمَ مَنْ يَمْشِي على قَدَمٍ … يُعْوِلْنَهُ بِدُمُوعٍ بَعْدَ عَبَراتِ

يَبْكِينَ شَخْصًا طَوِيلَ الباعِ ذا فَجَرٍ … آبِي الهَضِيمةِ فَرّاجَ الجَلِيلاتِ

يَبْكِينَ عَمْرَو العُلا إذْ حانَ مَصْرَعُهُ … سَمْحَ السَّجِيّةِ بَسّامَ العَشِيّاتِ

يَبْكِينَــهُ مُسْــتَكِيناتٍ على حَزَنٍ ... يا طُولَ ذلك مِنْ حُــزْنٍ وعَوْلاتِ
يَبْكِــينَ لَمّــا جَلاهُنَّ الزَّمــانُ لَهُ ... خُــضْرَ الخُدُودِ كَأمْثــالِ الحَمِيّاتِ
مُحْتَزِمــاتٍ على أوْســاطِهِنَّ لِمــا ... جَرَّ الزَّمانُ مِنَ احْداثِ المُصِيباتِ
أبيتُ لَيْــلِي أُراعِي النَّجْــمَ مِنْ ألَمٍ ... أبْكِــي وتَبْكِي مَعِي شَــجْوي بُنَيّاتي
ما في القُرُومِ لَهُــمْ عِدْلٌ ولا خَطَرٌ ... ولا لِمَــنْ تركُــوا شروى بقيّــاتِ
أبناؤُهُــمْ خَــيْرُ أبناءٍ وأنْفُسُــهُمْ ... خَيْرُ النّفــوس لَدى جَهد الألِيّاتِ
كَــمْ وهَبُوا مِنْ طِمِرٍّ ســابِحٍ أرِنٍ ... ومِــنْ طِمِــرّةٍ نَهْــبٍ في طِمِرّاتِ
وَمِنْ سُــيُوفٍ مِن الهِنْدِيِّ مُخْلَصةٍ ... ومِنْ رِمــاحٍ كَأشْــطانِ الرَّكِيّاتِ
وَمِــنْ تَوابِــعَ مِمّا يُفْضِلُــونَ بِها ... عِنْدَ المَســائِلِ مِنْ بَذْلِ العَطِيّاتِ
فَلَوْ حَسَبْتُ وأحْصى الحاسِبُونَ مَعِي ... لَمْ أقْــضِ أفعالَهُمْ تِلْــكَ الهَنِيّاتِ
هُم المُدِلُّــونَ إمّا مَعْــشَرٌ فَخَرُوا ... عِنْــدَ الفَخــارِ بِأنْســابٍ نَقِيّاتِ
زَيْنُ البُيُوتِ الَّتِي خَلَّوْا مَســاكِنَها ... فأصْبَحَــتْ مِنْهُمُ وحْشًــا خَلِيّاتِ
أَقُولُ والعــينُ لا تــرقى مَدامِعُها ... لا يُبْعِــدُ الله أصْحــابَ الرَّزِيّاتِ

قالَ ابنُ هِشامٍ: الفَجَرُ: العَطاءُ. قالَ أبو خِراشٍ الهُذَلِيُّ:

عَجَّفَ أضْيافي جَمِيلُ بنُ مَعْمَرٍ ... بِذِي فجَرٍ تَأْوِي إلَيْهِ الأرامِلُ

قالَ ابنُ إسْحاقَ: أبو الشُّعْثِ الشَّجِيّاتِ: هاشِمُ بنُ عَبْدِ مَنافٍ.

فَصْلٌ

وأنْشَدَ لِمَطْرُودِ بنِ كَعْبٍ[1]: [من الرجز]

---

(١) «المنمق» (ص: ٤٥-٤٦).

يا لَيْلةً هَيّجْتِ لَيْلاتِي إحْدى لَيالِيّ القَسِيّاتِ

أيْ: أنْتِ إحْدى لَيالِيّ القَسِيّاتِ. فعِيلاتٌ مِن القَسْوةِ، أيْ: لا لِين عِنْدَهُنّ، ولا رَأْفةَ فيهِنّ، ويَجُوزُ أنْ تكُونَ عِنْدَهُمْ مِن الدّرْهَمِ القَسِيّ، وهُوَ الزّائِفُ، وقَدْ قِيلَ في الدِّرْهَم القَسِيّ[1]: إنّهُ أعْجَمِيّ مُعَرّبٌ، وقِيلَ: هُوَ مِن القَساوةِ؛ لِأنّ الدّرْهَمَ الطّيّبَ ألْيَنُ مِن الزّائِفِ، والزّائِفُ أصْلَبُ مِنْهُ. ونَصَبَ (لَيْلةً) على التّمْيِيزِ، كَذَلِكَ قالَ سِيبَوَيْهِ[2] في قول الصَّلَتان العبديّ[3]: [من الطويل]

أيا شاعِرًا لا شاعرَ اليومَ مِثْلَهُ

وَذَلِكَ أنّ في الكَلامِ مَعْنى التّعَجُّبِ[4].

وَقَوْلُهُ: «ومَيْتٌ بينَ غَزّاتِ»[5] هِيَ: غَزّةُ، ولَكِنّهُمْ يَجْعَلُونَ لِكُلِّ ناحِيةٍ أوْ لِكُلّ رَبَضٍ مِن البَلْدةِ اسْمَ البَلْدةِ، فيَقُولُونَ: غَزّاتٍ في غَزّةَ، ويَقُولُونَ: بَغادِينَ في بَغْدانَ، كَما قالَ بَعْضُ المُحْدَثِينَ: [من مجزوء الوافر]

شَرِبنا في بَغادِينِ على تِلْكَ المَيادِينِ

وَلِهَذا نَظائِرُ سَتَمُرّ في [هذا][6] الكِتابِ إنْ شاءَ اللهُ. ومِنْ هَذا البابِ: حُكْمُهُمْ لِلْبَعْضِ بِحُكْمِ الكُلِّ، كَما سمّوه باسمه، نحو قولهم: شَرِقَتْ صدر

(١) انظر: «المعرب» للجواليقي، بتحقيق: ف. عبد الرحيم: (ص: ٤٩٦).
(٢) «الكتاب» (١: ٣٢٨)، و«المقتضب» (٤: ٢١٥).
(٣) هو قثم بن خبيئة، من عبد القيس، شاعر أموي، والبيت في «الخزانة» (١: ٣٠٤)، وعجزه:
جريرٌ ولكن في كليبٍ تواضعُ
(٤) بعده في (ج): «فكأنه قال: يا عجبًا لها ليلة».
(٥) كذا في (د). وفي بقية النسخ: «وميت بغزات». وفي «السيرة»: «وميت عند غزات». وسيأتي في «الروض» عند نص «السيرة» (١: ١٩١) عن (أ) وحدها: «وميت بين غزات».
(٦) عن (أ).

القَناةِ[1]، وذَهَبَتْ بَعْضُ أصابِعِهِ[2]، وتَواضَعَتْ سُورُ المَدِينَةِ.

وقَدْ تَرَكَّبَتْ على هَذا الأصْلِ مسألة مِن الفِقْهِ: قالَ الفُقَهاءُ ـ أوْ أكْثَرُهُمْ ـ: مَنْ حَلَفَ ألّا يَأْكُلَ هَذا الرَّغِيفَ، فأكَلَ بَعْضَهُ، قَدْ حَنِثَ، فحَكَمُوا لِلْبَعْضِ بِحُكْمِ الكُلِّ، وأطْلَقُوا عَلَيْهِ اسْمَهُ.

وفيهِ[3]: [من الرجز]

إنّ المُغِيـراتِ وأبناءَها   مِنْ خَيْـرِ أحْياءٍ وأمْواتِ

فالمُغِيراتُ: بَنُو المُغِيرةِ، وهُوَ عَبْدُ مَنافٍ، كَما قالُوا: المَناذِرةُ في بَنِي المُنْذِرِ، والأشْعَرُونَ في بَنِي أشْعَرَ بنِ أُدَدٍ، وكَما قالَ عَلِيٌّ[4] بنُ عَبْدِ اللهِ بنِ عَبّاسٍ في ابنِ الزّبَيْرِ: آثَرَ عَلَيّ الحُمَيْداتِ والتّوَيْتاتِ والأُسامات، يَعْنِي: بَنِي حُمَيْدٍ، وبَنِي تُوَيْتٍ، وبَنِي أُسامةَ، وهُمْ مِنْ بَنِي أسَدِ بنِ عبد العُزّى[5].

وَفيهِ «شَرْقِيّ البَنِيّاتِ»، يَعْنِي: البَنِيّةَ، وهِيَ الكَعْبةُ، وهو نحو مما تقدَّمَ في «غَزّاتٍ».

وَأنْشَدَ لَهُ أيضًا في القَصِيدةِ التّاوِيّةِ: [من البسيط]

---

(١) من بيت للأعشى، وهو من «شواهد سيبويه» (١: ٥٢)، والبيت بتمامه:

وتَشْرق بالقولِ الذي قد أذعتَهُ   كما شَرِقتْ صدرُ القناةِ من الدّمِ

(٢) تمثل به سيبويه: (١: ٥١)، وقال: «وربما قالوا في بعض الكلام: ذهبت بعض أصابعه. وإنما أنث البعض؛ لأنه أضافه إلى مؤنث هو منه...».

(٣) البيت في «المنمق» (ص: ٤٥)، و«المحبر» (ص: ١٦٣)، و«أنساب الأشراف» (١: ٦٢).

(٤) في حاشية (د): «إنما هو عبد الله بن عباس رضي الله عنهما لا ابنه علي، والحديث في «صحيح البخاري» معروف. وانظره في «البخاري» في تفسير سورة براءة»، انظر: «فتح الباري» (٨: ٣٢٦).

(٥) انظر: «جمهرة أنساب العرب» لابن حزم: (ص: ١١٧-١١٨).

مَحْضِ الضَّرِيبةِ عالِي الهَمِّ مُخْتَلَقِ

أيْ: عَظِيمِ الخَلْقِ: [من البسيط]

جَلْدِ النَّحِيزةِ ناءٍ بالعَظِيماتِ

لَيسَ قَوْلُهُ: «ناءٍ» مِن النَّأْيِ، فتَكُونَ الهَمْزةُ فيهِ عَيْنَ الفِعْلِ، وإنّما هُوَ مِنْ: ناءَ يَنُوءُ؛ إذا نَهَضَ، فالهَمْزةُ فيهِ لامُ الفِعْلِ، كَما هُوَ في «جاءٍ» عِنْدَ الخَلِيلِ[1]؛ فإنّهُ عِنْدَهُ مَقْلُوبٌ، ووَزْنُهُ: فالِعٌ، والياءُ الّتِي بَعْدَ الهَمْزةِ هِيَ عَيْنُ الفِعْلِ في: جاء يَجِيء.

وَفيهِ «الشُّعْث الشَّجِيّات» فشَدّدَ ياءَ الشّجِيّ، وإنْ كانَ أهْلُ اللّغةِ قَدْ قالُوا: ياءُ الشَّجِي مُخَفَّفةٌ، وياءُ الخَلِيِّ مُشَدّدةٌ، وقَد اعْتَرَضَ ابنُ قُتَيْبَةَ على أَبِي تَمّامٍ الطّائِيّ في قَوْلِهِ: [من الوافر]

أيا ويحَ الشّــجِيِّ مِنَ الخَلِيِّ وَوَيْحَ الدّمْــعِ مِنْ إحْدى بَلِيِّ

واحْتَجّ بِقَوْلِ يَعْقُوبَ في ذَلِكَ، فقالَ له الطائي: ومن أفصحُ عِندك: ابن الجرمقانيّة يَعْقُوبُ، أمْ أبُو الأسْوَدِ الدُّؤَلِيّ[2]: [من الكامل]

وَيْلَ الشَّــجِيِّ مِنَ الخَلِيّ فإنّهُ وَصِبُ الفُؤادِ بِشَجْوِهِ مَغْمُومُ

وبَيْتُ مَطْرُودٍ أقْوى في الحُجّةِ مِنْ بَيْتِ أبِي الأسْوَدِ الدّؤَلِيّ؛ لِأَنّهُ جاهِلِيٌّ[3] مُحَكَّكٌ، وأبُو الأسْوَدِ أوّلُ مَنْ صَنَعَ النّحْوَ، فشِعْرُهُ قَرِيبٌ مِن التّوْلِيدِ، ولا يَمْتَنِعُ في القِياسِ أيْضًا أنْ يُقالَ: شَجٍ وشَجِيّ؛ لِأنّهُ في مَعْنى: حَزِنٍ وحَزِينٍ، وقَدْ قِيلَ: مَنْ شَدّدَ الياءَ فهُوَ فعِيلٌ بِمَعْنى: مفعول. وفيهِ بُعْدٌ.

---

(١) انظر: «الكتاب» (٤: ٣٧٧)، و«شرح الشافية» للرضي: (١: ٢٥).

(٢) بعده في (ف): «حيث يقول».

(٣) «جاهلي» ليست في: (ف).

قَوْلُهُ: «... أبا الشّعْثِ الشَّجِيّاتِ يَبْكِينَهُ حُسَّرًا مِثْلَ البَلِيّاتِ».

البَلِيّةُ: النّاقةُ الّتِي كانَتْ تُعْقَلُ عِنْدَ قَبْرِ صاحِبِها إذا ماتَ، حَتّى تموت جَوْعًا وعَطَشًا، ويَقُولُونَ: إنّهُ يُحْشَرُ راكِبًا عَلَيْها، ومَنْ لَمْ يُفْعَلْ مَعَهُ هَذا حُشِرَ راجِلًا، وهَذا على مَذْهَبِ مَنْ كانَ مِنْهُمْ يَقُولُ بِالبَعْثِ، وهُم الأقَلّ، ومِنْهُمْ زُهَيْرٌ؛ فإنّهُ قالَ: [من الطويل]

يُؤَخَّرْ فيُوضَعْ في كِتابٍ فيُدّخَرْ ... لِيَوْمِ الحِسابِ أوْ يُعَجّلْ فيُنْقَمِ

وَقالَ الشّاعِرُ في البَلِيّةِ: [من الوافر]

والبلايا رُؤُوسُها في الولايا ... مانحاتِ السّمُومِ حُرَّ الخُدُودِ

والوَلايا: هِيَ البَراذِعُ، وكانُوا يَثْقُبُونَ البَرْذَعةَ، فيَجْعَلُونَها في عُنُقِ البَلِيَّةِ وهِيَ مَعْقُولةٌ حَتّى تَمُوتَ، وأوْصى رَجُلٌ ابنَهُ عِنْدَ المَوْتِ بِهَذا، فقال: [من الكامل]

لا أعرفَنَّ أباك يُحْشَرُ مرّةً ... عَدْوًا يَخِرُّ على اليَدَيْنِ ويَنْكُبُ

في أبْياتٍ ذكرها الخطابيُّ.

وقوله: «قيامًا كالحَميّات»[1]؛ أي: مُحتَرِقاتِ الأكْبادِ كالبَقَرِ أوِ الظّباءِ الّتِي حُمِيَت الماءَ وهِيَ عاطِشةٌ، فحَمِيّةٌ بِمَعْنى: مَحْمِيّةٍ، لَكِنّها جاءَتْ بالتاء؛ لأنها أُجرِيتْ مُجْرى الأسْماءِ، كالرَّمِيّةِ والضَّحِيّةِ والطَّرِيدةِ، وفي مَعْنى الحَمِيِّ قَوْلُ رُؤْبةَ[2] [عندي][3]: [من الرجز]

---

(١) كذا في النسخ، وفي (ط). ونص «السيرة»: «كأمثال الحميات».

(٢) كذا، وهو في «الكتاب» (١: ٢٦) للعجاج.

(٣) ليست في (أ).

قَواطِنًا[١] مَكّةَ مِنْ وُرْقِ الحَمِي

يُرِيدُ: الحَمامَ المَحْمِيَّ؛ أي: المَمْنُوعَ.

وَقَوْلُهُ: «في رَمْسٍ بِمَوْماةٍ» الأظْهَرُ فيهِ أنْ تَكُونَ المِيمُ أصْلِيّةً، وتكُونَ مِمّا ضُوعِفَتْ فاؤُهُ وعَيْنُهُ، وحَمْلُهُ على هَذا الأَصْلِ أوْلى؛ لِكَثْرَتِهِ في الكَلامِ، وإنْ كانَ أصْلُ المِيمِ أنْ تَكُونَ زائِدةً إذا كانَتْ أوّلَ الكَلِمةِ الرّباعِيّةِ أو الخُماسِيّةِ، إلّا أنْ يَمْنَعَ مِنْ ذَلِكَ اشْتِقاقٌ، [ولا اشْتِقاقَ][٢][٣]، أوْ يَمْنَعَ مِنْ ذَلِكَ دُخُولُهُ فيما قَلّ في الكَلامِ، نَحْوُ: قَلَقٍ وسَلَسٍ.

قالَ أبُو عَلِيّ في المَرْمَرِ: حَمْلُهُ على بابِ: قَرْقَرَ وبَرْبَرَ أوْلى مِنْ حَمْلِهِ على بابِ: قَلَقٍ وسَلَسٍ، يُرِيدُ: أنّك إنْ جَعَلْت [المِيمَ زائِدةً كانَتْ فاءُ الفِعْلِ ـ وهِيَ الراء ـ مضاعفةً دون عين الفعل، وهي المِيمُ، وإذا جَعَلْتَ][٤] المِيمَ الأُولى في «مَرْمَرَ» أصلية كان من باب ما ضُوعِفت فيهِ الفاءُ والعَيْنُ، وهَذا مَعْنى قَوْلِ سِيبَوَيْهِ في المَرْمَرِ[٥]: «وهُوَ القِياسُ المُسْتَتِبُّ[٦]، والطّرِيقُ المَهْيَعُ دُونَ ما ضُوعِفَتْ فيهِ الفاءُ وحْدَها، فتأمّله».

وَقَوْلُهُ: «طَوِيلَ الباعِ ذا فجَرٍ» الفَجَرُ: الجُودُ؛ شُبّهَ بِانْفِجارِ الماءِ. ويُرْوى: «ذا فنَعٍ»، والفَنَعُ: كَثْرةُ المالِ، وقَدْ قالَ أبُو مِحْجَنٍ الثّقَفيّ[٧]: [من البسيط]

---

(١) في (ف): «قواطن».

(٢) ليست في (ب).

(٣) بعده في (ف): «ههنا».

(٤) سقط من (أ).

(٥) «الكتاب» (٤: ٣٩٤).

(٦) أي: المستقيم. وطريق مهيع: واضح واسع بيّن.

(٧) البيت في «اللسان» (فنع).

وَقَدْ أجُودُ وما مالِي بِذِي فنَعٍ ... وأكْتُمُ السّــرّ فيهِ ضَرْبةُ العُنُقِ

وَقَوْلُهُ: «بَسّامَ العَشِيّاتِ»، يَعْنِي: أنّهُ يَضْحَكُ لِلْأضْيافِ، ويَبْسِمُ عِنْدَ لِقائِهِمْ، كما قال الآخر[1]: [من الطويل]

أُضاحِكُ ضَيْفِــي قَبْلَ إنْــزالِ رَحْلِهِ ... ويُخْصِــبُ عِنْدِي والمَحَــلُّ جَدِيبُ

وَما الخِصْبُ لِلْأضْيافِ أنْ تُكْثِرَ القِرى ... ولَكِنّمــا وجْــهُ الكَرِيــمِ خَصِيــبُ

* * *

(١) في حاشية (د): «حاتم الطائي». وقد أُضِيف ذلك إلى نص (أ)، (ب)، (هـ)، (ف)، فأصبح: «كما قال الآخر حاتم الطائي».

[وِلايةُ عَبْدِ المُطَّلِبِ السِّقايةَ والرِّفادةَ]

قالَ: ثُمَّ وَلِيَ عَبْدُ المُطَّلِبِ بنُ هاشِمٍ السِّقايةَ والرِّفادةَ بَعْدَ عَمِّهِ المُطَّلِبِ، فأقامَها لِلنّاسِ، وأقامَ لِقَوْمِهِ ما كانَ آباؤُهُ يُقِيمُونَ قَبْلَهُ لِقَوْمِهِمْ مِنْ أمْرِهِمْ، وشَرُفَ في قَوْمِهِ شَرَفًا لَمْ يَبْلُغْهُ أحَدٌ مِنْ آبائِهِ، وأحَبَّهُ قَوْمُهُ وعَظُمَ خَطَرُهُ فيهِمْ.

ذِكْرُ حَفْرِ زَمْزَمَ وما جَرى مِن الخُلْفِ فيها

[الرُّؤْيا الَّتِي أُرِيها عَبْدُ المُطَّلِبِ في حَفْرِ زَمْزَمَ]

ثُمَّ إنَّ عَبْدَ المُطَّلِبِ بَيْنَما هُوَ نائِمٌ في الحِجْرِ؛ إذْ أُتِيَ فأُمِرَ بِحَفْرِ زَمْزَمَ.

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وكانَ أوَّلَ ما ابْتُدِئَ بِهِ عَبْدُ المُطَّلِبِ مِنْ حَفْرِها، كَما حَدَّثَنِي يَزِيدُ بنُ أبِي حَبِيبٍ المِصْرِيُّ، عَنْ مَرْثَدِ بنِ عَبْدِ اللهِ اليَزَنِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بن زُرَيْرٍ الغافِقِيِّ: أنَّهُ سَمِعَ عَلِيَّ بنَ أبِي طالِبٍ رَضِيَ اللهُ تَعالى عَنْهُ يُحَدِّثُ حَدِيثَ زَمْزَمَ حِينَ أُمِرَ عَبْدُ المُطَّلِبِ بِحَفْرِها، قالَ:

قالَ عَبْدُ المُطَّلِبِ: إنِّي لَنائِمٌ في الحِجْرِ إذْ أتانِي آتٍ، فقالَ: احْفِرْ طَيْبَةَ. قالَ: قُلْتُ: وما طَيْبَةُ؟ قالَ: ثُمَّ ذَهَبَ عَنِّي. فلَمّا كانَ الغَدُ رَجَعْتُ إلى مَضْجَعِي فنِمْتُ فيهِ، فجاءَنِي فقالَ: احْفِرْ بَرَّةَ. قالَ: وما بَرَّةُ؟ قالَ: ثُمَّ ذَهَبَ عَنِّي. فلَمّا كانَ الغَدُ رَجَعْتُ إلى مَضْجَعِي فنِمْتُ فيهِ، فجاءَنِي فقالَ: احْفِرِ المَضْنُونةَ. قالَ: فقُلْتُ: وما المَضْنُونةُ؟ قالَ: ثُمَّ ذَهَبَ عَنِّي. فلَمّا كانَ الغَدُ رَجَعْتُ إلى

مَضْجَعِي فنِمْتُ فيهِ، فجاءَنِي فقالَ: احْفِرْ زَمْزَمَ. قالَ: قُلْتُ: وما زَمْزَمُ؟ قالَ: لا تَنْزِفُ أبَدًا ولا تُذَمُّ، تَسْقِي الحَجِيجَ الأعْظَمَ، وهِيَ بَيْنَ الفَرْثِ والدَّمِ، عِنْدَ نُقْرَةِ الغُرابِ الأعْصَمِ، عِنْدَ قَرْيَةِ النَّمْلِ.

حَدِيثُ زَمْزَمَ

وكانَتْ زَمْزَمُ ـ كَما تَقَدَّمَ ـ سُقْيا إسْماعِيلَ عَلَيْهِ السَّلامُ، فجَّرَها لَهُ رُوحُ القُدُسِ بِعَقِبِهِ، وفي تَفْجِيرِهِ إيّاها بِالعَقِبِ دُونَ أنْ يُفَجِّرَها بِاليَدِ أوْ غَيْرِها[1]: إشارةٌ إلى أنّها لِعَقِبِهِ وِراثةً، وهُوَ مُحَمّدٌ ﷺ وأُمّتُهُ، كَما قالَ سُبْحانَهُ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ [الزخرف: ٢٨]؛ أيْ: في [أُمّةِ][2] مُحَمّدٍ ﷺ. ثُمَّ إنَّ زَمْزَمَ لَمّا أحْدَثَتْ جُرْهُمٌ في الحَرَمِ، واسْتَخَفُّوا بِالمَناسِكِ والحُرَمِ، وبَغى بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ واجْتَرَمَ؛ تَغَوَّرَ ماءُ زَمْزَمَ واكْتَتَمَ، فلما أخرج الله جُرْهُمًا[3] مِنْ مَكّةَ بِالأسْبابِ الّتِي تَقَدَّمَ ذِكْرُها، عَمَدَ الحارث بنُ مُضاضٍ الأصْغَرُ إلى ما كانَ عِنْدَهُ مِنْ مالِ الكَعْبةِ، وفيهِ غَزالانِ مِنْ ذَهَبٍ وأسْيافٌ قَلَعِيّةٌ[4] كانَ ساسانُ مَلِكُ الفُرْسِ قَدْ أهْداها إلى الكَعْبةِ، وقِيلَ: سابُورُ، وقَدْ قَدَّمْنا أن الأوائل من ملوك الفُرْسِ كانَتْ تَحُجّها إلى عَهْدِ ساسانَ أوْ سابُورَ، فلَمّا عَلِمَ ابنُ مُضاضٍ أنّهُ مُخْرَجٌ مِنْها، جاءَ تَحْتَ اللّيْلِ حَتّى دَفَنَ ذَلِكَ في زَمْزَمَ، وعَفّى عَلَيْها.

---

(١) في (ب)، (هـ): «أو غيره».

(٢) سقط من (أ).

(٣) في (ف): «جرهم».

(٤) السيوف القَلَعيَّة: منسوبة إلى القَلَعة ـ بفتح القاف واللام ـ وهي موضع بالبادية تُنسب السيوف إليه. وزاد ياقوت: «وقيل: هي القرية التي دون حلوان العراق».

ولَمْ تزَلْ دارِسةً عافيًا أثَرُها، حتّى آنَ مَوْلِدُ المُبارَكِ الّذِي كانَ يُسْتَسْقى بِوَجْهِهِ غَيْثُ السّماءِ وتَتَفَجّرُ مِنْ بَنانِهِ يَنابِيعُ الماءِ، صاحِبِ الكَوْثَرِ والحَوْضِ الرّواء، فلما آن ظهوره أذِن لله تَعالى لِسُقْيا أبِيهِ أنْ تَظْهَرَ، ولِما انْدَفَنَ مِنْ مائِها أنْ يُجْتَهَرَ(١).

فكانَ ﷺ قَدْ سَقَتِ النّاسَ بَرَكَتُهُ(٢) قَبْلَ أنْ يُولَدَ وسُقُوا بدَعْوَتِه، وهُوَ طِفْلٌ حِينَ أجْدَبَ بهم البَلَدُ، وذَلِكَ حِينَ خَرَجَ بِهِ جَدّهُ مُسْتَسْقِيًا لِقُرَيْشٍ، وسَيأْتِي بَيانُ(٣) ذَلِكَ فيما بَعْدُ إنْ شاءَ اللهُ، وسُقِيَت الخَلِيقةُ كُلّها غُيُوثَ السّماءِ في حَياتِهِ [الفَيْنَةَ بَعْدَ الفَيْنةِ](٤)(٥)، والمَرّةَ بَعْدَ المَرّةِ، تارةً بدُعائِهِ، وتارةً ببَنانِهِ، وتارةً بإلْقاءِ سَهْمِهِ، ثُمّ بَعْدَ مَوْتِهِ اسْتَشْفَعَ عُمَرُ بعَمّهِ إلى اللهِ تعالى عام الرّمادة، وأقْسَمَ عَلَيْهِ بِهِ وبِنَبِيّهِ، فلَمْ يَبْرَحْ حَتّى قلَّصُوا(٦) المآزِر، واعتلقوا الحذاء، وخاضُوا الغُدْرانَ، وسَمِعَت الرّفاقُ المُقْبِلةُ إلى المَدِينةِ في ذَلِكَ اليَوْم صائِحًا يَصِيحُ في السّحابِ: أتاكَ الغَوْثُ أبا حَفْصٍ، أتاكَ الغَوْثُ [أبا حَفْصٍ](٧).

كُلّ هَذا ببَرَكةِ المُبْتَعَثِ بالرّحْمَتَيْنِ، والدّاعِي إلى الحَياتَيْنِ، المَوْعُودِ بِهِما [على يَدَيْهِ](٨) في الدّارَيْنِ، ﷺ صَلاةً تَصْعَدُ ولا تَنْفَدُ، وتَتّصِلُ ولا تَنْفَصِلُ، وتُقِيمُ ولا تَرِيمُ، إنّهُ مُنْعِمٌ كَرِيمٌ.

---

(١) أي: يُنْزَح.
(٢) في (ب): «سقيت الناس ببركته».
(٣) في (ف): «نبأ».
(٤) سقط من (أ).
(٥) بعده في (ف): « يريد الوقت بعد الوقت، وهو من أسماء الزمان».
(٦) أي: شمروها.
(٧) ليست في (ب).
(٨) سقط من (أ).

فَصْلٌ

فأُرِي عَبْدُ المُطّلِبِ في مَنامِهِ: أنِ احْفِرْ طَيبةَ، سُمِّيَتْ: طَيبةَ؛ لِأنّها لِلطّيّبينَ والطّيّباتِ مِنْ ولَدِ إبْراهِيمَ وإسْماعِيلَ عَلَيْهِما السّلامُ.

وقِيلَ لَهُ: احفِرْ بَرّةَ، وهُوَ اسْمٌ صادِقٌ عَلَيْها أيْضًا؛ لِأنّها فاضَتْ لِلْأبْرارِ، وغاضَتْ عَنِ الفُجّارِ.

وقِيلَ لَهُ: احْفِرِ المَضْنُونةَ. قالَ وهْبُ بنُ مُنَبِّهٍ: سُمّيَتْ زَمْزَمُ: المَضْنُونةَ؛ لِأنّها ضُنّ بِها على غَيْرِ المُؤْمِنِينَ، فلا يَتَضَلّعُ مِنْها مُنافِقٌ. ورَوى الدّارَقُطْنِيّ ما يُقَوّي ذَلِكَ مُسْنَدًا عَنِ النّبِيّ ﷺ: «مَنْ شَرِبَ مِنْ زَمْزَمَ فلْيَتَضَلَّعْ [منها][1]؛ فإنّهُ فرْقُ ما بَيْنَنا وبَيْنَ المنافقين، لا يستَطِيعون أن يَتضلَّعوا منها»[2]، أوْ كَما قالَ.

وفي تَسْمِيَتِها بِالمَضْنُونةِ[3] رِوايةٌ أُخْرى رَواها الزُّبَيْرُ: أنّ عَبْدَ المُطّلِبِ قِيلَ لَهُ: احْفِرِ المَضْنُونةَ؛ ضَنِنْتُ بِها على النّاسِ إلّا عَلَيْك. أوْ كَما قالَ.

وَدُلَّ عَلَيْها بِعَلاماتٍ ثَلاثٍ: بِنُقْرةِ الغُرابِ الأعْصَمِ، وأنّها بَيْنَ الفَرْثِ والدّمِ، وعِنْدَ قَرْيةِ النّمْلِ.

ويُرْوى أنّهُ لَمّا قامَ لِيَحْفِرَها رَأى ما رُسِمَ مِنْ قَرْيةِ النّمْلِ ونُقْرةِ الغُرابِ الأعصمِ، ولَمْ يَرَ الفَرْثَ والدّمَ، فبَيْنما هُوَ كَذَلِكَ نَدّتْ بَقَرةٌ لِجازِرِها، فلَمْ يُدْرِكْها حَتّى دَخَلَت المَسْجِدَ الحَرامَ، فنَحَرَها في المَوْضِعِ الّذِي رُسِمَ [لِعَبْدِ المُطّلِبِ][4]،

---

(١) سقط من (أ)، (ف).

(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة: (١٣٢)، والإمام أحمد في «مسنده» (٥: ١٧٥).

(٣) في (ف): «المضنونة».

(٤) ما بين المعقوفين يقابله في (ف): «له».

فسالَ هُناكَ[١] الفَرْثُ والدّمُ، فحَفَرَ عَبْدُ المُطَّلِبِ حَيْثُ رُسِمَ لَهُ.

وَلَمْ تُخَصّ هَذِهِ العَلاماتُ الثّلاثُ بِأَنْ تكُونَ دَلِيلًا عَلَيْها إلّا لِحِكْمةٍ إِلَهِيّةٍ، وفائِدةٍ مُشاكِلةٍ في عِلْمِ التّعْبيرِ، والتّوَسّمِ الصّادِقِ لِمَعْنى زَمْزَمَ ومائِها.

أما الفَرْثُ والدّمُ فإنّ ماءَها طَعامُ طُعْمٍ، وشِفاءُ سُقْمٍ، وهِيَ لِما شُرِبَتْ له، وقد تَقَوَّتَ من مائها أبو ذَرٍّ ثَلاثِينَ بَيْنَ يَوْمٍ ولَيْلةٍ، فسَمِنَ حَتّى تكَسّرَتْ عُكَنُهُ، فهِيَ إذًا كَما قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ في اللّبَنِ[٢]: «إذا شَرِبَ أحَدُكُمْ[٣] فلْيَقُلْ: اللهُمّ بارِكْ لَنا فيهِ وزِدْنا مِنْهُ؛ فإنّهُ لَيسَ شَيْءٌ يَسُدّ مَسَدّ الطّعامِ والشّرابِ إلّا اللّبَنُ»، وقَدْ قالَ اللهُ تَعالى في اللّبَنِ: ﴿ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ [النحل: ٦٦]، فظَهَرَتْ هَذِهِ السُّقْيا المُبارَكةُ بَيْنَ الفَرْثِ والدّمِ، وكانَتْ تِلْكَ مِنْ دَلائِلِها المُشاكِلةِ لِمَعْناها.

وَأمّا قَوْلُهُ: «الغُرابِ الأعْصَمِ» [فقد][٤] قالَ القُتَبِيُّ: الأعْصَمُ [مِن الغِرْبانِ][٥]: الّذِي في جَناحَيْهِ بَياضٌ، [وحَمَلَ على أبِي عُبَيْدٍ لِقَوْلِهِ في شَرْحِ الحَدِيثِ: الأعْصَمُ الّذِي في يَدَيْهِ بَياضٌ][٦]، وقالَ: كَيْفَ يَكُونُ لِلْغُرابِ يَدانِ؟! وإنّما أرادَ أبُو عُبَيْدٍ أنّ هَذا الوَصْفَ لِذَواتِ الأرْبَعِ؛ ولِذَلِكَ قالَ: إنّ هَذا الوَصْفَ في الغِرْبانِ عَزِيزٌ، وكَأنّهُ ذَهَبَ إلى الّذِي أرادَ ابنُ قُتَيْبةَ مِنْ بَياضِ الجَناحَيْنِ، ولَوْلا ذَلِكَ لَقالَ: إنّهُ في الغِرْبانِ مُحالٌ لا يُتَصَوّرُ.

---

(١) في (ف): «هنالك».

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الأشربة، باب ما يقول إذا شرب اللبن: (٣: ٣٣٩).

(٣) بعده في (ف): «اللبن».

(٤) زيادة يستقيم بها السياق.

(٥) عن (أ)، (ف).

(٦) سقط من (أ).

وفي «مُسْنَدِ ابنِ أَبِي شَيْبَةَ» مِنْ طَرِيقِ أَبِي أُمامةَ، عَن النَّبِيِّ ﷺ ما يُغْنِي عَنْ قَوْلَيْهِما، وفيهِ الشِّفاءُ؛ وذلك أَنَّهُ قالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «المَرْأَةُ الصَّالِحةُ في النِّساءِ كالغُرابِ الأَعْصَمِ». قِيلَ: يا رَسُولَ اللهِ، وما الغُرابُ الأَعْصَمُ؟ قالَ: «الَّذِي إحدى رِجليه بيضاءُ»[1].

فالغُرابُ في التَّأْوِيلِ: فاسِقٌ، وهُوَ أَسْوَدُ، فدَلَّتْ نُقْرَتُهُ عِنْدَ الكَعْبةِ على نُقْرةِ الأَسْوَدِ الحَبَشِيِّ بِمِعْوَلِهِ في أساسِ الكَعْبةِ يَهْدِمُها في آخِرِ الزّمانِ، فكانَ[2] نَقْرُ الغُرابِ في ذَلِكَ المَكانِ، يُؤْذِنُ بِما يَفْعَلُهُ الفاسِقُ الأَسْوَدُ في آخِرِ الزّمانِ، بِقِبْلةِ الرَّحْمَنِ، وسُقْيا أَهْلِ الإيمانِ، وذَلِكَ عِنْدَما يُرْفَعُ القُرْآنُ، وتُحْيا عِبادةُ الأَوْثانِ.

وفي الصحيح عن رسول ﷺ: «لَيُخَرِّبَنّ الكَعْبةَ ذُو السُّوَيْقَتَيْنِ مِن الحَبَشةِ»[3].

وفي الصَّحِيحِ أَيْضًا مِنْ صِفَتِهِ: أَنَّهُ أَفْحَجُ، وهَذا يَنْظُرُ إلى كَوْنِ الغُرابِ أَعْصَمَ؛ إذِ الفَحَجُ: تَباعُدٌ في الرِّجْلَيْنِ، كَما أَنَّ العَصَمَ اخْتِلافٌ فيهِما، والِاخْتِلافُ: تَباعُدٌ، وقَدْ عُرِفَ بِذِي السُّوَيْقَتَيْنِ كَما نُعِتَ الغُرابُ بِصِفةٍ في ساقَيْهِ، فتَأَمَّلْهُ.

وهَذا مِنْ خَفِيِّ عِلْمِ التّعبير؛ لِأَنّها كانَتْ رُؤْيا، وإنْ شِئْت: كانَ[4] مِنْ بابِ الزّجْرِ والتَّوَسُّمِ الصّادِقِ، والِاعْتِبارِ والتَّفْكِيرِ[5] في مَعالِمِ حِكْمةِ اللهِ.

---

(١) لم أجده فيما بين يديّ من مصنفات ابن أبي شيبة المطبوعة، والحديث أخرجه الطبراني (٨/ ٢٠١، رقم ٧٨١٧)، قال الهيثمي (٤/ ٢٧٣) : فيه مطرح بن يزيد، وهو مجمع على ضعفه.

(٢) في (ف): «فكأنه».

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الحج، باب هدم الكعبة: (٣: ٤٦٠). انظر: «فتح الباري»، وأخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة (٥٧) (٢٩٠٩).

(٤) «كان» ليس في: ف.

(٥) في (ف): «والتفكر».

فهَذا سَعِيدُ بنُ المُسَيَّبِ ـ وهُوَ مَنْ هُوَ[١] عِلْمًا وورَعًا ـ حِينَ حُدِّثَ بحَدِيثِ البِئْرِ في البُسْتانِ، وأنّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَعَدَ على قُفِّها[٢]، ودلّى رِجليه فيها، ثم جاء أبو بكر ففعل مثل ذلك، ثم جاءَ عُمَرُ ففَعلَ مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمّ جاءَ عُثْمانُ فانْتَبَذَ مِنْهُمْ ناحِيةً، وقَعَدَ حَجْرةً[٣]. قالَ سَعِيدُ بنُ المُسَيّبِ: فأوّلْت ذَلِكَ قُبُورَهُمْ، اجْتَمَعَتْ قُبُورُ الثّلاثةِ، وانْفَرَدَ قَبْرُ عُثْمانَ، واللهُ سُبْحانَهُ يَقُولُ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر:٧٥]. فهَذا مِن التّوَسُّمِ والفِراسةِ الصّادِقةِ، وإعْمالِ الفِكْرِ في دَلائِلِ الحِكْمةِ، واسْتِنْباطِ الفَوائِدِ اللّطِيفةِ مِنْ إشاراتِ الشّرِيعةِ.

وأمّا قَرْيةُ النّمْلِ ففيها مِن المُشاكَلةِ أيْضًا والمُناسَبةِ: أنّ زَمْزَمَ هِيَ عَيْنُ مَكّةَ الّتِي يَرِدُها الحَجِيجُ والعُمّارُ مِنْ كُلّ جانِبٍ، فيَحْمِلُونَ إلَيْها البُرّ والشّعِيرَ، وغَيْرَ ذَلِكَ، وهِيَ لا تُحْرَثُ ولا تُزْرَعُ[٤]، كَما قالَ سُبْحانَهُ خَبَرًا عَنْ إبْراهِيمَ: ﴿إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ إلى قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وقَرْيةُ النّمْلِ كذلك؛ لأنّ النّملَ لا تَحْرُثُ ولا تَبْذُرُ، وتَجْلِبُ الحُبُوبَ إلى قَرْيَتِها مِنْ كُلّ جانِبٍ، وفي مَكّةَ قالَ اللهُ سُبْحانَهُ: ﴿قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [النحل: ١١٢]، مَعَ أنّ لَفْظَ «قَرْيةِ النّمْلِ» مَأْخُوذٌ مِنْ: قَرَيْتُ الماءَ في الحَوْضِ: إذا جَمَعْتَه، والرّؤْيا تُعَبّرُ على اللّفْظِ تارةً، وعلى المَعْنى أُخْرى، فقَد اجْتَمَعَ اللّفْظُ والمَعْنى في هَذا التّأْوِيلِ. واللهُ أعْلَمُ.

قِيلَ[٥] لِعَبْدِ المُطّلِبِ في صِفةِ زَمْزَمَ: «لا تَنْزِفُ أبَدًا ولا تُذَمُّ»، وهَذا بُرْهانٌ

(١) في (أ): «من أشهرهم علمًا»، وفي (هـ): «وهو أكثر الناس علمًا».

(٢) القُفّ: هو البناء حول البئر، أو صخرة يُسْتقى عليها.

(٣) يقال: قعد حَجرَةً وحجرًا، أي: ناحية.

(٤) ما عدا (أ)، (ب): «تُزدَرع».

(٥) في (ف): «وقيل».

عَظِيمٌ؛ لِأَنّها لَمْ تَنزفْ مِنْ ذَلِكَ الحِينِ إلى اليَوْمِ قَطّ، وقَدْ وقَعَ فيها حَبَشِيّ فنُزِحَتْ مِنْ أجْلِهِ، فوَجَدُوا ماءَها يَثُورُ مِنْ ثَلاثةِ[١] أَعْيُنٍ، أقْواها وأكْثَرُها ماءً[٢]: مِنْ ناحِيةِ الحَجَرِ الأسْوَدِ، وذَكَرَ[٣] هَذا الحَدِيثَ الدّارَقُطْنِيّ.

وَقَوْلُهُ: «ولا تُذَمُّ» فيهِ نَظَرٌ، ولَيْسَ هُوَ على ما يَبْدُو مِنْ ظاهِرِ اللّفْظِ مِنْ أنّها لا يَذُمّها أحَدٌ، ولَوْ كانَ مِن الذّمّ لَكانَ ماؤُها أعْذَبَ المِياهِ، ولَتَضَلّعَ مِنْهُ[٤] كُلّ مَنْ يَشْرَبُهُ، وقَدْ تَقَدّمَ في الحَدِيثِ أَنّهُ لا يَتَضَلّعُ مِنْها مُنافِقٌ، فماؤُها إذًا مَذْمُومٌ عِنْدَهُمْ، وقَدْ كانَ خالِدُ بنُ عَبْدِ اللهِ القَسْرِيّ أمِيرُ العِراقِ يَذُمّها، ويُسَمّيها: أُمَّ جِعْلان، واحْتَفَرَ بِئْرًا خارِجَ مَكّةَ بِاسْمِ: الوَلِيدِ بنِ عَبْدِ المَلِكِ، وجَعَلَ يُفَضّلُها على زَمْزَمَ، ويَحْمِلُ النّاسَ على التّبَرُّكِ بِها دُونَ زَمْزَمَ، جُرْأَةً مِنْهُ على اللهِ عَزّ وجَلّ، وقِلّةَ حِياءٍ مِنْهُ، وهُوَ الّذِي كانَ يُعْلِنُ ويُفْصِحُ بِلَعْنِ عَلِيّ بنِ أَبِي طالِبٍ رِضْوانُ اللهِ عَلَيْهِ على المِنْبَرِ، وإنّما ذَكرنا هَذا[٥] أنّها قَدْ ذُمّتْ، فقَوْلُهُ إذًا: «لا تُذَمّ» مِنْ قَوْلِ العَرَبِ: بِئْرٌ ذَمّةٌ، أيْ: قَلِيلةُ الماءِ، فهُوَ مِنْ أذْمَمْت البِئْرَ: إذا وجَدْتَها ذَمّةً، كَما تَقُولُ: أجْبَنْتُ الرّجُلَ: إذا وجَدْتَه جبانًا، وأكذبتُه: إذا وجَدْتَه كاذِبًا، وفي التّنْزِيلِ: «فإنهم لا يُكْذِبونَكَ»[٦] [الأنعام: ٣٣]. وقَدْ فسّرَ أَبُو عُبَيْدٍ في «غَرِيبِ الحَدِيثِ» قَوْلَهُ: «حَتّى مَرَرْنا بِبِئْرٍ ذَمّةٍ»، وأنْشَدَ: [من الطويل]

مُخَيّسةً خُزْرًا كَأَنّ عُيُونَها ... ذِمامُ الرّكايا أنْكَزَتْها المَواتِحُ

(١) (٣٢٨) في (ف): «ثلاث».

(٢) في (ف): «عين».

(٣) في (ف): «ذكر».

(٤) في (ف): «منها».

(٥) بعده في (ف): «لتعلم».

(٦) هذه قراءة نافع والكسائي، وقرأ الباقون من العشرة: (يُكذِّبونّك) مشددة.

فَهَذا أَوْلى ما حُمِلَ عَلَيْهِ مَعْنى قَوْلِهِ: «ولا تُذَمُّ»؛ لأنه نفيٌ مطلَقٌ، وخبرٌ صادقٌ. واللهُ أَعْلَمُ.

وحَدِيثُ البِئْرِ الذَّمّةِ الّتِي ذَكَرَها أبو عُبيد حدَّثنا به أبو بكرٍ محمدُ بنُ العَرَبِيّ الحافِظُ، قالَ: أَخْبَرَنا القاضِي [أَبُو المُطَهَّرِ] سعدُ بنُ عَبْدِ اللهِ بنِ أَبِي الرّجاءِ، قالَ: أَخْبَرَنا أَبُو نُعَيْمٍ الحافِظُ، قالَ: أَخْبَرَنا أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ بنُ يُوسُفَ بنِ خلّاد، قال: حدثنا الحارث بنُ أَبِي أُسامةَ، قالَ: حَدّثَنا أَبُو النّضْرِ، قالَ: حَدّثَنا سُلَيْمانُ، عَنْ حُمَيْدٍ، عَنْ يُونُسَ، عَن البَراءِ، قالَ: كُنّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ في مَسِيرٍ، فأَتَيْنا على رَكِيٍّ ذَمّةٍ ـ يَعْنِي: قَلِيلةَ الماءِ ـ قالَ: نَزَلَ[١] فيها سِتّةٌ ـ أنا سادِسُهُمْ ـ ماحةٌ[٢]، فأُدْلِيَتْ[٣] إلَيْنا دَلْوٌ، قالَ: ورَسُولُ اللهِ ﷺ على الرّكِيِّ، فجَعَلْنا فيها نِصْفَها، أوْ قَرِيبَ ثُلُثَيْها، فرُفِعَتْ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ، قالَ: فجِئْتُ [أنا][٤] بإنائي هَلْ أَجِدُ[٥] شَيْئًا أَجْعَلُهُ في حَلْقِي؟ فما وجَدْت، فرُفِعَت الدّلْوُ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فغَمَسَ يَدَهُ فيها، فقالَ ما شاءَ اللهُ أنْ يَقُولَ، قالَ: فأُعِيدَتْ إلَيْنا الدّلْوُ بما فيها، قالَ: فلَقَدْ رَأَيت أحَدَنا أُخْرِجَ بِثَوْبٍ خَشْيةَ الغَرَقِ. قالَ: ثُمّ ساحت، يعنى: جَرَتْ نهرًا[٦].

* * *

---

(١) في (ف): «فنزل».

(٢) ماحة: جمع مائح، يقال: ماح يميح ميحًا: إذا نزل إلى قرار البئر إذا قلَّ ماؤها.

(٣) في (ف): «وأدليت».

(٤) ليست في (ب).

(٥) في (ف): «آخذ».

(٦) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١٨٥٨٤)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٣٠٠) وعزاه لأحمد والطبراني وقال: رجالهما رجال الصحيح. وانظر كلام أبي عُبيد في كتابه «غريب الحديث» (١/ ٤١).

[عَبْدُ المُطَّلِبِ وابنُهُ الحارِثُ وما كانَ بَيْنَهُما وبَيْنَ قُرَيْشٍ عِنْدَ حَفْرِهِما زَمْزَمَ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: فلَمّا بُيِّنَ لَهُ شَأْنُها، ودُلَّ على مَوْضِعِها، وعَرَفَ أنَّهُ صُدِقَ، غَدا بِمِعْوَلِهِ ومَعَهُ ابنُهُ الحارِثُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ، لَيْسَ لَهُ يَوْمَئِذٍ ولَدٌ غَيْرُهُ، فحَفَرَ فيها، فلَمّا بَدا لِعَبْدِ المُطَّلِبِ الطَّيُّ كَبَّرَ، فعَرَفَتْ قُرَيْشٌ أنَّهُ قَدْ أدْرَكَ حاجَتَهُ، فقامُوا إلَيْهِ فقالُوا: يا عَبْدَ المُطَّلِبِ، إنَّها بِئْرُ أبينا إسْماعِيلَ، وإنَّ لَنا فيها حَقًّا، فأشْرِكْنا مَعَكَ فيها، قالَ: ما أنا بِفاعِلٍ؛ إنَّ هذا الأمْرَ قَدْ خُصِصْتُ بِهِ دُونَكُمْ، وأُعْطِيتُهُ مِنْ بَيْنِكُمْ، فقالُوا لَهُ: فأنْصِفْنا؛ فإنّا غَيْرُ تارِكِيكَ حَتّى نُخاصِمَكَ فيها، قالَ: فاجْعَلُوا بَيْنِي وبَيْنَكُمْ مَنْ شِئْتُمْ أُحاكِمْكُمْ إلَيْهِ، قالُوا: كاهِنَةَ بَنِي سَعْدِ هُذَيْمٍ، قالَ: نَعَمْ، قالَ: وكانَتْ بِأشْرافِ الشّامِ، فرَكِبَ عَبْدُ المُطَّلِبِ ومَعَهُ نَفَرٌ مِنْ بَنِي أبيهِ مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنافٍ، ورَكِبَ مِنْ كُلِّ قَبيلةٍ مِنْ قُرَيْشٍ نَفَرٌ، قالَ: والأرْضُ إذْ ذاكَ مَفاوِزُ، قالَ: فخَرَجُوا حَتّى إذا كانُوا بِبَعْضِ تِلْكَ المَفاوِزِ بَيْنَ الحِجازِ والشّامِ، فنِيَ ماءُ عَبْدِ المُطَّلِبِ وأصْحابِهِ، فظَمِئُوا حَتّى أيْقَنُوا بِالهَلَكَةِ، فاسْتَسْقَوْا مَنْ مَعَهُمْ مِنْ قَبائِلِ قُرَيْشٍ، فأبَوْا عَلَيْهِمْ، وقالُوا: إنّا بِمَفازةٍ، ونَحْنُ نَخْشى على أنْفُسِنا مِثْلَ ما أصابَكُمْ. فلَمّا رَأى عَبْدُ المُطَّلِبِ ما صَنَعَ القَوْمُ وما يَتَخَوَّفُ على نَفْسِهِ وأصْحابِهِ، قالَ: ماذا تَرَوْنَ؟ قالُوا: ما رَأْيُنا إلّا تَبَعٌ لِرَأْيِكَ، فمُرْنا بِما شِئْتَ، قالَ: فإنِّي أرى أنْ يَحْفِرَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ حُفْرَتَهُ لِنَفْسِهِ بِما بِكُم الآنَ مِن القُوّةِ، فكُلَّما ماتَ رَجُلٌ دَفَعَهُ أصْحابُهُ في حُفْرَتِهِ ثُمَّ وارَوْهُ، حَتّى يَكُونَ آخِرُكُمْ رَجُلًا واحِدًا، فضَيْعةُ رَجُلٍ واحِدٍ أيْسَرُ مِنْ ضَيْعةِ رَكْبٍ جَميعًا،

قالُوا: نِعْمَ ما أَمَرْتَ بِهِ. فقامَ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ فحَفَرَ حُفْرَتَهُ، ثُمَّ قَعَدُوا يَنْتَظِرُونَ المَوْتَ عَطَشًا، ثُمَّ إنَّ عَبْدَ المُطَّلِبِ قالَ لِأَصْحابِهِ: واللهِ إنَّ إلْقاءَنا بِأَيْدِينا هَكَذا لِلْمَوْتِ، لا نَضْرِبُ في الأَرْضِ ولا نَبْتَغِي لِأَنْفُسِنا، لَعَجْزٌ، فعَسى اللهُ أنْ يَرْزُقَنا ماءً بِبَعْضِ البِلادِ، ارْتَحِلُوا. فارْتَحَلُوا، حَتّى إذا فرَغُوا، ومَنْ مَعَهُمْ مِنْ قَبائِلِ قُرَيْشٍ يَنْظُرُونَ إلَيْهِمْ ما هُمْ فاعِلُونَ، تَقَدَّمَ عَبْدُ المُطَّلِبِ إلى راحِلَتِهِ فرَكِبَها، فلَمّا انْبَعَثَتْ بِهِ، انْفَجَرَتْ مِنْ تَحْتِ خُفِّها عَيْنُ ماءٍ عَذْبٍ، فكَبَّرَ عَبْدُ المُطَّلِبِ وكَبَّرَ أَصْحابُهُ، ثُمَّ نَزَلَ فشَرِبَ وشَرِبَ أَصْحابُهُ، واسْتَقَوْا حَتّى مَلَؤُوا أَسْقِيَتَهُمْ، ثُمَّ دَعا القَبائِلَ مِنْ قُرَيْشٍ، فقالَ: هَلُمَّ إلى الماءِ؛ فقَدْ سَقانا اللهُ، فاشْرَبُوا واسْتَقُوا، فجاؤُوا فشَرِبُوا واسْتَقَوْا. ثُمَّ قالُوا: قَدْ واللهِ قُضِيَ لَكَ عَلَيْنا يا عَبْدَ المُطَّلِبِ، واللهِ لا نُخاصِمُكَ في زَمْزَمَ أَبَدًا، إنَّ الَّذي سَقاكَ هذا الماءَ بِهَذِهِ الفَلاةِ لَهُوَ الَّذي سَقاكَ زَمْزَمَ، فارْجِعْ إلى سِقايَتِكَ راشِدًا. فرَجَعَ ورَجَعُوا مَعَهُ، ولَمْ يَصِلُوا إلى الكاهِنَةِ، وخَلَّوْا بَيْنَهُ وبَيْنَها.

وَذَكَرَ حَدِيثَ عَبْدِ المُطّلِبِ في مَسِيرِهِ مَعَ قُرَيْشٍ إلى الكاهِنَةِ، وذَكَرَ المَفاوِزَ الّتِي عَطِشُوا فيها. المَفاوِزُ: جَمْعُ مَفازَةٍ، وفي اشْتِقاقِ اسْمِها ثَلاثَةُ أَقْوالٍ. رُوِيَ عَنِ الأَصْمَعِيّ: أنّها سُمّيَتْ مَفازَةً على جِهَةِ التّفاؤُلِ لِراكِبِها بِالفَوْزِ والنّجاةِ.

ويُذْكَرُ[1] عَنِ ابنِ الأعْرابِيّ أنّهُ قالَ: سَأَلْت أبا المَكارِمِ: لِمَ سُمّيَت الفَلاةُ مَفازَةً؟ فَقالَ: لِأَنّ راكِبَها إذا قَطَعَها وجاوَزَها فازَ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: مَعْناها: مَهْلَكَةٌ؛ لِأَنّهُ يُقالُ: فازَ الرّجُلُ، وفَوّزَ وفادَ وفَطَسَ: إذا هَلَكَ.

(١) انظر: «اللسان» (فوز).

قالَ ابنُ إسْحاقَ: فهذا الَّذي بَلَغَنِي مِنْ حَدِيثِ عَلِيِّ بنِ أبي طالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في زَمْزَمَ، وقَدْ سَمِعْتُ مَنْ يُحَدِّثُ عَنْ عَبْدِ المُطَّلِبِ أنَّهُ قِيلَ لَهُ حِينَ أُمِرَ بِحَفْرِ زَمْزَمَ:

ثُمَّ ادْعُ بِالماءِ الرِّوى غَيْرِ الكَدِرْ   يَسْـقِي حَجِيجَ اللهِ في كُلِّ مَبَرّْ
لَيْسَ يُخافُ مِنْهُ شَيْءٌ ما عَمِرْ

فخَرَجَ عَبْدُ المُطَّلِبِ حِينَ قِيلَ لَهُ ذلك إلى قُرَيْشٍ، فقالَ: تَعَلَّمُوا أنِّي قَدْ أُمِرْتُ أنْ أحْفِرَ لَكُمْ زَمْزَمَ، فقالُوا: فهَلْ بُيِّنَ لَكَ أيْنَ هِيَ؟ قالَ: لا، قالُوا: فارْجِعْ إلى مَضْجَعِكَ الَّذي رَأيْتَ فيهِ ما رَأيْتَ، فإنْ يَكُ حَقًّا مِن اللهِ يُبَيَّن لَكَ، وإنْ يَكُ مِن الشَّيْطانِ فلَنْ يَعُودَ إلَيْكَ. فرَجَعَ عَبْدُ المُطَّلِبِ إلى مَضْجَعِهِ فنامَ فيهِ، فأُتِيَ فقِيلَ لَهُ: احْفِرْ زَمْزَمَ؛ إنَّكَ إنْ حَفَرْتها لَمْ تَنْدَمْ، وهِيَ تُراثٌ مِنْ أبيكَ الأعْظَمْ، لا تَنْزِفُ أبَدًا ولا تُذَمْ، تَسْقِي الحَجِيجَ الأعْظَمْ، مِثْلَ نَعامٍ حافِلٍ لَمْ يُقْسَمْ، يَنْذِرُ فيها ناذِرٌ لِمُنْعِمْ، تَكُونُ مِيراثًا وعَقْدًا مُحْكَمْ، لَيْسَتْ كَبَعْضِ ما قَدْ تَعْلَمْ، وهِيَ بَيْنَ الفَرْثِ والدَّمْ.

قالَ ابنُ هِشامٍ: هذا الكَلامُ والكَلامُ الَّذي قَبْلَهُ مِنْ حَدِيثِ عَلِيٍّ رِضْوانُ اللهِ عَلَيْهِ في حَفْرِ زَمْزَمَ مِنْ قَوْلِهِ: «لا تَنْزِفُ أبَدًا ولا تُذَمُّ»، إلى قَوْلِهِ: «عِنْدَ قَرْيَةِ النَّمْلِ» عِنْدَنا سَجْعٌ ولَيْسَ شِعْرًا.

قالَ ابنُ إسْحاقَ: فزَعَمُوا أنَّهُ حِينَ قِيلَ لَهُ ذلك، قالَ: وأيْنَ هِيَ؟ قِيلَ لَهُ: عِنْدَ قَرْيَةِ النَّمْلِ حَيْثُ يَنْقُرُ الغُرابُ غَدًا. واللهُ أعْلَمُ أيَّ ذلك كانَ.

فَعَدا عَبْدُ المُطَّلِبِ ومَعَهُ ابنُهُ الحارِثُ، ولَيْسَ لَهُ يَوْمَئِذٍولَدٌ غَيْرُهُ، فوَجَدَ قَرْيَةَ النَّمْلِ، ووَجَدَ الغُرابَ يَنْقُرُ عِنْدَها بَيْنَ الوَثَنَيْنِ: إسافٍ ونائِلَةَ، اللَّذَيْنِ كانَتْ قُرَيْشٌ تَنْحَرُ عِنْدَهُما ذَبائِحَها، فجاءَ بِالمِعْوَلِ وقامَ لِيَحْفِرَ حَيْثُ أُمِرَ، فقامَتْ إلَيْهِ قُرَيْشٌ حِينَ رَأَوْا جِدَّهُ، فقالُوا: واللهِ لا نَتْرُكُكَ تَحْفِرُ بَيْنَ وثَنَيْنا هَذَيْنِ اللَّذَيْنِ نَنْحَرُ عِنْدَهُما، فقالَ عَبْدُ المُطَّلِبِ لِابنِهِ الحارِثِ: ذُدْ عَنِّي حَتّى أحفِرَ، فَوَاللهِ لَأَمْضِيَنَّ لِما أُمِرْتُ بِهِ. فلَمّا عَرَفُوا أَنَّهُ غَيْرُ نازِعٍ، خَلَّوْا بَيْنَهُ وبَيْنَ الحَفْرِ، وكَفُّوا عَنْهُ، فلَمْ يَحْفِرْ إلّا يَسِيرًا حَتّى بَدا لَهُ الطَّيُّ، فكَبَّرَ، وعَرَفُوا أَنَّهُ قَدْ صُدِقَ.

فَلَمّا تَمادى بِهِ الحَفْرُ وجَدَ فيها غَزالَيْنِ مِنْ ذَهَبٍ، وهُما الغَزالانِ اللَّذانِ دَفَنَتْ جُرْهُمٌ فيها حِينَ خَرَجَتْ مِنْ مَكّةَ، ووَجَدَ فيها أَسْيافًا قَلعِيّةً وأدْراعًا، فقالَتْ لَهُ قُرَيْشٌ: يا عَبْدَ المُطَّلِبِ، لَنا مَعَكَ في هذا شِرْكٌ وحَقٌّ، قالَ: لا، ولَكِنْ هَلُمَّ إلى أمْرٍ نَصَفٍ بَيْنِي وبَيْنَكُمْ: نَضْرِبُ عَلَيْها بِالقِداحِ، قالُوا: وكَيْفَ تَصْنَعُ؟ قالَ: أَجْعَلُ لِلْكَعْبةِ قِدْحَيْنِ، ولِي قِدْحَيْنِ، ولَكُمْ قِدْحَيْنِ، فمَنْ خَرَجَ لَهُ قِدْحاهُ على شَيْءٍ كانَ لَهُ، ومَنْ تَخَلَّفَ قِدْحاهُ فلا شَيْءَ لَهُ، قالُوا: أَنْصَفْتَ. فجَعَلَ قِدْحَيْنِ أَصْفَرَيْنِ لِلْكَعْبةِ، وقِدْحَيْنِ أَسْوَدَيْنِ لِعَبْدِ المُطَّلِبِ، وقِدْحَيْنِ أَبيَضَيْنِ لِقُرَيْشٍ، ثُمَّ أَعْطَوْا القِداحَ صاحِبَ القِداحِ الَّذي يَضْرِبُ بِها عِنْدَ هُبَلَ ـ وَهُبَلُ: صَنَمٌ في جَوْفِ الكَعْبةِ، وهُوَ أَعْظَمُ أَصْنامِهِمْ، وهُوَ الَّذي يَعْنِي أبو سُفيانَ بنُ حَرْبٍ يَوْمَ أُحُدٍ حِينَ قالَ: اعْلُ هُبَلُ، أيْ: أظْهِرْ دِينَكَ، وقامَ عَبْدُ المُطَّلِبِ يَدْعُو اللهَ عَزَّ وجَلَّ، فضَرَبَ صاحِبُ القِداحِ، فخَرَجَ الأَصْفَرانِ على الغَزالَيْنِ لِلْكَعْبةِ، وخَرَجَ الأَسْوَدانِ على الأَسْيافِ والأَدْراعِ لِعَبْدِ المُطَّلِبِ، وتَخَلَّفَ قِدْحا قُرَيْشٍ، فضَرَبَ

عَبْدُ المُطَّلِبِ الأسْيافَ بابًا لِلْكَعْبةِ، وضَرَبَ في البابِ الغزالَيْنِ مِنْ ذَهَبٍ، فكانَ أوَّلَ ذَهَبٍ حُلِّيَتْهُ الكَعْبةُ فيما يَزْعُمونَ، ثُمَّ إنَّ عَبْدَ المُطَّلِبِ أقامَ سِقايةَ زَمْزَمَ لِلْحُجّاجِ.

وذُكِرَ في غَيْرِ رِوايةِ عَلِيّ بنِ أبِي طالِبٍ: [من الرجز]

ثُمَّ ادْعُ بِالماءِ الرِّوى غَيْرِ الكَدِرْ

يُقالُ: ماءٌ رِوًى بِالكَسْرِ والقَصْرِ، ورَواءٌ بالفتح والمد.

وفيه: [من الرجز]

تسقِي حَجِيجَ اللهِ في كُلِّ مَبَرّْ[1]

الحَجِيجُ: جَمْعُ حاجٍّ. وفي الجُمُوع على وزْنِ فعِيلٍ كَثِيرٌ؛ كالعَبِيدِ والبَقِيرِ، والمَعِيزِ والأبِيلِ[2]. وأحْسَبُهُ اسْمًا لِلْجَمْعِ؛ لأنّهُ لَوْ كانَ جمعًا لهُ واحِدٌ مِنْ لَفْظِهِ، لَجَرى على قِياسٍ واحِدٍ كَسائِرِ الجُمُوعِ، وهَذا يَخْتَلِفُ واحِدُهُ؛ فحَجِيجٌ واحِدُهُ: حاجٌّ، وعَبِيدٌ واحِدُهُ: عَبْدٌ، وبَقِيرٌ واحِدُهُ: بَقَرةٌ، إلى غَيْرِ ذَلِكَ، فجائِزٌ أنْ يُقالَ: إنّهُ اسْمٌ لِلْجَمْعِ غَيْرَ أنّهُ مَوْضُوعٌ لِلْكَثْرةِ؛ ولِذَلِكَ لا يُصَغَّرُ على لَفْظِهِ كَما تُصَغّرُ[3] أسْماءُ الجُمُوعِ، فلا يُقالُ في العبيد: عُبَيد، ولا في النخيل[4]: نُخَيلٌ، بَلْ يُرَدّ إلى واحِدِهِ كَما تُرَدّ الجُمُوعُ في التّصْغِيرِ، فيُقالُ: نُخَيْلاتٌ وعُبَيْدُونَ،

(١) كذا في (أ)، (هـ): «تسقى»، وفي (ب): «نسقى»، وفي (د)، (ج): «يسقى». ومثله في «السيرة».

(٢) في «تاج العروس»: «ويُجمَع الإبل أيضًا على أبيل كعبيد، كما في «المصباح»، وإذا جُمِع فالمراد قَطيعات، وكذلك أسماء الجموع كأغنام وأبقار».

(٣) كذا في (ج)، (ط). وفي سائر النسخ: «كما لا تصغّر».

(٤) في (ف): «النخل».

وإذا قُلْت: نَخِيلٌ أوْ عَبيدٌ[١]، فهُوَ اسْمٌ يَتَناوَلُ الصّغِيرَ والكَبِيرَ مِنْ ذَلِكَ الجِنْسِ، قالَ اللهُ سبحانه: ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾ [الرعد: ٤]، وقالَ تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، وحِينَ ذَكَرَ المُخاطَبِينَ مِنْهُمْ قالَ: ﴿ٱلْعِبَادِ﴾ [يس: ٣٠]؛ ولذَلِكَ[٢] قالَ حِينَ ذَكَرَ المُثمِرَ مِن النّخِيلِ: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ﴾ [ق: ١٠]، و: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠]، فتَأمّل الفَرْقَ بَيْنَ الجَمْعَيْنِ في حُكْمِ البَلاغةِ واخْتِيارِ الكَلامِ، وأمّا في مَذْهَبِ أهْلِ اللّغةِ، فلَمْ يُفرّقُوا هَذا التّفْرِيقَ إلّا[٣] نَبَّهُوا على هَذا الغَرَضِ الدّقِيقِ.

وَقَوْلُهُ: «في كُلِّ مَبَرٍّ»: هُوَ مَفْعَلٌ مِن البِرِّ، يُرِيدُ: في مَناسِكِ الحَجّ ومَواضِعِ الطّاعةِ.

وقَوْلُهُ: «مِثْلُ نَعامِ جافِلٍ[٤] لَمْ يُقْسَمْ». الجافِلُ: مِنْ جَفَلَتِ الغَنَمُ؛ إذا انْقَلَعَتْ بِجُمْلَتِها، و«لَمْ يُقْسَمْ»؛ أيْ: لَمْ يَتَوَزّعْ[٥]، ولَمْ يَتَفَرَّقْ.

وَقَوْلُهُ: «لَيْسَ يُخافُ مِنْهُ شَيْءٌ ما عَمَرْ»؛ أيْ: ما عَمَرَ[٦] هَذا الماءُ فإنّهُ لا يُؤْذِي، ولا يُخافُ مِنْهُ ما يُخاف من المياهِ إذا أُفْرِطَ في شُرْبِها، بَلْ هُوَ بَرَكَةٌ على كُلِّ حالٍ. وعلى هَذا يَجُوزُ أنْ يُحْمَلَ قَوْلُهُ: «لا تَنْزِفُ ولا تُذَمُّ»؛ أي: لا تُذَمُّ عاقِبَةُ شربها، وهذا تأويلٌ سائغٌ أيضًا إلى ما قَدّمْناهُ مِن التّأْوِيلِ، وكِلاهُما صَحِيحٌ في صِفَتِها.

---

(١) في (ف): «عبيد أو نخيل».

(٢) (هـ): «وكذلك».

(٣) في (ف): «ولا».

(٤) في «السيرة»: «حافل»، بالحاء المهملة.

(٥) في (أ): «لم يوزع ولم يفرق».

(٦) في (هـ): «غَمَر»، بالغين المعجمة.

وَقَوْلُهُ: «وضَرَبَ الغزالَيْنِ حِلْيةً للكَعْبةِ، وهُوَ أوّلُ ذَهَبٍ حُلّيَتْ الكَعْبةُ بِهِ»، قَدْ[١] قَدّمْنا[٢] ذِكْرَ الغزالَيْنِ، ومَنْ أهْداهُما إلى الكَعْبةِ، ومَنْ دفنَهُما مِنْ جُرْهُمٍ، وتَقَدّمَ أنّ أوّلَ مَنْ كَسا الكَعْبةَ تُبَّعٌ، وأنّهُ أوّلُ من اتَّخذَ لها غَلَقًا[٣] إلى أن ضَرَبَ لَها عَبْدُ المُطّلِبِ بابَ حَدِيدٍ مِنْ تِلْكَ الأسْيافِ، واتّخذَ عَبْدُ المُطّلِبِ حَوْضًا لِزَمْزَمَ يُسْقى مِنْهُ[٤]، فكانَ يُخَرّبُ لَهُ بِاللّيْلِ حَسَدًا لَهُ، فلَمّا غَمّهُ ذَلِكَ قِيلَ لَهُ في النّوْمِ: قُلْ: لا أُحِلّها لِمُغْتَسِلٍ، وهِيَ لِشارِبٍ حِلٌّ وبِلٌّ[٥]، وقد كُفيتهم، فلَمّا أصْبَحَ قالَ ذَلِكَ، فكانَ بَعْدُ مَنْ أرادَها بِمَكْرُوهٍ رُمِيَ [بِداءٍ][٦] في جَسَدِهِ، حَتّى انْتَهَوْا عَنْهُ. ذَكَرَهُ الزّهْرِيّ في «سِيَرِهِ».

* * *

---

(١) في (هـ): «وقد».

(٢) انظر: (٢/ ٩٥).

(٣) الغَلَقُ: المغلاق، وهو ما يُغلَق به الباب ويُفتح، وبابٌ غُلُق: مُغْلَق.

(٤) في (هـ): «ليسقى».

(٥) أي: شفاء.

(٦) ليست في (أ).

ذِكْرُ بِئارِ قَبائِلِ قُرَيْشٍ بِمَكّةَ

[الطَّوِيُّ ومَنْ حفَرَها]

قالَ ابنُ هِشامٍ: وكانَتْ قُرَيْشٌ قَبْلَ حَفْرِ زَمْزَمَ قَد احْتَفَرَتْ بِئارًا بِمَكّةَ، فيما حَدَّثَنا زِيادُ بنُ عَبْدِ الله البَكّائِيُّ، عَنْ مُحَمَّدِ بنِ إسْحاقَ، قالَ:

حَفَرَ عَبْدُ شَمْسِ بنُ عَبْدِ مَنافٍ الطَّوِيَّ، وهِيَ البِئْرُ الَّتِي بِأعلى مَكّةَ عِنْدَ البَيْضاءِ، دار مُحَمَّدِ بنِ يُوسُفَ الثَّقَفي.

[بَذَّرُ ومَنْ حَفَرَها]

وَحَفَرَ هاشِمُ بنُ عَبْدِ مَنافٍ بَذَّرَ، وهِيَ البِئْرُ الَّتِي عِنْدَ المُسْتَنْذَرِ خَطْمِ الخَنْدَمةِ على فَمِ شِعْبِ أبي طالِبٍ، وزَعَمُوا أنَّهُ قالَ حِينَ حفَرَها: لَأجْعَلَنَّها بَلاغًا لِلنّاسِ.

قالَ ابنُ هِشامٍ: وقالَ الشّاعِرُ:

سَقى الله أمْواهًا عَرَفْتُ مَكانَها   جُرابًا ومَلْكُومًا وبَذَّرَ والغَمْرا

[سَجْلةُ ومَنْ حَفَرَها]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وحَفَرَ سَجْلةَ، وهِيَ بِئْرُ المُطْعِمِ بنِ عَدِيِّ بنِ نَوْفَلِ بنِ عَبْدِ مَنافٍ الَّتِي يَسْقُونَ عَلَيْها اليَوْمَ، ويَزْعُمُ بَنُو نَوْفَلٍ أنَّ المُطْعِمَ ابْتاعَها مِنْ أسَدِ بنِ هاشِمٍ، ويَزْعُمُ بَنُو هاشِمٍ أنَّهُ وهَبَها لَهُ حِينَ ظَهَرَتْ زَمْزَمُ، فاسْتَغْنَوْا بِها عَنْ تِلْكَ الآبارِ.

[الحَفْرُ ومَنْ حَفَرَها]

وَحَفَرَ أُمَيَّةُ بنُ عَبْدِ شَمْسٍ الحَفْرَ لِنَفْسِهِ.

[سُقَيَّةُ ومَنْ حَفَرَها]

وَحَفَرَتْ بَنُو أَسَدِ بنِ عَبْدِ العُزّى سُقَيَّةَ، وهِيَ بِئْرُ بَنِي أَسَدٍ.

وَقَوْلُهُ: «وكانَتْ قُرَيْشٌ قَبْلَ حَفْرِ زَمْزَمَ قَد اتَّخَذَتْ بئارًا بِمَكَّةَ»، ذَكَرُوا أَنَّ قُصَيًّا كانَ يَسْقِي الحَجِيجَ في حِياضٍ مِنْ أَدَمٍ، وكانَ يَنْقُلُ الماءَ إِلَيْها مِنْ آبارٍ خارِجَةٍ مِنْ مَكَّةَ، مِنْها بِئْرُ مَيْمُون[١] الحَضْرَمِيّ، وكانَ يَنْبذُ لَهُم الزَّبِيبَ، ثُمَّ احْتَفَرَ قُصَيٌّ العَجُول في دار أُمِّ هانئ بنت أبي طالبٍ، وهي أَوّلُ سِقايةٍ احْتُفِرَتْ بِمَكّةَ[٢]، وكانَت العَرَبُ إذا اسْتَقَوْا مِنْها ارْتَجَزُوا، فقالُوا: [من الرجز]

نَرْوِي على العَجُولِ ثُمّ نَنْطَلِقْ إنَّ قُصَيًّا قَدْ وفى وقَدْ صَدَقْ

فَلَمْ تَزَلِ العَجُولُ قائِمةً حَياةَ قُصَيٍّ، وبَعْدَ مَوْتِهِ، حَتّى كَبرَ عَبْدُ منافِ بنُ قُصَيّ، فسَقَطَ فيها رَجُلٌ مِنْ بَنِي جُعَيْلٍ، فعَطّلُوا العَجُولَ وانْدَفَنَتْ، واحْتَفَرَتْ[٣] كُلُّ قَبيلةٍ بِئْرًا، واحْتَفَرَ قُصَيٌّ سَجْلَةَ، وقالَ حِينَ احْتَفَرَها: [من الرجز]

أنا قُصَيٌّ وحَفَرْتُ سَجْلَهْ تُرْوِي الحَجِيجَ زُغْلَةً فزُغْلَهْ[٤]

وَقِيلَ: بَلْ حَفَرَها هاشِمٌ، ووَهَبَها أَسَدُ بنُ هاشِمٍ لِعَدِيّ بنِ نَوْفَلٍ، وفي ذَلِكَ

---

(١) قال ياقوت في «معجمه»: «بئر ميمون بمكة، منسوبة إلى ميمون بن خالد بن عامر بن الحضرمي».

(٢) انظر: «الأوائل» للعسكري: (١: ٤٧-٤٨).

(٣) في (ف): «و احتفر».

(٤) الزُّغلة: الدَّفقة من الماء.

تَقُولُ خالِدةُ[١] بِنْتُ هاشِمٍ: [من الرجز]

نَحْــنُ وهَبنا لِعَدِيّ سَــجْلَةْ تُرْوِي الحَجِيجَ زُغْلةً فزُغْلَةْ

[وكانَ يُقالُ لها: القوارير][٢].

[أُمُّ أحْرادٍ ومَنْ حفَرَها]

وَحفَرَتْ بَنُو عَبْدِ الدّارِ أُمَّ أحْرادٍ.

[السُّنْبُلةُ ومَنْ حفَرَها]

وَحفَرَتْ بَنُو جُمَحَ السُّنْبُلةَ، وهِيَ بِئْرُ خَلَفِ بنِ وهْبٍ.

[الغَمْرُ ومَنْ حفَرَها]

وَحفَرَتْ بَنُو سَهْمٍ الغَمْرَ، وهِيَ بِئْرُ بَنِي سَهْمٍ.

[رُمٌّ وخُمٌّ والحَفْرُ وأصْحابُها]

وَكانَتْ آبارُ حَفائِر خارجًا مِنْ مَكّةَ قَدِيمةً مِنْ عَهْدِ مُرّةَ بنِ كَعْبٍ، وكِلابِ ابن مُرّةَ، وكُبَراءِ قُرَيْشٍ الأوائِلِ مِنْها يَشْرَبُونَ، وهِيَ رُمٌّ، ورُمٌّ: بِئْرُ مُرّةَ بن كَعْبِ ابنِ لُؤَيٍّ، وخُمٌّ، وخُمٌّ: بِئْرُ بَنِي كِلابِ بنِ مُرّةَ. والحَفْرُ. قالَ حُذَيْفةُ بنُ غانِمٍ أخُو بَنِي عَدِيِّ بنِ كَعْبِ بنِ لُؤَيٍّ ـ قالَ ابنُ هِشامٍ: وهُوَ أبو أبي جَهْمِ بنِ حُذَيْفةَ ـ:

وَقِدْمًا غَنِينا قَبْلَ ذلك حِقْبةً ولا نَسْــتَقِي إلّا بِخُمَّ أو الحَفْرِ

قالَ ابنُ هِشامٍ: وهذا البَيْتُ في قَصِيدةٍ لَهُ سَأذْكُرُها إنْ شاءَ اللهُ في مَوْضِعِها.

---

(١) كذا في (أ)، (ب). وفيما عداهما: «خلدة». وانظر: «معجم البلدان» (سجلة).

(٢) ليس في (أ)، (هـ)، (ف).

وَأمّا أُمّ أحْرادٍ الّتي ذَكَرَها، فأحْرادٌ: جَمْعُ حِرْدٍ، وهِيَ قِطْعةٌ مِن السّنام، فكَأنّها سُمّيَتْ بِهَذا؛ لِأنها تُنْبِتُ الشّحْمَ، أوْ تُسْمِنُ الإبِلَ، أوْ نَحْو هَذا. والحِرْدُ: القَطا الوارِدةُ لِلْماءِ، فكَأنّما[1] تَرِدُها القَطا والطير، فيكون أحْرادٌ جَمْعَ حُرْدٍ ـ بِالضّمّ ـ على هَذا.

وقالَتْ أُمَيّةُ[2] بِنْتُ عُمَيْلةَ بنِ السّبّاقِ بنِ عَبْدِ الدّارِ امْرَأةُ العَوّامِ بنِ خُوَيْلِدٍ حِينَ حَفَرَتْ بَنُو عَبْدِ الدّارِ أُمَّ أحْرادٍ: [من الرجز]

نَحْنُ حَفَرْنا البَحْـرَ أُمَّ أحْراد　　لَيَسَتْ كَبَذّرِ النَّزُورِ الجَماد[3]

فَأجابَتْها [ضَرّتُها][4] صَفيّةُ بِنْتُ عَبْدِ المُطّلِبِ أُمّ الزّبَيْرِ بنِ العَوّامِ: [من مجزوء الرجز]

نَحْـنُ حفَرْنـا بَـذَّرْ　　نَسْقِي الحَجِيجَ الأكْبَرْ
مِـنْ مُقْبِـلٍ ومُدْبِـرْ　　وأُمّ أحْـراد شَـرْ

وَأمّا جُـرابٌ، فيَحْتَمِـلُ أنْ يَكُـونَ بِمَعْنـى: جَرِيـبٍ، نَحْـوُ: كَبِيرٍ وكُبارٍ، والجَرِيبُ: الوادِي، والجَرِيبُ أيْضًا: مِكْيالٌ كَبِيرٌ، والجَرِيبُ أيْضًا: المَزْرَعةُ.

وَأمّا مَلْكُومٌ فهُوَ عِنْدِي مَقْلُوبٌ، والأصْلُ: مَمْكُولٌ، مِنْ: مَكَلْتُ البِئْرَ: إذا اسْتَخْرَجْتَ ماءَها، والمَكْلةُ: ماءُ الرّكِيّةِ، وقَدْ قالُوا: بِئْرٌ عَمِيقةٌ ومَعِيقةٌ، فلا يَبْعُدُ أنْ يَكُونَ هَذا اللّفْظُ كَذلِكَ، يُقالُ فيهِ: مَمْكُولٌ ومَلْكُومٌ، والمَلْكُومُ في اللّغةِ: المَلْطومُ، إذا لَمْ يَكُنْ مَقْلُوبًا.

---

(١) في (ف): «فكأنها».
(٢) في (ب): «آمنة». وفي «معجم البلدان»: «(أم أحراد): أميمة».
(٣) في (ف): «الجمادا».
(٤) ليست في (أ).

وَأَمّا بَذَّر فمِنَ التّبْذِيرِ[١]، وهُوَ التّفْرِيقُ، ولَعَلّ[٢] ماءَها كانَ يَخْرُجُ مُتَفرّقًا مِنْ غَيْرِ مَكانٍ واحِدٍ، وهَذا البِناءُ في الأَسْماءِ قَلِيلٌ، نَحْو: شَلّم وخَضّم وبذّر، وهِيَ أَسْماءُ أعْلام، وشَلّمُ: اسْمُ بَيْتِ المَقْدِسِ، وأمّا في غَيْرِ الأَعْلامِ فلا يُعْرَفُ إلّا البَقّمُ، ولَعَلّ أَصْلَهُ أنْ يكون أعجميًّا فعُرِّب[٣].

وَأَمّا خُمٌّ - وهِيَ بِئْرُ مُرّةَ[٤] - فهِيَ مِنْ خَمَمْتُ البَيْتَ: إذا كَنَسْتَه، ويُقالُ: فُلانٌ مَخْمُومُ القَلْبِ، أيْ: نَقِيُّهُ، فكَأَنَّها سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِنَقائِها.

وأما غَديرُ خُمٍّ الّذِي عِنْدَ الجُحْفةِ، فسُمّيَتْ[٥] بِغَيْضةٍ عِنْدَهُ يُقالُ لَها[٦]: خُمّ، فيما ذَكَرُوا.

وأمّا رُمّ بِئْرُ بَنِي كِلابِ[٧] بنِ مُرّةَ، فمِنْ رَمَمْت الشّيْءَ: إذا جَمَعْتَه وأصْلَحْتَه، ومِنْهُ الحَدِيثُ[٨]: «كُنّا أَهْلَ ثُمِّهِ ورُمِّهِ»[٩]، ومِنْهُ: الرّمّانُ في قَوْلِ سِيبَوَيْهِ[١٠]؛

---

(١) انظر: «معجم البلدان» لياقوت: (بَذَّر).

(٢) في (ف): «فلعل».

(٣) انظر: «المعرب» للجواليقي: (ص: ١٠٩).

(٤) في «السيرة»: «بئر كلاب بن مرة».

(٥) في (ف): «فسمي». (٦) في (ف): «له».

(٧) في «السيرة»: «بئر مرة».

(٨) الحديث في «غريب الحديث» لأبي عبيد: (٤: ٤٠٣)، قال: «في حديث عروة حين ذكر أُحيحة بن الجُلاح وقول أخواله فيه: كنا أهل ثُمِّهِ ورُمِّهِ، حتى استوى على عَمَمِهِ». هكذا يحدثونه: أهل ثُمِّه ورمِّه، بالضم، ووجهه عندي: ثَمِّه ورَمِّه، بالفتح، والثَّم: إصلاح الشيء وإحكامه... والرَّمُّ من المطعم، يقال: رمَمْت أرم رمًّا... وقوله: استوى على عَمَمِه، أراد: على طوله واعتدال شبابه».

(٩) ضبط في (أ)، (هـ): «ثَمَّة ورَمّة»، بالفتح.

(١٠) «الكتاب» (٣: ٢١٨).

لِأَنّهُ عِنْدَهُ فُعْلان، وأمّا الأخْفَشُ فيَقُولُ فيهِ: فُعّالٌ، فيَجْعَلُ النُّونَ أصْلِيّةً، ويَقُول: إنْ سَمّيْت بِهِ رَجُلًا صَرَفْته. ومِنْ قَوْلِ عَبْدِ شمس بن قصيّ[١]: [من الرجز]

حَفَـرْت رُمًّا وحَفَـرْت خُمّا   حَتّى تَرى المَجْدَ بِها قَدْ تَمّا[٢]

وَأمّا سُقَيّةُ[٣] بِئْرُ بَنِي أسَدٍ، فقالَ فيها الحُوَيْرِثُ بنُ أسَدٍ[٤]: [من الرجز]

ماءُ سُقَيّة كصوبِ المُزْنِ   ولَيْسَ ماؤُها بِطَرْق أجْنِ

وأما سُنْبُلة[٥] بئر بني جُمَحَ، وهِيَ بِئْرُ بَنِي خَلَفِ بنِ وهْبٍ، فقالَ فيها شاعِرُهُمْ: [من الرجز]

نَحْـنُ حَفَرْنا لِلْحَجِيجِ سُـنْبُلَهْ   صَوْبَ سَحابٍ ذُو الجَلالِ أنْزَلَهْ
ثُـمّ تَرَكْناهـا بِـرَأْسِ القُنْبُلَـهْ   تَصُبّ مـاءً مِثْلَ مـاءِ المَعْبَلَهْ
نَحْنُ سقينا الناس قبل المسألهْ

وأمّا الغَمْرُ بِئْرُ بَنِي سَهْمٍ، فقالَ فيها بَعْضُهُمْ: [من الرجز]

نَحْنُ حَفَرْنا الغَمْرَ لِلْحَجِيجِ   تَثُجُّ مـاءً أيّمـا ثَجِيجِ[٦]

---

(١) الرجز في «معجم البلدان» (خمّ).

(٢) في (ب): «به». وفي «معجم البلدان»: «لنا»، وفي (ب)، (ج)، (هـ): «قد نَمّا».

(٣) في (ب)، (هـ)، (ط)، (ف): «شفية». وفي (د): «شنية»، وهو تحريف. وفي «معجم البلدان»: «شفية، بلفظ تصغير شفاء، للذي يشفي من الداء». ونقل عن الزبير قوله: «وخالفه عمي وقال: إنما هي: سُقيَّة، بالسين المهملة والقاف».

(٤) البيت في «معجم البلدان» (شفية)، و«معجم ما استعجم» (٣: ٧٢٥).

(٥) كذا ضبط في (أ) بضم السين. وذكر ياقوت في «معجم البلدان» أن الأزهري رواه بالفتح، وأن العمراني رواه بالضم، ووثّق رواية الأزهري.

(٦) في (أ)، (ج): «تثجيج».

ذَكَرَ أَكْثَرَهُ أَبُو عُبَيْدٍ البَكْرِيُّ[١]، وبَعْضُ هَذِهِ الأَرْجازِ أَوْ أَكْثَرُهُ في كِتابِ الزُّبَيْرِ بنِ أَبِي بَكْرٍ.

[فَضْلُ زَمْزَمَ وما قِيلَ فيها مِنْ شِعْرٍ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: فعَفَّتْ زَمْزَمُ على البِئارِ الَّتِي كانَتْ قَبْلَها يَسْقِي عَلَيْها الحاجُّ، وانْصَرَفَ النّاسُ إلَيْها؛ لِمَكانِها مِن المَسْجِدِ الحَرامِ، ولِفَضْلِها على ما سِواها مِن المِياهِ، ولِأَنَّها بِئْرُ إسْماعِيلَ بنِ إبْراهِيمَ عَلَيْهِما السَّلامُ، وافْتَخَرَتْ بِها بَنُو عَبْدِ مَنافٍ على قُرَيْشٍ كُلِّها وعلى سائِرِ العَرَبِ، فقالَ مُسافِرُ بنُ أبِي عَمْرِو بنِ أُمَيَّةَ بنِ عَبْدِ شَمْسِ بنِ عَبْدِ مَنافٍ، وهُوَ يَفْخَرُ على قُرَيْشٍ بِما وَلُوا عَلَيْهِمْ مِن السِّقايَةِ والرِّفادةِ، وما أقامُوا لِلنّاسِ مِنْ ذلك، وبِزَمْزَمَ حِينَ ظَهَرَتْ لَهُمْ، وإنَّما كانَ بَنُو عَبْدِ مَنافٍ أَهْلَ بَيْتٍ واحِدٍ، شَرَفُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ شَرَفٌ، وفَضْلُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ فضْلٌ:

وَرِثْنا المجد من آبا ... ئِنا فنَمى بِنا صُعُدا

أَلَمْ نَسْقِ الحَجِيجَ ونَنْـ ... ـحَرِ الدَّلّافةَ الرُّفُدا

وَنُلْقى عِنْدَ تَصْرِيفِ الـ ... ـمَنايا شُدَّدًا رُفُدا

فَإنْ نَهْلِكْ فلَمْ نُمْلَكْ ... ومَنْ ذا خالِدٌ أبَدا؟

وَزَمْزَمُ في أَرُومَتِنا ... ونَفْقَأُ عَيْنَ مَنْ حَسَدا

قالَ ابنُ هِشامٍ: وهَذِهِ الأبْياتُ في قَصِيدةٍ لَهُ.

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وقالَ حُذَيْفةُ بنُ غانِمٍ أخُو بَنِي عَدِيِّ بنِ كَعْبِ بنِ لُؤَيٍّ:

(١) «معجم ما استعجم» (٣: ٧٢٥). (ج)

وَسَــاقِي الحَجِيجِ ثُمَّ لِلْخَيْرِ هاشِمٌ وعَبْدُ مَنافٍ ذلك السَّيِّدُ الفِهري
طوى زمزمًا عِنْدَ المَقامِ فأصْبَحَتْ سِــقايَتُهُ فخْرًا على كُلِّ ذِي فخْرِ

قالَ ابنُ هِشامٍ: يَعْنِي عَبْدَ المُطَّلِبِ بنَ هاشِمٍ. وهذانِ البَيْتانِ في قَصِيدةٍ لِحُذَيْفةَ بنِ غانِمٍ سَأذْكُرُها في مَوْضِعِها إنْ شاءَ اللهُ تَعالى.

ذِكْرُ نَذْرِ عَبْدِ المُطَّلِبِ ذَبْحَ ولَدِهِ

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وكانَ عَبْدُ المُطَّلِبِ بنُ هاشِمٍ ـ فيما يَزْعُمُونَ، واللهُ أعْلَمُ ـ قَدْ نَذَرَ حِينَ لَقِيَ مِنْ قُرَيْشٍ ما لَقِيَ عِنْدَ حَفْرِ زَمْزَمَ: لَئِنْ وُلِدَ لَهُ عَشَرةُ نَفَرٍ، ثُمَّ بَلَغُوا مَعَهُ حَتّى يَمْنَعُوهُ، لَيَنْحَرَنَّ أحَدَهُمْ للهِ عِنْدَ الكَعْبةِ، فلَمّا تَوافى بَنُوهُ عَشَرةً، وعَرَفَ أنَّهُمْ سَيَمْنَعُونَهُ، جَمَعَهُمْ ثُمَّ أخْبَرَهُمْ بِنَذْرِهِ، ودَعاهُمْ إلى الوَفاء للهِ بِذلك، فأطاعُوهُ وقالُوا: كَيْفَ نَصْنَعُ؟ قالَ: لِيَأْخُذْ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ قِدْحًا ثُمَّ يَكْتُبْ فيهِ اسْمَهُ، ثُمَّ ائْتُونِي. ففَعَلُوا، ثُمَّ أتَوْهُ، فدَخَلَ بِهِمْ على هُبَلَ في جَوْفِ الكَعْبةِ، وكانَ هُبَلُ على بِئْرٍ في جَوْفِ الكَعْبةِ، وكانَتْ تِلْكَ البِئْرُ هِيَ الَّتِي يُجْمَعُ فيها ما يُهْدى لِلْكَعْبةِ.

[الضَّرْبُ بِالقِداحِ عِنْدَ العَرَبِ]

وَكانَ عِنْدَ هُبَلَ قِداحٌ سَبْعةٌ، كُلُّ قِدْحٍ مِنْها فيهِ كِتابٌ: قِدْحٌ فيهِ العَقْلُ؛ إذا اخْتَلَفُوا في العَقْلِ مَنْ يَحْمِلُهُ مِنْهُمْ، ضَرَبُوا بِالقِداحِ السَّبْعةِ، فإنْ خَرَجَ العَقْلُ فعلى مَنْ خَرَجَ حَمْلُهُ، وقِدْحٌ فيهِ «نَعَمْ»؛ لِلْأمْرِ إذا أرادُوهُ يُضْرَبُ بِهِ في القِداحِ، فإنْ خَرَجَ قِدْحُ «نَعَمْ» عَمِلُوا بِهِ، وقِدْحٌ فيهِ «لا»؛ إذا أرادُوا أمْرًا ضَرَبُوا بِهِ في القِداحِ، فإنْ خَرَجَ ذلك القِدْحُ لَمْ يَفْعَلُوا ذلك الأمْرَ، وقِدْحٌ

فيهِ «مِنْكُمْ»، وقِدْحٌ فيهِ «مُلْصَقٌ»، وقِدْحٌ فيهِ «مِنْ غَيْرِكُمْ»، وقِدْحٌ فيهِ «المِياهُ» إذا أرادُوا أنْ يَحْفِرُوا لِلْماءِ ضَرَبُوا بِالقِداحِ، وفيها ذلك القِدْحُ، فحَيْثُما خَرَجَ عَمِلُوا بِهِ، وكانُوا إذا أرادُوا أنْ يَخْتِنُوا غُلامًا، أوْ يُنْكِحُوا مُنْكَحًا، أوْ يَدْفِنُوا مَيتًا، أو شكُّوا في نَسَبِ أحَدِهِمْ؛ ذَهَبُوا بِهِ إلى هُبَلَ وبمئة دِرْهَمٍ وجَزُورٍ، فأعْطَوْها صاحِبَ القِداحِ الَّذي يَضْرِبُ بِها، ثُمَّ قَرَّبُوا صاحِبَهُم الَّذي يُرِيدُون بِهِ ما يُرِيدُونَ، ثُمَّ قالُوا: يا إلَهَنا، هذا فُلانُ بنُ فُلانٍ قَدْ أرَدْنا بِهِ كَذا وكَذا، فأخْرِجِ الحَقَّ فيهِ، ثُمَّ يَقُولُونَ لِصاحِبِ القِداحِ: اضْرِبْ؛ فإنْ خَرَجَ عَلَيْهِ «مِنْكُمْ» كانَ مِنْهُمْ وسِيطًا، وإنْ خَرَجَ عَلَيْهِ «مِنْ غَيْرِكُمْ» كانَ حَلِيفًا، وإنْ خَرَجَ عَلَيْهِ «مُلْصَقٌ» كانَ على مَنْزِلَتِهِ فيهِمْ، لا نَسَبَ لَهُ ولا حِلْفَ، وإنْ خَرَجَ فيهِ شَيْءٌ مِمّا سِوى هذا مِمّا يَعْمَلُونَ بِهِ «نَعَمْ» عَمِلُوا بِهِ، وَإنْ خَرَجَ «لا» أخَّرُوهُ عامَهُ ذلك حَتّى يَأْتُوهُ بِهِ مَرّةً أُخْرى، يَنْتَهُونَ في أُمُورِهِمْ إلى ذلك مِمّا خَرَجَتْ بِهِ القِداحُ.

[عَبْدُ المُطَّلِبِ وأوْلادُهُ بَيْنَ يَدَيْ صاحِبِ القِداحِ]

فَقالَ عَبْدُ المُطَّلِبِ لِصاحِبِ القِداحِ: اضْرِبْ على بَنِيَّ هَؤُلاءِ بِقِداحِهِمْ هَذِهِ، وأخْبَرَهُ بِنَذْرِهِ الَّذي نَذَرَ، فأعْطاهُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ قِدْحَهُ الَّذي فيهِ اسْمُهُ، وكانَ عَبْدُ الله بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ أصْغَرَ بَنِي أبيهِ، كانَ هُوَ والزُّبَيْرُ وأبو طالِبٍ لِفاطِمَةَ بِنْتِ عَمْرِو بنِ عائِذِ بنِ عَبْدِ بنِ عِمْرانَ بنِ مَخْزُومِ بنِ يَقَظَةَ بنِ مُرّةَ بنِ كَعْبِ بنِ لُؤَيِّ بنِ غالِبِ بنِ فِهْرٍ.

قالَ ابنُ هِشامٍ: عائِذُ بنُ عِمْرانَ بنِ مَخْزُومٍ.

[خُرُوجُ القِدْحِ على عَبْدِ الله، وشُرُوعُ أبيهِ في ذَبْحِهِ، ومَنْعُ قُرَيْشٍ لَهُ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وكانَ عَبْدُ الله ـ فيما يَزْعُمُونَ ـ أحَبَّ ولَدِ عَبْدِ المُطَّلِبِ

إِلَيْهِ، فكانَ عَبْدُ المُطَّلِبِ يَرى أنَّ السَّهْمَ إذا أخَطَأَهُ فقَدْ أشْوى، وهُوَ أبو رَسُولِ الله ﷺ، فلَمّا أخَذَ صاحِبُ القِداحِ القِداحَ لِيَضْرِبَ بِها، قامَ عَبْدُ المُطَّلِبِ عِنْدَ هُبَلَ يَدْعُو الله، ثُمَّ ضَرَبَ صاحِبُ القِداحِ، فخَرَجَ القِدْحُ على عَبْدِ الله، فأخَذَهُ عَبْدُ المُطَّلِبِ بِيَدِهِ وأخَذَ الشَّفْرَةَ، ثُمَّ أقْبَلَ بِهِ إلى إسافٍ ونائِلةَ لِيَذْبَحَهُ، فقامَتْ إلَيْهِ قُرَيْشٌ مِنْ أنْدِيَتِها، فقالُوا: ماذا تُرِيدُ يا عَبْدَ المُطَّلِبِ؟ قالَ: أذْبَحُهُ، فقالَتْ لَهُ قُرَيْشٌ وبَنُوهُ: والله لا تَذْبَحُهُ أبَدًا حَتّى تُعْذِرَ فيهِ، لَئِنْ فعَلْتَ هذا لا يَزالُ الرَّجُلُ يَأْتِي بِابنِهِ حَتّى يَذْبَحَهُ، فما بَقاءُ النّاسِ على هذا! وقالَ لَهُ المُغِيرةُ بنُ عَبْدِ الله بنِ عَمْرِو بنِ مَخْزُومِ بنِ يَقَظةَ، وكانَ عَبْدُ الله ابنَ أُخْتِ القَوْمِ: والله لا تَذْبَحُهُ أبَدًا حَتّى تُعْذِرَ فيهِ، فإنْ كانَ فِداؤُهُ بِأمْوالِنا فدَيْناهُ. وقالَتْ لَهُ قُرَيْشٌ وبَنُوهُ: لا تَفْعَلْ، وانْطَلِقْ بِهِ إلى الحِجازِ؛ فإنَّ بِهِ عَرّافةً لَها تابِعٌ، فسَلْها، ثُمَّ أنْتَ على رَأْسِ أمْرِكَ، إنْ أمَرَتْكَ بِذَبْحِهِ ذَبَحْتَهُ، وإنْ أمَرَتْكَ بِأمْرٍ لَكَ ولَهُ فيهِ فرَجٌ قَبِلْتَهُ.

[عَرّافةُ الحِجازِ وما أشارت بِهِ عَلَى عَبْدِ المُطَّلِبِ]

فانْطَلَقُوا حَتّى قدِمُوا المَدِينة، فوجدوها ـ فيما يَزْعُمُونَ ـ بِخَيْبَرَ، فرَكِبُوا حَتّى جاؤُوها، فسَألُوها، وقَصَّ عَلَيْها عَبْدُ المُطَّلِبِ خَبَرَهُ وخَبَرَ ابنِهِ، وما أرادَ بِهِ، ونَذْرَهُ فيهِ، فقالَتْ لَهُمْ: ارْجِعُوا عَنِّي اليَوْمَ حَتّى يَأْتِيَنِي تابِعِي فأسْألَهُ. فرَجَعُوا مِنْ عِنْدِها، فلَمّا خَرَجُوا عَنْها، قامَ عَبْدُ المُطَّلِبِ يَدْعُو الله، ثُمَّ غَدَوْا عَلَيْها، فقالَتْ لَهُمْ: قَدْ جاءَنِي الخَبَرُ، كَم الدِّيةُ فيكُمْ؟ قالُوا: عَشْرٌ مِن الإبِلِ، وكانَتْ كَذلك،

قالَتْ: فارْجِعُوا إلى بِلادِكُمْ، ثُمَّ قَرِّبُوا صاحِبَكُمْ، وقَرِّبُوا عَشْرًا مِن

الإبِلِ، ثُمَّ اضْرِبُوا عَلَيْها وعَلَيْهِ بِالقِداحِ، فإنْ خَرَجَتْ على صاحِبِكُمْ فزِيدُوا مِن الإبِلِ حَتّى يَرْضى رَبُّكُمْ، وإنْ خَرَجَتْ على الإبِلِ فانْحَرُوها عَنْهُ؛ فقَدْ رَضِيَ رَبُّكُمْ، ونَجا صاحِبُكُمْ.

[نَجاةُ عَبْدِ اللهِ مِن الذَّبْحِ]

فَخَرَجُوا حَتّى قَدِمُوا مَكّةَ، فلَمّا أجْمَعُوا على ذلك مِن الأمْرِ، قامَ عَبْدُ المُطَّلِبِ يَدْعُو اللهَ، ثُمَّ قَرَّبُوا عَبْدَ اللهِ وعَشْرًا مِن الإبِلِ، وعَبْدُ المُطَّلِبِ قائِمٌ عِنْدَ هُبَلَ يَدْعُو اللهَ عَزَّ وجَلَّ، ثُمَّ ضَرَبُوا فخَرَجَ القِدْحُ على عَبْدِ اللهِ، فزادُوا عَشْرًا مِن الإبِلِ، فبَلَغَت الإبِلُ عِشْرِينَ، وقامَ عَبْدُ المُطَّلِبِ يَدْعُو اللهَ عَزَّ وجَلَّ، ثُمَّ ضَرَبُوا، فَخَرَجَ القِدْحُ على عَبْدِ اللهِ، فزادُوا عَشْرًا مِن الإبِلِ، فبَلَغَت الإبِلُ ثَلاثِينَ، وقامَ عَبْدُ المُطَّلِبِ يَدْعُو اللهَ، ثُمَّ ضَرَبُوا، فخَرَجَ القِدْحُ على عَبْدِ اللهِ، فزادُوا عَشْرًا مِن الإبِلِ، فبَلَغَت الإبِلُ أرْبَعِينَ، وقامَ عَبْدُ المُطَّلِبِ يَدْعُو اللهَ، ثُمَّ ضَرَبُوا، فخَرَجَ القِدْحُ على عَبْدِ اللهِ، فزادُوا عَشْرًا مِن الإبِلِ، فبَلَغَت الإبِلُ خَمْسِينَ، وقامَ عَبْدُ المُطَّلِبِ يَدْعُو اللهَ، ثُمَّ ضَرَبُوا، فخَرَجَ القِدْحُ على عَبْدِ اللهِ، فزادُوا عَشْرًا مِن الإبِلِ، فبَلَغَت الإبِلُ سِتِّينَ، وقامَ عَبْدُ المُطَّلِبِ يَدْعُو اللهَ، ثُمَّ ضَرَبُوا، فخَرَجَ القِدْحُ على عَبْدِ اللهِ، فزادُوا عَشْرًا مِن الإبِلِ، فبَلَغَت الإبِلُ سَبْعِينَ، وقامَ عَبْدُ المُطَّلِبِ يَدْعُو اللهَ، ثُمَّ ضَرَبُوا، فخَرَجَ القِدْحُ على عَبْدِ اللهِ، فزادُوا عَشْرًا مِن الإبِلِ، فبَلَغَت الإبِلُ ثَمانِينَ، وقامَ عَبْدُ المُطَّلِبِ يَدْعُو اللهَ، ثُمَّ ضَرَبُوا، فخَرَجَ القِدْحُ على عَبْدِ اللهِ، فزادُوا عَشْرًا مِن الإبِلِ، فبَلَغَت الإبِلُ تِسْعِينَ، وقامَ عَبْدُ المُطَّلِبِ يَدْعُو اللهَ، ثُمَّ ضَرَبُوا، فخَرَجَ القِدْحُ على عَبْدِ اللهِ، فزادُوا عَشْرًا مِن

الإبِلِ، فبلغت الإبِل مئة، وقامَ عَبْدُ المُطَّلِبِ يَدْعُو الله، ثُمَّ ضَرَبُوا، فخَرَجَ القِدْحُ على الإبِلِ، فقالَتْ قُرَيْشٌ ومَنْ حَضَرَ: قَد انْتَهى رِضا رَبِّكَ يا عَبْدَ المُطَّلِبِ.

فزَعَمُوا أنَّ عَبْدَ المُطَّلِبِ قالَ: لا والله حَتّى أضْرِبَ عَلَيْها ثَلاثَ مَرّاتٍ، فضَرَبُوا على عَبْدِ الله وعلى الإبِلِ، وقامَ عَبْدُ المُطَّلِبِ يَدْعُو الله، فخَرَجَ القِدْحُ على الإبِلِ، ثُمَّ عادُوا الثّانِيَةَ، وعَبْدُ المُطَّلِبِ قائِمٌ يَدْعُو الله، فضَرَبُوا، فخَرَجَ القِدْحُ على الإبِلِ، ثُمَّ عادُوا الثّالِثَةَ، وعَبْدُ المُطَّلِبِ قائِمٌ يَدْعُو الله، فضَرَبُوا، فخَرَجَ القِدْحُ على الإبِلِ، فنُحِرَتْ، ثُمَّ تُرِكَتْ لا يُصَدُّ عَنْها إنْسانٌ ولا يُمْنَعُ.

قالَ ابنُ هِشامٍ: ويُقالُ: إنْسانٌ ولا سَبُعٌ.

قالَ ابنُ هِشامٍ: وبَيْنَ أضْعافِ هذا الحَدِيثِ رَجَزٌ لَمْ يَصِحَّ عِنْدَنا عَنْ أحَدٍ مِنْ أهْلِ العِلْمِ بِالشِّعْرِ.

ذِكْرُ المَرْأةِ المُتَعَرِّضَةِ لِنِكاحِ عَبْدِ الله بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ

[رَفْضُ عَبْدِ الله طَلَبَ المَرْأةِ الَّتِي عَرَضَتْ نَفْسَها عَلَيْهِ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: ثُمَّ انْصَرَفَ عَبْدُ المُطَّلِبِ آخِذًا بِيَدِ عَبْدِ الله، فمَرَّ بِهِ ـ فيما يَزْعُمُونَ ـ على امْرَأةٍ مِنْ بَنِي أسَدِ بنِ عَبْدِ العُزّى بنِ قُصَيِّ بنِ كِلابِ ابنِ مُرّةَ بنِ كَعْبِ بنِ لُؤَيِّ بنِ غالِبِ بنِ فِهْرٍ ـ وهِيَ أُخْتُ ورَقَةَ بنِ نَوْفَلِ بنِ أسَدِ بنِ عَبْدِ العُزّى ـ وهِيَ عِنْدَ الكَعْبةِ، فقالَتْ لَهُ حِينَ نَظَرَتْ إلى وجْهِهِ: أيْنَ تَذْهَبُ يا عَبْدَ الله؟ قالَ: مَعَ أبي، قالَتْ: لَكَ مِثْلُ الإبِلِ الَّتِي نُحِرَتْ عَنْكَ، وقَعْ عَلَيَّ الآنَ، قالَ: أنا مَعَ أبي، ولا أسْتَطِيعُ خِلافَهُ، ولا فِراقَهُ.

فَصْلٌ

وذَكَرَ شِعْرَ مُسافِرِ بنِ أَبِي عَمْرِو بنِ أُمَيَّةَ. واسْمُ أَبِي عَمْرٍو: ذَكْوانُ، وهُوَ الّذِي يَقُولُ فيهِ أبو طالبٍ[١]: [من الخفيف]

لَيْتَ شِعْرِي مُسافِرَ بنَ أَبِي عَمْـ   رٍو و(لَيْـتٌ) يَقُولُها المَحْزُونُ
بُورِكَ المَيّـتُ الغَرِيبُ كَما بُو   رِكَ نَضْـحُ الرُّمّـانِ والزَّيْتُونُ

في شِعْرٍ يَرْثِيهِ بِهِ، وكانَ ماتَ مِنْ حُبّ صَعْبَةَ بِنْتِ الحَضْرَمِيّ.

وَفِي الشّعْرِ: [من مجزوء الوافر]

«........... ونَنْـ   حَرُ الدّلّافةَ الرُّفُدا»

الرُّفُدُ: جَمْعُ رَفُودٍ مِنَ الرَّفْدِ، وهِيَ الّتِي تَمْلَأُ إناءَيْنِ عِنْدَ الحَلْبِ.

وَقَوْلُهُ: [من الوافر]

وَنُلْفـى عِنْدَ تَصْرِيفِ الـ   ـمَنايا شُـدّدًا رُفُـدا[٢]

هُوَ جَمْعُ رَفُودٍ أيْضًا مِن الرِّفْدِ، وهُوَ: العَوْنُ؛ والأوّلُ مِن الرَّفْدِ ـ بِفَتْحِ الرّاءِ ـ وهُوَ إناءٌ كَبِيرٌ، قالَ الشّاعِرُ: [من الخفيف]

رُبَّ رَفْدٍ هَرَقْتُهُ ذَلِكَ اليَوْ   مَ وأسرى مِنْ مَعشَرٍ أقيالِ

وَذَكَرَ أُمَّ عَبْدِ اللهِ بنِ عَبْدِ المُطّلِبِ، وهي: فاطمة بنت عمرو بن عائذِ بن عِمْرانَ، هَكَذا قالَ ابنُ هِشامٍ.

وقالَ ابنُ إسحاق: عائذ بن عبد بن عمران[٣] بن مَخْزُومٍ، والصّحِيحُ ما قالَهُ

(١) في (ف): «أبو سفيان».
(٢) في (ب) و«السيرة»: «ونلقى».
(٣) «بن عمران» ليس في: (ف).

ابنُ هِشامٍ؛ لِأنّ الزّبَيْرِيّينَ[١] ذَكَرُوا أنّ عَبْدًا هذا هُوَ أخُو عائِذِ بنِ عِمْرانَ، وأنّ بِنْتَ عَبْدٍ هِيَ: صَخْرةُ امْرَأةُ عَمْرِو بنِ عائِذٍ، [وهِيَ أمُّ فاطِمة جدّةِ رسولِ اللهِ ﷺ، فلا يصحُّ أنْ تكون صخرةُ بنت عبدٍ امرأةَ عمرو[٢] بن عائذ][٣] على قَوْلِ ابنِ إسْحاقَ؛ لِأنّها كانَتْ تكونُ لَهُ عَمّةً، لا بِنْتَ عَمّ، فتَأمّلْهُ، فقَدْ تكَرّرَ هَذا النّسَبُ في «السّيرةِ» مِرارًا، وفي [كُلٍّ][٤] ذَلِكَ يَقُولُ ابنُ إسحاق: عائذ بن عبد بن عِمْرانَ، ويُخالِفُهُ ابنُ هِشامٍ. وصَخْرةُ بِنْتُ عَبْدٍ أُمّ فاطِمةَ، أُمّها: تَخْمُرُ بِنْتُ عَبْدِ بنِ قُصَيّ، وأُمّ تَخْمُرَ[٥]: سُلْمى بِنْتُ عُمَيْرةَ بنِ وديعةَ بن الحارث بن فهرٍ. قاله الزُّبير[٦].

فَصْلٌ

وذَكَرَ نَذْرَ عَبْدِ المُطّلِبِ أنْ يَنْحَرَ ابنَهُ إلى آخِرِ الحَدِيثِ. وفيهِ: أنّ عَبْدَ اللهِ ـ يَعْنِي: والِدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ـ كانَ أصْغَرَ بَنِي أبِيهِ، وهَذا غَيْرُ مَعْرُوفٍ، ولَعَلّ الرِّوايَةَ: «أصْغَرَ بَنِي أُمِّهِ»، وإلّا فحَمْزةُ كانَ أصْغَرَ مِنْ عَبْدِ اللهِ، والعَبّاسُ[٧] أصْغَرَ

(١) انظر: «نسب قريش» لمصعب الزبيري: (١٧، ٣٤٣-٣٤٤).

(٢) في (هـ): «امرأة عبد».

(٣) سقط من (ب).

(٤) ليست في (ب).

(٥) في مطبوعة «نسب قريش» لمصعب: (ص: ٣٤٣): «تخمد»، بالدال، وهو تحريف. وانظر: «جمهرة النسب» للكلبي: (ص: ٢٨).

(٦) «نسب قريش» للزبيري: (ص: ١٧).

(٧) كذا في النسخ، وقد عُدِّل في (أ): «العباس» إلى «الغيداق»، ونبه في حاشيتها إلى ذلك. والغيداق من ولد عبد المطلب، واسمه: مصعب، كما في «نسب قريش» لمصعب: (ص:١٨)، ولا نرى بأسًا من إثبات العباس؛ فهو رضي الله عنه ـ كما في «أسد الغابة» (٣: ١٦٤) ـ كان أسنّ من رسول الله ﷺ بسنتين، وقيل: بثلاث. وأن حمزة ـ كما في «أسد الغابة» أيضًا: (٢: ٥١) ـ كان أسنَّ منه ﷺ بسنتَين، وقيل: بأربع. وعليه فهما أصغر من عبد الله.

مِنْ حَمْزةَ، ورُوِيَ عَن العَبّاسِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قالَ: أَذْكُرُ مَوْلِدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وأنا ابنُ ثَلاثةِ أَعْوامٍ أَوْ نَحْوِها، فجِيءَ بِي حَتّى نَظَرْت إِلَيْهِ، وجَعَلَ النّسْوةُ يَقُلْنَ لِي: قَبِّلْ أخاك، قَبِّلْ أخاك، فقَبّلْته، فكَيْفَ يَصِحّ أَنْ يَكُونَ عَبْدُ اللهِ هُوَ الأَصْغَرَ مَعَ هَذا؟! ولَكِنْ رَواهُ البَكّائِيّ كَما تَقَدّمَ، ولِرِوايَتِهِ وجْهٌ؛ وهُوَ أَنْ يَكُونَ أَصْغَرَ ولَدِ أَبِيهِ حِينَ أَرادَ نَحْرَهُ، ثُمّ وُلِدَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ حَمْزةُ والعَبّاسُ.

وَسائِرُ حَدِيثِ عَبْدِ المُطّلِبِ لَيْسَ فيهِ ما يُشْكِلُ.

وفيهِ: أَنّ الدّيةَ كانت بِعَشْرٍ مِن الإِبِلِ قَبْلَ هَذِهِ القِصّةِ، وأَوّلُ [مَنْ][1] وُدِيَ بِالمئة إذًا: عَبْدُ اللهِ. وقَدْ قَدّمْنا[2] ما ذَكَرَهُ الأَصْبَهانِيّ عَنْ أَبِي اليَقْظانِ: أَنّ أَبا سَيّارةَ هُوَ أَوّلُ مَنْ جَعَلَ الدّيةَ مئة مِن الإِبِلِ، وأَمّا أَوّلُ مَنْ وُدِيَ بالإبل من العرب: فزيدُ بن بَكْرِ بنِ هَوازِنَ، قَتَلَهُ أَخُوهُ مُعاوِيةُ[3] جَدّ بَنِي عامِرِ بنِ صَعْصَعةَ[4].

وَأَمّا الكاهِنةُ الّتِي تَحاكَمُوا إِلَيْها بِالمَدِينةِ فاسْمُها: قُطْبةُ. ذَكَرَها عَبْدُ الغَنِيّ[5] في كِتابِ «الغَوامِضِ والمُبْهَماتِ»، وذَكَرَ ابنُ إِسْحاقَ في رِوايةِ يُونُسَ أَنّ اسْمَها: سَجاحُ.

❁ ❁ ❁

---

(١) ليست في (أ).

(٢) انظر: (٢/ ٤٢).

(٣) في (ج): «ذكره القتبي». وانظر: «المعارف» (ص: ٨٦).

(٤) انظر: «جمهرة أنساب العرب» لابن حزم: (ص: ٢٦٤).

(٥) لم نجده في «الغوامض والمبهمات» المطبوع، وانظر: «الأوائل» للعسكري، تعليق المحقق: (١: ٥٣)، و«البداية والنهاية» (٢: ٢٤٨).

[زَواجُ عَبْدِ اللهِ مِنْ آمِنةَ بِنْتِ وهْبٍ]

فَخَرَجَ بِهِ عَبْدُ المُطَّلِبِ حَتّى أتى بِهِ وهْبَ بنَ عَبْدِ مَنافِ بنِ زُهْرةَ بنِ كِلابِ بنِ مُرّةَ بنِ كَعْبِ بنِ لُؤَيِّ بنِ غالِبِ بنِ فِهْرٍ، وهُوَ يَوْمَئِذٍ سَيِّدُ بَنِي زُهْرةَ نَسَبًا وشَرَفًا، فزَوَّجَهُ ابنَتَهُ آمِنةَ بِنْتَ وهْبٍ، وهِيَ يَوْمَئِذٍ أفْضَلُ امْرَأةٍ في قُرَيْشٍ نَسَبًا ومَوْضِعًا.

فَصْلٌ

وذَكَرَ تَزْوِيجَ عَبْدِ اللهِ بنِ عَبْدِ المُطّلِبِ آمِنةَ بِنْتَ وهْبٍ، وذَكَرَ البَرْقِيّ في سَبَبِ تَزْوِيجِ عَبْدِ اللهِ آمِنةَ: أنّ عَبْدَ المُطّلِبِ كانَ يَأْتِي اليَمَنَ، وكانَ يَنْزِلُ فيها على عَظِيمٍ مِنْ عُظَمائِهِمْ، فنَزَلَ عِنْدَهُ مَرّةً، فإذا عِنْدَهُ رَجُلٌ مِمّنْ قَرَأَ الكُتُبَ، فقالَ لَهُ: ائْذَنْ لِي أُفَتِّشْ مَنْخِرَك. فقالَ: دُونَك فانْظُرْ، فقالَ: أرى نُبُوّةً ومُلْكًا، وأراهُما في المَنافَيْنِ: عَبْدِ مَنافِ بنِ قُصَيٍّ، وعَبْدِ مَنافِ بنِ زُهْرةَ، فلَمّا انْصَرَفَ عبد المطلب انطلَقَ بابْنِه عبد الله، فتَزَوّجَ عَبْدُ المُطّلِبِ هالةَ بِنْتَ وُهَيْبٍ، وهِيَ أُمُّ حَمْزةَ، وزَوّجَ ابنَهُ عَبْدَ اللهِ آمِنةَ بِنْتَ وهْبٍ، فوَلَدَتْ لَهُ رَسُولَ اللهِ ﷺ.

* * *

[أُمَّهاتُ آمِنةَ بِنْتِ وهْبٍ]

وَهِيَ لِبَرّةَ بِنْتِ عَبْدِ العُزّى بنِ عُثْمانَ بنِ عَبْدِ الدّارِ بنِ قُصَيّ بنِ كِلابِ بنِ مُرّةَ بن كَعْبِ بنِ لُؤَيّ بنِ غالِبِ بنِ فِهْرٍ. وبَرّةُ: لِأُمِّ حَبِيبٍ بِنْتِ أَسَدِ بنِ عَبْدِ العُزّى ابن قُصَيّ بنِ كِلابِ بنِ مُرّةَ بنِ كَعْبِ بنِ لُـؤَيّ بنِ غالِبِ بنِ فِهْـرٍ. وأُمُّ حَبِيبٍ لِبَرّةَ بِنْتِ عَوْفِ بنِ عُبَيْدِ بنِ عُوَيْجِ بنِ عَدِيّ بنِ كَعْبِ بنِ لُؤَيّ بنِ غالِبِ بنِ فِهْرٍ.

[ما جَرى بَيْنَ عَبْدِ الله والمَرْأةِ المُتَعَرِّضةِ لَهُ بَعْدَ بِنائِهِ بِآمِنةَ]

فَزَعَمُوا أَنَّهُ دَخَلَ عَلَيْها حِينَ أُمْلِكَها مَكانَهُ، فوَقَعَ عَلَيْها، فحَمَلَتْ بِرَسُولِ الله ﷺ، ثُمّ خَرَجَ مِنْ عِنْدِها، فأتى المَرْأةَ الّتِي عَرَضَتْ عَلَيْهِ ما عَرَضَتْ، فَقالَ لَها: ما لَكِ لا تَعْرِضِينَ عَلَيَّ اليَوْمَ ما كُنْتِ عَرَضْتِ عَلَيَّ بِالأمْسِ؟ قالَتْ لَهُ: فارَقَكَ النُّورُ الّذي كانَ مَعَكَ بِالأمْسِ، فلَيْسَ لِي بِكَ اليَوْمَ حاجةٌ. وقَدْ كانَتْ تَسْمَعُ مِنْ أخِيها ورَقةَ بنِ نَوْفَلٍ ـ وكانَ قَدْ تَنَصَّرَ واتَّبَعَ الكُتُبَ ـ: أَنَّهُ سَيَكُونُ في هَذِهِ الأُمّةِ نَبِيٌّ.

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وحَدَّثَنِي أبِي إسْحاقُ بنُ يَسارٍ أَنَّهُ حُدِّثَ: أنَّ عَبْدَ الله إنّما دَخَلَ على امْرَأةٍ كانَتْ لَهُ مَعَ آمِنةَ بِنْتِ وهْبٍ، وقَدْ عَمِلَ في طِينٍ لَهُ، وبِهِ آثارٌ مِن الطِّينِ، فدَعاها إلى نَفْسِهِ، فأبْطَأتْ عَلَيْهِ لِما رَأتْ بِهِ مِنْ أثَرِ الطِّينِ، فخَرَجَ مِنْ عِنْدِها فتَوَضَّأ وغَسَلَ ما كانَ بِهِ مِنْ ذلك الطِّينِ، ثُمّ خَرَجَ عامِدًا إلى آمِنةَ، فمَرَّ بِها، فدَعَتْهُ إلى نَفْسِها، فأبى عَلَيْها، وعَمَدَ إلى آمِنةَ، فدَخَلَ عَلَيْها فأصابَها، فحَمَلَتْ بِمُحَمدٍ ﷺ، ثُمَّ مَرَّ بِامْرَأتِهِ تِلْكَ، فقالَ لَها: هَلْ

لَكِ؟ قالَتْ: لا، مَرَرْتَ بِي وبَيْنَ عَيْنَيْكَ غُرّةٌ بَيْضاءُ، فدَعَوْتُكَ فأبَيْتَ عَلَيَّ، ودَخَلْتَ على آمِنةَ فذَهَبْتَ بِها.

قالَ ابنُ إسْحاقَ: فزَعَموا أنَّ امْرَأتَهُ تِلْكَ كانَتْ تُحَدِّثُ: أنَّهُ مَرَّ بِها وبَيْنَ عَيْنَيْهِ غُرّةٌ مِثْلُ غُرّةِ الفَرَسِ، قالَتْ: فدَعَوْتُهُ رَجاءَ أنْ تَكُونَ تِلْكَ بِي، فأبى عَلَيَّ، ودَخَلَ على آمِنةَ، فأصابَها، فحَمَلَتْ بِرَسُولِ الله ﷺ. فكانَ رَسُولُ الله ﷺ أوْسَطَ قَوْمِهِ نَسَبًا، وأعْظَمَهُمْ شَرَفًا مِنْ قِبَلِ أبيهِ وأُمِّهِ ﷺ.

ذِكْرُ ما قِيلَ لِآمِنةَ عِنْدَ حَمْلِها بِرَسُولِ الله ﷺ

وَيَزْعُمُونَ فيما يَتَحَدَّثُ النّاسُ ـ والله أعْلَمُ ـ: أنَّ آمِنةَ بِنْتَ وهْبٍ أُمَّ رَسُولِ الله ﷺ كانَتْ تُحَدِّثُ: أنَّها أُتِيَتْ حِينَ حَمَلَتْ بِرَسُولِ الله ﷺ، فقِيلَ لَها: إنَّكِ قَدْ حَمَلْتِ بِسَيِّدِ هَذِهِ الأُمّةِ، فإذا وقَعَ إلى الأَرْضِ فقُولِي: أُعِيذُهُ بِالواحِدِ، مِنْ شَرِّ كُلِّ حاسِدٍ، ثُمَّ سَمِّيهِ مُحَمَّدًا. ورَأتْ حِينَ حَمَلَتْ بِهِ أنَّهُ خَرَجَ مِنْها نُورٌ رَأتْ بِهِ قُصُورَ بُصْرى مِنْ أرْضِ الشّامِ.

[مَوْتُ عَبْدِ الله]

ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ عَبْدُ الله بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ أبو رَسُولِ الله ﷺ أنْ هَلَكَ، وأُمُّ رَسُولِ الله ﷺ حامِلٌ بِهِ.

وِلادةُ رَسُولِ الله ﷺ ورَضاعَتُهُ

[رَأيُ ابنِ إسْحاقَ في مَوْلِدِهُ ﷺ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وُلِدَ رَسُولُ الله ﷺ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ، لِاثْنَتَيْ عَشْرةَ لَيْلةً

خَلَتْ مِنْ شَهْرِ رَبِيعٍ الأوَّلِ، عامَ الفيلِ.

[رِوايةُ قَيْسِ بنِ مَخْرَمَةَ عَنْ مَوْلِدِهِ ﷺ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: حَدَّثَني المُطَّلِبُ بنُ عَبْدِ الله بنِ قَيْسِ بنِ مَخْرَمةَ، عَنْ أبيهِ، عَنْ جَدِّهِ قَيْسِ بنِ مَخْرَمةَ، قالَ: وُلِدْتُ أنا ورَسُولُ الله ﷺ عامَ الفيلِ، فنَحْنُ لِدانِ.

[رِوايةُ حَسّانَ بنِ ثابتٍ عَنْ مَوْلِدِهِ ﷺ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وحَدَّثَني صالِحُ بنُ إبْراهِيمَ بنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ عَوْفٍ، عَنْ يَحْيي بنِ عَبْدِ الله بنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ سَعْدِ بنِ زُرارةَ الأنْصارِيِّ، قالَ: حَدَّثَني مَنْ شِئْتُ مِنْ رِجالِ قَوْمِي، عَنْ حَسّانَ بنِ ثابِتٍ، قالَ: والله إنِّي لَغُلامٌ يَفَعةٌ، ابنُ سَبْعِ سِنِينَ أوْ ثَمانٍ، أعْقِلُ كُلَّ ما سَمِعْتُ، إذْ سَمِعْتُ يَهُودِيًّا يَصْرُخُ بِأعلى صَوْتِهِ على أطَمةٍ بِيَثْرِبَ: يا مَعْشَرَ يَهُودَ، حَتّى إذا اجْتَمَعُوا إلَيْهِ، قالُوا لَهُ: ويلكَ ما لكَ؟ قالَ: طَلَعَ اللَّيْلةَ نَجْمُ أحْمَدَ الّذي وُلِدَ بِهِ.

قالَ مُحَمَّدُ بنُ إسْحاقَ: فسَألْتُ سَعِيدَ بنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ حَسّانَ بنِ ثابِتٍ، فقُلْتُ: ابنَ كَمْ كانَ حَسّانُ بنُ ثابتٍ مَقْدَمَ رَسُولِ الله ﷺ المَدِينةَ؟ فَقالَ: ابنَ سِتِّينَ سَنةً، وقَدِمَها رَسُولُ الله ﷺ وهُوَ ابنُ ثَلاثٍ وخَمْسِينَ سَنةً، فسَمِعَ حَسّانُ ما سَمِعَ وهُوَ ابنُ سَبْعِ سِنِينَ.

[إعْلامُ أُمِّهِ جَدَّهُ بِولادَتِهِ ﷺ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: فلَمّا وضَعَتْهُ أُمُّهُ ﷺ، أرْسَلَتْ إلى جَدِّهِ عَبْدِ المُطَّلِبِ: أنَّهُ قَدْ وُلِدَ لَكَ غُلامٌ، فأْتِهِ فانْظُرْ إلَيْهِ، فأتاهُ فنَظَرَ إلَيْهِ، وحَدَّثَتْهُ بِما رَأتْ حِينَ حَمَلَتْ بِهِ، وما قِيلَ لَها فيهِ، وما أُمِرَتْ بِهِ أنْ تُسَمِّيَهُ.

[فَرَحُ جَدِّهِ بِهِ ﷺ، والتِماسُهُ لَهُ المَراضِعَ]

فيزْعُمُونَ أنَّ عَبْدَ المُطَّلِبِ أخَذَهُ، فدَخَلَ بِهِ الكَعْبَةَ، فقامَ يَدْعُو اللهَ، ويَشْكُرُ لَهُ ما أعْطاهُ، ثُمَّ خَرَجَ بِهِ إلى أُمِّهِ فدَفَعَهُ إلَيْها، والتَمَسَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ الرُّضَعاءَ.

قالَ ابنُ هِشامٍ: المَراضِعَ. وفي كِتابِ اللهِ تَبارَكَ وتَعالى في قِصّةِ مُوسى عَلَيْهِ السَّلامُ: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾ [القصص: ١٢].

[نَسَبُ حَلِيمةَ، ونَسَبُ أبيها]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: فاسْتَرْضَعَ لَهُ امْرَأةً مِنْ بَنِي سَعْدِ بنِ بَكْرٍ، يُقالُ لَها: حَلِيمةُ ابنةُ أبي ذُؤَيْبٍ.

وَأبو ذُؤَيْبٍ: عَبْدُ اللهِ بنُ الحارِثِ بنِ شَجْنَةَ بنِ جابِرِ بنِ رِزامِ بنِ ناصِرةَ ابنِ فُصَيَّةَ بنِ نَصْرِ بنِ سَعْدِ بنِ بَكْرِ بنِ هَوازِنَ بنِ مَنْصُورِ بنِ عِكْرِمةَ بنِ خَصَفةَ بنِ قَيْسِ بنِ عَيْلانَ.

[نَسَبُ أبيهِ ﷺ في الرَّضاعِ]

واسْمُ أبيهِ الَّذي أرْضَعَهُ ﷺ: الحارِثُ بنُ عَبْدِ العُزّى بنِ رِفاعةَ بنِ مَلّانَ بنِ ناصِرةَ بنِ فُصَيَّةَ بنِ نَصْرِ بنِ سَعْدِ بنِ بَكْرِ بنِ هَوازِنَ.

قالَ ابنُ هِشامٍ: ويُقالُ: هِلالُ بنُ ناصِرةَ.

[إخْوَتُهُ ﷺ مِنَ الرَّضاعِ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وإخْوَتُهُ مِنَ الرَّضاعةِ: عَبْدُ اللهِ بنُ الحارِثِ، وأُنَيْسةُ بِنْتُ الحارِثِ، وحُذافةُ بِنْتُ الحارِثِ، وهِيَ الشَّيْماءُ، غَلَبَ ذلكَ على اسْمِها

فلا تُعْرَفُ في قَوْمِها إلّا بِهِ. وهُمْ لِحَلِيمةَ بِنْتِ أبي ذُؤَيْبٍ عَبْدِ اللهِ بنِ الحارِثِ، أُمِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

وَيَذْكُرُونَ أنَّ الشَّيْماءَ كانَتْ تَحْضُنُهُ مَعَ أُمِّها إذا كانَ عِنْدَهُمْ.

[حَدِيثُ حَلِيمةَ عَمّا رَأَتْهُ مِن الخَيْرِ بَعْدَ تَسَلُّمِها لَهُ ﷺ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وحَدَّثَنِي جَهْمُ بنُ أبي جَهْمٍ مَوْلى الحارِثِ بنِ حاطِبٍ الجُمَحِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ جَعْفَرِ بنِ أبي طالِبٍ ـ أوْ عَمَّنْ حَدَّثَهُ عَنْهُ ـ قالَ:

كانَتْ حَلِيمةُ بِنْتُ أبي ذُؤَيْبٍ السَّعْدِيّةُ أُمُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ الَّتِي أرْضَعَتْهُ تُحَدِّثُ: أنَّها خَرَجَتْ مِنْ بَلَدِها مَعَ زَوْجِها وابنٍ لَها صَغِيرٍ تُرْضِعُهُ في نِسْوةٍ مِنْ بَنِي سَعْدِ بنِ بَكْرٍ، تَلْتَمِسُ الرُّضَعاءَ، قالَتْ: وذلك في سَنةٍ شَهْباءَ لَمْ تُبْقِ لَنا شَيْئًا. قالَتْ: فخَرَجْتُ على أتانٍ لِي قَمْراءَ، مَعَنا شارِفٌ لَنا، واللهِ ما تَبِضُّ بِقَطْرةٍ، وما نَنامُ لَيْلَنا أجْمَعَ مِنْ صَبِيِّنا الَّذي مَعَنا؛ مِنْ بُكائِهِ مِن الجُوعِ، ما في ثَدْيَيَّ ما يُغْنِيهِ، وما في شارِفِنا ما يُغَدِّيهِ ـ قالَ ابنُ هِشامٍ: ويُقالُ: يُغَذِّيهِ ـ ولَكِنّا كُنّا نَرْجُو الغَيْثَ والفَرَجَ، فخَرَجْتُ على أتانِي تِلْكَ، فلَقَدْ أدَمْتُ بِالرَّكْبِ حَتّى شَقَّ ذلك عَلَيْهِمْ ضَعْفًا وعَجَفًا، حَتّى قَدِمْنا مَكّةَ نَلْتَمِسُ الرُّضَعاءَ، فما مِنّا امْرَأةٌ إلّا وقَدْ عُرِضَ عَلَيْها رَسُولُ اللهِ ﷺ، فتَأْباهُ إذا قِيلَ لَها: إنَّهُ يَتِيمٌ؛ وذلك أنّا إنّما كُنّا نَرْجُو المَعْرُوفَ مِنْ أبي الصَّبِيِّ، فكُنّا نَقُولُ: يَتِيمٌ! وما عَسى أنْ تَصْنَعَ أُمُّهُ وجَدُّهُ؟! فكُنّا نَكْرَهُهُ لِذلك، فما بَقِيَت امْرَأةٌ قَدِمَتْ مَعِي إلّا أخَذَتْ رَضِيعًا غَيْرِي، فلَمّا أجْمَعْنا الانْطِلاقَ قُلْتُ لِصاحِبِي: واللهِ إنِّي لَأكْرَهُ أنْ أرْجِعَ مِنْ بَيْنِ صَواحِبِي ولَمْ آخُذْ رَضِيعًا، واللهِ لَأذْهَبَنَّ إلى ذلك اليَتِيمِ فلَآخُذَنَّهُ، قالَ: لا عَلَيْكِ أنْ تَفْعَلِي، عَسى اللهُ أنْ يَجْعَلَ لَنا فيهِ بَرَكةً.

قالَتْ: فذَهَبْتُ إلَيْهِ فأخَذْتُهُ، وما حَمَلَنِي على أخْذِهِ إلّا أنِّي لَمْ أجِدْ غَيْرَهُ. قالَتْ: فلَمّا أخَذْتُهُ، رَجَعْتُ بِهِ إلى رَحْلِي، فلَمّا وضَعْتُهُ في حِجْرِي أقْبَلَ عَلَيْهِ ثَدْيايَ بِما شاءَ مِنْ لَبَنٍ، فشَرِبَ حَتّى رَوِيَ، وشَرِبَ مَعَهُ أخُوهُ حَتّى رَوِيَ، ثُمَّ ناما، وما كُنّا نَنامُ مَعَهُ قَبْلَ ذلك، وقامَ زَوْجِي إلى شارِفِنا تِلْكَ، فإذا إنَّها لَحافِلٌ، فحَلَبَ مِنْها ما شَرِبَ، وشَرِبْتُ مَعَهُ حَتّى انْتَهَيْنا رِيًّا وشِبَعًا، فبِتْنا بِخَيْرِ لَيْلَةٍ.

قالَتْ: يَقُولُ صاحِبِي حِينَ أصْبَحْنا: تَعَلَّمِي ـ واللهِ ـ يا حَلِيمةُ، لَقَدْ أخَذْتِ نَسَمةً مُبارَكَةً، قالَتْ: فقُلْتُ: واللهِ إنِّي لأَرْجُو ذلك.

قالَتْ: ثُمَّ خَرَجْنا ورَكِبْتُ أنا أتانِي، وحَمَلْتُهُ عَلَيْها معي، فوَاللهِ لَقَطَعَتْ بِالرَّكْبِ ما يَقْدِرُ عَلَيْها شَيْءٌ مِنْ حُمُرِهِمْ، حَتّى إنَّ صَواحِبِي لِيَقُلْنَ لي: يا ابنةَ أبي ذُؤَيْبٍ، ويْحَكِ! ارْبَعِي عَلَيْنا، ألَيْسَتْ هَذِهِ أتانَكَ الَّتِي كُنْتِ خَرَجْتِ عَلَيْها؟! فأقُولُ لَهُنَّ: بَلى واللهِ، إنَّها لَهِيَ هِيَ، فيَقُلْنَ: واللهِ إنَّ لَها لَشَأْنًا.

قالَتْ: ثُمَّ قَدِمْنا مَنازِلَنا مِنْ بِلادِ بَنِي سَعْدٍ ـ وما أعْلَمُ أرْضًا مِنْ أرْضِ اللهِ أجْدَبَ مِنْها ـ فكانَتْ غَنَمِي تَرُوحُ عَلَيَّ حِينَ قَدِمْنا بِهِ مَعَنا شِباعًا لُبَّنًا، فنَحْلُبُ ونَشْرَبُ، وما يَحْلُبُ إنْسانٌ قَطْرةَ لَبَنٍ، ولا يَجِدُها في ضَرْعٍ، حَتّى كانَ الحاضِرُونَ مِنْ قَوْمِنا يَقُولُونَ لِرُعْيانِهِمْ: ويْلَكُم! اسْرَحُوا حَيْثُ يَسْرَحُ راعِي بِنْتِ أبِي ذُؤَيْبٍ، فتَرُوحُ أغْنامُهُمْ جِياعًا ما تَبِضُّ بِقَطْرةِ لَبَنٍ، وتَرُوحُ غَنَمِي شِباعًا لُبَّنًا. فلَمْ نَزَلْ نَتَعَرَّفُ مِن اللهِ الزِّيادةَ والخَيْرَ حَتّى مَضَتْ سَنَتاهُ وفَصَلْتُهُ، وكانَ يَشِبُّ شَبابًا لا يَشِبُّهُ الغِلْمانُ، فلَمْ يَبْلُغْ سَنَتَيْهِ حَتّى كانَ غُلامًا جَفْرًا.

قالَتْ: فقَدِمْنا بِهِ على أُمِّهِ ونَحْنُ أحْرَصُ شَيْءٍ على مُكْثِهِ فينا؛ لِما كُنّا نَرى مِنْ بَرَكَتِهِ، فكَلَّمْنا أُمَّهُ وقُلْتُ لَهَا: لَوْ تَرَكْتِ بُنَيَّ عِنْدِي حَتّى يَغْلُظَ؛ فإنِّي أخْشى عَلَيْهِ وبَأَ مَكّةَ، قالَتْ: فلَمْ نَزَلْ بِها حَتّى رَدَّتْهُ مَعَنا.

[حَدِيثُ المَلَكَيْنِ اللَّذَيْنِ شَقّا بَطْنَهُ ﷺ]

قالَتْ: فرجعنا بِهِ، فوَاللهِ إنَّهُ بَعْدَ مَقْدَمِنا بِهِ بِأشْهُرٍ مَعَ أخِيهِ لَفي بَهْمٍ لَنا خَلْفَ بُيُوتِنا، إذْ أتانا أخُوهُ يَشْتَدُّ، فقالَ لِي ولِأبيهِ: ذاكَ أخِي القُرَشِيُّ قَدْ أخَذَهُ رَجُلانِ عَلَيْهِما ثِيابٌ بِيضٌ، فأضْجَعاهُ، فشَقّا بَطْنَهُ، فهُما يَسُوطانِهِ.

قالَتْ: فخَرَجْتُ أنا وأبوهُ نَحوَه، فوَجَدناه قائِمًا مُنْتَقِعًا وجْهُهُ. قالَتْ: فالتَزَمْتُهُ والتَزَمَهُ أبوهُ، فقُلْنا لَهُ: ما لكَ يا بُنَيَّ؟ قالَ: جاءَنِي رَجُلانِ عَلَيْهِما ثِيابٌ بِيضٌ، فأضْجَعانِي وشَقّا بَطْنِي، فالتَمَسا فيهِ شَيْئًا لا أدْرِي ما هُوَ.

قالَتْ: فرَجَعْنا بِهِ إلى خِبائِنا.

[رُجُوعُ حَلِيمةَ بِهِ ﷺ إلى أُمِّهِ]

قالَتْ: وقالَ لِي أبوهُ: يا حَلِيمةُ، لَقَدْ خَشِيتُ أنْ يَكُونَ هذا الغُلامُ قَدْ أُصِيبَ، فألْحِقِيهِ بِأهْلِهِ قَبْلَ أنْ يَظْهَرَ ذلك بِهِ، قالَتْ: فاحْتَمَلْناهُ، فقَدِمْنا بِهِ على أمّه، فقالَت: ما أقْدَمَكِ بِهِ يا ظِئْرُ وقَدْ كُنْتِ حَرِيصةً عَلَيْهِ وعلى مُكْثِهِ عِنْدَكِ؟

قالَتْ: فقُلْتُ: قَدْ بَلَغَ اللهُ بِابنِي وقَضَيْتُ الَّذي عَلَيَّ، وتَخَوَّفْتُ الأحْداثَ عَلَيْهِ، فأدَّيْتُهُ إلَيْكَ كَما تُحِبِّينَ، قالَتْ: ما هذا شَأْنُكَ، فاصْدُقِينِي خَبَرَكِ.

قالَتْ: فلَمْ تَدَعْنِي حَتّى أخْبَرْتُها. قالَتْ: أفَتَخَوَّفْتِ عَلَيْهِ الشَّيْطانَ؟ قالَتْ: قُلْتُ: نَعَمْ، قالَتْ: كَلّا، واللهِ ما لِلشَّيْطانِ عَلَيْهِ مِنْ سَبِيلٍ، وإنَّ لِبُنَيَّ

لَشَأْنًا، أفَلا أُخْبِرُكِ خَبَرَهُ؟ قالَتْ: قُلْتُ: بَلى، قالَتْ: رَأَيْتُ حِينَ حَمَلْتُ بِهِ أَنَّهُ خَرَجَ مِنِّي نُورٌ أضاءَ لِي قُصُورَ بُصْرى مِنْ أَرْضِ الشّامِ، ثُمَّ حَمَلْتُ بِهِ، فَوَاللهِ ما رَأَيْتُ مِنْ حَمْلٍ قَطُّ كانَ أَخَفَّ عَلَيَّ ولا أَيْسَرَ مِنْهُ، ووَقَعَ حِينَ ولَدْتُهُ وإِنَّهُ لَواضِعٌ يَدَيْهِ بِالأَرْضِ، رافِعٌ رَأْسَهُ إلى السَّماءِ، دَعِيهِ عَنْكِ وانْطَلِقِي راشِدَةً.

[تَعْرِيفُهُ ﷺ بِنَفْسِهِ وقَدْ سُئِلَ عَنْ ذلك]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وحَدَّثَنِي ثَوْرُ بنُ يَزِيدَ، عَنْ بَعْضِ أَهْلِ العِلْمِ، ولا أَحْسَبُهُ إلّا عَنْ خالِدِ بنِ مَعْدانَ الكَلاعِيِّ:

أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَصْحابِ رَسُولِ الله ﷺ قالُوا لَهُ: يا رَسُولَ الله، أَخْبِرْنا عَنْ نَفْسِكَ؟ قالَ: «نَعَمْ، أنا دَعْوةُ أَبِي إِبْراهِيمَ، وبُشْرى أَخِي عِيسى، ورَأَتْ أُمِّي حِينَ حَمَلَتْ بِي أَنَّهُ خَرَجَ مِنْها نُورٌ أضاءَ لَها قُصُورَ الشّامِ، واسْتُرْضِعْتُ فِي بَنِي سَعْدِ بنِ بَكْرٍ، فَبَيْنا أنا مَعَ أَخٍ لِي خَلْفَ بُيُوتِنا نَرْعى بَهْمًا لَنا، إذْ أَتانِي رَجُلانِ عَلَيْهِما ثِيابٌ بِيضٌ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءةٍ ثَلْجًا، ثُمَّ أَخَذانِي فَشَقّا بَطْنِي، واسْتَخْرَجا قلبِي فشقّاه، فاستخرجا مِنْهُ عَلَقَةً سَوْداءَ فَطَرَحاها، ثُمَّ غَسَلا قَلْبِي وبَطْنِي بِذلك الثَّلْجِ حَتّى أَنْقَياهُ، ثُمَّ قالَ أَحَدُهُما لِصاحِبِهِ: زِنْهُ بِعَشَرةٍ مِنْ أُمَّتِهِ، فوَزَنَنِي بِهِمْ فوَزَنْتُهُمْ، ثُمَّ قالَ: زِنْه بِمِئةٍ مِنْ أُمَّتِهِ، فوَزَنَنِي بِهِمْ فوَزَنْتُهُمْ، ثُمَّ قالَ: زِنْهُ بِأَلْفٍ مِنْ أُمَّتِهِ، فوَزَنَنِي بِهِمْ فوَزَنْتُهُمْ، فقالَ: دَعه عَنْك؛فوالله لَوْ وزَنْتَهُ بِأُمَّتِهِ لَوَزَنَها».

[هُوَ والأَنْبِياءُ قَبْلَهُ رَعَوُا الغَنَمَ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وكانَ رَسُولُ الله ﷺ يَقُولُ: «ما مِنْ نَبِيٍّ إلّا وقَدْ رَعَى الغَنَمَ»، قِيلَ: وأَنْتَ يا رَسُولَ الله؟ قالَ: «وأنا».

[اعْتِزازُهُ ﷺ بِقُرَشِيَّتِهِ واسْتِرْضاعِهِ في بَنِي سَعْدٍ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ وكانَ رَسُولُ الله ﷺ يَقُولُ لِأَصْحابِهِ: «أنا أَعْرَبُكُمْ؛ أنا قُرَشِيٌّ، واسْتُرْضِعْتُ في بَنِي سَعْدِ بنِ بَكْرٍ».

[افْتَقَدَتْهُ حَلِيمةُ حِينَ رُجُوعِها بِهِ، ووَجَدَهُ ورَقةُ بنُ نَوْفَلٍ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وزَعَمَ النّاسُ فيما يَتَحَدَّثُونَ ـ واللهُ أَعْلَمُ ـ: أنَّ أُمَّهُ السَّعْدِيّةَ لَمّا قَدِمَتْ بِهِ مَكّةَ أَضَلَّها في النّاسِ وهِيَ مُقْبِلةٌ بِهِ نَحْوَ أَهْلِهِ، فالتَمَسَتْهُ فلَمْ تَجِدْهُ، فأَتَتْ عَبْدَ المُطَّلِبِ، فقالَتْ لَهُ: إنِّي قَدْ قَدِمْتُ بِمُحَمَّدٍ هَذِهِ اللَّيْلةَ، فلَمّا كُنْتُ بِأَعلى مكّة أضلّني، فواللهِ ما أَدْرِي أَيْنَ هُوَ؟ فقامَ عَبْدُ المُطَّلِبِ عِنْدَ الكَعْبةِ يَدْعُو اللهَ أَنْ يَرُدَّهُ، فيزْعُمونَ أَنَّهُ وجَدَهُ ورَقةُ بنُ نَوْفَلِ بنِ أَسَدٍ ورَجُلٌ آخَرُ مِنْ قُرَيْشٍ، فأَتَيا بِهِ عَبْدَ المُطَّلِبِ، فقالا لَهُ: هذا ابنُكَ وجَدْناهُ بِأَعلى مَكّةَ، فأَخَذَهُ عَبْدُ المُطَّلِبِ، فجَعَلَهُ على عُنُقِهِ وهُوَ يَطُوفُ بِالكَعْبةِ يُعَوِّذُهُ ويَدْعُو لَهُ، ثُمَّ أَرْسَلَ بِهِ إلى أُمِّهِ آمِنةَ.

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وحَدَّثَنِي بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ:

أنَّ مِمّا هاجَ أُمَّهُ السَّعْدِيّةَ على رَدِّهِ إلى أُمِّهِ ـ مَعَ ما ذَكَرَتْ لِأُمِّهِ مِمّا أَخْبَرَتْها عَنْهُ ـ: أَنَّ نَفَرًا مِن الحَبَشةِ نَصارى رَأَوْهُ مَعَها حِينَ رَجَعَتْ بِهِ بَعْدَ فِطامِهِ، فنَظَرُوا إلَيْهِ وسَأَلُوها عَنْهُ وقَلَّبُوهُ، ثُمَّ قالُوا لَها: لَنَأْخُذَنَّ هذا الغُلامَ، فلَنَذْهَبَنَّ بِهِ إلى مَلِكِنا وبَلَدِنا؛ فإنَّ هذا غُلامٌ كائِنٌ لَهُ شَأْنٌ، نَحْنُ نَعْرِفُ أَمْرَهُ. فزَعَمَ الَّذي حَدَّثَنِي أَنَّها لَمْ تَكَدْ تَنْفَلِتُ بِهِ مِنْهُمْ.

وَفاةُ آمِنةَ وحالُ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَعَ جَدِّهِ عَبْدِ المُطَّلِبِ بَعْدَها

[وَفاةُ آمِنةَ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وكانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَعَ أُمِّهِ آمِنةَ بِنْتِ وهْبٍ، وَجَدِّهِ عَبْدِ المُطَّلِبِ بنِ هاشِمٍ في كَلاءةِ اللهِ وحِفْظِهِ، يُنْبِتُهُ اللهُ نَباتًا حَسَنًا لِما يُرِيدُ بِهِ مِنْ كَرامَتِهِ، فلَمّا بَلَغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سِتَّ سِنِينَ، تُوُفيتْ أُمُّهُ آمِنةُ بِنْتُ وهْبٍ.

قالَ ابنُ إسْحاقَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ بنُ أبي بَكْرِ بنِ مُحَمَّدِ بنِ عَمْرِو بنِ حَزْمٍ:

أنَّ أُمَّ رَسُولِ اللهِ ﷺ آمِنةَ تُوُفِّيتْ ورَسُولُ اللهِ ﷺ ابنُ سِتِّ سِنِينَ بِالأبْواءِ، بَيْنَ مَكّةَ والمَدِينةِ، كانَتْ قَدْ قَدِمَتْ بِهِ على أخْوالِهِ مِنْ بَنِي عَدِيِّ ابنِ النَّجّارِ، تُزِيرُهُ إيّاهُمْ، فماتَتْ وهِيَ راجِعةٌ بِهِ إلى مَكّةَ.

[سَبَبُ خُؤُولةِ بَنِي عَدِيِّ بنِ النَّجّارِ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ]

قالَ ابنُ هِشامٍ: أُمُّ عَبْدِ المُطَّلِبِ بنِ هاشِمٍ: سَلْمى بِنْتُ عَمْرٍو النَّجّارِيّةُ.

فَهَذِهِ الخُؤُولةُ الّتِي ذَكَرَها ابنُ إسْحاقَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فيهِمْ.

[إكْرامُ عَبْدِ المُطَّلِبِ لَهُ ﷺ وهُوَ صَغِيرٌ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: فكانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَعَ جَدِّهِ عَبْدِ المُطَّلِبِ بن هاشِمٍ، وكانَ يُوضَعُ لِعَبْدِ المُطَّلِبِ فِراشٌ في ظِلِّ الكَعْبةِ، فكانَ بَنُوهُ يَجْلِسُونَ حَوْلَ فِراشِهِ ذلك حَتّى يَخْرُجَ إلَيْهِ، لا يَجْلِسُ عَلَيْهِ أحَدٌ مِنْ بَنِيهِ إجْلالًا لَهُ.

قالَ: فَكانَ رَسُولُ الله ﷺ يَأْتِي وهُوَ غُلامٌ جَفْرٌ، حَتّى يَجْلِسَ عَلَيْهِ، فيأْخُذهُ أعْمامُهُ لِيُؤَخِّرُوهُ عَنْهُ، فيقُولُ عَبْدُ المُطَّلِبِ إذا رَأى ذلك مِنْهُمْ: دَعُوا ابْني؛ فوالله إنَّ لَهُ لَشَأْنًا، ثُمَّ يُجْلِسُهُ مَعَهُ على الفِراشِ، ويَمْسَحُ ظَهْرَهُ بِيَدِهِ، ويَسُرُّهُ ما يَراهُ يَصْنَعُ.

وَفاةُ عَبْدِ المُطَّلِبِ وما رُثِيَ بِهِ مِن الشِّعْرِ

[وَفاةُ عَبْدِ المُطَّلِبِ، وما قِيلَ فيهِ مِنَ الشِّعْرِ]

فَلَمّا بَلَغَ رَسُولُ الله ﷺ ثَمانِيَ سِنِينَ هَلَكَ عَبْدُ المُطَّلِبِ بنُ هاشِمٍ، وذلك بَعْدَ الفيلِ بِثَمانِي سِنِينَ:

قالَ ابنُ إسْحاقَ: حَدَّثَنِي العَبّاسُ بنُ عَبْدِ الله بنِ مَعْبَدِ بنِ العَبّاسِ، عَنْ بَعْضِ أهْلِهِ: أنَّ عَبْدَ المُطَّلِبِ تُوُفِي ورَسُولُ الله ﷺ ابنُ ثَمانِي سِنِينَ.

قالَ ابنُ إسْحاقَ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بنُ سَعِيدِ بنِ المُسَيَّبِ: أنَّ عَبْدَ المُطَّلِبِ لَمّا حَضَرَتْهُ الوَفاةُ وعَرَفَ أنَّهُ مَيِّتٌ جَمَعَ بَناتِهِ، وكُنَّ سِتَّ نِسْوَةٍ: صَفيةُ، وبَرّةُ، وعاتِكةُ، وأُمُّ حَكِيمٍ البَيْضاءُ، وأُمَيْمةُ، وأرْوى، فقالَ لَهُنَّ: ابْكِينَ عَلَيَّ حَتّى أسْمَعَ ما تَقُلْنَ قَبْلَ أنْ أمُوتَ.

قالَ ابنُ هِشامٍ: ولَمْ أرَ أحَدًا مِنْ أهْلِ العِلْمِ بِالشِّعْرِ يَعْرِفُ هذا الشِّعْرَ، إلّا أنَّهُ لَمّا رَواهُ عَنْ مُحَمدِ بنِ سَعِيدِ بنِ المُسَيَّبِ كَتَبناهُ.

[رِثاءُ صَفيةَ لِأبيها عَبْدِ المُطَّلِبِ]

فَقالَت صفيةُ بنتُ عَبدِ المُطَّلِبِ تَبْكِي أباها:

أرِقْـتُ لِصَـوْتِ نائِحَـةٍ بِلَيْلٍ ... على رَجُـلٍ بِقارِعَـةِ الصَّعِيـدِ
فَفاضَتْ عِنْـدَ ذلكمُ دُمُوعِي ... على خَـدِّي كَمُنْحَـدِرِ الفَرِيدِ
على رَجُـلٍ كَرِيـمٍ غَـيْرِ وَغْلٍ ... لَهُ الفَضْلُ المُبِـينُ على العَبِيدِ
على الفيّاضِ شَـيْبَةَ ذِي المَعالِي ... أبيـكِ الخَـيْرِ وارِثِ كُلِّ جُـودِ
صَدُوقٍ في المَواطِنِ غَيْرِ نِكْسٍ ... ولا شَـخْتِ المَقامِ ولا سَـنِيدِ
طَوِيلِ البـاعِ أرْوَعَ شَـيْظَمِيٍّ ... مُطـاعٍ في عَشِـيرَتِهِ حَمِيـدِ
رَفيعِ البَيْتِ أبْلَـجَ ذِي فُضُولٍ ... وغَيْثِ النّاسِ في الزَّمَنِ الحَرُودِ
كَرِيمِ الجَدِّ لَيْـسَ بِذِي وُصُومٍ ... يَرُوقُ على المُسَـوَّدِ والمَسُـودِ
عَظِيمِ الحِلْـمِ مِنْ نَفَـرٍ كِرامٍ ... خَـضـارِمـةٍ مَـلاوِثـةٍ أُسُـودِ
فَلَـوْ خَلَدَ امْـرُؤٌ لِقَدِيـمِ مَجْدٍ ... ولَكِـنْ لا سَـبِيلَ إلى الخُلُودِ
لَـكانَ مُخَـلَّدًا أُخْـرى اللَّيالِي ... لِفَضْلِ المَجْدِ والحَسَبِ التَّلِيدِ

[رِثاءُ بَرّةَ لِأَبيها عَبْدِ المُطَّلِبِ]

وَقالَتْ بَرّةُ بِنْتُ عَبْدِ المُطَّلِبِ تَبْكِي أباها:

أعَيْـنَيَّ جُـودا بِدَمْـعٍ دِرَرْ ... على طَيِّـبِ الخِيـمِ والمُعْتَصَرْ
على ماجِدِ الجِـدِّ واري الزِّناد ... جَمِيـلِ المُحَيّا عَظِيـمِ الخَطَرْ
على شَيْبةِ الحَمْدِ ذِي المَكْرُماتِ ... وذِي المَجْـدِ والعِزِّ والمُفْتَخَرْ
وَذِي الحِلْمِ والفَضْلِ في النّائِباتِ ... كَثِيرِ المَـكارِمِ جَـمِّ الفَجَرْ
لَهُ فضْـلُ مَجْـدٍ على قَوْمِـهِ ... مُنِـيرٍ يَلُـوحُ كَضَـوْءِ القَمَرْ
أتَتْـهُ المَنايـا فلَـمْ تُشْـوِهِ ... بِصَرْفِ اللَّيـالِي ورَيْبِ القَدَرْ

[رِثاءُ عاتِكةَ لِأبيها عَبْدِ المُطَّلِبِ]

وَقالَتْ عاتِكةُ بِنْتُ عَبْدِ المُطَّلِبِ تَبْكِي أباها:

أعَيْنَيَّ جُودا ولا تَبْخَلا ... بِدَمْعِكُما بَعْدَ نَوْمِ النِّيامِ
أعَيْنَيَّ واسْحَنْفِرا واسْكُبا ... وشُوبَا بُكاءً كَما بِالْتِدامِ
أعَيْنَيَّ واسْتَخْرِطا واسْجُما ... على رَجُلٍ غَيْرِ نِكْسٍ كَهامِ
على الجَحْفَلِ الغَمْرِ في النّائِباتِ ... كَرِيمِ المَساعِي وفِيِّ الذِّمامِ
على شَيْبَةِ الحَمْدِ واري الزِّنادِ ... وذِي مَصْدَقٍ بَعْدُ ثَبْتِ المَقامِ
وَسَيْفٍ لَدى الحَرْبِ صَمْصامةٍ ... ومِرْدى المُخاصِمِ عِنْدَ الخِصامِ
وَسَهلِ الخَلِيقة طَلْقِ اليَدَيْنِ ... وفي عُدْمُلِيٍّ صَمِيمٍ لُهامِ
تَبَنَّكَ في باذِخٍ بَيْتُهُ ... رَفيعُ الذُّؤابَةِ صَعْبُ المَرامِ

[رِثاءُ أُمِّ حَكِيمٍ لِأبيها عَبْدِ المُطَّلِبِ]

وَقالَتْ أُمُّ حَكِيمٍ البَيْضاءُ بنتُ عَبْدِ المُطَّلِبِ تَبْكِي أباها:

ألا يا عَيْنُ جُودِي واسْتَهِلِّي ... وبَكِّي ذا النَّدى والمَكْرُماتِ
ألا يا عَيْنُ وَيْحَكِ أسْعِفِينِي ... بِدَمْعٍ مِنْ دُمُوعٍ هاطِلاتِ
وَبَكِّي خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطايا ... أباكِ الخَيْرَ تَيّارَ الفُراتِ
طَوِيلَ الباعِ شَيْبَةَ ذا المَعالِي ... كَرِيمَ الخِيمِ مَحْمُودَ الهِباتِ
وَصُولًا لِلْقَرابَةِ هِبْرِزِيّا ... وغَيْثًا في السِّنِينَ المُمْحِلاتِ
وَلَيْثًا حَيْنَ تَشْتَجِرُ العَوالِي ... تَرُوقُ لَهُ عُيُونُ النّاظِراتِ
عَقِيلَ بَنِي كِنانَةَ والمُرَجّى ... إذا ما الدَّهْرُ أقْبَلَ بِالهَناتِ

وَمَفْزَعَها إذا ما هــاجَ هَيْجٌ ... بِداهِيــةٍ وخَصْمَ المُعْضِلاتِ

فَبَكِّيــهِ ولا تَسَــمِي بِحُزْنٍ ... وبَكِّي مــا بَقِيتِ الباكِياتِ

[رِثاءُ أُمَيْمةَ لِأبيها عَبْدِ المُطَّلِبِ]

وَقالَتْ أُمَيْمةُ بِنْتُ عَبْدِ المُطَّلِبِ تَبْكِي أباها:

ألا هَلَكَ الرّاعِي العَشِيرةَ ذُو الفَقْدِ ... وساقِي الحَجِيجِ والمُحامِي عَنِ المَجْدِ

وَمَنْ يُؤْلِفُ الضَّيْفَ الغَرِيبَ بُيُوتَهُ ... إذا ما سَــماءُ النّاسِ تَبْخَلُ بِالرَّعْدِ

كَسَبْتَ ولِيدًا خَيْرَ ما يَكْسِبُ الفَتى ... فلم تَنفكِكْ تَزْدادُ يا شَــيْبَةَ الحَمْدِ

أبو الحــارِثِ الفيّاضُ خَــلّى مَكانَهُ ... فــلا تَبْعَــدَنْ فــكُلُّ حَيٍّ إلى بُعْدِ

فَــإنِّي لَبــاكٍ مــا بَقِيــتُ ومُوجَعٌ ... وكانَ لَهُ أهْــلًا لِمــا كانَ مِنْ وجْدِي

سَــقاكَ ولِيُّ النّاسِ في القَبرِ مُمْطِرًا ... فسَوْفَ أُبَكِّيهِ وإنْ كانَ في اللَّحْدِ

فَقَــدْ كانَ زَيْنًــا لِلْعَشِــيرةِ كُلِّها ... وكانَ حَمِيدًا حَيْثُ ما كانَ مِنْ حَمْدِ

[رِثاءُ أروى لِأبيها عَبْدِ المُطَّلِبِ]

وَقالَتْ أرْوى بِنْتُ عَبْدِ المُطَّلِبِ تَبْكِي أباها:

بَكَتْ عَيْنِي وحُقَّ لَها البُكاءُ ... على سَــمْحٍ سَــجِيَّتُهُ الحَياءُ

على سَــهْلِ الخَلِيقــةِ أبْطَحِيٍّ ... كَرِيمِ الخِيــمِ نِيَّتُــهُ العَلاءُ

على الفيّاضِ شَيْبَةَ ذِي المَعالِي ... أبِيــكِ الخَيْرِ لَيْــسَ لَهُ كِفاءُ

طَوِيلِ الباعِ أمْلَسَ شَــيْظَمِيٍّ ... أغَــرَّ كَأنَّ غُرَّتَــهُ ضِيــاءُ

أقَبِّ الكَشْحِ أرْوعَ ذِي فُضُولٍ ... لَهُ المَجْــدُ المُقَدَّمُ والسَّــناءُ

أبِيِّ الضَّيْــمِ أبْلَــجَ هِــبْرِزِيٍّ ... قَدِيمِ المَجْــدِ لَيْسَ لَهُ خَفاءُ

وَمَعْقِلِ مالِكٍ ورَبِيعِ فِهْرٍ ... وفاصِلِها إذا الْتُمِسَ القَضاءُ
وَكانَ هُوَ الفَتى كَرَمًا وجُودًا ... وبَأْسًا حَيْنَ تَنْسَكِبُ الدِّماءُ
إذا هابَ الكُماةُ المَوْتَ حَتّى ... كَأَنَّ قُلُوبَ أَكْثَرِهِمْ هَواءُ
مَضى قُدُمًا بِذِي رُبَدٍ خَشِيبٍ ... عَلَيْهِ حَيْنَ تُبْصِرُهُ البَهاءُ

قالَ ابنُ إسْحاقَ: فزَعَمَ لِي مُحَمَّدُ بنُ سَعِيدِ بنِ المُسَيَّبِ أَنَّهُ أشارَ بِرَأْسِهِ وقَدْ أصْمَتَ أنْ: هَكَذا فابْكِينَنِي.

[نَسَبُ المُسَيَّبِ]

قالَ ابنُ هِشامٍ: وَالمُسَيَّبُ بنُ حَزْنِ بنِ أبي وهْبِ بنِ عَمْرِو بنِ عائِذِ بنِ عِمْرانَ بنِ مَخْزُومٍ.

[رِثاءُ حُذَيْفَةَ لِعَبْدِ المُطَّلِبِ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وقالَ حُذَيْفَةُ بنُ غانِمٍ أخُو بَنِي عَدِيِّ بنِ كَعْبِ بنِ لُؤَيٍّ يَبْكِي عَبْدَ المُطَّلِبِ بنَ هاشِمِ بنِ عَبْدِ مَنافٍ، ويَذْكُرُ فضْلَهُ وفَضْلَ قُصَيٍّ على قُرَيْشٍ، وفَضْلَ ولَدِهِ مِنْ بَعْدِهِ عَلَيْهِمْ؛ وذلك أنَّهُ أُخِذَ بِغُرْمِ أَرْبَعَةِ آلافِ دِرْهَمٍ بِمَكَّةَ، فوَقَفَ بِها، فمَرَّ بِهِ أبو لَهَبٍ عَبْدُ العُزّى بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ فافْتَكَّهُ:

أَعَيْنَيَّ جُودا بِالدُّمُوعِ على الصَّدْرِ ... ولا تَسْأما أُسْقِيتُما سَبَلَ القَطْرِ
وَجُودا بِدَمْعٍ واسْفَحا كُلَّ شارِقٍ ... بُكاءَ امْرِئٍ لَمْ يُشْوِهِ نائِبُ الدَّهْرِ
وَسُحَّا وجُمّا واسْجُما ما بَقِيتُما ... على ذِي حَياءٍ مِنْ قُرَيْشٍ وذِي سِتْرِ
على رَجُلٍ جَلْدِ القُوى ذِي حَفيظَةٍ ... جَمِيلِ المُحَيّا غَيْرِ نِكْسٍ ولا هَذْرِ
على الماجِدِ البُهْلُولِ ذِي الباعِ والنَّدى ... رَبِيعِ لُؤَيٍّ في القُحوطِ وفي العُسْرِ
على خيرِ حافٍ مِنْ مُعَدٍّ وناعِلٍ ... كريمِ المُساعي طَيِّبَ الخِيمِ والنَّجْرِ

وَخَيْرُهُـمُ أصْلًا وفَـرْعًا ومَعْدِنًا ... وأحْظاهُـمُ بِالمَكْرُماتِ وبِالذِّكْرِ
وَأوْلاهُـمُ بِالمَجْدِ والحِلْمِ والنُّهى ... وبِالفَضْلِ عِنْدَ المُجْحِفاتِ مِن الغُبْرِ
على شَيْبَةِ الحَمْدِ الَّذي كانَ وجْهُهُ ... يُضِيءُ سَـوادَ اللَّيْلِ كالقَمَرِ البَدْرِ
وَسـاقِي الحَجِيجِ ثُمَّ لِلْخَيْرِ هاشِمٍ ... وعَبْدِ مَنافٍ ذلك السَّيِّدُ الفِهْري
طَوى زَمزَمًا عِنْدَ المَقامِ فأصْبَحَتْ ... سِـقايَتُهُ فخْرًا على كُلِّ ذِي فخْرِ
لِيَبْـكِ عَلَيْـهِ كُلُّ عانٍ بِكُرْبَةٍ ... وآلُ قُـصَيٍّ مِنْ مُقِـلٍّ وذِي وفْرِ
بَنُـوهُ سَراة كَهْلُهُـمْ وشَـبابُهُمْ ... تَفَلَّق عَنْهُمْ بَيْضةُ الطّائِرِ الصَّقْرِ
قُـصَيُّ الَّذي عادى كِنانَـةَ كُلَّها ... ورابَطَ بَيْتَ اللهِ في العُسْرِ واليُسْرِ
فَـإنْ تَكُ غالَتْـهُ المَنايا وصَرْفُها ... فقَدْ عاشَ مَيْمُونَ النَّقِيبةِ والأمْرِ
وَأبْقى رِجالًا سـادةً غَـيْرَ عُزَّلٍ ... مَصالِيتَ أمْثالَ الرُّدَيْنِيّةِ السُّـمْرِ
أبـو عُتْبَـةَ المُلْـقِي إلَيَّ حِباءَهُ ... أغَـرُّ هِجانُ اللَّوْنِ مِـنْ نَفَرٍ غُرٍّ
وَحَمْـزةُ مِثْلُ البَـدْرِ يَهْتَزُّ لِلنَّدى ... نَقِيُّ الثِّيابِ والذِّمـامِ مِن الغَدْرِ
وَعَبْدُ مَنافٍ ماجِـدٌ ذُو حَفيظةٍ ... وَصُولٌ لِذِي القُرْبى رَحِيمٌ بِذِي الصِّهْرِ
كُهُولُهُمُ خَيْرُ الكُهولِ ونَسْـلُهم ... كنسل المُلُوكِ لا تَبُورُ ولا تَحْرِي
مَتى ما تُلاقِي مِنْهُمُ الدَّهْرَ ناشِـئًا ... تَجِـدْهُ بِإجْرِيّـا أوائِلِـهِ يَجْرِي
هُمُ مَلَؤُوا البَطْحـاءَ مَجْدًا وعِزّةً ... إذا اسْتُبِقَ الخَيْراتُ في سالِفِ العَصْرِ
وَفيهِـمْ بُنـاةٌ لِلْعُـلا وعِمـارةٌ ... وعَبْدُ مَنافٍ جَدُّهُمْ جابِرُ الكَسْرِ
بِإنْـكاحِ عَوْفٍ بِنْتَـهُ لِيُجِيرَنا ... مِنْ اعْدائِنا إذْ أسْـلَمَتْنا بَنُو فِهْرِ
فَسِرْنـا تِهـامِيَّ البِـلادِ ونَجْدَها ... بِأمْنَةَ حَتّى خاضَت العِيرُ في البَحْرِ
وَهُمْ حَضَرُوا والنّاسُ بادٍ فرِيقُهُمْ ... ولَيْسَ بِها إلّا شُـيُوخُ بَنِي عَمْرِو
بَنَوْهـا دِيـارًا جَمّةً وطَـوَوْا بِها ... بِئارًا تَسُـحُّ الماءَ مِـنْ ثَبَجِ البَحْرِ
لِكَيْ يَشْرَبَ الحُجّاجُ مِنْها وغَيْرُهُمْ ... إذا ابْتَدَرُوها صُبْـحَ تابِعةِ النَّحْرِ

ثَـلاثـةُ أيّـــامٍ تَـظَـلُّ رِكابُـهُـمْ مُخَيَّسـةً بَيْنَ الأخاشِـبِ والحِجْرِ
وَقِدْمًــا غَنِينــا قَبْلَ ذلــك حِقْبةً ولا نَسْـتَقِي إلّا بِخُـمَّ أو الحَفْــرِ
وَهُــمْ يَغْفِرُونَ الذَّنْــبَ يُنْقَمُ دُونَهُ ويَعْفُونَ عَنْ قَوْلِ السَّفاهةِ والهُجْرِ
وَهُمْ جَمَعُوا حِلْفَ الأحابِيشِ كلَّها وهُمْ نَكَّلُوا عَنّا غُــواةَ بَنِي بَكْرِ
فَخــارِجَ، إمّا أَهْلكَنَّ فــلا تَزَلْ لَهُمْ شــاكِرًا حَتّى تُغَيَّـبَ في القَبْرِ
وَلا تَنْسَ ما أَسْــدَى ابنُ لُبنى فإنَّهُ قَدَ اسْدى يَدًا مَحْقُوقةً مِنْكَ بِالشُّكْرِ
وَأَنْتَ ابنُ لُبنى مِنْ قُصَيٍّ إذا انْتَمَوْا بِحَيْثُ انْتَهى قَصْدُ الفُؤادِ مِن الصَّدْرِ
وَأَنْــتَ تَناوَلْتَ العُــلا فجَمَعْتَها إلى مَحْتِــدٍ لِلْمَجْــدِ ذِي ثَبَجٍ جَسْرِ
سَــبَقْتَ وفُتَّ القَوْمَ بَــذْلًا ونائِلًا وسُــدْتَ ولَيَدًا كُلَّ ذِي سُودَدٍ غَمْرِ
وَأُمُّــكَ سِرٌّ مِــنْ خُزاعــةَ جَوْهَرٌ إذا حَصَّلَ الأَنْسابَ يَوْمًا ذَوُو الخُبْرِ
إلى سَــبَأِ الأبْطالِ تَنْــمي وتَنْتَمِي فأكْرِمْ بِها مَنْسُــوبةً في ذُرا الزُّهْرِ
أبو شَــمِرٍ مِنْهُمْ وعَمْرُو بنُ مالِكٍ وذُو جَــدَنٍ مِنْ قَوْمِهــا وأبو الجَبْرِ
وَأَسْــعَدُ قادَ النّاسَ عِشْرِينَ حِجّةً يُؤَيَّــدُ في تِلْكَ المَواطِــنِ بِالنَّصْرِ

قالَ ابنُ هِشامٍ: «أُمُّكَ سِرٌّ مِنْ خُزاعةَ»، يَعْنِي: أبا لَهَبٍ؛ أُمُّهُ لُبنى بِنْتُ هاجِرٍ الخُزاعِيِّ. وقَوْلُهُ: «بِإجْرِيّا أوائِلُهُ» عَنْ غَيْرِ ابنِ إسْحاق.

[رِثاءُ مَطْرُودٍ لِعَبدِ المُطَّلِبِ وبني عَبْدِ مَنافٍ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وقالَ مَطْرُودُ بنُ كَعْبٍ الخُزاعِيُّ يَبْكِي عَبْدَ المُطَّلِبِ وبَنِي عَبْدِ مَنافٍ:

يا أيُّهــا الرَّجُلُ المُحَــوِّلُ رَحْلَهُ هَلّا سَأَلْتَ عَنَ آلِ عَبْدِ مَنافِ
هَبِلَتْكَ أُمُّكَ لَوْ حَلَلْتَ بِدارِهِمْ ضَمِنُوكَ مِــنْ جُرْمٍ ومِنْ إقْرافِ

الخالِطِــينَ غَنِيَّهُــمْ بِفَقِيرِهِــمْ حَـتّى يَعُـودَ فقِيرُهُـمْ كالكافي
المُنْعِمِــينَ إذا النُّجُــومُ تَغَيَّرَتْ والظّاعِنِــينَ لِرِحْلَــةِ الإيلافِ
والمُطْعِمِينَ إذا الرِّياحُ تَناوَحَتْ حَتّى تَغِيبَ الشَّمْسُ في الرَّجّافِ
إمّا هَلَكْتَ أبا الفِعالِ فما جَرى مِنْ فوْقِ مِثْلِكَ عقْدُ ذاتِ نِطافِ
إلّا أبيــكَ أخِي المَــكارِمِ وحْدَهُ والفيــضِ مُطَّلِبٍ أبي الأضْيافِ

[وِلايةُ العَبّاسِ على سِقايةِ زَمْزَمَ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ فلَمّا هَلَكَ عَبْدُ المُطَّلِبِ بنُ هاشِمٍ ولِيَ زَمْزَمَ والسِّقايةَ عَلَيْها بَعْدَهُ العَبّاسُ بن عَبْدِ المُطَّلِبِ، وهُوَ يَوْمئِذٍ مِنْ أحْدَثِ إخْوَتِهِ سِنًّا، فلَمْ تَزَلْ إلَيْهِ حَتّى قامَ الإسْلامُ وهِيَ بِيَدِهِ، فأقَرَّها رَسُولُ الله ﷺ لَهُ على ما مَضى مِنْ وِلايَتِهِ، فهِيَ إلى آلِ العَبّاسِ بِوِلايةِ العَبّاسِ إيّاها إلى هذا اليَوْمِ.

كفالةُ أبي طالِبٍ لِرَسُولِ الله ﷺ

فكانَ رَسُولُ الله ﷺ بَعْدَ عَبْدِ المُطَّلِبِ مَعَ عَمِّهِ أبي طالِبٍ، وكانَ عَبْدُ المُطَّلِبِ ـ فيما يَزْعُمُونَ ـ يُوصِي بِهِ عَمَّهُ أبا طالِبٍ؛ وذلك لِأنَّ عَبْدَ الله أبا رَسُولِ الله ﷺ وأبا طالِبٍ أخَوانِ لِأبٍ وأُمٍّ، أُمُّهُما فاطِمةُ بِنْتُ عَمْرِو بنِ عائِذِ بنِ عَبْدِ بنِ عِمْرانَ بنِ مَخْزُومٍ.

قالَ ابنُ هِشامٍ: عائِذُ بنُ عِمْرانَ بنِ مَخْزُومٍ.

[وِلايةُ أبي طالِبٍ لِأمْرِ الرَّسُولِ ﷺ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وكانَ أبو طالِبٍ هُوَ الَّذي يَلِي أمْرَ رَسُولِ الله ﷺ بَعْدَ جَدِّهِ، فكانَ إلَيْهِ ومَعَهُ.

وذَكَرَ أُمَّها وأُمَّ أُمِّها، والثّالِثَةَ وهِيَ: بَرّةُ بِنْتُ عَوْفٍ[١]. وقَدْ قَدّمْنا في أوّلِ ذِكْرِ المَوْلِدِ أُمّ الثّالِثةِ والرّابِعةِ والخامِسةِ ونَسَبَهُنّ، فلْيُنْظَرْ هُنالِكَ[٢].

وَأمّا أُمُّ هالةَ فهِيَ: العَبْلةُ بِنْتُ المُطّلِبِ، وأُمّها: خَدِيجةُ بِنْتُ سَعِيدِ بنِ سَهْمٍ [ابن عمرو][٣].

وقَدْ أشْكَلَ على بَعْضِ النّاسِ في هَذا الخَبَرِ أن عبد المطلب نذر نَحْرَ أحَدِ بَنِيهِ إذا بَلَغُوا عَشَرةً، ثُمّ ذَكَرَ ابنُ إسْحاقَ أنّ تَزْوِيجَهُ هالةَ أُمّ ابنِه حَمْزةَ كانَ بَعْدَ وفائِهِ بنَذْرِه، فحَمْزةُ والعَبّاسُ إنّما وُلِدا بَعْدَ الوَفاءِ بنَذْرِه، وإنّما كانَ جَمِيعُ أوْلادِهِ عَشَرةً. ولا إشْكالَ في هَذا؛ [فإنّ جَماعةً مِن العُلَماءِ قالُوا: كانَ أعْمامُهُ عَلَيْهِ السّلامُ اثْنَيْ عَشَرَ، [وقالَهُ أبُو عُمَرَ][٤]، فإنْ صَحّ هَذا فلا إشْكالَ في][٥] الخَبَرِ، وإنْ صَحّ قَوْلُ مَنْ قالَ: كانُوا عَشَرةً لا مَزِيد، فالوَلَدُ يَقَعُ على البَنِينَ وبَنِيهِمْ حَقِيقةً لا مَجازًا، فكأنّ[٦] عَبْدَ المُطّلِبِ قَد اجْتَمَعَ لَهُ مِنْ ولَدِهِ ووَلَدِ ولَدِهِ عَشَرةُ رِجالٍ حِينَ وفّى بنَذْرِهِ.

وَيُرْوى أنّ عَبْدَ اللهِ بنَ عَبْدِ المُطّلِبِ حِينَ دَعَتْهُ المَرْأةُ الأسَدِيّةُ إلى نَفْسِها لِما رَأتْهُ[٧] في وجْهِهِ مِنْ نُورِ النّبُوّةِ، ورَجَتْ أنْ تَحْمِلَ بِهَذا النّبِيّ، فتَكُونَ أُمّهُ دُونَ غَيْرِها، فقالَ عَبْدُ اللهِ حِينَئِذٍ فيما ذَكَرُوا[٨]: [من الرجز]

---

(١) انظر: «نسب قريش» لمصعب: (ص: ١٧)، و«المنمق» لابن حبيب: (ص: ٢٢١).
(٢) انظر: (٢/ ٥).
(٣) ليس في (ب)، (ج)، (ف).
(٤) سقط من (أ).
(٥) ليس في (هـ).
(٦) في (أ)، (ج): «وكأن».
(٧) في (ب)، (ج)، (هـ): «رأت».
(٨) في (هـ): «في رواية».

أمّا الحَـرامُ فالحِمـامُ دُونَهْ والحِـلّ لا حِـلَ فأسْـتَبِينَهْ
فَكَيْـفَ بِالأمْرِ الّـذِي تَبْغِينَهْ يَحْمِي الكَرِيمُ عِرْضَهُ ودِينَهْ؟!

واسْمُ هَذِهِ المَرْأةِ: رُقَيقةُ بِنْتُ نَوْفَلٍ أخت ورقة بن نوفل، تُكنّى: أمّ قتّالٍ[١]، وبِهَذِهِ الكُنْيةِ وقَعَ ذِكْرُها في كتابِ[٢] يُونُسَ عَن ابنِ إسْحاقَ، وذَكَرَ البَرْقِيّ عَنْ هِشامِ بنِ الكَلْبيّ، قالَ: إنّما مَرّ على امْرَأةٍ اسْمُها: فاطِمةُ بِنْتُ مُرٍّ، كانَتْ مِنْ أجْمَلِ النّساءِ وأعَفّهِنّ[٣][٤]، وكانَتْ قَرَأت الكُتُبَ، فرَأتْ نُورَ النّبُوّةِ في وجْهِهِ، فدَعَتْهُ إلى نِكاحِها، فأبى، فلَمّا أبى قالَتْ[٥]: [من الكامل]

إنّـي رَأيْتُ مَخِيلةً نَشَـأتْ فتَلأْلأتْ بِحَناتِـمِ[٦] القَطْرِ
فَلَمأْتها نُـورًا يُضِـيءُ بِهِ ما حَوْلَـهُ كَإضاءَةِ الفَجْرِ[٧]
وَرَأيْت سُـقْياها حَيـا بَلَدٍ وقعت به وَعِمـارةَ القَفْرِ[٨]
وَرَأيْتـه[٩] شَـرَفًا أبُـوءُ بِهِ ما كُلّ قـادِحِ زَنْـدِهِ يُورِي
للهِ مـا زُهْرِيّـةٌ سَـلَبَتْ مِنْك الّذِي اسْتَلَبَتْ وما تَدْرِي

---

(١) وكذلك ورد اسمها في «المنمق» (ص: ٢٢١).
(٢) في (ف): «رواية».
(٣) في (ج): «وأعفهم». والصواب ما أثبت، وقد نبه على هذا الأسلوب السهيلي مرارًا. وانظر: «نتائج الفكر» له: (ص: ١٧٢).
(٤) في (ف): «وأعفه».
(٥) انظر الأبيات في: «المنمق» (ص: ٢٢٣)، و«طبقات ابن سعد» (١: ٩٧)، و«تاريخ الرسل والملوك» (٢: ١٧٥).
(٦) في (أ): «ببشائر». والحناتم: السحائب السود؛ لامتلائها بالماء.
(٧) لمأتها: أبصرتها. وقد ورد البيت في «تاج العروس» (لمأ).
(٨) في (أ): «ورأيته».
(٩) في (ف): «رأيتها».

وَفي «غَرِيبِ ابنِ قُتَيْبَةَ»: أنّ [المرأةَ][١] الّتِي عَرَضَتْ نَفْسَها عَلَيْهِ هِيَ: ليلى العدويّة[٢].

فَصْلٌ في المَوْلِدِ

في «تَفْسِيرِ بَقِيِّ بنِ مَخْلَدٍ»: أنّ إبْلِيسَ رَنّ أرْبَعَ رَنّاتٍ: رَنّةً حِينَ لُعِنَ، ورَنّةً حِينَ أُهْبِطَ، ورَنّةً حِينَ وُلِدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ورَنّةً حِينَ أُنْزِلَتْ فاتِحةُ الكِتابِ. قالَ: والرّنِينُ والنّخارُ مِنْ عَمَلِ الشّيْطانِ. قالَ: ويُكْرَهُ أنْ يُقالَ: أُمّ الكِتابِ، ولَكِنْ: فاتِحةُ الكِتابِ.

ورُوِيَ عَنْ عُثْمانَ بنِ أبِي العاصِ، عَنْ أُمّهِ أُمّ عُثْمانَ الثّقَفيّةِ ـ واسْمُها: فاطِمةُ بِنْتُ عَبْدِ اللهِ ـ قالَتْ: «حَضَرْتُ ولادةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فرَأيْت البَيْتَ حِينَ وُضِعَ قَد امْتَلأَ نُورًا، ورَأيْت النّجُومَ تَدْنُو حَتّى ظَنَنْت أنّها سَتَقَعُ عَلَيّ». ذَكَرَهُ أبو عمر في «كتاب النِّساء». وذكرَهُ الطَّبَرِيُّ أيْضًا في [كتاب][٣] «التّارِيخِ»[٤].

ووُلِدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَعْذُورًا مَسْرُورًا[٥]؛ أيْ: مَخْتُونًا مَقْطُوعَ السّرّةِ، يُقالُ: عُذِرَ الصّبِيّ وأُعْذِرَ: إذا خُتِنَ، وكانَتْ أُمّهُ تُحدّثُ أنّها لَمْ تَجِدْ حِينَ حَمَلَتْ بِهِ ما تَجِدُهُ الحَوامِلُ مِنْ ثِقَلٍ ولا وحَمٍ، ولا غَيْرِ ذَلِكَ، ولَمّا وضَعَتْهُ ﷺ وقَعَ إلى الأرْضِ مَقْبُوضةً أصابِعُ يَدَيْهِ، مُشِيرًا بِالسّبّاحةِ[٦] كالمُسَبِّحِ بِها.

---

(١) عن (أ)، (د).

(٢) «غريب الحديث» لابن قتيبة: (١: ٣٧٨).

(٣) من (أ)، (د).

(٤) «الاستيعاب» (٤: ١٩٠٠). وانظره في: «دلائل النبوة» لأبي نعيم: (ص: ١٣٥).

(٥) أخرجه أبو نعيم في «الدلائل» (ص: ١٥٤) بإسناده إلى العباس رضي الله عنه.

(٦) السبَّاحة والمسبِّحة: الإصبع التي تلي الإبهام، سُمِّيت بذلك لأنها يُشار بها عند التسبيح.

وذَكَرَ ابنُ دُرَيْدٍ أنّهُ أُلْقِيَتْ عَلَيْهِ جَفْنةٌ؛ لِئَلّا يَراهُ أحَدٌ قَبْلَ جَدِّهِ، فجاءَ جَدُّهُ والجَفْنةُ قَد انْفَلَقَتْ عَنْهُ، ولَمّا قِيلَ لَهُ: ما سَمّيْت ابنَك؟ فقالَ: مُحَمّدًا، فقيل له: كَيْفَ سَمّيْتَهُ بِاسْمٍ لَيْسَ لِأحَدٍ مِنْ آبائِك وقَوْمِك؟! فقالَ: إنّي لَأرْجُو أنْ يَحْمَدَهُ أهْلُ الأرْضِ كُلُّهُمْ. وذَلِكَ لِرُؤْيا كانَ رَآها عَبْدُ المطلب، وقد ذكرَ حديثَها عليٌّ القيروانيُّ العابدُ في كِتابِ «البُسْتانِ»، قالَ: كانَ عَبْدُ المُطّلِبِ قَدْ رَأى[1] في مَنامِهِ كَأنّ سِلْسِلةً مِنْ فِضّةٍ خَرَجَتْ مِنْ ظَهْرِهِ، لَها طَرَفٌ في السّماءِ، وطَرَفٌ في الأرْضِ، وطَرَفٌ في المَشْرِقِ، وطَرَفٌ في المَغْرِبِ، ثُمّ عادَتْ كَأنّها شَجَرةٌ، على كُلّ ورَقةٍ مِنْها نُورٌ، وإذا أهْلُ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ كَأنّهُمْ يَتَعَلّقُونَ بِها، فقَصّها، فعُبّرَتْ لَهُ بِمَوْلُودٍ يَكُونُ مِنْ صُلْبِهِ يَتْبَعُهُ أهْلُ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ، ويَحْمَدُهُ أهْلُ السّماءِ والأرْضِ، فلِذَلِكَ سَمّاهُ: مُحَمّدًا، مَعَ ما حَدّثَتْهُ بِهِ أُمّهُ حِينَ قِيلَ لَها: إنّكِ قدْ حَمَلْتِ بِسَيّدِ هَذِهِ الأُمّةِ، فإذا وضَعْتِه فسَمّيهِ: مُحَمّدًا... الحَدِيثَ.

قالَ المُؤَلِّفُ رضيَ اللهُ عنهُ: لا يُعْرَفُ في العَرَبِ مَنْ تَسَمّى بِهَذا الِاسْمِ قَبْلَهُ ﷺ، إلّا ثَلاثةٌ طَمِعَ آباؤُهُمْ حِينَ سَمِعُوا بِذِكْرِ مُحَمّدٍ ﷺ وبِقُرْبِ زَمانِهِ، وأنّهُ يُبْعَثُ في الحِجازِ أنْ يَكُونَ ولَدًا لَهُمْ. ذَكَرَهُم ابنُ فوْرَك في كِتابِ «الفُصُولِ»، وهُمْ: مُحَمّدُ بنُ سُفْيانَ بنِ مُجاشِعٍ، جَدُّ [جَدِّ][2] الفَرَزْدَقِ الشّاعِرِ، والآخَرُ: مُحَمّدُ[3] بنُ أُحَيْحَةَ بنِ الجُلاحِ بنِ الحَرِيشِ بنِ جحْجَبى بن كلفة بن عَوْفِ

---

(١) في (هـ): «أرى».

(٢) سقط من (أ). وانظر: «جمهرة أنساب العرب» لابن حزم: (ص: ٢٣٠)، و«جمهرة النسب» للكلبي: (ص: ٢٠٢).

(٣) في «جمهرة ابن حزم» (ص: ٣٣٥)، و«الكلبي» (ص: ٦٢٨)، و«المحبر» (ص: ١٣٠): «محمد بن عقبة بن الحلاج». وهو كذلك في «أسد الغابة» (٥: ٢٧١) في ترجمة ابنه المنذر بن محمد.

ابنِ عَمْرِو بنِ عَوْفِ بنِ مالِكِ بنِ الأوْسِ، والآخَرُ: مُحَمَّدُ بنُ حُمْرانَ مِنْ[١] رَبيعةَ، وكانَ آباءُ هَؤُلاءِ الثّلاثةِ قَدْ وفَدُوا على بَعْضِ المُلُوكِ، وكانَ عِنْدَهُ عِلْمٌ بالكِتابِ الأوّلِ، فأخْبَرَهُمْ بِمَبْعَثِ النّبيِّ ﷺ وباسْمِهِ، وكانَ كُلّ واحِدٍ مِنْهُمْ قَدْ خَلّفَ امْرَأتَهُ حامِلًا[٢]، فنَذَرَ كُلّ واحِدٍ مِنْهُمْ: إنْ وُلِدَ لَهُ [ولدٌ][٣] ذَكَرٌ أنْ يُسَمِّيَهُ مُحَمّدًا، ففَعَلُوا ذَلِكَ.

قالَ المُؤَلّفُ: وهَذا الِاسْمُ مَنْقُولٌ مِن الصّفةِ؛ فالمُحَمّدُ في اللّغةِ: هُوَ الّذِي يُحْمَدُ حَمْدًا بَعْدَ حَمْدٍ، ولا يَكُونُ مُفَعّلٌ - مِثْلُ: مُضَرّبٍ ومُمَدّحٍ - إلّا لِمَنْ تكَرّرَ فيهِ الفِعْلُ مَرّةً بَعْدَ مَرّةً.

وَأمّا أحْمَدُ - وهُوَ اسْمُهُ ﷺ الّذِي سُمِّيَ[٤] به على لسان عيسى وموسى - فإنّهُ مَنْقُولٌ أيْضًا مِن الصّفةِ الّتِي معناها التّفْضِيلُ، فمَعْنى أحْمَدَ: أحْمَدُ الحامِدِينَ لِرَبِّهِ، وكَذَلِكَ هُوَ في المَعْنى؛ لِأنّهُ يُفْتَحُ عَلَيْهِ في المَقامِ المَحْمُودِ مَحامِدُ لَمْ تُفْتَحْ على أحَدٍ قَبْلَهُ، فيَحْمَدُ رَبّهُ بِها، وكَذَلِكَ[٥] يُعْقَدُ لَهُ لِواءُ الحَمْدِ.

وَأمّا مُحَمّدٌ فمَنْقُولٌ مِنْ صِفةٍ أيْضًا، وهُوَ في مَعْنى مَحْمُودٍ. ولَكِنْ فيهِ مَعْنى المُبالَغةِ والتّكْرارِ؛ فالمُحَمّدُ هُوَ الّذِي حُمِدَ مَرّةً بَعْدَ مَرّةٍ، كَما أنّ المُكَرّمَ مَنْ أُكْرِمَ مَرّةً بَعْدَ مَرّةٍ، وكَذَلِكَ المُمَدّحُ، ونَحْوُ ذَلِكَ. فاسْمُ مُحَمّدٍ مُطابِقٌ لِمَعْناهُ، واللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى سَمّاهُ بِهِ قَبْلَ أنْ يُسَمّيَ بِهِ نَفْسَهُ، فهَذا عَلَمٌ مِنْ أعْلامِ نُبُوّتِهِ؛

(١) في (أ)، (ط): «محمد بن حمران بن ربيعة». وفي «المحبر» (ص: ١٣٠): «محمد بن حمران بن مالك الجعفي». وانظر: «المحبر»؛ ففيه محمدون آخرون.
(٢) في (أ): «حبلى».
(٣) عن (أ).
(٤) في (هـ): «تسمى».
(٥) في (ف): «ولذلك».

إذْ كانَ اسْمُهُ صادِقًا عَلَيْهِ، فهُوَ مَحْمُودٌ عَلَيْهِ السّلامُ في الدّنْيا بما هَدى إلَيْهِ، ونَفَعَ بِهِ مِن العِلْمِ والحِكْمةِ، وهُوَ مَحْمُودٌ في الآخِرةِ بالشّفاعةِ، فَقَدْ تكرّرَ مَعْنى الحَمْدِ كَما يَقْتَضِي اللّفْظُ، ثُمّ إنّهُ لَمْ يَكُنْ مُحَمّدًا حَتّى كانَ أحْمَدَ؛ حَمِدَ رَبّهُ فنَبّأهُ وشَرّفَهُ؛ فلِذَلِكَ تَقَدّمَ اسْمُ أحْمَدَ على الِاسْمِ الّذِي هُوَ مُحَمّدٌ، فذَكَرَهُ عِيسى فقالَ: ﴿ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، وذَكَرَهُ مُوسى حِينَ قالَ لَهُ رَبُّهُ: تِلْكَ أُمّةُ أحْمَدَ، فقالَ: اللهُمّ اجْعَلْنِي مِنْ أُمّةِ أحْمَدَ، فبِأحْمَدَ ذُكِرَ قَبْلَ أنْ يُذْكَرَ بِمُحَمّدٍ؛ لِأنّ حَمْدَهُ لِرَبّهِ كانَ قَبْلَ حَمْدِ النّاسِ لَهُ، فلَمّا وُجِدَ وبُعِثَ كانَ مُحَمّدًا بالفِعْلِ.

وَكَذَلِكَ في الشّفاعةِ يَحْمَدُ رَبّهُ بِالمَحامِدِ الّتِي يَفْتَحُها عَلَيْهِ، فيَكُونُ أحْمَدَ النّاسِ لِرَبِّهِ، ثُمّ يَشْفَعُ، فيُحْمَدُ على شَفاعَتِهِ.

فانْظُرْ كَيْفَ ترتَّبَ هذا الِاسْمُ قَبْلَ الِاسْمِ الآخَرِ في الذِّكْرِ والوُجُودِ، وفي الدُّنيا والآخرة، تَلُحْ لَك الحِكْمةُ الإلَهِيّةُ في تَخْصِيصِهِ بِهَذَيْنِ الِاسْمَيْنِ، وانظر كيف أُنزِلَت عليه سُورةُ الحَمْدِ وخُصّ بِها دُونَ سائِرِ الأنْبِياءِ، وخُصّ بِلِواءِ الحَمْدِ، وخُصّ بِالمَقامِ المَحْمُودِ، وانْظُرْ كَيْفَ شُرِعَ لَنا سُنّةً وقُرْآنًا أنْ نَقُولَ عِنْدَ اخْتِتامِ الأفْعالِ وانْقِضاءِ الأُمُورِ: الحَمْدُ لله رَبّ العالَمِينَ؛ قالَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥]، وقالَ أيْضًا: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]؛ تَنْبِيهًا لَنا على أنَّ الحَمْدَ مَشْرُوعٌ لَنا عِنْدَ انْقِضاءِ الأُمُورِ. وسَنّ عليه السلام الحَمْدَ بَعْدَ الأكْلِ والشّرْبِ، وقالَ عِنْدَ انْقِضاءِ السَّفَرِ: «آيِبُونَ، تائِبُونَ، عابِدُونَ، لِرَبِّنا حامِدُونَ»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب العمرة، «فتح الباري» (٣: ٦١٨-٦١٩)، ومسلم في كتاب الحج: (٢: ٩٧٨).

ثُمّ انْظُرْ لِكَوْنِهِ عَلَيْهِ السّلامُ خاتَمَ الأنْبياءِ، ومُؤْذِنًا بانْقِضاءِ الرّسالةِ، وارْتِفاعِ الوَحْيِ، ونَذِيرًا بِقُرْبِ السّاعةِ وتَمامِ الدّنْيا، مَعَ أنّ الحَمْدَ - كَما قَدّمْنا - مَقْرُونٌ بِانْقِضاءِ الأُمُورِ، مَشْرُوعٌ عِنْدَهُ؛ تَجِدْ مَعانِيَ اسْمَيْهِ جَمِيعًا، وما خُصّ بِهِ مِن الحَمْدِ والمَحامِدِ مُشاكِلًا لِمَعْناهُ، مُطابِقًا [لِصِفَتِهِ][1]، وفي ذَلِكَ[2] بُرْهانٌ عَظِيمٌ، وعَلَمٌ واضِحٌ على نُبُوّتِهِ، وتَخْصِيصِ اللهِ لَهُ بكَرامتِه، وأنه قَدّمَ لَهُ هَذِهِ المُقَدّماتِ قَبْلَ وُجُودِهِ تَكْرِمةً لَهُ، وتَصْدِيقًا لِأمْرِهِ ﷺ، وشَرَّفَ وكَرَّمَ.

وَذَكَر أنّ عَبْدَ المُطّلِب [دَخَلَ بِهِ الكَعْبَةَ وعَوَّذَهُ، ودَعا لَهُ. وفي غَيْرِ رِوايةِ ابنِ هِشامٍ: أنّ عَبْدَ المُطّلِبِ][3] قالَ وهُوَ يُعَوِّذُهُ ويقول: [من الرجز]

الحَمْدُ للهِ الّذِي أعْطانِي … هَذا الغُلامَ الطّيّبَ الأرْدانِ
قَدْ سادَ في المَهْدِ على الغِلْمانِ … أُعِيذُهُ بالبَيْتِ ذِي الأرْكانِ
حَتّى يَكُونَ بُلْغةَ الفِتْيانِ … حَتّى أراهُ بالِغَ البيانِ[4]
أُعِيذُهُ مِنْ كُلّ ذِي شَنَآنِ … مِنْ حاسِدٍ مُضْطَرِبِ العِنانِ
ذِي هِمّةٍ لَيْسَ لَهُ عَيْنانِ … حَتّى أراهُ رافِعَ اللِّسانِ
أنْتَ الّذِي سُمّيت في القُرْآنِ … في كُتُبٍ ثابتةِ المثاني[5]
أحمدُ مكتوبٌ على اللِّسانِ

---

(١) سقط من (ب).
(٢) بعده في (ف): «الرسالة».
(٣) سقط من (أ).
(٤) في (ب): «شامخ البنيان». وفي «سيرة ابن إسحاق»: «بالغ البنان».
(٥) في (د)، (ج): «المتان»، وفي (ف): «المثان».

فَصْلٌ

وَذَكَرَ أنّ مَوْلِدَهُ عَلَيْهِ السّلامُ كانَ في رَبِيعِ الأوّلِ، وهُوَ المَعْرُوفُ. وقالَ الزّبَيْرُ: كانَ مَوْلِدُهُ في رَمَضانَ، وهَذا القَوْلُ مُوافِقٌ لمَن قالَ: إنّ أُمّهُ حَمَلَتْ بِهِ في أيّامِ التّشْرِيقِ، واللهُ أعْلَمُ.

وَذَكَرُوا[١] أنّ الفيلَ جاءَ مَكّةَ في المُحَرّمِ، وأنّهُ ﷺ[٢] وُلِدَ بَعْدَ مَجيءِ الفيلِ بِخَمْسِينَ يَوْمًا، [وهُوَ][٣] الأكْثَرُ والأشْهَرُ، وأهْلُ الحِسابِ يَقُولُونَ: وافَقَ مَوْلِدُهُ مِن الشّهُورِ الشّمْسِيّةِ نَيْسانَ، وكانَ[٤] لِعِشْرِينَ مَضَتْ مِنْهُ، ووُلِدَ بِالغَفْرِ[٥] مِن المَنازِلِ، وهُوَ مَوْلِدُ النّبِيّينَ؛ ولِذَلِكَ قيل[٦]: [من مجزوء الرجز]

خيرُ مَنزلينِ[٧] في الأبدْ   بيْـنَ الزُّبانى والأسَـدْ

لِأنّ الغَفْرَ يَلِيهِ مِن العَقْرَبِ زُباناها، ولا ضَرَرَ في الزُّبانى إنّما تَضُرّ العَقْرَبُ بِذَنَبِها، ويَلِيهِ مِن الأسَدِ أَلْيَتُهُ، وهُوَ السّماكُ، والأسَدُ لا يَضُرّ بِألْيَتِهِ إنّما يَضُرُّ بِمِخْلَبِهِ ونابِهِ.

---

(١) في (أ)، (ج): «وذكر أن».

(٢) في (ف): «عليه السلام».

(٣) سقط من (أ).

(٤) في (ف): «فكان».

(٥) الغَفْر: منزل للقمر، ثلاثة أنجم صغار في برج السنبلة، وهي المنزل الخامس عشر من منازل القمر. وزبانى العقرب: قرنها، وهما زبانيانِ. والزبانيانِ: نجمانِ في الميزان، هما المنزل السادس عشر من منازل القمر، والأسد أحد بروج السماء.

(٦) من مشطور الرجز، وفي صدره خزم. وهو في «سبل الهدى» (١: ٤٠٥) منقولًا عن السهيلي، وقد زيد فيه ما أخل بوزنه.

(٧) في (ف): «منزلتين».

وَوُلِدَ بِالشِّعْبِ، وقِيلَ: بِالدّارِ الّتِي عِنْدَ الصّفا، وكانَتْ بَعْدُ لِمُحَمّدِ بنِ يُوسُفَ أخِي الحَجّاجِ، ثُمّ بَنَتْها زُبَيْدةُ مَسْجِدًا حِينَ حجّت.

وَذَكَرَ أنّهُ ماتَ أبُوهُ وهُوَ حَمْلٌ، وأكْثَرُ العُلَماءِ على أنّهُ كانَ في المَهْدِ. ذَكَرَهُ الدّوْلابِيّ وغَيْرُهُ. وقِيلَ: ابنُ شَهْرَيْنِ، ذَكَرَهُ ابنُ أبِي خَيْثَمةَ، وقِيلَ: أكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ، وماتَ أبُوهُ[1] عِنْدَ أخْوالِهِ بَنِي النّجّارِ، ذَهَبَ لِيَمْتارَ لأهْلِهِ تَمْرًا، وقَدْ قِيلَ: ماتَ أبُوهُ وهُوَ ابنُ ثَمانيةٍ وعِشْرِينَ شَهْرًا، وأنْشَدُوا رَجَزًا لِعَبْدِ المُطّلِبِ يَقُولُهُ لِابنِهِ أبِي طالِبٍ: [من الرجز]

أُوصِيك يــا عَبْدَ مَنافٍ بَعْدِي بِمُوتَــمٍ[2] بَعْــدَ أبِيــهِ فَــرْدِ
فارَقَــهُ وهْوَ ضَجِيــعُ المَهْدِ

وَكانَ بَيْنَهُ وبَيْنَ أبِيهِ عَلَيْهِ السّلامُ في السّنّ ثَمانِيةَ عَشَرَ عامًا.

وَذَكَرَ الحارِثَ بنَ عَبْدِ العُزّى أبا رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ الرّضاعةِ، ولَمْ يَذْكُرْ لَهُ إسْلامًا، ولا ذَكَرَهُ كَثِيرٌ مِمّنْ ألّفَ في الصحابة، وقَدْ ذَكَرَهُ يُونُسُ بنُ بُكَيْرٍ في رِوايَتِهِ، فقالَ: حَدّثَنا ابنُ إسْحاقَ، قالَ: حَدّثَنِي والِدِي إسْحاقُ بنُ يَسارٍ، عَنْ رِجالٍ مِنْ بَنِي سعد بن بكرٍ، قال: قدِم الحارث بن عَبْدِ العُزّى أبُو رَسُولِ اللهِ ﷺ مِن الرّضاعةِ على رَسُولِ اللهِ ﷺ بِمَكّةَ حِينَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ[3]،فقالَتْ لَهُ قُرَيْشٌ: ألا تَسْمَعُ يا حارِ[4] ما يَقُولُ ابنُك هَذا؟ فقالَ: وما يَقُولُ؟ قالُوا: يَزْعُمُ أنّ اللهَ يَبْعَثُ بَعْدَ المَوْتِ، وأنّ لله دارَيْنِ يُعَذّبُ فيهِما مَنْ عَصاهُ، ويُكْرِمُ فيهِما مَنْ

(١) بعده في (ف): «وهو».
(٢) يقال: أيتمه الله إيتامًا، ويَتّمه تيتيمًا: جعله يتيمًا.
(٣) في (ب): «أنزل عليه القرآن».
(٤) في غير (ج)، (هـ): «يا حارث». وما أثبت موافق لما في «سيرة ابن إسحاق».

أطاعَهُ، فقَدْ شَتّتَ أمْرَنا، وفَرّقَ جَماعَتَنا. فأتاهُ، فقالَ: أيْ بنيَّ، ما لكَ ولِقَوْمِك يَشْكُونَك، ويَزْعُمُونَ أنّك تَقُولُ: إنّ النّاسَ يُبْعَثُونَ بَعْدَ المَوْتِ، ثُمّ يَصِيرُونَ إلى جَنّةٍ ونارٍ؟! فقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «نَعَمْ، أنا أزْعُمُ ذَلِكَ، ولَوْ قَدْ كانَ ذَلِكَ اليَوْمَ يا أبَتِ، لَقَدْ أخَذْتُ بِيَدِك حَتّى أُعَرّفَك حَدِيثَك اليَوْمَ». فأسْلَمَ الحارِثُ بَعْدَ ذَلِكَ، وحَسُنَ[١] إسْلامُهُ، وكانَ يَقُولُ حِينَ أسْلَمَ: لَوْ قَدْ أخَذَ ابنِي بِيَدِي، فعَرّفَنِي ما قال، لم يُرْسِلْنِي إنْ شاءَ اللهُ حَتّى يُدْخِلَنِي الجَنّةَ[٢].

وذكَرَ ناصرةَ بنَ فُصَيّةَ في نَسَبِ حَلِيمةَ، وهُوَ عِنْدَهُمْ: فُصَيّةُ[٣] بالفاءِ تَصْغِيرُ: فَصاةٍ، وهِيَ النّواةُ. ووَقَعَ في الأصْلِ في[٤] جَمِيعِ النّسَخِ: قُصَيّةُ. وقالَ أبُو حَنِيفةَ أيْضًا: الفَصى[٥]: حَبُّ الزّبِيبِ، وهُوَ مِنْ هَذا المَعْنى.

وذَكَرَ الشّيْماءَ أُخْتَ رَسُولِ اللهِ ﷺ من الرَّضاعة، وقال في اسْمِها: خِذامةُ بِكَسْرِ الخاءِ المَنْقُوطة، وقالَ غَيْرُهُ: حُذافةُ بِالحاءِ المَضْمُومةِ وبِالفاءِ مَكانَ المِيمِ، وكَذَلِكَ ذَكَرَهُ يُونُسُ في رِوايَتِهِ عَن ابنِ إسْحاقَ[٦]، وكَذَلِكَ ذَكَرَهُ أبُو عُمَرَ في «كِتابِ النِّساءِ»[٧].

---

(١) في (ف): «فحسن».

(٢) انظر الأثر في «سيرة ابن إسحاق» (ص: ٢١٧-٢١٨)، و«أسد الغابة» (١: ٤٠٤).

(٣) انظر «جمهرة ابن حزم» (ص: ٦٥)، و«ابن الكلبي» (ص: ٣٩٣)، و«أسد الغابة» (٧: ٦٧).

(٤) في (ف): «وفي».

(٥) في (ب)، (ج): «القصا» بالقاف، وفي نسخ: «الفصا» بالألف. وفي «تاج العروس»: «الصواب: أن يُكتب بالياء».

(٦) «سيرة ابن إسحاق» (ص: ٢٥).

(٧) «الاستيعاب» (٤: ١٨٠٩-١٨١٠). وقد قيل فيها أيضًا: جذامة. انظر: «أسد الغابة» (٧: ٤٧).

شرح ما في حديث الرضاع

وقالَ ابنُ إسْحاقَ: فالتُمِسَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ الرُّضَعاءُ.

وقالَ ابنُ هِشامٍ: إنّما هُوَ المَراضِعُ، قالَ: وَفِي كِتابِ اللهِ تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ [القصص: ١٢]، والذِي قالَهُ ابنُ هِشامٍ ظاهِرٌ؛ لِأَنّ المَراضِعَ جَمْعُ: مُرْضِعٍ، والرُّضَعاءُ: جَمْعُ رَضِيعٍ، وَلَكِنْ لِروايةِ ابنِ إسْحاقَ مَخْرَجٌ مِنْ وَجْهَيْنِ؛ أَحَدُهُما: حَذْفُ المُضافِ، كَأَنّهُ قالَ: ذَواتُ الرُّضَعاءِ، والثّانِي: أَنْ يَكُونَ أَرادَ بالرُّضَعاءِ: الأَطْفالَ على حَقِيقةِ اللّفْظِ؛ لِأَنّهُمْ إذا وَجَدُوا لَهُ مُرْضِعةً تُرْضِعُهُ، فَقَدْ وَجَدُوا لَهُ رَضِيعًا يَرْضَعُ مَعَهُ، فَلا بُعْدَ في أنْ يُقالَ: التَمَسُوا لَهُ رَضِيعًا، عِلْمًا بِأَنّ الرَّضِيعَ لا بُدَّ لَهُ مِنْ مُرْضِعٍ.

وأرْضَعَتْهُ عَلَيْهِ السّلامُ ثُوَيْبةُ[١] قبل حَلِيمة. أرضعته وعَمَّهُ حَمْزةَ وعَبْدَ اللهِ ابنَ جَحْشٍ، وكانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْرِفُ ذَلِكَ لِثُوَيْبةَ، ويَصِلُها مِن المَدِينةِ، فلَمّا افْتَتَحَ مَكّةَ سَألَ عَنْها وعَن ابنِها مَسْرُوحٍ، فأُخْبِرَ أنّهُما ماتا، وسَألَ عَنْ قَرابَتِها[٢]، فلَمْ يَجِدْ أحَدًا مِنْهُمْ حَيًّا. وثُوَيْبةُ كانَتْ جارِيةً لِأَبِي لَهَبٍ، وسَنَذْكُرُ بَقِيّةَ حَدِيثِها ـ إنْ شاءَ اللهُ ـ عِنْدَ وفاةِ أَبِي لَهَبٍ.

وَذَكَرَ قَوْلَها: «ولَيْسَ في شارِفِنا[٣] ما يغذّيه»، وقالَ ابنُ هِشامٍ: «ما يُغَذّيهِ»

---

(١) انظر: «أسد الغابة» (٧: ٤٦).

(٢) في (ف): «قرابتهما».

(٣) الشارف: الناقة المسنة.

بِالذّالِ المَنْقُوطةِ، وهُوَ أتَمّ في المَعْنى مِن الِاقْتِصارِ على ذِكْرِ الغَداءِ دُونَ العَشاءِ، ولَيْسَ في أصْلِ الشّيْخِ رِوايةٌ ثالِثةٌ، وعِنْدَ بَعْضِ النّاسِ رِوايةٌ غَيْرُ هاتَيْنِ، وهِيَ «يُعْذِبُهُ» بِعَيْنٍ مُهْمَلةٍ، وذالٍ مَنْقُوطةٍ، وباءٍ مُعْجَمةٍ بِواحِدةٍ، ومَعْناها عِنْدَهُمْ: ما يُقْنِعُهُ حَتّى يَرْفَعَ رَأْسَهُ ويَنْقَطِعَ عَن الرّضاعِ، يُقالُ مِنْهُ: عَذَبْته وأعْذَبْته؛ إذا قَطَعْتَه عَن الشّرْبِ ونَحْوِهِ، والعَذُوبُ: الرّافِعُ رَأْسَهُ عَن الماءِ، وجَمْعُهُ: عُذُوبٌ بِالضّمّ، ولا يُعْرَفُ فَعُولٌ جُمِعَ على فُعُولٍ غَيْرُهُ، قالَهُ أبُو عُبَيْدٍ[1]، والّذِي في الأصْلِ أصَحُّ في المَعْنى والنّقْلِ.

وذكر قولها: «حتى أدَمْتُ بِالرَّكْبِ». [تُرِيدُ: أنّها حَبَسَتْهُمْ، وكَأنّهُ مِن الماءِ الدّائِمِ، وهُوَ الواقِفُ، ويُرْوى: «حَتّى أذَمَّتْ»][2]؛ أيْ: أذَمَّت الأتانُ؛ أيْ: جاءَتْ بِما تُذَمّ عَلَيْهِ، أوْ [يَكُونُ][3] مِنْ قَوْلِهِمْ: بِئْرٌ ذَمّةٌ، أيْ: قَلِيلةُ الماءِ، ولَيْسَتْ هَذِهِ عِنْدَ أبِي الوَلِيدِ، ولا في أصْلِ الشّيْخِ أبِي بَحْرٍ، وقَدْ ذَكَرَها قاسِمٌ[4] في «الدّلائِلِ»، ولَمْ يَذْكُرْ رِوايةً أُخْرى، وذَكَرَ تَفْسِيرَها عَنْ أبِي عُبَيْدةَ: أذَمّ بِالرّكْبِ: إذا أبْطَأ[5] حَتّى حَبَسَهُمْ، مِن البِئْرِ الذَّمّة، وهي القليلةُ الماءِ[6].

وَذَكَرَ قَوْلَ حَلِيمةَ: «فلَمّا وضَعْته في حِجْرِي أقْبَلَ عَلَيْهِ ثَدْيايَ بِما شاءَ مِنْ لَبَنٍ، فشَرِبَ حَتّى رَوِيَ، وشَرِبَ مَعَهُ أخُوهُ حَتّى رَوِيا».

---

(١) انظر: «تاج العروس»: عَذَب.

(٢) ليس في (ب).

(٣) ليس في (أ).

(٤) في (ج): «قاسم بن ثابت».

(٥) في (ج): «أبطأ بهم».

(٦) في «تاج العروس» عن ابن سيده: أنشدنا أبو العلاء:

قـومٌ أذمّتْ بهـم ركائبهم ... فاستبدلوا مُخلق النِّعال بها

ثم ذكر حديث حليمة.

وَذَكَرَ [غَيْرُ][1] ابنِ إِسْحاقَ أَنّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كانَ لا يُقْبِلُ إلّا على ثَدْيِها الواحِدِ، وكانَتْ تَعْرِضُ عَلَيْهِ الثّدْيَ الآخَرَ فيأْباهُ، كَأَنّهُ قَدْ أُشْعِرَ عَلَيْهِ السّلامُ أنّ مَعَهُ شَرِيكًا في لِبانِها، وكانَ مَفْطُورًا على العَدْلِ، مَجْبُولًا على المُشارَكَةِ والفَضْلِ ﷺ.

التِماسُ الأجْرِ على الرَّضاعِ

قالَ المُؤَلِّفُ: والتِماسُ الأجْرِ على الرَّضاع لَمْ يَكُنْ مَحْمُودًا عِنْدَ أَكْثَرِ نِساءِ العَرَبِ، حَتّى جَرى المَثَلُ: تَجُوعُ المَرْأَةُ ولا تَأْكُلُ بِثَدْيَيْها[2]، وكانَ عِنْدَ بَعْضِهِنّ لا بَأْسَ بِهِ؛ فقَدْ كانَتْ حَلِيمةُ وسِيطةً في بَنِي سَعْدٍ، كَرِيمةً مِنْ كَرائِمِ قَوْمِها، بِدَلِيلِ اخْتِيارِ اللهِ تَعالى إيّاها لِرَضاعِ نَبِيّهِ ﷺ؛ كَما اخْتارَ لَهُ أَشْرَفَ البُطُونِ والأصلاب. والرَّضاع كالنسب؛ لأنه يغيّر الطّباعَ. في المُسْنَدِ عَنْ عائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْها تَرْفَعُهُ: «لا تَسْتَرْضِعُوا الحَمْقى؛ فإنّ اللّبَنَ يُورِثُ»[3]، ويَحْتَمِلُ أَنْ تكُونَ حَلِيمةُ ونِساءُ قَوْمِها طَلَبْنَ الرُّضَعاءَ اضْطِرارًا لِلْأَزْمَةِ الّتِي أَصابَتْهُمْ، والسَّنةِ الشّهْباءِ[4] الّتِي اقْتَحَمَتْهُمْ.

وَأَمّا دَفْعُ قُرَيْشٍ وغَيْرِهِمْ مِنْ أَشْرافِ العَرَبِ أَوْلادَهُمْ إلى المَراضِعِ، فقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ لِوُجُوهٍ:

---

(١) ليس في (ب)، (هـ).

(٢) «مجمع الأمثال» للميداني: (١: ١٢٢).

(٣) رواه الطبراني في «الصغير»، والبزار. انظر: «مجمع الزوائد» (٤: ٢٦٢)، و«المطالب العالية» (٢: ٧٩)، وفي «كشف الأستار عن زوائد البزار» (٢: ١٦٩): «قال البزار: لا نعلمه مرفوعًا إلا من هذا الوجه، وعكرمة لين الحديث، وقد احتُمِل حديثه».

(٤) السنة الشهباء: المجدبة لا خضرة فيها ولا مطر. وقال ابن بري: الشهباء: البيضاء؛ لكثرة الثلج وعدم النبات. وأقحمه في الأمر: ألجأه إليه. ومنه قُحمة الأعراب، وهو أن تصيبهم السنة فتهلكهم.

أَحَدُها: تَفْرِيغُ النّساءِ إلى الأزْواجِ، كَما قالَ عَمّارُ بنُ ياسِرٍ لِأُمّ سَلَمةَ رَضِيَ اللهُ عَنْها ـ وكانَ أخاها مِن الرّضاعةِ ـ حِينَ انْتَزَعَ مِنْ حِجْرِها زَيْنَبَ بِنْتَ أَبِي سَلَمةَ، فقالَ: دَعِي هَذِهِ المَقْبُوحةَ المَشْقُوحةَ الّتِي آذَيْتِ بِها رَسُولَ اللهِ ﷺ[١].

وقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ مِنْهُمْ أَيْضًا لِيَنْشَأَ الطِّفْلُ في الأَعْرابِ، فَيَكُونَ أَفْصَحَ لِلِسانِهِ، وأَجْلَدَ لِجِسْمِهِ، وأَجْدَرَ ألا يُفارِقَ الهَيْئَةَ المَعَدّيّةَ؛ كَما قالَ عُمَرُ: تَمَعْدَدُوا [وتَمَعْزَزُوا][٢] واخْشَوْشِنُوا [واخشَوْشِبُوا][٣][٤].

وقَدْ قالَ عَلَيْهِ السّلامُ لِأَبِي بَكْرٍ حِينَ قالَ لَهُ: ما رَأَيْت أَفْصَحَ مِنْك يا رَسُولَ اللهِ، فقالَ: «وما يَمْنَعُنِي وأنا مِنْ قُرَيْشٍ، وأُرْضِعْت في بَنِي سَعْدٍ[٥]؟!». فهَذا ونَحْوُهُ كانَ يَحْمِلُهُمْ على دَفْعِ الرّضَعاءِ إلى المَراضِعِ الأَعْرابِيّاتِ.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٦: ٣١٤). والمقبوح: المُبعَد، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: ٤٢]، أي: المُبعَدين. والعرب تُتبِع فتقول: قبحًا له وشقحًا، وجاء بالقباحة والشقاحة، فهُما بمعنًى واحد.

(٢) ليس في (أ).

(٣) ليس في (أ)، (هـ).

(٤) لفظ أبي عبيد في «غريب الحديث» له: (٣: ٣٢٥): «واخشوشنوا واخشوشبوا وتمعددوا». وقال في «تفسيره»: «واخشوشنوا: هو من الخشونة في اللباس والمطعم. واخشوشبوا أيضًا شبيه به، وكل شيء غليظ خشن فهو أخشب وخَشب». وذكر في «تمعددوا» قولَين: إما من الغلظ، يقال للفتى إذا شب وغلظ: قد تمعدد. أو تشبهوا بعيش مَعَدّ، وكانوا أهل قَشَفٍ وغلظٍ في المعاش.
فأما تمعززوا فقال ابن الأثير في «النهاية» ـ وقد ذكر «تمعززوا واخشوشنوا» ـ: «هكذا جاء في رواية. يشير إلى أنه روي أيضًا: تمعددوا. وفسَّر تمعززوا بعد: «كونوا أشداء صُبُرًا؛ من المَعَزِ، وهو الشدة، وإن جعل من العز، كانت الميم زائدة، مثلها في تمدرع وتمسكن».

(٥) انظر: «سبل الهدى والرشاد» (٢: ١٣٥-٩٣٦).

وقَدْ ذُكِرَ أنّ عَبْدَ المَلِكِ بنَ مَرْوانَ كانَ يَقُولُ: أضَرّ بِنا حُبّ الوَلِيدِ؛ لِأنّ الوَلِيدَ كانَ لَحّانًا، وكانَ سُلَيْمانُ فصِيحًا؛ لِأنّ الوَلِيدَ أقامَ مَعَ أُمّهِ، وسُلَيْمانُ وغَيْرُهُ مِنْ إخْوَتِهِ أُسْكِنُوا البادِيَةَ، فتَعَرّبُوا، ثُمّ أُدّبُوا فتَأَدّبُوا، وكانَ مِنْ قُرَيْشٍ أعْرابٌ، ومِنْهُمْ حَضَرٌ، فالأعْرابُ مِنْهُمْ: بَنُو الأدْرَم وبنو محارب، وأحسَب بني عامر بن لُؤَيٍّ كَذَلِكَ؛ لِأَنّهُمْ مِنْ أَهْلِ الظّواهِرِ، ولَيْسُوا مِنْ أَهْلِ البِطاحِ[١].

وذَكَرَ قَوْلَ أخِيهِ مِن الرّضاعةِ: «نَزَلَ عَلَيْهِ رَجُلانِ أبْيَضانِ، فشَقّا عَنْ بَطْنِهِ، وهُما يَسُوطانِهِ»، يُقالُ: سُطْت اللّبَنَ أو الدّمَ، أوْ غَيْرَهُما، أسُوطُهُ: إذا ضَرَبْتَ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ. والمِسْوَطُ: عُودٌ يُضْرَبُ بِهِ.

وَفي رِوايةٍ أُخْرى عَن ابنِ إسْحاقَ: أنّهُ[٢] نَزَلَ عَلَيْهِ كُرْكِيّانِ[٣]، فشَقّ أحَدُهُما بِمِنْقارِهِ جَوْفَهُ، ومَجّ الآخَرُ[٤] فيهِ ثَلْجًا أوْ بَرَدًا، أوْ نَحْوَ هَذا، وهِيَ رِوايةٌ غَرِيبةٌ ذَكَرَها يُونُسُ عَنْهُ[٥].

واخْتَصَرَ ابنُ إسْحاقَ حَدِيثَ نُزُولِ المَلَكَيْنِ عَلَيْهِ، وهُوَ أطْوَلُ مِنْ هَذا.

رَوى ابنُ أبِي الدّنْيا وغَيْرُهُ بِإسْنادٍ يَرْفَعُهُ إلى أبي ذَرٍّ قالَ: قُلْت: يا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ عَلِمْت أنّك نَبِيّ؟ وبِمَ عَلِمْت حَتّى اسْتَيْقَنْت؟ قالَ: «يا أبا ذَرّ، أتانِي مَلَكانِ وأنا بِبَطْحاءِ مَكّةَ، فوَقَعَ أحَدُهُما بِالأرْضِ، وكانَ الآخَرُ بَيْنَ السّماءِ والأرْضِ،

---

(١) انظر: «المحبر» لابن حبيب: (ص: ١٦٧-١٦٨)، و«تاج العروس» (بطح).

(٢) «أنه» ليست في: (ف).

(٣) الكركي: طائر كبير، أغبر اللون، طويل العنق والرِّجلَين، أبتر الذنَب، قليل اللحم، يأوي إلى الماء أحيانًا.

(٤) في (ب)، (ج)، (ف): «ومجّ الآخر فيه بمنقاره». (د)، (هـ): «ومج الآخر من فيه ثلجًا». ومجّ الماء من فيه: لَفظه.

(٥) «سيرة ابن إسحاق» (ص: ٢٨).

فقالَ أحَدُهُما لِصاحِبِهِ: أهُوَ هُوَ؟ قالَ: هُوَ هُوَ، قالَ: فزِنْهُ بِرَجُلٍ، فوَزَنَنِي بِرَجُلٍ فرَجَحْتُه، ثُمّ قالَ: زِنْهُ بِعَشَرةٍ، فوَزَنَنِي[1]، فرَجَحْتهمْ، ثُمّ قالَ: زِنْهُ بِمِئةٍ، فوَزَنَنِي بمِئة، فرَجَحْتهمْ، ثُمّ قالَ: زِنْهُ بِألْفٍ، فوَزَنَنِي [بألفٍ][2]، فرَجَحْتهمْ، حَتّى جَعَلُوا يَتَساتلُونَ[3] عَلَيّ مِنْ كِفّةِ المِيزانِ، فقالَ أحَدُهُما لِصاحِبِهِ: شُقّ بَطْنَهُ، فشَقّ بَطْنِي، فأخرج قَلْبي، فأخرَجَ منه مَغْمَزَ الشّيْطانِ وعَلَقَ الدّمِ، فطَرَحَهُما، فقالَ: أحَدُهُما لِصاحِبِهِ: اغْسِلْ بَطْنَهُ غَسْلَ الإناءِ، واغْسِلْ قَلْبَهُ غَسْلَ المُلاءِ، ثُمّ قالَ أحَدُهُما لِصاحِبِهِ[4]: خِطْ بطْنَه، فخاطَ بَطْنِي، وجَعَلَ الخاتَمَ بَيْنَ كَتِفَيّ كما هُوَ الآنَ، ووَلَّيا عَنِّي، فكَأنّي أُعايِنُ الأمْرَ مُعايَنَةً».

ففي هَذا الحَدِيثِ بَيانٌ لِما أُبْهِمَ في الأوّلِ؛ لِأنّهُ قالَ: «فأخْرَجَ مِنْهُ مَغْمَزَ الشّيْطانِ وعَلَقَ الدّمِ»، فبَيّنَ أنّ الّذِي الْتُمِسَ فيهِ هُوَ الّذِي يَغْمِزُهُ الشّيْطانُ مِنْ كُلّ مَوْلُودٍ إلا عيسى بنَ مَرْيَمَ وأُمَّهُ؛ لِقَوْلِ أُمّها حَنّةَ: ﴿ إِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [آل عمران: ٣٦]، فلَمْ يَصِلْ إلَيْهِ لِذَلِكَ، ولِأنّهُ لَمْ يُخْلَقْ مِنْ مَنِيّ الرّجالِ فأُعِيذَ مِنْ مَغْمَزِه، وإنّما خُلِقَ مِنْ نَفْخَةِ رُوحِ القُدُسِ، ولا يَدُلّ هَذا على فضْلِ عِيسى على مُحَمّدٍ ﷺ؛ لِأنّ مُحَمّدًا عليه السلام قَدْ نُزِعَ مِنْهُ ذَلِكَ المَغْمَزُ، ومُلِئَ قَلْبُهُ حِكْمةً وإيمانًا، بَعْدَ أنْ غَسَلَهُ رُوحُ القُدُسِ بِالثّلْجِ والبَرَدِ، وإنّما كانَ ذَلِكَ المَغْمَزُ فيهِ لِمَوْضِعِ الشّهْوةِ المُحَرِّكَةِ لِلْمَنِيّ،

(١) في (ج)، (هـ): «فوزنني بعشرة».

(٢) ليس في (ب)، (هـ)، (ف).

(٣) كذا في (أ)، (هـ). وفي (د): «يتساءلون». وفي (ب): «يتسالمون». وفي (ج): «يتسالتون». وفي (ط): «يتثاقلون». وفي حاشية (أ) عندها: «أي: يتتابعون». وفي «تاج العروس»: «ستَل القومُ ستلًا واستتلوا وتساتلوا: خرجوا متتابعين واحدًا بعد واحد».

(٤) في (أ): «للآخر».

والشّهَواتُ يَحْضُرُها الشّياطِينُ، لا سِيما شَهْوةُ مَنْ لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ، فكانَ ذَلِكَ المَغْمَزُ راجِعًا إلى الأبِ، لا إلى الِابنِ المُطَهّرِ صلى الله وسلم عليه.

وَفي الحَدِيثِ فائِدةٌ أُخْرى، وهِيَ مِنْ نَفيسِ العِلْمِ: وذَلِكَ أنّ خاتَمَ النّبُوّةِ لَمْ يُدْرَ هـل خُلِق به، أم وُضِع فيه بعدما وُلِدَ، أوْ حِينَ نُبّئَ، فبَيّنَ في هَذا الحَدِيثِ مَتى وُضِعَ، وكَيْفَ وُضِعَ، ومَنْ وضَعَهُ، زادَنا اللهُ عِلْمًا، وأوْزَعَنا شُكْرَ ما عَلّمَ.

وفيهِ البَيانُ لِما سَأَلَ عَنْهُ أبُو ذَرٍّ حِينَ قالَ: كَيْفَ عَلِمْت أنك نَبِيّ؟ فأعْلَمَهُ بِكَيْفيّةِ ذَلِكَ.

غَيْرَ أنّ في هَذا الحَدِيثِ وهْمًا مِنْ بَعْضِ النّقَلةِ، وهُوَ قَوْلُهُ: «بَيْنَما أنا بِبَطْحاءِ مَكّةَ»، وهَذِهِ القِصّةُ لَمْ تَعْرِضْ لَهُ إلّا وهُوَ في بَنِي سَعْدٍ مَعَ حَلِيمةَ، كَما ذَكَرَ ابنُ إسْحاقَ وغَيْرُهُ، وقَدْ رَواهُ البَزّارُ مِنْ طَرِيقِ عُرْوةَ عَنْ أبِي ذَرٍّ، فلَمْ يَذكُر فيه بَطحاءَ مَكة.

وَذَكَرَ فيهِ [أنّهُ][1] قالَ: «وأُوتِيتُ[2] بِالسّكِينةِ كَأنّها رَهْرَهةٌ، فوُضِعَتْ في صَدْرِي». قالَ: ولا أعْلَمُ لِعُرْوةَ سَماعًا مِنْ أبِي ذَرّ. وذَكَرَ مِنْ طَرِيقٍ آخَرَ عَنْ أبِي ذَرّ، أن رسول الله ﷺ قالَ لَهُ: «يا أبا ذَرّ، وُزِنْت بِأرْبَعِينَ أنْتَ فيهِمْ فرَجَحْتُهمْ»[3].

والرَّهْرَهةُ: بَصِيصُ البَشَرةِ[4].

فهَذا بَيانُ وضْعِ الخاتَمِ مَتى وُضِعَ.

---

(١) ليس في (أ).

(٢) في (ف): «وأتيت».

(٣) «كشف الأستار عن زوائد البزار» (٣: ١١٥-١١٦).

(٤) في (ب): «الشعر». وفي «تاج العروس» عن الليث: «حسن بصيص لون البشرة ونحوه».

وَأمّا مَتى وجَبَتْ لَهُ النّبُوّةُ؟ فرُوِيَ عَنْ مَيْسَرةَ الفَجْرِ[١] أنّهُ قالَ لَهُ: مَتى وجَبَتْ لَكَ النّبُوّةُ يا رَسُولَ اللهِ؟ فقالَ[٢]: «وآدَمُ بَيْنَ الرّوحِ والجَسَدِ»، ويُرْوى: «وآدَمُ مُنجَدِلٌ في طِينَتِه».

وَهَذا الخَبَرُ يُرْوى عَنْهُ عَلَيْهِ السّلامُ على وجْهَيْنِ؛ أحَدُهُما: أنّهُ شُقّ عَنْ قَلْبِهِ، وهُوَ مَعَ رابّتِهِ[٣] ومُرْضِعَتِهِ في بَنِي سَعْدٍ، وأنّهُ جِيءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ فيهِ ثَلْجٌ، فغُسِلَ بِهِ قَلْبُهُ، والثّانِي [فيهِ][٤]: أنّهُ غُسِلَ بماءِ زَمْزَمَ، وأنّ ذَلِكَ كانَ لَيْلةَ الإسْراءِ حِينَ عُرِجَ به إلى السماءِ بعدما بُعِثَ بأعْوامٍ، وفيهِ أنّهُ أُتِيَ بِطَسْتٍ مِنْ ذهبٍ مُمتلِئٍ حِكْمةً وإيمانًا، فأُفْرِغَ في قَلْبِهِ. وذَكَرَ بَعْضُ مَنْ ألّفَ في شَرْحِ الحَدِيثِ أنّهُ تَعارضٌ في الرّوايَتَيْنِ، وجَعَلَ يَأْخُذُ في تَرْجِيحِ [بعضِ][٥] الرُّواةِ وتَغْلِيطِ بَعْضِهِمْ، ولَيْسَ الأمْرُ كَذَلِكَ، بَلْ كانَ هَذا التّقْدِيسُ و[هَذا][٦] التَّطْهِيرُ مَرّتَيْنِ:

الأُولى: في حالِ الطّفُولِيّةِ؛ لِيُنَقّى قَلْبُهُ مِنْ مَغْمَزِ الشّيْطانِ، ولِيُطَهَّرَ ويُقَدَّسَ مِنْ كُلّ خُلُقٍ ذَمِيمٍ؛ حَتّى لا يَتَلَبّسَ بِشَيْءٍ مِمّا يُعابُ على الرّجالِ، وحَتّى لا يَكُونَ في قَلْبِهِ شَيْءٌ إلّا التّوْحِيدُ؛ ولِذَلِكَ قالَ: «فوَلَّيا عَنّي ـ يَعْنِي: المَلَكَيْنِ ـ وكَأنّي أُعايِنُ الأمْرَ مُعايَنةً».

---

(١) صحابي من أعراب البصرة. ترجم له ابن الأثير في «أسد الغابة» (٥: ٢٨٥)، وخرَّج حديثه هذا. وروي عن ابن الفرضي أن ميسرة لقب عبد الله بن أبي الجدعاء. والحديث مروي في ترجمة عبد الله في «أسد الغابة» (٣: ١٧٦-١٧٧).

(٢) في (ف): «قال».

(٣) في (أ): «رابيه». الرّابة: امرأة الأب. والرابّ: زوج أم اليتيم.

(٤) ليس في (أ).

(٥) عن حاشية (أ)، (هـ).

(٦) ليس في (ب).

والثّانيةُ: في حالِ الاكتهال، وبعدما نُبِّئ، وعندما أرادَ اللهُ أنْ يَرْ فَعَهُ إلى الحَضْرةِ المُقَدّسةِ الّتي لا يَصْعَدُ إلَيْها إلّا مُقَدَّسٌ، وعُرِجَ به هنالك لِتُفْرَضَ عَلَيْهِ الصّلاةُ، ولِيُصَلّيَ بِمَلائِكةِ السّمواتِ[1]، ومِنْ شَأْنِ الصّلاةِ الطّهُورُ، فقُدِّسَ ظاهِرًا وباطِنًا، وغُسِلَ بِماءِ زَمْزَمَ.

وَفي المَرّةِ الأُولى بالثّلْجِ؛ لِما يُشْعِرُ[2] الثّلْجُ مِنْ ثَلْجِ اليَقِينِ وبَرْدِهِ على الفُؤادِ، ولذَلِكَ[3] هُناكَ حَصَلَ لَهُ اليَقِينُ بِالأَمْرِ الّذي يُرادُ بِهِ وبِوَحْدانِيّةِ رَبِّهِ.

وَأمّا في الثانية، فقد كان مُوقنًا مُنبّأً، وإنّما طُهِّرَ لِمَعْنًى آخَرَ؛ وهُوَ ما ذَكَرْناهُ مِنْ دُخُولِ حَضْرةِ القُدُسِ والصّلاةِ فيها، ولِقاءِ المَلِكِ القُدّوسِ، فغَسَلَهُ رُوحُ القُدُسِ بماءِ زَمْزَمَ الّتي هِيَ هَزْمةُ[4] رُوحِ القُدُسِ، وهَمْزةُ عَقِبِهِ لأبيه إسماعيل، وجِيءَ بِطَسْتٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمةً وإيمانًا، فأُفْرِغَ في قَلْبِهِ وقَدْ كانَ مُؤْمِنًا، ولَكِنّ اللهَ تَعالى قالَ: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١].

فإنْ قِيلَ: وكَيْفَ يَكُونُ الإيمانُ والحِكْمةُ في طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ، والإيمانُ عَرَضٌ، والأعْراضُ لا يُوصَفُ بِها إلّا مَحَلّها الّذي تَقُومُ بِهِ، ولا يَجُوزُ فيهِ[5] الِانْتِقالُ؛ لِأنّ الِانْتِقالَ مِنْ صِفةِ الأجْسامِ لا مِنْ صِفةِ الأعْراضِ؟

قُلْنا: إنَّما عَبَّر عَمّا كانَ في الطّسْتِ بِالحِكْمةِ والإيمانِ، كَما عَبّرَ عَن اللّبَنِ

(١) في (ف): «السماء».
(٢) بعده في (ف): «به».
(٣) في (ف): «كذلك».
(٤) في الحديث: «إن زمزم هَزْمة جبريل عليه السلام»، أي: ضربها برجله فنبع الماء. والهَزْمة: النقرة في الصدر، وفي التفاحة إذا غمزتها بيدك، وهزمت البئر: إذا حفرتها.
(٥) في (ف): «فيها».

الّذِي شَرِبَهُ، وأعْطى فضْلَهُ عُمَرَ بالعِلْمِ[١]، فكانَ تَأْوِيلُ ما أُفْرِغَ في قَلْبِهِ حِكْمةً وإيمانًا، ولَعَلّ الّذِي كانَ في الطّسْتِ كانَ ثَلْجًا وبَرَدًا كما ذكر في الحَدِيثِ الأوّلِ، فعَبّرَ عَنْهُ في المَرّةِ الثّانِيةِ بما يَؤُولُ إلَيْهِ، وعَبّرَ عَنْهُ في المَرّةِ الأُولى بصُورَتِهِ الّتِي رَآها؛ لِأنّهُ في المَرّةِ الأُولى كانَ طِفْلًا، فلَمّا رَأى الثّلْجَ في طَسْتِ الذَّهَبِ[٢] اعْتَقَدَهُ ثَلْجًا، حَتّى عَرَفَ تَأْوِيلَهُ [بَعْدُ][٣]. وفي المرة الثانية كان نبيًّا، فلمّا رأى طَسْتَ الذّهبِ مَمْلوءًا ثَلْجًا عَلِمَ التّأْوِيلَ لِحِينِهِ واعْتَقَدَهُ في ذَلِكَ المَقامِ حِكْمةً وإيمانًا، فكانَ لَفْظُهُ في الحَدِيثَيْنِ، على حَسَبِ اعْتِقادِهِ في المَقامَيْنِ.

وَكانَ الذَّهَبُ في الحالَتَيْنِ جَمِيعًا مُناسِبًا لِلْمَعْنى الّذِي قُصِدَ بِهِ؛ فإنْ نَظَرْت إلى لَفْظِ «الذّهَبِ» فمُطابِقٌ لِلْإذْهابِ؛ فإنّ اللهَ عَزّ وجَلّ أرادَ أنْ يُذْهِبَ عَنْهُ الرّجْسَ ويُطَهّرَهُ تَطْهِيرًا، وإنْ نَظَرْت إلى مَعْنى «الذّهَبِ» وأوْصافِهِ وجَدْته أنْقى شَيْءٍ وأصْفاهُ، يُقالُ في المَثَلِ: أنْقى مِن الذّهَبِ. وقالَتْ بَرِيرةُ في عائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْها[٤]: ما عِلِمتُ[٥] عَلَيْها إلّا ما يَعْلَمُ الصّائِغُ على الذّهَبِ الأحْمَرِ. وَقالَ حُذَيْفةُ في صِلةَ بنِ أشْيَمَ[٦]: إنّما قَلْبُهُ مِنْ ذَهَبٍ، وقالَ جَرِيرُ بنُ حازِمٍ في الخَلِيلِ بنِ أحْمَدَ: إنّهُ لَرَجُلٌ مِنْ ذَهَبٍ، يُرِيدُونَ: النّقاءَ مِن العُيُوبِ.

---

(١) أخرجه الشيخان، «فتح الباري»، كتاب التعبير: (١٢: ٤٢٠)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة (٣: ١٨٥٩-١٨٦٠).

(٢) في (ب): «ذهب».

(٣) ليس في (أ). وهو في حاشية (د).

(٤) أخرجه البخاري في تفسير سورة النور، «فتح الباري» (٨: ٤٨٧-٤٨٨).

(٥) في (ف): «أعلم».

(٦) صحابي، ينتسب إلى عديّ الرباب، ترجمه ابن الأثير في «أسد الغابة» (٣: ٣٤) عن أبي موسى المديني.

فقَدْ طابَقَ طَسْتُ الذّهَبِ ما أُرِيدَ بِالنّبِيّ ﷺ مِنْ نَقاءِ قَلْبِهِ.

ومِنْ أوْصافِ الذّهَبِ أيْضًا المُطابِقَةِ لِهَذا المَقامِ: ثِقَلُهُ ورُسُوبُهُ؛ فإنّهُ يُجْعَلُ في الزِّئبَقِ الّذِي هُوَ أثْقَلُ الأشْياءِ، فيَرْسُبُ، واللهُ سبحانه يَقُولُ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥]. وقالَ عُمَرُ بنُ الخَطّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إنّما ثَقُلَتْ مَوازِينُ المُحِقِّينَ في يَوْمِ القِيامَةِ؛ لِاتّباعِهِم الحَقَّ، وحُقَّ لِمِيزانٍ لا يُوضَعُ فيهِ إلّا الحقّ أنْ يَكُون ثَقِيلًا، وقالَ في أهْلِ الباطِلِ بِعَكْسِ هَذا. وقَدْ رُوِيَ: أنّهُ أُنْزِلَ عَلَيْهِ [الوَحْيُ][1] وهُوَ على ناقَتِهِ، فثَقُلَ عَلَيْها حَتّى ساخَتْ قَوائِمُها في الأرْضِ؛ فقَدْ تَطابَقَت الصّفةُ المَعْقُولةُ و[الصّفة][2] المَحْسُوسةُ.

ومِنْ أوْصافِ الذّهَبِ أيْضًا: أنّهُ لا تَأْكُلُهُ النّارُ، وكَذَلِكَ القُرْآنُ لا تَأْكُلُ النّارُ يَوْمَ القِيامةِ قَلْبًا وعاهُ، ولا بَدَنًا عَمِلَ بِهِ، قالَ النّبِيّ عليه السلام: «لَوْ كانَ القُرْآنُ في إهابٍ ثُمَّ طُرِحَ في النّارِ ما احْتَرَقَ»[3].

ومِنْ أوْصافِ الذّهَبِ المُناسِبَةِ لِأوْصافِ القُرْآنِ والوَحْيِ: أنّ الأرْضَ لا تُبْلِيهِ، وأنّ الثّرى لا يُذْرِيهِ[4]، وكَذَلِكَ القُرْآنُ لا يَخْلَقُ على كَثْرةِ الرّدّ، ولا يُسْتَطاعُ تَغْيِيرُهُ ولا تَبْدِيلُهُ.

ومِنْ أوْصافِهِ أيْضًا: نَفاسَتُهُ وعِزّتُهُ عِنْدَ النّاسِ، وكَذَلِكَ الحَقّ والقُرْآنُ عَزِيزٌ؛ قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: ٤١].

---

(١) ليس في (ب).

(٢) في (د)، (ج)، (ط): «والصفة المحسوسة».

(٣) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٤: ١٥٥). والإهاب: الجلد.

(٤) كذا في النسخ، ومن معاني الثرى: التراب والندى. وقد نقل صاحب «سبل الهدى والرشاد» هذا عن السهيلي: (٢: ٩٤)، وغيره فقال: «وأن الهواء لا يذريه».

فهَذا إذا نظَرْت إلى أوْصافِهِ ولَفْظِهِ، فإنْ نَظَرْت إلى ذاتِهِ وظاهِرِهِ، فإنّهُ زُخْرُفُ الدّنْيا وزِينَتُها، [وقَدْ فُتِحَ [بِالقُرْآنِ والوَحْيِ][١] على مُحَمّدٍ وأُمّتِهِ خَزائِنُ المُلُوكِ، وتَصِيرُ إلى أيديهم ذهَبها وفِضّتها، وجَمِيعُ زُخْرُفِها وزِينَتِها][٢]، ثُمّ وُعِدُوا بِاتّباعِ القُرْآنِ والوَحْيِ قُصُورَ الذّهَبِ والفِضّةِ في الجَنّةِ؛ قالَ عليه السلام: «جنّتانِ مِنْ ذَهَبٍ، آنِيَتُهُما وما فيهما مِنْ ذَهَبٍ»[٣]، وفي التّنْزِيلِ: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ ﴾ [الزخرف: ٧١]، و﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾ [الحج: ٢٣]، و[فاطر: ٣٣].

فكانَ[٤] ذَلِكَ الذَّهَبُ يُشْعِرُ بِالذَّهَبِ الّذِي يَصِيرُ[٥] إلَيْهِ مَن اتّبَعَ الحَقّ والقُرْآنَ، وأوْصافُهُ تُشْعِرُ بِأوْصافِ الحَقّ والقُرْآنِ، ولَفْظُهُ يُشْعِرُ بِإذْهابِ الرّجْسِ، كَما تَقَدّمَ، فهَذِهِ حِكَمةٌ[٦] بالِغةٌ لِمَنْ تَأمّلَ، واعْتِبارٌ صَحِيحٌ لِمَنْ تَدَبّرَ، والحَمْدُ لله.

وفي ذِكْرِ الطَّسْتِ أيضًا وحُرُوفِ اسْمِهِ حِكْمةٌ تَنْظُرُ إلى قَوْلِهِ تَعالى: ﴿ طسٓۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [النمل: ١]؛ [لأنَّ التّاءَ في «طست» بدَلٌ من سينٍ][٧].

---

(١) ليس في (أ).

(٢) مكانه في (أ) بعد قوله فيما بعد: «ولفظه يشعر بإذهاب الرجس كما تقدم».

(٣) أخرجه الشيخان، «فتح الباري»، تفسير سورة الرحمن: (٨: ٦٢٣-٦٢٤)، ومسلم، كتاب الإيمان: (١: ١٦٣).

(٤) في (أ)، (ب): «وكان».

(٥) في (ب): «يصل».

(٦) في (ب)، (د)، (ط): «حكم».

(٧) ليس في (ب)، (هـ)، (ط)، (ف).

ومما يُسأل عَنْهُ: هَلْ خُصّ هُوَ عليه السلامُ بِغَسْلِ قَلْبِهِ في الطَّسْتِ، أمْ فُعِلَ ذَلِكَ بِغَيْرِهِ مِن الأنْبياءِ قَبْلَهُ؟ ففي خَبَرِ التّابُوتِ والسّكِينةِ: أنّهُ كانَ فيهِ الطّسْتُ الذي[١] غُسِلَتْ فيها قُلُوبُ الأنْبياءِ عَلَيْهِم السّلامُ. ذَكَرَهُ الطّبَرِيّ[٢].

وقَد انْتَزَعَ[٣] بَعْضُ الفُقَهاءِ مِنْ حَدِيثِ الطّسْتِ ـ حَيْثُ جُعِلَ مَحَلًّا للحِكْمةِ ـ جَوازَ تَحْلِيةِ المُصْحَفِ بِالذّهَبِ، وهُوَ فِقْهٌ حَسَنٌ، وفي حَدِيثِ أبِي ذَرّ هَذا الذي قدَّمناه: متى عَلِم أنه نبيٌّ.

والحِكْمةُ في خاتَمِ النُّبوة على جِهة الاعتبار: أنه لمّا مُلِئ قَلْبُهُ حِكْمةً ويَقِينًا، خُتِمَ عَلَيْهِ كَما يُخْتَمُ على الوِعاءِ المَمْلُوءِ مِسْكًا أوْ دُرًّا، وأمّا وضْعُهُ[٤] عِنْدَ نُغْضِ[٥] كَتِفِهِ؛ فلأنّهُ[٦] مَعْصُومٌ مِنْ وسْوَسةِ الشّيْطانِ، [وذَلِكَ المَوْضِعُ مِنْهُ يُوَسْوِسُ الشّيْطانُ][٧] لابنِ آدَمَ.

رَوى مَيْمُونُ بنُ مِهْرانَ، عَنْ عُمَرَ بنِ عَبْدِ العَزِيزِ: أنّ رَجُلًا سَألَ رَبّهُ سنةً أنْ يُرِيَهُ مَوْضِعَ الشّيْطانِ مِنْهُ، فأُرِيَ جَسَدًا مُمَهًّى[٨] يُرى داخِلُهُ مِنْ خارِجِهِ، والشّيْطانُ في صُورةِ ضِفْدَعٍ عِنْدَ نُغْضِ كَتِفِهِ حِذاءَ قَلْبِهِ، لَهُ خُرْطُومٌ كَخُرْطُومِ[٩]

---

(١) في (ب)، (هـ): «التي غسلت فيها». وفي «تاج العروس»: «الطَّست: من آنية الصُّفر، أُنثى تُذكّر».
(٢) «تفسير الطبري» (٢: ٦١٢).
(٣) في (هـ): «استنبط».
(٤) في (ف): «وصفه».
(٥) في (أ): «كتفيه». والنُّغْض والنَّغض والنّاغض: أعلى الكتف. وقيل: هو العظم الرقيق الذي على طرفه.
(٦) في (أ)، (د): «فإنه».
(٧) سقط من (ب).
(٨) المُمهّى: المصفّى، مأخوذ من المها، وهو البِلَّور، وكل شيء صُفّي فهو مُمَهًّى، تشبيهًا به.
(٩) «كخرطوم» ليس في: (ف).

البَعُوضةِ، وقَدْ أدْخَلَهُ إلى قَلْبِهِ يُوَسْوِسُ، فإذا ذَكَرَ اللهَ تَعالى العبدُ خنَسَ[١].

فَصْلٌ

وكانَ رَدُّ حَلِيمةَ إيّاهُ إلى أُمِّهِ وهُوَ ابنُ خَمْسِ سِنِينَ وشَهْرٍ، فيما ذَكَرَ أبُو عُمَرَ، ثُمّ لَمْ تَرَهُ بَعْدَ ذَلِكَ إلّا مَرّتَيْنِ: إحْداهُما: بَعْدَ تَزْوِيجِهِ خَدِيجَةَ، جاءَتْهُ تَشْكُو إلَيْهِ السّنةَ، وأنّ قَوْمَها قَدْ أسْنَتُوا، فكَلّمَ لَها خَدِيجةَ، فأعْطَتْها عِشْرِينَ رَأْسًا مِنْ غَنَمٍ وبَكَراتٍ، والمَرّةَ الثّانِيةَ: يَوْم حُنَيْنٍ، وسَيَأْتِي ذِكْرُهُ[٢] إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

فَصْلٌ

وذَكَرَ النّورَ الّذِي رَأَتْهُ آمِنةُ حِينَ ولَدَتْهُ عَلَيْهِ السّلامُ، فأضاءَتْ لَها[٣] قُصُور الشّامِ، وذَلِكَ بِما فتَحَ اللهُ عَلَيْهِ مِنْ تِلْكَ البِلادِ، حَتّى كانَت الخِلافةُ فيها مُدّةَ بَنِي أُمَيّةَ، فاسْتَضاءَتْ تِلْكَ البِلادُ وغَيْرُها بِنُورِهِ عليه السلام، وكَذَلِكَ رَأى خالِدُ ابنُ سَعِيدِ بنِ العاصِي قَبْلَ المَبْعَثِ بِيَسِيرٍ نُورًا يَخْرُجُ مِنْ زَمْزَمَ، حَتّى ظَهَرَتْ لَهُ البُسْرُ في نَخِيلِ يَثْرِبَ، فقصّها على أخيه عمرو، فقالَ لَهُ: إنّها حفيرةُ عَبْدِ المُطّلِبِ، وإنّ هَذا النّورَ مِنْهُمْ، فكانَ ذَلِكَ سَبَبَ مُبادَرَتِهِ إلى الإسلامِ[٤].

فَصْلٌ

وذَكَرَ قَوْلَ رسولِ الله ﷺ: «ما مِنْ نَبِيّ إلّا وقَدْ رَعى الغَنَمَ». قِيلَ: وأنْتَ يا

---

(١) انظر «النهاية» لابن الأثير (٢/ ٨٣).

(٢) في غير (أ)، (هـ): «ذكرها».

(٣) في (ج)، (هـ): «له».

(٤) في (ف): «مبادرته للإسلام».

رَسُولَ اللهِ؟ قالَ: «وأنا»، وإنّما أرادَ ابنُ إسْحاقَ بِهَذا الحَدِيثِ: رِعايَتَهُ الغَنَمَ في بَنِي سَعْدٍ مَعَ أخِيهِ مِن الرَّضاعةِ، وقَدْ ثَبَتَ في الصَّحِيحِ أنّهُ رَعاها بِمَكّةَ أيْضًا على قَرارِيطَ لِأهْلِ مَكّةَ. ذَكَرَهُ البُخارِيّ[١].

وذَكَرَ البُخارِيُّ[٢] أيْضًا عَنْهُ أنّهُ عليه السلامُ قالَ: «ما هَمَمْت بِشَيْءٍ مِنْ أمْرِ الجاهِلِيّةِ إلّا مَرّتَيْنِ». ورُوِيَ أنّ إحْدى المَرّتَيْنِ كانَ في غَنَمٍ يَرْعاها هُوَ وغُلامٌ مِنْ قُرَيْشٍ، فقالَ لِصاحِبِهِ: اكْفِنِي أمْرَ الغَنَمِ حَتّى آتِيَ مَكّةَ، وكانَ بِها عُرْسٌ فيها لَهْوٌ وزَمْرٌ، فلَمّا دَنا مِن الدّارِ لِيَحْضُرَ ذَلِكَ، أُلْقِيَ عَلَيْهِ النّوْمُ، فنامَ حَتّى ضَرَبَتْهُ الشّمْسُ؛ عِصْمةً مِن اللهِ لَهُ. وفي المَرّةِ الأخرى قالَ لِصاحِبِهِ مِثْلَ ذَلِكَ، وأُلْقِيَ عَلَيْهِ النّوْمُ فيها كَما أُلْقِيَ عليهِ في المَرّةِ الأُولى. ذَكَرَ هَذا المَعْنى ابنُ إسْحاقَ في غَيْرِ روايةِ البكّائِيّ[٣].

وفي «غريب الحديث» للقُتَبِيِّ: «بُعِثَ مُوسى وهُوَ راعِي غَنَمٍ، وبُعِثَ داوُدُ وهُوَ راعِي غَنَمٍ، وبُعِثْت [أنا][٤] وأنا راعِي غَنَمِ أهْلِي بِأجْياد»[٥].

وإنّما جَعَلَ اللهُ هَذا في الأنبياءِ تَقْدِمةً لَهُمْ لِيَكُونُوا رُعاةَ الخَلْقِ، ولِتَكُونَ أُمَمُهُمْ رَعايا لهم، وقَدْ رَأى رَسُولُ اللهِ ﷺ أنّهُ يَنْزِعُ على قَلِيبٍ وحَوْلَها غَنَمٌ سودٌ، وغنمٌ عُفْرٌ. قال: «ثم جاء أبو بكر فنَزَعَ نَزْعًا ضَعِيفًا، واللهُ يَغْفِرُ لَهُ، ثُمّ جاءَ عُمَرُ، فاسْتَحالَتْ غَرْبًا ـ يَعْنِي: الدّلْوَ ـ فلَمْ أرَ عَبْقَرِيًّا يَفْرِي فَرِيَّهُ»، فأوّلَها النّاسُ

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإجارة، «فتح الباري» (٤: ٤٤١).

(٢) «التاريخ الكبير» للبخاري: (١: ١٣٠)، في ترجمة: محمد بن عبد الله بن قيس بن مخرمة أخي حكيم، من بني عبد مناف. (ج)

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك» برقم (٧٦١٩) من حديث علي بن أبي طالب. (ج)

(٤) عن (أ)، (ج).

(٥) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (ص: ٢٠٢)، رقم (٥٧٧) من طريق عبدة بن حزن (مختلف في صحبته). ولم نقف عليه في «غريب الحديث» لابن قتيبة. (ج)

في الخِلافةِ لِأبِي بَكْرٍ وعُمَر، ولَوْلا ذِكْرُ الغَنَمِ السّودِ والعُفْرِ لَبَعُدَت الرّؤْيا عَنْ مَعْنى الخِلافةِ والرّعايةِ؛ إذ الغَنَمُ السّودُ والعُفْرُ عِبارةٌ عَن العَرَبِ والعَجَمِ، وأكْثَرُ المُحَدّثِينَ لَمْ يَذْكُروا الغَنَمَ في هَذا الحَدِيثِ. ذَكَرَهُ البَزّارُ في «مُسْنَدِهِ»، وأحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ أيْضًا[١]، وبِهِ يَصِحُّ[٢] المَعْنى، واللهُ أعْلَمُ.

فَصْلٌ

وذَكَرَ كَوْنَ النّبِيّ ﷺ في كَفالةِ عمِّه يَكْلَؤه اللهُ ويَحْفَظُهُ. فمِنْ حِفْظِ اللهُ لَهُ في ذَلِكَ: أنّهُ كانَ يَتِيمًا لَيْسَ لَهُ أبٌ يَرْحَمُهُ، ولا أُمّ تَرْأمُهُ؛ لِأنّها ماتَتْ وهُوَ صَغِيرٌ، وكانَ عِيالُ أبِي طالِبٍ ضَعفًا[٣]، وعَيْشُهُمْ شَظَفًا، فكانَ يُوضَعُ الطّعامُ لَهُ ولِلصّبْيةِ مِنْ أوْلادِ أبِي طالِبٍ، فيَتَطاوَلُونَ إلَيْهِ ويَتَقاصَرُ هُوَ، وتَمْتَدّ أيْدِيهِمْ وتَنْقَبِضُ يَدُهُ، تكرّمًا مِنْهُ واسْتِحْياءً ونَزاهةَ نَفْسٍ وقَناعةَ قَلْبٍ، فيُصْبِحُونَ غُمْصًا رُمْصًا مُصْفَرّةً ألْوانُهُمْ، ويُصْبِحُ هُوَ عَلَيْهِ السّلامُ صَقِيلًا دَهِينًا كَأنّهُ في أنْعَمِ عَيْشٍ وأعَزِّ كِفايةٍ[٤]، لُطْفًا مِن اللهِ عَزّ وجَلّ بِهِ. كَذَلِكَ ذَكَرَهُ القُتبي في «غريب الحديث»[٥].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٥: ٤٥٥). وينزع: يستقي الماء باليد. والقليب: البئر. وعُفْر جمع أعفر، والأعفر من الغنم والظباء: الأبيض، وليس بالشديد البياض. والغرب: الدَّلو العظيمة. ويُضاف: أن عمر لما أخذ الدلو ليستقي عظُمَت في يده؛ لأن الفتوح كانت في عهده أكثر منها في زمن أبي بكر رضي الله عنهما. ومعنى استحالت: انقلبت من الصغر إلى الكبر. ويفري فريَّه: يأتي بالعجب في عمله أو في سقيه.

(٢) في (ب): «يتم».

(٣) كذا ضبط في (أ). وفي حاشيتها: «الضَّعَفُ: أن يكون الأَكَلة أكثر من الطعام»، وفي «تاج العروس»: «الضَّعف بالفتح، ويضم، وهما لغتانِ، والضم أقوى. ويُحرَّك.... ومعنى الكل: ضد القوة». وفي الحاشية أيضًا: «الشظف: يَبَسُ العيش وشدّته».

(٤) في (ب): «كفالة». هذا ويقال: كفاه مؤونته يكفيه كفاية: قام به.

(٥) «غريب الحديث» (١: ٣٨١).

فَصْلٌ

وذَكَرَ مَوْتَ أُمّهِ آمِنةَ بالأَبْواءِ، وهُوَ مَوْضِعٌ مَعْرُوفٌ بَيْنَ مَكّةَ والمَدِينةِ، وهُوَ إلى المَدِينةِ أقْرَبُ، كَأنّهُ سُمّيَ بِجَمْعِ بَوٍّ، وهُوَ جِلْدُ الحُوارِ المَحْشُوّ بالتّبنِ ونحوهِ[١]، وقِيلَ: سُمّيَ بِالأبْواءِ لِتَبَوّءِ السّيُولِ فيهِ، كَذَلِكَ[٢] ذُكِرَ عَنْ كَثِيرٍ. ذَكَرَهُ قاسِمُ بنُ ثابِتٍ.

وَفي الحَدِيثِ: أنّه ﷺ[٣] زارَ قَبْرَ أُمّـهِ بِالأبْـواءِ في ألْفِ مُقَنّـعٍ[٤]، فبَكى وأبْكى[٥]، وهَذا حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

وفي الصّحِيحِ أيْضًا أنّهُ قالَ: «اسْتَأْذَنْت رَبّي في زِيارةِ قَبْرِ أُمّي، فأذِنَ لِي، واسْتَأْذَنْته أنْ أسْتَغْفِرَ لَها، فلَمْ يَأْذَنْ لِي»[٦].

وفي «مُسْنَدِ البَزّارِ» مِنْ حَدِيثِ بُرَيْدَةَ: أنّهُ عليهِ السلامُ [حِينَ][٧] أرادَ أنْ يَسْتَغْفِرَ لِأُمّه، ضَرَبَ جِبْرِيلُ في صَدْرِهِ، وقالَ [لَهُ][٨]: لا تَسْتَغْفِرْ لِمَنْ ماتَ مُشْرِكًا، فرَجَعَ وهُوَ حَزِينٌ.

---

(١) بعده هنا في (هـ)، ورسم فوقه في (أ): «ما ذكره قاسم بن ثابت». وسيأتي ذلك في النسخ ومنها (أ)، بعد قوله: «كذلك ذكر عن كثير».

(٢) في (ب): «ذكر ذلك».

(٣) في غير (أ): «أن رسول الله».

(٤) أي: في ألف فارس مُغطًّى بالسلاح.

(٥) خرَّجه مسلم: (٢: ٦٧١)، وأبو داود: (٣: ٢١٨)، والنسائي: (٤: ٩٠)، وابن ماجه: (١: ٥٠١)، ولم ترد فيها جميعًا قوله: «في ألف مُقنَّع». وهي في «النهاية» لابن الأثير عن الهروي.

(٦) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب استئذان النبي ﷺ ربه عز وجل في زيارة قبر أمه، رقم (٩٧٦)، من حديث أبي هريرة رضيَ الله عنه. (ج)

(٧) ليس في (أ). وهذا الحديث من تتمة الحديث الذي قبله.

(٨) ليس في (هـ).

وَفي الحَدِيثِ زِيادةٌ في غَيْر الصّحِيحِ: أَنّهُ سُئِلَ عَنْ بُكائِهِ، فقالَ: «ذَكَرْت ضَعْفَها وشِدّةَ عَذابِ اللهِ»، إنْ كان صحّ هذا.

وَفي حَدِيثٍ آخَرَ ما يُصَحّحُهُ؛ وهُوَ أنّ رَجُلًا قالَ لَهُ: يا رَسُولَ اللهِ، أَيْنَ أَبي؟ فقالَ: «في النّارِ». فلَمّا ولّى الرَّجُلُ، قالَ عَلَيْهِ السّلامُ: «إنّ أَبي وأباكَ في النّارِ»[١]، ولَيْسَ لَنا أَنْ نَقُولَ نَحْنُ هَذا في أَبَوَيْهِ ﷺ؛ لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السّلامُ: «لا تُؤْذُوا الأحْياءَ بِسَبِّ الأمْواتِ»[٢]، واللهُ عَزّ وجَلّ يَقُولُ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ...﴾ الآية [الأحزاب: ٥٧].

وإنّما قالَ النبي عليهِ السلامُ لِذَلِكَ الرّجُلِ هَذِهِ المَقالَةَ؛ لِأَنّهُ وجَدَ في نَفْسِهِ، وقَدْ قِيلَ: إنّهُ قالَ لهُ: أَيْنَ[٣] أبُوك أَنْتَ؟ فحِينَئِذٍ قالَ ذَلِكَ، وقَدْ رَواهُ مَعْمَرُ بنُ راشِدٍ[٤] بِغَيْرِ هَذا اللّفْظِ، فلَمْ يَذْكُرْ أَنّهُ قالَ لَهُ: «إنّ أَبي وأباكَ في النّارِ»، [ولَكِنْ ذَكَرَ أَنّهُ قالَ لَهُ: «إذا مَرَرْت بِقَبْرِ كافِرٍ، فبَشّرْهُ بِالنّارِ»][٥].

ورُوِيَ حَدِيثٌ غَرِيبٌ لَعَلّهُ أَنْ يَصِحّ، وجَدْتُهُ بِخَطّ جَدّي أَبي عُمَر أَحْمَدَ ابنِ أَبِي الحَسَنِ[٦] القاضِي رَحِمَهُ اللهُ بِسَنَدٍ فيهِ مَجْهُولُونَ، ذَكَرَ أَنّهُ نَقَلَهُ مِنْ كِتابٍ انْتُسِخَ مِنْ كِتابِ مُعَوّذِ بنِ داوُدَ [بنِ مُعَوّذٍ][٧] الزّاهِدِ، يَرْفَعُهُ إلى أَبِي الزِّنادِ، عَنْ

---

(١) خرَّجه أبو داود في كتاب «السنة» (٤: ٢٣٠).

(٢) خرَّجه الترمذي في أبواب البر، «عارضة الأحوذي» (٨: ١٥١-١٥٢)، والإمام أحمد في «مسنده»، عن ابن عباس رضي الله عنه: (١: ٣٠٠)، والمغيرة بن شعبة: (٤: ٢٥٢).

(٣) في (ج): «وأين».

(٤) «الجامع» له: (١٠: ٤٥٤) برقم (١٩٦٨٧) عن الزهري مرسلًا. (ج)

(٥) سقط من (أ).

(٦) في (ب): «الحسين». وانظر: «المطرب» لابن دحية: (ص: ٢٣٠).

(٧) ليس في (هـ).

عُرْوةَ، عَنْ عائِشةَ، أخْبَرَتْ أنّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سَألَ رَبّهُ أنْ يُحْيِيَ أبَوَيْهِ، فأحْياهُما لَهُ، وآمَنا بِهِ، ثُمّ أماتَهُما، واللهُ قادِرٌ على كُلّ شَيْءٍ، ولَيْسَ تَعْجِزُ رَحْمَتُهُ وقُدْرَتُهُ عَنْ شَيْءٍ، ونَبِيّهُ عَلَيْهِ السّلامُ أهْلٌ أنْ يَخُصّهُ بِما شاءَ مِنْ فضْلِهِ، ويُنْعِمَ عَلَيْهِ بِما شاءَ مِنْ كَرامَتِهِ صَلَواتُ اللهِ عَلَيْهِ وسَلّمَ[١].

وفاةُ عبدِ المُطّلب

وقَوْلُ صَفِيّةَ: [من الوافر]

فَفاضَتْ عِنْـدَ ذَلِكُمُ دُمُوعِي على خَدّي كَمُنْحَـدِرِ الفَرِيدِ

يُرْوى: «كَمُنْحَدِرِ» بِكَسْرِ الدّالِ، أيْ: كالدّرّ المُنْحَدِرِ، و«مُنْحَدَرِ» بِفَتْحِ الدّالِ، فيَكُونُ التّشْبِيهُ[٢] راجِعًا لِلْفَيْضِ، فعلى رِوايةِ الكَسْرِ: شَبّهَت الدّمْعَ بِالدّرّ الفَرِيدِ، وعلى رِوايةِ الفَتْحِ: شَبّهَت الفَيْضَ بِالانْحِدارِ.

وَقَوْلُها: «أبيك الخَيْرِ» أرادَتْ: الخَيِّرَ فخَفّفَتْ، كَما يُقالُ: هَيِّنٌ وهَيْن، وفى التنزيل: ﴿ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴾ [الرحمن: ٧٠].

وكانَ اسْمُ أُمّ الدّرْداءِ: خَيْرةَ بِنْتَ أبِي حَدْرَدٍ، وكَذَلِكَ أُمّ الحَسَنِ بنُ أبِي

---

(١) ذكر ابن كثير في «تفسيره» عند آية التوبة ١١٤ هذا الحديث، وقال: إن الخطيب البغدادي رواه في كتاب «السابق واللاحق» بسند مجهول، وأن السهيلي رواه في «الروض» بسند فيه جماعة مجهولون. ونقل عن الحافظ ابن دحية أن هذا الحديث موضوع يردّه القرآن والإجماع، كما ذكر ابن كثير أن أبا عبد الله القرطبي قال: في هذا استدلال بما حاصله أن هذه حياة جديدة، كما رجعت الشمس بعد غيبوبتها فصلّى عليٌّ العصر، وهو حديث ثابت. وعقب ابن كثير بقوله: «وهذا كله متوقِّف على صحة الحديث».

وانظر «تفسير ابن كثير» (٤: ١٧١٥) بتحقيقنا، و«التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة» للقرطبي: (١٤: ١٦).

(٢) في (ف): «الشبه».

الحَسَنِ البَصْرِيّ، اسْمُها أيضًا: خَيْرةُ، فهَذا مِن المُخَفَّفِ، ويَجُوزُ أنْ يَكُونَ «الخَيْرُ» ههُنا هُوَ ضِدّ الشّرّ؛ جَعَلَتْهُ كُلّهُ خَيْرًا على المُبالَغةِ، كَما تَقُولُ: ما زَيْدٌ إلّا عِلْمٌ أوْ حُسْنٌ، وما أنْتَ إلّا سَيْرٌ، وهُوَ مَجازٌ حَسَنٌ، فعلى هَذا الوَجْهِ لا يُثَنّى ولا يُجمَع ولا يُؤنّث، فيقال: خَيْرة.

وَقَوْلُها: «ولا شَخْتِ المَقامِ ولا سَنِيدِ» الشَّخْتُ: ضِدّ الضّخْمِ، تَقُولُ: لَيْسَ كَذَلِكَ، ولَكِنّهُ ضَخْمُ المَقامِ ظاهِرُهُ. والسّنِيدُ: الضّعِيفُ الّذِي لا يَسْتَقِلّ بِنَفْسِهِ حَتّى يُسندَ رَأْيَهُ إلى غَيْرِهِ.

وَقَوْلُها: «خَضارِمةٍ مَلاوِثةٍ». [مَلاوِثةٌ][1]: جَمْعُ مِلْواثٍ، مِن اللّوْثةِ، وهِيَ القُوّةُ [والخُشونة][2]، كَما قالَ المُكَعْبَرُ[3]: [من البسيط]

عِنْدَ الحَفيظَةِ إنْ ذُو لُوثَةٍ لانا

وَقَدْ قِيلَ: إنّ اسْمَ اللّيْثِ مِنْهُ أُخِذَ[4]، إلّا أنّ واوَه انْقَلَبَتْ ياءً؛ لأنّهُ فَيْعَلٌ، فخُفّفَ كَما تَقَدّمَ: في هَيِّنٍ وهَيْنٍ، ولَيِّنٍ ولَيْنٍ.

وَقَوْلُ بَرّةَ: [من المتقارب]

---

(١) عن (د).

(٢) ليس في (ب)، (ف).

(٣) كذا ضبط في (أ) بفتح الباء، ونص عليه في «تاج العروس»، ويُروى بكسرها. وفي (هـ): «المعكبر»، بتقديم العين. والبيت أحد سبعة أبيات صُدِّرت بها «الحماسة»، ونسبها صاحبها إلى بعض شعراء بلعنبر، وقد سماه التبريزي: قريط بن أنيف، وفي «التنبيه» لابن جني أنه أبو الغول الطُّهَوي. وصدره كما في «الحماسة بشرح المرزوقي» (١: ٢٥):

إذَنْ لقام بنصري معشرٌ خُشنٌ

(٤) صاحب هذا القول هو كُراع، قال في «تاج العروس»: «وما زعمه كراع ذكره السهيلي في «الروض»، وصوّبه جماعة».

أتَتْهُ المَنايا فلَمْ تُشْــوِهِ

أيْ: لَمْ تُصِب الشّوى[١]، بَلْ أصابَت المَقْتَلَ، [يُقال: أشْوتْ؛ أي: أصابتِ الشَّوى ولم تُصِب المقتل][٢]، وقَدْ تَقَدّمَ في حَدِيثِ عَبْدِ المُطّلِب وضَرْبِهِ بالقِداحِ على عَبْدِ اللهِ: وكانَ يرى أنّ السّهْمَ إذا خَرَجَ على غَيْرِهِ أنّهُ قَدْ أُشْوِيَ»، أيْ: قَدْ أُخْطِئَ[٣] مَقْتَلُهُ؛ أيْ: مقتل عبد المطلب أو ابنه، ومَنْ رَواهُ: «أشْوى» بِفَتْحِ الواوِ، فالسّهْمُ هُوَ الّذِي أشْوى وأخْطَأ، وبِكِلا الضّبْطَيْنِ[٤] وجَدْتُه، ويُقالُ أيْضًا: أشْوى الزّرْعُ: إذا أفْرَكَ[٥]. فالأوّلُ مِن الشّوى، وهَذا مِن الشّيِّ بِالنّارِ، قالَهُ أبُو حَنِيفةَ.

وَقَوْلُ عاتِكةَ: «ومِرْدى المُخاصِمِ»، المِرْدى: مِفْعَلٌ مِن الرّدى، وهُوَ الحَجَرُ الّذِي يَقْتُلُ مَنْ أُصِيبَ بِهِ، وفي المَثَلِ: «كُلُّ ضَبٍّ عِنْدَهُ مِرْداتُهُ»[٦].

وَقَوْلُها: «وفٍ»[٧]، أيْ: وفيٌّ، وخُفّفَ للضرورة.

وقولها: «عُذْمُلِيّ»؛ العُذْمُلِيّ: الشّدِيدُ. واللُّهام: فُعال، مِنْ: لَهِمْتُ الشّيْءَ أَلْهَمُهُ: إذا ابْتَلَعْتَه، قالَ الرّاجِزُ[٨]: [من الرجز]

---

(١) أشواه الرامي: أصاب شواه؛ أي: أطرافه.

(٢) سقط من (أ)، (ف).

(٣) كذا في (أ)، (ج)، وفي غيرهما: «أخطأ».

(٤) في (ب): «الصيغتين».

(٥) في «تاج العروس»: «وأشوى القمح: أفركَ وصلح أن يُشوى». وقال في فرك: «وأفرك الحَب؛ حان أن يُفرَك».

(٦) «مجمع الأمثال» للميداني: (٢: ١٣٢). والمرداة: الحجر الذي يُرمى به، والضب قليل الهداية فلا يتخذ جُحره إلا عند حجر يكون علامةً له، فمن قصده فالحجر الذي يُرمى الضب به يكون بالقرب منه، فمعنى المثل: لا تأمن الحِدثان والغِير؛ لأنّ الآفات مُعدّة مع كل أحد.

(٧) كذا رسم فيما عدا: (د)، وفيها: «وفي».

(٨) رؤبة، «ديوانه» (ص: ١٥٩)، وهو في «الحيوان» (٣: ٢٦٥)، و«الخزانة» (٢: ٢٦٦)، =

كالحُوتِ لا يُرْوِيهِ شَيْءٌ يَلْهَمُهْ   يُصْبِحُ عَطْشانًا وفي البَحْرِ فمُهْ

ومنه سُمِّي الجيش: لُهامًا.

وقَوْلُها: «على جَحْفَلٍ» جَعَلَتْهُ كالجَحْفَلِ؛ أيْ: يَقُومُ وحْدَهُ مَقامَهُ، والجَحْفَلُ: لَفْظٌ مَنْحُوتٌ مِنْ أصْلِينَ، مِنْ: جَحَفَ وجَفَلَ؛ وذَلِك أنّهُ يَجْحَفُ ما يَمُرُّ عَلَيْهِ؛ أيْ: يَقْشُرُهُ ويَجْفِلُ، أيْ يَقْلَعُ، ونَظِيرُهُ نَهْشَلٌ: الذِّئْبُ، هُوَ عِنْدَهُمْ مَنْحُوتٌ مِنْ أصْلَيْنِ، مِنْ: نَهَشْت العظمَ[1] ونَشَلْته.

وعاتِكةُ: اسْمٌ مَنْقُولٌ مِن الصّفاتِ، يُقالُ: امْرَأةٌ عاتِكةٌ، وهِيَ المُصَفّرةُ لِبَدَنِها[2] بِالزّعْفَرانِ والطّيبِ. وقالَ القُتَبِيّ: عَتَكَتِ القَوْسُ؛ إذا قَدُمَتْ [واحمرّتْ][3]، وبِهِ[4] سُمّيَت المَرْأةُ. والقَوْلُ الأوّلُ[5] قَوْلُ أبِي حَنِيفةَ.

وَقَوْلُ أرْوى: [من الوافر]

ومَعْقِل مالِكٍ ورَبِيع فِهْرٍ

تُرِيدُ: بَنِي مالِكِ بن النَّضر بن كِنانةَ.

وقَوْلُها: «بِذِي رُبَدٍ» تُرِيدُ: سَيْفًا ذا طَرائِقَ. والرّبَدُ: الطّرائِقُ.

وَقالَ صَخْرُ الغَيِّ[6]: [من المنسرح]

= و«الهمع» (١: ١٣١).

(١) في (ف): «اللحم».

(٢) في (أ): «ليديها». ونقل الزبيدي عن السهيلي في «التاج»: «اسم منقول من الصفات، يقال: امرأة عاتكة، وهي المُصْفَرّة من الزعفران».

(٣) عن (أ). ولفظ ابن قتيبة كما في «تاج العروس»: «من عَتَكَت القوسُ: إذا احمرَّت».

(٤) في (ج): «وبها».   (٥) بعده في (ف): «هو».

(٦) شاعر هُذلي جاهلي صعلوك. والبيت في «اللسان» (بوا، رهب، ربد، مها، خشب).

وَصارِمٌ أُخْلِصَتْ خَشِيبَتُهُ أَبْيَضُ مَهْوٌ فــي مَتْنِهِ رُبَدُ

وَقَوْلُ عاتِكَةَ: [من المتقارب]

تَبَنّــكَ في بــاذِخٍ بَيْتُهُ

أيْ: [تَبَنّكَ بَيْتُهُ في][1] باذِخٍ مِن الشّرَفِ، ومَعْنى تَبَنّكَ: تَأصّلَ، مِن البُنْكِ، وهُوَ: الأَصْلُ. والبُنْكُ أيْضًا: ضَرْبٌ مِن الطِّيبِ، وهُوَ أيْضًا عُودُ السوس.

وَقَوْلُهُ: «فأشارَ إلَيْهِنّ برَأْسِهِ وقَدْ أصْمَتَ» بفَتْحِ الهَمْزَةِ والمِيمِ، هَكَذا قَيّدَهُ الشّيْخُ عَنْ أبِي الوَلِيدِ، ويُقالُ: صَمَتَ وأصْمَتَ، وسَكَتَ وأسْكَتَ؛ بِمَعْنًى واحِدٍ.

وذَكَرَ [شِعْرَ][2] حُذَيْفَةَ بنِ غانِمٍ العَدَوِيَّ، وهُوَ والِدُ أبِي جَهْمِ بنِ حُذَيْفَةَ، واسْمُ أبِي جهم: عبيد، وهو الذي أهدى الخَميصةَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فنظَرَ إلى عَلَمِها... الحَدِيث[3]. وقَدْ رُوِيَ أيْضًا هَذا الحَدِيثُ على وجْهٍ آخَرَ؛ وهُوَ أنّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أُتِيَ بخَمِيصَتَيْنِ، فأعْطى إحْداهُما أبا جَهْمٍ، وأمْسَكَ الأُخْرى، وفيها عَلَمٌ، فلَمّا نَظَرَ إلى عَلَمِها في الصّلاةِ أرْسَلَها إلى أبِي جَهْمٍ، وأخَذَ الأُخْرى بَدَلًا مِنْها، [هَكَذا رَواهُ الزُّبَيْرُ][4].

وأُمّ أبِي جَهْمٍ: يُسَيرةُ بنت عبد الله بن أذاة بن رِياحٍ، وابنُ أذاةَ: هُوَ خالُ أبِي قُحافةَ، وسَيَأْتِي نَسَبُ أُمّه.

---

(١) ليس في (ب).

(٢) ليس في (أ).

(٣) أخرجه الشيخان: البخاري في كتاب الصلاة والأذان: (١٠: ٤٨٢). انظر: «فتح الباري» (٢: ٢٣٤)، ومسلم في كتاب المساجد: (١: ٣٩١-٣٩٢). والخميصة: ثوب خز أو صوف مُعلّم، وقيل: لا تُسمّى خميصة حتى تكون سوداء مُعلّمة. والعَلَمُ: رسم الثوب ورقمُه.

(٤) ليس في (ب). هذا، وانظر «أسد الغابة» (٦: ٥٨).

وقَدْ قِيلَ: إنّ الشّعْرَ لَحُذافةَ بنِ غانِمٍ، وهُوَ أخُو حُذَيْفةَ والِدُ خارِجةَ بنِ حُذافةَ، ولَهُ يَقُولُ فيه: أخارِجُ إنْ أهْلِكْ[1].

وفي الشّعْرِ: «غَيْرِ نِكْسٍ ولا هَذْرِ[2]» النِّكْسُ مِن السّهامِ: الّذِي نُكّسَ في الكِنانةِ لِيُمَيّزَهُ الرّامِي، فلا يَأْخُذُهُ لِرَداءَتِهِ. وقِيلَ: الّذِي انْكَسَرَ أعْلاهُ، فنُكّسَ ورُدّ أعْلاهُ أسْفَلَهُ، وهو غير جيِّدٍ للرَّمي.

وقوله: «لا تَبورُ ولا تَحرّى»، أيْ: لا تَهْلِكُ ولا تنْقُصُ، ويُقالُ لِلْأفْعى: حارِيةٌ؛ لِرِقّتِها، وفي الحَدِيثِ: ما زالَ جِسْمُ أبِي بَكْرٍ يَحْرِي حُزْنًا على رَسُولِ اللهِ ﷺ، أيْ: يَنْقُصُ لَحْمُهُ حَتّى ماتَ[3]. والإحْرِيّاءُ: السّيرةُ، وهِيَ إفْعِيلاءُ مِن الحرّ، ولَيْسَ لَها نَظِيرٌ في[4] الأبنِيةِ إلّا الإهجيراء في معنى الهِجِّيرى[5].

وَفيها قَوْلُهُ: [من الطويل]

ولَيْسَ بِها إلّا شُيُوخُ بَنِي عَمْرِو

يُرِيدُ: بَنِي هاشِمٍ؛ لِأنّ اسْمَهُ عَمْرٌو.

وَفيها: «غَيْرَ عُزّلٍ»، [وهُوَ: جَمْعُ أعْزَلَ][6]، ولا يُجْمَعُ أفْعَل على فُعْلٍ[7]،

---

(١) سيأتي في: (١: ١٧٧ من «السيرة» برواية أخرى، هي: «فخارج إمّا أهلكن...».

(٢) كذا في (أ)، (ب): «هَذْر»، بالدال مضبوطًا. والهَذْر: الساقط، وقوم هَدَرة ـ وكعِنَبةٍ وهمزة ـ: ساقطون ليسوا بشيءٍ.

(٣) خرَّجه الحاكم في «المستدرك» (٣: ٦٣). وانظر: «غريب الحديث» للخطابي: (٢: ٤٩-٥٠).

(٤) في (ف): «من».

(٥) الهِجِّيرى والإهجيرى بمعنى: الدأب والعادة والديدن. «لسان العرب» (هجر). (ج)

(٦) سقط من (ب).

(٧) في (ب): «ولا يُجمَع أفعَل إلّا على فُعْل». وكلٌّ صواب، ففُعْل بضمٍّ فسكونٍ يطّرد في جمع أفعَل فعلاة وصفين. فأما فُعَّل بضم فعين مشددة مفتوحة، فيطّرد في جمع فاعل وفاعل وصفين.

ولَكِنْ جاءَ هَكَذا؛ لِأنّ الأعْزَلَ في مُقابَلةِ الرّامِحِ(١)، [وقَدْ يَحْمِلُونَ الصّفةَ على ضِدّها، كَما قالُوا: عَدُوّةٌ بتاءِ التّأْنيثِ، حَمْلًا على صَدِيقةٍ](٢)، وقَدْ يَجُوزُ أنْ يَكُونَ أجْراهُ مُجْرى حُسّرٍ، جَمْعُ حاسِرٍ؛ لِأنّهُ قَرِيبٌ مِنْهُ في المَعْنى.

وَقَوْلُهُ: «وسِرْنا تِهامِي البِلادِ» مُخَفّفًا مِثْلَ يَمانٍ(٣)، والأصْلُ في يَمانٍ: يَمَنِيٌّ، فخَفّفُوا الياءَ، وعَوّضُوا مِنْها ألِفًا، والأصْلُ في تَهام: تِهامِيٌّ بِكَسْرِ التّاءِ؛ لِأنّهُ مَنْسُوبٌ إلى تِهامةَ، ولَكِنّهُمْ حَذَفُوا إحْدى الياءَيْنِ، كَما فعَلُوا في يَمانٍ، وفَتَحُوا التّاءَ مِنْ تَهام لَمّا حَذَفُوا الياءَ مِنْ آخِرِهِ؛ لِتَكُونَ الفَتْحةُ فيهِ كالعِوَضِ مِن الياءِ، كَما كانَت الألِفُ في يَمانٍ، وكَذَلِكَ كانتِ الألِفُ في شَآم بفَتْحِ الهَمْزةِ، وألِفٍ بَعْدَها عِوَضًا مِن الياءِ المَحْذُوفةِ، فإنْ شَدّدْت الياءَ مِنْ شَآمٍ قُلْت: شَأْمِيّ بِسُكُونِ الهَمْزةِ، وتَذْهَبُ الألِف التي كانتْ عِوضًا من الياءِ؛ لِرُجُوعِ الياءِ المَحْذُوفةِ، ولا تَقُولُ في غَيْرِ النّسَبِ: شَآمٌ بِالفَتْحِ والهَمْزِ، ولا في النّسَبِ إذا شددت الياءَ: شَأْمِيّ.

وسَأَلْت الأُسْتاذَ أبا القاسِمِ بنَ الرّمّاكِ(٤) - وكانَ إمامًا في صَنْعةِ العَرَبِيّةِ - عَن البَيْتِ الّذِي أمْلاهُ أبُو عَلِيّ في «النّوادِرِ»(٥): [من الوافر]

فَما اعْتاضَ المُفارِقُ مِنْ حَبِيبٍ ... ولَوْ يُعْطى الشّآمَ مَعَ العِراقِ

فَقالَ: مُحْدَثٌ، ولَمْ يَرَهُ حُجّةً. وكَذَلِكَ وجَدْتُ في شِعْرِ حَبِيبٍ: الشّآم بِالفَتْحِ [كَما في هَذا البَيْتِ](٦). ولَيْسَ بِحُجّةٍ أيْضًا.

---

(١) في حاشية (أ): «الرامح: الذي له رمح، والأعزل ضده».
(٢) ليست في (ب)، (ج)، (هـ).
(٣) في (ج): «يماني». وفي سائر النسخ: «يمانيًا».
(٤) انظر تعريفنا به في مقدمة التحقيق (١/ ٣١).
(٥) «الأمالي» لأبي علي القالي: (١: ١٦٧). (ج)
(٦) عن (أ)، (د).

وَقَوْلُهُ: [من الطويل]

بِأَمِنِهِ حَتّى خاضَتِ العِيرُ في البَحْرِ

حَذْفُ الياءِ من هاءِ الكنايةِ ضَرُورةٌ، كَما أَنْشَدَ سِيبَوَيْهِ[1]: [من الطويل]

سَــأَجْعَلُ عَيْنَيْهِ لِنَفْسِهِ مَقْنَعا

في أَبْياتٍ كَثِيرةٍ أَنْشَدَها سِيبَوَيْهِ، وهَذا مَعَ حَذْفِ الياءِ والواوِ وبَقاءِ حَرَكةِ الهاءِ، فإِنْ سُكِّنَت الهاءُ بَعْدَ الحَذْفِ، فهُوَ أَقَلّ في الِاسْتِعْمالِ مِنْ نَحْوِ هَذا، وأَنْشَدُوا: [من الطويل]

وَنِضْوايَ مُشْتاقانِ لَهُ أَرِقانِ

وَهَذا الّذِي هُوَ أَقلُّ في القِياسِ أَقْوى؛ لِأَنّهُ مِنْ بابِ حَمْلِ الوَصْلِ على الوَقْفِ، نَحْو قَوْلِ الرّاجِزِ: [من الرجز]

لَمّا رَأى أنْ لا دَعَهْ ولا شِبَعْ

وَمِنْهُ في التّنْزِيلِ كَثِيرٌ، نَحْو: إِثْباتِ هاءِ السّكْتِ في الوَصْلِ[2]، [وإِثْباتِ الأَلِفِ مِنْ «أنا»][3]، وإِثْباتِ أَلِفِ الفَواصِلِ[4]، نَحْو: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا﴾ [الأحزاب: ١٠]، وهَذا الّذِي ذَكَرَهُ سِيبَوَيْهِ مِن الضَّرُورةِ في هاءِ الإِضْمارِ إِنّما هُوَ

---

(١) لمالك بن حُرَيم ـ ويُروى ابن خُزَيم ـ وصدره:

فإن يكُ غثًّا أو سمينًا فإنني

والبيت في «الكتاب» (١: ٢٨)، وانظر حكم حذف الواو والياء في «الإقناع» (١: ٤٩٦) وما بعدها.

(٢) «الإقناع» (١: ٤٩٤).

(٣) سقط من (أ). وفي (ب): «مع أنا». انظر: «الإقناع» (٢: ٦١٠-٦١١).

(٤) في (أ): «الألف في الفواصل». وانظر: «الإقناع» (٢: ٧٣٦).

إذا تَحرّكَ ما قَبْلَها، نَحْو: بِهِ ولَهُ، ولا يَكُونُ في هاءِ المُؤَنّثِ البَتّةَ؛ لِخَفّةِ الألِفِ، فإنْ سَكَنَ ما قَبْلَ الهاءِ ـ نَحْو: فيهِ وبَنِيهِ ـ كانَ الحذْفُ أحسَنَ من الإثباتِ.

فإن قلت: فقَدْ قَرَأ عِيسى بنُ مِينا(١): ﴿نُصْلِهِ﴾ [النساء: ١١٥]، و﴿يُؤَدِّهِ﴾ [آل عمران: ٧٥]، و﴿نُؤْتِهِ﴾(٢) [آل عمران: ١٤٥]، و﴿أَرْجِه﴾ [الأعراف: ١١١]، في اثني عشر موضعًا بحذف الياء، وقبل الهاءِ مُتَحَرّكٌ، فكَيْفَ حَسُنَ هَذا؟

قُلْنا: إنّ ما قَبْلَ الهاءِ في هَذِهِ المَواضِعِ ساكِنٌ، وهُوَ الياءُ مِنْ: نُصْلِيه، ويُؤَدّيه، ويُؤْتِيه، ولَكِنّهُ حُذِفَ لِلْجازِمِ، فمَنْ نَظَرَ إلى اللّفْظِ، وأنّ ما قَبْلَ الهاءِ مُتَحَرّكٌ، أثْبَتَ الياءَ، كَما أثْبَتَها في: بِهِ ولَهُ، ومَنْ نَظَرَ إلى الكَلِمةِ قَبْلَ دُخُولِ الجازِمِ، رَأى ما قَبْلَ الهاءِ ساكِنًا(٣)، فحَذَفَ الياءَ، فهُما وجْهانِ حَسَنانِ بِخِلافِ ما تَقَدّمَ.

وَذُكِرَ في هَذا الشّعْرِ: «وأسْعَدُ قادَ النّاسَ» وهُوَ أسْعَدُ أبُو حَسّانَ بن أسْعَدَ، وقَدْ تَقَدّمَ في التّبابعةِ(٤)، وكَذَلِكَ أبُو شَمِرٍ، وهُوَ شَمِرٌ الّذِي بَنى سَمَرْقَنْدَ، وأبُوهُ: مالِكٌ، يُقالُ لَهُ: الأمْلُوكُ، ويَحْتَمِلُ أنْ يَكُونَ أرادَ أبا شَمِرٍ الغَسّانيّ والد الحارِثِ بنِ أبِي شِمْرٍ.

وَعَمْرُو بنُ مالِكٍ الّذِي ذُكِرَ أحْسَبُهُ عَمْرًا ذا الأذْعارِ، وقَدْ تَقَدّمَ في التبابعة(٥)، وهُوَ مِنْ مُلُوكِ اليَمَنِ، وإنّما جَعَلَهُمْ مَفْخَرًا لِأبِي لَهَبٍ؛ لِأنّ أُمّهُ خُزاعِيّةٌ مِنْ سَبَأٍ، والتّبابِعةُ كُلّهُمْ مِنْ حِمْيَرَ بنِ سَبَأ، وقَدْ تَقَدّمَ الخِلافُ في خُزاعةَ.

---

(١) هو أبو موسى قالون، قارئ أهل المدينة، صاحب نافع، تُوفِّي في سنة ٢٢٠هـ. انظر: «الإقناع» لابن الباذش: (١: ٥٨-٥٩).

(٢) عن (هـ).

(٣) في (د): «رأى أن ما قبل الهاء ساكن».

(٤) انظر: (١/ ٢٠٣).

(٥) انظر: (١/ ١٩٨).

وَأبُو جَبْرٍ[١] الّذِي ذَكَرَهُ في هَذا الشّعْرِ: مَلِكٌ مِنْ مُلُوكِ اليَمَنِ، ذَكَرَ القُتَبِيّ أنّ سُمَيّةَ أُمّ زِيادٍ كانَتْ لِأبِي جَبْرٍ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ اليَمَنِ، دفعها إلى الحارث بنِ كَلَدةَ المُتَطَبّب في طِبٍّ طَبَّهُ.

وَذَكَرَ وِلايةَ العَبّاسِ السّقايةَ، وقالَ: «كانَ مِنْ أحْدَثِ إخْوَتِهِ سِنًّا»، وكَذَلِكَ قالَ في صِفةِ النّبِيّ ﷺ: «كانَ مِنْ أفْضَلِ قَوْمِهِ مُرُوءةً»، وهَذا مِمّا مَنَعَهُ النّحْوِيّونَ أنْ يُقالَ: زَيْدٌ أفْضَلُ إخْوَتِهِ، ولَيْسَ بِمُمْتَنِعٍ، وهُوَ مَوْجُودٌ في مَواضِعَ كَثِيرةٍ مِنْ هَذا الكِتابِ وغَيْرِهِ، وحَسَنٌ؛ لِأنّ المَعْنَى: زَيْدٌ يَفْضُلُ إخْوَتَهُ، أوْ يَفْضُلُ قَوْمَهُ؛ ولِذَلِكَ ساغَ[٢] فيهِ التّنْكِيرُ، وإنّما الّذِي يَمْتَنِعُ بِإجْماعٍ إضافةُ أفْعَلَ إلى التّثْنِيةِ، مِثْلُ أنْ تَقُولَ: هُوَ أكْرَمُ أخَوَيْهِ، إلّا أن تقول: الأخَوَيْنِ، بغير إضافةٍ.

فَصْلٌ

وذُكِرَ في شِعْرٍ مَطْرُودٍ:

مَنَعُوكَ مِنْ جَوْرٍ ومِنْ إقْرافِ

أيْ: مَنَعُوكَ مِنْ أنْ تُنْكِحَ بَناتِك أوْ أخَواتِك[٣] مِنْ لَئِيمٍ، فيَكُونَ الِابْنُ مُقْرِفًا لِلُؤْمِ أبِيهِ، وكَرَمِ أُمّهِ، فيَلْحَقَك وصْمٌ[٤] مِنْ ذَلِك، ونَحْوٌ مِنْهُ قَوْلُ مُهَلْهِلٍ[٥]: [من المنسرح]

---

(١) كذا في النسخ، وفي «المعارف» لابن قتيبة: (ص: ٢٨٨): «أبو الخير»، بالخاء والياء.

(٢) في (أ): «شاع». وفي (ب): «ساغ فيه التكثير».

(٣) في (أ): «وأخواتك».

(٤) الوصم: العيب.

(٥) هو أحد بيتَين في «الشعر والشعراء» (ص: ٢٩٨-٢٩٩). وقد ذكر ابن قتيبة قصته.

وجَنْب: حي في اليمن وضيع. والأراقم: جُشَم، ومالك، والحارث، ومعاوية، وثعلبة، =

أَنْكَحَها فقْدُها الأراقِمَ في جنبٍ وكان الحِباءُ من أدَمِ

أيْ: أُنْكِحَتْ لِغُرْبَتِها مِنْ غَيْرِ كُفْءٍ.

وَقَوْلُهُ: [من الرجز]

حَتّى تَغِيبَ الشّـمْسُ بِالرّجّافِ[1]

يَعْنِي: البَحْرَ؛ لِأَنّهُ يَرْجُفُ.

وَمِنْ أَسْمائِهِ أيْضًا: خُضارةُ[2]، والدّأْماءُ، وأبُو خالِدٍ.

وَقَوْلُهُ: «عقْدُ ذاتِ نِطافِ» النّطَفُ: اللّؤْلُؤُ الصّافي. ووَصِيفةٌ مُنَطّفةٌ؛ أيْ: مُقَرّطةٌ بِتُومَتَيْنِ[3]، والنّطَفُ[4] في غَيْرِ هَذا: التّلَطّخُ بِالعَيْبِ، وكِلاهُما مِنْ أصْلٍ واحِدٍ، وإنْ كانا في الظّاهِرِ مُتَضادَّيْنِ في المَعْنى[5]؛ لِأَنّ النّطْفةَ هِيَ الماءُ القَلِيلُ، وقَدْ يَكُونُ الكَثِيرَ، وكَأَنّ اللّؤْلُؤَ الصّافيَ أُخِذَ مِنْ صَفاءِ النّطْفةِ.

والنّطَفُ الّذِي هُوَ العَيْبُ: أُخِذَ مِنْ نُطْفةِ الإنْسانِ، وهِيَ ماؤُهُ، أيْ: كَأَنّهُ لُطّخَ بِها.

= وعَمرو، وهم بنو بكر بن حبيب بن غنم، كما في «جمهرة ابن حزم» (ص: ٣٠٤)، والحباء: المهر، أراد أنهم لم يكونوا أرباب نَعَم فيمهروها الإبل، وجعلهم دبَّاغين للأدم، وهو الجِلد.

(١) في (أ)، (ب)، (ج)، (هـ): «بالرجّاف».

(٢) خُضارة: ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث، كأسامة وأضرابه من أعلام الأجناس، تقول: هذا خُضارةُ طاميًا. انظر «تاج العروس» (خضر).

(٣) التُّومة: اللؤلؤة.

(٤) في «تاج العروس»: «والنَّطَفة ـ بالتحريك، وكهُمزة ـ: القُرْط، أو اللؤلؤة الصافية اللون، أو اللؤلؤة الصغيرة، شُبِّهت بقطرة الماء، جمعها: نَطَفٌ، محركة».

(٥) في (أ): «وإن كان لفظهما متفقَين في الظاهر متضادَّين في المعنى».

وَقَوْلُهُ:

والفَيْضِ مُطّلِبٍ أَبِي الأضْيافِ

يُرِيدُ: أنّهُ كانَ لأضيافه كالأبِ. والعَرَبُ تَقُولُ لِكُلّ جَوَادٍ: أبُو الأضْيافِ. كَما قالَ مُرّةُ بنُ مَحْكانَ(١): [من البسيط]

أُدْعى أباهُمْ، ولَمْ أُقْرَفْ بِأُمّهِمُ وقَدْعَمِرْتُ ولَمْ أعْرِفْ لَهُمْ نَسَبا

[نُبوءةُ رَجُلٍ مِنْ لِهْبٍ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: حَدَّثَنِي يَحْيى بنُ عَبّادِ بنِ عَبْدِ اللهِ بنِ الزُّبَيْرِ، أنَّ أباهُ حَدَّثَهُ، أنَّ رَجُلًا مِنْ لِهْبٍ ـ قالَ ابنُ هِشامٍ: ولِهْبٌ: مِنْ أزْدِ شَنُوءةَ ـ كانَ عائِفًا، فكانَ إذا قَدِمَ مَكّةَ أتاهُ رِجالُ قُرَيْشٍ بِغِلْمانِهِمْ يَنْظُرُ إلَيْهِمْ ويَعْتافُ لَهُمْ فيهِمْ. قالَ: فأتى بِهِ أبو طالِبٍ وهُوَ غُلامٌ مَعَ مَنْ يَأْتِيهِ، فنَظَرَ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ، ثُمَّ شَغَلَهُ عَنْهُ شَيْءٌ، فلَمّا فرَغَ قالَ: الغُلامُ عَلَيَّ بِهِ، فلَمّا رَأى أبو طالِبٍ حِرْصَهُ عَلَيْهِ غَيَّبَهُ عَنْهُ، فجَعَلَ يَقُولُ: ويْلَكُمْ! رُدُّوا عَلَيَّ الغُلامَ الَّذي رَأيْت آنِفًا، فواللهِ لَيَكُونَنَّ لَهُ شَأْنٌ. قالَ: فانْطَلَقَ أبو طالِبٍ.

فَصْلٌ

وذكَرَ خَبَرَ اللِّهْبِيّ العائِفِ. قالَ ابنُ هِشامٍ: ولِهْب: حَيٌّ مِنَ الأزْدِ، وقالَ

(١) هو مُرة بن مَحكان السعدي، من تميم، شاعر إسلامي، من طبقة جرير والفرزدق. انظر: «الأغاني» (٢٢: ٤٨٦). والبيت في «الشعر والشعراء» (ص: ٦٨٦)، و«شرح الحماسة» للمرزوقي: (ص: ١٥٦٨). ولم أُقرَف بأمهم: لم أُتّهم، وعَمِرت: بقيت حيًا، يقول: إنه لا عواطف بينهم، وقد التزم ما التزم لهم تكرمًا واصطناعًا.

غَيْرُهُ: وهُوَ لِهْبُ بنُ أَحْجَنَ بنِ كعبِ بنِ الحارثِ بنِ كعبِ بنِ عَبْدِ اللهِ بنِ مالِكِ ابنِ نَصْرِ بنِ الأزْدِ. وهِيَ القَبِيلَةُ الّتِي تُعْرَفُ بِالعِيافَةِ والزَّجْرِ. ومِنْهُم اللِّهْبِيُّ الّذِي زَجَرَ حِينَ وقَعَت الحَصاةُ بصلعةِ عُمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فأَدْمَتْهُ، وذَلِك في الحَجِّ، فقالَ: أُشْعِرَ[١] أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ، واللهِ لا يَحُجُّ[٢] بَعْدَ هَذا العامِ، فكانَ كَذَلِكَ[٣].

واللِّهْبُ: شِقٌّ في الجَبَلِ. وبَنُو ثُمالةَ رَهْطُ المُبَرّدِ الثُّمالِيّ: هُمْ بَنُو أَسْلَمَ ابنِ أحجن بن كَعْب. وثُمالةُ: أُمّهُمْ. وكانَت العِيافةُ والزّجْرُ في لِهْبٍ، قالَ الشّاعِرُ[٤]: [من الطويل]

سَأَلْتُ أخا لِهْبٍ لِيَزْجُرَ زَجْرةً ... وقَدْ رُدّ[٥] زَجْرُ العالَمِينَ إلى لِهْبِ

وقَوْلُهُ: «لِيَعْتافَ لَهُمْ» وهُوَ يَفْتَعِلُ مِن العَيْفِ. يُقالُ: عِفْتُ الطّيْرَ واعْتَفْتُها عِيافةً واعْتِيافًا، وعِفْتُ الطّعامَ أعافُهُ عَيْفًا، [وعافَت الطّيْرُ الماءَ عِيافًا][٦].

* * *

(١) أي: أُعْلِم للقتل، كما تُعلَم البدنة إذا سِيقَت للنحر، تطيّر اللهبي بذلك، فحقَّت طِيَرتُه؛ لأن عمر لمّا صدر من الحج قُتِل.

(٢) في (أ): «لا حج».

(٣) انظر الخبر في: «أسد الغابة» (٤: ١٧٣-١٧٤).

(٤) هو كُثّير عزة، والبيت في «عيون الأخبار» (١: ١٤٧)، و«جمهرة أنساب العرب» لابن حزم: (ص: ٣٧٦).

(٥) في (ج)، (هـ): «وقد صار».

(٦) ليس في (ب).

قِصّةُ بَحِيرا

[نُزُولُ أبي طالِبٍ ورَسُولِ الله ﷺ بِبَحِيرا]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: ثُمَّ إنَّ أبا طالِبٍ خَرَجَ في رَكْبٍ تاجِرًا إلى الشّامِ، فلَمّا تَهَيَّأَ لِلرَّحِيلِ وأجْمَعَ المَسِيرَ، صَبَّ بِهِ رَسُولُ الله ﷺ ـ فيما يَزْعُمُونَ ـ فرَقَّ لَهُ أبو طالِبٍ وقالَ: والله لَأخْرُجَنَّ بِهِ مَعِي، ولا يُفارِقُنِي، ولا أُفارِقُهُ أبَدًا، أوْ كَما قالَ، فخَرَجَ بِهِ مَعَهُ، فلَمّا نَزَلَ الرَّكْبُ بُصْرى مِنْ أرْضِ الشّامِ، وَبِهِما راهِبٌ يُقالُ لَهُ: بَحِيرا في صَوْمَعةٍ لَهُ، وكانَ إلَيْهِ عِلْمُ أهْلِ النَّصْرانِيّةِ، ولَمْ يَزَلْ في تِلْكَ الصَّوْمَعةِ مُنْذُ قَطُّ راهِبٌ، إلَيْهِ يَصِيرُ عِلْمُهُمْ عَنْ كِتابٍ فيها ـ فيما يَزْعُمُونَ ـ يَتوارَثُونَهُ كابِرًا عَنْ كابِرٍ، فلَمّا نَزَلُوا ذلك العامَ بِبَحِيرا، وكانُوا كَثِيرًا ما يَمُرُّونَ بِهِ قَبْلَ ذلك فلا يُكَلِّمُهُمْ ولا يَعْرِضُ لَهُمْ، حَتّى كانَ ذلك العامُ، فلَمّا نَزَلُوا بِهِ قَرِيبًا مِنْ صَوْمَعَتِهِ صَنَعَ لَهُمْ طَعامًا كَثِيرًا، وذلك فيما يَزْعُمُونَ عَنْ شَيْءٍ رَآهُ وهُوَ في صَوْمَعَتِهِ، يَزْعُمُونَ أنَّهُ رَأى رَسُولَ الله ﷺ وهُوَ في صَوْمَعَتِهِ في الرَّكْبِ حِينَ أقْبَلُوا، وغَمامةٌ تُظِلُّهُ مِنْ بَيْنِ القَوْمِ. قالَ: ثُمَّ أقْبَلُوا فنَزَلُوا في ظِلِّ شَجَرةٍ قَرِيبًا مِنْهُ. فنَظَرَ إلى الغَمامةِ حِينَ أظَلَّت الشَّجَرةَ، وتَهَصَّرَتْ أغْصانُ الشَّجَرةِ على رَسُولِ الله ﷺ حَتّى اسْتَظَلَّ تَحْتَها، فلَمّا رَأى ذلك بَحِيرا نَزَلَ مِنْ صَوْمَعَتِهِ وقد أمَرَ بذلك الطَّعامِ فصُنِعَ، ثُمَّ أرْسَلَ إلَيْهِمْ، فقالَ: إنِّي قَدْ صَنَعْتُ لَكُمْ طَعامًا يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، فأنا أُحِبُّ أنْ تَحْضُرُوا كُلُّكُمْ، صَغِيرُكُمْ وكَبِيرُكُمْ، وعَبْدُكُمْ وحُرُّكُمْ،

فقالَ لَهُ رَجُلٌ مِنهُمْ: واللهِ يا بَحِيرا إنَّ لَكَ لَشأْنًا اليَوْمَ، فما كُنْتَ تَصْنَعُ هذا بِنا، وقَدْ كُنّا نَمُرُّ بِكَ كَثِيرًا، فما شَأْنُكَ اليَوْمَ؟ قالَ لَهُ بَحِيرا: صَدَقْتَ، قَدْ كانَ ما تَقُولُ، ولَكِنَّكُمْ ضَيْفٌ، وقَدْ أحْبَبْتُ أنْ أُكْرِمَكُمْ وأصْنَعَ لَكُمْ طَعامًا فتَأْكُلُوا مِنْهُ كُلُّكُمْ. فاجْتَمَعُوا إلَيْهِ، وتَخَلَّفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ بَيْنِ القَوْمِ - لِحَداثةِ سِنِّهِ - في رِحالِ القَوْمِ تَحْتَ الشَّجَرةِ، فلَمّا نَظَرَ بَحِيرا في القَوْمِ لَم يَرَ الصِّفةَ الَّتِي يَعْرِفُ ويَجِدُ عِنْدَهُ، فقالَ: يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، لا يَتَخَلَّفَنَّ أحَدٌ مِنْكُمْ عَنْ طَعامِي، قالُوا لَهُ: يا بَحِيرا، ما تَخَلَّفَ عَنْكَ أحَدٌ يَنْبَغِي لَهُ أنْ يَأْتِيَكَ إلّا غُلامٌ، وهُوَ أحْدَثُ القَوْمِ سِنًّا، فتَخَلَّفَ في رِحالِهِمْ، فقالَ: لا تَفْعَلُوا، ادْعُوهُ فلْيَحْضُرْ هذا الطَّعامَ مَعَكُمْ. قالَ: فقالَ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ مَعَ القَوْمِ: واللّاتِ والعُزّى، إنْ كانَ لَلُؤْمٌ بِنا أنْ يَتَخَلَّفَ ابنُ عَبْدِ اللهِ بن عَبْدِ المُطَّلِبِ عَنْ طَعامٍ مِنْ بَيْنِنا، ثُمَّ قامَ إلَيْهِ فاحْتَضَنَهُ وأجْلَسَهُ مَعَ القَوْمِ، فلَمّا رَآهُ بَحِيرا جَعَلَ يَلْحَظُهُ لَحْظًا شَدِيدًا ويَنْظُرُ إلى أشْياءَ مِنْ جَسَدِهِ قَدْ كانَ يَجِدُها عِنْدَهُ مِنْ صِفَتِهِ، حَتّى إذا فرَغَ القَوْمُ مِنْ طَعامِهِمْ وتَفَرَّقُوا، قامَ إلَيْهِ بَحِيرا، فقالَ لَهُ: يا غُلامُ، أسْأَلُكَ بِحَقِّ اللّاتِ والعُزّى إلّا ما أخْبَرْتَنِي عَمّا أسْأَلُكَ عَنْهُ، وإنَّما قالَ لَهُ بَحِيرا ذلك؛ لِأنَّهُ سَمِعَ قَوْمَهُ يَحْلِفُونَ بِهِما، فزَعَمُوا أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ لَهُ: لا تَسْأَلْنِي بِاللات والعزّى؛ فوَاللهِ ما أبْغَضْتُ شَيْئًا قَطُّ بُغْضَهُما، فقالَ لَهُ بَحِيرا: فباللهِ إلّا ما أخْبَرْتَنِي عَمّا أسْأَلُكَ عَنْهُ، فقالَ لَهُ: سَلْنِي عَمّا بَدا لَكَ. فجَعَلَ يَسْأَلُهُ عَنْ أشْياءَ مِنْ حالِهِ في نَوْمِهِ وهَيْئَتِهِ وأُمُورِهِ، فجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُخْبِرُهُ، فيوافِقُ ذلك ما عِنْدَ بَحِيرا مِنْ صِفَتِهِ، ثُمَّ نَظَرَ إلى ظَهْرِهِ، فرَأى خاتَمَ النُّبُوّةِ بَيْنَ كَتِفيهِ على مَوْضِعِهِ مِنْ صِفَتِهِ الَّتِي عِنْدَهُ.

قالَ ابنُ هِشامٍ: وكانَ مِثْلَ أثَرِ المِحْجَمِ.

قالَ ابنُ إسْحاقَ: فلَمّا فرَغَ، أقْبَلَ على عَمِّهِ أبي طالِبٍ، فقالَ لَهُ: ما هذا الغُلامُ مِنْكَ؟ قالَ: ابني. قالَ لَهُ بَحِيرا: ما هُوَ بِابنِكَ، وما يَنْبَغِي لِهذا الغُلامِ أنْ يَكُونَ أبوهُ حَيًّا، قالَ: فإنَّهُ ابنُ أخِي، قالَ: فما فعَلَ أبوهُ؟ قالَ: ماتَ وأُمُّهُ حُبْلى بِهِ، قالَ: صَدَقْتَ، فارْجِعْ بِابنِ أخِيكَ إلى بَلَدِهِ، واحْذَرْ عَلَيْهِ يهودَ، فوَاللهِ لَئِنْ رَأَوْهُ وعَرَفُوا مِنْهُ ما عَرَفْتُ لَيَبْغُنَّهُ شَرًّا؛ فإنَّهُ كائِنٌ لابنِ أخِيكَ هذا شَأْنٌ عَظِيمٌ، فأسْرِعْ بِهِ إلى بِلادِهِ.

[رُجوعُ أبي طالِبٍ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وما كانَ مِنْ زُرَيْرٍ وصاحِبَيهِ]

فَخَرَجَ بِهِ عَمُّهُ أبو طالِبٍ سَرِيعًا حَتّى أقْدَمَهُ مَكّةَ حَيْنَ فرَغَ مِنْ تِجارَتِهِ بِالشّامِ، فزَعَمُوا فيما رَوى النّاسُ: أنَّ زُرَيْرًا وتَمّامًا ودَرِيسًا ـ وهُمْ نَفَرٌ مِنْ أهْلِ الكِتابِ ـ قَدْ كانُوا رَأَوْا من رَسُولِ اللهِ ﷺ مِثْلَ ما رَآهُ بَحِيرا في ذلك السَّفَرِ الَّذي كانَ فيهِ مَعَ عَمِّهِ أبي طالِبٍ، فأرادُوهُ، فرَدَّهُمْ عَنْهُ بَحِيرا، وذَكَّرَهُم اللهَ وما يَجِدُونَ في الكِتابِ مِنْ ذِكْرِهِ وصِفَتِهِ، وأنَّهُمْ إنْ أجْمَعُوا لِما أرادُوا بِهِ لَمْ يَخْلُصُوا إلَيْهِ، ولَمْ يَزَلْ بِهِمْ حَتّى عَرَفُوا ما قالَ لَهُمْ، وصَدَّقُوهُ بِما قالَ، فتَرَكُوهُ وانْصَرَفُوا عَنْهُ.

فشَبَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ، واللهُ تَعالى يَكْلَؤُهُ ويَحْفَظُهُ ويَحُوطُهُ مِنْ أقْذارِ الجاهِلِيّةِ؛ لِما يُرِيدُ بِهِ مِنْ كَرامَتِهِ ورِسالَتِهِ، حَتّى بَلَغَ أنْ كانَ رَجُلًا وأفْضَلَ قَوْمِهِ مُرُوءةً، وأحْسَنَهُمْ خُلُقًا، وأكْرَمَهُم حَسَبًا، وأحْسَنَهُمْ جِوارًا، وأعْظَمَهُمْ حِلْمًا، وأصْدَقَهُمْ حَدِيثًا، وأعْظَمَهُمْ أمانةً، وأبْعَدَهُمْ مِن الفُحْشِ والأخْلاقِ الَّتِي تُدَنِّسُ الرِّجالَ، تَنَزُّهًا وتَكَرُّمًا، حَتّى ما اسْمُهُ في قَوْمِهِ إلّا الأمِينُ؛ لِما جَمَعَ اللهُ فيهِ مِن الأُمُورِ الصّالِحةِ.

فَصْلٌ
في قِصّةِ بَحِيرا وسَفَرِ أبِي طالِبٍ بالنّبيّ ﷺ

وقَعَ في «سِيَرِ الزّهْرِيّ» أنّ بَحِيرا[١] كانَ [حَبْرًا][٢] من يهود تَيْماءَ، وفي المَسْعُودِيّ: أنّهُ كانَ مِنْ عَبْدِ القَيْسِ، واسْمُهُ: سَرْجِسُ.

وفي «المَعارِفِ» للقُتَبيِّ[٣]، قالَ: سُمِعَ قَبْلَ الإسْلامِ بِقَلِيلٍ هاتِفٌ يَهْتِفُ: أَلَا إنّ خَيْرَ أهْلِ الأرْضِ ثَلاثةٌ: بَحِيرا، ورِئابُ بنُ البَراءِ الشَّنّيّ، والثّالِثُ: المُنْتَظَرُ، فكانَ[٤] الثّالِثُ رسول الله ﷺ.

قال القُتَبيّ[٥]: وكانَ قَبْرُ رِئابٍ الشَّنّيّ وقَبْرُ ولَدِهِ[٦] مِنْ بَعْدِهِ لا يَزالُ يُرى عَلَيْها[٧] طَشّ، والطّشّ: المَطَرُ الضّعِيفُ.

وَقالَ فيهِ: «فصَبَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ بعَمِّهِ»[٨]. الصّبابةُ: رِقّة الشّوق، يقال: صَبِبت ـ بكسْر الباءِ- أصَبّ، ويُذْكَرُ عَنْ بَعْضِ السّلَفِ أنّهُ قَرَأ: «أَصَبُّ إلَيْهِنَّ

---

(١) في (ب): «بحيراء». وفي «تاج العروس»: وبَحِيراء الراهب كأميرٍ ممدودًا. هكذا ضبطه الذهبي وشراح «المواهب». وفي رواية بالألف المقصورة، وفي أُخرى كأمير، وأما تصغيره فغلطٌ، كما صرحوا به. وفي «المطالع النصرية» (ص: ١٢٣): «ويظهر لي أن الأسماء الأعجمية سوى الذي عربته العرب كموسى وعيسى تُكتب بالألف».

(٢) ليس في (هـ).

(٣) «المعارف» لابن قتيبة: (ص: ٥٨).

(٤) في (أ): «وكان».

(٥) «المعارف» (ص: ٥٨).

(٦) في (ب): «بنيه».

(٧) في (ف): «عليهما».

(٨) كذا في (أ)، وهو يوافق نص «السيرة». وفي غيرها: «لعمه»، باللّام.

وأَكُنْ مِنَ الجاهِلِينَ»[١] [يوسف: ٣٣]، وفي غَيْرِ رِوايةِ أَبي بَحْرٍ: [ضَبَثَ بِهِ[٢] رسول الله ﷺ؛ أي][٣]: لَزِمَهُ. قالَ الشّاعِرُ[٤]: [من الطويل]

كَأَنَّ فُـؤادِي في يَـدٍ ضَبَثَتْ بِهِ مُحاذِرَةً أَنْ يَقْضِبَ الحَبْلَ قاضِبُهْ

وكانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذْ ذاكَ ابنَ تِسْعِ سِنِينَ فيما ذَكَرَ بَعْضُ مَنْ أَلَّفَ في السِّيَرِ، وهو الواقديُّ، وقالَ الطَّبَرِيّ: ابنَ ثِنْتَيْ عَشْرةَ سَنةً[٥].

وذُكِرَ فيهِ خاتَمُ النُّبوّةِ، وقَوْلُ ابنِ هِشامٍ: «كانَ كَأَثَرِ المِحْجَمِ»[٦]، يَعْنِي: أَثَرَ المِحْجَمةِ القابِضةِ على اللّحْمِ، حَتّى يَكُونَ ناتِئًا. وفي الخَبَرِ: أَنّهُ كانَ حَوْلَهُ خِيلانٌ[٧] فيها شَعَراتٌ سُودٌ. وفي صِفَتِهِ أَيْضًا: أَنّهُ كانَ كالتّفّاحةِ، وكَزِرِّ الحَجَلةِ[٨] وفَسّرَهُ التّرْمِذيّ تَفْسِيرًا وهِمَ فيهِ، فقالَ[٩]: زِرُّ الحَجَلةِ يُقالُ: إِنّهُ

(١) في «البحر المحيط» (٥: ٣٠٧): «وقرئ: «أَصَبُّ إليهنّ» من صَبِبت صَبابةً فأنا صَبٌّ، والصبابة: إفراط الشوق».

(٢) ضَبَثَ به يَضبِث ضَبْثًا: قبض عليه بكفِّه.

(٣) ليس في (ب).

(٤) ابن ميادة، واسمه: الرماح بن أبرد، وميَّادة أمه، شاعر ذُبياني مخضرم. انظر: «الأغاني» (٢: ٨٥-١١٦)، و«الخزانة» (١: ٧٦-٧٧). والبيت في «الحماسة بشرح المرزوقي» (ص: ١٣٣٣).

(٥) «تاريخ الرسل والملوك» (٢: ٢٧٨). (ج)

(٦) المِحجم والمِحجمة: ما يُحجَم به، والحجَّام: الذي يعالج بالحِجامة، وهي امتصاص الدم بالمِحجم.

(٧) الخِيلان: جمع خال، وهي شامة سوداء في البدن.

(٨) الحجَلة: طائر في حجم الحمام، أحمر المنقار والرِّجلين، طيِّب اللحم. والحجلة أيضًا: ساتر كالقبة يُزيَّن بالثياب والسُّتور للعروس.

(٩) «عارضة الأحوذي»، أبواب المناقب: (٧: ١١٩).

بيضٌ، فتَوَهَّمَ الحَجَلةَ مِن القَبَجِ[١]. وَإنّما هِيَ حَجَلةُ السَّرِيرِ، واحِدةُ الحِجالِ، وزِرُّها الّذِي يَدْخُلُ في عُرْوَتِها[٢]، قالَ عَلِيّ رضي الله عنه لِأَهْلِ العراق[٣]: يا أشباه الرجالِ، ولا رِجالُ، ويا عُقُولَ رَبّاتِ الحِجالِ. وفي حَدِيثٍ آخَرَ: كانَ كَبَيْضةِ الحَمامةِ، وفي حَدِيثِ عبّادِ بنِ عَبْدِ عَمْرٍو، قالَ: رَأيْت خاتَمَ النّبُوّةِ، وكانَ كَرُكْبةِ العَنْزِ. ذَكَرَهُ النّمرِيّ مُسْنَدًا في كِتابِ «الِاسْتِيعابِ»[٤].

فهَذِهِ خمسُ رِواياتٍ في صِفةِ الخاتَمِ: [كالتّفّاحةِ][٥]، وكَبَيْضةِ الحَمامةِ، وكَزِرِّ الحَجَلةِ، وكَأَثَرِ المِحْجَمِ، وكَرُكْبةِ العَنْزِ.

ورِوايةٌ سادِسةٌ: وهِيَ رِوايةُ عَبْدِ اللهِ بنِ سَرْجِسَ، قالَ: رَأيْت خاتَمَ النّبُوّةِ كالجُمْعِ[٦]، يَعْنِي: كالمِحْجَمةِ، لا كَجُمْعِ الكَفّ، ومَعْناهُ كَمَعْنى الأوّلِ، أيْ: كَأَثَرِ الجُمْعِ. وقَدْ قِيلَ في الجُمْعِ: إنّهُ جُمْعُ الكَفّ، [قالَهُ القُتَبِيّ][٧]. واللهُ أعْلَمُ.

وَرِوايةٌ سابعةٌ عَنْ أبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وقَدْ سُئِلَ عَنْ خاتَمِ النّبُوّةِ، فقالَ: بَضْعةٌ ناشِزةٌ[٨] هَكَذا؛ ووَضَعَ طَرَفَ السّبّابةِ في مِفْصَلِ الإبْهامِ، أوْ دُونَ المِفْصَلِ، ذَكَرَها يُونُسُ عَن ابنِ إسْحاقَ.

---

(١) القبجُ: هو الحَجل، وهو جنس طيور قصار.

(٢) أو القرص يُدخَل في العروة. وفي المثل: «ألزم من زرٍّ».

(٣) «شرح نهج البلاغة» (٢: ٧٥).

(٤) «الاستيعاب» (٣: ١٢٤٩). ورواه الطبراني عن عبّاد بن عمرو. انظر: «مجمع الزوائد» (٨: ٢٨١)، و«أسد الغابة» (٣: ١٥٤-١٥٥)، ولم يذكره عن أبي عمر.

(٥) سقط من (أ).

(٦) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٥: ٨١-٨٢).

(٧) ليس في (ب). وانظر: «غريب الحديث» لابن قتيبة: (٢: ١٩٦)، وقال: «يقال: ضربه بجمع كفه: إذا جمعها وضمّ أصابعه. وفيه لغة أخرى: جِمع الكف، بكسر الجيم».

(٨) أخرجه الإمام أحمد بنحوه عن أبي سعيد الخدري (٣: ٦٩)، وفيه: «لحم ناشز».

وفي صِفَتِهِ أيْضًا رِوايةٌ ثامِنةٌ؛ وهِيَ رِوايةُ مَنْ شَبّهَهُ بِالسِّلْعةِ[١]؛ وذَلِكَ لِنُتُوِّه.

وقَدْ تَقَدّمَ حَدِيثٌ عَنْ أَبِي ذَرّ مَرْفُوعًا فيه بَيانُ[٢] وضع[٣] الخاتم بين كَتِفَيه مَتى كانَ[٤].

ورَوى التِّرمِذِيّ[٥] في «مُصَنَّفِهِ»، قالَ: حَدّثَنا الفَضْلُ بنُ سَهْلٍ أَبُو العَبّاسِ الأعْرَجُ البَغْدادِيّ، حَدّثَنا عَبْدُ الرّحْمَنِ بنُ غَزْوانَ أَبُو نُوحٍ، أَخْبَرَنا يُونُسُ بنُ أَبِي إسْحاقَ، عَنْ أَبِي بَكْرِ بنِ أَبِي مُوسى، [عَنْ أَبِيهِ][٦] قالَ: خَرَجَ أَبُو طالِبٍ إلى الشّام، وخَرَجَ مَعَهُ النّبِيّ ﷺ في أشْياخٍ مِنْ قُرَيْشٍ، فلَمّا أشْرَفُوا على الرّاهِبِ هَبَطُوا، فحَطُّوا رِحالَهُمْ، فخَرَجَ إلَيْهِم الرّاهِبُ، وكانُوا قَبْلَ ذَلِكَ يَمُرّونَ بِهِ فلا يَخْرُجُ إلَيْهِمْ ولا يَلْتَفِتُ. قال: فَهُمْ يَحُلّونَ رِحالَهُمْ، فجَعَلَ يَتَخَلّلُهُم الرّاهِبُ حَتّى جاءَ فأخَذَ بِيَدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ. قالَ: هَذا سَيّدُ العالَمِينَ، هَذا رَسُولُ رَبّ العالَمِينَ، يَبْعَثُهُ اللهُ رَحْمةً لِلْعالَمِينَ.

فَقالَ لَهُ أَشْياخٌ مِنْ قُرَيْشٍ: ما عِلْمُك؟ فقالَ: إنّكُمْ حِينَ أشْرَفْتُمْ مِن العَقَبةِ لَمْ يَبْقَ حَجَرٌ ولا شَجَرٌ إلّا خَرّ ساجِدًا، ولا يَسْجُدانِ إلّا لِنَبِيّ، وإنّي أعْرِفُهُ بِخاتَمِ

(١) ورد هـذا في حديث أبـي رِمْثـة، وقد أخرجـه أبو موسى المدينـي في «المجموع المغيث» (٢: ١١٢)، قال: إن أباه أتى النبي ﷺ فرأى مثل السِّلعـة بين كتفَيـه». وفي «النهايـة» لابن الأثير في تفسير السِّلعة: وهي غُدة تظهر بين الجِلد واللحم، إذا غُمزت باليد تحركت».

(٢) في النسخ عدا (ج): «وقد تقدم حديثٌ فيه عن أبي ذَرٍّ مرفوعًا بيان».

(٣) في (أ): «موضع».

(٤) وانظر صفة خاتم النبوة في: «دلائل النبوة» للبيهقي: (١: ٢٥٩-٢٦٧).

(٥) «سنن الترمذي» أبواب المناقب، باب ما جاء في بدء نبوة النبي ﷺ، رقم (٣٦٢٠). (ج)

(٦) سقط من (أ).

النّبُوّةِ أسْفَلَ [مِنْ][١] غُضْرُوفِ كَتِفِهِ. ويُقالُ: غُرْضُوفٌ مِثْلُ التّفّاحةِ. ثُمّ رَجَعَ فَصَنَعَ لَهُمْ طَعامًا، فلَمّا أتاهُمْ بِهِ ـ وكانَ هُوَ في رِعْيةِ الإبِلِ ـ قالَ: أرْسِلُوا إلَيْهِ.

فَأقْبَلَ وعَلَيْهِ غَمامةٌ تُظِلّهُ، فلَمّا دَنا مِن القَوْمِ وجَدَهُمْ قَدْ سَبَقُوهُ إلى فَيْءِ الشّجَرةِ، فلَمّا جَلَسَ مالَ فَيْءُ الشّجَرةِ عَلَيْهِ، فقالَ: انْظُرُوا إلى فَيْءِ الشّجَرةِ مالَ عَلَيْهِ، قالَ: فبَيْنَما هُوَ قائِمٌ عَلَيْهِمْ وهُوَ يُناشِدُهُمْ ألّا يَذْهَبُوا بِهِ إلى الرّومِ؛ فإنّ الرّومَ إنْ رَأوْهُ عَرَفُوهُ بالصّفةِ، فيَقْتُلُونَهُ، فالتَفَتَ فإذا سَبْعةٌ قَدْ أقْبَلُوا مِن الرّومِ، فاسْتَقْبَلَهُمْ، فقالَ: ما جاءَ بِكُمْ؟ فقالُوا: جِئْنا أنّ هَذا النّبِيّ خارِجٌ في هذا الشهر، فلَمْ يَبْقَ طَرِيقٌ إلّا بُعِثَ إلَيْهِ بِأُناسٍ، وإنّا قَد اخترنا خيرةَ بَعْثِنا إلى طَرِيقِك هَذا، فقالَ: هَلْ خَلْفَكُمْ أحَدٌ [هُوَ خَيْرٌ مِنْكُمْ؟ فقالُوا: إنّما اخْتَرْنا خِيرةً لِطَرِيقِك هَذا، قالَ: أفَرأيْتُمْ أمْرًا أرادَاللهُ أنْ يَقْضِيَهُ؛ هَلْ يَسْتَطِيعُ أحَدٌ][٢] مِن النّاسِ رَدّهُ؟ قالُوا: لا. قالَ: فبايَعُوهُ وأقامُوا مَعَهُ. قالَ: أنْشُدُكُم اللهَ، أيّكُمْ ولِيّهُ؟ قالُوا: أبُو طالِبٍ، فلَمْ يَزَلْ يُناشِدُهُ حَتّى رَدّهُ أبُو طالِبٍ، وبَعَثَ مَعَهُ أبُو بَكْرٍ بِلالًا، وزوّده الراهبُ من الكعكِ والزّيتِ. قال أبُو عِيسى: هَذا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، لا نَعْرِفُهُ إلّا مِنْ هَذا الوَجْهِ.

ومِمّا قالَهُ أبو طالب في هذه القصة[٣]: [من الطويل]

أَلَمْ تَرَنِي مِنْ بَعْدِ هَمٍّ هَمَمْته ... بِفُرْقةِ حُرّ الوالِدَيْنِ كِرامِ
بِأحْمَدَ لَمّا أنْ شَدَدْت مَطِيّتِي ... لِتَرْحَلَ إذْ ودّعْته بِسَلامِ
بَكَى حَزَنًا والعِيسُ قَدْ فصَلَتْ بِنا ... وأمْسَكْت بِالكَفّيْنِ فضْلَ زِمامِ
ذَكَرْت أباهُ ثُمّ رَقْرَقْتُ عَبْرةً ... تَجُودُ مِن العَيْنَيْنِ ذاتَ سِجامِ

---

(١) ليس في (هـ).

(٢) سقط من (أ).

(٣) في (ب): «القصيدة». وفي (ج): «القضية». والشعر في «سيرة ابن إسحاق» (ص: ٥٦).

فَقُلْت: تَرَوَّحْ راشِدًا في عُمُومةٍ مُواسِينَ في البَأْسـاءِ غَيْرِ لِئامِ
فَرُحْنا مَعَ العِيرِ الّتِي راحَ أَهْلُها شَآمِي الهوى والأصل غير شآمي
فَلَمّا هَبَطْنا أَرْضَ بُصْرى تَشَرّفُوا لَنا فَـوْقَ دُورٍ يَنْظُرُونَ جِسـامِ
فَجاءَ بَحِيرَا عِنْدَ ذَلِكَ حاشِـدًا لنـا بشـرابٍ طيّـبٍ وطعـامِ
فقال: اجْمَعُوا أَصْحابَكُمْ لِطَعامِنا فقُلْنا: جَمَعْنـا القَوْمَ غَيْرَ غُلامِ

ذَكَرَهُ ابنُ إسْحاقَ في رِوايةِ يُونُسَ عَنْهُ، وذَكَرَ باقِيَ الشِّعْرِ.

[حَدِيثُهُ ﷺ عَنْ عِصْمةِ اللهِ لَهُ في طُفُولَتِهِ]

وَكانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ـ فيما ذُكِرَ لِي ـ يُحَدِّثُ عَمّا كانَ اللهُ يَحْفَظُهُ بِهِ في صِغَرِهِ وأَمْرِ جاهِلِيَّتِهِ، أنَّهُ قالَ:

«لَقَدْ رَأَيْتُنِي في غِلْمانِ قُرَيْشٍ نَنْقُلُ حِجارةً لِبَعْضِ ما يَلْعَبُ بِهِ الغِلْمانُ، كُلُّنا قَدْ تَعَرّى، وأَخَذَ إزارَهُ فجَعَلَهُ على رَقَبَتِهِ يَحْمِلُ عَلَيْهِ الحِجارةَ، فإنِّي لَأُقْبِلُ مَعَهُمْ كَذلك وأُدْبِرُ؛ إذْ لَكَمَنِي لاكِمٌ ـ ما أَراهُ ـ لَكْمةً وجِيعةً، ثُمَّ قالَ: شُدَّ عَلَيْكَ إزارَكَ، قالَ: فأَخَذْتُهُ وشَدَدْتُهُ عَلَيَّ، ثُمَّ جَعَلْتُ أَحْمِلُ الحِجارةَ على رَقَبَتِي وإزارِي عَلَيَّ مِنْ بَيْنِ أَصْحابِي».

فَصْلٌ

وذَكَرَ ما كانَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى يَحْفَظُهُ بِهِ: أَنَّهُ كانَ صَغِيرًا يَلْعَبُ مَعَ الغِلْمـانِ، فتعـرّى فلَكَمَه لاكـمٌ... الحَدِيثَ. وهَذِهِ القِصّـةُ إنّما ورَدَتْ في الحَدِيثِ الصّحِيحِ[1] في خبرِ بُنْيانِ الكَعْبةِ، وكانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَنْقُلُ الحِجارةَ

(١) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة، والحج، ومناقب الأنصار. انظر: «فتح الباري» (٣: ٤٣٩)، =

مَعَ قَوْمِهِ إلَيْها، وكانُوا يَجْعَلُونَ أُزُرَهُمْ على عَواتِقِهِمْ لِتَقِيَهُم الحِجارةَ، وكانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَحْمِلُ على عاتِقِهِ وإزارُهُ مَشْدودٌ عليه، فقالَ لهُ العبّاس: يا ابنَ أخي، لو جعَلْتَ إزارَكَ على عاتقِكَ. ففَعَلَ فسَقَطَ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ، ثُمّ قالَ: «إزارِي إزارِي!». فشُدّ عَلَيْهِ إزارُهُ، وقامَ يَحْمِلُ الحِجارةَ.

وفي حَدِيثٍ آخَرَ: أنّهُ لَمّا سَقَطَ، ضَمّهُ العَبّاسُ إلى نَفْسِهِ، وسَألَهُ عَنْ شَأْنِهِ، فأَخْبَرَهُ أنّهُ نُودِيَ مِن السّماءِ: أن اشْدُدْ عَلَيْك إزارَك يا مُحَمّدُ، قالَ: وإنّهُ لَأَوّلُ ما نُودِيَ.

وحَدِيثُ ابنِ إسْحاقَ ـ إنْ صَحّ أنّهُ كانَ ذَلِكَ في صِغَرِهِ؛ إذْ كانَ يَلْعَبُ مَعَ الغِلْمانِ ـ فحَمْلُهُ[1] على أنّ هَذا الأمْرَ كانَ مَرّتَيْنِ: مَرّةً في حالِ صِغَرِهِ، ومَرّةً في أوَّلِ اكتِهالِه عندَ بُنيانِ الكَعبةِ.

❊ ❊ ❊

= (٧: ١٤٥). ومسلم في كتاب الحيض: (١: ٢٦٧-٢٦٨). وانظر: «دلائل النبوة» للبيهقي: (٢: ٣١-٣٣).

(١) في غير (أ)، (ج): «فمحمله».

حَرْبُ الفِجارِ

[سَبَبُهَا]

قالَ ابنُ هِشامٍ: فلَمّا بَلَغَ رَسُولُ الله ﷺ أَرْبَعَ عَشْرةَ سَنةً أَوْ خَمْسَ عَشْرةَ سَنةً ـ فيما حَدَّثَني أبو عُبَيْدةَ النَّحْوِيُّ، عَنْ أَبي عَمْرِو بنِ العَلاءِ ـ هاجَتْ حَرْبُ الفِجارِ بَيْنَ قُرَيْشٍ ومَنْ مَعَهُمْ مِنْ كِنانةَ، وبَيْنَ قَيْسِ عَيْلانَ.

وَكانَ الَّذي هاجَها: أَنَّ عُرْوةَ الرَّحّالَ بنَ عُتْبةَ بنِ جَعْفَرِ بنِ كِلابِ بنِ رَبيعةَ بن عامِرِ بنِ صَعْصَعةَ بنِ مُعاوِيةَ بنِ بَكْرِ بنِ هَوازِنَ، أَجارَ لَطِيمةً لِلنُّعْمانِ بنِ المُنْذِرِ، فقالَ لَهُ البَرّاضُ بنُ قَيْسٍ؛ أَحَدُ بَني ضَمْرةَ بنِ بَكْرِ بنِ عَبْدِ مَناةَ بن كِنانةَ: أَتُجِيرُها على كِنانةَ؟ قالَ: نَعَمْ، وعلى الخَلْقِ كُلِّهِ. فخَرَجَ فيها عُرْوةُ الرَّحّالُ، وخَرَجَ البَرّاضُ يَطْلُبُ غَفْلَتَهُ، حَتّى إذا كانَ بِتَيْمَنَ ذِي طَلّالٍ بِالعالِيةِ، غَفَلَ عُرْوةُ، فوَثَبَ عَلَيْهِ البَرّاضُ فقَتَلَهُ فِي الشَّهْرِ الحَرامِ، فلِذلك سُمِّيَ الفِجارُ. وقالَ البَرّاضُ في ذلك:

وَداهِيَةٍ تُهِمُّ النّاسَ قَبْلِي ... شَدَدْتُ لَها بَنِي بَكْرٍ ضُلُوعِي
هَدَمْتُ بِها بُيُوتَ بَنِي كِلابٍ ... وأَرْضَعْتُ المَوالِيَ بِالضُّرُوعِ
رَفَعْتُ لَهُ بِذِي طَلّالَ كَفِّي ... فخَرَّ يَمِيدُ كالجِذْعِ الصَّرِيعِ

وَقالَ لَبِيدُ بنُ رَبيعةَ بنِ مالِكِ بنِ جَعْفَرِ بنِ كِلابٍ:

أَبْلِغْ إنْ عَرَضْتَ بَنِي كِلابٍ ... وعامِرَ والخُطُوبُ لَها مَوالِي

وَبَلِّغْ إنْ عَرَضْتَ بَنِي نُمَيْرٍ وأخْوالَ القَتِيلِ بَنِي هِلالِ
بِأنَّ الوافِدَ الرَّحّالَ أمْسى مُقِيمًا عِنْدَ تَيْمَنَ ذِى طَلالِ

وَهَذِهِ الأبْياتُ فِي أبْياتٍ لَهُ فيما ذَكَرَ ابنُ هِشامٍ.

[نُشُوبُ الحَرْبِ بَيْنَ قُرَيْشٍ وهَوازِنَ]

قالَ ابنُ هِشامٍ: فأتى آتٍ قُرَيْشًا، فقالَ: إنَّ البَرّاضَ قَدْ قَتَلَ عُرْوَةَ، وهُمْ في الشَّهْرِ الحَرامِ بِعُكاظٍ، فارْتَحَلُوا وهَوازِنُ لا تَشْعُرُ بِهِمْ، ثُمَّ بَلَغَهُم الخَبَرُ فأتْبَعُوهُمْ، فأدْرَكُوهُمْ قَبْلَ أنْ يَدْخُلُوا الحَرَمَ، فاقْتَتَلُوا حَتّى جاءَ اللَّيْلُ، ودَخَلُوا الحَرَمَ، فأمْسَكَتْ عَنْهُمْ هَوازِنُ، ثُمَّ التَقَوْا بَعْدَ هذا اليَوْمِ أيّامًا، والقَوْمُ مُتَسانِدُونَ، على كُلِّ قَبِيلٍ مِنْ قُرَيْشٍ وكِنانةَ رَئِيسٌ مِنْهُمْ، وعلى كُلِّ قَبِيلٍ مِنْ قَيْسٍ رَئِيسٌ مِنْهُمْ.

[حُضُورُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وهُوَ صَغِيرٌ فيها، وعُمْرُهُ]

وَشَهِدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَعْضَ أيّامِهِمْ، أخْرَجَهُ أعْمامُهُ مَعَهُمْ.

وَقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كُنْتُ أنْبُلُ على أعْمامِي»؛ أيْ: أرُدُّ عَلَيْهِمْ نَبْلَ عَدُوِّهِمْ إذا رَمَوْهُمْ بِها.

[سَبَبُ تَسْمِيَتِها بِذلك]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: هاجَتْ حَرْبُ الفِجارِ ورَسُولُ اللهِ ﷺ ابنُ عِشْرِينَ سَنَةً، وإنَّما سُمِّيَ: يَوْمَ الفِجارِ بِما اسْتَحَلَّ هذانِ الحَيّانِ ـ كِنانةُ وقَيْسُ عَيْلانَ ـ فيهِ مِن المَحارِمِ بَيْنَهُمْ.

[قُوّادُ قُرَيْشٍ وهَوازِنَ فيها، ونَتِيجَتُها]

وَكانَ قائِدُ قُرَيْشٍ وكِنانةَ حَرْبَ بنَ أُمَيّةَ بنِ عَبْدِ شَمْسٍ، وكانَ الظَّفَرُ في أوَّلِ

النَّهارِ لِقَيْسٍ على كِنانةَ، حَتّى إذا كانَ في وسَطِ النَّهارِ كانَ الظَّفَرُ لِكِنانةَ على قيسٍ.

قالَ ابنُ هِشامٍ: وحَديثُ الفِجارِ أطْوَلُ مِمّا ذَكَرْتُ، وإنَّما مَنَعَني مِن اسْتِقْصائِهِ قَطْعُهُ حَديثَ رَسُولِ الله ﷺ.

قِصّةُ الفِجارِ

والفِجارُ ـ بِكَسْرِ الفاءِ ـ بِمَعْنى: المُفاجَرةِ، كالقِتالِ والمُقاتَلةِ[1]؛ وذَلِكَ أنّهُ كانَ قِتالًا في الشّهْرِ الحَرامِ، ففَجَرُوا فيهِ جَمِيعًا، فسُمّيَ: الفِجارَ، وكانَ[2] لِلْعَرَبِ فِجاراتٌ أرْبَعٌ، ذَكَرَها المَسْعُودِيّ[3]، آخِرُها: فِجارُ البَرّاضِ المَذْكُورُ في السّيرةِ، وكانَ لِكِنانةَ ولِقَيْس فيهِ أرْبَعةُ أيّام مَذْكُورةٌ: يَوْمُ شَمْطةَ، ويومُ العَبْلاء، وهُما عند عُكاظ، ويَوْمُ الشَّرِبِ[4]، وهُوَ أعْظَمُها يَوْمًا، وفيهِ قَيّدَ حَرْبُ بنُ أُمَيّةَ وسُفْيانُ وأبُو سُفْيانَ أبناءُ أُمَيّةَ أنْفُسَهُمْ كَيْ لا يَفِرّوا، فسُمّوا: العَنابِسَ[5]، ويَوْمُ الحُرَيْرةِ عِنْدَ نَخْلةَ، ويَوْمُ الشَّرِبِ انْهَزَمَتْ قَيْسٌ إلّا بَنِي نَضْرٍ مِنْهُمْ؛ فإنّهُمْ ثَبَتُوا، وإنّما لَمْ يُقاتِلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَعَ أعْمامِهِ، وكانَ يَنْبُلُ[6][7] عَلَيْهِمْ، وقَدْ بَلَغَ سِنّ

(١) في (ب): «كالقتال بمعنى المقاتلة».

(٢) في غير (أ)، (ج): «وكانت».

(٣) «مروج الذهب ومعادن الجوهر» (٢: ٢٧١). (ج)

(٤) الشَّرِب: بفتح أوله وكسر ثانيه، كذا ضُبِط في «معجم البلدان» عن أبي بكر بن نصر. وضبطها في «تاج العروس» بفتح فسكون. وهو موضع قرب مكة.

(٥) انظر: «جمهرة ابن حزم» (ص: ٧٨)، و«المنمق» لا بن حبيب: (ص: ١٤٠)، و«نسب قريش» لمصعب: (ص: ١٠٠).

(٦) أي: يناولهم النِّبال وقد أعدّها للرمي.

(٧) في (ف): «يقبل».

القِتالِ؛ لِأَنّها كانَتْ حَرْبَ فِجارٍ، وكانُوا أَيْضًا كُلُّهُمْ كُفّارًا، ولَمْ يَأْذَنِ اللهُ تَعالى لِمُؤْمِنٍ أَنْ يُقاتِلَ إِلّا لِتَكونَ كَلِمةُ اللهِ هِيَ العُلْيا.

واللَّطِيمةُ: عِيرٌ تَحْمِلُ البَزَّ[1] والعِطْرَ.

وَقَوْلُهُ: «بِذِي طَلّالٍ» بِتَشْدِيدِ اللّامِ، وإنّما خَفَّفَهُ لَبِيدٌ في الشعر الذي ذكَره ابنُ إسحاقَ ههنا لِلضَّرُورةِ.

وَقَوْلُ البَرّاضِ: [من الوافر]

رَفَعْتُ لَهُ بِـذِي طَلّالَ كَفِّي

فلَمْ يَصْرِفْهُ، يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ جَعَلَهُ اسْمَ بُقْعةٍ، فتَرَكَ إجْراءَ[2] الِاسْمِ لِلتَّأْنِيثِ والتَّعْرِيفِ، فإِنْ قُلْت: كانَ يَجِبُ أَنْ يَقُولَ: بِذاتِ طَلّالَ، أَيْ: ذاتِ هَذا الِاسْمِ المُؤَنَّثِ[3]، كَما قالُوا: ذُو عَمْرٍو؛ أَيْ: صاحِبُ هَذا الِاسْمِ، ولَوْ كانَتْ أُنْثى، لَقالُوا: ذاتُ هند، فالجَوابُ: أَنَّ قَوْلَهُ: «بِذِي» يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ وصْفًا لِطَرِيقٍ أَوْ جانِبٍ مُضافٍ إلى «طَلّالَ» اسْمِ البُقْعةِ.

وأَحْسَنُ مِنْ هَذا كُلِّهِ أَنْ يَكُونَ «طَلّالُ» اسْمًا مُذَكَّرًا عَلَمًا، والِاسْمُ العَلَمُ يَجُوزُ تَرْكُ صَرْفِهِ في الشِّعْرِ كَثِيرًا، وسَيَأْتِي في هَذا الكِتابِ مِن الشَّواهِدِ عَلَيْهِ ما يَدُلُّك على كَثْرَتِهِ في الكَلامِ، ونؤخِّرُ القولَ في كشْفِ هذه المَسْألةِ وإيضاحِها إلى أَنْ يأْتِيَ بعضُ تِلْكَ الشَّواهِدِ إنْ شاءَ اللهُ[4].

---

(١) البَزّ: نوع من الثياب، أو متاع البيت من الثياب.

(٢) في (د)، (هـ): «آخر الاسم». أراد: فمنع الاسم من الصرف، ومن مصطلحات النحاة: ما يُجْرى وما لا يُجْرى، يريدون: ما يُصرَف وما لا يُصرَف.

(٣) كذا في (ب). وفي غيرها: «للمؤنث».

(٤) انظر: «أمالي السهيلي» (ص: ٢٦-٢٨).

ووَقَعَ في شِعْرِ البَرّاضِ مُشَدّدًا، وفي شِعْرِ لَبيدٍ الّذِي بَعْدَ هَذا مُخَفّفًا، وقُلْنا: إنّ لَبيدًا خَفّفَهُ لِلضّرُورةِ، ولَمْ يقلْ[1]: إنّهُ شُدّدَ لِلضّرُورةِ، وإنّ الأصْلَ فيهِ التّخْفيفُ؛ لِأنّهُ فعّالٌ مِن الطَّلِّ، كَأنّهُ مَوْضِعٌ يَكْثُرُ فيهِ الطَّلُّ، و«طَلالُ» بالتّخْفيفِ لا مَعْنى لَهُ، وأيْضًا فإنّا وجَدْناهُ في الكَلامِ المَنْثُورِ مُشَدّدًا، وكذلك تقيَّد في كَلامِ ابنِ إسْحاقَ هَذا في أصْلِ الشّيْخِ أبِي بَحْرٍ.

وَقَوْلُهُ في البَيْتِ الثّانِي: [من الوافر]

وألْحَقْتُ[2] المَوالِيَ بِالضُّرُوعِ

جَمْعُ: ضَرْعٍ، هُوَ في مَعْنى قَوْلِهِمْ: لَئِيمٌ راضِعٌ؛ أيْ: ألْحَقْتُ المَوالِيَ بِمَنْزِلَتِهِمْ مِن اللّؤْمِ ورَضاعِ الضّرُوعِ، وأظْهَرْت فَسالَتَهُمْ، وهَتَكْت بُيُوتَ أشْرافِ بَنِي كِلابٍ وصُرَحائِهِمْ.

وَقَوْلُ لَبيدٍ: [من الوافر]

... بَيْـنَ تَيْمِـنَ ذِي طَـلالِ

بِكَسْرِ المِيمِ وبِفَتْحِها، ولَمْ يَصْرِفْهُ لِوَزْنِ الفِعْلِ والتّعْرِيفِ؛ لِأنّهُ تَفْعِلُ أوْ تَفْعَلُ؛ مِن اليُمْنِ أو اليَمِينِ.

وَكانَ آخِرُ أمْرِ الفِجارِ: أنّ هَوازِنَ وكِنانةَ تَواعَدُوا لِلْعامِ القابِلِ بعكاظٍ فجاؤوا لِلْوَعْدِ، وكانَ حَرْبُ بنُ أُمَيّةَ رَئِيسَ قُرَيْشٍ وكِنانةَ، وكانَ عُتْبَةُ بنُ رَبيعةَ يَتِيمًا في حِجْرِهِ، فضَنّ بِهِ حَرْبٌ، وأشْفَقَ مِنْ خُرُوجِهِ مَعَهُ، فخَرَجَ عُتْبَةُ بِغَيْرِ إذْنِهِ، فلَمْ يَشْعُرُوا[3] إلّا وهُوَ على بَعِيرِهِ بَيْنَ الصّفّيْنِ يُنادِي: يا مَعْشَرَ مُضَرَ،

(١) في (ف): «نقل».

(٢) في «السيرة»: «وأرضعت».

(٣) في (أ)، (ف): «يشعر».

عَلامَ تَفانَونَ؟ فقالَتْ لَهُ هَوازِنُ: ما تَدْعُو إلَيْهِ؟ فقالَ: الصّلْحُ، على أنْ نَدْفَعَ إلَيْكُمْ دِيةَ قَتْلاكُمْ، ونَعْفُوَ عَنْ دِمائِنا، قالُوا: وكَيْفَ؟ قالَ: نَدْفَعُ إلَيْكُمْ رَهْنًا مِنّا، قالُوا: ومَنْ لَنا بِهَذا؟ قالَ: أنا. قالُوا: ومَنْ أنْتَ؟ قالَ: عُتْبَةُ بنُ رَبِيعةَ بنِ عَبْدِ شَمْسٍ، فرَضُوا ورَضِيَتْ كِنانةُ، ودَفَعُوا إلى هَوازِنَ أرْبَعِينَ رَجُلًا، فيهِمْ حَكِيمُ بنُ حِزامٍ، فلَمّا رَأتْ بَنُو عامِرِ بن صَعْصعةَ الرُّهُنَ في أيْدِيهِمْ، عَفَوْا عَنِ الدّماءِ، وأطْلَقُوهُمْ، وانْقَضَتْ حَرْبُ الفِجارِ. وكانَ يُقالُ: لَمْ يَسُدْ مِنْ قُرَيْشٍ مُمْلِقٌ إلّا عُتْبَةُ وأبُو طالِبٍ؛ فإنّهُما سادَا بِغَيْرِ مالٍ.

* * *

حَدِيثُ تَزْوِيجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْها

[سِنُّه ﷺ عِنْد تزَوُّجِه مِنْ خَدِيجَةَ]

قالَ ابنُ هِشامٍ: فلَمّا بَلَغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَمْسًا وعِشْرِينَ سَنةً، تَزَوَّجَ خَدِيجةَ بِنْتَ خُوَيْلِدِ بنِ أسَدِ بنِ عَبْدِ العُزّى بنِ قُصَيِّ بنِ كِلابِ بنِ مُرّةَ بنِ كَعْبِ بنِ لُؤَيِّ بنِ غالِبٍ، فيما حَدَّثَني غَيْرُ واحِدٍ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ عَنْ أبي عَمْرٍو المَدَنِيِّ.

[خُرُوجُهُ ﷺ إلى الشّامِ في تِجارةِ خَدِيجةَ، وما كانَ مِنْ بَحِيرا]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وكانَتْ خَدِيجةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ امْرَأةً تاجِرةً ذاتَ شَرَفٍ ومالٍ، تَسْتأْجِرُ الرِّجالَ في مالِها وتُضارِبُهُمْ إيّاهُ بِشَيْءٍ تَجْعَلُهُ لَهُمْ، وكانَتْ قُرَيْشٌ قَوْمًا تُجّارًا، فلَمّا بلَغَها عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ما بَلَغَها؛ مِنْ صَدْقِ حَدِيثِهِ، وعِظَمِ أمانَتِهِ، وكَرَمِ أخْلاقِهِ، بَعَثَتْ إلَيْهِ فعَرَضَتْ عَلَيْهِ أنْ يَخْرُجَ في مالٍ لَها إلى الشّامِ تاجِرًا، وتُعْطِيَهِ أفْضَلَ ما كانَتْ تُعْطِي غَيْرَهُ مِن التُّجّارِ، مَعَ غُلامٍ لَها يُقالُ لَهُ: مَيْسَرةُ، فقَبِلَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْها، وخَرَجَ في مالِها ذلك، وخَرَجَ مَعَهُ غُلامُها مَيْسَرةُ حَتّى قَدِمَ الشّامَ.

فنَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ في ظِلِّ شَجَرةٍ قَرِيبًا مِنْ صَوْمَعةِ راهِبٍ مِن الرُّهْبانِ، فاطَّلَعَ الرّاهِبُ إلى مَيْسَرةَ، فقالَ لَهُ: مَنْ هذا الرَّجُلُ الَّذي نَزَلَ تَحْتَ هَذِهِ الشَّجَرةِ؟ قالَ لَهُ مَيْسَرةُ: هذا رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ مِنْ أهْلِ الحَرَمِ، فقالَ لَهُ الرّاهِبُ: ما نَزَلَ تَحْتَ هَذِهِ الشَّجَرةِ قَطُّ إلّا نَبِيٌّ.

[رَغْبَةُ خَدِيجَةَ في الزَّواجِ مِنْهُ]

ثُمَّ باعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سِلْعَتَهُ الَّتِي خَرَجَ بِها، واشْتَرى ما أرادَ أنْ يَشْتَرِيَ، ثُمَّ أقْبَلَ قافِلًا إلى مَكَّةَ ومَعَهُ مَيْسَرةُ. فكانَ مَيْسَرةُ ـ فيما يَزْعُمُونَ ـ إذا كانَت الهاجِرةُ واشْتَدَّ الحَرُّ، يَرى مَلَكَيْنِ يُظِلّانِهِ مِن الشَّمْسِ وهُوَ يَسِيرُ على بَعِيرِهِ، فلَمّا قَدِمَ مَكَّةَ على خَدِيجَةَ بِمالِها، باعَتْ ما جاءَ بِهِ، فأضْعَفَ أوْ قَرِيبًا، وَحَدَّثَها مَيْسَرةُ عَنْ قَوْلِ الرّاهِبِ، وعَمّا كانَ يَرى مِنْ إظْلالِ المَلَكَيْنِ إيّاهُ.

وَكانَتْ خَدِيجَةُ امْرَأَةً حازِمةً شَرِيفةً لَبِيبةً، مَعَ ما أرادَ اللهُ بِها مِنْ كَرامَتِهِ، فلَمّا أخْبَرَها مَيْسَرةُ بِما أخْبَرَها بِهِ، بَعَثَتْ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فقالَتْ لَهُ ـ فيما يَزْعُمُونَ ـ: يا ابن عَمِّ، إنِّي قَدْ رَغِبْتُ فيكَ لِقَرابَتِكَ، وسِطَتِكَ في قَوْمِكَ، وأمانَتِكَ، وحُسْنِ خُلُقِكَ، وصِدْقِ حَدِيثِكَ. ثُمَّ عَرَضَتْ عَلَيْهِ نَفْسَها، وكانَتْ خَدِيجَةُ يَوْمئِذٍ أوْسَطَ نِساءِ قُرَيْشٍ نَسَبًا، وأعْظَمَهُنَّ شَرَفًا، وأكْثَرَهُنَّ مالًا، كُلُّ قَوْمِها كانَ حَرِيصًا على ذلك مِنْها لَوْ يَقْدِرُ عَلَيْهِ.

[نَسَبُ خَدِيجَةَ]

وَهِيَ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدِ بنِ أسَدِ بن عَبْدِ العُزّى بنِ قُصَيِّ بنِ كِلابِ ابنِ مُرَّةَ بنِ كَعْبِ بنِ لُؤَيِّ بنِ غالِبِ بنِ فِهْرٍ. وأُمُّها: فاطِمةُ بِنْتُ زائِدةَ بنِ الأصَمِّ بنِ رَواحةَ بنِ حَجَرِ بنِ عَبْدِ بنِ مَعِيصِ بنِ عامِرِ بنِ لُؤَيِّ بنِ غالِبِ ابنِ فِهْرٍ. وأُمُّ فاطِمةَ: هالةُ بِنْتُ عَبْدِ مَنافِ بنِ الحارِثِ بنِ عَمْرِو بنِ مُنْقِذِ ابنِ عَمْرِو بن مَعِيصِ بنِ عامِرِ بنِ لُؤَيِّ بنِ غالِبِ بنِ فِهْرٍ. وأُمُّ هالةَ: قِلابةُ بِنْتُ سَعِيدِ بن سَعْدِ بنِ سَهْمِ بنِ عَمْرِو بنِ هُصَيْصِ بنِ كَعْبِ بنِ لُؤَيِّ بنِ غالِبِ بنِ فِهْرٍ.

فَصْلٌ
في تَزْوِيجِهِ عَلَيْهِ السّلامُ خَدِيجةَ

وذكَرَ فيهِ قَوْلَ الرّاهِبِ: «ما نَزَلَ تَحْتَ هَذِهِ الشَّجَرةِ إلّا نَبِيّ»، يُرِيدُ: ما نَزَلَ تَحْتَها هَذِهِ السّاعةَ إلّا نَبِيّ، ولَمْ يُرِدْ: ما نَزَلَ تَحْتَها قَطّ إلّا نَبِيّ؛ لِبُعْدِ العَهْدِ بِالأَنْبِياءِ قَبْلَ ذَلِكَ، وإنْ كانَ في لَفْظِ الخَبَرِ: «قَطّ»، فقَدْ تكَلَّمَ[1] بها [مجازًا][2] على جِهةِ[3] التّوْكِيدِ لِلنّفْيِ، [ولعلّها زيادةٌ من الكاتب][4]، والشَّجَرةُ لا تُعَمَّرُ في العادةِ هَذا العُمْرَ الطّوِيلَ حَتّى يُدْرى أَنّهُ لَمْ يَنْزِلْ تَحْتَها إلّا عِيسى، أَوْ غَيْرُهُ مِن الأَنْبِياءِ، ويَبْعُدُ [في][5] العادةِ أَيْضًا أَنْ تكُونَ شَجَرةٌ تَخْلُو مِنْ أَنْ يَنْزِلَ تَحْتَها أَحَدٌ حَتّى يَجِيءَ نَبِيّ، إلّا أَنْ تَصِحّ رِوايةُ مَنْ قالَ في هَذا الحَدِيثِ: «لَمْ يَنْزِلْ تَحْتَها أَحَدٌ بَعْدَ عيسى بن مَرْيَمَ»، وهِيَ رِوايةٌ عَنْ غَيْرِ ابنِ إِسْحاقَ، فالشَّجَرةُ على هَذا مَخْصُوصةٌ بِهَذِهِ الآيةِ. واللهُ أَعْلَمُ.

وهَذا الرّاهِبُ ذَكَرُوا أَنّ اسمه نسطورا، وليس هو هذا[6] بَحِيرا المتقدِّم ذِكْرُه.

وَقَوْلُ خَدِيجةَ: «لِسِطَتِك في عَشِيرَتِك»، وقَوْلُهُ في وصْفِها: «هِيَ أَوْسَطُ قُرَيْشٍ نَسَبًا». فالسِّطةُ: مِن الوَسَطِ، مَصْدَرٌ كالعِدةِ والزِّنةِ، والوَسَطُ مِنْ أَوْصافِ

(١) في (ف): «يتكلم».
(٢) ليس في (ب)، (هـ)، (ف). هذا و«قطُّ» بمعنى الدهر مخصوصة بالماضي، هذا أصل معناها، وهو يقضي بنزول الأنبياء أو بعضهم تحت الشجرة. ومن هنا كان التجوز في معناها.
(٣) في (أ): «وجه».
(٤) انفردت بها (د).
(٥) ليس في (ب).
(٦) «هذا» ليس في: (ف).

المَدْحِ والتَّفْضِيلِ، ولَكِنْ في مَقامَيْنِ: في ذِكْرِ النَّسَبِ، وفي ذِكْرِ الشَّهادةِ. أمّا النَّسَبُ؛ فلِأنّ أوْسَطَ القَبيلةِ أعرقُها، وأَولاها بالصّمِيمِ وأبْعَدُها عَن الأطْرافِ، والوَسِيطِ[١] أجْدَرُ ألّا تُضافَ إلَيْهِ الدِّعْوةُ[٢]؛ لِأنّ الآباءَ والأُمّهاتِ قَدْ أحاطُوا بِهِ مِنْ كُلّ جانِبٍ، فكان الوَسَطُ مِنْ أجْلِ هَذا مَدْحًا في النَّسَبِ بِهَذا السَّبَبِ، وأمّا الشّهادةُ فنَحْو قَوْلِهِ سُبْحانَهُ: ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ [القلم: ٢٨]، و﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٤٣]، فكانَ هَذا مدحًا في الشَّهادةِ؛ لأنها غايةُ العَدالةِ في الشّاهِدِ أنْ يَكُونَ وسَطًا كالمِيزانِ، لا يَمِيلُ مَعَ أحَدٍ، بَلْ يُصَمّمُ على الحَقّ تَصْمِيمًا، لا يَجْذِبُهُ هَوًى، ولا تَمِيلُ بِهِ رَغْبةٌ ولا رَهبةٌ مِن ههنا، ولا مِن ههنا، فكانَ وصْفُهُ بِالوَسَطِ غايةً في التّزْكِيةِ والتّعْدِيلِ، وظَنّ كَثِيرٌ مِن النّاسِ أنّ مَعْنى الأوْسَطِ: الأفْضَلُ على الإطْلاقِ، وقالُوا: مَعْنى الصّلاةِ الوُسْطى: الفُضْلى، ولَيْسَ كَذلِكَ، بَلْ هُوَ في جَمِيعِ الأوصافِ لا مَدْح ولا ذَمّ، كَما يَقْتَضِي لَفْظُ التّوَسّطِ، فإذا كانَ وسَطًا في السِّمَنِ: فهو بَيْنَ المُمِخّةِ[٣] والعَجْفاءِ. والوَسَطُ في الجَمال: بيْن الحَسناءِ والشّوْهاءِ، إلى غَيْرِ ذَلِكَ مِن الأوْصافِ، لا يُعْطِي مَدْحًا ولا ذَمًّا، غَيْرَ أنّهُمْ قَدْ قالُوا في المَثَلِ: «أثْقَلُ مِنْ مُغَنٍّ وسَطٍ» [على][٤] الذّمّ؛ لِأنّ المُغَنِّيَ إنْ[٥] كانَ مَجِيدًا جِدًّا أمْتَعَ وأطْرَبَ، وإنْ كانَ بارِدًا جِدًّا أضْحَكَ وألْهى، وذَلِكَ أيْضًا مِمّا يُمْتِعُ.

---

(١) في (ب)، (د)، (ف): «والوسيط وأجدر». وفي (هـ): «والوسيط واحد من الأنصاف».

(٢) الدِّعوة ـ بكسر الدال ـ: ادِّعاء الولد الدعيّ غير أبيه.

(٣) أمخَّ العظم: صار فيه مخّ، وأمخَّت الدابة والشاة والإبل: سَمِنت.

(٤) ليس في (ب).

(٥) في (ف): «إذا».

قالَ الجاحِظُ: وإنّما الكَرْبُ الّذِي يَجثمُ على القُلُوبِ، ويَأْخُذُ بالأنْفاسِ: الغِناءُ الفاتِرُ الوَسَطُ الّذِي لا يُمْتِعُ بحُسْنٍ، ولا يُضْحِكُ بلَهْوٍ. وإذا ثَبَتَ هَذا فلا يَجُوزُ أنْ يُقالَ في رَسُولِ اللهِ ﷺ: هُوَ أوْسَطُ النّاسِ؛ أيْ: أفْضَلُهُمْ، ولا يُوصَفُ بأنّهُ وسَطٌ في العِلْمِ، ولا في الجُودِ، ولا في غَيْرِ ذَلِكَ إلّا في النّسَبِ والشّهادةِ، كَما تَقدّمَ، والحَمْدُ لله [وحدهُ][1].

[زَواجُهُ ﷺ مِنْ خَدِيجَةَ]

فَلَمّا قالَتْ ذلك لِرَسُولِ الله ﷺ، ذكَرَ ذلك لأعْمامِهِ، فخَرَجَ مَعَهُ عَمُّهُ حَمْزةُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ رَحِمَهُ الله، حَتّى دَخَلَ على خُوَيْلِدِ بنِ أسَدٍ، فخَطَبَها إلَيْهِ، فتَزَوَّجَها.

قالَ ابنُ هِشامٍ: وأصْدَقَها رَسُولُ الله ﷺ عِشْرِينَ بَكْرةً، وكانَتْ أوّلَ امْرَأةٍ تَزَوَّجَها رَسُولُ الله ﷺ، ولَمْ يَتَزَوَّجْ عَلَيْها غَيْرَها حَتّى ماتَتْ رَضِيَ الله عَنْها.

فَصْلٌ

وذَكَرَ مَشْيَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إلى خُوَيْلِدِ بنِ أسَدٍ مَعَ عَمِّهِ حَمْزةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وذَكَرَ غَيْرُ ابنِ إسْحاقَ أنّ خُوَيْلِدًا كانَ إذ ذاك قد هلَكَ، وأنّ الّذِي أنْكَحَ خَدِيجَةَ هُوَ عَمُّها عَمْرُو بنُ أسَدٍ، قالَهُ المُبَرِّدُ[2] وطائِفةٌ مَعَهُ.

وقالَ أيْضًا: إنّ أبا طالِبٍ هُوَ الّذِي نَهَضَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وهُوَ الّذِي خَطَبَ خُطْبَةَ النّكاحِ، وكانَ مِمّا قالَهُ[3] في تِلْكَ الخُطْبَةِ: «أمّا بَعْدُ: فإنّ مُحَمّدًا

---

(١) عن (أ).

(٢) «الكامل» للمبرد: (٣: ١٣٦٢).

(٣) في (ف): «قال».

مِمّنْ لا يُوازَنُ بِهِ فتًى مِنْ قُرَيْشٍ إلّا رَجَحَ بِهِ شرَفًا ونُبْلًا وفضْلًا وعقْلًا، وإن كان في المالِ قُلّ[١]، فإنما[٢] المال ظِلٌّ زائِلٌ، وعارِيّةٌ مُسْتَرْجَعةٌ، ولَهُ في خَدِيجةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَغْبةٌ، ولَها فيهِ مِثْلُ ذَلِكَ». فقالَ عَمْرٌو: هُوَ الفَحْلُ الّذِي لا يُقْدَعُ أَنْفُهُ[٣]، فأنْكَحَها مِنْهُ، ويُقالُ: قالَهُ ورَقةُ بنُ نَوْفَلٍ.

والّذِي قالَهُ المُبَرّدُ هُوَ الصّحِيحُ؛ لِما رواه الطّبَرِيّ[٤] عَنْ جُبَيْرِ بنِ مُطْعِمٍ، وعَن ابنِ عَبّاسٍ، وعَنْ عائِشةَ كُلّهِمْ قالَ: إنّ عَمْرَو بنَ أَسَدٍ هُوَ الّذِي أَنْكَحَ خَدِيجةَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وإنّ خُوَيْلِدًا كانَ قَدْ هَلَكَ قَبْلَ الفِجارِ.

وخُوَيلِدُ بنُ أَسَدٍ هُوَ الّذِي نازَعَ تُبّعًا الآخَرَ حِينَ حَجّ، وأرادَ أنْ يَحْتَمِلَ الرّكْنَ الأسْوَدَ مَعَهُ إلى اليَمَنِ، فقامَ في ذَلِكَ خُوَيْلِدٌ، وقامَ مَعَهُ جَماعةٌ، ثُمّ إنّ تُبّعًا رُوّعَ في مَنامِهِ تَرْوِيعًا شَدِيدًا حَتّى تَرَكَ ذَلِكَ وانْصَرَفَ.

فَصْلٌ

وذَكَرَ الزُّهْرِيُّ في «سيرته» - وهي أوّلُ سِيرةٍ أُلِّفت[٥] في الإسْلامِ، كَذا رُوِيَ عَن الدّراوَرْدِيّ[٦] - أنّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ لِشَرِيكِهِ الّذِي كانَ يَتّجِرُ مَعَهُ في مالِ خَدِيجةَ: «هَلُمّ فلْنَتَحَدّثْ عِنْدَ خَدِيجةَ»، وكانَتْ تُكْرِمُهُما وتُتْحِفُهُما، فلَمّا

---

(١) في (أ)، (ج): «قُـلًّا». وفي حاشيـة (أ): «القُـلّ والكُثـر والعُظـم لُغة في فَعيـل». وفي «تاج العروس»: «والقُلّ بالضم: القليل. ومن الشيء: أقلُّه».

(٢) في (ب)، (هـ): «فإن المال».

(٣) «الكامل» (١: ٢٠٩). يُقال: قدَعْتُ الفحلَ، وقدَعْتُ أنفه. والقَدوع: البعير الذي يريد الناقة الكريمة ولا يكون كريمًا، فيُضرب أنفه بالرمح حتى يرجع.

(٤) «تاريخ الرسل والملوك» (٢: ٢٨٢). (ج)

(٥) «ألفت» ليس في: (ف).

(٦) «الكلبي» (ص: ٧٤)، و«أسد الغابة» (٧: ٨٠).

قاما[١] مِنْ عِنْدِها جاءَت امْرَأَةٌ مُسْتَنْشِئَةٌ ـ وهِيَ الكاهِنَةُ. كَذلكَ قالَ الخَطّابِيّ[٢] في شَرْحِ هَذا الحَدِيثِ ـ فقالَتْ لَهُ: جِئْت خاطِبًا يا مُحَمّدُ؟ فقال: «كلا»، فقالتْ: ولِمَ؟! فوَالله ما في قُرَيْشٍ امْرَأَةٌ وإنْ كانَتْ خَدِيجةُ إلّا تَراك كُفُؤًا لَها. فرَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ خاطِبًا لِخَدِيجةَ مُسْتَحْيِيًا مِنْها، وكانَ خُوَيْلِدٌ أبُوها سَكْرانَ مِن الخَمْرِ، فلَمّا كُلّمَ في ذَلِكَ أنْكَحَها، فألْقَتْ[٣] عَلَيْهِ خَدِيجةُ[٤] حُلّةً وضَمّخَتْهُ بِخَلُوقٍ، فلَمّا صَحا مِنْ سُكْرِهِ، قالَ: ما هَذِهِ الحُلّةُ والطّيبُ؟ فقِيلَ: إنّك أنْكَحْت مُحَمّدًا خَدِيجةَ، وقَد ابْتَنى بِها، فأنْكَرَ ذَلِكَ، ثُمّ رَضِيَهُ وأمْضاهُ[٥].

ففي هَذا الحَدِيثِ: أنّ أباها كانَ حَيًّا، وأنّهُ الّذِي أنْكَحَها. كَما قالَ ابنُ إسْحاقَ. وقالَ راجِزٌ مِنْ أهْلِ مَكّةَ في ذَلِكَ: [من الرجز]

لا تَزْهَدِي خَدِيجَ في مُحَمّدِ ... نَجْمٌ يُضِيء كَإضاءِ الفَرْقَدِ

وَقِيلَ: إنّ عَمْرَو بنَ خُوَيْلِدٍ أخاها هُوَ الّذِي أنْكَحَها مِنْهُ، ذَكَرَهُ ابنُ إسْحاقَ في آخِرِ الكِتابِ.

* * *

(١) في (ب): «قام».

(٢) «غريب الحديث» للخطابي: (١: ٢٣٩).

(٣) في (أ): «وألقت».

(٤) في (ف): «فألقت خديجة عليه».

(٥) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (٥: ٢٢٠).

[أَوْلادُهُ ﷺ مِنْ خَدِيجَةَ]

قالَ ابنُ إِسْحاقَ: فوَلَدَتْ لِرَسُولِ الله ﷺ ولَدَهُ كُلَّهُمْ إلّا إِبْراهِيمَ، القاسِمَ، وبَهْ كانَ يُكَنّى ﷺ، والطّاهِرَ، والطَّيِّبَ، وزَيْنَبَ، ورُقَيّةَ، وأُمَّ كُلْثُومٍ، وفاطِمَةَ، عَلَيْهِم السلامُ.

قالَ ابنُ هِشامٍ: أكْبَرُ بَنِيهِ القاسِمُ، ثُمَّ الطَّيِّبُ، ثُمَّ الطّاهِرُ، وأكْبَرُ بَناتِهِ رُقَيّةُ، ثُمَّ زَيْنَبُ، ثُمَّ أُمُّ كُلْثُومٍ، ثُمَّ فاطِمةُ.

قالَ ابنُ إِسْحاقَ: فأمّا القاسِمُ، والطَّيِّبُ، والطّاهِرُ فهَلَكُوا في الجاهِلِيّةِ، وَأمّا بَناتُهُ فكُلُّهُنَّ أدْرَكْنَ الإسْلامَ، فأسْلَمْنَ وهاجَرْنَ مَعَهُ ﷺ.

فَصْلٌ

وذَكَرَ ولَدَه منها ﷺ، فذَكَرَ البَناتِ، وذَكَرَ القاسِمَ والطّاهِرَ والطّيّبَ، وذَكَرَ أنّ البَنِينَ هَلَكُوا في الجاهِلِيّةِ، وقالَ الزّبَيْرُ ـ وهُوَ أعْلَمُ بِهَذا الشّأْنِ ـ: ولَدَتْ لَهُ القاسِمَ وعَبْدَ اللهِ، وهُوَ الطّاهِرُ، وهُوَ الطّيّبُ، سُمّيَ بِالطّاهِرِ والطّيّبِ؛ لِأنّهُ وُلِدَ بَعْدَ النّبُوّةِ، واسْمُهُ الّذي سُمِّيَ بِهِ أوّلُ[1] هُوَ: عَبْدُ اللهِ، وبَلَغَ القاسِمُ المَشْيَ، غَيْرَ أنّ رَضاعَتَهُ لَمْ تكُنْ كَمُلَتْ.

ووقَعَ في «مُسْنَدِ الفِرْيابِيّ»[2]: أنّ خَدِيجةَ دَخَلَ عَلَيْها رَسُولُ اللهِ ﷺ

(١) في (أ)، (ج): «أولًا».

(٢) «مسند الفريابي» ذكر الحافظ ابن حجر في شأنه أنه لم يرتبه على مسانيد الصحابة. «المعجم =

بَعْدَ مَوْتِ القاسِمِ وهِيَ تَبْكِي، فقالَتْ: يا رَسُولَ اللهِ، دَرَّتْ لُبَيْنَةُ القاسِمِ، فلَوْ كانَ عاشَ حَتّى يَسْتَكْمِلَ رَضاعَتَهُ لَهَوَّنَ عَلَيَّ، فقالَ: «إنَّ لَهُ مُرْضِعًا في الجَنَّةِ تَسْتَكْمِلُ رَضاعَتَهُ»، فقالَتْ: لَوْ أعْلَمُ ذَلِكَ لَهَوَّنَ عَلَيّ، فقالَ: «إنْ شِئْتِ أسْمَعْتُكِ صَوْتَهُ في الجَنّةِ»، فقالَتْ: بَلْ أُصَدّقُ اللهَ ورَسُولَهُ[1].

قَوْلُها: «لُبَيْنَةُ القاسم»: هِيَ تَصْغِيرُ لَبَنةٍ، وهِيَ قِطْعةٌ مِن اللّبَنِ، كالعُسَيْلَةِ، تَصْغِيرُ عَسَلةٍ، ذَكَرَ سِيبَوَيْهِ اللّبَنةَ والعَسَلةَ والشّهدةَ على هَذا المَعْنى[2].

قالَ المُؤَلّفُ رضِيَ اللهُ عنهُ: وهَذا مِنْ فِقْهِها رَضِيَ اللهُ عَنْها؛ كَرِهَتْ أنْ تُؤْمِنَ بِهَذا الأمْرِ مُعايَنةً، فلا يَكُونُ لَها أجْرُ التّصْدِيقِ والإيمانِ بِالغَيْبِ، [وإنّما أثْنى اللهُ تَعالى على الّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالغَيْبِ][3].

وهَذا الحَدِيثُ يَدُلّ أيْضًا على أنّ القاسِمَ لَمْ يَهْلِكْ في الجاهِلِيّةِ. واخْتَلَفُوا في الصّغْرى والكُبْرى مِن البَناتِ، غَيْرَ أنّ أُمّ كُلْثُومٍ لَمْ تكُن الكُبْرى مِن البَناتِ، ولا فاطِمةُ، والأصَحّ في فاطِمةَ أنّها أصْغَرُ مِنْ أُمّ كُلْثُومٍ[4].

وَخَدِيجةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ ـ كما ذُكِرَ ـ كانَتْ تُسَمّى: الطّاهِرةَ في الجاهِلِيّةِ والإسْلامِ، وفي «سِيَرِ التّيْمِيِّ» أنّها كانَتْ تُسَمّى: سَيّدةَ نِساءِ قُرَيْشٍ، وأنّ النّبِيّ ﷺ حِينَ أخْبَرَها عَنْ جِبْرِيلَ ـ ولَمْ تكُنْ سَمِعَتْ بِاسْمِهِ قَطّ[5] ـ رَكِبَتْ إلى

= المفهرس» (٢: ٣٥). (ج)

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الجنائز، باب ما جاء في الصلاة على ابن رسول الله ﷺ وذكر وفاته، رقم (٢٩٧) من حديث الحسين بن علي رضيَ الله عنهما. (ج)

(٢) «الكتاب» (٤: ٤٥). وفيه: اللَّبْنة والشَّهْدة بالتسكين.

(٣) سقط من (ب).

(٤) في (أ): «والأصح فاطمة أصغر».

(٥) في (ب): «قبل».

بَحِيرا الرّاهِبِ ـ واسْمُهُ: سَرْجِسُ فيما ذَكَرَ المَسْعُودِيّ[١] ـ فسَأَلَتْهُ عَنْ جِبْرِيلَ، فقالَ: قُدّوسٌ قُدّوسٌ يا سَيّدةَ نِساءِ قُرَيْشٍ، أنّى لَكِ بِهَذا الِاسْمِ؟! فقالَتْ: بَعْلِي وابنُ عَمّي مُحَمّدٌ أَخْبَرَنِي أنّهُ يَأْتِيه، فقالَ: قُدّوسٌ قُدّوسٌ، ما عَلِمَ بِهِ إلّا نَبِيّ؛ فإنّهُ السّفيرُ بَيْنَ اللهِ وبَيْنَ أنْبيائِهِ، وإنّ الشّيْطانَ لا يَجْتَرِئ أنْ يَتَمَثّلَ بِهِ، ولا أنْ يَتَسَمّى باسْمِهِ، وكانَ بِمَكّةَ غُلامٌ لِعُتْبَةَ بنِ رَبيعة ـ سَيَأْتِي ذِكْرُهُ ـ اسْمُهُ: عَدّاسٌ، عِنْدَهُ عِلْمٌ مِن الكِتابِ، فأَرْسَلَتْ إلَيْهِ تَسْأَلُهُ عَنْ جِبْرِيلَ، فقالَ: قُدّوسٌ قُدّوسٌ، أنّى لِهَذِهِ البِلادِ أنْ يُذْكَرَ فيها جِبْرِيلُ يا سَيّدةَ نِساءِ قُرَيْشٍ؟! فأَخْبَرَتْهُ بما يَقُولُ النّبِيّ ﷺ، فقالَ عَدّاسٌ مِثْلَ مَقالةِ الرّاهِبِ، فكانَ ذلكَ مِمّا زادَها اللهُ بِهِ إيمانًا ويَقِينًا.

وَذَكَرَ ابنُ إسْحاقَ نَسَبَ أُمّها فاطِمَةَ بِنْتِ زائِدةَ بنِ الأَصَمّ، ولَمْ يَذْكُر اسْمَ الأَصَمّ، وذَكَرَهُ الزّبَيْرُ وغَيْرُهُ، فقالَ: جُنْدُبُ بنُ هَرِمِ[٢] بنِ حَجَرٍ، بِفَتْحِ الحاءِ والجِيمِ مِنْ (حَجَرٍ)، كَذا قَيّدَهُ الدارقطنيّ[٣]، وأخوه: حُجَير بن عبْد مَعِيص بن عامرٍ، وأمّا حَجْرٌ بِسُكُونِ الجِيمِ ففي حَيِّ ذِي رُعَيْنٍ، وإلَيْهِ يُنْسَبُ الحَجْرِيّونَ، وأمّا حِجْرُ بِكَسْرِ الحاءِ، ففي بَنِي الدّيّانِ: عَبْدُ الحِجْرِ بنُ عبد المَدانِ[٤]، وهم من بني الحارِثِ بنِ كَعْبِ بنِ مَذْحِجَ، وذَكَرَ يُونُسُ عَن ابنِ إسْحاقَ نَسَبَ

(١) «مروج الذهب ومعادن الجوهر» (١: ٨٩). (ج)

(٢) في (أ): «بهرم». ولم أجده، على أن في «المؤتلف والمختلف» للدارقطني: (٢: ٦٦٣): «ظهرم». وما أثبتناه يوافق ما في «المحبر» لابن حبيب: (ص: ١٨)، و«تبصير المنتبه» لابن حجر: (١: ١٢)، أما «نسب قريش» لمصعب: (ص: ٢٢)، و«جمهرة الكلبي» (ص: ١١٢)، و«ابن حزم» (ص: ١٧١)، ففيها: «هِدْم».

(٣) «المؤتلف والمختلف» (٢: ٦٥٩-٦٦٠).

(٤) كذا في الأصول، وفي «السيرة»: «عمرو»، وفي «جمهرة الكلبي» (ص: ١١٢): «عبيد». ولم يذكر عبد ولا عبيد في «المحبر» (ص: ١٨)، ولا في «جمهرة ابن حزم» (ص: ١٧١).

أُمّ خَدِيجةَ، كَما ذُكِرَ في رِوايةِ ابنِ هِشامٍ، وزادَ فقالَ: كانَتْ أُمّ فاطِمةَ بِنْتُ زائِدةَ: هالةَ بِنْتَ عَبْدِ مَنافِ بنِ الحارِثِ بنِ عَبْدِ بنِ مُنْقِذِ بنِ عَمْرِو بنِ مَعِيصِ ابنِ عامِرِ بن لُؤَيٍّ، وأُمّها قِلابةُ، وهِيَ العَرْقةُ بِنْتُ سَعِيدِ[1] بنِ سَعْدِ بنِ سَهْمِ بنِ عَمْرِو بنِ هُصَيْصِ بنِ كَعْبِ بنِ لُؤَيّ، وأُمّها: أُمَيْمةُ[2] بِنْتُ عامِرِ بنِ الحارِثِ ابنِ فِهْرٍ.

[وأمُّها ابنةُ سعْدِ بنِ كعْبِ بنِ عَمْرٍو مِن خُزاعةَ، وأمُّها قِلابةُ بنتُ حَرْبِ بن الحارِثِ بْنِ فِهرٍ، وأمُّها سَلْمى بنتُ غالِبِ بن فِهْرٍ][3].

وَكانَتْ خَدِيجةُ قَبْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عِنْدَ أَبِي هالةَ، وهُوَ هِنْدُ بنُ زُرارةَ، وقَدْ قِيلَ في اسْمِهِ: زُرارةُ، وهِند: ابنُه، ابن النّبّاشِ من بني عديّ بن جِرْوة[4] بن أُسيِّدِ بن عمْرِو بن تَمِيمٍ، فهُوَ أُسَيْدِيّ بِالتّخْفيفِ، مَنْسُوب إلى أُسَيِّدٍ بِالتّشْدِيدِ، كَذا قالَ سِيبَوَيْهِ في النّسَبِ[5] إلى أُسيِّد.

وعَديُّ بن جِرْوة، يقال: إن الزّبير صَحَّفه، وإنما هوى عِذْيُ بنُ جِرْوةَ، وكانَتْ قَبْلَ أَبِي هالةَ عِنْدَ عَتِيقِ بنِ عائِذِ بنِ عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرِو بنِ مَخْزُومٍ، ولَدَتْ لَهُ عَبْدَ مَنافِ بنِ عَتِيقٍ[6]، كَذا قالَ ابنُ أَبِي خَيْثَمةَ، وقالَ الزّبَيْرُ[7]: ولَدَتْ لِعَتِيقٍ

---

(١) ليس في «المحبر» (ص: ١٨)، ولا في «نسب قريش» لمصعب: (ص: ٢٢)، بل فيهما: سعيد ابن سهم.

(٢) في (أ): «أمية».

(٣) ليس في (أ).

(٤) في «جمهرة ابن حزم»: «جُرْدة». وانظر: «المحبّر» (ص: ٧٨)، و«جمهرة الكلبي» (ص: ٢٦٩)، و«المعارف» (ص: ١٣٣).

(٥) «الكتاب» (٣: ٣٧٠).

(٦) الذي في «المحبر» (ص: ٧٨، ٤٥٢) أن عتيقًا خلف عليها بعد أبي هالة.

(٧) «نسب قريش» (ص: ٢٢). (ج)

جاريةً اسْمُها: هِنْدٌ، ووَلَدَتْ لِهِنْدِ أبِي هالةَ ابنًا اسْمُهُ: هِنْدٌ أيْضًا، ماتَ بالطّاعُونِ طاعُونِ البَصْرةِ، وكانَ[1] قَدْ ماتَ في ذَلِكَ اليَوْمِ نَحْوٌ مِنْ سَبْعِينَ ألْفًا، فشُغِلَ النّاسُ بِجَنائِزِهِمْ عَنْ جنازَتِهِ، [فلَمْ يُوجَدْ مَنْ يَحْمِلُها][2]، فصاحَتْ نادِبَتُهُ: واهِنْدُ بنَ هِنْداهُ! وارَبِيبَ رَسُولِ اللهِ ﷺ! فلَمْ تَبْقَ جنازةٌ إلّا تُرِكَتْ، واحْتُمِلَتْ جِنازَتُهُ على أطْرافِ الأصابعِ؛ إعْظامًا لرَسُولِ اللهِ[3] ﷺ. ذَكَرَهُ الدّولابِيّ.

ولِخَدِيجةَ مِنْ أبِي هالةَ ابنانِ غَيْرُ هندٍ، اسْمُ أحَدِهِما: الطّاهِرُ، واسْمُ الآخَرِ: هالةُ[4].

واخْتُلِفَ في سِنّهِ عليه السلامُ حِينَ تَزَوّجَ خَدِيجةَ؛ فقِيلَ ما قالَهُ ابنُ إسْحاقَ، وقِيلَ: [كانَ][5] ابنَ ثَلاثِينَ سَنةً، وقِيلَ: ابنَ إحْدى وعِشْرِينَ سَنةً.

[أُمُّ إبْراهِيمَ]

قالَ ابنُ هِشامٍ: وأمّا إبْراهِيمُ فأُمُّهُ مارِيةُ القِبْطِيّةُ. حَدَّثَنا عَبْدُ اللهِ بنُ وهْبٍ، عَن ابنِ لَهِيعةَ، قالَ: أُمُّ إبْراهِيمَ: مارِيةُ سُرِّيّةُ النَّبِيِّ ﷺ الَّتِي أهْداها إلَيْهِ المُقَوْقِسُ مِنْ حَفْنَ مِنْ كُورةِ أنْصِنا.

فَصْلٌ

وذَكَرَ أنّ خَدِيجةَ ولَدَتْ لِلنّبِيّ ﷺ ولَدَهُ كُلَّهُمْ إلّا إبْراهِيمَ، فإنّهُ مِنْ مارِيةَ

(١) في (ف): «وقد كان».

(٢) زيادة من (ب).

(٣) في (ف): «إعظاما لربيب رسول الله».

(٤) في (ب) وحدها: «بنتان... إحداهما... الأخرى».

(٥) عن (ب)، (ج).

الّتِي أهْداها إليه المقوقِسُ، وقَدْ تَقَدّمَ اسْمُ المُقَوْقِسِ، وأنّهُ جُرَيْجُ بنُ مِينا[١]، وذَكَرْنا مَعْنى المُقَوْقِسِ في أوّلِ الكِتابِ.

وذَكَرْنا أنّهُ أهْدى مارِيَةَ مَعَ حاطِبِ بنِ أبِي بَلْتَعةَ، ومَعَ جَبْرٍ[٢] مَوْلى أبِي رُهْمٍ الغِفارِيّ، واسْمُ أبِي رُهْمٍ: كُلْثُومُ بن الحُصَيْنِ. وذَلِكَ حِينَ أرْسَلَهما إلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدْعُوهُ إلى الإسْلامِ، وأهْدى مَعَها أُخْتَها سِيرِينَ، وهِيَ الّتِي وهَبَها رَسُولُ اللهِ ﷺ لِحَسّانَ بن ثابِتٍ، فأوْلَدَها عَبْدَ الرّحْمَنِ بنَ حَسّانَ، وأهْدى مَعَها المُقَوْقِسُ أيْضًا غُلامًا خَصِيًّا اسْمُهُ: مَأْبُورٌ، وبَغْلةٌ تُسَمّى: دُلْدُلَ، وقَدَحًا مِنْ قَوارِيرَ كانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَشْرَبُ فيهِ[٣].

وتُوُفّيَتْ مارِيةُ رَضِيَ اللهُ عَنْها سَنَةَ سِتَّ عَشْرةَ [في خِلافةِ عُمَرَ][٤]، [وكانَ رضيَ اللهُ عنهُ][٥] هُوَ الّذِي يَحْشُرُ النّاسَ إلى جِنازَتِها بِنَفْسِهِ[٦]. وهِيَ مارِيةُ بِنْتُ شَمْعُونَ القِبْطِيّةُ مِنْ كُورةِ حَفْنٍ[٧].

وأمّا إبْراهِيمُ ابنُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فماتَ وهُوَ ابنُ ثَمانِيةَ عَشَرَ شَهْرًا، في سَنَةِ عَشْرٍ مِن الهِجْرةِ، في اليَوْمِ الّذِي كَسَفَتْ فيهِ الشّمْسُ، وكانَتْ قابِلَتُهُ سَلْمى امْرَأةَ أبِي رافِعٍ، وأرْضَعَتْهُ أُمّ بُرْدةَ بِنْتُ المُنْذِرِ النّجّارِيّةُ امْرَأةُ البَراءِ بنِ أوْسٍ،

---

(١) في (ب): «ميناء».
(٢) في (أ): «أبي جبر». وهو خطأ. وانظر ترجمة جبر بن عبد الله في: «أسد الغابة» (١: ١٧).
(٣) الذي في «أسد الغابة» أن جبرًا كان رسول المقوقس بمارية، وأنه قبطي، وذكر عن أبي سعيد ابن يونس أن قومًا من غفار يزعمون أن جبرًا منهم.
(٤) ليس في (ب).
(٥) مكانه في (ب)، (ج): «وكان عمر».
(٦) انظر: «أسد الغابة» (٧: ٢٦١).
(٧) حَفْن: من قرى الصعيد في مصر. «معجم البلدان» (حفن).

وسَلْمى: هِيَ مَوْلاةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وقابلةُ بَنِي فاطِمةَ رضيَ اللهُ عنها كُلِّهِمْ، وهِيَ غَسّلَتْها مَعَ أسْماءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ الخَثْعَمِيّةِ، وغَسّلَها مَعَهُما عَلِيٌّ رضي الله عنه. وفي «المُسْنَدِ» مِنْ طَرِيقِ أنَسٍ: أنّ رسول الله ﷺ حين ولَدَتْ لَهُ ماريةُ ابنَهُ إبْراهِيمَ وقَعَ في نَفْسِهِ مِنْهُ شَيْءٌ، حَتّى نَزَلَ جِبْرِيلُ، فقالَ لَهُ: «السّلامُ عَلَيْك يا أبا إبْراهِيمَ»[(١)][(٢)].

[حَدِيثُ خَدِيجَةَ مَعَ ورَقَةَ، وصِدْقُ نُبُوءةِ ورَقَةَ فيهِ ﷺ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وكانَتْ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ قَدْ ذَكَرَتْ لِوَرَقَةَ بنِ نَوْفَلِ ابن أسَدِ بنِ عَبْدِ العُزّى ـ وكانَ ابنَ عَمِّها، وكانَ نَصْرانِيًّا قَدْ تَتَبَّعَ الكُتُبَ وعَلِمَ مِنْ عِلْمِ النّاسِ ـ ما ذَكَرَ لَهَا غُلامُها مَيْسَرَةُ مِنْ قَوْلِ الرّاهِبِ، وما كانَ يَرى مِنْهُ إذْ كانَ المَلَكانِ يُظِلّانِهِ، فقالَ ورَقةُ: لَئِنْ كانَ هذا حَقًّا يا خَدِيجَةُ، إنَّ مُحَمَّدًا لَنَبِيُّ هَذِهِ الأُمّةِ، وقَدْ عَرَفْتُ أنَّهُ كائِنٌ لِهَذِهِ الأُمّةِ نَبِيٌّ يُنْتَظَرُ، هذا زَمانُهُ، أوْ كَما قالَ.

وَذَكَرَ ورَقةَ بنَ نَوْفَلِ بنِ أسَدِ بنِ عَبْدِ العُزّى، وأُمّ ورَقَةَ: هِنْدُ بِنْتُ أبِي كَبِيرٍ[(٣)] بنِ عَبْدِ بنِ قُصَيٍّ، ولا عَقِبَ لِوَرَقَةَ، وهُوَ أحَدُ مَنْ آمَنَ بالنبيِّ ﷺ قَبْلَ البَعْثِ، ورَوى التِّرْمِذِيُّ أنّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ: «رَأَيْته في المَنامِ وعَلَيْهِ ثِيابٌ بِيضٌ، [ولَوْ كانَ مِنْ أهْلِ النّارِ لَمْ تَكُنْ عَلَيْهِ ثِيابٌ بِيضٌ»][(٤)]، وهُوَ حَدِيثٌ في

---

(١) رواه الطبراني في «الأوسط»، وفيه ابن لهيعة، يقول ابن حجر في «مجمع الزوائد» (٩: ١٦١): وهو ضعيف.

(٢) بعده في (ف): «فصل».

(٣) في (ب)، (ج): «كثير». وأبو كبير هو مُنْهِبُ بن قُصَيٍّ. انظر: «نسب قريش» لمصعب: (ص: ٦).

(٤) سقط من (ب)، (هـ). والحديث أخرجه الترمذي في أبواب الرؤيا، باب ما جاء في رؤيا =

إسْنادِهِ ضَعْفٌ؛ لِأنّهُ يَدُورُ على عُثْمانَ[١] بنِ عَبْدِ الرّحْمَنِ، ولَكِنْ يُقَوِّيهِ ما يَأْتِي بَعْدَ هَذا مِنْ قَوْلِهِ عَلَيْهِ السّلامُ: «رَأيْت القَسّ - يَعْنِي: ورَقَةَ - وعَلَيْهِ ثِيابُ حَرِيرٍ؛ لِأنّهُ أوّلُ مَنْ آمَنَ بِي وصَدّقَنِي»، وسَيَأْتِي[٢] بَقِيّةٌ مِنْ خَبَرِهِ فيما بَعْدُ إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

وقَدْ ألْفَيْتُ لِلْحَدِيثِ الّذِي خَرّجَهُ التّرْمِذِيّ [في ورَقَةَ إسْنادًا جَيّدًا غَيْرَ الّذِي ذَكَرَهُ التّرْمِذِيّ][٣]، وهُوَ: ما رَواهُ الزُّبَيْرُ بنُ أبِي بَكْرٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ مُعاذٍ الصّنْعانِيّ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَن الزّهْرِيّ، عَنْ عُرْوةَ بنِ الزّبَيْرِ، قالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ ورَقَةَ بنِ نَوْفَلٍ كَما بَلَغَنا، فقالَ: «رَأيْته في المَنامِ عَلَيْهِ ثِيابٌ بِيضٌ، فقَدْ أظُنّ أنْ لَوْ كانَ مِنْ أهْلِ النّارِ لَمْ أرَ عَلَيْهِ البَياضَ». وكانَ يَذْكُرُ اللهَ في شِعْرِهِ في الجاهِلِيّةِ، ويُسَبِّحُه، وهو الذي يقول: [من البسيط]

لَقَدْ نَصَحْتُ لِأقْوامٍ وقُلْت لَهُمْ: ... أنا النّذِيرُ فلا يَغْرُرْكُمُ أحَدُ
لا تَعْبُدُنّ إلَهًا غَيْرَ خالِقِكُمْ ... فإنْ دَعَوْكُمْ فقُولُوا: بَيْنَنا حَدَدُ
سُبْحانَ ذِي العَرْشِ سُبْحانًا يَدُومُ لَهُ ... وقَبْلَنا سَبّحَ الجُودِيّ والجَمَدُ
مُسَخَّرٌ كُلُّ ما تَحْتَ السّماءِ لَهُ ... لا يَنْبَغِي أنْ يُناوِي مُلْكَهُ أحَدُ
لا شَيْءَ مِمّا تَرى تَبْقى بَشاشَتُهُ ... يَبْقى الإلَهُ ويُودِي المالُ والوَلَدُ
لَمْ تُغْنِ عَنْ هُرْمُزٍ يَوْمًا خَزائِنُهُ ... والخُلْدَ قَدْ حاوَلَتْ عادٌ فما خَلَدُوا
وَلا سُلَيْمانُ إذْ تَجْرِي الرّياحُ بِهِ ... والإنْسُ والجِنّ فيما بَيْنَها بُرُدُ

= النبي ﷺ. انظر: «تحفة الأحوذي» (٦: ٥٦٧-٥٦٨)، وقال الترمذي: «هذا حديث غريب، وعثمان بن عبد الرحمن ليس عند أهل الحديث بالقوي».

(١) في (ب): «على عمر» وهو خطأ.

(٢) في (ف): «يأتي».

(٣) سقط من (ب).

أيْنَ المُلُوكُ الّتِـي كانَتْ لِعِزّتِها ... مِـنْ كُلّ أوْبٍ إلَيْهـا وافِدٌ يَفِدُ؟
حَوْضٌ هُنالِكَ مَوْرُودٌ بِلا كَذِبٍ ... لا بُدّ مِـنْ وِرْدِهِ يَوْمًا كَما وَرَدُوا

نَسَبَهُ أبُو الفَرَجِ إلى ورَقَةَ، وفيهِ أبْياتٌ تُنْسَبُ إلى أُمَيّةَ بنِ أبِي الصّلْتِ.

ومِنْ قَوْلِهِ فيما أَخبَرَتْهُ[1] بِهِ خَدِيجةُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ: [من البسيط]

يا لَلرِّجالِ لِصَرْفِ[2] الدّهْرِ والقَدَرِ ... وما لِشَـيْءٍ قَضـاهُ اللهُ مِـنْ غِيَرِ
حَتّى خَدِيجةُ تَدْعُونِـي لِأُخْبِرَها ... أمْرًا أُراهُ سَـيَأْتِي النّـاسَ مِنْ أُخَرِ
فَخَبّرَتْنِـي بِأمْـرٍ قَدْ سَـمِعْتُ بِهِ ... فيما مَضى مِنْ قَدِيمِ الدّهْرِ والعُصُرِ
بِـأنّ أحْمَـدَ يَأْتِيـهِ فيُخْبِـرُهُ ... جِبْرِيلُ: إنّك مَبْعُوثٌ إلى البَشَـرِ
فَقُلْت عَـلّ الّذِي تَرْجِيـنَ يُنْجِزُهُ ... لَك الإلَهُ فرَجِّـي الخَيْرَ وانْتَظِرِي
أرْسِـلِيهِ إلَيْنـا كَيْ نُسـائِلَهُ ... عَنْ أمْرِهِ ما يَرى في النّوْمِ والسّهَرِ
فَقـالَ حِيـنَ أتانـا مَنْطِقًـا عَجَبًا ... يَقِفّ مِنْهُ أعالِي الجِلْدِ والشّعَرِ[3]
إنّـي رَأيْـتُ أمِيـنَ اللهِ واجَهَنِي ... في صُورةٍ أُكْمِلَتْ في أهْيَبِ الصّوَرِ
ثُمّ اسْـتَمَرّ فكانَ الخَوْفُ يَذْعَرُنِي ... مِمّا يُسَـلّمُ مِن حَوْلِي مِنَ الشّجَرِ
فَقُلْت ظَنّي ومـا أدْرِي أيَصْدُقُنِي ... أن سَوْفَ تُبْعثَ تَتْلو مُنْزلَ السُّوَرِ
وَسَوْفَ أُنْبِيكَ إنْ أعْلَنْتَ دَعْوَتَهُمْ ... مِـن الجِهـادِ بِـلا مَـنٍّ ولا كَدَرِ

❊ ❊ ❊

(١) في (أ)، (هـ): «خبرت».
(٢) في «سبل الهدى»: «وصرف».
(٣) قَفّ الشعر: قام من الفزع.

قالَ: فجَعَلَ ورَقةُ يَسْتَبْطِئُ الأمْرَ ويقُولُ: حَتّى مَتى؟ فقالَ ورَقةُ في ذلك:

لَجِجْتُ وكُنْتُ في الذّكْرى لَجُوجًا ... لِهَـمٍّ طالَمَـا بَعَـثَ النّشِـيجا
وَوَصْفٍ مِنْ خَدِيجَةَ بَعْدَ وصْفٍ ... فقَدْ طَـالَ انْتِظارِي يـا خَدِيجا
بِبَطْـنِ المَكّتَـيْنِ على رَجـائِي ... حَدِيثَـكِ أنْ أَرى مِنْـهُ خُرُوجا
بِمَـا خَبّرْتِنـا مِـنْ قَـوْلِ قَسٍّ ... مِـنَ الرّهْبـانِ أكْـرَهُ أنْ يَعُوجا
بِـأنَّ مُحَمّـدًا سَيَسُـودُ فينـا ... ويَخْصِمُ مَنْ يَكُـونَ لَهُ حَجِيجا
وَيَظْهَـرُ في البِـلادِ ضِيـاءُ نُورٍ ... يُقِيـمُ بِـهِ البَرِيّـةَ أنْ تَمُوجـا
فيلْـقى مَـنْ يُحارِبُـهُ خَسـارًا ... ويَلْـقى مَـنْ يُسـالِمُهُ فُلوجـا
فيـا لَيْـتِي إذا مـا كانَ ذاكم ... شَـهِدتُ فكُنتُ أوّلَهُـمْ وُلُوجا
وُلُوجًـا في الّذي كَرِهَـت قُرَيْشٌ ... ولَوْ عَجّـتْ بمَكّتهـا عَجِيجا
أرَجّي بِـالّذِي كَرِهُـوا جَمِيعًـا ... إلى ذِي العَرْشِ إنْ سَفَلُوا عُرُوجا
وَهَلْ أمْرُ السّـفالةِ غَـيْرُ كُفْرٍ ... بِمَنْ يَخْتارُ مَنْ سَـمَكَ البُرُوجا؟
فَـإنْ يَبْقَـوْا وأبْقَ تَكُـنْ أُمُورٌ ... يَضِجُّ الكافِـرُونَ لَهـا ضَجِيجا
وَإنْ أهْلِـكْ فـكُلُّ فَتًى سَـيَلْقى ... مِـنَ الأقْـدارِ مَتْلَفَـةً حَرُوجا

فَصْلٌ

وفي شِعْرِ ورَقَةَ: [من الوافر]

بِبَطْنِ المَكّتَيْـنِ على رَجائِي ... حَدِيثُـك أنْ أرى مِنْهُ خُرُوجا

ثَنّى (مَكّةَ) وهِيَ واحِدةٌ؛ لِأنّ لَها بطاحًا وظَواهِرَ، وقَدْ ذَكَرْنا مَنْ أهْلُ البِطاحِ وأهْلُ الظّواهِرِ فيما قَبْلُ على أنّ لِلْعَرَبِ مَذْهَبًا في أشْعارِها في تَثْنِيةِ البُقْعةِ الواحِدةِ وجَمْعِها[١]، نَحو قَوْلِهِ: «ومَيّتٌ بِغَزّاتِ[٢]». يُرِيدُ: بِغَزّةَ، «وبِغادِينَ[٣] في بَغْدانَ»، وأمّا التّثْنِيةُ فكَثِيرٌ، نَحْو قَوْلِهِ: [من البسيط]

بِالرّقْمَتَيْنِ [لَهُ أجْرٍ وأعْراسُ[٤] والحَمّتَيْنِ سَقاكَ اللهُ مِنْ دارِ

وَقَوْلُ زُهَيْرِ بنِ أبي سُلمى[٥]: «ودارٌ لَها بِالرّقْمَتَيْنِ»][٦]. وقَوْلُ ورَقةَ مِنْ هَذا: «بِبَطْنِ المَكّتَيْنِ» لا مَعْنى لِإدْخالِ الظّواهِرِ[٧] تَحْتَ هَذا اللّفْظِ، وقَدْ أضافَ إلَيْها البَطْنَ، كَما أضافَهُ المُبْرِقُ[٨] حِينَ قالَ[٩]: [من البسيط]

بِبَطْنِ مَكّةَ مَقْهُورٍ ومَفْتُونِ

---

(١) في (ف): «أو جمعها».

(٢) من بيت سبق في «السيرة» (١: ١٣٨)، ونصها: «عند غزات»، وفي (أ): «بين غزات».

(٣) في (ب): «وبغادين»، يريد: في بغداد.

(٤) في (ب): «وأجراس». وفي (هـ): «وأحراش» وهو تحريف.

(٥) «ديوانه بشرح ثعلب» (ص: ٥). (ج)

(٦) سقط من (أ).

(٧) في (أ): «النواظر».

(٨) هو عبد الله بن الحارث القرشي السهمي، صحابي، من مهاجرة الجبشة. قُتِل يوم الطائف شهيدًا، لُقِّب بالمُبْرِق ببيت قاله، وهو:

إذا أنا لم أُبرِقْ فلا يسَعَنَّني من الأرض بَرٌّ ذو فضاء ولا بحر

انظر: «أسد الغابة» (٣: ٢٠٦-٢٠٧).

(٩) صدره:

كل امرئٍ من عبادِ الله مضطهدٍ

وهو في «السيرة» (١: ٣٣١).

وَإنّما مقْصِدُ العَرَبِ في هَذا الإشارةُ[١] إلى جانِبَيْ كُلّ بَلْدةٍ، أو الإشارةُ إلى أعْلى البَلْدةِ وأسْفَلِها، فيَجْعَلُونَها اثْنَتيْنِ على هَذا المَغْزى[٢]، وقَدْ قالُوا: «صِدْنا بِقَنَوَيْنِ»[٣]، وهُوَ قَنا، اسْمُ جَبَلٍ، وقال عَنترةُ[٤]: [من الطويل]

شَرِبَتْ بماءِ الدُّحرُضَينِ [فأصبَحتْ][٥]

هو مِنْ هَذا البابِ في أصَحّ القَوْلَيْنِ، قال[٦] عَنْترةُ أيضًا[٧]: [من الكامل]

بِعُنَيْزَتَيــنِ وأهْلُنا بالغَيْلَمِ

وعُنَيْزةُ اسْمُ مَوْضِعٍ.

وقالَ الفَرَزْدَقُ[٨]: [من الطويل]

---

(١) في (ب)، (ج): «والإشارة».

(٢) في (أ)، (ج): «المعنى».

(٣) من أمثلة «الكتاب» (١: ٢١٣)، ولفظه: صِدْنا قَنوين، يقول سيبويه: «وإنما يريد: صِدْنا بقنوَين، أو صدنا وحش قنوين، وإنما قنوان اسم أرض». جعله سيبويه من باب الاتساع. هذا وقد ذكر ياقوت أن «قنا» اسم جبل لبني مرّة من فزارة. وذكر«قنوان» أيضًا وقال: هو جبلانِ تلقاء الحاجر لبني مرة.

(٤) «ديوانه» (ص: ١٤٧)، من المعلقة، وعجزه:

زَوْراء تنفِر عن حِياض الدّيْلم

والدُّحرُضان: موضع. وقيل: هما دُحْرض ووسيع، ماءانِ، فثنّاهما بلفظ أحدهما تغليبًا. والزوراء: الماء. والديلم: الأعداء. وصحَّح ابن بري القول بالتغليب.

(٥) عن (د). (٦) في (ف): «وقال».

(٧) «ديوانه» (ص: ١٤٤)، من المعلقة أيضًا، وصدره:

كيف المزار وقد تَربَّع أهلها

وعُنيزة والغيلم: موضعانِ. وتربّع القوم: نزلوا في الربيع.

(٨) «ديوانه» (ص: ٣١٩)، وعجزه:

=

عَشِيّةَ سالَ المِرْبَدانِ كِلاهُما

وإنّما هُوَ مِرْبَدُ البَصْرةِ.

وقَوْلُهُمْ[١]: [من الرجز]

تَسْــألُني بِرامَتَينِ سَلْجَما

وَإنّما هُوَ رامةٌ، وهَذا كَثِيرٌ. وأحْسَنُ ما تكُونُ هَذِهِ التّثْنِيةُ إذا كنت في ذِكْرِ جَنّةٍ وبُسْتانٍ، فتُسَمّيها جَنّتَيْنِ في فَصِيحِ الكَلامِ؛ إشْعارًا بأنّ لَها وجْهَيْنِ، وأنّك إذا دَخَلْتها ونَظَرْت إلَيْها يَمِينًا وشِمالًا رَأيْت مِنْ كِلْتا النّاحِيَتَيْنِ ما يَمْلأُ عَيْنَيْك قُرّةً، وصَدْرَك مَسَرّةً، وفي التّنْزِيلِ: ﴿[لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ][٢] عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ إلى قَوْلِهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾ [سبأ: ١٥-١٦]. وفيهِ: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ الآية [الكهف: ٣٢]، وفي آخرها: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾ [الكهف: ٣٥]، فأفرد بعدما ثنّى، وهِيَ هِيَ، وقَدْ حَمَلَ بَعْضُ العُلَماءِ[٣] [على هَذا المَعْنى][٤] قَوْلَهُ سُبْحانَهُ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، والقَوْلُ في هَذِهِ الآيةِ يَتّسِعُ، واللهُ المُسْتَعانُ.

= عجاجةَ موْتٍ بالسُّــيوفِ الصّوارمِ

وانظر: في «اللسان» (ربد).

(١) هو مَثَل، من أرجوزة بدون نسبة في «أمثال أبي عبيد» (ص: ٢٣٤)، و«اللسان» (رام، سلجم). والسلجم: نبت، أو ضربٌ من البقول. وأصله: أن امرأة تشهَّت على زوجها السلجم، وكانا في أرض قفرة بعيدة لا ماء بها ولا أنيس.

(٢) سقط من (ب).

(٣) هو أبو زكريا الفراء، وقد نسب السهيلي إليه هذا القول في «أماليه» (ص: ١٢٢)، وسيأتي في «الروض» عند ذكر عامر بن مالك ملاعب الأسنة في حديث بئر معونة. وانظر: «معاني القرآن» للفراء: (٣: ١١٨).

(٤) سقط من (أ).

فَصْلٌ

وقالَ في هَذا الشِّعْرِ: [من الوافر]

ويَظْهَرُ فـي البِلادِ ضِياءُ نُورِ

هَذا البَيْتُ يُوَضِّحُ لَكَ مَعْنى النّورِ ومَعْنى الضّياءِ، وأنّ الضّياءَ هُوَ المُنْتَشِرُ[١] النّور[٢]، وأنّ النّورَ هُوَ الأصْلُ لِلضّوْءِ، ومِنْهُ مَبْدَؤُهُ، وعَنْهُ يَصْدُرُ، وفي التّنْزِيلِ: ﴿ فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ [البقرة: ١٧]، وفيهِ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾ [يونس: ٥]؛ لِأنّ نُورَ القَمَرِ لا يَنْتَشِرُ[٣] عَنْهُ مِن الضّياءِ ما يَنْتَشِرُ[٤] مِن الشّمْسِ، ولا سِيّما في طَرَفَي الشّهْرِ، وفي الصّحِيحِ[٥]: «الصّلاةُ نُورٌ، والصبرُ ضِياءٌ»؛ وذلك أنّ الصلاةَ هي عَمُودُ الإسْلامِ، وهِيَ ذِكْرٌ وقُرْآنٌ، وهِيَ تَنْهى عَن الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ، فالصّبْرُ[٦] عَن المُنْكَراتِ، والصّبْرُ على الطّاعاتِ هُوَ: الضّياءُ الصّادِرُ عَنْ هَذا النورِ الّذِي هُوَ القُرْآنُ والذّكْرُ، وفي أسْماءِ الباري[٧] سُبْحانَهُ: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [النور: ٣٥]، ولا يَجُوزُ أنْ يَكُونَ الضّياءُ مِنْ أسْمائِهِ سُبْحانَهُ، وقَدْ أمْلَيْتُ في غَيْرِ هَذا الكِتابِ مِنْ مَعْنى ﴿ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ما فيهِ نورٌ وشفاء، والحمد لله.

---

(١) بعده في (ف): «عن».

(٢) في (أ)، (هـ): «على النور».

(٣) في (أ): «ينشر».

(٤) في (هـ): «بل ينتشر».

(٥) أخرجه مسلم في كتاب الطهارة: (١: ٢٠٣).

(٦) في (أ)، (هـ): «والصبر».

(٧) أخرج الترمذي، وابن حبان في «صحيحه»، وابن ماجه حديث أسماء الله الحسنى. انظر: «عارضة الأحوذي»، أبواب الدعوات: (١٣: ٣٧-٤٣)، و«الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان»، كتاب الرقائق: (٢: ٨٩)، و«سنن ابن ماجه»، كتاب الدعاء: (١٢٦٩-١٢٧٠).

فصل

وفي شِعرِ وَرَقَةَ: [من الوافر]

فيا لَيْتِـي إذا مـا كانَ ذاكُمْ

بحَذْفِ نُونِ الوِقايةِ، وحَذْفُها مَعَ «لَيْتَ»[١] رَدِيءٌ، وهُوَ في «لَعَلَّ» أحْسَنُ مِنْهُ؛ لِقُرْبِ مَخْرَجِ اللّامِ مِنَ النّونِ، حتى لقد قالوا: لعلّ ولعنّ ولأنّ؛ بِمَعْنًى واحِدٍ، ولا سِيّما وقَدْ حَكى يَعْقُوبُ أنّ مِن العَرَبِ مَنْ يَخْفِضُ بـ«لَعَلّ»[٢]، وهَذا يُؤَكِّدُ حَذْفَ النّونِ مِنْ «لعلِّي»، وأحْسَنُ ما يَكُونُ حَذْفُ هَذِهِ النّونِ في «إنّ» و«أنّ» [و«لَكِنّ»][٣]، وكَأنّ لِاجْتِماعِ النّوناتِ، وحَسّنَهُ في «لَعَلّ»[٤] أيْضًا كَثْرةُ حُرُوفِ الكَلِمـةِ، وفـي التّنْزيـلِ: ﴿لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ [يوسف: ٤٦] بِغَيْرِ نُونٍ، ومَجِيءُ هَذِهِ الياءِ في «لَيْتِي»[٥] بغَيْرِ نُونٍ مَعَ أنّ «لَيْتَ» ناصِبةٌ، يَدُلّك على أنّ الِاسْمَ المُضْمَرَ في «ضَرَبَنِي» هُوَ الياءُ دُونَ النّونِ، كَما [هُوَ][٦] في: ضَرَبَك، وضَرَبَهُ حَرْفٌ واحِدٌ، وهُوَ الكافُ[٧]. ولَوْ كانَ الِاسْمُ هُوَ النّونَ مَعَ الياءِ كَما قالُوا في المَخْفُوضِ: مِنّي وعَنّي بِنُونَيْنِ، نُونِ مِنْ، ونُون أُخْرى مَعَ الياءِ، فإذنِ الياءُ وحْدَها هو[٨] الِاسْمُ في حالِ الخَفْضِ، وفي حالِ النّصْبِ.

---

(١) في (أ): «من ليت».

(٢) في «لعل» عشر لغات، انظرها في «شرح التسهيل» لابن مالك: (٢: ٤٦)، و«الارتشاف» (٢: ٨١).

(٣) سقط من (أ).

(٤) في (أ): «لعل»، وفي (ب): «لعلني».

(٥) في (أ)، (ج)، (هـ): «ليتني».

(٦) سقط من (ب).

(٧) أي: والهاء.

(٨) في (أ)، (ب)، (ج)، (هـ)، (ف): «هي». والأفصح تذكير الضمير مراعاةً للخبر، وهو الاسم.

فَصْلٌ

وفيهِ: [من الوافر]

«حَدِيثَك أنْ أرى مِنْهُ خُرُوجا»

[قَوْلُهُ(١): «مِنْهُ»](٢) الهاءُ راجِعةٌ على الحَدِيثِ. وحَرْفُ الجَرّ مُتَعَلّقٌ بِالخُرُوجِ، وإنْ كَرِهَ النّحْوِيّونَ ذَلِكَ؛ لِأنّ ما كانَ مِنْ صِلةِ المَصْدَرِ عِنْدَهُمْ فلا يَتَقَدّمُ عَلَيْهِ؛ [لِأنّ المَصْدَرَ مُقَدّرٌ بِأنْ والفِعْلِ، فما يَعْمَلُ فيهِ هُوَ مِنْ صِلةِ «أنْ»، فلا يَتَقَدّمُ](٣)، فمَنْ أطْلَقَ القَوْلَ في هَذا الأصْلِ، ولَمْ يُخَصّصْ مَصْدَرًا مِنْ مَصْدَرٍ؛ فقَدْ أخْطَأ المَفْصِلَ، وتاهَ في تُضُلِّلَ(٤)؛ ففي التّنْزِيلِ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ [يونس: ٢]. ومَعْناهُ: أكانَ عَجَبًا لِلنّاسِ أنْ أوْحَيْنا، ولا بُدّ لِلّامِ ههُنا أنْ تَتَعَلّقَ بِـ«عَجَبٍ»؛ لِأنّها لَيْسَتْ في مَوْضِعِ صِفةٍ، ولا في مَوْضِعِ حالٍ؛ لِعَدِمِ العامِلِ فيها، وفيهِ أيْضًا: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨]، و﴿عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٣].

وفيهِ أيْضًا: ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ [الكهف: ١٨]. وتَقُولُ: لِي فيك رغبةٌ، وما لي عَنْك مُعَوَّلٌ، فيَحْسُنُ كُلّ هَذا بِلا خِلافٍ، وقد أجاز ابن السَّراج أبو بكر والمُبَرّدُ أيْضًا في «ضَرْبًا زَيْدًا»، إذا أرَدْت الأمْرَ: أنْ تُقَدّمَ المَفْعُولَ المَنْصُوبَ

---

(١) في (ف): «وقوله».

(٢) سقط من (أ).

(٣) سقط من (ب).

(٤) قالوا: وقع في وادي تُضُلِّل بضمتين، وبكسرتين، وبضم ففتح، مع كسر اللام المشدّدة، يعنون به: الباطل. وقالوا أيضًا: في وادي تُهلِّك، ووادي تخُيِّب. وكله ممنوع من الصرف. وهو من أمثالهم في الهلاك. انظر: «الأمثال» لأبي عبيد: (ص: ٣٤٠)، و«اللسان» (ضلل). وفي حاشية (أ): «وادي تُضُلِّل: عَلَم على الهلاك».

بِالمَصْدَرِ، وقالَ: لِأنّ «ضَرْبًا» ههُنا في مَعْنى: اضْرِبْ[1]، فقَدْ خُصّصَ لَك «ضَرْبًا» مِن المَصادِرِ بِجَوازِ تَقْدِيمِ مَعْمُولِها عَلَيْها، فإنْ كانَ المَصْدَرُ غَيْرَ أمْرٍ، وكانَ نَكِرةً [أو غيرَ نكرةٍ][2]؛ لَمْ يَتَقَدّم المَفْعُولُ خاصّةً عَلَيْهِ، فالواجِبُ إذًا رَبْطُ هَذا البابِ وتَفْصِيلُهُ.

فَنَقُولُ: كُلّ مَصْدَرٍ نَكِرةٍ غَيْرِ مُضافٍ إلى ما بَعْدَهُ يَجُوزُ تقديمُ معمولِه عَلَيْهِ إلّا المَفْعُولَ؛ لِأنّ المَصْدَرَ النّكِرةَ لا يَتَقَدّرُ بِأنْ والفِعْلِ؛ لِأنّك إنْ قَدّرْته بِأنْ والفِعْلِ بَقِيَ الفِعْلُ بِلا فاعِلٍ، وما كانَ مُضافًا إلى ما بَعْدَهُ، فالمُضافُ إلَيْهِ فاعِلٌ في المَعْنى أوْ مَفْعُولٌ؛ فلِذَلِكَ يَصِيرُ المَصْدَرُ مُقَدَّرًا بـ«أن».

فقِفْ على هَذا الأصْلِ، فمنه حَسُنَ قولُ وَرَقَةَ: «أنْ أرى مِنْهُ خُرُوجًا»، أيْ: أرى خُرُوجًا مِنْهُ، وكَذَلِكَ لَوْ ذَكَرَ الدّخُولَ، فقالَ: أرى فيهِ دُخُولًا، يُرِيدُ: دُخُولًا فيهِ، لَكانَ حَسَنًا، وتَقُولُ: اللهُمّ اجْعَلْ مِنْ أمْرِنا فرَجًا ومَخْرَجًا، فـ«مِنْ أمْرِنا» مُتَعَلّقٌ بِما بَعْدَهُ، وهُوَ مَصْدَرٌ، ولا خَفاءَ بِحُسْنِ هَذا التّقْدِيمِ؛ لِما ذَكَرْناهُ.

وَمِنْ قَوْلِ ورَقَةَ بنِ نَوْفَلٍ أيضًا في مَعْنى ما تَقَدّمَ[3] [مِنْ رِوايةِ يُونُسَ عَن ابنِ إسْحاقَ]: [من الطويل]

أَتُبْكِرُ أمْ أنْتَ العَشِيّةَ رائِحُ ... وفي الصّدْرِ مِنْ إضْمارِك الحُزْنَ قادِحُ؟
لِفُرْقةِ قَوْمٍ لا أُحِبّ فِراقَهُمْ ... كَأنّك عَنْهُمْ بَعْدَ يَوْمَيْنِ نازِحُ
وَأخْبارِ صِدْقٍ خَبّرَتْ عَنْ مُحَمّدٍ ... يُخَبِّرُها عَنْهُ إذا غابَ ناصِحُ

---

(١) انظر: «الأصول» لابن السراج: (١: ١٣٩)، و«المقتضب» (٤: ١٥٧)، وقارن كلامهما بما في «الارتشاف» (٥: ٢٢٥٥).

(٢) سقط من (أ).

(٣) في (أ): «يتقدم».

فَتاكِ الّـذِي وَجَّهْـتِ يا خَيْـرَ حُرّةٍ ... بغَورٍ وبالنّجدينِ حَيْثُ الصّحاصِحُ[1]

إلى سُوقِ بُصْرى في الرّكابِ الّتِي غَدَتْ ... وهُـنّ مِن الأَحْمـالِ قُعْـسٌ دَوالِحُ[2]

فَخَبّرَنـا عَـنْ كُلّ خَيْـرٍ بِعِلْمِـهِ ... ولِلْحَـقّ أَبْـوابٌ لهـنّ مفاتـحُ

[بِـأنّ ابـنَ عَبْـدِ اللهِ أَحْمَدَ مُرْسَـلٌ ... إلى كُلّ مَـنْ ضُمَّتْ عَلَيْـهِ الأَباطِحُ

وَظَنّـي بِهِ أنْ سَـوْفَ يُبْعَـثُ صادِقًا ... كَما أُرْسِـلَ العَبْدانِ: هُودٌ وصالِحُ][3]

وَمُوسـى وإبْراهِيـمُ حَتّى يُـرى لَهُ ... بهـاءٌ ومنشـورٌ مِـن الذّكْـرِ واضِحُ

وَيَتْبَعُـهُ حَيًّـا لُـؤَيُّ بـنِ غالـبٍ ... شـبابُهمُ والأشـيبون الجَحاجِـحُ

فَـإنْ أَبْقَ حَتّى يُـدْرِكَ النّـاسُ دَهْرَهُ ... فإنّـي بِـهِ مُسْتَبْشِـرُ الـوُدّ فـارِحُ

وَإلّا فإنّـي يـا خَدِيجـةُ فاعْلَمِـي ... عَنَ ارضِك في الأَرْضِ العَرِيضةِ سائحُ[4]

* * *

(١) في (هـ): «الضحاضح»، بالضاد المعجمة. والصحاصح: جمع صحْصح، وهو ما استوى من الأرض وجَرِد.

(٢) في (ب)، (ج)، (ف): «قُعْص»، وكأن قُعْس جمع قعساء، أراد بها هنا أنها امتنعت على قائدها لشدة حملها. والدوالح: جمع دالح، يقال: دلَحَ البعيرُ: إذا تثاقل في مشيه من ثقل الحمل».

(٣) سقط من (ب).

(٤) في «سبل الهدى» (٢: ١٦٠): «نازح».

حَدِيثُ بُنْيانِ الكَعْبةِ وحُكْمِ رَسُولِ الله ﷺ بَيْنَ قُرَيْشٍ في وضْعِ الحَجَرِ

[سَبَبُ بُنْيانِ قُرَيْشٍ لِلْكَعْبةِ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: فلَمّا بَلَغَ رَسُولُ الله ﷺ خَمْسًا وثَلاثِينَ سَنةً، اجْتَمَعَتْ قُرَيْشٌ لِبُنْيانِ الكَعْبةِ، وكانُوا يُهِمُّونَ بِذلك لِيُسَقِّفُوها ويَهابُونَ هَدْمَها، وَإنَّما كانَتْ رَضْمًا فوْقَ القامةِ، فأرادُوا رَفْعَها وتَسْقِيفَها؛ وذلك أنَّ نَفَرًا سَرَقُوا كَنْزًا لِلْكَعْبةِ، وإنَّما كانَ يَكُونُ في بِئْرٍ في جَوْفِ الكَعْبةِ، وكانَ الَّذي وُجِدَ عِنْدَهُ الكَنْزُ دُوَيْكًا مَوْلًى لِبَنِي مُلَيْحِ بنِ عَمْرٍو مِنْ خُزاعةَ.

قالَ ابنُ هِشامٍ: فقَطَعَتْ قُرَيْشٌ يَدَهُ، وتَزْعُمُ قُرَيْشٌ أنَّ الَّذينَ سَرَقُوهُ وضَعُوهُ عِنْدَ دُوَيْكٍ. وكانَ البَحْرُ قَدْ رَمى بِسَفينةٍ إلى جُدّةَ لِرَجُلٍ مِنْ تُجّارِ الرُّومِ، فتَحَطَّمَتْ، فأخَذُوا خَشَبَها، فأعَدُّوهُ لِتَسْقِيفِها، وكانَ بِمَكّةَ رَجُلٌ قِبْطِيٌّ نَجّارٌ، فتَهَيَّأَ لَهُمْ في أنْفُسِهِمْ بَعْضُ ما يُصْلِحُها، وكانَتْ حَيّةٌ تَخْرُجُ مِنْ بِئْرِ الكَعْبةِ الَّتِي كانَ يُطْرَحُ فيها ما يُهْدى لَها كُلَّ يَوْمٍ، فتَتَشَرَّقُ على جِدارِ الكَعْبةِ، وكانَتْ مِمّا يَهابُونَ؛ وذلك أنَّهُ كانَ لا يَدْنُو مِنْها أحَدٌ إلّا احْزَأَلَّتْ وكَشَّتْ وفَتَحَتْ فاها، وكانُوا يَهابُونَها. فبَيْنا هِيَ ذاتَ يَوْمٍ تَتَشَرَّقُ على جِدارِ الكَعْبةِ كَما كانَتْ تَصْنَعُ، بَعَثَ الله إلَيْها طائِرًا فاخْتَطَفَها، فذَهَبَ بِها، فقالَتْ قُرَيْشٌ: إنّا لَنَرْجُو أنْ يَكُونَ الله قَدْ رَضِيَ ما أرَدْنا، عِنْدَنا عامِلٌ رَفِيقٌ، وعِنْدَنا خَشَبٌ، وقَدْ كَفانا الله الحَيّةَ.

[ما حَدَثَ لِأبي وهْبٍ عِنْدَ بِناءِ قُرَيْشٍ الكَعْبةَ]

فَلَمّا أجْمَعُوا أمْرَهُمْ في هَدْمِها وبِنائِها، قامَ أبو وهْبِ بنِ عَمْرِو بنِ عائِذِ ابنِ عَبْدِ بنِ عِمْرانَ بنِ مَخْزُومٍ ـ قالَ ابنُ هِشامٍ: عائِذُ بنُ عِمْرانَ بنِ مَخْزُومٍ ـ فتَناوَلَ مِن الكَعْبةَ حَجَرًا، فوَثَبَ مِنْ يَدِهِ حَتّى رَجَعَ إلى مَوْضِعِهِ، فقالَ: يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، لا تُدْخِلُوا في بِنائِها مِنْ كَسْبِكُمْ إلّا طَيِّبًا، لا يَدْخُلُ فيها مَهْرُ بَغِيٍّ، ولا بَيْعُ رِبًا، ولا مَظْلِمةُ أحَدٍ مِن النّاسِ. والنّاسُ يَنْحَلُونَ هذا الكَلامَ الوَلِيدَ بنَ المُغِيرةِ بنِ عَبْدِ الله بنِ عُمَرَ بنِ مَخْزُومٍ.

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وقَدْ حَدَّثَنِي عَبْدُ الله بنُ أبي نَجِيحٍ المَكِّيُّ، أنَّهُ حُدِّثَ عَنْ عَبْدِ الله بنِ صَفْوانَ بنِ أُمَيّةَ بنِ خَلَفِ بنِ وهْبِ بنِ حُذافةَ بنِ جُمَحَ ابنِ عَمْرِو بن هُصَيْصِ بنِ كَعْبِ بنِ لُؤَيٍّ:

أنَّهُ رَأى ابنًا لِجَعْدةَ بنِ هُبَيْرةَ بنِ أبي وهْبِ بنِ عَمْرٍو يَطُوفُ بِالبَيْتِ، فسَألَ عَنْهُ، فقِيلَ: هذا ابنٌ لِجَعْدةَ بنِ هُبَيْرةَ، فقالَ عَبْدُ الله بنُ صَفْوانَ عِنْدَ ذلك: جَدُّ هذا ـ يَعْنِي: أبا وهْبٍ ـ الَّذي أخَذَ حَجَرًا مِن الكَعْبةِ حَيْنَ أجْمَعَتْ قُرَيْشٌ لِهَدْمِها، فوَثَبَ مِنْ يَدِهِ حَتّى رَجَعَ إلى مَوْضِعِهِ، فقالَ عِنْدَ ذلك: يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، لا تُدْخِلُوا في بِنائِها مِنْ كَسْبِكُمْ إلّا طَيِّبًا، لا تُدْخِلُوا فيها مَهْرَ بَغِيٍّ، ولا بَيْعَ رِبًا، ولا مَظْلِمةَ أحَدٍ مِن النّاسِ.

[قَرابةُ أبي وهْبٍ لِرَسُولِ الله ﷺ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وأبو وهْبٍ خالُ أبي رَسُولِ الله ﷺ، وكانَ شَرِيفًا، ولَهُ يَقُولُ شاعِرٌ مِن العَرَبِ:

وَلَوْ بِــأبي وهْبٍ أنَخْــتُ مَطِيَّتِي ... غَدَتْ مِنْ نَداهُ رَحْلُها غَيْرَ خائِبِ

بِأبْيَضَ مِنْ فرْعَيْ لُؤَيِّ بنِ غالِبِ ... إذا حُصِّلَتْ أنْسابُها في الذَّوائِبِ
أبِيٍّ لِأخْذِ الضَّيْمِ يَرْتاحُ لِلنَّدى ... تَوَسَّطَ جَدّاهُ فُرُوعَ الأطايِبِ
عَظِيمِ رَمادِ القِدْرِ يَمْلا جِفانَهُ ... مِنَ الخُبْزِ يَعْلُوهُنَّ مِثْلُ السَّبائِبِ

[تَجْزِئَةُ الكَعْبةِ بَيْنَ قُرَيْشٍ، ونَصِيبُ كُلِّ فرِيقٍ مِنْها]

ثُمَّ إنَّ قُرَيْشًا جَزَّأتْ الكَعْبةَ، فكانَ شِقُّ البابِ لِبَنِي عَبْدِ مَنافٍ وزُهْرةَ، وكانَ ما بَيْنَ الرُّكْنِ الأسْوَدِ والرُّكْنِ اليَمانِي لِبَنِي مَخْزُومٍ وقَبائِلَ مِنْ قُرَيْشٍ انْضَمُّوا إلَيْهِمْ، وكانَ ظَهْرُ الكَعْبةِ لِبَنِي جُمَحَ وسَهْمٍ، ابنَيْ عَمْرِو بنِ هُصَيْصِ بنِ كَعْبِ بنِ لُؤَيٍّ، وكانَ شِقُّ الحِجْرِ لِبَنِي عَبْدِ الدّارِ بنِ قُصَيٍّ، ولِبَنِي أسَدِ بنِ العُزّى بنِ قُصَيٍّ، ولِبَنِي عَدِيِّ بنِ كَعْبِ بنِ لُؤَيٍّ، وهُوَ الحَطِيمُ.

[الوَلِيدُ بنُ المُغِيرةِ وهَدْمُ الكَعْبةِ، وما وجَدُوهُ تَحْتَ الهَدْمِ]

ثُمَّ إنَّ النّاسَ هابُوا هَدْمَها وفَرِقُوا مِنْهُ، فقالَ الوَلِيدُ بنُ المُغِيرةِ: أنا أبْدَؤُكُمْ في هَدْمِها، فأخَذَ المِعْوَلَ، ثُمَّ قامَ عَلَيْها وهُوَ يَقُولُ: اللهُمَّ لَمْ تُرَعْ ـ قالَ ابنُ هِشامٍ: ويُقالُ: لَمْ نَزِغْ ـ اللهُمَّ إنّا لا نُرِيدُ إلّا الخَيْرَ. ثُمَّ هَدَمَ مِنْ ناحِيةِ الرُّكْنَيْنِ، فتَرَبَّصَ النّاسُ تِلْكَ اللَّيْلةَ، وقالُوا: نَنْظُرُ؛ فإنْ أُصِيبَ لَمْ نَهْدِمْ مِنْها شَيْئًا ورَدَدْناها كَما كانَتْ، وإنْ لَمْ يُصِبْهُ شَيْءٌ فقَدْ رَضِيَ اللهُ صُنْعَنا، فهَدَمْنا.

فَأصْبَحَ الوَلِيدُ مِنْ لَيْلَتِهِ غادِيًا على عَمَلِهِ، فهَدَمَ وهَدَمَ النّاسُ مَعَهُ، حَتّى إذا انْتَهى الهَدْمُ بِهِمْ إلى الأساسِ؛ أساسِ إبْراهِيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ، أفْضَوْا إلى حِجارةٍ خُضْرٍ كالأسْنِمةِ آخِذٍ بَعْضُها بَعْضًا.

بُنيانُ الكعبة

فَفي خَبَرِها: «أنّها كانَتْ رَضْمًا فوْقَ القامةِ». الرَّضْمُ: أنْ تُنَضّدَ الحِجارةُ بَعْضُها على بَعْضٍ مِنْ غَيْرِ مِلاطٍ، كَما قالَ: [من الطويل]

رُزِئتُهمُ في ساعةٍ جرَّعَتْهُمُ ... كُؤُوس المَنايا تَحْتَ صَخْرٍ مُرَضَّمِ

وَقَوْلُهُ: «فوْقَ القامةِ» كَلامٌ غَيْرُ مُبَيِّنٍ لِمِقْدارِ ارْتِفاعِها إذْ ذاكَ، وذكر غَيْرُهُ أنّها كانَتْ تِسْعَ أذْرُعٍ[(١)] مِنْ عَهْدِ إسْماعِيلَ عليهِ السّلام، ولَمْ يَكُنْ لَها سَقْفٌ، فلَمّا بَنَتْها قُرَيْشٌ قَبْلَ الإسْلامِ زادُوا فيها تِسْعَ أذْرُعٍ، فكانت ثمان عَشْرةَ ذِراعًا، ورَفَعُوا بابَها عَن الأرْضِ، فكانَ لا يُصْعَدُ إلَيْها إلّا في دَرَجٍ أوْ سُلّمٍ، وقَدْ ذَكَرْنا أوّلَ مَنْ عَمِلَ لَها غَلَقًا[(٢)]، وهُوَ تُبَّعٌ.

ثُمّ لَمّا بَناها ابنُ الزّبَيْرِ زادَ فيها تِسْعَ[(٣)] أذْرُعٍ، فكانَتْ سَبْعًا وعِشْرِينَ ذِراعًا، وعلى ذَلِكَ هِيَ إلى الآنَ، وكانَ بِناؤُها في الدّهْرِ خَمْسَ مَرّاتٍ: الأُولى: حِينَ بَناها شِيثُ بنُ آدَمَ، والثّانِيةُ: حِينَ بَناها إبْراهِيمُ على القَواعِدِ الأُولى، والثّالِثةُ: حِينَ بَنَتْها قُرَيْشٌ قَبْلَ الإسْلامِ بِخَمْسةِ أعْوامٍ، والرّابِعةُ: حِينَ احْتَرَقَتْ في عَهْدِ ابنِ الزّبَيْرِ بِشَرارةٍ طارَتْ مِنْ أبِي قُبَيْسٍ، فوَقَعَتْ في أسْتارِها، فاحْتَرَقَتْ.

وقِيلَ: إنّ امْرَأةً أرادَتْ أنْ تُجَمِّرَها، فطارَتْ شَرارةٌ مِن المِجْمَرِ[(٤)] في

---

(١) في حاشية (أ): «ويصح تسعة أذرع؛ لأن الذراع يُذكَّر ويُؤنَّث». وانظر: «اللسان» (ذرع).

(٢) الغَلَقُ: ما يُغلَق به الباب ويُفتَح.

(٣) في (ف): «لتسع».

(٤) في (ب): «المجمرة». وكلاهما صواب. والمِجْمر والمِجْمرة: التي يُوضَع فيها الجمْر. ويقال: أجمرتُ الثّوبَ وجمّرته: إذا بخّرته بالطّيب.

أَسْتارِها فاحْتَرَقَتْ، فشاوَرَ ابنُ الزّبَيْرِ في هَدْمِها مَنْ حَضَرَهُ[١]، فهابُوا هَدْمَها، وقالُوا: نَرى أنْ تُصْلِحَ ما وهى، ولا تُهْدَمَ. فقالَ: لَوْ أنّ بَيْتَ أَحَدِكُم احْتَرَقَ لَمْ يَرْضَ لَهُ إلّا بِأكْمَلِ صَلاحٍ، ولا يَكْمُلُ إصْلاحُها إلّا بِهَدْمِها. فهَدَمَها حَتّى أفْضى إلى قَواعِدِ إبْراهِيمَ، فأَمَرَهُمْ أنْ يَزِيدُوا في الحَفْرِ. فحَرّكُوا حَجَرًا منها فرَأَوْا تَحْتَهُ نارًا وهولًا أفزعَهُم، فأمرهم أن يُقِرُّوا القَواعِدَ، وأنْ يَبنُوا مِنْ حَيْثُ انْتَهى الحَفْرُ.

وفي الخَبَرِ: أنّهُ سَتَرَها حِينَ وصَلَ إلى القَواعِدِ، فطافَ النّاسُ بِتِلْكَ الأسْتارِ، فلَمْ تَخْلُ قَطّ مِنْ طائِفٍ، حَتّى [لَقَدْ][٢] ذُكِرَ أن يَوْمَ قُتِلَ ابنُ الزُّبَيْرِ اشْتَدّتِ الحَرْبُ، واشْتَغَلَ النّاسُ، فلَمْ يُرَ طائِفٌ يَطُوفُ بِالكَعْبَةِ إلّا جَمَلٌ يَطُوفُ [بِها][٣].

فلَمّا اسْتَتَمّ بُنْيانَها، أَلْصَقَ بابَها بِالأرْضِ، وعَمِلَ لَها خَلْفًا ـ أيْ: بابًا ـ [آخَرَ][٤] مِنْ ورائِها، وأدْخَلَ الحِجْرَ فيها؛ وذَلِكَ لِحَدِيثٍ حَدّثَتْهُ بِهِ خالَتُهُ عائِشةُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أنّهُ قالَ: «ألَمْ تَرَيْ قَوْمَكِ حِينَ بَنَوُا الكَعْبَةَ اقْتَصَرُوا عَنْ[٥] قَواعِدِ إبْراهِيمَ حِين عَجَزَتْ بِهِم النّفَقَةُ»، ثُمّ قالَ عَلَيْهِ السّلامُ: «لَوْلا حِدْثانُ عَهْدِ قَوْمِك بِالجاهِلِيّةِ لَهَدَمْتُها، وجَعَلْت لَها خَلْفًا وأَلْصَقْت بابها بالأرض، وأدْخَلْت فيها الحِجْرَ»، أوْ كَما قالَ عَلَيْهِ السّلامُ. قالَ ابنُ الزُّبَيْرِ: فلَيْسَ بِنا اليَوْمَ عَجْزٌ عَن النّفَقةِ، فبَناها على مُقْتَضى حَدِيثِ عائِشَةَ.

---

(١) في (ف): «حضرها».
(٢) ليست في (ب).
(٣) سقط من (أ).
(٤) ليست في (ب)، (ف).
(٥) في (ف): «على».

فلَمّا قامَ عَبْدُ المَلِكِ بنُ مَرْوانَ، قالَ: لَسْنا مِنْ تَخْلِيطِ أَبِي خُبَيْبٍ[١] بِشَيْءٍ، فهَدَمَها وبَناها على ما كانَتْ عَلَيْهِ في عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فلَمّا فرَغَ مِنْ بنائها جاءَهُ الحارِثُ بنُ أَبِي رَبِيعةَ المَعْرُوفُ بِالقُباعِ[٢]، وهُوَ أَخُو عُمَرَ بنِ أَبِي رَبِيعةَ الشّاعِرِ، ومَعَهُ رَجُلٌ آخَرُ، فحَدّثاهُ عَنْ عائِشَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ بالحديث المتقدم، فنَدِمَ، وجَعَلَ يَنْكُتُ في الأَرْضِ بِمِخْصَرةٍ[٣] في يَدِهِ، ويَقُولُ: ودِدْت أَنّي تَرَكْت أبا خُبَيْبٍ وما تَحَمّلَ مِنْ ذَلِكَ. فهَذِهِ المَرّةُ الخامِسةُ.

فلَمّا قامَ أَبُو جَعْفَرٍ المَنْصُورُ أرادَ أَنْ يَبنِيَها على ما بَناها ابنُ الزّبَيْرِ، وشاوَرَ في ذَلِكَ، فقالَ لهُ مالِكُ بنُ أَنَسٍ: أَنْشُدُكَ اللهَ يا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ أَنْ تَجْعَلَ هَذا البَيْتَ مَلْعَبةً لِلْمُلُوكِ بَعْدَكَ، لا يَشاءُ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَنْ يُغَيِّرَهُ إِلّا غَيّرَهُ، فتَذْهَبُ هَيْبَتُهُ مِنْ قُلُوبِ النّاسِ، فصَرَفَهُ عَنْ رَأْيِهِ فيه.

وقَدْ قِيلَ: إنّهُ بُنِيَ في أَيّامِ جُرْهُم مَرّةً أَوْ مَرّتَيْنِ؛ لِأَنّ السّيْلَ كانَ قَدْ صَدّعَ حائِطَهُ، ولَمْ يَكُنْ ذَلِكَ بُنْيانًا على نَحْوِ ما قَدّمْنا، إنّما كانَ إصْلاحًا لِما وهى مِنْهُ، وجِدارًا بُنِيَ بَيْنَهُ وبَيْنَ السّيْلِ، بَناهُ عامِرٌ الجادر، وقَدْ تَقَدّمَ هَذا الخَبَرُ[٤].

---

(١) هي كنية عبد الله بن الزبير، وله كنية أخرى هي أبو بكر. انظر: «أسد الغابة» (١: ٢٣٩).

(٢) كان الحارث واليًا على البصرة في عهد ابن الزبير، والقُباع ـ بضم أوله وتخفيف الباء ـ لقبه. والقُباع في الأصل: مكيال ضخم، وفيه يقول الشاعر:

أمير المؤمنين جُزيت خيرًا ... أرِحنا مِن قُباع بني المغيرة

وقيل له ذلك؛ لأنه لمّا وليَ البصرة غيّر مكاييلهم، فنظر إلى مكيال صغير في مرآة أحاط بدقيق كثير. فقال: إن مكيالهم هـذا لَقُباع، فلُقِّب به واشتهر. انظر: «جمهرة ابن حزم» (ص: ١٤٧)، و«نزهة الألباب في الألقاب» لابن حجر: (٢: ٨٤)، و«اللسان» (قبع).

(٣) المخصرة: ما يختصره الإنسان بيده فيمسكه من عصا، أو عكازة، أو مقرعة، أو قضيب، وقد يتكئ عليه. «النهاية» (٢: ٣٦) (خصر). (ج)

(٤) انظر: (١/ ٤٦١).

وكانَت الكَعْبَةُ قَبْلَ أَنْ يَبنِيَها شِيثُ عَلَيْهِ السلام خيمةً من ياقوتةٍ حَمْراءَ يَطُوفُ بِها آدَمُ، ويَأْنَسُ بِها؛ لِأَنّها أُنْزِلَتْ إِلَيْهِ مِن الجَنّةِ، وكانَ قَدْ حَجّ إلى مَوْضِعِها مِن الهِنْدِ، وقَدْ قِيلَ أيضًا: إنّ آدَمَ هُوَ أوّلُ مَنْ بَناها، ذَكَرَهُ ابنُ إِسْحاقَ في غَيْرِ رِوايةِ البَكّائِيّ.

وفي الخَبَرِ: أَنّ مَوْضِعَها كانَ غُثاءةً[1] على الماءِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ اللهُ سبحانهُ السّمواتِ والأَرْضَ، فلَمّا بَدَأَ [اللهُ][2] بِخَلْقِ الأَشْياءِ خَلَقَ التّرْبةَ قَبْلَ السّماءِ، فلما خَلَقَ السّماءَ، وقَضاهُنّ سَبْعَ سَمَواتٍ دَحا الأَرْضَ، أيْ: بَسَطَها، [وذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ [النازعات: ٣٠]][3]. وإنّما دَحاها مِنْ تَحْتِ مَكّةَ؛ ولِذَلِكَ سُمِّيَتْ: أُمَّ القُرى.

وفي التّفْسِيرِ: أنّ اللهَ سُبْحانَهُ حِينَ قالَ لِلسّمواتِ [والأَرْضِ: ﴿ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت: ١١]، لَمْ تُجِبْهُ بِهَذِهِ المَقالةِ مِن الأَرْضِ إلّا أَرْضُ الحَرَمِ، فلِذَلِكَ حَرّمَها.

وفي الحَدِيثِ: أنّ اللهَ حَرّمَ مَكّةَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السّمَواتِ][4] والأَرْضَ[5]، فصارَتْ حُرْمَتُها كَحُرْمةِ المُؤْمِنِ؛ لِأَنّ المُؤْمِنَ إنّما حُرّمَ دَمُهُ وعِرْضُهُ ومالُهُ بِطاعَتِهِ لِرَبِّهِ، وأَرْضُ الحَرَمِ لَمّا قالَتْ: ﴿ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾، حُرّمَ صَيْدُها وشَجَرُها

(١) كذا في (د)، (ج). وفي (أ)، (ب): «غثاء». ومثله في «سبل الهدى» (١: ١٦٣)، ما يحمله السيل من رغوة ومن فُتات الأشياء التي على وجه الأرض.

(٢) ليس في (أ).

(٣) سقط من (ب).

(٤) سقط من (ب).

(٥) «فتح الباري»، كتاب جزاء الصيد: (٤: ٤٦)، وكتاب الديات: (١٢: ٢٠٥)، ومسلم، كتاب الحج (٩٨٦-٩٨٧، ٩٨٨-٩٨٩). وانظر: «تفسير ابن كثير» (١: ٣٩٨).

وخَلاها إلّا الإذْخِرَ[١]، فلا حُرْمةَ إلّا لَذِي طاعةٍ، جَعَلَنا اللهُ مِمّنْ أطاعه.

وَرُوِيَ في سَبَبِ بُنْيانِ البَيْتِ خَبَرٌ [آخَرُ][٢]، ولَيْسَ بِمُعارِضٍ لِما تَقَدّمَ؛ وذَلِكَ أنّ اللهَ سُبْحانَهُ لَمّا قالَ لِمَلائِكَتِهِ تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا ...﴾ [البقرة: ٣٠]، خافُوا أنْ يَكُونَ اللهُ عاتِبًا عَلَيْهِمْ لِاعْتِراضِهِمْ في عِلْمِهِ، فطافُوا بِالعَرْشِ سَبْعًا، يَسْتَرْضُونَ رَبّهُمْ، ويَتَضَرّعُونَ إلَيْهِ، فأمَرَهُمْ سُبْحانَهُ أنْ يَبنُوا البَيْتَ المَعْمُورَ في السّماءِ السّابعةِ، وأنْ يَجْعَلُوا طَوافَهُمْ بِهِ، فكانَ ذَلِكَ أهْوَنَ عَلَيْهِمْ مِن الطّوافِ[٣] بالعَرْشِ، ثُمّ أمَرَهُمْ أنْ يَبنُوا في كُلّ سَماءٍ بَيْتًا، وفي كُلِّ أرْضٍ بَيْتًا، قالَ مُجاهِدٌ: هِيَ أرْبَعةَ عَشَرَ بَيْتًا، كُلّ بَيْتٍ مِنْها مَنى[٤] صاحِبِهِ، أيْ: في مُقابَلَتِهِ، لَوْ سَقَطَتْ لَسَقَطَتْ بَعْضُها على بَعْضٍ.

ورُوِيَ أيْضًا: أنّ المَلائِكةَ حِينَ أسّسَتِ[٥] الكَعْبةَ انْشَقّت الأرْضُ إلى مُنْتَهاها، وقُذِفَتْ فيها حِجارةٌ أمْثالُ الإبِلِ، فتِلْكَ القَواعِدُ مِن البيت التي رفَعَ عليها إبراهيمُ عليه السّلام [وإسماعيلُ عليه السّلام][٦] البيتَ، فلَمّا جاءَ الطّوفانُ رُفِعَتْ، وأُودِعَ الحَجَرُ الأسْوَدُ أبا قُبَيس.

وَذَكَرَ ابنُ هِشامٍ أنّ الماءَ لَمْ يَعْلُها حِينَ الطّوفانِ، ولَكِنّهُ قامَ حَوْلَها، وبَقِيَتْ

---

(١) الإذخر: حشيشة معروفة طيبة الريح، تُوجَد في الحجاز.

(٢) ليست في (أ).

(٣) في (ب): «طوافهم».

(٤) في (أ): «مواز». وفي (ب): «بأمناء»، وفي (هـ)، (د): «منا». وصواب الرسم: منى. وفي «اللسان»: «داري منى دارِهم؛ أي: إزاءها وقبالتها». هذا وانظر: «الفائق» للزمخشري: (٣: ٥٣).

(٥) في (أ): «استلبت»، ووقع في حاشيتها: «على حين ابتنت».

(٦) سقط من (أ).

هيَ في هَواءٍ إلى السّماءِ[١]، وأنّ نُوحًا قالَ لأهْلِ السّفينةِ وهِيَ تَطُوفُ بِالبَيْتِ: إنّكُمْ في حَرَمِ اللهِ وحَوْلَ[٢] بَيْتِهِ، فأحْرِمُوا لله، ولا يَمَسَّ أحَدُكم امْرَأةً، وجَعَلَ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ النّساءِ حاجزًا، فتَعَدّى حامٌ، فدَعا عَلَيْهِ نُوحٌ أنْ يَسْوَدّ لَوْنُ بَنِيهِ، فاسْوَدّ كُوشُ بنُ حامٍ ونَسْلُهُ إلى يَوْمِ القِيامةِ، وقَدْ قِيلَ في سَبَبِ دَعْوةِ نُوحٍ على حامٍ غَيْرُ هَذا، واللهُ أعْلَمُ.

وَذُكِرَ في الخَبَرِ عَن ابنِ عَبّاسٍ، قالَ: أوّلُ مَنْ عاذَ بِالكَعْبةِ[٣] حُوتٌ صَغِيرٌ؛ خافَ مِنْ حُوتٍ كَبِيرٍ، فعاذَ مِنْهُ بِالبَيْتِ، وذَلِكَ أيّامَ الطّوفانِ. ذَكَرَهُ يَحْيى بنُ سَلّامٍ.

فلَمّا نَضَبَ[٤] ماءُ الطّوفانِ، كانَ مَكانَ البَيْتِ رَبْوةٌ مِنْ مَدَرةٍ، وحَجّ إلَيْهِ هُودٌ وصالِحٌ ومَن آمَنَ مَعَهما وهو كذلِكَ.

وَيُذْكَرُ[٥] أنّ يَعْرُبَ قالَ لِهُودٍ عَلَيْهِ السّلامُ: ألا تَبْنِيهِ؟ قالَ: إنّما يَبنِيهِ نَبِيٌّ كَرِيمٌ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي يَتّخِذُهُ الرّحْمَنُ خَلِيلًا، فلَمّا بعَثَ الله إبراهيمَ وشبَّ إسماعيلُ عليهما السّلام بِمَكّةَ، أُمِرَ إبْراهِيمُ عليه السلامُ بِبِناءِ الكَعْبةِ، فدَلّتْهُ عَلَيْهِ السّكِينةُ[٦]، وظَلّلَتْ[٧] لَهُ على مَوْضِعِ البَيْتِ، فكانَتْ عَلَيْهِ كالجُحْفةِ[٨]،

---

(١) في (ب): «سماء».

(٢) في (ب): «وأهل»، و(هـ): «وحرم».

(٣) في (ب): «بالسفينة».

(٤) في (أ): «فلما نضب الماء كان...».

(٥) في (ف): «وذكر».

(٦) وردت السكينة في آثار متعددة، وفُسِّرت بريح لها، وجناحين، وبسحابة. «سبل الهدى» (١: ١٨٠-١٨٢).

(٧) في (أ): «وأظلت».

(٨) هي التُّرسُ، وهو من السلاح ما يُتوقى به.

وذَلِكَ أنّ السّكِينةَ مِنْ شَأْنِ الصّلاةِ، فجُعِلَتْ عَلَمًا على قِبْلَتِها؛ حِكْمةً مِن اللهِ تعالى، وبَناهُ مِنْ خَمْسةِ أجْبُلٍ، كانَت المَلائِكةُ تَأْتِيهِ بالحِجارةِ مِنْها، [وهِيَ][1]: طُور سَيناء، وطُورُ زَيْتا[2] اللّذانِ بالشّام، والجُودِيّ، وهُوَ بِالجَزِيرةِ، ولُبنانُ[3] وحِراءٌ، وهُما في الحَرَمِ، كُلّ هَذا جَمَعْناهُ مِنْ آثارٍ مَرْوِيّةٍ.

وانْتَبِهْ لِحِكْمةِ اللهِ كَيْفَ جَعَلَ بِناءَها مِنْ خَمْسةِ أجْبُلٍ، فشاكَلَ ذَلِكَ مَعْناها؛ إذْ هِيَ قِبْلَةٌ لِلصّلواتِ الخَمْسِ وعَمُودُ الإسْلامِ، وقَدْ بُنِيَ على خَمْسٍ، وكَيْفَ دَلّتْ عَلَيْهِ السّكِينةُ[4]؛ [إذْ هي[5] قِبْلةٌ لِلصّلاةِ، والسّكِينةُ][6] مِنْ شَأْنِ الصّلاةِ! قالَ عَلَيْهِ السّلامُ: «وَأْتُوها وعَلَيْكُم السّكِينةُ»[7].

فلَمّا بَلَغَ إبْراهِيمُ الرّكْنَ جاءَهُ جِبْرِيلُ عليه السلامُ بِالحَجَرِ الأسْوَدِ مِنْ جَوْفِ أبِي قُبَيْسٍ.

ورَوى التِّرْمِذِيُّ عَن ابنِ عَبّاسٍ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قالَ: «أُنْزِلَ الحَجَرُ [الأسْوَدُ][8] مِن الجَنّةِ أشَدَّ بَياضًا مِن اللّبَنِ، فسَوّدَتْهُ خَطايا بَنِي آدَمَ»[9].

---

(١) ليس في (ب).

(٢) كذا ضُبِط في «معجم البلدان»، وهو جبل بالقدس عن يمين المسجد.

(٣) لبنان ـ تثنية لُبْن ـ: جبلانِ قرب مكة، يقال لهما: لبن الأسفل ولبن الأعلى.

(٤) رواه الأزرقي عن قتادة. انظر: «أخبار مكة» له: (١: ٢٦).

(٥) في (ف): «هو».

(٦) سقط من (أ).

(٧) أخرجه الشيخان، «فتح الباري»، كتاب الأذان: (٢: ١١٧-١٢٠)، ومسلم، كتاب المساجد: (١: ٤٢٠-٤٢٢).

(٨) سقط من (أ).

(٩) «عارضة الأحوذي»، أبواب الحج، باب ما جاء في فضل الحجر الأسود: (٤: ١٠٧-١٠٨).

ورَوى التّرْمِذيُّ أيْضًا مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ اللهِ بن عَمْرٍو مَرْفُوعًا: «إنّ الرّكْنَ الأسْوَدَ والرّكْنَ اليَمانِيَ ياقُوتَتانِ مِن الجَنّةِ، ولَوْلا ما طُمِسَ مِنْ نُورِهِما لَأضاءَتا ما بَيْنَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ»[١].

وفي رِوايةِ غَيْرِهِ: «ولَأبْرَأ مَن اسْتَلَمَهُما مِن الخَرَسِ والجُذامِ والبَرَصِ»[٢].

ورَوى غَيْرُ التّرْمِذِيِّ مِنْ طَرِيقِ عَلِيّ رضيَ اللهُ عنهُ: أنّ العَهْدَ الّذِي أخَذَهُ اللهُ على ذُرّيّةِ آدَمَ حِينَ مَسَحَ ظَهْرَهُ: ألّا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، كَتَبَهُ في صَكٍّ، وألْقَمَهُ الحَجَرَ الأسْوَدَ؛ ولِذَلِكَ يَقُولُ المُسْلِمُ لَهُ: [اللهمَّ][٣] إيمانًا بِك، ووَفاءً بِعَهْدِك[٤].

وذَكَرَ هَذا الخَبَرَ الزّبَيْرُ، وزادَ فيهِ: أنّ اللهَ سُبْحانَهُ أجْرى نَهْرًا أطيَبَ مِن اللّبَنِ، وألْيَنُ مِن الزُّبْدِ، فاسْتَمَدّ مِنْهُ القَلَمَ الّذِي كَتَبَ بِهِ العَهْدَ، قالَ: وكانَ أبُو قُبَيْسٍ يُسَمّى: الأمِينَ؛ لِأنّ الرّكْنَ كانَ مُودَعًا فيه، [وأنه نادى إبراهيم حين بَلَغَ بِالبُنْيانِ إلى مَوْضِعِ الرّكْنِ، فأخْبَرَهُ أنّ الرُّكْنَ فيهِ][٥]، ودَلّهُ على مَوْضِعِهِ مِنْهُ.

وانْتَبِهْ[٦] من ههنا إلى الحِكْمةِ في أنْ سَوّدَتْهُ خَطايا بَنِي آدَمَ دُونَ غَيْرِهِ مِنْ حِجارةِ الكَعْبةِ وأسْتارِها؛ وذَلِكَ أنّ العَهْدَ الّذِي فيهِ هِيَ[٧] الفِطْرةُ الّتِي فُطِرَ النّاسُ عَلَيْها مِنْ تَوْحِيدِ اللهِ، فكُلّ مَوْلُودٍ يُولَدُ على تِلْكَ الفِطْرةِ، وعلى ذَلِكَ

---

(١) «عارضة الأحوذي»، أبواب الحج، باب ما جاء في فضل الحجر الأسود: (٤: ١٠٨-١٠٩).

(٢) عن (ب)، وهو لفظ الترمذي.

(٣) سقط من (ب)، (ف).

(٤) روى البيهقي نحوه في «الشعب» عن ابن عمر. انظر: «سبل الهدى والرشاد» (١: ٢٠٤).

(٥) عن (أ).

(٦) في (هـ)، (ب): «فانتبه».

(٧) في (أ): «هو». وما أثبت هو الأفصح مراعاةً للخبر.

المِيثاقِ، فلَوْلا أنّ أبَوَيْهِ يُهَوّدانِهِ ويُنَصّرانِهِ ويُمَجّسانِهِ حَتّى يَسْوَدَّ قَلْبُهُ بِالشّرْكِ، لَما حالَ[١] عَنِ العَهْدِ، فقَدْ صارَ قَلْبُ ابنِ آدَمَ مَحَلًّا لِذَلِكَ العَهْدِ والمِيثاقِ، [وصارَ الحَجَرُ مَحَلًّا لِما كُتِبَ فيهِ مِنْ ذَلِكَ العَهْدِ والمِيثاقِ][٢]، فتَناسَبا، فاسْوَدّ مِنَ الخَطايا قَلْبُ ابنِ آدَمَ بَعْدَ ما كانَ وُلِدَ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ العَهْدِ[٣]، واسْوَدّ الحَجَرُ بَعْدَ ابْيِضاضِهِ، وكانَت الخَطايا سَبَبًا في ذَلِكَ، حِكْمةً مِن اللهِ سُبْحانَهُ.

فهَذا ما ذُكِرَ في بُنْيانِ الكَعْبةِ مُلَخّصًا، مِنْهُ ما ذَكَرَه الماوَرْدِيّ، ومِنْهُ ما ذَكَرَهُ الطّبَرِيّ، ومِنْهُ ما وقَعَ في كِتابِ «التّمْهِيدِ» لِأبِي عُمَرَ، ونُبَذٌ أخَذْتها مِنْ كِتابِ «فضائِلِ مَكّةَ» لِرَزِينِ بنِ مُعاوِيةَ[٤]، ومِنْ كِتابِ أبِي الوَلِيدِ الأزْرَقِيّ في «أخْبارِ مَكّةَ» [أيضًا][٥]، ومِنْ أحادِيثَ في المُسْنَداتِ المَرْوِيّةِ، وسَنُورِدُ[٦] في باقِي الحَدِيثِ بَعْضَ ما بَلَغَنا في ذَلِكَ مُسْتَعِينِينَ باللهِ.

وأمّا الرُّكْنُ اليَمانِي فسُمّيَ بِاليَمانِي - فيما ذَكَرَ القُتَبِيّ - لِأنّ رَجُلًا مِن اليَمَنِ بَناهُ اسْمُهُ: أُبَيّ بنُ سالِمٍ، وأنْشَدَ[٧]: [من الطويل]

لَنا الرّكْنُ مِنْ بَيْتِ الحَرامِ وِراثةً ... بَقِيّةَ ما أبْقى أُبَيّ بنُ سالِمِ

---

(١) أي: لما تحوَّل عنه.

(٢) سقط من (أ).

(٣) بعده في (أ): «والميثاق».

(٤) اسمه كما في «فهرسة ابن خير الإشبيلي» (ص: ٢٤٤)، «أخبار مكة والمدينة وفضلهما»، تأليف: أبي الحسن رزين بن معاوية العبدري السَّرَقُسْطي المجاور (ت ٥٣٥هـ)، وهو مفقود. (ج)

(٥) ليس في (أ)، (ب).

(٦) في (ب): «وسنذكر».

(٧) «المعارف» لابن قتيبة: (ص: ٥٦١)، وفيه يُرْوى البيت:

لنا أيمنُ البيتِ الذي تعبدونه ... وراثةَ ما بَقّى أبيُّ بن سالمِ

وَأمّا المَسْجِدُ الحَرامُ فأوّلُ مَنْ بَناهُ عُمَرُ بنُ الخَطّابِ؛ وذَلِكَ أنّ النّاسَ ضَيّقُوا على الكَعْبةِ، وألْصَقُوا دُورَهُمْ بِها، فقالَ [عُمَرُ رضيَ اللهُ عنهُ][1]: إنّ الكَعْبةَ بَيْتُ اللهِ، ولا بدّ لِلْبَيْتِ مِنْ فِناءٍ، وإنّكُمْ دَخَلْتُمْ عَلَيْها، ولَمْ تَدْخُلْ عَلَيْكُمْ، فاشْتَرى تِلْكَ الدّورَ مِنْ أهْلِها وهَدَمَها، وبَنى المَسْجِدَ المُحِيطَ بِها، ثُمّ كانَ عُثْمانُ، فاشْتَرى دُورًا أُخْرى، وأغْلى في ثَمَنِها، وزادَ في سَعةِ المَسْجِدِ، فلَمّا كانَ ابنُ الزّبَيْرِ زادَ في إتْقانِهِ، لا في سَعَتِهِ، وجَعَلَ فيهِ عُمُدًا مِن الرّخامِ، وزادَ في أبْوابِهِ، وحَسّنَها، فلَمّا كانَ عَبْدُ المَلِكِ بنُ مَرْوانَ زادَ في ارْتِفاعِ حائِطِ المَسْجِدِ، وحَمَلَ إلَيْهِ السّوارِيَ في البَحْرِ إلى جُدّةَ، واحْتُمِلَتْ مِنْ جُدّةَ على العَجَلِ[2] إلى مَكّةَ، وأمَرَ الحَجّاجَ بنَ يُوسُفَ فكَساها الدّيباجَ، وقَدْ كُنّا قَدّمْنا[3] أنّ ابنَ الزّبَيْرِ كَساها الدّيباجَ قَبْلَ الحَجّاجِ، ذَكَرَهُ الزّبَيْرُ بنُ بَكّارٍ.

وذَكَرْنا أيْضًا أنّ خالِدَ[4] بنَ جَعْفَرِ بنِ كِلابٍ مِمّنْ كَساها الدّيباجَ قَبْلَ الإسْلامِ، ثُمّ كانَ الوَلِيدُ بنُ عَبْدِ المَلِكِ فزادَ في حُلِيّها، وصَرَفَ في مِيزابِها وسُقُفِها ما كانَ في مائِدةِ سُلَيْمانَ عليه السّلامُ مِنْ ذَهَبٍ وفِضّةٍ، وكانَتْ قَد احْتُمِلَتْ إلَيْهِ مِنْ طُلَيْطِلةَ مِنْ جَزِيرةِ الأنْدَلُسِ، وكانَتْ لَها أطْواقٌ مِنْ ياقُوتٍ وزَبَرْجَدٍ، وكانَتْ قَد احْتُمِلَتْ على بَغْلٍ قَوِيّ فتَفَسّخَ تَحْتَها، فضَرَبَ مِنْها الوَلِيدُ حِلْيةً لِلْكَعْبةِ، فلَمّا كانَ أبُو جَعْفَرٍ المَنْصُورُ وابنُهُ مُحَمّدٌ المَهْدِيّ زادَ أيْضًا في إتْقانِ المَسْجِدِ، وتَحْسِينِ هَيْئَتِهِ، ولَمْ يُحْدَثْ فيهِ بَعْدَ ذَلِكَ عَمَلٌ إلى الآنَ.

وفي اشْتِراءِ عُمَرَ وعُثْمانَ الدّورَ الّتِي زادا فيها دَلِيلٌ على أنّ رِباعَ أهْلِ مَكّةَ مِلْكٌ

---

(١) ليس في (أ).

(٢) العجلة بالتحريك: التي يجرُّها الثور، وتُجمَع على: عَجل وأعجال. «اللسان» (عجل).

(٣) انظر: (١/ ٢١٤).

(٤) في (أ)، (ب): «جَلْد». وهو تحريف. هذا وانظر: «الأوائل» للعسكري: (١: ٩٠-٩١).

لِأَهْلِها، يَتَصَرّفُونَ فيها بالبَيعِ والشِّراءِ [والكِراءِ][1] إذا شاؤوا، وفي ذَلِكَ اخْتِلافٌ.

فَصْلٌ

وذَكَرَ ابنُ إسْحاقَ دُوَيْكًا الّذِي سَرَقَ كَنْزَ الكَعْبةِ، وقد تَقَدّمَ أنّ سارقًا سَرَقَ مِنْ مالِها في زَمَنِ جُرْهُم، وأنّهُ دَخَلَ البِئْرَ الّتِي فيها كَنْزُ الكَعْبةِ، فسَقَطَ عَلَيْهِ حَجَرٌ فحَبَسَهُ فيها حَتّى أُخْرِجَ مِنْها، وانْتُزِعَ المالُ مِنْهُ[2]، ثُمّ بَعَثَ اللهُ حَيّةً لَها رَأْسٌ كَرَأْسِ الجَدْيِ، بَيْضاءَ البَطْنِ، سَوْداءَ المَتْنِ، فكانَتْ في بِئْرِ الكَعْبةِ خَمْسَ مئة عام فيما ذَكَرَ رَزِينٌ، وهِيَ الّتِي ذَكَرَها ابنُ إسْحاقَ، وكانَ لا يَدْنُو أحَدٌ مِنْ بِئْرِ الكَعْبةِ إلّا احْزَألّتْ، أيْ: رَفعَتْ ذَنَبَها، وكَشّتْ، أيْ: صَوّتَتْ.

وذَكَرَ ابنُ إسْحاقَ أنّ سَفينةً رَماها البَحْرُ إلى جُدّةَ، فتَحَطّمَتْ، وذَكَرَ غَيْرُهُ عَن ابنِ مُنَبِّهٍ[3]: أنّ سَفينةً خَجّتْها الرّيحُ إلى الشُّعَيْبةِ، وهُوَ مَرْفَأُ السّفُنِ مِنْ ساحِلِ بَحْرِ الحِجازِ، وهُوَ كانَ مَرْفَأَ مَكّةَ ومَرْسى سُفُنِها قَبْلَ جُدّةَ.

والشُّعَيْبةُ: بِضَمّ الشّينِ، ذَكَرَهُ البَكْرِيّ، وفَسّرَ الخَطّابِيّ «خَجّتْها»، أيْ: دَفَعَتْها بِقُوّةٍ، مِن الرّيحِ الخَجُوجِ، أي: الدّفوع.

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وكانَ بِمَكّةَ نَجّارٌ قِبْطِيّ، وذَكَرَ غَيْرُهُ أنّهُ كانَ عِلْجًا في السّفينةِ الّتِي خَجّتْها الرّيحُ إلى الشُّعَيْبةِ، وأنّ اسْمَ ذلك النَّجّار: باقوم[4]. وكَذَلِكَ رُوِيَ أيْضًا في اسْمِ النّجّارِ الّذِي عَمِلَ مِنْبَرَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ طَرْفاءِ الغابةِ، ولَعَلّهُ أنْ يَكُونَ هَذا، فاللهُ[5] أعْلَمُ.

---

(١) عن (ب)، (هـ).
(٢) في (ف): «منها».
(٣) هو وهب بن منبه. وانظر «معجم البلدان» (شعبية).
(٤) باقوم، وقيل: باقول. مترجم في الصحابة. انظر: «أسد الغابة» (١: ١٩٥).
(٥) في (ف): «والله».

فَصْلٌ

وذَكَرَ خَبَرَ العُقابِ، أو الطّائِرِ الّذِي اخْتَطَفَ الحَيّةَ مِنْ بِئْرِ الكَعْبةِ، وقالَ غَيْرُهُ: طَرَحَها الطّائِرُ بِالحَجُونِ، فالتَقَمَتْها الأرْضُ. وقالَ مُحَمّدُ بنُ الحَسَنِ المُقْرِي هَذا القَوْلَ، ثُمّ قالَ: وهِيَ الدّابّةُ التي تُكلِّمُ الناسَ قبْلَ يومِ القيامةِ، واسْمُها: أقْصى فيما ذُكِرَ[١].

ومُحَمّدُ بنُ الحَسَنِ المُقْرِي هُوَ النّقّاشُ، وهُوَ مِنْ أهْلِ العِلْمِ، واللهُ[٢] أعْلَمُ بِصِحّةِ ما قالَ، غيْرَ أنّهُ قَدْ رُوِيَ في حَدِيثٍ آخَرَ: أنّ مُوسى عَلَيْهِ السّلامُ سَألَ رَبّهُ أنْ يُرِيَهُ الدّابّةَ الّتِي تُكَلّمُ النّاسَ، فأخْرَجَها لَهُ مِن الأرْضِ، فرَأى مَنْظَرًا هالَهُ وأفْزَعَهُ، فقالَ: أيْ رَبّ، رُدَّها، فرَدَّها.

وَذَكَرَ ابنُ إسْحاقَ حَدِيثَ الحَجَرِ الّذِي أُخِذَ مِن الكَعْبةِ، فوَثَبَ مِنْ يَدِ آخِذِهِ حَتّى عادَ[٣] إلى مَوْضِعِهِ، وقالَ غَيْرُهُ: ضَرَبُوا بِالمِعْوَلِ في حَجَرٍ مِنْ أحْجارِها[٤]، فلَمَعَتْ بَرْقةٌ كادَتْ تَخْطَفُ أبْصارَهُمْ، وأخَذَ رَجُلٌ مِنْهُمْ حَجَرًا، فطارَ مِنْ يَدِهِ وعادَ إلى مَوْضِعِهِ.

وذَكَرَ ابنُ إسْحاقَ قَوْلَهُمْ: «اللهُمّ لَمْ تُرَعْ»[٥]، وهِيَ كَلِمةٌ تُقالُ عِنْدَ تَسْكِينِ

(١) في (ف): «ذكره».

(٢) في (ف): «فالله».

(٣) في (أ): «ثم عاد».

(٤) في (ف): «حِجارها».

(٥) في (أ)، (ب): «تُرَع»، مضبوطًا. وقال الخشني في «شرح السيرة» (١: ٦٤): «لم تُرَع، أي: لم تفزع. ومن قال: لم تُرَع فإنما يعني: الكعبة. فأضمرها لتقدم ذِكرها. ومن قال: لم تزغ [كذا، وصوابه: لم نَزِغ] فمعناه: لم تمل [الصواب: نَمِلْ، بالنون] عن دينك ولا خرجنا عنه».

الرّوْعِ، والتّأْنِيسِ، وإظْهارِ اللّينِ والبرّ في القَوْلِ، ولا رَوْعَ في هَذا المَوْطِنِ [فيُنْفى](١)، ولَكِنّ الكَلِمةَ تَقْتَضِي إظْهارَ قَصْدِ البرّ؛ فلِذَلِكَ تكَلّمُوا بها، وعلى هَذا يَجُوزُ التّكَلّمُ بِها في الإسْلامِ، وإنْ كانَ فيها ذِكْرُ الرّوْعِ الّذِي هُوَ مُحالٌ في حَقّ البارِي تَعالى، ولَكِنْ لَمّا كانَ المَقْصُودُ ما ذَكَرْنا، جازَ النّطْقُ بِها، وسَيَأْتِي في هَذا الكِتابِ ـ إنْ شاءَ اللهُ ـ زِيادةُ بَيانٍ عِنْدَ قَوْلِهِ:

فاغْفِـرْ فِداءً لَك مـا اقْتَفَيْنا

وَيُرْوى أيْضًا: «اللهُمّ لَمْ نَزِغْ»، وهُوَ جَلِيّ لا يُشْكِلُ.

مِنْ تَفْسِيرِ حَدِيثِ أبِي لَهَبٍ: وذَكَرَ قَوْلَهُمْ: «لا تُدْخِلُوا في هَذا البَيْتِ مَهْرَ بَغِيّ» وهِيَ الزّانِيةُ، وهِيَ فعُولٌ مِن البغاءِ، فانْدَغَمَت الواوُ في الياءِ، ولا يَجُوزُ عِنْدَهُمْ أنْ يَكُونَ على وزْنِ فعِيلٍ؛ لِأنّ فعِيلًا بِمَعْنى: فاعِلٍ يَكُونُ بِالهاءِ في المُؤَنّثِ، كَرَحِيمةٍ وكَرِيمةٍ، وإنّما يَكُونُ بِغَيْرِ هاءٍ إذا كانَ في مَعْنى: مَفْعُولٍ، نَحْو: امْرَأةٌ جَرِيحٌ وقَتِيلٌ.

وَقَوْلُهُ: «ولا بَيْعَ رِبًا» يَدُلّ على أنّ الرّبا كانَ مُحَرّمًا عَلَيْهِمْ في الجاهِلِيّةِ، كَما كانَ الظّلْمُ والبغاءُ ـ وهُوَ الزّنا(٢) ـ مُحَرّمًا عَلَيْهِمْ، يَعْلَمُونَ ذَلِكَ بِبَقِيّةٍ مِنْ بقايا شَرْعِ إبْراهِيمَ عَلَيْهِ السّلامُ، كَما كانَ بَقِيَ فيهِم الحَجّ والعُمْرةُ وشَيْءٌ مِنْ أحْكامِ الطّلاقِ والعِتْقِ وغَيْرِ ذَلِكَ. وفي قَوْلِهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥] دليلٌ على تَقدُّمِ التّحْرِيمِ(٣).

---

(١) ليس في (أ).

(٢) في (ب): «الزناء والزنى يُمدّ ويُقصَر».

(٣) بعده في (ف): «والله أعلم».

قالَ ابنُ إسْحاقَ: فحَدَّثَني بَعْضُ مَنْ يَرْوِي الحَدِيثَ: أنَّ رَجُلًا مِنْ قُرَيْشٍ مِمَّنْ كانَ يَهْدِمُها، أدْخَلَ عَتَلةً بَيْنَ حَجَرَيْنِ مِنْها لِيَقْلَعَ بِها أحَدَهُما، فلَمّا تَحَرَّكَ الحَجَرُ تَنَقَّضَتْ مَكّةُ بِأسْرِها، فانْتَهَوْا عَنْ ذلك الأساسِ.

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وحُدِّثْتُ أنَّ قُرَيْشًا وجَدُوا في الرُّكْنِ كِتابًا بِالسُّرْيانِيّةِ، فلَمْ يَدْرُوا ما هُوَ حَتّى قَرَأهُ لَهُمْ رَجُلٌ مِنْ يَهُودَ، فإذا هُوَ: أنا اللهُ ذُو بَكّةَ، خَلَقْتُها يَوْمَ خَلَقْتُ السَّمواتِ والأرْضَ، وصَوَّرْتُ الشَّمْسَ والقَمَرَ، وحَفَفْتها بِسَبْعةِ أمْلاكٍ حُنَفاءَ، لا تَزُولُ حَتّى يَزُولَ أخْشَباها، مُبارَكٌ لِأهْلِها في الماءِ واللَّبَنِ.

قالَ ابنُ هِشامٍ: أخْشَباها: جَبَلاها.

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وحُدِّثْتُ أنَّهُمْ وجَدُوا في المَقامِ كِتابًا فيهِ: مَكّةُ بَيْتُ اللهِ الحَرامِ، يَأْتِيها رِزْقُها مِنْ ثَلاثةِ سُبُلٍ، لا يُحِلُّها أوَّلُ مِنْ أهْلِها.

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وزَعَمَ لَيْثُ بنُ أبي سُلَيْمٍ أنَّهُمْ وجَدُوا حَجَرًا في الكَعْبةِ قَبْلَ مَبْعَثِ النَّبِيِّ ﷺ بِأرْبَعِينَ سَنةً ـ إنْ كانَ ما ذُكِرَ حَقًّا ـ مَكْتُوبًا فيهِ:

مَنْ يَزْرَعْ خَيْرًا يَحْصُدْ غِبْطةً، ومَنْ يَزْرَعْ شَرًّا يَحْصُدْ نَدامةً، تَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ، وتُجْزَوْنَ الحَسَناتِ؟! أجَلْ، كَما لا يُجْتَنى مِن الشَّوْكِ العِنَبُ.

فَصْلٌ

وذَكَرَ الحَجَرَ الّذِي وُجِدَ مَكْتُوبًا في الكَعْبةِ[١]، وفيهِ: «أنا الله ذو بكّة...» الحَدِيثَ. ورَوى مَعْمَرُ بنُ راشِدٍ في «الجامِعِ» عَن الزّهْرِيّ أنّهُ قالَ[٢]: بَلَغَنِي أنّ قُرَيْشًا حِينَ بَنَوُا الكَعْبةَ، وجَدُوا فيها حَجَرًا، وفيهِ ثَلاثةُ صُفُوحٍ[٣]: في الصّفْحِ الأوّلِ: «أنا اللهُ ذُو بَكّةَ، صُغْتها يَوْمَ صُغْت الشّمْسَ والقَمَرَ...» إلى آخر كلامِ ابنِ إسْحاقَ. وفي الصّفْحِ الثّانِي: «أنا اللهُ ذُو بَكّةَ، خلقْتُ الرَّحِمَ، واشتَققتُ لَها اسْمًا مِن اسْمِي، فمَنْ وصَلَها وصَلْته، ومَنْ قَطَعَها[٤] بَتَتُّهُ». وفي الصّفْحِ الثّالِثِ: «أنا الله ذو بكّةَ، خَلَقْت الخَيْرَ والشّرّ، فطُوبى لِمَنْ كانَ الخَيْرُ على يَدَيْهِ، ووَيْلٌ لِمَنْ كانَ الشَّرُّ على يَدَيْه».

وفي حديثِ ابنِ إسْحاقِ: «لا يُحِلُّها[٥] أوّلُ مِنْ أهْلِها»، يُرِيدُ ـ واللهُ أعْلَمُ ـ ما كانَ مِن اسْتِحْلالِ قُرَيْشٍ للقِتالَ فيها أيّامَ ابنِ الزّبَيْرِ وحُصَيْنِ بنِ نُمَيْرٍ، ثُمّ الحَجّاجُ [بَعْدَهُ][٦]، ولِذَلِكَ قالَ ابنُ أبِي رَبِيعةَ[٧]: [من المتقارب]

أَلا مَــنْ لِقَلْــبٍ مُعَنًّى غَزِلْ يُحِبُّ المُحِلّةَ أُخْتَ المُحِلّ

يَعْنِي بِالمُحِلّ عَبْدَ اللهِ بنَ الزُّبَيْرِ؛ لِقِتالِهِ في الحَرَمِ.

---

(١) في غير (أ)، (د): «في الكعبة مكتوبًا».

(٢) «الجامع» لمعمر بن راشد: (١١: ١١٤)، رقم (٢٠٠٧١). (ج)

(٣) الصفح من كل شيء: جانبه.

(٤) في (أ)، (د): «قطعه».

(٥) في (أ): «لا يحلها للقتال أول».

(٦) ليست في (أ).

(٧) البيت لرجلٍ قاله في رملة بنت الزبير في «الكامل» للمبرد: (٣: ١٩٤) و«العقد الفريد» (٥: ١٦١)، وانظر «الأغاني» (٦: ٢١٩). (ج)

[اخْتِلافُ قُرَيْشٍ فيمَنْ يَضَعُ الحَجَرَ، ولَعَقَةُ الدَّمِ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: ثُمَّ إنَّ القَبائِلَ مِنْ قُرَيْشٍ جَمَعَت الحِجارةَ لِبِنائِها، كُلُّ قَبِيلةٍ تَجْمَعُ على حِدةٍ، ثُمَّ بَنَوْها، حَتّى بَلَغَ البُنْيانُ مَوْضِعَ الرُّكْنِ، فاخْتَصَمُوا فيهِ، كُلُّ قَبِيلةٍ تُرِيدُ أنْ تَرْفَعَهُ إلى مَوْضِعِهِ دُونَ الأُخْرى، حَتّى تَحاوَزُوا وتَحالَفُوا، وأعَدُّوا لِلْقِتالِ، فقَرَّبَتْ بَنُو عَبْدِ الدّارِ جَفْنةً مَمْلُوءةً دَمًا، ثُمَّ تَعاقَدُوا هُمْ وبَنُو عَدِيِّ بن كَعْبِ بنِ لُؤَيٍّ على المَوْتِ، وأدْخَلُوا أيْدِيَهُمْ في ذلك الدَّمِ في تِلْكَ الجَفْنةِ، فسُمُّوا: لَعَقةَ الدَّمِ، فمَكَثَتْ قُرَيْشٌ على ذلك أرْبَعَ لَيالٍ أوْ خَمْسًا، ثُمَّ إنَّهُم اجْتَمَعُوا في المَسْجِدِ وتَشاوَرُوا وتَناصَفُوا.

[إشارةُ أبي أُميّةَ بِتَحْكِيمِ أوَّلِ داخِلٍ، فكانَ رَسُولَ اللهِ ﷺ]

فَزَعَمَ بَعْضُ أهل الرِّوايةِ: أن أبا أُميّةَ بنَ المُغِيرةِ بنِ عَبْدِ الله بنِ عُمَرَ ابنِ مَخْزُومٍ، وكانَ عامَئذٍ أسَنَّ قُرَيْشٍ كُلِّها، قالَ: يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، اجْعَلُوا بَيْنَكُمْ فيما تَخْتَلِفُونَ فيهِ أوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ مِنْ بابِ هذا المَسْجِدِ يَقْضِي بَيْنَكُمْ فيهِ. ففَعَلُوا، فكانَ أوَّلَ داخِلٍ عَلَيْهِمْ رَسُولُ الله ﷺ، فلَمّا رَأوْهُ قالُوا: هذا الأمِينُ، رَضِينا، هذا مُحَمَّدٌ، فلَمّا انْتَهى إلَيْهِمْ وأخْبَرُوهُ الخَبَرَ، قالَ ﷺ: «هَلُمَّ إلَيَّ ثَوْبًا»، فأُتِيَ بِهِ، فأخَذَ الرُّكْنَ فوَضَعَهُ فيهِ بِيَدِهِ، ثُمَّ قالَ: «لِتَأْخُذْ كُلُّ قَبِيلةٍ بِناحِيةٍ مِن الثَّوْبِ، ثُمَّ ارْفَعُوهُ جَمِيعًا»، ففَعَلُوا، حَتّى إذا بَلَغُوا بِهِ مَوْضِعَهُ وضَعَهُ هُوَ بِيَدِهِ، ثُمَّ بَنى عَلَيْهِ.

فَصْلٌ

وذَكَرَ اخْتِلافَهُمْ في وضْعِ الرّكْنِ، وأنّ رَسُولَ اللهِ ﷺ هُوَ الّذِي وضَعَهُ بِيَدِهِ، وذَكَرَ غَيْرُهُ[1] أنّ إبْلِيسَ كانَ مَعَهُمْ في صُورةِ شَيْخٍ نَجْدِيّ، وأنّهُ صاحَ بِأعْلى صَوْتِهِ: يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أقدْ رَضِيتُمْ أنْ يَضَعَ هَذا الرّكْنَ وهُوَ شَرَفُكُمْ غُلامٌ يَتِيمٌ دُونَ ذَوِي أسْنانِكُمْ، فكاد يُثِيرُ شَرًّا فيما بَيْنَهُمْ، ثُمّ سَكّنُوا ذَلِكَ. وأمّا وضْعُ الرّكْنِ حِينَ بُنِيَت الكَعْبَةُ في أيّامِ ابنِ الزّبَيْرِ، فوَضَعَهُ في المَوْضِعِ الّذِي هُوَ[2] فيهِ الآنَ حَمْزَةُ بنُ عَبْدِ اللهِ بنِ الزّبَيْرِ، وأبُوهُ يُصَلّي بِالنّاسِ في المَسْجِدِ، اغْتَنَمَ شُغْلَ النّاسِ عَنْهُ بِالصّلاةِ لَمّا أحَسّ مِنْهُم التّنافُسَ في ذَلِكَ، وخافَ الخِلافَ، فأقَرّهُ أبُوهُ. ذَكَرَ ذَلِكَ الزّبَيْرُ بنُ أبِي بَكْرٍ.

وذكَرَ ابنُ إسحاق أيْضًا أنّهُمْ أفْضَوْا إلى قَواعِدِ البَيْتِ، وإذا هِيَ خُضْرٌ كالأسْنّةِ، هكذا تقيّدَ في نُسخة الشّيخ وفي غيرِها من النُّسخ، ووقعَ في نُسخةٍ صحيحة: «كالأسنمة»[3]. ولَيْسَتْ هَذِهِ رِوايةَ السِّيرةِ، إنّما الصّحِيحُ في الكِتابِ: «كالأسِنّةِ»، وهُوَ وهْمٌ من بعض النَّقَلة عن ابن إسحاق، واللهُ أعْلَمُ؛ فإنّهُ لا يُوجَدُ في غَيْرِ هَذا الكِتابِ بِهَذا اللّفْظِ، لا عِنْدَ الواقِدِيّ ولا غَيْرِهِ، وقَدْ ذَكَرَ البُخارِيُّ في بُنْيانِ الكَعْبةِ هَذا الخَبَرَ، فقالَ فيهِ عَنْ يَزِيدَ بنِ رُومانَ[4]: «فنَظَرْت إلَيْها، فإذا هِيَ كَأسْنِمةِ الإبِلِ»، وتَشْبِيهُها بِالأسِنّةِ لا يُشَبّهُ إلّا في

---

(١) رواه ابن سعد وأبو نعيم عن ابن عباس. انظر: «سبل الهدى والرشاد» (٢: ٢٣٢)، و«طبقات ابن سعد» (١: ١٤٦)، ط. بيروت.

(٢) «هو» ليس في: (ف).

(٣) في (أ): «كالأسنة». هذا وانظر: «شرح السيرة» لأبي ذر الخشني: (ص: ٦٤).

(٤) «فتح الباري»، كتاب الحج: (٣: ٤٣٩).

الزُّرْقةِ، وتَشْبيهُها بأَسْنِمةِ الإبِلِ أوْلى؛ لِعِظَمِها، ولِما تَقدّمَ في حَدِيثِ بُنْيانِ المَلائِكةِ [لَها قَبْلَ هَذا][1].

[شِعْرُ الزُّبَيرِ في الحَيّةِ الَّتِي كانَتْ قُرَيْشٌ تَهابُ بُنْيانَ الكَعْبَةِ لَهَا]

وَكانَتْ قُرَيْشٌ تُسمّي رَسُول الله ﷺ قبْلَ أن يَنزِل عَلَيْهِ الوَحْيُ: الأمينَ.

فلَمّا فَرَغوا من البُنيانِ، وبَنَوها على ما أرادوا، قالَ الزّبيرُ بنُ عبدِ المطَّلبِ فيما كانَ من أمْرِ الحيّةِ الَّتِي كانَت قُرَيْشٌ تَهابُ بُنْيانَ الكَعْبَةِ لَهَا:

عَجِبْتُ لِما تَصَوَّبَت العُقابُ ... إلى الثُّعْبانِ وهْيَ لَهَا اضْطِرابُ

وَقَدْ كانَتْ يَكُونُ لَهَا كَشِيشٌ ... وأَحْيانًا يَكُونُ لَهَا وِثابُ

إذا قُمْنا إلى التَّأْسِيسِ شَدَّتْ ... تُهَيِّبُنا البِناءَ وقَدْ تُهابُ

فَلَمّا أنَّ خَشِينا الرِّجْزَ جاءَتْ ... عُقابٌ تَتْلَئِبُّ لَهَا انْصِبابُ

فَضَمَّتْها إلَيْها ثُمَّ خَلَّتْ ... لَنا البُنْيانَ لَيْسَ لَهُ حِجابُ

فَقُمْنا حاشِدِينَ إلى بِناءٍ ... لَنا مِنْهُ القَواعِدُ والتُّرابُ

غَداةَ نُرَفِّعُ التَّأْسِيسَ مِنْهُ ... ولَيْسَ على مُسَوِّينا ثِيابُ

أعَزَّ بِهِ المَلِيكُ بَنِي لُؤَيٍّ ... فلَيْسَ لِأصْلِهِ مِنْهُمْ ذَهابُ

وَقَدْ حَشَدَتْ هُناكَ بَنُو عَدِيٍّ ... ومُرّةُ قَدْ تَقَدَّمَها كِلابُ

فَبَوَّأَنا المَلِيكُ بِذاكَ عِزًّا ... وعِنْدَ اللهِ يُلْتَمَسُ الثَّوابُ

قالَ ابنُ هِشامٍ: ويُرْوى:

وَلَيْسَ على مَساوِينا ثِيابُ

---

(١) ليس في (أ).

[ارْتِفاعُ الكَعْبةِ، وأوّلُ مَنْ كَساها الدِّيباجَ]

وَكانَتِ الكَعْبةُ على عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ ثَمانِيَ عَشْرةَ ذِراعًا، وَكانَتْ تُكْسى القَباطِيَّ، ثُمَّ كُسِيتِ البُرُودَ، وأوَّلُ مَنْ كَساها الدِّيباجَ الحَجّاجُ بنُ يُوسُفَ.

فَصْلٌ

وذَكَرَ شِعْرَ الزُّبَيْرِ بنِ عَبْدِ المُطّلِبِ:

«عَجِبْتُ لِما تَصَوّبَتِ العُقابُ»

وفيه:

«... تَتْلَئِبُّ لَها انْصِبابُ»

قَوْلُهُ: «تَتْلَئِبّ»، يُقالُ: اتْلَأَبَّ على طَرِيقِهِ؛ إذا لَمْ يُعَرّجْ يَمْنةً ولا يَسْرةً، وكَأنّهُ مَنْحُوتٌ مِنْ أصْلَيْنِ ـ كَما تَقَدّمَ في مِثْلِ هَذا ـ مِنْ تَلا: إذا اتَّبَعَ، وألَبَّ: إذا أقامَ، وأبَّ أيْضًا قَرِيبٌ مِنْ هَذا المَعْنى[1]. يُقالُ: أبَّ أبابةً؛ إذا اسْتَقامَ وتَهَيّأَ ـ مِنْ «كِتابِ العَيْنِ»[2] ـ، فكَأنّهُ مُقِيمٌ مُسْتَمِرّ على ما يَتْلُوهُ ويَتْبَعُهُ مِمّا هُوَ بِسَبِيلِهِ، والِاسْمُ مِن اتْلَأَبّ: التّلَأْبِيبةُ، على وزْنِ الطّمَأْنِينةِ والقُشَعْرِيرةِ، قالَهُ أبُو عُبَيْدٍ.

وَقَوْلُهُ: [من الوافر]

ولَيْسَ على مُسَوِّينا ثِيابُ

---

(١) في (أ): «قريب منه، أي: من هذا المعنى».

(٢) لم يقع لي حتى الآن في كتاب «العين»، وهو في «مختصر العين» للزبيدي: (٢: ٤٤٤).

[قولُهُ: «مُسوِّينا»](١)؛ أيْ: مُسَوّي البُنيانِ. وهو في مَعْنى الحَدِيثِ الصّحِيحِ في نُقْلانِهِم الحِجارةَ إلى الكَعْبةِ: أنّهُمْ كانُوا يَنْقُلُونَها عُراةً، ويَرَوْنَ ذَلِكَ دِينًا، وأنّهُ مِنْ بابِ التّشْمِيرِ والجِدّ في الطّاعةِ. وقَوْلُ ابنِ هِشامٍ: [ويُرْوى: [من الوافر]

وليسَ على مَساوِينا ثيابُ](٢)

يُرِيدُ: السّوءاتِ، فهُوَ جَمْعُ مَساءةٍ، مَفْعَلةٌ مِن السّوْءةِ، والأصْلُ(٣) مَساوِئُ، فسُهِّلَت الهمزةُ.

* * *

(١) ليس في (ب).

(٢) في (أ): «ويروى: ليس على مساوينا ثياب».

(٣) في (ف): «فالأصل».

حَدِيثُ الحُمْسِ

[الحُمْسُ عِنْدَ قُرَيْشٍ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وقَدْ كانَتْ قُرَيْشٌ ـ لا أدْرِي أقَبْلَ الفيلِ أمْ بَعْدَهُ ـ ابْتَدَعَتْ رَأْيَ الحُمْسِ رَأْيًا رَأَوْهُ وأدارُوهُ، فقالُوا: نَحْنُ بَنُو إبْراهِيمَ، وأهْلُ الحُرْمةِ، ووُلاةُ البَيْتِ، وقُطّانُ مَكّةَ وساكِنُها، فلَيْسَ لِأحَدٍ مِن العَرَبِ مِثْلُ حَقِّنا، ولا مِثْلُ مَنْزِلَتِنا، ولا تَعْرِفُ لَهُ العَرَبُ مِثْلَ ما تَعْرِفُ لَنا، فلا تُعَظِّمُوا شَيْئًا مِن الحِلِّ كَما تُعَظِّمُونَ الحَرَمَ؛ فإنَّكُمْ إنْ فعَلْتُمْ ذلك اسْتَخَفَّتِ العَرَبُ بِحُرْمَتِكُمْ، وقالُوا: قَدْ عَظَّمُوا مِن الحِلِّ مِثْلَ ما عَظَّمُوا مِن الحَرَمِ. فتَرَكُوا الوُقُوفَ على عَرَفةَ والإفاضةَ مِنْها، وهُمْ يَعْرِفُونَ ويُقِرُّونَ أنَّها مِن المَشاعِرِ والحَجِّ ودِينِ إبْراهِيمَ ﷺ، ويَرَوْنَ لِسائِرِ العَرَبِ أنْ يَقِفُوا عَلَيْها، وأنْ يُفيضُوا مِنْها، إلّا أنَّهُمْ قالُوا: نَحْنُ أهْلُ الحَرَمِ، فلَيْسَ يَنْبَغِي لَنا أنْ نَخْرُجَ مِن الحُرْمةِ ولا نُعَظِّمَ غَيْرَها كَما نُعَظِّمُها؛ نَحْنُ الحُمْسُ، والحُمْسُ أهْلُ الحَرَمِ، ثُمَّ جَعَلُوا لِمَنْ وُلِدُوا مِن العَرَبِ مِنْ ساكِنِ الحِلِّ والحَرَمِ مِثْلَ الَّذي لَهُمْ، بِوِلادَتِهِمْ إيّاهُمْ، يَحِلُّ لَهُمْ ما يَحِلُّ لَهُمْ، ويَحْرُمُ عَلَيْهِمْ ما يَحْرُمُ عَلَيْهِم.

[القَبائِلُ الَّتِي دانَتْ مَعَ قُرَيْشٍ بِالحُمْسِ]

وَكانَتْ كِنانةُ وخُزاعةُ قَدْ دَخَلُوا مَعَهُمْ في ذلك.

قالَ ابنُ هِشامٍ: وحَدَّثَنِي أبو عُبَيْدةَ النَّحْوِيُّ: أنَّ بَنِي عامِرِ بنِ صَعْصَعةَ بنِ مُعاوِيَةَ بنِ بَكْرِ بنِ هَوازِنَ دَخَلُوا مَعَهُمْ في ذلك، وأنْشَدَنِي لعَمْرو بن معد يكرب:

أعَبّاسُ لَوْ كانَتْ شِيارًا جِيادُنا ... بِتَثْلِيثَ ما ناصَيْتَ بَعْدِي الأحامِسا

قالَ ابنُ هِشامٍ: تَثْلِيثُ: مَوْضِعٌ مِنْ بِلادِهِمْ. والشِّيارُ: السِّمانُ الحِسانُ.

يَعْنِي بِالأحامِسِ: بَنِي عامِرِ بنِ صَعْصَعةَ. وبِعَبّاسٍ: عَبّاسَ بنَ مِرْداسٍ السُّلَمِيَّ، وكانَ أغارَ على بَنِي زُبَيْدٍ بِتَثْلِيثَ. وهذا البَيْتُ مِنْ قَصِيدةٍ لِعَمْرٍو.

وَأنْشَدَنِي لِلَقِيطِ بنِ زُرارةَ الدّارِمِيِّ في يَوْمِ جَبَلَةَ:

إجْدَمْ إلَيْكَ إنَّها بَنُو عَبَسْ ... المَعْشَرُ الجِلّةُ في القَوْمِ الحُمُسْ

لِأنَّ بَنِي عَبْسٍ كانُوا يَوْمَ جَبَلَةَ حُلَفاءَ في بَنِي عامِرِ بنِ صَعْصَعةَ.

فصْلٌ

وذَكَرَ الحُمْسَ، وما ابْتَدَعَتْهُ قُرَيْشٌ في ذَلِكَ، والتّحَمّسُ: التّشَدّدُ، وكانُوا قَدْ ذَهَبُوا في ذَلِكَ مَذْهَبَ التّزَهّدِ والتّألّهِ، فكانَتْ نِساؤُهُمْ لا يَنْسِجْنَ الشَّعْرَ ولا الوَبَرَ، وكانُوا لا يَسْلؤون السّمْنَ، وسَلأُ السّمْنِ: أنْ يُطْبَخَ الزُّبْدُ حَتّى يَصِيرَ سَمْنًا، قالَ ابنُ هَرْمة: [من المنسرح]

إنّ لَنا صِرْمةً مُخَيَّسةً ... نَشْرَبُ ألْبانَها ونَسْلَؤُها[١]

ذَكَرَ[٢] قَوْلَ عمرو بنِ معد يكرب: [من الطويل]

أعَبّاسُ لَوْ كانَتْ شِيارًا جِيادُنا... البيتَ

شِيارًا: مِن الشّارةِ الحَسَنةِ؛ يَعْنِي: سِمانًا حِسانًا، وبَعْدَ البَيْتِ: [من الطويل]

---

(١) الصرمة من الإبل: نحو الأربعين، والمخيسة: التي لم تسرح ولكنها حُبست للنحر أو القسم. (ج)

(٢) في (ف): «وذكر».

وَلَكِنّهـــا قِيــدَتْ بِصَعْــدةِ مُرّةٍ فأَصْبَحْنَ ما يَمْشِينَ إلّا تكارُسا

وَأَنْشَدَ أَيْضًا: [من الرجز]

إجْدَمْ إلَيْك إنّها بَنُو عَبَسْ[1]

إجْـدَمْ: زَجْـرٌ مَعْرُوفٌ لِلْخَيْـلِ، وكذلك: أَرْحِب[2]، وهَـبْ[3]، وهِقِطْ[4]، [وحِقِطْ][5]، وهِقَب، وهَلا[6].

---

(١) في مطبوعة «السيرة»: «إجذم» بالذال المعجمة. وفي «اللسان»: «إجدم وهجدم على البدل: كلاهما من زجر الخيل إذا زُجرت لتمضي. ويقال للفرس: إجدَمْ وأَقْدِم: إذا هُيِّج ليمضي. وأقدم أجودها».

(٢) يقال للخيل: أرحِبْ وأرحِبي، أي: توسَّعي وتباعدي وتَنَحَّيْ، وهذا زجرٌ لها. قال الكميت ابن معروف:

نُعَلِّمها هَبِي وهَلًا وأَرْحِبْ وفــي أبياتنا ولنــا افتُلِينا

(٣) في «تاج العروس»: «الهبهبة: الزجر، والفعل منه: هَبْ هَبْ. وبعضهم خصّه بالخيل». وقال: «وسيأتي في هاب، وهو في «روض السهيلي» الذي استدركه شيخنا ناقلًا عنه». وقال في هابه: «وأهاب بالخيل: دعاها، أو زجرها بـ: هاب أو بـ: هَبْ. ويقال في زجر الخيل: هَبِي، أي: أقبلي وأقدمي، وهلًا، أي: قَرِّبي». وذكر بيت الكميت المتقدم. هذا وانظر: «شرح المفصل» لابن يعيش: (٤: ٨٠).

(٤) في «اللسان»: «هِقِطْ من زجر الخيل. عن المبرد وحده». وذكر البيت:

لما سَمِعتُ خَيْلَهم هِقِطّ عَلِمْتُ أن فارسًا مُحْتَطِّي

ونقله الزبيدي في «التاج»، وزاد أن الخارْزَنْجي في «تكملة العين» رواه: «حِقِطِّ» بالحاء بدل الهاء.

(٥) ليس في (أ)، (ب). ورسم في غيرهما: «وهقط». ولا معنى له فقد سبق، ولعل الصواب ما أثبتناه. راجع التعليق السابق. وفي «التاج» أيضًا: «حقط»: «وحِقِطْ بكسرتين: زجر للفرس، وكذلك هِجِزْ، نقله ابن عباد عن الخارْزَنْجي عن أبي زياد، وأنشد:

لما رأيــتُ زَجْرَهم حِقِطِّ أيقنتُ أن فارسًا محتطِّي

(٦) ليس في (ط). وفي (أ)، (هـ): «وهَلَلْ». وفي «التاج»: «وهلْهلَ بفرسه: زجره بـ: هلًا. وهالٍ، مثله».

[يَوْم جَبَلَةَ]

وَيَوْمُ جَبَلَةَ: يَوْمٌ كانَ بَيْنَ بَنِي حَنْظَلَةَ بنِ مالِكِ بنِ زَيْدِ مَناةَ بنِ تَمِيمٍ، وبَيْنَ بَنِي عامِرِ بنِ صَعْصَعةَ، فكانَ الظَّفَرُ فيهِ لِبَنِي عامِرِ بنِ صَعْصَعةَ على بَنِي حَنْظَلَةَ، وقُتِلَ يَوْمَئِذٍ لَقِيطُ بنُ زُرارةَ بنُ عُدُسٍ، وأُسِرَ حاجِبُ بنُ زُرارةَ ابنِ عُدُسٍ، وانْهَزَمَ عَمْرُو بنُ عَمْرِو بنِ عُدُسِ بنِ زَيْدِ بنِ عَبْدِ الله بنِ دارِمِ بنِ مالِكِ بنِ حَنْظَلَةَ، ففيهِ يَقُولُ جَرِيرٌ لِلْفَرَزْدَقِ:

كَأنَّكَ لَمْ تَشْــهَدْ لَقِيطًا وحاجِبًا وعَمْرَو بنَ عَمْرٍو إذْ دَعَوْا يا لَدارِمِ

وَهذا البَيْتُ في قَصِيدةٍ لَهُ.

[يَوْمُ ذِي نَجَبٍ]

ثُمَّ التَقَوْا يَوْمَ ذِي نَجَبٍ، فكانَ الظَّفَرُ لِحَنْظَلةَ على بَنِي عامِرٍ، وقُتِلَ يَوْمَئِذٍ حَسّانُ بنُ مُعاوِيَةَ الكِنْدِيُّ، وهُوَ ابنُ كَبْشةَ، وأُسِرَ يَزِيدُ بنُ الصَّعِقِ الكِلابِيُّ، وانْهَزَمَ الطُّفيلُ بنُ مالِكِ بنِ جَعْفَرِ بنِ كِلابٍ، أبو عامِرِ بنِ الطُّفيلِ، ففيهِ يَقُولُ الفَرَزْدَقُ:

وَمِنْهُنَّ إذْ نَجّى طُفيلُ بنُ مالِكٍ على قُرْزُلٍ رَجْلًا رَكُوضَ الهَزائِمِ
وَنَحْنُ ضَرَبْنا هامةَ ابنِ خُوَيْلِدٍ يَزِيدَ على أُمِّ الفِــراخِ الجَواثِمِ

وهذانِ البَيْتانِ في قَصِيدةٍ لَهُ.

فَقالَ جَرِيرٌ:

وَنَحْنُ خَضَبنا لِابنِ كَبْشَةَ تاجَهُ ... ولاقى امْرَأً في ضَمّةِ الخَيْلِ مِصْقَعا

وهذا البَيْتُ في قَصِيدةٍ لَهُ.

وَحَدِيثُ يَوْمِ جَبَلَةَ ويَوْمِ ذِي نَجَبٍ أطْوَلُ مِمّا ذَكَرْنا، وإنَّما مَنَعَنِي مِن اسْتِقْصائِهِ ما ذَكَرْتُ في حَدِيثِ يَوْمِ الفِجارِ.

[ما زادَتْهُ العَرَبُ في الحُمْسِ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: ثُمَّ ابْتَدَعُوا في ذلك أُمُورًا لَمْ تَكُنْ لَهُمْ، حَتّى قالُوا: لا يَنْبَغِي لِلْحُمْسِ أنْ يَأْتَقِطُوا الأقِطَ، ولا يَسْلَؤُوا السَّمْنَ وهُمْ حُرُمٌ، ولا يَدْخُلُوا بَيْتًا مِنْ شَعَرٍ، ولا يَسْتَظِلُّوا إن اسْتَظَلُّوا إلّا في بُيُوتِ الأدَمِ ما كانُوا حُرُمًا، ثُمَّ رَفَعُوا في ذلك، فقالُوا: لا يَنْبَغِي لِأهْلِ الحِلِّ أنْ يَأْكُلُوا مِنْ طَعامٍ جاؤُوا بِهِ مَعَهُمْ مِن الحِلِّ إلى الحَرَمِ، إذا جاؤُوا حُجّاجًا أوْ عُمّارًا، ولا يَطُوفُوا بِالبَيْتِ إذا قَدِمُوا أوَّلَ طَوافِهِمْ إلّا في ثِيابِ الحُمْسِ، فإنْ لَمْ يَجِدُوا مِنْها شَيْئًا طافُوا بِالبَيْتِ عُراةً، فإنْ تَكَرَّمَ مِنْهُمْ مُتَكَرِّمٌ مِنْ رَجُلٍ أو امْرَأةٍ، ولَمْ يَجِدْ ثِيابَ الحُمْسِ، فطافَ في ثِيابِهِ الَّتِي جاءَ بِها مِن الحِلِّ، ألْقاها إذا فرَغَ مِنْ طَوافِهِ، ثُمَّ لَمْ يَنْتَفِعْ بِها، ولَمْ يَمَسَّها هُوَ ولا أحَدٌ غَيْرُهُ أبَدًا.

[اللَّقى عِنْدَ الحُمْسِ وشِعْرٌ فيهِ]

فَكانَت العَرَبُ تُسَمِّي تِلْكَ الثِّيابَ: اللَّقى. فحَمَلُوا على ذلك العَرَبَ، فدانَتْ بِهِ، ووَقَفُوا على عرفاتٍ، وأفاضُوا مِنْها، وطافُوا بِالبَيْتِ عُراةً: أمّا الرِّجالُ فيطُوفُونَ عُراةً، وأمّا النِّساء فتضع إحْداهُنَّ ثِيابَها كُلَّها إلّا دِرْعًا مُفَرَّجًا عَلَيْها، ثُمَّ تَطُوفُ فيهِ. فقالَت امْرَأةٌ مِن العَرَبِ وهِيَ كَذلك تَطُوف بِالبَيْتِ:

اليَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أوْ كُلُّهُ وما بَدا مِنْــهُ فلا أُحِلُّهُ

وَمَنْ طافَ مِنْهُمْ في ثِيابِهِ الَّتِي جاءَ فيها مِن الحِلِّ أَلْقاها، فلَمْ يَنْتَفِعْ بِها هُوَ ولا غَيْرُهُ.

فَقالَ قائِلٌ مِن العَرَبِ يَذْكُرُ شَيْئًا تَرَكَهُ مِنْ ثِيابِهِ فلا يَقْرَبُهُ وهُوَ يُحِبّه:

كفى حَزَنًــا كَرِّي عَلَيْه كَأنَّه لَقًى بَيْنَ أيْدِي الطّائِفِينَ حَرِيمُ

يَقُولُ: لا تُمَسُّ.

وَذَكَرَ يَوْمَ جَبَلَةَ. وجَبَلةُ: هَضْبةٌ عالِيةٌ، كانُوا قَدْ أحْرَزُوا فيها عِيالَهُمْ وأمْوالَهُمْ، وكانَ مَعَهُمْ في[1] ذَلِكَ اليَوْمِ رَئِيسُ نَجْرانَ، وهُوَ ابنُ الجَوْنِ الكِنْدِيّ، وأخٌ لِلنّعْمانِ ابنِ المُنْذِرِ، أحْسَبُ اسْمَهُ: حَسّانُ بنُ وبَرَةَ، وهُوَ أخُو النّعْمانِ[2] لِأُمّهِ.

وفي أيّامِ جَبَلَةَ كانَ مولدُ رسولِ الله ﷺ ولِثِنْتَيْنِ[3] وأرْبَعِينَ سَنةً مِنْ مُلْكِ أنُوشِرْوانَ بنِ قُباذَ، وكانَ مَوْلِدُ أبِيهِ عَبْدِ اللهِ لِأرْبَعٍ وعِشْرِينَ مَضَتْ مِنْ مُلْكِ أنُوشِرْوانَ المَذْكُورِ، فبَيْنَهُ عَلَيْهِ السّلامُ وبَيْنَ أبِيهِ عَبْدِ اللهِ نَحْوٌ مِنْ ثَمانِ عَشْرةَ سَنةً.

وذَكَرَ زُرارةَ بنَ عُدُسِ بنِ زَيْدٍ، وهُوَ: عُدُسٌ؛ بِضَمّ الدّالِ عِنْدَ جَمِيعِهِمْ، إلّا أبا عُبَيْدةَ؛ فإنّهُ كانَ يَفْتَحُ الدّالَ مِنْهُ، وكُلّ «عُدُسٍ» في العَرَبِ سِواهُ فإنّهُ مَفْتُوحُ الدّالِ[4].

---

(١) «في» ليست في: (ف).

(٢) في (أ)، (ب): «وأخ النعمان».

(٣) في (أ): «ولاثنتين».

(٤) انظر: «المؤتلف والمختلف» للدارقطني: (٢: ١٦١٦)، و«شرح السيرة» لأبي ذر: (ص: ٦٦).

وذَكَرَ الحِلّةَ، وهُمْ ما عَدا الحُمْسَ، وأنّهُمْ كانُوا يَطُوفُونَ عُراةً [إنْ][١] لَمْ يَجِدُوا ثِيابَ أحْمَسَ[٢]، وكانُوا يَقْصِدُونَ في ذَلِكَ طَرْحَ الثّيابِ الّتِي اقْتَرَفُوا فيها الذّنُوبَ[٣] عَنْهُمْ.

ولَمْ يَذْكُر الطُّلْسَ مِن العَرَبِ، وهُمْ صِنْفٌ ثالِثٌ غَيْرُ الحِلّةِ والحُمْسِ، كانُوا يَأْتُونَ مِنْ أقْصى [اليَمَنِ][٤] طُلْسًا[٥] مِن الغُبارِ، فيَطُوفُونَ بِالبَيْتِ في تِلْكَ الثّيابِ الطّلْسِ، فسُمّوا بِذَلِكَ. ذَكَرَهُ مُحَمّدُ بنُ حبيب[٦].

فَصْلٌ

وذَكَرَ اللّقى؛ وهُوَ الثّوْبُ الّذِي كانَ يُطْرَحُ بَعْدَ الطّوافِ فلا يَأْخُذُهُ أحَدٌ، وأنْشَدَ: [من الطويل]

كَفى حَزَنًا كَرّي عَلَيْهِ كَأنّهُ ... لَقًى بَيْنَ أيْدِي الطّائِفينَ حَرِيمُ

حَرِيمٌ[٧]؛ أيْ: مُحْرَّمٌ، لا يُؤْخَذُ ولا يُنْتَفَعُ بِهِ، وكُلّ شَيْءٍ مُطّرَحٌ فهُوَ لَقًى؛ قالَ الشّاعِرُ يَصِفُ فرْخَ قَطاةٍ[٨]: [من الرجز]

---

(١) ليس في (أ).

(٢) في (أ): «الحُمْسُ». والحُمْسُ: جمع أحْمَس، سُمُّوا بذلك لأنهم تحمَّسوا في دينهم؛ أي: تشدَّدوا.

(٣) في (ف): «اقترفوا الذنوب فيها».

(٤) ليس في (ب).

(٥) هذا والطِّلْس والأطلس من الرجال: الدَّنِس الثياب، والجمع: الطُّلْس.

(٦) انظر: «المحبر» (ص: ١٧٨-١٨٠).

(٧) قبلها في (ف): «قال».

(٨) هو ابن أحمر. «اللسان» (٥: ٤٠٦٧).

تَرْوِي لَقًى أُلْقِيَ في صَفْصَفٍ   تَصْهَرُهُ الشَّــمْسُ فما يَنْصَهِرْ

«تَرْوِي» بِفَتْحِ التّاءِ، أيْ: تَسْتَقِي لَهُ.

ومِن اللّقى: حَدِيثُ فاخِتـةَ أُمّ حكيم بن حِزام، وكانَتْ دَخَلَت الكَعْبـةَ وهِيَ حامِلٌ مُتِمّ بِحَكِيم بنِ حِزامٍ، فأجاءَها المَخاضُ، فلَمْ تَسْتَطِع الخُرُوجَ مِن الكَعْبةِ، فوَضَعَتْهُ فيها، فلُفّتْ في الأنْطاعِ هِيَ وجَنِينُها، وطُرِحَ مَثْبِرُها[١] وثِيابُها الّتِي كانَتْ عَلَيْها، فجُعِلَت لَقًى لا تُقْرَبُ[٢].

فَصْلٌ

وذَكَرَ قَوْلَ المَرْأةِ[٣]: [من الرجز]

اليَــوْمَ يبدُو بعْضُه أو كُلُّه

البيتينِ، ويُذكَر أنّ هَذِهِ المَرْأةَ هِيَ ضُباعةُ بِنْتُ عامِرٍ، من بني عامرِ بنِ صَعْصَعةَ، ثُمّ مِنْ بَنِي سَلِمةَ بنِ قُشَيْرٍ، وذَكَرَ مُحَمّدُ بنُ حَبِيبٍ أنّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَطَبَها، فذُكِرَتْ لَهُ عَنْها كِبْرةٌ[٤]، فتَرَكَها، فقِيلَ: إنّها ماتَتْ كَمَدًا وحُزْنًا على ذَلِكَ.

قالَ المُؤَلِّفُ رضيَ اللهُ عنه: إنْ كانَ صَحّ هَذا، فما أخّرَها عَنْ أنْ تَكُونَ أُمًّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وزَوْجًا لِرَسُولِ رَبّ العالَمِينَ؛ إلّا قَوْلُها: [من الرجز]

اليَــوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أوْ كُلُّهُ

---

(١) صُحّفت هذه الكلمة في النسخ كلها. والمَثْبِرُ: مسقط الولد، ويقال: هذا مثبر الناقة، وهو الموضع الذي تطرح فيه الولد وما يخرج معه من شيء. وأكثر ما يُقال في الإبل.

(٢) أخرجه الخطابي في «غريب الحديث» له: (٢: ٥٥٧)، والأزرقي في «أخبار مكة» (١: ١٧٤).

(٣) انظر: «المنمق» (ص: ٢٢٧)، و«المحبر» (ص: ٩٧).

(٤) في «تاج العروس»: «والكبر: الإثم الكبير كالكِبْرة ـ بالكسر ـ التأنيث للمبالغة».

تكْرِمةً مِن اللهِ لِنَبيِّهِ، وعِلْمًا مِنْهُ بِغَيْرَتِهِ، واللهُ أغْيَرُ مِنْهُ.

وَمِمّا ذُكِرَ مِنْ تَعَرِّيهِمْ في الطَّوافِ: أنّ رَجُلًا وامْرَأةً طافا كَذَلِكَ، فانْضَمّ الرّجُلُ إلى المَرْأةِ تَلَذُّذًا واسْتِمْتاعًا، فلَصِقَ عَضُدُهُ بِعَضُدِها، فَفَزِعا عِنْدَ ذَلِكَ، وخَرَجا مِن المَسْجِدِ وهُما مُلْتَصِقانِ، ولَمْ يَقْدِرْ أحَدٌ على فكّ عَضُدِهِ مِنْ عَضُدِها، حَتّى قالَ لهما قائل: تُوبا إلى اللهِ ممّا كانَ في ضميركما، وأخْلِصا لله التّوْبَةَ، ففَعَلا، فانْحَلّ أحَدُهُما مِن الآخر، وأنشد للفرزدقِ[1]: [من الطويل]

ومنهُــنّ إذْ نجّى طُفَيْلَ بنَ مالِكٍ ... على قُرْزُلٍ رَجْلًا رَكُوضَ الهَزائِمِ

قُرْزُلٌ: اسْمُ فرَسِهِ، وكانَ طُفَيْلُ بن مالك يُسَمّى: فارِسَ قُرْزُلٍ، والقُرْزُلُ: القَيْدُ، سُمِّيَ الفَرَسُ بِهِ، كَأنّهُ يُقَيّدُ ما يُسابِقُهُ، كَما قالَ امْرُؤُ القيسِ: [من الطويل]

بِمُنْجَرِدٍ قَيْــدِ الأوابِدِ

وَطُفَيْلٌ هَذا هُوَ: والِدُ عامِرِ بنِ الطُّفَيْلِ، عَدُوّ اللهِ وعَدُوّ رَسُولِهِ، وأخُو طُفَيْلٍ هَذا: عامِرٌ مُلاعِبُ الأسِنّةِ، وسَنَذْكُر لِمَ سُمِّيَ: ملاعبَ الأسنّةِ؟ ونَذْكُرُ إخْوَتَهُ وألْقابَهُمْ في الكِتابِ إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

وَقَوْلُهُ: [من الطويل]

... على أُمِّ الفِراخِ الجَواثِمِ[2]

يَعْنِي: الهامةَ، وهِيَ البُومُ، وكانُوا يَعْتَقِدُونَ أنّ الرّجُلَ إذا قُتِلَ خَرَجَتْ

---

(١) «ديوانه» (٢: ٣١٤).

(٢) في (أ)، (ب): «الجراثم». والبيت في «ديوان الفرزدق» (٢: ٣١٥).

مِنْ رَأْسِهِ هامةٌ تَصِيحُ: اسْقُونِي اسْقُونِي، حَتّى يُؤْخَذَ بِثَأْرِهِ. قالَ ذُو الإِصْبَعِ العَدْوانِيّ[1]: [من البسيط]

[يا عَمْرو إلّا تَدَعْ شَتْمي ومَنْقَصتي][2] أَضْرِبْكَ حَتّى[3] تَقُولَ الهامةُ: اسقُوني

فصل

وأنشدَ لجَريرٍ: [من الطويل]

وَنَحْنُ خَضَبنا لِابنِ كَبْشَةَ تاجَهُ ولاقى امْرَأً في ضَمّةِ الخَيْلِ مِصْقَعا

وَجَدْتُ في حاشِيةِ الشّيْخِ أَبِي بَحْرٍ سفيانَ بن العاصِي على هَذا البَيْتِ: المَعْرُوف في اللّغةِ أنّ المِصْقَعَ: الخَطِيبُ البَلِيغُ، ولَيْسَ هَذا مَوْضِعَهُ، لَكِنْ يُقالُ في اللّغةِ: صَقَعَهُ؛ إذا ضَرَبَهُ على شَيْءٍ مُصْمَتٍ يابِسٍ، قالَهُ الأَصْمَعِيّ، فيُشْبِهُ[4] أَنْ يَكُونَ «مِصْقَعٌ» في هَذا البَيْتِ من هَذا المَعْنى، فيُقالُ مِنْهُ: رَجُلٌ مِصْقَعٌ كَما يُقالُ: مِحْرَبٌ، وفي الحَدِيثِ: «إنّ سَعْدًا لَمِحْرَبٌ»[5]. يَعْنِي: سعدَ بنَ أَبِي وقّاصٍ.

* * *

(١) «ديوانه» (ص: ٩٢). (ج)
(٢) عن (د)، (ج).
(٣) في (ف): «حيث».
(٤) كذا في (أ)، (ب). وفي غيرهما: «يشبه».
(٥) أي: معروفًا بالحرب، عارفًا بها.

[حُكْمُ الإِسْلامِ في الطَّوافِ، وإبْطالُ عاداتِ الحُمْسِ فيهِ]

فَكانُوا كَذلك حَتّى بَعَثَ الله تَعالى مُحَمَّدًا ﷺ، فأنْزَلَ عَلَيْهِ حَيْنَ أحْكَمَ لَهُ دِينَهُ، وشَرَعَ لَهُ سُنَنَ حَجِّهِ: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٩٩]؛ يَعْنِي: قُرَيْشًا. والنّاسُ: العَرَبُ. فَرَفَعَهُمْ في سُنَّةِ الحَجِّ إلى عَرَفاتٍ، والوُقُوفِ عَلَيْها، والإفاضةِ مِنْها.

وَأنْزَلَ الله عَلَيْهِ فيما كانُوا حَرَّمُوا على النّاسِ مِنْ طَعامِهِمْ ولَبُوسِهِمْ عِنْدَ البَيْتِ حَيْنَ طافُوا عُراةً، وحَرَّمُوا ما جاؤُوا بِهِ مِن الحِلِّ مِن الطَّعامِ: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ * قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣١-٣٢] فوَضَعَ الله تَعالى أمْرَ الحُمْسِ وما كانَتْ قُرَيْشٌ ابْتَدَعَتْ مِنْهُ على النّاسِ بِالإسْلامِ حَيْنَ بَعَثَ الله بِهِ رَسُولَهُ ﷺ.

قالَ ابنُ إسْحاقَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ الله بنُ أبي بَكْرِ بنِ مُحَمَّدِ بنِ عَمْرِو بنِ حَزْمٍ، عَنْ عُثْمانَ بنِ أبي سُلَيْمانَ بنِ جُبَيْرِ بنِ مُطْعِمٍ، عَنْ عَمِّهِ نافِعِ بنِ جُبَيْرٍ، عَنْ أبيهِ جُبَيْرِ بنِ مُطْعِمٍ، قالَ: لَقَدْ رَأيْتُ رَسُولَ الله ﷺ قَبْلَ أنْ يَنْزِلَ عَلَيْهِ الوَحْيُ، وإنَّهُ لَواقِفٌ على بَعِيرٍ لَهُ بِعَرَفاتٍ مَعَ النّاسِ مِنْ بَيْنِ قَوْمِهِ حَتّى يَدْفَعَ مَعَهُمْ مِنْها، تَوْفيقًا مِن الله لَهُ ﷺ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

فَصْلٌ

وذَكَرَ ما أنْزَلَ اللهُ في أمْرِ الحُمْسِ؛ وهُوَ قَوْلُهُ سبحانه: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ الآية [الأعراف: ٣١]. فقَوْلُهُ: ﴿ كُلُوا وَٱشْرَبُوا ﴾ إشارةٌ إلى ما كانَت الحُمْسُ حَرَّمَتْهُ مِنْ طَعامِ الحَجِّ إلّا طَعامَ أحْمَسَ، و﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ ﴾، يَعْنِي: اللّباسَ، وألّا تتعَرّوْا[1]، ولَذَلِكَ افْتَتَحَ بِقَوْلِهِ: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ بَعْدَ أنْ قصّ خَبَرَ آدَمَ وزَوْجِهِ[2] إذْ يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ ورَقِ الجَنّةِ، أيْ: إنْ كُنْتُمْ تَحْتَجّونَ بأنّهُ دِينُ آبائِكُمْ، فآدَمُ أبُوكُمْ، ودِينُهُ سَتْرُ العَوْرةِ، كَما قالَ: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الحج: ٧٨]؛ أيْ: إنْ كانَتْ عِبادةُ الأصْنامِ دِينَ آبائِكُمْ، فإبْراهِيمُ[3] أبُوكُمْ، ولَمْ يَكُنْ مِن المُشْرِكِينَ.

ومِمّا نَزَلَ في ذَلِكَ: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾ [الأنفال: ٣٥]، ففي التّفْسِيرِ: أنّهُمْ كانُوا يَطُوفُونَ عُراةً، ويُصَفّقُونَ بأيْدِيهِمْ ويَصْفِرُونَ، فالمُكاءُ: الصّفيرُ، والتّصْدِيةُ: التّصْفيقُ. قالَ الرّاجِزُ: [من الرجز]

وأنا مِنْ غَرْوِ الهَوى أُصَدّي

أي: مِنْ عُجْبِ الهَوى.

ومِمّا نَزَلَ مِنْ أمْرِ الحُمْسِ: ﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا ﴾ [البقرة: ١٨٩]؛ لِأنّ الحُمْسَ كانوا لا يَدْخُلُونَ تَحْتَ سَقْفٍ، ولا يَحُولُ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ السّماءِ عَتَبةُ بابٍ ولا غَيْرُها، فإن احْتاجَ أحَدُهُمْ إلى حاجةٍ في دارِهِ تَسَنّمَ البَيْتَ

(١) في (ف): «يتعروا».

(٢) في (أ): «وزوجته».

(٣) في (ب)، (ج): «فإبراهيم لم يكن...».

مِنْ ظَهْرِهِ، ولَمْ يَدْخُلْ مِن الباب، فقالَ اللهُ سُبْحانَهُ: ﴿ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٩].

وَذَكَرَ وُقُوفَ النَّبيّ ﷺ بِعَرَفَةَ مَعَ النّاسِ قَبْلَ الهِجْرةِ، وقَبْلَ النُّبوّةِ تَوْفيقًا مِن اللهِ لهُ؛ حَتّى لا يَفُوتَهُ ثَوابُ الحَجّ والوُقُوفِ بِعَرَفةَ. قالَ جُبَيْرُ بنُ مُطْعِمٍ حِينَ رَآهُ واقِفًا بِعَرَفةَ مَعَ النّاسِ: هَذا رَجُلٌ أَحْمَسُ، فما بالُهُ لا يَقِفُ مَعَ الحُمْسِ حيثُ يقِفُون(١)؟!

إخْبارُ الكُهّانِ مِن العَرَبِ والأحْبارِ مِنْ يَهُودَ والرُّهْبانِ مِن النَّصارى

[مَعْرِفةُ الكُهّانِ والأحْبارِ والرُّهْبانِ بِمَبْعَثِهِ ﷺ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وكانَت الأحْبارُ مِنْ يَهُودَ، والرُّهْبانُ مِن النَّصارى، والكُهّانُ مِن العَرَبِ قَدْ تَحَدَّثُوا بِأَمْرِ رَسُولِ الله ﷺ قَبْلَ مَبْعَثِهِ لَمّا تَقارَبَ مِنْ زَمانِهِ، أمّا الأحْبارُ مِنْ يَهُودَ، والرُّهْبانُ مِن النَّصارى فعَمّا وجَدُوا في كُتُبِهِمْ مِنْ صِفَتِهِ وصِفةِ زَمانِهِ، وما كانَ مِنْ عَهْدِ أَنْبِيائِهِمْ إلَيْهِمْ فيهِ، وأمّا الكُهّانُ مِن العَرَبِ فأَتَتْهُمْ بِهِ الشَّياطِينُ مِن الجِنِّ فيما تَسْتَرِقُ مِن السَّمْعِ؛ إذْ كانَتْ وهِيَ لا تُحْجَبُ عَنْ ذلك بِالقَذْفِ بِالنُّجُومِ، وكانَ الكاهِنُ والكاهِنةُ لا يَزالُ يَقَعُ مِنْهُما ذِكْرُ بَعْضِ أُمُورِهِ، لا تُلْقِي العَرَبُ لِذلك فيهِ بالًا، حَتّى بَعَثَهُ اللهُ تَعالى، ووَقَعَتْ تِلْكَ الأُمُورُ الَّتِي كانُوا يَذْكُرُونَ، فعَرَفُوها.

---

(١) أخرجاه في «الصحيحين» في كتاب الحج، «فتح الباري» (٣: ٥١٥)، ومسلم: (٣: ٨٩٤)، وأخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٤: ٨٠).

فَصْلٌ
في الكَهانةِ وما أنبأتْ به الأحبارُ والكُهّان

وقد رُوِيَ في مَأْثُورِ الأَخْبارِ: أن إبليسَ كان يَخترِقُ السّمواتِ قَبْلَ عِيسى، فلَمّا بُعِثَ عِيسى، أوْ وُلِدَ حُجِبَ عن ثلاثِ سَمواتٍ، فلَمّا وُلِدَ مُحَمّدٌ ﷺ حُجِبَ عَنْها كُلِّها، وقُذِفَت الشّياطِينُ بِالنّجُومِ، وقالَتْ قُرَيْشٌ حِينَ كَثُرَ القَذْفُ بِالنّجُومِ: قامَت السّاعةُ، فقالَ عُتْبةُ بنُ رَبيعةَ: انْظُرُوا إلى العَيُّوقِ؛ فإنْ كانَ[1] رُمِيَ بِهِ، فقد آن قِيامُ الساعةِ، وإلّا فلا. ومِمّنْ ذَكَرَ هَذا الخَبَرَ الزّبَيْرُ بنُ أبي بكر.

وَذَكَرَ ابنُ إسْحاقَ في هَذا البابِ ما رُمِيَتْ بِهِ الشّياطِينُ حِينَ ظَهَرَ القَذْفُ بِالنّجُومِ؛ لِئَلّا يَلْتَبِسَ بالوَحْيِ، ولِيَكُونَ ذَلِكَ أَظْهَرَ لِلْحُجّةِ، وأَقْطَعَ لِلشّبْهةِ، والَذى قالَهُ صَحِيحٌ، ولَكِنّ القَذْفَ بِالنّجُومِ قَدْ كانَ قَدِيمًا، وذَلِكَ مَوْجُودٌ في أشْعارِ القُدَماءِ مِن الجاهِلِيّةِ. مِنْهُمْ: عوفُ بنُ الخَرِعِ، وأوسُ بنُ حجرٍ، وبشرُ ابن أبي خازمٍ، وكُلّهُمْ جاهِلِيّ، وقَدْ وصَفُوا الرّمْيَ بِالنّجُومِ، وأبْياتُهُمْ في ذَلِكَ مَذْكُورةٌ في «مُشْكِلِ ابنِ قُتَيْبةَ»[2] في تَفْسِيرِ سُورةِ الجِنّ.

وذَكَرَ عَبْدُ الرّزّاقِ في «تَفْسِيرِهِ» عَنْ مَعْمَرٍ، عَن ابنِ شِهابٍ: أنّهُ سُئِلَ عَنْ هَذا الرّمْيِ بِالنّجُومِ: أكانَ في الجاهِلِيّةِ؟ قالَ: نَعَمْ، ولَكِنّهُ إذْ جاءَ الإسْلامُ غُلِّظَ وشُدِّدَ.

وفي قَوْلِ اللهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ [الجن: ٨] الآية. ولَمْ يَقُلْ: حُرِسَتْ، دَلِيلٌ على أنّهُ قَدْ كانَ مِنْهُ شَيْءٌ، فلَمّا بُعِثَ النّبِيّ ﷺ مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وشُهُبًا، وذَلِكَ لِيَنْحَسِمَ أمْرُ الشّياطِينِ

---

(١) بعده في (ف): «قد».

(٢) «تأويل مشكل القرآن» (ص: ٢٤١). (ج)

وتَخْلِيطِهِمْ، ولِتَكُونَ الآيةُ أبْيَنَ، والحُجّةُ أقْطَعَ، وإنْ وُجِدَ اليَوْمَ كاهِنٌ، فلا يُدْفَعُ ذَلِكَ بما أخْبرَ اللهُ بِهِ مِنْ طَرْدِ الشّياطِينِ عَن اسْتِراقِ السّمْعِ؛ فإنّ ذَلِكَ[1] التّغْلِيظَ والتّشْدِيدَ كانَ زَمَنَ النّبُوّةِ، ثُمّ بَقِيَتْ مِنْهُ - أعْنِي: مِن استراقِ السَّمعِ - بقايا يَسيرةٌ، بِدَلِيلِ وُجُودِهِمْ على النّدُورِ في بَعْضِ الأزْمِنةِ، وفي بَعْضِ البِلادِ. وقَدْ سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَن الكُهّانِ، فقالَ: «لَيْسُوا بِشَيْءٍ»، فقِيلَ: إنّهُمْ يَتَكَلّمُونَ بالكَلِمةِ فتَكُونُ كَما قالُوا، فقالَ: «تِلْكَ الكَلِمةُ مِن الحقِّ يخطَفُها الجِنّيُّ، فيُقِرّها في أُذُنِ ولِيّهِ قَرّ الزّجاجةِ، فيَخْلِطُ فيها أكْثَرَ مِنْ مئةِ كِذْبةٍ»[2]، ويُرْوى: «قَرّ الدّجاجةِ» بالدّالِ، وعلى هَذِهِ الرّوايةِ تكَلّمَ قاسِمُ بنُ ثابتٍ في «الدّلائِلِ».

و«الزّجاجةُ» بالزّاي أوْلى؛ لِما ثَبَتَ في الصّحِيحِ: «فيُقِرّها في أُذُنِ ولِيّهِ كَما تُقَرّ القارُورةُ»[3]، ومَعْنى يُقِرُّها: يَصُبُّها ويُفْرِغُها، قالَ الرّاجِزُ: [من الرجز]

لا تُفْرِغَنْ في أُذُني بعدها ما يَسْـتقرُّ فأُرِيك فقْدَها

وفي «تفسير ابن سلّام» عن ابن عَبّاسٍ، قالَ: إذا رَمى الشِّهابُ الجِنّيَّ لَمْ يُخْطِئْهُ، ويُحَرّقُ ما أصابَ ولا يَقْتُلُهُ. وعَن الحَسَنِ قالَ: يقتلُهُ في أسْرَعَ مِنْ طَرْفةِ العَيْنِ.

[وفي «تَفْسِيرِ ابنِ سَلامٍ» أيْضًا][4] عَنْ أبِي قَتادةَ: أنّهُ كانَ مَعَ قَوْمٍ، فرُمِيَ بِنَجْمٍ، فقالَ: لا تُتْبِعُوهُ[5] أبْصارَكُمْ.

---

(١) «ذلك» ليس في: (ف).

(٢) «فتح الباري»، كتاب التوحيد: (١٣: ٥٣٥)، وانظر: كتاب الطب: (١٠: ٢١٩-٢٢٠).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣٢٨٨)، من حديث عائشة رضيَ الله عنها. (ج)

(٤) في (ب)، (ف): «وفيه أيضًا».

(٥) في (ب): «لا تتبعوا».

وفيهِ أيْضًا عَنْ حَفْصٍ: أنّهُ سَألَ الحَسَنَ: أيُتْبِعُ بَصَرَهُ الكَوْكَبَ؟ فقالَ: قالَ اللهُ سُبْحانَهُ: ﴿ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ﴾ [الملك: ٥]، وَقالَ: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ١٨٥]. قالَ: كَيْفَ تعْلَمُ إذا لَمْ تنْظُرْ إلَيْهِ؟ لأُتْبِعَنّهُ بَصَرِي.

وَذَكَرَ النّفَرَ مِن الجِنّ الّذِينَ نَزَلَ فيهِم القرآن والذين: ﴿ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ ﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣٠]. وفي الحَدِيثِ: أنّهُمْ كانُوا مِنْ جِنِّ نَصِيبِينَ[١]. وفي التّفْسِيرِ: أنّهُمْ كانُوا يَهُودًا؛ ولِذَلِكَ قالُوا: ﴿ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ ﴾، ولَمْ يَقُولُوا: مِنْ بَعْدِ عِيسى. ذَكَرَهُ ابنُ سَلامٍ.

وكانُوا سَبْعةً، قَدْ ذُكِرُوا بِأسْمائِهِمْ في التّفاسِيرِ والمُسْنَداتِ، وهُمْ: شاصِرٌ، وماصِرٌ، ومُنْشي، وماشى، والأحْقبُ، وهَؤُلاءِ الخَمْسةُ ذَكَرَهُم ابنُ دُرَيْدٍ، ووَجَدْت في خَبَرٍ حَدّثَنِي بِهِ أبُو بَكْرِ بنُ طاهِرٍ الإشْبِيلِيّ القَيْسِيّ، عَنْ أبِي عَلِيّ الغَسّانِيّ، في فضْلِ[٢] عُمَرَ بنِ عَبْدِ العَزِيزِ، قالَ: بَيْنَما عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزِيزِ يَمْشِي بأرْضِ فَلاةٍ، فإذا حَيّةٌ مَيّتةٌ، فكَفّنَها بفَضْلةٍ مِنْ رِدائِهِ ودَفَنَها، فإذا قائِلٌ يَقُولُ: يا سُرّقُ أشْهَدُ، [لَقد سَمِعْتُ][٣] رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ لَك[٤]: «سَتَمُوتُ بِأرْضِ فلاةٍ، فيُكَفّنُك ويَدْفِنُك رَجُلٌ صالِحٌ». فقالَ: مَنْ أنْتَ يَرْحَمُك اللهُ؟ فقالَ: رَجُلٌ مِن الجِنّ الّذِينَ سمِعُوا القُرْآنَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إلّا أنا وسُرّقٌ، وهَذا سُرّقٌ قَدْ ماتَ.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار: (٧: ١٧١)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢: ٢٣٣). وانظر: «تفسير ابن كثير» عند تفسير الآيتين المتقدمتين: (٧: ١٩٧-٢٠٨).

(٢) في (ف): «فضائل».

(٣) في (ب): «أشهد أني سمعت». وفي (أ)، (ج)، (د)، (ف): «أشهد لسمعت».

(٤) في (ب): «إنك».

وذَكَرَ ابنُ سَلّامٍ مِنْ طَرِيقِ أَبِي إِسْحاقَ السّبيعِيّ، عَنْ أَشْياخِهِ، عَن ابنِ مَسْعُودٍ: أَنّهُ كانَ في نَفَرٍ مِنْ أَصْحابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَمْشُونَ، فرُفِعَ لَهُمْ إِعْصارٌ، ثُمّ جاءَ إعْصارٌ أعْظَمُ مِنْهُ، ثُمّ انْقَشَعَ، فإذا حَيّةٌ قَتِيلٌ، فعَمَدَ رَجُلٌ مِنّا إلى رِدائِهِ فشَقّهُ، وكَفّنَ الحَيّةَ بِبَعْضِهِ ودَفَنَها، فلَمّا جَنّ اللّيْلُ إذا امْرَأتانِ تسألانِ: أَيُّكُمْ دَفَنَ عَمْرَو بنَ جابِرٍ؟ فقُلْنا: ما نَدْرِي مَنْ عَمْرُو بنُ جابِرٍ؟ فقالتا: إنْ كُنْتُم ابْتَغَيْتُمُ[1] الأَجْرَ[2] فقَدْ وجَدْتُمُوهُ؛ إنّ فسَقةَ الجِنّ اقْتَتَلُوا مَعَ المُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ، فقُتِلَ عَمْرٌو، وهُوَ الحَيّةُ الّتِي رَأَيْتُمْ، وهُوَ مِن النّفَرِ الّذِينَ اسْتَمَعُوا القُرْآنَ مِنْ مُحَمّدٍ ﷺ ثُمّ ولَّوْا إلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ[3].

❋ ❋ ❋

---

(١) في (ب): «إنكم ابتغيتم».

(٢) بعده في (أ): «من الله».

(٣) ذكر ابن كثير في: (٧: ٣٢٠٧) عند تفسير الآية ٢٩ من سورة الأحقاف، روايات لأبي نعيم بنحو هذا الأثر، وعلّق على بعضها بأنه غريب جدًّا.

[قَذْفُ الجِنِّ بِالشُّهُبِ، وآيةُ ذلك على مَبْعَثِهِ ﷺ]

فَلَمّا تَقارَبَ أمْرُ رَسُولِ الله ﷺ وحَضَرَ مَبْعَثُهُ، حُجِبَت الشَّياطِينُ عَن السَّمْعِ، وحِيلَ بَيْنَها وبَيْنَ المَقاعِدِ الَّتِي كانَتْ تَقْعُدُ لِاسْتِراقِ السَّمْعِ فيها، فرُمُوا بِالنُّجُومِ، فعَرَفَت الجِنُّ أنَّ ذلك لِأَمْرٍ حَدَثَ مِنْ أمْرِ الله في العِبادِ، يَقُولُ الله تَبارَكَ وتَعالى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ حَيْنَ بَعَثَهُ، وهُوَ يَقُصُّ عَلَيْهِ خَبَرَ الجِنِّ إذْ حُجِبُوا عَن السَّمْعِ، فعَرَفُوا ما عَرَفُوا، وما أنْكَرُوا مِنْ ذلك حَيْنَ رَأَوْا ما رَأَوْا: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا * وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا * وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا * وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا * وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا» إلى قَوْلِهِ: «وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا * وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١-١٠].

فَلَمّا سَمِعَت الجِنُّ القُرْآنَ عَرَفَتْ أنَّها إنَّما مُنِعَتْ مِن السَّمْعِ قَبْلَ ذلك؛ لِئَلّا يُشْكِلَ الوَحْيُ بِشَيْءٍ مِنْ خَبَرِ السَّماءِ، فيَلْتَبِسَ على أهْلِ الأرْضِ ما جاءَهُمْ مِن الله فيه؛ لِوُقُوعِ الحُجّةِ، وقَطْعِ الشُّبْهةِ. فآمَنُوا وصَدَّقُوا، ثُمَّ ﴿وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣٠] الآيةَ.

وَكانَ قَوْلُ الجِنِّ: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ [الجن: ٦]: أنَّهُ كانَ الرَّجُلُ مِن العَرَبِ مِنْ قُرَيْشٍ وغَيْرِهِمْ إذا سافَرَ فنَزَلَ بَطْنَ وادٍ مِن الأَرْضِ لِيَبِيتَ فيهِ، قالَ: إنِّي أعُوذُ بِعَزِيزِ هذا الوادِي مِن الجِنِّ اللَّيْلَةَ مِنْ شَرِّ ما فيهِ.

قالَ ابنُ هِشامٍ: الرَّهَقُ: الطُّغْيانُ والسَّفَهُ. قالَ رُؤْبَةُ بنُ العَجّاجِ:

إذْ تَسْتَبِي الهَيّامَةُ المُرَهَّقا

وهذا البَيْتُ في أُرْجُوزَةٍ لَهُ. والرَّهَقُ أيْضًا: طَلَبُكَ الشَّيْءَ حَتّى تَدْنُوَ مِنْهُ، فتَأْخُذُهُ أوْ لا تَأْخُذُهُ. قالَ رُؤْبَةُ بنُ العَجّاجِ يَصِفُ حَمِيرَ وحْشٍ:

بَصْبَصْنَ واقْشَعْرَرْنَ مِنْ خَوْفِ الرَّهَقْ

وَهذا البَيْت في أُرجوزةٍ لَهُ.

والرَّهَقُ أيْضًا: مَصْدَرٌ لِقَوْلِ الرَّجُلِ لِلرَّجُلِ: رَهِقْتُ الإثْمَ أو العُسْرَ الَّذي أرْهَقْتَنِي رَهَقًا شَدِيدًا، أيْ حَمَلْتُ الإثْمَ أو العُسْرَ الَّذي حَمَّلْتَنِي حَمْلًا شَدِيدًا، وفي كِتابِ اللهِ تَعالى: ﴿ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴾ [الكهف: ٨٠] وَقَوْلُهُ: ﴿ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴾ [الكهف: ٧٣].

[فَزَعُ ثَقِيفٍ مِنْ رَمْيِ الجِنّ بالنُّجومِ، وسُؤالهم عَمْرَو بنَ أُميّةَ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وحَدَّثَنِي يَعْقُوبُ بنُ عُتْبَةَ بنِ المُغِيرةِ بنِ الأَخْنَسِ، أنَّهُ حُدِّثَ أنَّ أوَّلَ العَرَبِ فَزِعَ لِلرَّمْيِ بِالنُّجُومِ حَيْنَ رُمِيَ بِها هذا الحَيُّ مِنْ ثَقِيفٍ، وأنَّهُمْ جاؤُوا إلى رَجُلٍ مِنْهُمْ يُقالُ لَهُ: عَمْرُو بنُ أُميّةَ؛ أحَدُ بَنِي عِلاجٍ ـ قالَ: وكانَ أدْهى العَرَبِ وأنْكَرَها رَأْيًا ـ فقالُوا لَهُ: يا عَمْرُو، أَلَمْ تَرَ ما حَدَثَ

في السَّماءِ مِن القَذْفِ بِهَذِهِ النُّجُومِ؟ قالَ: بَلى، فانْظُرُوا، فإنْ كانَتْ مَعالِمَ النُّجُومِ الَّتِي يُهْتَدى بِها في البَرِّ والبَحْرِ، وتُعْرَفُ بِها الأنْواءُ مِن الصَّيْفِ والشِّتاءِ لِما يُصْلِحُ النّاسَ في مَعايِشِهِمْ، هِيَ الَّتِي يُرْمى بِها؛ فهُوَ واللهِ طَيُّ الدُّنْيا، وهَلاكُ هذا الخَلْقِ الَّذي فيها، وإنْ كانَتْ نُجُومًا غَيْرَها، وهِيَ ثابِتةٌ على حالِها؛ فهذا لِأمْرٍ أرادَ الله بِهِ هذا الخَلْقَ، فما هُوَ؟

[حَدِيثُهُ ﷺ مَعَ الأنْصارِ في رَمْيِ الجِنِّ بِالنُّجُومِ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وذَكَرَ مُحَمَّدُ بنُ مُسْلِمِ بن شِهابٍ الزُّهْرِيُّ، عَنْ عَلِيِّ ابنِ الحُسَيْنِ بن عَلِيِّ بنِ أبي طالِبٍ، عَنْ عَبْدِ الله بنِ العَبّاسِ، عَنْ نَفَرٍ مِن الأنْصارِ: أنَّ رَسُولَ الله ﷺ قالَ لَهُمْ: «ماذا كُنْتُمْ تَقُولُونَ في هذا النَّجْمِ الَّذي يُرْمى بِهِ؟» قالُوا: يا نَبِيَّ الله، كُنّا نَقُولُ حِيْنَ رَأيْناها يُرْمى بِها: ماتَ مَلِكٌ، مُلِّكَ مَلِكٌ، وُلِدَ مَوْلُودٌ، ماتَ مَوْلُودٌ، فقالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَيْسَ ذلك كَذلك؛ ولَكِنَّ الله تَبارَكَ وتَعالى كانَ إذا قَضى في خَلْقِهِ أمْرًا، سَمِعَهُ حَمَلَةُ العَرْشِ، فسَبَّحُوا، فسَبَّحَ مَنْ تَحْتَهُمْ، فسَبَّحَ لِتَسْبِيحِهِمْ مَنْ تَحْتَ ذلك، فلا يَزالُ التَّسْبِيحُ يَهْبِطُ حَتّى يَنْتَهِيَ إلى السَّماءِ الدُّنْيا، فيسَبِّحُوا، ثُمَّ يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مِمَّ سَبَّحْتُمْ؟ فيقُولُونَ: سَبَّحَ مَنْ فوْقَنا فسَبَّحْنا لِتَسْبِيحِهِمْ، فيقُولُونَ: ألا تَسْألُونَ مَنْ فوْقَكُمْ: مِمَّ سَبَّحُوا؟ فيقُولُونَ مِثْلَ ذلك، حَتّى يَنْتَهُوا إلى حَمَلَةِ العَرْشِ، فيقالُ لَهُمْ: مِمَّ سَبَّحْتُمْ؟ فيقُولُونَ: قَضى الله في خَلْقِهِ كَذا وكَذا، لِلْأمْرِ الَّذي كانَ، فيهْبِطُ بِهِ الخَبَرُ مِنْ سَماءٍ إلى سَماءٍ حَتّى يَنْتَهِي إلى السَّماءِ الدُّنْيا، فيتَحَدَّثُوا بِهِ، فتَسْتَرِقَهُ الشَّياطِينُ بِالسَّمْعِ، على تَوَهُّمٍ واخْتِلافٍ، ثُمَّ يَأْتُوا بِهِ الكُهّانَ مِنْ أهْلِ الأرْضِ، فيحَدِّثُوهُمْ بِهِ، فيخْطِئُونَ ويُصِيبُونَ، فيتَحَدَّثُ بِهِ الكُهّانُ، فيصِيبُونَ بَعْضًا ويُخْطِئُونَ بَعْضًا، ثُمَّ إنَّ الله عَزَّ وجَلَّ

حَجَبَ الشَّياطِينَ بِهَذِهِ النُّجُومِ الَّتِي يُقْذَفُونَ بِها، فانْقَطَعَت الكَهانةُ اليَوْمَ، فلا كَهانَةَ».

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وحَدَّثَنِي عَمْرُو بنُ أبي جَعْفَرٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ابنِ أبي لَبِيبةَ، عَنْ عَلِيِّ بنِ الحُسَيْنِ بنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِمِثْلِ حَدِيثِ ابنِ شِهابٍ عَنْهُ.

[الغَيْطَلةُ وما حَدَّثَتْ بِهِ بَنِي سَهْمٍ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وحَدَّثَنِي بَعْضُ أهْلِ العِلْمِ، أنَّ امْرَأةً مِنْ بَنِي سَهْمٍ يُقالُ لَهَا: الغَيْطَلةُ، كانَتْ كاهِنةً في الجاهِلِيّةِ، جاءَها صاحِبُها لَيْلةً مِن اللَّيالِي، فانْقَضَّ تَحْتَها، ثُمَّ قالَ: أدْرِ ما أدْرِ؟ يَوْمُ عَقْرٍ ونَحْرٍ. فقالَتْ قُرَيْشٌ حَيْنَ بَلَغَها ذلك: ما يُرِيـدُ؟ ثُمَّ جاءَها لَيْـلةً أُخْرى، فانْقَضَّ تَحْتَها، ثُمَّ قالَ: شُعُوبٌ ما شُعُوبٌ؟ تُصْرَعُ فيهِ كَعْبٌ لِجُنوبٍ. فلَمّا بَلَغَ ذلك قُرَيْشًا، قالُوا: ماذا يُرِيدُ؟ إنَّ هذا لِأمْرٍ هُوَ كائِنٌ، فانْظُرُوا ما هُوَ؟ فما عَرَفُوهُ حَتّى كانَتْ وقْعةُ بَدْرٍ وأُحُدٍ بِالشِّعْبِ، فعَرَفُوا أنَّهُ الَّذي كانَ جاءَ بِهِ إلى صاحِبَتِهِ.

[نَسَبُ الغَيْطَلةِ]

قالَ ابنُ هِشامٍ: الغَيْطَلةُ: مِنْ بَنِي مُرّةَ بنِ عَبْدِ مَناةَ بنِ كِنانةَ، إخْوةِ مُدْلِجِ بن مُرّةَ، وهِيَ أُمُّ الغَياطِلِ الَّذينَ ذَكَرَ أبو طالِبٍ في قَوْلِهِ:

لَقَدْ سَفُهَتْ أحْلامُ قَوْمٍ تَبَدَّلُوا   بَنِي خَلَفٍ قَيْضًا بِنا والغَياطِلِ

فقِيلَ لِوَلَدِها: الغَياطِلُ، وهُمْ مِنْ بَنِي سَهْمِ بنِ عَمْرِو بنِ هُصَيْصٍ. وهذا البَيْتُ في قَصِيدةٍ لَهُ سَأذْكُرُها في مَوْضِعِها إنْ شاءَ اللهُ تَعالى.

فَصْلٌ

وأمّا ما ذَكَرَهُ في مَعْنى قَوْلِهِ سُبْحانَهُ: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ الآية [الجن: ٦]؛ فقَدْ رُوِيَ في مَعْنى ذَلِكَ عن حجاج بن عِلاطٍ السُّلَمِيّ، وهُوَ والِدُ نَصْرِ بنِ حَجّاجٍ الّذِي قِيلَ فيهِ[١]: [من البسيط]

أمْ لا سَبِيلَ إلى نَصْرِ بن حجّاجِ؟[٢]

أنّهُ قَدِمَ مَكّةَ في رَكْبٍ، فأجَنّهُم اللّيْلُ بوادٍ مَخُوفٍ مُوحِشٍ، فقالَ لَهُ الرّكْبُ: [قُمْ][٣] خُذْ لِنَفْسِك أمانًا ولأصْحابِك، فجَعَلَ يَطُوفُ بالرّكْبِ ويَقُولُ: [من الرجز]

أُعِيذُ نَفْسِي وأُعِيذُ صَحْبِي[٤] مِـنْ كُلّ جنّيٍّ بهـذا النّقبِ
حتى أؤوبَ سـالِمًا ورَكْبِي

فَسَمِعَ قارئًا يقرأ: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴾ الآية [الرحمن: ٣٣]. فلَمّا قَدِمَ مَكّةَ خَبّرَ كُفّارَ قُرَيْشٍ بما سَمِعَ، فقالُوا: صبأتَ[٥] يا أبا كِلابٍ. إنّ هَذا يَزْعُمُ ـ مُحَمّدٌ[٦] ـ أنّهُ أُنْزِلَ عَلَيْهِ، فقالَ: واللهِ لَقَدْ سَمِعْتُه وسَمِعَهُ هَؤُلاءِ مَعِي، ثُمّ أسْلَمَ وحَسُنَ إسْلامُهُ، وهاجَرَ إلى المَدِينةِ، وابْتَنى بِها مَسْجِدًا، فهُوَ يُعْرَفُ بِهِ.

---

(١) هي فُريعة بنت همام، وتُعرَف بالذلغاء، وهل هي أُم الحجاج أو امرأة هَويت نصرًا؟ خلاف بين الرواة. وصدر البيت:

ألا سبيلَ إلى خمرٍ فأشْرَبَها؟

انظر: «الخزانة» (٤: ٨٠) فما بعدها.

(٢) في (ب): «أم هل سبيل»، وهي رواية الزجاجي كما في «الخزانة».

(٣) ليس في (أ).

(٤) في (ف): «أعيذ صحبي وأعيذ نفسي».

(٥) في (ب)، (هـ): «أصبأت».

(٦) في (أ): «محمدًا».

فَصْلٌ

وذَكَرَ ابنُ إسْحاقَ حَدِيثَ ابنِ عَبّاسٍ، وفيهِ: «كُنّا نَقُولُ إذا رَأَيْناهُ: يَمُوتُ عَظِيمٌ أَوْ يُولَدُ عَظِيمٌ»، وفي هَذا دَلِيلٌ على ما قَدّمْناهُ مِنْ أنّ القَذْفَ بِالنّجُوم قد كانَ قَدِيمًا، ولَكِنّهُ إذْ[1] بُعِثَ الرسولُ عليه السلام غُلِّظ وشُدِّدَ، كَما قالَ الزُّهْرِيّ: ومُلِئَت السّماءُ حَرَسًا شديدًا وشُهُبًا[2].

وقَوْلُهُ في آخِرِ الحَدِيثِ: «وقَد انْقطَعَت الكَهانةُ اليَوْمَ، فلا كَهانةَ»، يَدُلّ قَوْلُهُ: «اليَوْمَ» على تَخْصِيصِ ذَلِكَ الزّمانِ كَما قَدّمْناهُ، والّذِي انْقَطَعَ اليَوْمَ وإلى[3] يَوْمِ القِيامةِ أنْ تُدْرِكَ الشّياطِينُ ما كانَتْ تُدْرِكُهُ في الجاهِلِيّةِ الجَهْلاءِ، وعِنْدَ تَمَكُّنِها مِنْ سَماعِ أَخْبارِ السّماءِ، وما يُوجَدُ اليَوْمَ مِنْ كَلامِ الجِنّ على أَلْسِنةِ المَجانِينِ إنّما هُوَ خَبَرٌ مِنْهُمْ عَمّا يَرَوْنَهُ في الأَرْضِ، مِمّا لا نَراهُ نَحْنُ؛ كَسَرِقةِ سارِقٍ، أَوْ خَبِيئَتِهِ[4] في مَكانٍ خَفيٍّ، أَوْ نَحْوِ ذلك، وإن[5] أَخْبَروا بما سَيَكُونُ كانَ تَخَرُّصًا[6] وتَظَنُّنًا[7]، فيُصِيبُونَ قَلِيلًا، ويُخْطِئُونَ كَثِيرًا.

وَذَلِكَ القَلِيلُ الّذِي يُصِيبُونَ[8] هُوَ مِمّا تَتكلَّمُ به الملائكةُ في العَنانِ، [كما في حَدِيثِ البُخارِيِّ][9]، فيُطْرَدُونَ بِالنّجُومِ، فيُضِيفُونَ إلى الكَلِمةِ الواحِدةِ أَكْثَرَ مِنْ مئةِ كِذْبةٍ، كَما قالَ عَلَيْهِ السّلامُ في الحَدِيثِ الّذِي قَدّمْناهُ.

---

(١) في (ف): «إذا».

(٢) تقدم قول الزهري أول فصلين سابقين. والخلاف بين النسخ هنا هيِّن.

(٣) في (ف): «إلى» بدون الواو.

(٤) في (ف): «خبيئة».

(٥) في (أ): «وإذا».

(٦) في (أ): «تخرسًا»، وفي (ب)، (هـ): «تحرشًا»، وفي (ف): «تحرسًا». والتخرّص: الكذب.

(٧) في (ف): «تظنيًا».

(٨) بعده في (ف): «فيه».

(٩) ليس في (ب).

فإنْ قيل: [فقَدْ][١] كانَ صافِ بن صَيّادٍ، وكانَ يَتَكَهّنُ، ويَدّعِي النّبُوّةَ، وخَبّأَ لَهُ النّبيّ ﷺ خَبِيئًا، فعَلِمَهُ، وهُوَ الدّخَان، فقال: الدُّخ، فأيْنَ انْقِطاعُ الكَهانةِ في ذَلِكَ الزّمانِ؟

قُلْنا: عَنْ هَذا جَوابانِ؛

أحَدُهُما: ذَكَرَهُ الخَطّابِيّ في «أعْلامِ الحَدِيثِ»[٢]، قالَ: الدُّخّ: نَباتٌ يَكُونُ بينَ النّخِيلِ، وخَبّأَ لَهُ النبي ﷺ: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾ [الدخان: ١٠]، فعلى هَذا لَمْ يُصِبِ ابنُ صَيّادٍ ما خَبّأ له النبيُّ ﷺ.

والثّانِي: أنّ شَيْطانَهُ[٣] كانَ يَأْتِيهِ بما خَفيَ مِنْ أخْبارِ الأرْضِ، ولا يَأْتِيهِ بِخَبَرِ السّماءِ؛ لِمَكانِ القَذْفِ والرّجْمِ، فإنْ كانَ أرادَ بالدّخّ الدّخانَ فليسَ هذا مِن أخبارِ السّماءِ؛ إذْ يمكنُ أنْ يكونَ قرُبَ من النبيّ ﷺ حينَ ذكَرَ الآيةَ سِرًّا فسَمِعَ منها ذِكرَ الدُّخان بِقُوّةٍ جُعِلَتْ لَهُمْ في أسْماعِهِمْ لَيْسَتْ لَنا، فألْقى الكَلِمةَ على لِسانِ صافٍ وحْدَها؛ إذْ لَمْ يُمْكِن الجِنّيَّ سَماعُ سائِرِ الآيةِ؛ ولِذَلِكَ قالَ لَهُ النّبيّ ﷺ[٤]: «اخْسَأْ؛ فلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَك»؛ أيْ: لَنْ تَعْدُوَ مَنْزِلَتَك مِن العَجْزِ عَنْ عِلْمِ الغَيْبِ، وإنّما الّذِي يُمْكِنُ في حَقّهِ هَذا القَدْرُ دُونَ مَزِيدٍ عَلَيْهِ. [على][٥] هَذا النّحْوِ فسّرَهُ الخَطّابِيّ.

فَصْلٌ

وذَكَرَ حَدِيثَ الغَيْطَلَةِ الكاهِنةِ، قالَ: «وهِيَ مِنْ بَنِي مُرّةَ بنِ عَبْدِ مَناف بنِ كِنانةَ

(١) ليس في (أ).

(٢) انظر: «أعلام الحديث» (١: ٧٠٩).

(٣) في (أ): «شيطانة كانت تأتيه... ولا تأتيه».

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز. انظر: «فتح الباري» (٣: ٢١٨).

(٥) ليست في (ب).

أخِي مُدْلِجٍ، وهِيَ: أُمّ الغَياطِلِ الّذِي ذَكَرَ أَبُو طالِبٍ»، وسَنَذْكُرُ مَعْنى الغَيْطَلَةِ عِنْدَ شِعْرِ أَبِي طَالِبٍ[١] إنْ شاءَ الله تَعالى. ونَذْكُر ههنا ما أَلْفيتُ في حاشِيَةِ كِتابِ الشَّيْخِ أَبِي بَحْرٍ في هَذا المَوْضِعِ. قالَ: الغَيْطَلَةُ بِنْتُ مالِكِ بنِ الحارِثِ بنِ عَمْرِو ابنِ الصَّعِقِ بن شَنُوقِ بنِ مُرّةَ، وشَنُوقٌ أخُو مُدْلِجٍ، وهَكَذا ذَكَرَ نَسَبَها الزُّبَيْرُ[٢].

وَذَكَرَ قَوْلَها: «شُعُوبٌ، وما شُعوبٌ؟ يُصرَعُ فيها كعبٌ لِجُنُوب».

كعبٌ ههنا هُوَ: كَعْبُ بنُ لُؤَيّ، والّذِينَ صُرِعُوا لِجُنُوبِهِمْ بِبَدْرٍ وأُحُدٍ مِنْ أشْرافِ قُرَيْشٍ، مُعْظَمُهُمْ مِنْ كعْبِ بنِ لُؤَيٍّ، و«شُعوبٌ» ههنا أَحْسَبُهُ بِضَمِّ الشِّينِ، ولَمْ أَجِدْهُ مُقَيّدًا، وكَأَنّهُ جَمْعُ شِعْبٍ، وقَوْلُ ابنِ إسْحاقَ يَدُلّ على هَذا حِينَ قالَ: «فَلَمْ يَدْرِ[٣] ما قالَتْ، حَتّى قُتِلَ مَنْ قُتِلَ بِبَدْرٍ وأُحُدٍ بِالشّعْبِ».

وَذَكَرَ قَوْلَ [التّابعِ][٤]: «أدْرِ ما أدْرِ؟»، وقَيّدَ عَنْ أَبِي عَلِيّ فيهِ رِوايةً أُخْرى: «بدرٌ وَما بَدْرٌ؟» وهِيَ أَبْيَنُ مِنْ هَذِهِ، وفي غَيْرِ رِوايةِ البَكّائِيّ عَن ابنِ إسْحاقَ: أَنّ فاطِمَةَ بِنْتَ النّعْمانِ النّجّارِيّةَ كانَ لَها تابِعٌ مِن الجِنّ، وكانَ إذا جاءَها اقْتَحَمَ عَلَيْها في بَيْتِها، فلَمّا كانَ [في][٥] أَوّلِ البَعْثِ أتاها، فقَعَدَ على حائِطِ الدّارِ ولَمْ يَدْخُلْ، فقالَتْ لَهُ: لِمَ لا تَدْخُلُ؟ فقالَ: قَدْ بُعِثَ نَبِيٌّ بِتَحْرِيمِ الزّنى، فذَلِكَ أوّلُ ما ذُكِرَ النّبِيّ ﷺ بِالمَدِينةِ.

فَصْلٌ

وذَكَرَ إنْكارَ ثَقِيفٍ لِلرّمْيِ بِالنّجُومِ، وما قالَهُ عَمْرُو بنُ أُمَيّةَ أَحَدُ بَنِي عِلاجٍ إلى آخِرِ الحَدِيثِ، وهُوَ كَلامٌ صَحِيحُ المَعْنى، لَكِنّ فيهِ إبْهامًا؛ لِقَوْلِهِ: «وإنْ كانَتْ

---

(١) مكان هذا الشعر في «السيرة» (١: ٢٧٨).

(٢) انظر: «نسب قريش» (ص: ٤٠١). (ج)

(٣) في (ب) وحدها: «ندر».

(٤) ليس في (ب).

(٥) ليس في (أ).

غَيْرَ هَذِهِ النّجُومِ فهُوَ لِأمْرٍ حَدَثَ»، فما هُوَ وقَدْ فعَلَ مثلَ ما فعَلَتْ ثَقِيفٌ بَنُو لِهْبٍ عِنْدَ فزَعِهِمْ لِلرّمْيِ بِالنّجُومِ، فاجْتَمَعُوا إلى كاهِنٍ لَهُمْ يُقالُ لَهُ: خَطَر، فبَيّنَ لَهُم الخَبَرَ، وما حَدَثَ مِنْ أمْرِ النّبُوّةِ.

ورَوى أبُو جَعْفَرٍ العُقَيلِيّ في «كِتابِ الصّحابةِ» عَنْ رَجُلٍ مِنْ بَنِي لِهْبٍ يُقالُ لَهُ: لَهِيبٌ أوْ لُهَيْبٌ ـ وقَدْ تكَلّمْنا على نَسَبِ لِهْبٍ في هَذا الكِتابِ[1] ـ قالَ لُهَيْبٌ: حضرت مع رسول اللهِ ﷺ، فذُكِرَتْ عِنْدَهُ الكَهانةَ، فقُلْت: بِأبِي [أنتَ][2] وأُمّي، نَحْنُ أوّلُ مَنْ عَرَفَ حِراسةَ[3] السّماءِ، وزَجْرَ الشّياطِينِ، ومَنْعَهُمْ مِن اسْتِراقِ السّمْعِ عِنْدَ قَذْفِ النّجُومِ؛ وذَلِكَ أنّا اجْتَمَعْنا إلى كاهِنٍ لَنا يُقالُ لَهُ: خَطَرُ بنُ مالِكٍ، وكانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ أتَتْ عَلَيْهِ مِئَتا سَنةٍ وثَمانُونَ [سَنةً][4]، وكانَ مِنْ أعْلَمِ كُهّانِنا، فقُلْنا: يا خَطَرُ، هَلْ عِنْدَكَ عِلْمٌ مِنْ هَذِهِ النّجُومِ الّتِي يُرْمى بِها؛ فإنّا قَدْ فزِعْنا لَها، وخَشِينا سُوءَ عاقِبَتِها؟ فقالَ: [عُودوا إليَّ السَّحَرَ][5]، ائتوني بسَحَرٍ، أُخبِرْكُم الخَبَرَ، ألخَيْرٍ أمْ ضَرَرٍ، أوْ لِأمْنٍ أوْ حَذَرٍ؟

قالَ: فانْصَرَفْنا عَنْهُ يَوْمَنا، فلَمّا كانَ مِنْ غَدٍ في وجْهِ السّحَرِ أتَيْناهُ، فإذا هُوَ قائِمٌ على قَدَمَيْهِ، شاخِصٌ في السّماءِ بِعَيْنَيْهِ، فنادَيْناهُ: يا خَطَرُ، يا خَطَرُ؟ فأوْمَأ إلَيْنا: أنْ أمْسِكُوا، [فأمسَكْنا][6]، فانْقَضّ نَجْمٌ عَظِيمٌ مِن السَّماءِ، وصَرَخَ الكاهِنُ رافِعًا صَوْتَهُ: [من مجزوء الرجز]

---

(١) انظر: (١/ ١٨٣).

(٢) عن (أ).

(٣) في (ب): «خبر السماء».

(٤) سقط من (أ).

(٥) ليست في (ب).

(٦) ليست في (أ)، (ف).

أصابَـهُ إصابُهُ خامَــرَهُ عِقابُهُ
عاجَلَـهُ عَذابُهُ أَحْرَقَهُ شِــهابُهُ
زايَلَـهُ جَوابُـهُ يا وَيْلَهُ ما حالُهُ؟
بَلْبَلَـــهُ بَلْبالُهُ عـــاوَدَهُ خَبالُهُ
تَقَطّعَتْ حِبالُهُ وغُيِّرتْ أحوالُهُ

ثُمّ أمْسَكَ طَوِيلًا وهُوَ يَقُولُ: [من الرجز]

يــا مَعْشَــرَ بَنِــي قَحْطــانِ أُخْبِرُكُــمْ بِالحَــقّ والبَيــانِ
أقْسَــمْتُ بالكَعْبَــةِ والأرْكانِ والبَلَـدِ المُؤْتَمَــنِ السُّــدّانِ
لَقَدْ مُنِعَ السّــمْعَ عُتاةُ الجانّ بثاقِــبٍ بِكَــفّ ذِي سُــلْطانِ
مِنْ أجْلِ مَبْعُوثٍ عَظِيمِ الشّانِ يُبْعَــثُ بِالتّنْزِيــلِ والقُــرْآنِ
وَبِالهُــدى وفاصِــلِ الفرقانِ تَبْطُــلُ بِــهِ عِبــادةُ الأوْثــانِ

قالَ: فقُلْنا[1]: ويْحَك يا خَطَرُ! إنّك تَذْكُرُ[2] أمْرًا عَظِيمًا، فماذا تَرى لِقَوْمِك؟ فقالَ: [من الرجز]

أرى لِقَوْمِي ما أرى لِنَفْسِي أنْ يَتْبَعُوا خَيْرَ نَبِيّ الإنْسِ
بُرْهانُهُ مِثْلُ شُعاعِ الشّمْسِ يُبْعَثُ في مَكّةَ دارِ الحُمْسِ
بِمُحْكَمِ التّنْزِيلِ غَيْرِ اللّبْسِ

فَقُلْنا[3] لَهُ: يا خَطَرُ، ومِمّنْ هُوَ؟ فقالَ: والحَياةِ والعَيْشِ، إنّهُ لَمِنْ قُرَيْشٍ، ما في حُكْمِهِ طَيْشٌ، ولا في خُلُقِهِ هَيْشٌ، يَكُونُ في جَيْشٍ، وأيّ جَيْشٍ، مِنْ آلِ

(١) في (ف): «فقلت».
(٢) في (ف): «لتذكر».
(٣) في (ف): «فقلت».

قَحْطانَ وآلِ أيْشٍ، فقُلْنا لَهُ: بَيّنِ لَنا، مِنْ أيّ قُرَيْشٍ [هُوَ][(١)]؟

فَقالَ[(٢)]: والبَيْتِ ذِي الدّعائِمِ، والرّكْنِ والأحائِمِ، إنّهُ لَمِنْ نَجْلِ هاشِمٍ، مِنْ مَعْشَرٍ أكارم، يُبْعَثُ بالمَلاحِمِ، وقَتْلِ كُلّ ظالِمٍ، ثُمّ قالَ: هَذا هُوَ البَيانُ، أخْبَرَنِي بِهِ رَئِيسُ الجانّ، ثُمّ قالَ: اللهُ أكْبَرُ، جاءَ الحَقُّ وظَهَرَ، وانْقَطَعَ عَنِ الجِنّ الخَبَرُ. ثُمّ سَكَتَ وأُغْمِيَ عَلَيْهِ، فما أفاقَ إلّا بعد ثلاثةٍ، فقال: لا إلهَ إلّا اللهُ. فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «لَقَدْ نَطَقَ عَنْ مِثْلِ نُبُوّةٍ، وإنّهُ لَيُبْعَثُ يَوْمَ القِيامةِ أُمّةً وحْدَهُ».

قالَ المُؤَلِّفُ: في هَذا الخَبَرِ قَوْلُهُ: «أصابَهُ إصابُهُ»، هَكَذا قَيّدْته بِكَسْرِ الهَمْزَةِ مِنْ «إصابُهُ» عن أبِي بَكْرِ بنِ طاهِرٍ، وأخْبَرَنِي بِهِ عَنْ أبِي عَلِيٍّ الغَسّانِيّ، ووَجْهُهُ: أنْ تَكُونَ الهَمْزَةُ بَدَلًا مِنْ واوٍ مَكْسُورةٍ مِثْلُ: وِشاحٍ وإشاحٍ، والمَعْنى: أصابَهُ وصابُهُ، جَمْعُ: وصَبٍ، مِثْلُ: جَمَلٍ وجِمالٍ.

وفيه: «مِنْ آلِ قَحْطانَ وآلِ أيْشٍ»، [يَعْنِي بآلِ قَحْطانَ: الأنْصارَ؛ لِأنّهُمْ مِنْ قَحْطانَ، وأمّا آلُ أيْشٍ][(٣)]، فيَحْتَمِلُ أنْ تَكُونَ قَبِيلةً مِن الجِنّ المُؤْمِنِينَ، يُنْسَبُونَ إلى أيْشٍ، فإنْ يَكُنْ هَذا، وإلّا فلَهُ مَعْنًى في المَدْحِ غَرِيبٌ، تَقُولُ: فُلانٌ أيْشٌ هُوَ؟! وابنُ أيْشٍ هو؟! ومَعْناهُ: [أيُّ شَيْءٍ][(٤)]؟! أيْ: شَيْءٌ عَظِيمٌ. فكَأنّهُ أرادَ: مِنْ آلِ قَحْطانَ، ومِن المُهاجِرِينَ الّذِي[(٥)] يُقالُ فيهِمْ مِثْلُ هَذا، كَما تَقُولُ: هم، وما هم؟! [وزيد][(٦)] وما زَيْدٌ؟! وأيّ شَيْءٍ زَيْدٌ؟ وأيْشٌ في مَعْنى: أيّ شَيْءٍ؟

---

(١) سقط من (أ)، (ف).

(٢) «فقال»: ليس في: (ف).

(٣) سقط من (ب).

(٤) سقط من (أ)، (ف).

(٥) في (ف): «الذين».

(٦) سقط من (أ).

كَما يُقالُ: ويْلُمِّهِ، في مَعْنى: ويلٌ لأُمِّه[1]! على الحذف؛ لِكَثْرةِ الاِسْتِعْمالِ، وهَذا كَما قالَ: «هُوَ في جَيْشٍ أيّما جَيْشٍ؟!» واللهُ أعْلَمُ.

وأحْسَبُهُ أرادَ بآلِ أيْشٍ: بَنِي أُقَيْشٍ، وهُمْ حُلَفاءُ الأنْصارِ مِن الجِنّ؛ فحَذَفَ مِن الاِسْمِ حَرْفًا، وقَدْ تَفْعَلُ العَرَبُ هَذا. وقَدْ وقَعَ ذِكْرُ بَنِي أُقَيْشٍ في السّيرةِ في حَدِيثِ البَيْعةِ.

وقولُهُ: «الرّكْنِ[2] والأحائِمِ» يَجُوزُ أنْ يَكُونَ أرادَ: الأحاوِمَ بِالواوِ، فهَمَزَ الواوَ لِانْكِسارِها، والأحاوِمُ: جَمْعُ أحوام، والأحوام جمع حَوْمٍ، وهُوَ الماءُ في البِئْرِ، فكَأنّهُ أرادَ: ماءَ زَمْزَمَ. والحَوْمُ أيْضًا: إبِلٌ كَثِيرةٌ تَرِدُ الماءَ، فعَبّرَ بِالأحائِمِ عَنْ وُرّادِ زَمْزَمَ. ويَجُوزُ أنْ يُرِيدَ بها الطّيْرَ وحَمامَ مَكّةَ الّتِي تَحُومُ على الماءِ، فيَكُونُ بِمَعْنى الحَوائِمِ، وقُلِبَ اللّفْظُ، فصارَ بَعْد فواعِلَ: أفاعِلَ، واللهُ أعْلَمُ.

[حَدِيثُ كاهِنِ جَنْبٍ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وحَدَّثَنِي عَلِيُّ بنُ نافِعٍ الجُرَشِيُّ: أنَّ جَنْبًا ـ بَطْنًا مِن اليَمَنِ ـ كانَ لَهُمْ كاهِنٌ في الجاهِلِيّةِ، فلَمّا ذُكِرَ أمْرُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وانْتَشَرَ في العَرَبِ، قالَتْ لَهُ جَنْبٌ: انْظُرْ لَنا في أمْرِ هذا الرَّجُلِ، واجْتَمَعُوا لَهُ في أسْفَلِ جَبَلِهِ، فنَزَلَ عَلَيْهِمْ حِينَ طَلَعَت الشَّمْسُ، فوَقَفَ لَهُمْ قائِمًا مُتَّكِئًا على قَوْسٍ لَهُ، فرَفَعَ رَأْسَهُ إلى السَّماءِ طَوِيلًا، ثُمَّ جَعَلَ يَنْزُو، ثُمَّ قالَ: أيُّها النّاسُ، إنَّ اللهَ أكْرَمَ مُحَمَّدًا واصْطَفاهُ، وطَهَّرَ قَلْبَهُ وحَشاهُ، ومُكْثُهُ فيكُمْ أيُّها النّاسُ قَلِيلٌ، ثُمَّ أسْنَدَ في جَبَلِهِ راجِعًا مِنْ حَيْثُ جاءَ.

---

(١) كذا في (ب) و(ج). وفي غيرهما: «ويل أمه».

(٢) في (ف): «والركن».

فَصْلٌ

وذَكَرَ أنّ جَنْبًا ـ وهُمْ حَيّ مِن اليَمَنِ ـ اجْتَمَعُوا إلى كاهِنٍ[1] لَهُمْ، فسَألُوهُ عَنْ أمْرِ النّبيّ ﷺ حِينَ رَمى بِالنّجُومِ... إلى آخِرِ الحَدِيثِ.

جَنْبٌ هُمْ [مِنْ][2] مَذْحِجَ، هُمْ: عبدُ اللهِ[3]، وأَنَسُ اللهِ، وزَيْدُ اللهِ، وأوْسُ اللهِ، وجُعْفيٌّ، والحَكَمُ، وجِرْوةُ[4]، بَنُو سَعْدِ العَشِيرةِ بنِ مَذْحِجٍ، ومَذْحِجُ هُوَ: مالِكُ ابنُ أُدَدٍ. وسُمّوا: جَنْبًا؛ لأنهم جانَبوا بني عمِّهم صُداءَ ويَزيد ابني سَعْدِ العَشِيرةِ ابنِ مَذْحِجٍ.

قالَهُ الدّارَقُطْنِيّ[5]. وذَكَرَ في مَوْضِعٍ آخَرَ خِلافًا في أسْمائِهِمْ، وذَكَرَ فيهِمْ

(١) في (أ): «كاهنهم».
(٢) ليس في (أ).
(٣) في «الجمهرة» لابن حزم: (ص: ٤٠٧): «عائذ الله».
(٤) في (أ): «وخوه»، وفي «الجمهرة»: «والحر»، وذكر عن «المقتضب» (ص: ٨٤): «جر».
(٥) كذا نسب السهيلي القول إلى الدارقطني، والذي وقع لي من أسمائهم في «المؤتلف والمختلف»، وقد ذكرهم الدارقطني ثلاث مرات، الأولى والثانية في (٣: ١٢٩٣، ١٥٦١)، وفيهما يروي عن هشام بن الكلبي، ونص في نقله الثاني عنه أنه من كتابه «الألقاب»، والثالثة في: (٤: ٢١١٨)، وفيها يروي الدارقطني عن أحمد بن الحباب الحميري النسابة أنهم: «منبه، والحارث، والغِلْيُ، وسيحان، وشمران، وهفان». وكان هشام الكلبي يقول: «سُموا: جنبًا؛ لأنهم جانبوا صداة، وهو يزيد بن حرب، وحالفوا سعد العشيرة». فأما أحمد بن الحباب فقال: «لأنهم جانبوا أخاهم صداء، وهو يزيد بن يزيد بن حرب».
هذا وقد ذكر ابن حزم في «الجمهرة» (ص: ٤١٣) جنبًا، فقال: «ولد يزيد بن حرب بن عُلَةَ: صداء ـ بطن ضخم ـ ومنبه، والحارث والغلي، وسخان ـ كذا بالنون ـ وهفان، وشمران، تحالف هؤلاء الستة على ولد أخيهم صداء، فسمُّوا: جنبًا». فترى هشامًا الكلبي، وأحمد بن الحباب، وابن حزم يتفقون على أن صداء أخوهم فأما ما نُسب إلى هشام في نسب صداء، وأنه يزيد بن حرب، فلعل فيه سقطًا، وأن الصواب ما ذكره أحمد بن الحباب وهو: يزيد بن =

بَنِي غَلِيّ [بِالغَيْنِ][1]، ولَيسَ في العَرَبِ غَلِيٌّ غَيْرُهُ، قالَ مُهَلْهِلٌ[2]: [من المنسرح]

أَنْكَحَهـا فقْدُهـا الأراقِمَ في جَنْبٍ وكانَ الحِباءُ مِنْ أَدَمِ[3]

[ما جَرى بَيْنَ عُمَرَ بنِ الخَطّابِ وسَوادِ بنِ قارِبٍ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وحَدَّثَني مَنْ لا أتَّهِمُ، عَنْ عَبْدِ الله بنِ كَعْبٍ مَوْلى عُثْمانَ بنِ عَفّانَ، أنَّهُ حُدِّثَ: أَنَّ عُمَرَ بنَ الخَطّابِ بَيْنا هُوَ جالِسٌ في النّاسِ في مَسْجِدِ رَسُولِ الله ﷺ؛ إذْ أَقْبَلَ رَجُلٌ مِن العَرَبِ داخِلًا المَسْجِدَ يُرِيدُ عُمَرَ بنَ الخَطّابِ، فلَمّا نَظَرَ إلَيْهِ عُمَرُ رَضِيَ الله عَنْهُ، قالَ: إنَّ هذا الرَّجُلَ لَعلى شِرْكِهِ ما فارَقَهُ بَعْدُ، أوْ لَقَدْ كانَ كاهِنًا في الجاهِلِيّةِ. فسَلَّمَ عَلَيْهِ الرَّجُلُ، ثُمَّ جَلَسَ، فقالَ لَهُ عُمَرُ رَضِيَ الله عَنْهُ: هَلْ أَسْلَمْتَ؟ قالَ: نَعَمْ يا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، قالَ لَهُ: فَهَلْ كُنْتَ كاهِنًا في الجاهِلِيّةِ؟ فقالَ الرَّجُلُ: سُبْحانَ الله يا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ! لَقَدْ خِلْتَ فيَّ واسْتَقْبَلْتَني بِأَمْرٍ ما أراكَ قُلْتَهُ لِأَحَدٍ مِنْ رَعِيَّتِكَ مُنْذُ وُلِّيتَ ما وُلِّيتَ، فقالَ عُمَرُ: اللهُمَّ غَفْرًا، قَدْ كُنّا في الجاهِلِيّةِ على شَرٍّ مِنْ هذا؛ نَعْبُدُ الأصْنامَ، ونَعْتَنِقُ الأوْثانَ، حَتّى أَكْرَمَنا الله بِرَسُولِهِ

= يزيد بن حرب. أما ما ذكره السهيلي من أسمائهم، فقد ذكرها ابن حزم في «الجمهرة» (ص: ٤٠٧) على أنهم من ولد سعد العشيرة، مع خلاف نبهنا عليه في التعليقات السابقة.

(١) سقط من (ب).

(٢) البيت في «نسب عدنان وقحطان» للمبرد: (ص: ٢٠)، و«الأغاني» (٥: ١٦٩٥)، و«جمهرة ابن حزم» (ص: ٤١٣)، و«اللسان» (جنب، رقم). والأراقم: حيّ من تغلب، وهم جشم. يقول ابن حزم: «ومنهم ـ أي: من جنب ـ كان معاوية بن عمرو بن معاوية بن الحارث بن مُنَبِّه، الذي تزوج بنت مهلهل ومَهَرها أدمًا، فقال في ذلك أبوها». وذكر البيت، وأعقبه:

لـو بِأَبانَينِ جـاء يَخطُبُها ضُرِّجَ ما أنفُ خاطِبٍ بدمِ

(٣) في النسخ: «الخباء» بالخاء المعجمة، وهو تصحيف، والحباء: المهر. والأدم: الجِلد.

وبِالإسْلامِ، قالَ: نَعَمْ، واللهِ يا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، لَقَدْ كُنْتُ كاهِنًا في الجاهِلِيّةِ، قالَ: فأَخْبِرْنِي ما جاءَكَ بِهِ صاحِبُكَ، قالَ: جاءَنِي قَبْلَ الإسْلامِ بِشَهْرٍ أَوْ شَيْعِهِ، فقالَ: أَلَمْ تَرَ إلى الجِنِّ وإبْلاسِها، وإياسِها مِنْ دِينِها، ولُحُوقِها بِالقِلاصِ وأَحْلاسِها؟

قالَ ابنُ هِشامٍ: هذا الكَلامُ سَجْعٌ، ولَيْسَ بِشِعْرٍ.

قالَ عَبْدُ اللهِ بنُ كَعْبٍ: فقالَ عُمَرُ بنُ الخَطّابِ عِنْدَ ذلك يُحَدِّثُ النّاسَ: واللهِ إنِّي لَعِنْدَ وثَنٍ مِنْ أَوْثانِ الجاهِلِيّةِ في نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ، قَدْ ذَبَحَ لَهُ رَجُلٌ مِن العَرَبِ عِجْلًا، فنَحْنُ نَنْتَظِرُ قَسْمَهُ لِيَقْسِمَ لَنا مِنْهُ؛ إذْ سَمِعْتُ مِنْ جَوْفِ العِجْلِ صَوْتًا ما سَمِعْتُ صَوْتًا قَطُّ أَنْفَذَ مِنْهُ، وذلك قُبَيْلَ الإسْلامِ بِشَهْرٍ أَوْ شَيْعِهِ، يَقُولُ: يا ذَرِيحُ، أَمْرٌ نَجِيحٌ، رَجُلٌ يَصِيحُ، يَقُولُ: لا إلَهَ إلّا اللهُ.

قالَ ابنُ هِشامٍ: ويُقالُ: رَجُلٌ يَصِيحُ، بِلِسانٍ فَصِيحٍ، يَقُولُ: لا إلَهَ إلّا اللهُ.

وَأَنْشَدَنِي بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ بِالشِّعْرِ:

عَجِبْتُ لِلْجِنِّ وإبْلاسِها ... وشَدِّها العِيسَ بِأَحْلاسِها
تَهْوِي إلى مَكّةَ تَبْغِي الهُدى ... ما مُؤْمِنُو الجِنِّ كَأَنْجاسِها

قالَ ابنُ إسْحاقَ: فهذا ما بَلَغَنا مِن الكُهّانِ مِن العَرَب.

إِنْذارُ يَهُودَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ

[إِنْذارُ اليَهُودِ بِهِ ﷺ، ولَمّا بُعِثَ كَفَرُوا بِهِ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وحَدَّثَنِي عاصِمُ بنُ عُمَرَ بنِ قَتادةَ، عَنْ رِجالٍ مِنْ

قَوْمِهِ، قالُوا: إنَّ مِمّا دَعانا إلى الإسْلامِ ـ مَعَ رَحْمَةِ اللهِ تَعالى وهَداهُ لَنا ـ لِما كُنّا نَسْمَعُ مِنْ رِجالِ يَهُودَ، وَ كُنّا أهْلَ شِرْكٍ أصْحابَ أوْثانٍ، وكانُوا أهْلَ كِتابٍ، عِنْدَهُمْ عِلْمٌ لَيْسَ لَنا، وكانَتْ لا تَزالُ بَيْنَنا وبَيْنَهُمْ شُرُورٌ، فإذا نِلْنا مِنْهُمْ بَعْضَ ما يَكْرَهُونَ، قالُوا لَنا: إنَّهُ قَدْ تَقارَبَ زَمانُ نَبِيٍّ يُبْعَثُ الآنَ نَقْتُلُكُمْ مَعَهُ قَتْلَ عادٍ وإرَمٍ، فكُنّا كَثِيرًا ما نَسْمَعُ ذلك مِنْهُمْ، فلَمّا بَعَثَ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ أجبناهُ حِينَ دَعانا إلى اللهِ تَعالى، وعَرَفْنا ما كانُوا يَتَوَعَّدُونَنا بِهِ، فبادَرْناهُمْ إلَيْهِ، فآمَنّا بِهِ، وكَفَرُوا بِهِ، ففينا وفيهِمْ نَزَلَ هَؤُلاءِ الآياتُ مِن البَقَرةِ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

قالَ ابنُ هِشامٍ: يَسْتَفْتِحُونَ: يَسْتَنْصِرُونَ، ويَسْتَفْتِحُونَ أيْضًا: يَتحاكَمُونَ، وفي كِتابِ اللهِ تَعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

فصْلٌ

وذَكَرَ حَدِيثَ عُمَرَ، وقَوْلَهُ لِلرّجُلِ: «أكُنْت كاهِنًا في الجاهِلِيّةِ؟ فقالَ الرّجُلُ: سُبْحانَ اللهِ يا أمِيرَ المُؤْمِنِينَ! لَقَدْ خِلْت فيَّ، واسْتَقْبَلْتَنِي بِأمْرٍ ما أراك اسْتَقْبَلْت بِهِ أحَدًا مُنْذُ وُلّيت...» وذَكَرَ الحَدِيثَ(١).

وقَوْلُهُ: «خِلْتَ فيّ» هُوَ مِنْ بابِ حَذْفِ الجُمْلَةِ الواقِعَةِ بَعْدَ خِلْت وظَنَنْت،

(١) رواه البخاري في كتاب مناقب الأنصار مختصرًا. انظر: «فتح الباري» (٧: ١٧٧). وانظر: «سبل الهدى والرشاد» (٢: ٢٨١).

كَقَوْلِهِمْ في المَثَلِ[١]: مَنْ يَسْمَعْ يَخَلْ، ولا يَجُوزُ حَذْفُ أَحَدِ المَفْعُولَيْنِ مَعَ بَقاءِ الآخَرِ؛ لِأَنّ حُكْمَهُما حُكْمُ الابْتِداءِ والخَبَرِ، فإذا حُذِفَت الجُمْلَةُ كُلّها جازَ؛ لِأَنّ حُكْمَهُما[٢] حُكْمُ المَفْعُولِ، والمَفْعُولُ قَدْ يَجُوزُ حَذْفُه[٣]، ولكِنْ لا بُدّ مِنْ قَرينةٍ تَدُلّ على المُرادِ، ففي قَوْلِهِمْ: «مَنْ يَسْمَعْ يَخَلْ» ذكر يَدُلّ على المَفْعُولِ، وهُوَ «يَسْمَعُ»، وفي قَوْلِهِ: «خِلْت فِيّ» دَلِيلٌ أَيْضًا، وهُوَ قَوْلُهُ: «فِيّ»، كَأَنّهُ قالَ: خِلْت الشّرَّ فِيَّ[٤] أَوْ نَحْوَ هَذا.

وقَوْلُهُ: «قَبْلَ الإِسْلامِ بِشَهْرٍ أَوْ شَيْعِهِ»؛ أَيْ: دُونَهُ بِقَلِيلٍ، وشَيْعُ كُلِّ شَيْءٍ: ما هُوَ تَبَعٌ لَهُ، وهُوَ[٥] مِن الشِّياعِ، وهو: حَطَبٌ صِغارٌ تُجْعَلُ مَعَ الكِبارِ تَبَعًا لَها، ومِنْهُ[٦]: المُشَيّعةُ، وهِيَ: الشّاةُ تَتْبَعُ الغنم؛ لأنها دُونَها فِي القُوّةِ[٧].

والصّوْتُ الّذِي سَمِعَهُ عُمَرُ مِن العِجْلِ: «يا جَليحُ»، سَمِعْتُ بَعْضَ أَشْياخِنا يَقُولُ: هُوَ اسْمُ شَيْطانٍ، والجَليحُ[٨] في اللُّغة: ما تَطايَرَ مِن رُؤُوسِ النّباتِ، وخَفّ نَحْوَ القُطْنِ وشِبْهِهِ[٩]، والواحِدةُ: جَلِيحةٌ، والّذِي وقَعَ في «السِّيرةِ»: «يا ذَرِيحُ»[١٠]، وكَأَنّهُ نِداءٌ لِلْعِجْلِ المَذْبُوحِ؛ لِقَوْلِهِمْ: أَحْمَر ذَرِيحِيّ، أَيْ: شَدِيدُ

---

(١) «أمثال الميداني» (٢: ٣٠٠)، وكتب النحو.

(٢) في (ف): «حكمها».

(٣) «شرح المفصل» لابن يعيش: (٧: ٨٣)، و«شرح الكافية» للرضي: (٤: ١٥٥).

(٤) في (ج): «خلت الشر كأننا فيّ».

(٥) في (ف): «وهي».

(٦) في (ف): «ومنها».

(٧) انظر: «اللسان» (شيع).

(٨) في «النهاية» لابن الأثير: «جليح: اسم رجل قد ناداه».

(٩) في (ف): «وغيره».

(١٠) بعده في (ج): «هذا وقع في الصحيح: يا جليح».

الحُمْرةِ، فصارَ وصْفًا لِلْعِجْلِ الذّبيحِ مِنْ أجْلِ الدّمِ. ومَنْ رَواهُ: «يا جَليحُ»، فمآلُهُ إلى هَذا المَعْنى؛ لِأنّ العِجْلَ قَدْ جُلِحَ؛ أيْ: كُشِفَ عَنْهُ الجِلْدُ، فاللهُ أعْلَمُ.

وهَذا الرّجُلُ الّذي [كانَ كاهِنًا][1] هُوَ سَوادُ بنُ قارِبٍ الدّوْسِيُّ في قَوْلِ ابنِ الكَلْبيِّ. وقالَ غَيْرُهُ: هُوَ سَدُوسِيّ، وفيهِ يَقُولُ القائِلُ[2]: [من الوافر]

أَلا لله عِلْــمٌ لا يُجــارى ... إِلى الْغاياتِ فِي جَنْبَيْ سَوادِ

أَتَيْنــاهُ نُســائِلُهُ امْتِحانًــا ... فلَمْ يَبْعَلْ وأَخْبَرَ بِالسَّدادِ[3]

وَهَذانِ البَيْتانِ في شِعْرٍ وخَبَرٍ ذَكَرَهُ أبُو عَلِيّ الْقالِي في «أمالِيهِ»[4].

ورَوى غيرُ ابنِ إسْحاقَ هذا الخبر عَنْ عُمَرَ على غَيْرِ هَذا الوَجْهِ، وأنّ عُمَرَ مازَحَهُ، فَقال [لَه][5]: ما فعَلَتْ كَهانَتُك يا سَوادُ؟! فغَضِبَ، وقالَ: قَدْ كُنْت أنا وأنْتَ على شَرٍّ مِنْ هَذا؛ [مِنْ][6] عِبادةِ الأصْنامِ، وأكْلِ المَيْتاتِ، أفَتُعَيّرُني بِأمْرٍ قد تُبْت مِنْهُ؟! فقالَ عُمَرُ حِينَئِذٍ: اللهُمّ غَفْرًا.

وذَكَرَ غَيْرُ ابنِ إسْحاقَ في هَذا الحَدِيثِ سِياقةً حَسَنَةً، وزِيادةً مُفيدةً، وذَكَرَ أنّهُ حَدّثَ عُمَرَ أنّ رَئِيّهُ[7] جاءَهُ ثَلاثَ لَيالٍ مُتَوالِياتٍ، هُوَ فيها كُلّها بَيْنَ النّائِمِ

---

(١) ما بين المعقوفين يقابله في (ف): «ههنا».

(٢) هو عارق الطائي.

(٣) عجزه كما في «الأمالي»:

ونحســب أن ســيَعْمرَ بالعنادِ

هذا وفي حاشية (أ): «بعل، أي: أبى، وبَعِل ـ كفرح ـ: إذا أعيا فلم يدر ما يصنع».

(٤) «أمالي القالي» (٢: ٢٩٠-٢٩١).

(٥) عن (ب).

(٦) ليس في (أ).

(٧) في حاشية (أ): «رئيّ بمعنى: مرئي، أي: الجنّي المرئي».

واليَقْظانِ، فقالَ[١]: قُمْ يا سَوادُ، واسْمَعْ مَقالَتِي، واعْقِلْ إنْ كُنْت تَعْقِلُ، قَدْ بُعِثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ لُؤَيِّ بنِ غالِبٍ يَدْعُو إِلى اللهِ وعِبادَتِهِ، وأَنْشَدَهُ في كُلِّ لَيْلةٍ مِن الثّلاثِ اللّيالِي ثَلاثَةَ أبْياتٍ مَعْناها واحِدٌ، وقافيَتُها مُخْتَلِفةٌ[٢]: [من السريع]

عَجِبْتُ لِلْجِنّ وتَطْلابِها ... وشَدّها العِيسَ بِأقْتابِها[٣]
تَهْوِي إلى مَكّةَ تَبْغِي الهُدى ... ما صادِقُ الجِنّ كَكَذّابِها
فارْحَلْ إلى الصّفْوةِ مِنْ هاشِمٍ ... لَيْسَ قُداماها كَأذْنابِها[٤]

[وقالَ لَهُ في الليلة الثّانِيةِ][٥]: [من السريع]

عَجِبْتُ لِلْجِنّ وإبْلاسِها ... وشَدّها العِيسَ بِأحْلاسِها[٦]
تَهْوِي إلى مَكّةَ تَبْغِي الهُدى ... ما طاهِرُ الجِنّ كَأنْجاسِها
فارْحَلْ إلى الصّفْوةِ مِنْ هاشِمٍ ... ليس ذُنابى الطَّيْر مِن راسِها

وَقالَ لَهُ في الليلة الثّالِثةِ: [من السريع]

عَجِبْتُ لِلْجِنّ وتَنْفارِها ... وشَدّها العِيسَ بِأكْوارِها
تَهْوِي إلى مَكّةَ تَبْغِي الهُدى ... ما مُؤْمِنُ الجِنّ كَكُفّارِها
فارْحَلْ إلى الأتْقَيْنَ مِنْ هاشِمٍ ... لَيْسَ قُداماها كَأدْبارِها

وَذَكَرَ تَمامَ الخَبَرِ، وفي آخِرِ شِعْرِ سَوادٍ، إذ قَدِمَ على رَسُولِ اللهِ ﷺ فأنْشَدَهُ

---

(١) في (ف): «فقال له».
(٢) انظر: «سبل الهدى والرشاد» (٢: ٢٨١-٢٨٨).
(٣) العِيس: الإبل البيض مع شقرة.
(٤) الصفوة بتثليث الصاد: خلاصة الشيء وخياره، والمراد: النبي ﷺ.
(٥) ما بين المعقوفين يقابله في (ف): «فقال في الثانية».
(٦) الأحلاس: جمع حِلْسٍ، وهو الكساء الذي يلي ظهر البعير تحت القتب.

ما كانَ مِن الجِنّيّ رئيِّهِ إليه ثَلاثَ لَيالٍ مُتَوالِياتٍ، وذَلِكَ قَوْلُهُ: [من الطويل]

أَتانِـي نَجِيّي بَعْـدَ هَـدْءٍ ورَقدةٍ ... ولم يكُ فيما قَدْ بَلَوْت بِكاذِبِ[١]

ثَـلاثَ لَيـالٍ قَوْلُـهُ كُلّ لَيْلـةٍ ... أتاك نَبِـيّ مِـنْ لُؤَيّ بـنِ غالِبِ

فَرَفّعْـت أذْيالَ الإزارِ وشَـمّرَتْ ... بِيَ العِرْمِسُ الوَجْنا هُجُولُ السّباسِبِ[٢]

فَأشْـهَدُ أنّ اللهَ لا شَـيْءَ غَيْـرُهُ ... وأنّـك مَأْمُـونٌ علـى كُلّ غائِبِ

وأنّكَ أدنى المُرسَـلين وَسِـيلةً ... مِـن اللهِ يا ابنَ الأكْرَمِينَ الأطايِبِ

فَمُرْنـا بِما يَأْتِيك مِـنْ وحْيِ رَبّنا ... وإنْ كانَ فيما جِئْتَ شَيْبُ الذّوائِبِ

وَكُنْ لِي شَفيعًا يَوْمَ لا ذُو شَفاعةٍ ... بمُغنٍ فَتِيلًا عن سَـوادِ بْنِ قارِبِ

ولِسَوادِ بنِ قارِبٍ هَذا مَقامٌ حَمِيدٌ في دَوْسٍ، حِينَ بَلَغَهُمْ وفاةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فقامَ حِينَئِذٍ سَوادٌ، فقالَ: يا مَعْشَرَ الأزْدِ، إنّ مِنْ سَعادةِ القَوْمِ أنْ يَتّعِظُوا بغَيْرِهِمْ، ومِنْ شَقائِهِمْ ألّا يَتّعِظُوا إلّا بأنْفُسِهِمْ، وإنّهُ مَنْ لَمْ تَنْفَعْهُ التّجارِبُ ضَرّتْهُ، ومَنْ لَمْ يَسَعْهُ الحَقّ لَمْ يَسَعْهُ الباطِلُ، وإنّما تُسْلِمُونَ اليَوْمَ بِما أسْلَمْتُمْ بِهِ[٣] أمْسِ، وقَدْ عَلِمْتُمْ أنّ نبِيَّ اللهِ قَدْ تَناوَلَ قَوْمًا أبْعَدَ مِنْكُمْ فظَفِرَ بِهِمْ، وأوْعَدَ قَوْمًا أكْثَرَ مِنْكُمْ فأخافَهُمْ، ولَمْ يَمْنَعْهُ[٤] مِنْكُمْ عُدّةٌ ولا عَدَدٌ، وكُلّ بَلاءٍ مَنْسِيٌّ إلّا ما بَقِيَ أثَرُهُ في النّاسِ، ولا يَنْبَغِي لِأهْلِ البَلاءِ إلّا أنْ يَكُونُوا أذْكَرَ مِنْ أهْلِ العافيةِ لِلْعافيةِ، وإنّما كَفّ نَبِيّ اللهِ عَنْكُمْ ما كَفّكُمْ عَنْهُ، فَلَمْ تَزالُوا خارِجِينَ

---

(١) الهدءُ: من أول الليل إلى ثلثه. وبلوتُ: اختبرت.

(٢) العِرمِس: الناقة الصلبة القوية، وهي في الأصل الصخرة، شُبِّهت الناقة بها. والوجناء: الغلظة الصلبة، وقيل: العظيمة الوجنتَين. وهُجُول: جمع هجل، وهو ما اتسع من الأرض وغمض. والسباسب: جمع سَبْسَب، وهي القفر والمفازة.

(٣) في (ب): «فيه».

(٤) في (ف): «تمنعه».

مِمّا فيهِ أهْلُ البَلاءِ، داخِلينَ مِمّا فيهِ أهْلُ العافيةِ، حَتّى قَدِمَ على رَسُولِ اللهِ ﷺ خَطِيبُكُمْ ونَقِيبُكُمْ، فعَبّرَ الخَطِيبُ عَن الشّاهِدِ، ونَقّبَ النّقِيبُ عَن الغائِبِ، ولَسْت أدْري لَعَلّهُ تكُونُ لِلنّاسِ جَوْلةٌ، فإنْ تكُنْ فالسّلامةُ مِنْها الأناةُ، واللهُ يُحِبّها، فأحِبّوها. فأجابَهُ القَوْمُ وسَمِعُوا قَوْلَهُ[1]، فقالَ في ذلك سَوادُ بْنُ قارِبٍ:

[من الكامل]

جَلّتْ مُصِيبَتُك الغَداةَ سَوادُ ... وأرى المُصِيبةَ بَعْدَها تَزْدادُ
أبْقى لَنا فقْدُ النّبيّ مُحَمّدٍ ... صَلّى الإلَهُ عَلَيْهِ ما يُعْتادُ
حَزَنًا لَعَمْرُكَ في الفُؤادِ مُخامِرًا ... أوَهَلْ لِمَنْ فقَدَ النّبيّ فُؤادُ؟
كُنّا نَحُلّ بِهِ جَنابًا مُمْرِعًا ... جَفّ الجَنابُ فأجْدَبَ الرّوّادُ
فَبَكَتْ عَلَيْهِ أرْضُنا وسَماؤُنا ... وتَصَدّعَتْ وجْدًا بِهِ الأكْبادُ
قَلَّ المَتاعُ بِهِ وكانَ عِيانُهُ ... حُلْمًا تَضَمّنَ سَكَرَتَيْهِ رُقادُ
كانَ العِيانُ هُوَ الطّرِيفَ وحُزْنُهُ ... باقٍ لَعَمْرُكَ في النّفُوسِ تِلادُ
إنّ النّبيّ وفاتُهُ كَحَياتِهِ ... الحَقُّ حَقٌّ والجِهادُ جِهادُ
لَوْ قِيلَ: تَفْدُونَ النّبيّ مُحَمّدًا ... بُذِلَتْ لَهُ الأمْوالُ والأوْلادُ
وَتَسارَعَتْ فيهِ النّفُوسُ بِبَذْلِها ... هَذا لَهُ الأغْيابُ والأشْهادُ
هَذا وهَذا لا يَرُدُّ نَبِيَّنا ... لَوْ كانَ يَفْدِيهِ فَداهُ سَوادُ
أنّى أُحاذِرُ والحَوادِثُ جَمّةٌ ... أمْرًا لِعاصِفِ رِيحِهِ إرْعادُ؟!
إنْ حَلّ[2] مِنْهُ ما يُخافُ فأنْتُمُ ... لِلْأرْضِ إنْ رَجَفَتْ بِنا أوْتادُ
لَوْ زادَ قَوْمٌ فوْقَ مُنْيةِ[3] صاحِبٍ ... زِدْتُمْ، ولَيْسَ لِمُنْيةِ مُزْدادُ

---

(١) في (أ): «وسمعوا له قوله»، وفي (ف): «وسمعوا له».
(٢) في (أ): «انحل منه»، وفي (ب)، (ج): «إن جل»، وفي (هـ): «إن يحل».
(٣) كذا في (ب)، (د)، وفي غيرهما: «منة». والمُنية: ما يُتمنّى.

فأعْجَبَ القَوْمَ شِعْرُهُ وقَوْلُهُ، فأجابُوا[1] إلى ما أحَبَّ.

ومِنْ هَذا البابِ خَبَرُ سَوْداءَ بِنْتِ زُهْرةَ بنِ كِلابٍ؛ وذَلِكَ أنّها حِينَ وُلِدَتْ ورَآها أبُوها زَرْقاءَ شَيْماءَ أمَرَ بوَأْدِها، وكانُوا يَئِدُونَ مِن البَناتِ ما كانَت على هَذِهِ الصّفةِ، فأرْسَلَها إلى الحَجُونِ لِتُدْفَنَ هُناكَ، فلَمّا حَفَرَ لَها الحافرُ، وأرادَ دَفْنَها، سَمِعَ هاتِفًا يقولُ: لا تَئِدِ الصّبِيّةَ، وخَلِّها في البَرِّيّة. فالتَفَتَ فلَمْ يَرَ شَيْئًا، فعادَ لِدَفْنِها، فسَمِعَ الهاتِفَ يَهْتِفُ بسَجْعٍ آخَرَ في المَعْنى. فرَجَعَ إلى أبِيها، وأخْبَرَهُ بما سَمِعَ، فقالَ: إنّ لَها شَأْنًا، وتَرَكَها، فكانَتْ كاهِنةَ قُرَيْشٍ. فقالَتْ يَوْمًا لِبَنِي زُهْرةَ: إنّ فيكُمْ نَذِيرةً، أوْ تَلِدُ نَذِيرًا، فاعْرِضُوا عَلَيَّ بَناتِكُمْ. فعُرِضْنَ عَلَيْها، فقالَتْ في كُلّ واحِدةٍ مِنْهُنَّ قَوْلًا ظَهَرَ بَعْدَ حِينٍ، حَتّى عُرِضَتْ عَلَيْها آمِنةُ بِنْتُ وهْبٍ، فقالتْ: هذه النَّذيرةُ، أو سَتَلِدُ نَذيرًا. وهُوَ خَبَرٌ طَوِيلٌ ذَكَرَ الزّبَيْرُ مِنْهُ يَسِيرًا، وأوْرَدَهُ بِطُولِهِ أبُو بَكْرٍ النّقّاشُ.

وفيهِ ذِكْرُ جَهَنّمَ ـ أعاذَنا اللهُ مِنْها ـ ولَمْ يَكُن اسْمُ جهنّم مَسْموعًا بِهِ عِنْدَهُمْ، فقالُوا لَها: وما جَهَنّمُ؟ فقالَتْ: سَيُخْبِرُكم عَنْها النَّذيرُ.

* * *

---

(١) في (ف): «فأجابوه».

[حَدِيثُ سَلَمَةَ عَنِ اليَهُودِيِّ الَّذي أَنْذَرَ بِالرَّسُولِ ﷺ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وحَدَّثَنِي صالِحُ بنُ إبْراهِيمَ بنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ عَوْفٍ، عَنْ مَحْمُودِ بنِ لَبِيدٍ أخِي بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ، عَنْ سَلَمَةَ بنِ سَلامَةَ بنِ وقْشٍ ـ وكانَ سَلَمَةُ مِنْ أَصْحابِ بَدْرٍ ـ قالَ: كانَ لَنا جارٌ مِنْ يَهُودَ في بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ، قالَ:

فَخَرَجَ عَلَيْنا يَوْمًا مِنْ بَيْتِهِ حَتّى وقَفَ على بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ ـ قالَ سَلَمَةُ: وأنا يَوْمئِذٍ مِنْ أَحْدَثِ مَنْ فيهِ سِنًّا، عَلَيَّ بُرْدَةٌ لِي، مُضْطَجِعٌ فيها بِفِناءِ أَهْلِي ـ فذَكَرَ القِيامةَ، والبَعْثَ والحِسابَ، والمِيزانَ والجَنّةَ والنّارَ، قالَ: فقالَ ذلك لِقَوْمٍ أَهْلِ شِرْكٍ أَصْحابِ أَوْثانٍ، لا يَرَوْنَ أَنَّ بَعْثًا كائِنٌ بَعْدَ المَوْتِ، فقالُوا لَهُ: ويْحَكَ يا فُلانُ! أَوَتَرى هذا كائِنًا؛ أَنَّ النّاسَ يُبْعَثُونَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ إلى دارٍ فيها جَنّةٌ ونارٌ يُجْزَوْنَ فيها بِأَعْمالِهِمْ؟! قالَ: نَعَمْ، والَّذِي يُحْلَفُ بِهِ، ولَوَدَّ أَنَّ لَهُ بِحَظِّهِ مِنْ تِلْكَ النّارِ أَعْظَمَ تَنُّورٍ في الدّارِ يَحْمُونَهُ ثُمَّ يُدْخِلُونَهُ إيّاهُ فيطَيِّنُونَهُ عَلَيْهِ، بِأَنْ يَنْجُوَ مِنْ تِلْكَ النّارِ غَدًا، فقالُوا لَهُ: ويْحَكَ يا فُلانُ! فما آيةُ ذلك؟ قالَ: نَبِيٌّ مَبْعُوثٌ مِنْ نَحْوِ هَذِهِ البِلادِ، وأشارَ بِيَدِهِ إلى مَكّةَ واليَمَنِ، فقالُوا: ومَتى تُراهُ؟ قالَ: فنَظَرَ إلَيَّ ـ وأنا مِنْ أَحْدَثِهِمْ سِنًّا ـ فقالَ: إنْ يَسْتَنْفِدْ هذا الغُلامُ عُمْرَهُ يُدْرِكْهُ. قالَ سَلمة: فواللهِ ما ذَهَبَ اللَّيْلُ والنَّهارُ حَتّى بَعَثَ اللهُ مُحَمَّدًا رَسُولَهُ ﷺ وهُوَ حَيٌّ بَيْنَ أَظْهُرِنا، فآمَنّا بِهِ، وكَفَرَ بِهِ بَغْيًا وحَسَدًا، قالَ: فقُلْنا لَهُ: ويْحَكَ يا فُلانُ! أَلَسْتَ الَّذي قُلْتَ لَنا فيهِ ما قُلْتَ؟ قالَ: بَلى، ولَكِنْ لَيْسَ بِهِ.

فَصْلٌ

وذَكَرَ ابنُ إسْحاقَ حَدِيثَ سَلَمةَ بنِ سَلامةَ بنِ وقْشٍ، وما سَمِعَ مِن اليَهُودِ حِينَ ذَكَرَ الجَنّةَ والنّارَ، وقالَ: «آيَةُ ذَلِكَ: نَبِيٌّ مَبْعُوثٌ، قَدْ أظَلّ زَمانُهُ» إلى آخِرِ الحَدِيثِ، ولَيْسَ فيهِ إشْكالٌ، وابنُ وقْشٍ يُقالُ فيهِ: وقَشٌ بِتَحْرِيكِ القافِ وتَسْكِينِها، وَالْوَقشُ: الحَرَكةُ.

[إسْلامُ ثَعْلَبَةَ وأَسيدٍ ابنَيْ سَعْيَةَ، وأسَدِ بنِ عُبَيْدٍ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وحَدَّثَنِي عاصِمُ بنُ عُمَرَ بنِ قَتادةَ، عَنْ شَيْخٍ مِنْ بَنِي قُرَيْظةَ قالَ لِي: هَلْ تَدْرِي عَمَّ كانَ إسْلامُ ثَعْلَبَةَ بنِ سَعْيَةَ، وأَسِيدِ بنِ سَعْيَةَ، وأسَدِ بن عُبَيْدٍ؛ نَفَرٍ مِنْ بَنِي هَدْلٍ، إخْوةِ بَنِي قُرَيْظَةَ، كانُوا مَعَهُمْ في جاهِلِيَّتِهِمْ، ثُمَّ كانُوا سادَتَهُمْ في الإسْلامِ؟ قالَ: قُلْتُ: لا واللهِ، قالَ: فإنَّ رَجُلًا مِنْ يَهُودَ مِنْ أهْلِ الشّامِ يُقالُ لَهُ: ابنُ الهَيبانِ، قَدِمَ عَلَيْنا قُبَيْلَ الإسْلامِ بِسِنِينَ، فحَلَّ بَيْنَ أظْهُرِنا، لا واللهِ ما رَأَيْنا رَجُلًا قَطُّ لا يُصَلِّي الخَمْسَ أفْضَلَ مِنْهُ، فأقامَ عِنْدَنا، فكُنّا إذا قَحِطَ عَنّا المَطَرُ قُلْنا لَهُ: اخْرُجْ يا ابن الهَيبانِ فاسْتَسْقِ لَنا، فيقُولُ: لا واللهِ حَتّى تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ مَخْرَجِكُمْ صَدَقةً، فنَقُولُ لَهُ: كَمْ؟ فيقُولُ: صاعًا مِنْ تَمْرٍ، أوْ مُدَّيْنِ مِنْ شَعِيرٍ. قالَ: فنُخْرِجُها، ثُمَّ يَخْرُجُ بِنا إلى ظاهِرِ حَرَّتِنا، فيسْتَسْقِي اللهَ لنا، فواللهِ ما يَبْرَحُ مَجْلِسَهُ حَتّى يَمُرَّ السَّحابُ ونُسْقى، قَدْ فعَلَ ذلك غَيْرَ مَرّةٍ ولا مَرَّتَيْنِ ولا ثَلاثٍ. قالَ: ثُمَّ حَضَرَتْهُ الوَفاةُ عِنْدَنا، فلَمّا عَرَفَ أنَّهُ مَيِّتٌ، قالَ: يا مَعْشَرَ يَهُودَ، ما تُرَوْنَهُ أخْرَجَنِي مِنْ أرْضِ الخَمْرِ والخَمِيرِ إلى أرْضِ البُؤْسِ والجُوعِ؟ قالَ: قُلْنا: إنَّكَ أعْلَمُ، قالَ: فإنِّي إنَّما قَدِمْتُ هَذِهِ البَلْدةَ أتَوَكَّفُ خُرُوجَ نَبِيٍّ قَدْ أظَلَّ زَمانُهُ،

وهَذِهِ البَلْدةُ مُهاجَرُهُ، فكُنْتُ أرْجُو أنْ يُبْعَثَ فأتَّبِعَهُ، وقَدْ أظَلَّكُمْ زَمانُهُ، فلا تُسْبَقُنَّ إلَيْهِ يا مَعْشَرَ يَهُودَ؛ فإنَّهُ يُبْعَثُ بِسَفْكِ الدِّماءِ، وسَبْيِ الذَّرارِيِّ والنِّساءِ مِمَّنْ خالَفَهُ، فلا يَمْنَعْكُمْ ذلك مِنْهُ. فلَمّا بُعِثَ رَسُولُ الله ﷺ وحاصَرَ بَنِي قُرَيْظَةَ، قالَ هَؤُلاءِ الفِتْيَةُ ـ وكانُوا شَبابًا أحْداثًا ـ: يا بَنِي قُرَيْظَةَ، واللهِ إنَّهُ لَلنَّبِيُّ الَّذي كانَ عَهِدَ إلَيْكُمْ فيهِ ابنُ الهَيبانِ، قالُوا: لَيْسَ بِهِ، قالُوا: بَلى واللهِ، إنَّهُ لَهُوَ بِصِفَتِهِ، فنَزَلُوا وأسْلَمُوا، وأحْرَزُوا دِماءَهُمْ وأمْوالَهُمْ وأهْلِيهِمْ.

قالَ ابنُ إسْحاقَ: فهذا ما بَلَغَنا عَنْ أخْبارِ يَهُودَ.

فَصْلٌ

وذَكَرَ حَدِيثَ ابنِ الهَيَّبانِ، وما بَشَّرَ بِهِ مِنْ أمْرِ النَّبِيِّ ﷺ، وأنَّ ذَلِكَ كانَ سَبَبَ إسْلامِ ثَعْلَبَةَ بنِ سَعْيَةَ، وأسِيدِ بنِ سَعْيَةَ، وأسَدِ بنِ سَعْيَةَ، وهُمْ مِنْ بَنِي هَدَلٍ، وقد قَدَّمْنا الاختلافَ[1] في هَدَلٍ. والهَيَّبانُ مِن المُسَمَّيْنَ بِالصِّفاتِ، يُقالُ: قُطْنٌ هَيّبانٌ؛ أيْ: مُنْتَفِشٌ، وأنْشَدَ أبُو حَنِيفةَ[2]: [من الطويل]

تُطِيرُ اللُّغامَ الهَيَّبانَ كَأنَّهُ ... جَنى عُشَرٍ تَنْفيهِ أشْداقُها الهُدْلِ

والهَيّبانُ أيْضًا: الجَبانُ، وأمّا أَسِيدُ بنُ سَعْيَةَ، فقالَ إبْراهِيمُ بنُ سَعْدِ بنِ إبْراهِيمَ بنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ عَوْفٍ المَدَنِيّ، عَن ابنِ إسْحاقَ ـ وهُوَ أحَدُ رُواةِ

---

(١) انظر: (٢/ ٢٨٩).

(٢) البيت لذي الرمة، «ديوانه» (٣: ١٦٢٠). وفيه يُروى: «تمج اللغام»، ومثله في «اللسان» (هيب). وفي «شروح السقط» (١: ٣٦٩): «تطير اللغام». واللُّغام: الزبد. والعُشَر: شجر له صمغ وفيه حُرّاق مثل القطن. والحراق: ما يُقتدح به، شبَّه اللُّغامَ بثمر هذا العُشَر. والهدل: المسترخية، يصف إبلًا وإزباد مشافرها.

المَغازِي عَنْهُ ـ: أُسَيْدُ بنُ سَعْيةَ بِضَمّ الألِفِ، وقالَ يُونُسُ بن بُكَيْرٍ عَن ابنِ إسْحاقَ ـ وهُوَ قَوْلُ الواقِدِيّ وغَيْرِهِ ـ: أَسِيدٌ بِفَتْحِها. قالَ: الدّارَقُطْنِيّ: وهَذا هُوَ الصّوابُ[1]، ولا يَصِحّ ما قالَهُ إبْراهِيمُ عَن ابنِ إسْحاقَ.

وبَنُو سَعْيةَ هَؤُلاءِ فيهِمْ أَنْزَلَ اللهُ عَزّ وجَلّ: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ [آل عمران: ١١٣] الآيـةَ، وسَعْيـةُ أَبُـوهُ، يُقالُ لَهُ[2]: ابنُ العُرَيـضِ، وهُوَ بِالسّيـنِ المُهْمَلةِ[3]، والياءِ الْمَنْقُوطةِ بِاثْنَتَينِ.

وَأَمّا سُعْنةُ[4] بِالنّونِ، فزَيْدُ بنُ سُعْنةَ، حَبْرٌ مِنْ أَحْبارِ اليَهُودِ[5]، كانَ قد دايَنَ النّبيّ ﷺ، فجاءَهُ يَتَقاضاهُ قَبْلَ الأجَلِ، فقالَ: أَلا تَقْضِينِي يا مُحَمّدُ؟ فإنّكُمْ يا بَنِي عَبْدِ المُطّلِبِ لَمُطْلٌ، وما أَرَدْتُ إلّا أنْ أَعْلَمَ عِلْمَكُمْ، فارْتَعَدَ عُمَرُ، ودارَ كَأَنّهُ في فَلَكٍ، وجَعَلَ يَلْحَظُ يَمِينًا وشِمالًا، وقالَ: أَتَقُولُ هَذا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ يا عَدُوَّ اللهِ؟! فقالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إنّا إلى غَيْرِ هَذا مِنْك أَحْوَجُ يا عُمَرُ؛ أَنْ تَأْمُرَنِي بِحُسْنِ الأداءِ، وتَأْمُرَهُ بِحُسْنِ التَّبعةِ[6]، قُمْ فاقْضِهِ عَنِّي، فوَاللهِ ما حَلَّ الأَجَلُ، وزِدْهُ عِشْرِينَ صاعًا بِما رَوَّعْتَه».

وفي حَدِيثٍ آخَرَ: [أَنّهُ قالَ: «دَعْهُ][7]؛ فإنّ لِصاحِبِ الحَقِّ مَقالًا»[8]،

(١) «المؤتلف والمختلف» (٣: ١٣٨٥).

(٢) في (ج)، (ب): «يقال فيه».

(٣) في هامش (أ) عنده مصححًا: «المفتوحة بعدها عين ساكنة».

(٤) انظر: «المؤتلف والمختلف» للدارقطني: (٣: ١٣٨٧).

(٥) في (هـ): «يهود».

(٦) التبعة: المطالبة بالحق، يقال: تبع فلانًا بحقه: طالبه به.

(٧) ليس في (أ).

(٨) رواه البخاري مختصرًا. انظر: «فتح الباري»، كتاب الاستقراض: (٥: ٥٦، ٦٢).

ويُذْكَرُ أنّهُ أسْلَمَ لَمّا رَأى مِنْ حُسْنِ مُوافَقةِ وصْفِ النّبيّ ﷺ لِما كانَ عِنْدَهُ من التّوْراةِ، وكانَ يَجِدُهُ مَوْصُوفًا بِالحِلْمِ، فلَمّا رَأى مِنْ حِلْمِهِ ما رأى أسْلَمَ، وتُوفِّي غازِيًا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ في غَزْوةِ تَبُوكَ، ويُقالُ في اسْمِهِ: سَعْيةُ بِالياءِ كَما في الأوّلِ، ولَمْ يَذْكُرْهُ الدّارَقُطْنِيّ إلّا بالنُّون.

* * *

حَدِيثُ إِسْلامِ سَلْمانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

[كانَ سَلْمانُ مَجُوسِيًّا، فمَرَّ بِكَنِيسةٍ فتَطَلَّعَ إلى النَّصْرانِيَّةِ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وحَدَّثَنِي عاصِمُ بنُ عُمَرَ بنِ قَتادةَ الأنْصارِيُّ، عَنْ مَحْمُودِ بن لَبِيدٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عَبّاسٍ، قالَ: حَدَّثَنِي سَلْمانُ الفارِسِيُّ وأنا أسْمَعُ مِنْ فِيهِ، قالَ: كُنْتُ رَجُلًا فارِسِيًّا مِنْ أهْلِ إصْبَهانَ، مِنْ قَرْيةٍ يُقالُ لَها: جَيٌّ، وكانَ أبِي دِهْقانَ قَرْيَتِهِ، وكُنْتُ أحَبَّ خَلْقِ اللهِ إلَيْهِ، لَمْ يَزَلْ بِهِ حُبُّهُ إيّايَ حَتّى حَبَسَنِي في بَيْتِهِ كَما تُحْبَسُ الجارِيةُ، واجْتَهَدْتُ في المَجُوسِيّةِ حَتّى كُنْتُ قَطِنَ النّارِ الَّذي يُوقِدُها، لا يَتْرُكُها تَخْبُو ساعةً. قالَ: وكانَتْ لِأبِي ضَيْعةٌ عَظِيمةٌ، فشُغِلَ في بُنْيانٍ لَهُ يَوْمًا، فقالَ لِي: يا بُنَيَّ، إنِّي قَدْ شُغِلْتُ في بُنْيانِي هذا اليَوْمَ عَنْ ضَيْعَتِي، فاذْهَبْ إلَيْها فاطَّلِعْها. وأمَرَنِي فيها بِبَعْضِ ما يُرِيدُ، ثُمَّ قالَ لِي: ولا تَحْتَبِسْ عَنِّي؛ فإنَّكَ إن احْتَبَسْتَ عَنِّي كُنْتَ أهَمَّ إلَيَّ مِنْ ضَيْعَتِي، وشَغَلْتَنِي عَنْ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ أمْرِي. قالَ: فخَرَجْتُ أُرِيدُ ضَيْعَتَهُ الَّتِي بَعَثَنِي إلَيْها، فمَرَرْتُ بِكَنِيسةٍ مِنْ كَنائِسِ النَّصارى، فسَمِعْتُ أصْواتَهُمْ فيها وهُمْ يُصَلُّونَ، وكُنْتُ لا أدْرِي ما أمْرُ النّاسِ؛ لِحَبْسِ أبِي إيّايَ في بَيْتِهِ، فلَمّا سَمِعْتُ أصْواتَهُمْ دَخَلْتُ عَلَيْهِمْ أنْظُرُ ما يَصْنَعُونَ، فلَمّا رَأيْتُهُمْ أعْجَبَتْنِي صَلاتُهُمْ ورَغِبْتُ في أمْرِهِمْ، وقُلْتُ: هذا واللهِ خَيْرٌ مِن الدِّينِ الَّذي نَحن عَلَيْهِ، فوَاللهِ ما بَرِحْتُهُمْ حَتّى غَرَبَت الشَّمْسُ، وتَرَكْتُ ضَيْعةَ أبِي فلَمْ آتِها، ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ: أيْنَ أصْلُ هذا الدِّينِ؟ قالُوا: بِالشّامِ. فرَجَعْتُ إلى أبِي، وقَدْ بَعَثَ

في طَلَبِي، وشَغَلْتُهُ عَنْ عَمَلِهِ كُلِّهِ، فلَمّا جِئْتُهُ قالَ: أيْ بُنَيَّ أيْنَ كُنْتَ؟ أوَلَمْ أكُنْ عَهِدْتُ إلَيْكَ ما عَهِدْتُ؟ قالَ: قُلْتُ لَهُ: يا أبَتِ، مَرَرْتُ بِأُناسٍ يُصَلُّونَ في كَنِيسةٍ لَهُمْ، فأعْجَبَنِي ما رَأيْتُ من دِينِهم، فوَاللهِ ما زِلْتُ عِنْدَهُمْ حَتّى غَرَبَت الشَّمْسُ، قالَ: أيْ بُنَيَّ، لَيْسَ في ذلك الدِّينِ خَيْرٌ، دِينُكَ ودِينُ آبائِكَ خَيْرٌ مِنْهُ، قالَ: قُلْتُ لَهُ: كَلّا واللهِ، إنَّهُ لَخَيْرٌ مِنْ دِينِنا. قالَ: فَخافَنِي، فجَعَلَ في رِجْلِي قَيْدًا، ثُمَّ حَبَسَنِي في بَيْتِهِ.

[اتِّفاقُ سَلْمانَ والنَّصارى على الهَرَبِ]

قالَ: وبَعَثْتُ إلى النَّصارى فقُلْتُ لَهُمْ: إذا قَدِمَ عَلَيْكُمْ رَكْبٌ مِن الشّامِ فأخْبِرُونِي بِهِمْ. قالَ: فقَدِمَ عَلَيْهِمْ رَكْبٌ مِن الشّامِ تُجّارٌ مِن النَّصارى، فأخْبَرُونِي بِهِمْ، فقُلْتُ لَهُمْ: إذا قَضَوْا حَوائِجَهُمْ، وأرادُوا الرَّجْعَةَ إلى بِلادِهِمْ، فآذِنُونِي بِهِمْ. قالَ: فلَمّا أرادُوا الرَّجْعَةَ إلى بِلادِهِمْ أخْبَرُونِي بِهِمْ، فألْقَيْتُ الحَدِيدَ مِنْ رِجْلَيَّ، ثُمَّ خَرَجْتُ مَعَهُمْ حَتّى قَدِمْتُ الشّامَ، فلَمّا قَدِمْتُها، قُلْتُ: مَنْ أفْضَلُ أهْلِ هذا الدِّينِ عِلْمًا؟ قالُوا: الأُسْقُفُّ في الكَنِيسةِ.

[سَلْمانُ وأُسْقُفُّ النَّصارى السَّيِّئُ]

قالَ: فجِئْتُهُ فقُلْتُ لَهُ: إنِّي قَدْ رَغِبْتُ في هذا الدِّينِ، فأحْبَبْتُ أنْ أكُونَ مَعَكَ، وأخْدُمَكَ في كَنِيسَتِكَ، فأتَعَلَّمَ مِنْكَ، وأُصَلِّيَ مَعَكَ، قالَ: ادْخُلْ، فدَخَلْتُ مَعَهُ، قالَ: وكانَ رَجُلَ سَوْءٍ؛ يَأْمُرُهُمْ بِالصَّدَقةِ، ويُرَغِّبُهُمْ فيها، فإذا جَمَعُوا إلَيْهِ شَيْئًا مِنْها اكْتَنَزَهُ لِنَفْسِهِ، ولَمْ يُعْطِهِ المَساكِينَ، حَتّى جَمَعَ سَبْعَ قِلالٍ مِنْ ذَهَبٍ ووَرِقٍ. قالَ: فأبْغَضْتُهُ بُغْضًا شَدِيدًا لِما رَأيْتُهُ يَصْنَعُ، ثُمَّ ماتَ، فاجْتَمَعَتْ إلَيْهِ النَّصارى لِيَدْفِنُوهُ، فقُلْتُ لَهُمْ: إنَّ هذا كانَ رَجُلَ سَوْءٍ؛ يَأْمُرُكُمْ

بِالصَّدَقةِ، ويُرَغِّبُكُمْ فيها، فإذا جِئْتُمُوهُ بِها، اكْتَنَزَها لِنَفْسِهِ، ولَمْ يُعْطِ المَساكِينَ مِنْها شَيْئًا. قالَ: فقالُوا لِي: وما عِلْمُكَ بِذلك؟ قالَ: قُلْتُ لَهُمْ: أنا أدُلُّكُمْ على كَنْزِهِ، قالُوا: فدُلَّنا عَلَيْهِ، قالَ: فأَرَيْتُهُمْ مَوْضِعَهُ، فاسْتَخْرَجُوا مِنْهُ سَبْعَ قِلالٍ مَمْلُوءةً ذَهَبًا ووَرِقًا. قالَ: فلَمّا رَأوْها قالُوا: والله لا نَدْفِنُهُ أبَدًا. قالَ: فَصَلَبُوهُ، ورَجَمُوهُ بِالحِجارةِ، وجاؤُوا بِرَجُلٍ آخَرَ، فجَعَلُوهُ مَكانَهُ.

[سَلْمانُ والأُسْقُفُّ الصّالِحُ]

قالَ: يَقُولُ سَلْمانُ: فما رَأَيْتُ رَجُلًا لا يُصَلِّي الخَمْسَ، أرى أنَّهُ كانَ أفْضَلَ مِنْهُ وَ أزْهَدَ في الدُّنْيا، ولا أرْغَبَ في الآخِرةِ، ولا أدْأبَ لَيْلًا ونَهارًا مِنْهُ.

قالَ: فأحْبَبْتُهُ حُبًّا لَمْ أُحِبَّهُ شَيْئًا قَبْلَهُ. قالَ: فأقَمْتُ مَعَهُ زَمانًا طَوِيلًا، ثُمَّ حَضَرَتْهُ الوَفاةُ، فقُلْتُ لَهُ: يا فُلانُ، إنِّي قَدْ كُنْتُ مَعَكَ وأحْبَبْتُكَ حُبًّا لَمْ أُحِبَّهُ شَيْئًا قَبْلَكَ، وقَدْ حَضَرَكَ ما تَرى مِنْ أمْرِ الله تَعالى، فإلى مَنْ تُوصِي بِي؟ وبِمَ تَأْمُرُنِي؟ قالَ:

أيْ بُنَيَّ، والله ما أعْلَمُ اليَوْمَ أحَدًا على ما كُنْتُ عَلَيْهِ؛ فقَدْ هَلَكَ النّاسُ، وبَدَّلُوا وتَرَكُوا أكْثَرَ ما كانُوا عَلَيْهِ، إلّا رَجُلًا بِالمَوْصِلِ، وهُوَ فُلانٌ، وهُوَ على ما كُنْتُ عَلَيْهِ فالْحَقْ بِهِ.

[سَلْمانُ وصاحِبُهُ بِالمَوصِلِ]

قالَ: فلَمّا ماتَ وغُيِّبَ لَحِقْتُ بِصاحِبِ المَوْصِلِ، فقُلْتُ لَهُ: يا فُلانُ، إنَّ فُلانًا أوْصانِي عِنْدَ مَوْتِهِ أنْ ألْحَقَ بِكَ، وأخْبَرَنِي أنَّكَ على أمْرِهِ، فقالَ لِي: أقِمْ عِنْدِي، فأقَمْتُ عِنْدَهُ، فوَجَدْتُهُ خَيْرَ رَجُلٍ على أمْرِ صاحِبِهِ، فلَمْ يَلْبَثْ أنْ ماتَ.

فَلَمّا حَضَرَتْهُ الوَفاةُ، قُلْتُ لَهُ: يا فُلانُ، إنَّ فُلانًا أوْصى بِي إلَيْكَ، وأمَرَني بِاللُّحوقِ بِكَ، وقَدْ حَضَرَكَ مِنْ أمْرِ اللهِ ما تَرى، فإلى مِنْ تُوصِي بِي؟ وبِمَ تَأْمُرُني؟ قالَ:

يا بُنَيَّ، واللهِ ما أعْلَمُ رَجُلًا على مِثْلِ ما كُنّا عَلَيْهِ، إلّا رَجُلًا بِنَصِيبِينَ، وهُوَ فُلانٌ، فالحَقْ بِهِ.

[سَلْمانُ وصاحِبُهُ بِنَصِيبِينَ]

فَلَمّا ماتَ وغُيِّبَ لَحِقْتُ بِصاحِبِ نَصِيبِينَ، فأخْبَرْتُهُ خَبَري، وما أمَرَني بِهِ صاحِبُهُ، فقالَ: أقِمْ عِنْدِي، فأقَمْتُ عِنْدَهُ، فوَجَدْتُهُ على أمْرِ صاحِبَيْهِ، فأقَمْتُ مَعَ خيرِ رجلٍ، فواللهِ ما لَبِثَ أنْ نَزَلَ بِهِ المَوْتُ، فلَمّا حُضِرَ قُلْتُ لَهُ: يا فُلانُ، إنَّ فُلانًا كانَ أوْصى بِي إلى فُلانٍ، ثُمَّ أوْصى بِي فُلانٌ إلَيْكَ، قالَ: فإلى مَنْ تُوصِي بِي؟ وبِمَ تَأْمُرُنِي؟ قالَ: يا بُنَيَّ، واللهِ ما أعْلَمُهُ بَقِيَ أحَدٌ على أمْرِنا آمُرُكَ أنْ تَأْتِيَهُ إلّا رَجُلًا بِعَمُّورِيَّةَ مِنْ أرْضِ الرُّومِ؛ فإنَّهُ على مِثْلِ ما نَحْنُ عَلَيْهِ، فإنْ أحْبَبْتَ فأْتِهِ؛ فإنَّهُ على أمْرِنا.

[سَلْمانُ وصاحِبُهُ بِعَمُّورِيَّةَ]

فَلَمّا ماتَ وغُيِّبَ لَحِقْتُ بِصاحِبِ عَمُّورِيَّةَ، فأخْبَرْتُهُ خَبَري، فقالَ: أقِمْ عِنْدِي، فأقَمْتُ عِنْدَ خَيْرِ رَجُلٍ، على هُدى أصْحابِهِ وأمْرِهِمْ. قالَ: واكْتَسَبْتُ حَتّى كانَتْ لِي بَقَراتٌ وغُنَيْمَةٌ. قالَ: ثُمَّ نَزَلَ بِهِ أمْرُ اللهِ تَعالى، فلَمّا حُضِرَ قُلْتُ لَهُ: يا فُلانُ، إنِّي كُنْتُ مَعَ فُلانٍ، فأوْصى بِي إلى فُلانٍ، ثُمَّ أوْصى بِي فُلانٌ إلى فُلانٍ، ثُمَّ أوْصى بِي فُلانٌ إلَيْكَ، فإلى مَنْ تُوصِي بِي؟ وبِمَ تَأْمُرُنِي؟ قالَ: أيْ بُنَيَّ، واللهِ ما أعْلَمُهُ أصْبَحَ اليَوْمَ أحَدٌ على مِثْلِ ما كُنّا عَلَيْهِ مِن النّاسِ آمُرُكَ

بِهِ أنْ تَأْتِيَهُ، ولَكِنَّهُ قَدْ أظَلَّ زَمانُ نَبِيٍّ، وهُوَ مَبْعُوثٌ بِدِينِ إبْراهِيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ، يَخْرُجُ بِأرْضِ العَرَبِ، مُهاجَرُهُ إلى أرْضٍ بَيْنَ حَرَّتَيْنِ، بَيْنَهُما نَخْلٌ، بِهِ عَلاماتٌ لا تَخْفى، يَأْكُلُ الهَدِيّةَ، ولا يَأْكُلُ الصَّدَقةَ، وبَيْنَ كَتِفَيهِ خاتَمُ النُّبُوّةِ، فإن اسْتَطَعْتَ أنْ تَلْحَقَ بِتِلْكَ البِلادِ فافْعَلْ.

[سَلْمانُ ونُقْلَتُهُ إلى وادِي القُرى، ثُمَّ إلى المَدِينةِ، وسَماعُه بِبَعْثةِ الرَّسُولِ ﷺ]

قالَ: ثُمَّ ماتَ وغُيِّبَ، ومَكَثْتُ بِعَمُّورِيّةَ ما شاءَ اللهُ أنْ أمْكُثَ، ثُمَّ مَرَّ بِي نَفَرٌ مِنْ كَلْبٍ تُجّارٌ، فقُلْتُ لَهُم: احْمِلُونِي إلى أرْضِ العَرَبِ وأُعْطِيكُمْ بَقَراتِي هَذِهِ وغُنَيْمَتِي هَذِهِ، قالُوا: نَعَمْ. فأعْطَيْتُهُمُوها وحَمَلُونِي مَعَهُمْ، حَتّى إذا بَلَغُوا وادِيَ القُرى ظَلَمُونِي، فباعُونِي مِنْ رَجُلٍ يَهُودِيٍّ عَبْدًا، فكُنْتُ عِنْدَهُ، ورَأيْتُ النَّخْلَ، فرَجَوْتُ أنْ يَكُونَ البَلَدَ الَّذي وصَفَ لِي صاحِبِي، ولَمْ يَحِقَّ في نَفْسِي، فبَيْنا أنا عِنْدَهُ، إذْ قَدِمَ عَلَيْهِ ابنُ عَمٍّ لَهُ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ مِن المَدِينةِ، فابْتاعَنِي مِنْهُ، فاحْتَمَلَنِي إلى المَدِينة، فواللهِ ما هُوَ إلّا أنْ رَأيْتُها فعَرَفْتها بِصِفةِ صاحِبِي، فأقَمْتُ بِها، وبُعِثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فأقامَ بِمَكّةَ ما أقامَ، لا أسْمَعُ لَهُ بِذِكرٍ مَعَ ما أنا فيهِ مِنْ شُغلِ الرِّقِّ، ثُمَّ هاجَرَ إلى المَدِينة، فواللهِ إنِّي لَفي رَأْسِ عِذْقٍ لِسَيِّدِي أعْمَلُ لَهُ فيهِ بَعْضَ العَمَلِ، وسَيِّدِي جالِسٌ تَحْتِي، إذْ أقْبَلَ ابنُ عَمٍّ لَهُ حَتّى وقَفَ عَلَيْهِ، فقالَ: يا فُلانُ، قاتَلَ اللهُ بَنِي قَيْلةَ، واللهِ إنَّهُم الآنَ لَمُجْتَمِعُونَ بِقُباءٍ على رَجُلٍ قَدِمَ عَلَيْهِمْ مِنْ مَكّةَ اليَوْمَ يَزْعُمُونَ أنَّهُ نَبِيٌّ.

[نَسَبُ قَيْلةَ]

قالَ ابنُ هِشامٍ: قَيْلةُ: بِنْتُ كاهِلِ بن عُذْرةَ بنِ سَعْدِ بن زَيْدِ بنِ لَيْثِ ابنِ سُودِ بنِ أسْلَمَ بنِ الحافِ بنِ قُضاعةَ، أُمُّ الأوْسِ والخَزْرَجِ.

قالَ النُّعْمانُ بنُ بَشِيرٍ الأنْصارِيُّ يَمْدَحُ الأوْسَ والخَزْرَجَ:

بَهالِيلُ مِــنْ أوْلادِ قَيْلَةَ لَمْ يَجِدْ عَلَيْهِمْ خَلِيطٌ في مُخالَطة عَتْبا
مَسامِيحُ أبْطالٌ يُراحُونَ لِلنَّدى يَرَوْنَ عَلَيْهِمْ فِعْلَ آبائِهِمْ نَحْبا

وهذانِ البَيْتانِ في قَصِيدةٍ لَهُ:

قالَ ابنُ إسْحاق: وحَدَّثَنِي عاصِمُ بنُ عُمَرَ بنِ قَتادةَ الأنْصارِيُّ، عَنْ مَحْمُودِ بنِ لَبِيدٍ، عَنْ عَبْدِ الله بنِ عَبّاسٍ، قالَ: قالَ سَلْمانُ: فلَمّا سَمِعْتُها أخَذَتْنِي العُرَواءُ ـ فقالَ ابنُ هِشامٍ: والعُرَواءُ: الرِّعْدةُ مِن البَرْدِ والانْتِفاضُ، فإنْ كانَ مَعَ ذلك عَرَقٌ فهِيَ الرُّحَضاءُ، وكِلاهُما مَمْدُودٌ ـ حَتّى ظَنَنْتُ أنِّي سَأسْقُطُ على سَيِّدِي، فنَزَلْتُ عَن النَّخْلةِ، فجَعَلْتُ أقُولُ لِابنِ عَمِّهِ ذلك: ماذا تَقُولُ؟ ماذا تَقُولُ؟ فَغَضِبَ سَيِّدِي، فلَكَمَنِي لَكْمةً شَدِيدةً، ثُمَّ قالَ: ما لَكَ ولِهذا؟ أقْبِلْ على عَمَلِكَ. قالَ: قُلْتُ: لا شَيْءَ، إنَّما أرَدْتُ أنْ أسْتَثْبِتَهُ عَمّا قالَ.

[سَلْمانُ بَيْنَ يَدَي الرَّسُولِ ﷺ بِهَدِيَّتِهِ يَسْتَوْثِقُ]

قالَ: وقَدْ كانَ عِنْدِي شَيْءٌ قَدْ جَمَعْتُهُ، فلَمّا أمْسَيْتُ أخَذْتُهُ، ثُمَّ ذَهَبْتُ بِهِ إلى رَسُولِ الله ﷺ وهُوَ بِقُباءٍ، فدَخَلْتُ عَلَيْهِ، فقُلْتُ لَهُ: إنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أنَّكَ رَجُلٌ صالِحٌ، ومَعَكَ أصْحابٌ لَكَ غُرَباءُ ذَوُو حاجةٍ، وهذا شَيْءٌ قَدْ كانَ عِنْدِي لِلصَّدَقةِ، فرَأيْتُكُمْ أحَقَّ بِهِ مِنْ غَيْرِكُمْ، قالَ: فقَرَّبْتُهُ إلَيْهِ، فقالَ رَسُولُ الله ﷺ لِأصْحابِهِ: «كُلُوا»، وأمْسَكَ يَدَهُ فلَمْ يَأْكُلْ. قالَ: فَقُلْتُ في نَفْسِي: هَذِهِ واحِدةٌ. قالَ: ثُمَّ انْصَرَفْتُ عَنْهُ، فجَمَعْتُ شَيْئًا، وتَحَوَّلَ رَسُولُ الله ﷺ إلى المَدِينةِ، ثُمَّ جِئْتُهُ بِهِ، فقُلْتُ لَهُ: إنِّي قَدْ رَأيْتُكَ لا تَأْكُلُ الصَّدَقةَ،

وهَذِهِ هَدِيَّةٌ أكْرَمْتُكَ بِها. قالَ: فأكَلَ رَسُولُ الله ﷺ مِنْها، وأمَرَ أصْحابَهُ فأكَلُوا مَعَهُ. قالَ: فقُلْتُ في نَفْسِي: هاتانِ ثِنْتانِ.

ثُمَّ جِئْتُ رَسُولَ الله ﷺ وهُوَ بِبَقِيعِ الغَرْقَدِ قَدْ تَبِعَ جِنازَةَ رَجُلٍ مِنْ أصْحابِهِ، وَعَلَيَّ شَمْلَتانِ لِي، وهُوَ جالِسٌ في أصْحابِهِ، فسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَدَرْتُ أنْظُرُ إلى ظَهْرِهِ، هَلْ أرى الخاتَمَ الَّذي وصَفَ لِي صاحِبِي؟ فلَمّا رَآنِي رَسُولُ الله ﷺ اسْتَدْبَرْتُهُ عَرَفَ أنِّي أسْتَثْبِتُ في شَيْءٍ وُصِفَ لِي، فألْقى رِداءَهُ عَنْ ظَهْرِهِ، فنَظَرْتُ إلى الخاتَمِ فعَرَفْتُهُ، فأكْبَبْتُ عَلَيْهِ أُقَبِّلُهُ وأبْكِي، فقالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: «تَحَوَّلْ»، فتَحَوَّلْتُ فجَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فقَصَصْتُ عَلَيْهِ حَدِيثِي كَما حَدَّثْتُكَ يا ابن عَبّاسٍ، فأعْجَبَ رَسُولَ الله صَلّى الله عَلَيْهِ وعلى آلِهِ وسَلَّمَ أنْ يُسْمِعَ ذلك أصْحابَهُ. ثُمَّ شَغَلَ سَلْمانَ الرِّقُّ حَتّى فاتَهُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ بَدْرٌ وأُحُدٌ.

[أمْرُ رَسُولِ الله ﷺ لِسَلْمانَ بِالمُكاتَبَةِ لِيَخْلُصَ مِن الرِّقِّ]

قالَ سَلْمانُ: ثُمَّ قالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: «كاتِبْ يا سَلْمانُ»، فكاتَبْتُ صاحِبِي على ثَلاثِ مئةِ نَخْلةٍ أُحْيِيها لَهُ بِالفَقِيرِ، وأرْبَعِينَ أُوقِيَّةً. فقالَ رَسُولُ الله ﷺ لِأصْحابِهِ: «أعِينُوا أخاكُمْ»، فأعانُونِي بِالنَّخْلِ: الرَّجُلُ بِثَلاثِينَ ودِيَّةً، والرَّجُلُ بِعِشْرِينَ ودِيَّةً، والرَّجُلُ بِخَمْسَ عَشْرةَ ودِيَّةً، والرَّجُلُ بِعَشْرٍ، يُعِينُ الرَّجُلُ بِقَدْرِ ما عِنْدَهُ، حَتّى اجْتَمَعَتْ لِي ثَلاثُ مئة ودِيَّةٍ، فقالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: «اذْهَبْ يا سَلْمانُ ففَقِّرْ لَها، فإذا فرَغْتَ فَأْتِنِي أكُنْ أنا أضَعُها بِيَدَيَّ». قالَ: ففَقَّرْتُ وأعانَنِي أصْحابِي، حَتّى إذا فرَغْتُ جِئْتُهُ فأخْبَرْتُهُ، فخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ مَعِي إلَيْها، فجَعَلْنا نُقَرِّبُ إلَيْهِ الوَدِيَّ، ويَضَعُهُ رَسُولُ الله ﷺ

بِيَدِهِ حَتّى فرغْنا، فوَالّذي نَفْسُ سَلْمانَ بِيَدِهِ، ما ماتَتْ مِنْها ودِيّةٌ واحِدةٌ. قالَ: فأدَّيْتُ النَّخْلَ وبَقِيَ عَلَيَّ المالُ، فأُتِيَ رَسُولُ الله ﷺ بِمِثْلِ بَيْضةِ الدَّجاجةِ مِنْ ذَهَبٍ مِنْ بَعْضِ المَعادِنِ، فقالَ: «ما فعَلَ الفارِسِيُّ المُكاتَبُ؟» قالَ: فدُعِيتُ لَهُ، فقالَ: «خُذْ هَذِهِ، فأدِّها مِمّا عَلَيْكَ يا سَلْمانُ». قالَ: قُلْتُ: وأيْنَ تَقَعُ هَذِهِ يا رَسُولَ الله مِمّا عَلَيَّ؟ فقالَ: «خُذْها؛ فإنَّ الله سَيُؤَدِّي بِها عَنْكَ». قالَ: فأخَذْتها فوَزَنْتُ لَهُمْ مِنْها ـ والَّذِي نَفْسُ سَلْمانَ بِيَدِهِ ـ أرْبَعِينَ أُوقِيّةً، فأوْفيتُهُمْ حَقَّهُمْ مِنْها، وعَتَقَ سَلْمانُ، فشَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ الخَنْدَقَ حُرًّا، ثُمَّ لَمْ يَفُتْنِي مَعَهُ مَشْهَدٌ.

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وحَدَّثَنِي يَزِيدُ بنُ أبي حَبِيبٍ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ عَبْدِ القَيْسِ، عَنْ سَلْمانَ، أنَّهُ قالَ: لَمّا قُلْتُ: وأيْنَ تَقَعُ هَذِهِ مِن الَّذي عَلَيَّ يا رَسُولَ الله؟ أخَذَها رَسُولُ الله ﷺ فقَلَّبَها على لِسانِهِ، ثُمَّ قالَ: «خُذْها فأوْفِهِمْ مِنْها»، فأخَذْتها، فأوْفيتهمْ مِنْها حَقَّهُمْ كُلَّهُ؛ أرْبَعِينَ أُوقِيّةً.

[سَلْمانُ والرَّجُلُ الَّذي كانَ يَخْرُجُ بَيْنَ غَيْضَتَيْنِ بِعَمُّورِيّةَ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وحَدَّثَنِي عاصِمُ بنُ عُمَرَ بنِ قَتادةَ، قالَ: حَدَّثَنِي مَنْ لا أتَّهِمُ، عَنْ عُمَرَ بنِ عَبْدِ العَزِيزِ بنِ مَرْوانَ، قالَ: حُدِّثْتُ عَنْ سَلْمانَ الفارِسِيِّ، أنَّهُ قالَ لِرَسُولِ الله ﷺ حِينَ أخْبَرَهُ خَبَرَهُ: إنَّ صاحِبَ عَمُّورِيّةَ قالَ لَهُ: ائْتِ كَذا وكَذا مِنْ أرْضِ الشّامِ؛ فإنَّ بِها رَجُلًا بَيْنَ غَيْضَتَيْنِ يَخْرُجُ في كُلِّ سَنةٍ مِنْ هَذِهِ الغَيْضةِ إلى هَذِهِ الغَيْضةِ مُسْتَجِيزًا، يَعْتَرِضُهُ ذَوُو الأسْقامِ، فلا يَدْعُو لِأحَدٍ مِنْهُمْ إلّا شُفِي، فاسْألْهُ عَنْ هذا الدِّينِ الَّذي تَبْتَغِي؛ فهُوَ يُخْبِرُكَ عَنْهُ.

قالَ سَلْمانُ: فخَرَجْتُ حَتّى أَتَيْتُ حَيْثُ وُصِفَ لِي، فوَجَدْتُ النّاسَ قَدِ اجْتَمَعُوا بِمَرْضاهُمْ هُنالِكَ، حَتّى خَرَجَ لَهُمْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ مُسْتَجِيزًا مِنْ إحْدى الغَيْضَتَيْنِ إلى أُخْرى، فغَشِيَهُ النّاسُ بِمَرْضاهُمْ، لا يَدْعُو لِمَرِيضٍ إلّا شُفي، وغَلَبُونِي عَلَيْهِ، فلَمْ أَخْلُصْ إلَيْهِ حَتّى دَخَلَ الغَيْضَةَ الَّتِي يُرِيدُ أَنْ يَدْخُلَ إلّا مِنْكِبَهِ، قالَ: فتَناوَلْتُهُ، فقالَ: مَنْ هذا؟ والتَفَتَ إلَيَّ، فقُلْتُ: يَرْحَمُكَ الله، أَخْبِرْنِي عَنِ الحَنِيفيةِ دِينِ إبْراهِيمَ، قالَ: إنَّكَ لَتَسْأَلُ عَنْ شَيْءٍ ما يَسْأَلُ عَنْهُ النّاسُ اليَوْمَ، قَدْ أَظَلَّكَ زَمانُ نَبِيٍّ يُبْعَثُ بِهذا الدِّينِ مِنْ أَهْلِ الحَرَمِ، فأْتِهِ؛ فهُوَ يَحْمِلُكَ عَلَيْهِ. قالَ: ثُمَّ دَخَلَ، قالَ: فقالَ رَسُولُ الله ﷺ لِسَلْمانَ: «لَئِنْ كُنْتَ صَدَقْتَنِي يا سَلْمانُ، لَقَدْ لَقِيتَ عِيسى بن مَرْيَمَ» على نَبِيِّنا وعَلَيْهِ السَّلامُ.

فَصْلٌ

وذَكَرَ حَدِيثَ سَلْمانَ بِطُولِهِ، قالَ: «كُنْت مِنْ أَهْلِ إصْبَهانَ» هَكَذا قَيَّدَهُ البَكْرِيُّ[١] في كِتابِ[٢] «المُعْجَمِ» بِالكَسْرِ في الهَمْزَةِ، وإصْبَه بِالعَرَبِيّةِ: فَرَسٌ، وقِيلَ: هُوَ العَسْكَرُ، [فمَعْنى الكَلِمَةِ: مَوْضِعُ العَسْكَرِ][٣] أو الخَيْلِ، أَوْ نَحْو هَذا. ولَيْسَ في حَدِيثِ سَلْمانَ على طُولِهِ إشْكالٌ.

ووقَعَ في الْأَصْلِ [في][٤] هَذا الحَدِيثِ: «فلَمّا رَآنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ

(١) في (ب): «بكسر الهمزة».
(٢) في (ف): «كتابه».
(٣) سقط من (هـ).
(٤) ليس في (ب).

اسْتَدْبَرْتُه»، وألْفيتُ في حاشِيةِ الشّيْخِ: «أسْتَدِيرُ بِهِ» مكانَ «اسْتَدْبَرتُهُ». وكَذلِكَ وقَعَ فيهِ: «أُحْيِيها لَهُ بالفَقِيرِ[(١)]»، وفي حاشِيةِ الشّيْخِ: «الوَجْهُ: التّفْقِيرُ».

والفَقِيرُ لِلنّخْلةِ[(٢)]. يُقالُ لَها في الكَرْمةِ: جَبِيّةٌ، والجمع: جَبايا، وهِيَ الحَفيرةُ، وإذا خَرَجَت النّخْلةُ مِن النّواةِ فهِيَ: غَرِيسةٌ، ثُمّ يُقالُ لَها: وَدِيّةٌ، ثُمّ فَسِيلةٌ، ثُمّ أشَاءةٌ، [فإذا فاتَتِ الْيَدَ فهي: جَبّارةٌ، وهِيَ العَضِيدُ[(٣)]، والكَتِيلةُ، ويُقالُ لِلّتِي لَمْ تَخْرُجْ مِن النّواةِ][(٤)]، لَكِنّها اجْتُثَّتْ مِنْ جَنْبِ أُمّها: قَلْعةٌ وجَثِيثةٌ، وهِيَ الجَثائِثُ والهِراءُ، ويُقالُ لِلنّخْلةِ الطّويلةِ: عَوانةٌ بلُغةِ عَمّانَ، وعَيْدانةٌ بلُغةِ غَيْرِهِمْ، وهِيَ فَيْعالةٌ، مِنْ عَدَنَ بالمَكانِ، واخْتَلَفَ فيها قَوْلُ صاحِبِ كِتابِ «العَيْنِ»[(٥)]، فجَعَلَها تارةً: فَيْعالةً مِنْ عَدَنَ، ثُمّ جَعَلَها في بابِ المُعْتَلّ العَيْنِ فَعْلانةً.

وَمِن الفَسِيلةِ حَدِيثُ أنَسٍ: أنّ رَسولَ الله ﷺ قالَ: «إنْ قامَت السّاعةُ وبِيَدِ أحَدِكُمْ فسِيلةٌ، فاسْتَطاعَ أنْ يَغْرِسَها قَبْلَ أنْ تَقُومَ[(٦)]، فلْيَغْرِسْها»، مِنْ «مُصَنّفِ حَمّادِ بنِ سَلَمةَ»[(٧)].

والّذِي[(٨)] صَحِبَ سَلْمانَ مِن النّصارى كانُوا على الحَقِّ عَلى دِينِ عِيسى

(١) في (ف): «بالقفيز».

(٢) في (أ)، (ب): «النخلة». والفقير: البئر التي تُغرَسُ فيها الفسيلة ثم يُكبَس حولها بالطين والبعر، والجمع: فُقُر، وقد فَقَّر لها تفقيرًا.

(٣) في «اللسان»: «والعضيد: النخلة التي لها جذع يتناول منه المتناول، وجمعه: عِضْدان».

(٤) سقط من (ب).

(٥) لم يقع لي ذلك في «العين». وانظر: «مختصر العين» للزبيدي، مادة: (عون): (١: ١٤٨)، ومادة (عيد): (١: ١٨٧).

(٦) في (أ): «قبل أن تقوم الساعة».

(٧) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٣: ١٨٣-١٨٤، ١٩١).

(٨) في (ج): «والذين».

ابن مَرْيَمَ، وكانُوا(١) يُداوِلُونَهُ سَيِّدًا بَعْدَ سَيِّدٍ.

وذَكَرَ في آخِرِ الحَدِيثِ أَنَّهُ جَمَعَ شَيْئًا، فجاءَ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ لِيَخْتَبِرَهُ: أيَأْكُلُ الصَّدَقَةَ، أم لا؟ فلمْ يَسْأَلْه رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَحُرٌّ أَنْتَ أَمْ عَبْدٌ؟ ولا: مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذا؟ ففي هَذا مِن الفِقْهِ: قَبُولُ الهَدِيَّةِ، وتَرْكُ سُؤالِ المُهْدِي، وكَذَلِكَ الصَّدَقةُ.

وفي الحَدِيثِ: «مَنْ قُدِّم إليه طعامٌ(٢) فلْيَأْكُلْ ولا يَسْأَلْ». وذَكَرَ أَبُو عُبَيْدٍ في كِتابِ «الأمْوالِ» حَدِيثَ سَلْمانَ حُجّةً على مَنْ قالَ: إنّ العَبْدَ لا يَمْلِكُ، [وقالَ](٣): لَوْ كانَ لا(٤) يَمْلِكُ ما قَبِلَ النّبيّ ﷺ هَدِيّتَهُ، ولا قالَ لِأَصْحابِهِ: «كُلُوا صَدَقَتَهُ»(٥).

وذَكَرَ غَيْرُ ابنِ إسْحاقَ في حَدِيثِ سَلْمانَ الوَجْهَ الّذِي جَمَعَ مِنْهُ سَلْمانُ ما أَهْدى لِلنّبِيّ ﷺ، فقالَ: قالَ سَلْمانُ: كُنْت عَبْدًا لِامْرَأَةٍ(٦)، فسَأَلْت سَيّدَتِي أنْ تَهَبَ لِي يَوْمًا، فعَمِلْتُ في ذَلِكَ اليَوْمِ على صاعٍ أو صاعَيْنِ مِنْ تَمْرٍ، وجِئْت بِهِ النّبيّ ﷺ، فلَمّا رَأَيْتُه لا يَأْكُلُ الصّدَقَةَ، سَأَلْتُ سَيّدَتِي أنْ تَهَبَ لِي يَوْمًا آخَرَ، فعَمِلْت فيهِ على ذَلِكَ، ثُمّ جِئْتُ بِهِ هَدِيّةً لِرَسولِ اللهِ ﷺ، فقَبِلَه وأَكَلَ منه، فبيّن في هَذِه الرّوايةِ الوَجْهَ الّذِي جَمَعَ مِنْهُ سَلْمانُ ما ذُكِرَ في حَدِيثِ ابنِ إسْحاقَ. والصّدَقةُ الّتِي قالَ فيها النّبيُّ ﷺ: «لا تَحِلّ لِمُحَمّدٍ، ولا لِآلِ مُحَمّدٍ» هِيَ المَفْرُوضةُ دُونَ التّطَوّعِ، قالَهُ الشّافِعِيّ، غَيْرَ أنّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمْ يَكُنْ تَحِلّ لَهُ صَدَقةُ الفَرْضِ ولا التّطَوّعِ، وهُوَ مَعْنى قَوْلِ مالِكٍ.

---

(١) في (أ)، (ج): «وكانوا ثلاثين يتداولونه». وفي (هـ)، (ب)، (ف): «كانوا ثلاثين يداولونه».

(٢) في (أ)، (هـ): «الطعام».

(٣) ليس في (أ).

(٤) في (ف): «ما».

(٥) انظر: «الأموال» (ص: ٤٦٤).

(٦) في (ج)، (د): «لامرأة من الأنصار».

وَقالَ الثَّوْرِيُّ[1]: لا تَحِلّ الصّدَقةُ لِآلِ مُحَمّدٍ فرْضُها ولا نَفْلُها، ولا لِمَوالِيهِمْ؛ لِأنّ مَوْلى القَوْمِ مِنْ أنْفُسِهِمْ، بِذَلِكَ جاءَ الحَدِيثُ[2]. وقالَ مالِكٌ: تَحِلُّ لِمَوالِيهِمْ، وقالَتْ جَماعةٌ ـ مِنْهُمْ أبو يُوسُفَ ـ: لا تَحِلُّ لِآلِ مُحَمّدٍ صَدَقةُ غَيْرِهِمْ، وتَحِلّ لَهُمْ صَدَقةُ بَعْضِهِمْ على بَعْضٍ، وهم بَنُو هاشِمٍ وبَنو المُطَّلِبِ.

وَقَوْلُ سَلْمانَ: «فأتَيْت رَسُولَ اللهِ ﷺ وهُوَ في جِنازةٍ لبَعْضِ أصْحابِهِ» صاحِبُهُ الّذِي ماتَ في تِلْكَ الأيّامِ هو: كُلْثُومُ بنُ الهِدْمِ الّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ النّبِيُّ ﷺ حينَ قدِمَ الْمَدِينةَ. قالَ الطّبَرِيّ: أوّلُ مَنْ ماتَ مِنْ أصْحابِ النّبِيّ ﷺ [بَعْدَ قُدُومِهِ المَدِينةَ بِأيّامٍ قَلِيلةٍ][3] كُلْثُومُ بنُ الهِدْمِ، ثُمّ ماتَ بَعْدَهُ أسْعَدُ بنُ زُرارةَ.

فَصْلٌ

وذَكَرَ ابنُ إسْحاقَ في مُكاتَبةِ سَلْمانَ: أنّهُ فقّرَ لِثَلاثِ مئة وَدِيّةٍ[4]؛ أيْ: حَفَرَ، وأنّ رَسُولَ اللهِ ﷺ وضَعَها كُلّها بيَدِهِ، فلَمْ تَمُتْ مِنْها وَدِيّةٌ واحِدةٌ. وذَكَرَ البُخارِيُّ حَدِيثَ سَلْمانَ كَما ذَكَرَهُ ابنُ إسْحاقَ، غَيْرَ أنّهُ ذَكَرَ أنّ سَلْمانَ غَرَسَ بِيَدِهِ وَدِيّةً واحِدةً، وغَرَسَ رَسُولُ الله ﷺ سائِرَها، فعاشَتْ كُلّها إلّا الّتِي غَرَسَ سَلْمانُ. هَذا مَعْنى حَدِيثِ البُخارِيِّ[5].

فَصْلٌ

وذَكَرَ عَنْ داوُدَ بنِ الحُصَيْنِ، قالَ: حَدّثَنِي مَنْ لا أتّهِمُ، عَنْ عُمَرَ بنِ عَبْدِ العَزِيزِ،

(١) في (أ)، (ج): «النووي».
(٢) (أ): «منهم»، والحديث أخرجه البخاري في كتاب الفرائض، انظر «فتح الباري» (١٢: ٤٨).
(٣) مكانه في (أ): «حين قدم المدينة».
(٤) في (أ): «للثلاث مئة». والوَدِيُّ: صغار النخل.
(٥) لم نقف عليه في مصنفات البخاري. (ج)

قالَ[١]: قالَ سَلْمانُ لِلنّبِيّ ﷺ... وذَكَرَ حديثَ الرَّجُلِ الّذِي كانَ يَخْرُجُ مُسْتَجِيزًا مِنْ غَيْضةٍ إلى غَيْضةٍ، ويَلْقاهُ النّاسُ بِمَرْضاهُمْ، فلا يَدْعُو لِمَرِيضٍ إلّا شُفيَ، وأنّ النّبِيّ ﷺ قالَ: «إنْ كُنْتَ صَدَقْتَنِي يا سَلْمانُ، فقَدْ رأيتَ عِيسى بن مَرْيَمَ».

إسْنادُ هَذا الحَدِيثِ مَقْطُوعٌ، وفيهِ رَجُلٌ مَجْهُولٌ، ويُقالُ: إنّ ذَلِكَ الرّجُلَ هُوَ الحَسَنُ بنُ عُمارةَ، [والحسنُ بنُ عُمارة][٢] ضَعِيفٌ بِإجْماعٍ مِنْهُمْ، وإنْ صَحَّ الحَدِيثُ، فلا نَكارةَ في مَتْنِهِ؛ فقَدْ ذَكَرَ الطّبَرِيّ أنّ المَسِيحَ عَلَيْهِ السّلامُ نَزَلَ بعدما رُفِعَ، وأُمّهُ وامْرَأةٌ أُخْرى عِنْدَ الجِذْعِ الّذِي فيهِ الصّلِيبُ تَبْكِيانِ، فكَلّمَهُما، وأخْبَرَهُما أنّهُ لَمْ يُقتَلْ، وَأَنّ الله رفَعَه، وأرْسَلَ إلى الحَوارِيّينَ، ووَجّهَهُمْ إلى البِلادِ، وإذا جازَ أنْ يَنْزِلَ مَرّةً جازَ أنْ يَنْزِلَ مِرارًا، ولَكِنْ لا يُعْلَمُ أنّهُ هُوَ حَتّى يَنْزِلَ النّزُولَ الظّاهِرَ، فيَكْسِرَ الصّلِيبَ، ويَقْتُلَ الخِنْزِيرَ، كَما جاءَ في الصّحِيحِ[٣].

ويُرْوى: أنّهُ إذا نَزَلَ يتَزَوّجُ امْرَأةً مِنْ جُذامٍ، ويُدْفَنُ إذا ماتَ في الرّوْضةِ الّتِي فيها النّبيُّ ﷺ.

* * *

(١) كذا، والذي في مطبوعة «السيرة»: «حُدثتُ عن سلمان الفارسيّ».

(٢) سقط من (أ)، (هـ)، (ف).

(٣) أخرجه الشيخان، «فتح الباري»، كتاب المظالم: (٥: ١٢١)، ومسلم، كتاب الإيمان: (١: ١٣٥).

ذِكْرُ ورَقةَ بنِ نَوْفَلِ بنِ أسَدِ بنِ عَبْدِ العُزّى وعُبَيْدِ الله بنِ جَحْشٍ وعُثْمانَ بنِ الحُوَيْرِثِ وزَيْدِ بنِ عَمْرِو بنِ نُفيلٍ

[بَحْثُهُمْ في الأدْيانِ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: واجْتَمَعَتْ قُرَيْشٌ يَوْمًا في عِيدٍ لَهُمْ عِنْدَ صَنَمٍ مِنْ أصْنامِهِمْ كانُوا يُعَظِّمُونَهُ ويَنْحَرُونَ لَهُ، ويَعْكُفُونَ عِنْدَهُ، ويُدِيرُونَ بِهِ، وكانَ ذلك عِيدًا لَهُمْ في كُلِّ سَنةٍ يَوْمًا، فخَلَصَ مِنْهُمْ أرْبَعةُ نَفرٍ نَجِيًّا، ثُمَّ قالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: تَصادَقُوا ولْيَكْتُمْ بَعْضُكُمْ على بَعْضٍ، قالُوا: أجَلْ. وهُمْ: ورَقةُ بنُ نَوْفَلِ بنِ أسَدِ بنِ عَبْدِ العُزّى بنِ قُصَيِّ بنِ كِلابِ بنِ مُرّةَ بنِ كَعْبِ ابنِ لُؤَيٍّ، وَعُبَيْدُ الله بنُ جَحْشِ بنِ رِئابِ بنِ يَعْمَرَ بنِ صَبِرةَ بنِ مُرّةَ بنِ كَبِيرِ بنِ غَنْمِ بنِ دُودانَ بنِ أسَدِ بنِ خُزَيْمةَ، وكانَتْ أُمُّهُ أُمَيْمةَ بِنْتَ عَبْدِ المُطَّلِبِ، وعُثْمانُ بنُ الحُوَيْرِثِ بنِ أسَدِ بنِ عَبْدِ العُزّى بنِ قُصَيٍّ، وزَيْدُ بنُ عَمْرِو بنِ نُفيلِ بن عَبْدِ العُزّى بنِ عَبْدِ الله بنِ قُرْطِ بنِ رِياحِ ابنِ رِزاحِ بنِ عَدِيِّ بنِ كَعْبِ بن لُؤَيٍّ، فقالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: تَعَلَّمُوا ـ والله ـ ما قَوْمُكُمْ على شَيْءٍ! لَقَدْ أخْطَؤُوا دِينَ أبِيهِمْ إبْراهِيمَ! ما حَجَرٌ نُطِيفُ بِهِ، لا يَسْمَعُ ولا يُبْصِرُ، ولا يَضُرُّ ولا يَنْفَعُ؟! يا قَوْمِ التَمِسُوا لِأنْفُسِكُمْ دِينًا؛ فإنَّكُمْ ـ والله ـ ما أنْتُمْ على شَيْءٍ. فتَفَرَّقُوا في البُلْدانِ يَلْتَمِسُونَ الحَنِيفيةَ دِينَ إبْراهِيمَ.

[ما وصَلَ إلَيْهِ ورَقةُ وابنُ جَحْشٍ]

فَأمّا ورَقةُ بنُ نَوْفَلٍ فاسْتَحْكَمَ في النَّصْرانِيّةِ، واتَّبَعَ الكُتُبَ مِنْ أهْلِها، حَتّى عَلِمَ عِلْمًا مِنْ أهْلِ الكِتابِ، وأمّا عُبَيْدُ الله بنُ جَحْشٍ، فأقامَ على ما هُوَ عَلَيْهِ مِن الِالتِباسِ حَتّى أسْلَمَ، ثُمَّ هاجَرَ مَعَ المُسْلِمِينَ إلى الحَبَشةِ، ومَعَهُ امْرَأتُهُ أُمُّ حَبِيبةَ بِنْتُ أبي سُفيانَ مُسْلِمةً، فلَمّا قَدِمَها تَنَصَّرَ، وفارَقَ الإسْلامَ، حَتّى هَلَكَ هُنالِكَ نَصْرانِيًّا.

[ما كانَ يَفْعَلُهُ ابنُ جَحْشٍ بَعْدَ تَنَصُّرِهِ بِمُسْلِمِي الحَبَشةِ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: فحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بنُ جَعْفَرِ بنِ الزُّبَيْرِ، قالَ: كانَ عُبَيْدُ الله ابن جَحْشٍ حِينَ تَنَصَّرَ يَمُرُّ بِأصْحابِ رَسُولِ الله ﷺ وهُمْ هُنالِكَ مِنْ أرْضِ الحَبَشةِ، فيقُولُ: فقَّحْنا وصَأْصَأْتُمْ، أيْ أبْصَرْنا وأنْتم تَلْتَمِسُونَ البَصَرَ، وَلَمْ تُبْصِرُوا بَعْدُ. وذلك أنَّ ولَدَ الكَلْبِ إذا أرادَ أنْ يَفْتَحَ عَيْنَيْهِ لِيَنْظُرَ، صَأْصَأَ لِيَنْظُرَ. وقَوْلُهُ: «فقَّحَ»: فتَّحَ عَيْنَيْهِ.

[زَواجُ رَسُولِ الله ﷺ مِن امْرَأةِ ابنِ جَحْشٍ بَعْدَ مَوْتِهِ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وخَلَفَ رَسُولُ الله ﷺ بَعْدَهُ على امْرَأتِهِ أُمِّ حَبِيبةَ بِنْتِ أبي سُفيانَ بنِ حَرْبٍ.

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بنُ عَلِيِّ بنِ حُسَيْنٍ، أنَّ رَسُولَ الله ﷺ بَعَثَ فيها إلى النَّجاشِيِّ عَمْرَو بنَ أُمَيّةَ الضَّمْرِيَّ، فخَطَبَها عَلَيْهِ النَّجاشِيُّ، فزَوَّجَهُ إيّاها، وأصْدَقَها عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أرْبَعَ مئةِ دِينارٍ، فقالَ مُحَمَّدُ بنُ عَلِيٍّ: ما نَرى عَبْدَ المَلِكِ بنَ مَرْوانَ وقَفَ صَداقَ النِّساءِ على أرْبَعِ مئةِ دِينارٍ إلّا عَنْ ذلك. وكانَ الَّذي أمْلَكَها النَّبِيَّ ﷺ خالِدُ بنُ سَعِيدِ بنِ العاصِ.

[تَنَصُّرُ ابنِ الحُوَيْرِثِ، وذَهابُهُ إلى قَيْصَرَ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وأمّا عُثْمانُ بنُ الحُوَيْرِثِ فقَدِمَ على قَيْصَرَ مَلِكِ الرّوم، فتنصّر وحسُنَت مَنْزِلَتُهُ عِنْدَهُ.

قالَ ابنُ هِشامٍ: ولِعُثْمانَ بنِ الحُوَيْرِثِ عِنْدَ قَيْصَرَ حَدِيثٌ، مَنَعَنِي مِنْ ذِكْرِهِ ما ذَكَرْتُ في حَدِيثِ حَرْبِ الفِجارِ.

[زَيْدُ بنُ عَمْرٍو وما وصَلَ إلَيْهِ، وشَيْءٌ عَنْهُ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وأمّا زَيْدُ بنُ عَمْرِو بنِ نُفيلٍ، فوَقَفَ فلَمْ يَدْخُلْ في يَهُودِيّةٍ ولا نَصْرانِيّةٍ، وفارَقَ دِينَ قَوْمِهِ، فاعْتَزَلَ الأوْثانَ والمَيْتَةَ والدَّمَ والذَّبائِحَ الَّتِي تُذْبَحُ على الأوْثانِ، ونَهى عَنْ قَتْلِ المَوْؤُودةِ، وقالَ: أعْبُدُ رَبَّ إبْراهِيمَ، وبادى قَوْمَهُ بِعَيْبِ ما هُمْ عَلَيْهِ.

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وحَدَّثَنِي هِشامُ بنُ عُرْوَةَ، عَنْ أبيهِ، عَنْ أُمِّهِ أسماءَ بِنْتِ أبي بَكْرٍ رَضِيَ الله عَنْهُما، قالَتْ: لَقَدْ رَأيْتُ زَيْدَ بنَ عَمْرِو بنِ نُفيلٍ شَيْخًا كَبِيرًا، مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إلى الكَعْبةِ وهُوَ يَقُولُ: يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، والَّذِي نَفْسُ زَيْدِ بن عَمْرٍو بِيَدِهِ، ما أصْبَحَ مِنْكُمْ أحَدٌ على دِينِ إبْراهِيمَ غَيْرِي، ثُمَّ يَقُولُ: اللهُمَّ لَوْ أنِّي أعْلَمُ أيَّ الوُجُوهِ أحَبُّ إلَيْكَ عَبَدْتُكَ بِهِ، ولَكِنِّي لا أعْلَمُهُ، ثُمَّ يَسْجُدُ على راحَتِهِ.

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وحُدِّثْتُ أنَّ ابنَهُ سَعِيدَ بنَ زَيْدِ بنِ عَمْرِو بنِ نُفيلٍ، وعُمَرَ بنَ الخَطّابِ ـ وهُوَ ابنُ عَمِّهِ ـ قالا لرَسُول الله ﷺ: أنستغفر لِزَيْدِ بنِ عَمْرٍو؟ قالَ: «نَعَمْ؛ فإنَّهُ يُبْعَثُ أُمّةً وحْدَهُ».

فَصْلٌ

وذَكَرَ حَدِيثَ ورَقَةَ بنِ نَوْفَلٍ، وعُبَيْدِ اللهِ بنِ جَحْشٍ، وعُثمانَ بْنِ الحُوَيْرِثِ، وزَيْدِ بنِ عَمْرِو بنِ نُفَيْلٍ وما تَناجَوا به، وقال: «زَيدُ بْنُ عمْرِو بنِ نُفَيْلٍ» إلى آخِرِ النّسَبِ، والمَعْرُوفُ في نَسَبِهِ ونَسَبِ ابنِ عَمّهِ عُمَرَ بنِ الخَطّابِ: نُفَيْلُ بنُ رِياحِ ابنِ عَبْدِ اللهِ بنِ قُرْطِ بن رِزاحٍ؛ بتَقديمِ رِياحٍ عَلى عَبْدِ اللهِ[١]، ورِزاحٌ بِكَسْرِ الرّاءِ [قَيّدَهُ الشّيْخُ أبُو بَحْرٍ، وزَعَمَ الدّارَقُطْنِيّ أنّهُ رَزاحٌ [بالفَتْحِ، وإنّما رِزاحٍ بِكَسْرِ الرّاء[٢]: رِزاحُ][٣] بنُ رَبِيعةَ أخُو قُصَيّ لِأُمّهِ الّذِي تَقَدّمَ ذِكْرُهُ.

وَأُمُّ زَيْدٍ هِيَ: الجَيْداءُ[٤] بِنْتُ خالِدٍ الفَهْمِيّةُ، وهِيَ امْرَأةُ جَدّهِ نُفَيْلٍ، ولَدَتْ لَهُ الخَطّابَ، [فهُوَ أخُو الخَطّابِ][٥] لِأُمّهِ وابنُ أخِيهِ، وكانَ ذَلِكَ مُباحًا في الجاهِلِيّةِ بِشَرْعٍ مُتَقَدّمٍ، ولَمْ تَكُنْ[٦] مِن الحُرُماتِ الّتِي انْتَهَكُوها[٧]، ولا مِن العَظائِمِ الّتِي ابْتَدَعُوها[٨]؛ لِأَنّهُ أمْرٌ كانَ في عَمُودِ نَسَبِ رَسُولِ الله ﷺ، فكِنانةُ[٩] تَزَوّجَ امْرَأةَ أبِيهِ خُزَيْمةَ، وهِيَ بَرّةُ بِنْتُ مُرٍّ[١٠]، فوَلَدَتْ لَهُ النّضْرَ بنَ كِنانةَ، وهاشِمٌ أيْضًا قَدْ

---

(١) انظر: «جمهرة أنساب العرب» لابن حزم: (ص: ١٥٠).

(٢) «المؤتلف والمختلف» (٢: ٩٩١-٩٩٢).

(٣) سقط من (أ)، (هـ).

(٤) في (هـ): «الحنداء».

(٥) مكانه في (أ): «أخاه».

(٦) في (ف): «ولم يكن».

(٧) في (أ): «ارتكبوها».

(٨) في (أ): «ابتغوها».

(٩) في (أ): «وكنانة».

(١٠) في (أ)، (هـ): «مرّة». انظر: «جمهرة النسب» للكلبي: (ص: ٢١).

تَزَوّجَ امْرَأَةَ أَبيهِ واقِدةَ، فوَلَدَتْ لَهُ ضَعِيفةَ، ولَكِنْ هذا خارِجٌ عَنْ عَمُودِ نَسَبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ لأنها لمْ تَلِدْ جَدًّا لَهُ، أعْنِي: واقِدةَ.

وقَدْ قالَ ﷺ[1]: «أنا مِنْ نِكاحٍ، لا مِنْ سِفاحٍ»؛ ولِذَلِكَ قالَ[2] سُبْحانَهُ: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [النّساء: ٢٢]؛ أيْ: إلّا ما[3] سَلَفَ مِنْ تَحْلِيلِ ذَلِكَ قَبْلَ الإسْلامِ. وفائِدةُ هَذا الاِسْتِثْناءِ: ألّا يُعابَ نسَبُ رَسولِ الله ﷺ، ولِيُعْلَمَ أنّهُ لَمْ يَكُنْ في أجْدادِهِ مَنْ كان لِغَيّةٍ[4] ولا مِنْ سِفاحٍ. أَلا تَرى أنّهُ لَمْ يَقُلْ في شَيْءٍ نُهِيَ عَنْهُ في القُرْآنِ: إلّا ما قَدْ سَلَفَ، نَحْوَ قولِه: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ [الإسراء: ٣٢]، ولَمْ يَقُلْ: إلّا ما قَدْ سَلَفَ، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام: ١٥١]، ولَمْ يَقُلْ: إلّا ما قَدْ سَلَفَ، ولا في شَيْءٍ مِن المَعاصِي الّتِي[5] نُهِيَ عَنْها إلّا في هَذِهِ[6]، وفي الجَمْعِ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ؛ [لِأنّ الجَمْعَ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ][7] قَدْ كانَ مُباحًا أيْضًا في شَرْعِ مَنْ قَبْلَنا. وقَدْ جَمَعَ يَعْقُوبُ بَيْنَ راحِيلَ وأُخْتِها لِيّا[8]، فقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ التِفاتةٌ إلى هَذا المَعْنى، وتَنْبِيهٌ على هَذا المَغْزى.

---

(١) رواه ابن مردويه، وابن سعد، وابن عساكر. انظر: «سبل الهدى والرشاد» (١: ٢٧٧).

(٢) بعده في (ف): «الله».

(٣) بعده في (ف): «قد».

(٤) يقال: هو لِغَيّةٍ ـ بالفتح وبالكسر ـ أي لزِنْيةٍ، وهو نقيض قولك: لِرِشْدةٍ، والكسر قليل.

(٥) في (أ): «المنهي عنها».

(٦) بعده في (ف): «الآية».

(٧) سقط من (ب).

(٨) كذا في الأصول. وفي «المعارف» (ص: ٤٠): «لايا»، وفي «جمهرة ابن حزم» (ص: ٥٠٤): «لياء».

وهَذِهِ النّكْتةُ لُقِّنْتُها مِنْ شَيْخِنا الإمامِ الحافِظِ أَبِي بَكْرٍ مُحَمّدِ بنِ العَرَبِيِّ أرضاهُ الله.

وزَيْدٌ هذا هو: والدُ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ أحَدِ العَشَرةِ الّذِينَ شُهِدَ لَهُمْ بِالجَنّةِ. وأمُّ سَعيدٍ: فاطمةُ بْنتُ بعجةَ بنِ خَلَفٍ الخُزاعِيِّ[1].

وَذَكَـرَ قَـوْلَ عُبيدِ اللهِ بنِ جَحْشٍ حِيـنَ تَنَصّـرَ بأرضِ الحَبَشـةِ: «فقّحْنـا وصَأْصَأْتم»، وشرَح «فقّحنا» بقوله: «فقّحَ الجَرْوُ؛ إذا فتَحَ عَيْنَيْهِ»، وهَكَذا ذَكَرَ أَبُو عُبَيْدٍ[2]، وزادَ: جَصّصَ أيْضًا، وذَكَرَ أَبُو عُبَيْدٍ: بَصّصَ بِالباءِ، حَكاها عَنْ أَبِي زَيْدٍ، وقالَ القالِيّ: إنّما رَواهُ البَصْرِيّونَ عَنْ أَبِي زَيْدٍ: «يصص»، بِياءٍ مَنْقُوطةٍ بِاثْنَتَيْنِ؛ لِأنّ الياءَ تُبْدَلُ مِن الجِيمِ كَثِيرًا[3]، كَما تَقُولُ: إيّلٌ[4] وإجّلٌ، ولِرِوايةِ أَبِي عُبَيْدٍ وجْهٌ، وهُوَ أنْ يَكُونَ «بَصّصَ» مِن البَصِيصِ، وهُوَ البَرِيقُ، واللهُ أعلمُ.

فَصْلٌ

وذَكَرَ عُثْمـانَ بنَ الحُوَيْرِثِ مَعَ زَيْـدٍ ووَرَقَةَ وعُبَيْدِ اللهِ بنِ جَحْشٍ، ثُمّ قالَ: «وأمّا عُثْمانُ بنُ الحُوَيْرِثِ فإنّهُ ذَهَبَ إلى الشّامِ، ولَهُ فيها مَعَ قَيْصَرَ خَبَرٌ عجيبٌ»، ولَمْ يَذْكُرْ ذَلِكَ الخَبَرَ، وقالَ البَرْقِيُّ عَن ابنِ إسْحاقَ: إنّ عُثْمانَ بنَ الحُوَيْرِثِ قَدِمَ على قَيْصَرَ، فقالَ لَهُ: إنّي أجْعَلُ لَك خَرْجًا على قُرَيشٍ إنْ جاؤُوا الشّامَ بِتِجارَتِهِمْ، وإلّا مَنَعْتَهُمْ، فأرادَ قَيْصَرُ أنْ يَفعَلَ، فخرَجَ سَعيدُ بنُ العاصي

---

(١) في «جمهرة النسب» للكلبي: (ص: ١٠٦): «بعجة بن مليح»، ومثله في «المؤتلف والمختلف» للدارقطني: (٤: ٢٠٤٨)، و«أسد الغابة» (٢: ٣٨٧).

(٢) «غريب الحديث» (٤: ٣٣٨، ٤٨٧). وانظر: «التقفية» لأبي بشر اليمان البَنْدَنِيجي: (ص: ٨٩).

(٣) انظر: «اللسان» (بَصص، ويصص).

(٤) الإيَّل كقِنَّب، وخُلَّب، وسيِّد: الوعل.

ابْنِ أُمَيَّةَ وأبُو ذِئْبٍ[١] ـ وهُوَ: هِشامُ بنُ شُعْبَةَ بنِ عَبْدِ اللهِ بنِ أَبِي قَيْسِ بنِ عبْدِ وُدّ ابنِ نَصْرِ بنِ مالِكِ بنِ حِسْلِ بنِ عامِرٍ ـ إلى الشّامِ، فأُخِذا فحُبِسا، فماتَ أبُو ذِئْبٍ في الحَبْسِ، وأمّا سَعِيدُ بنُ العاصِي فإنّهُ خَرَجَ الوَلِيدُ بنُ المُغِيرةَ، وبنو أُمَيّةَ فتَخَلّصُوهُ، في حَدِيثٍ طَوِيلٍ، رَواهُ ابنُ إسْحاقَ، عنْ يَعْقُوبَ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ الْمُغيرةِ بْنِ الأخْنَسِ.

وأبُو ذِئْبٍ الّذِي ذُكِرَ هُوَ: جَدُّ الْفَقيهِ مُحمَّدِ بْنِ عبْدِ الرحمنِ [بْنِ المُغِيرةِ بنِ الحارِثِ بنِ أَبِي ذِئْبٍ، يُكَنّى: أبا الحارِثِ[٢]، مِنْ فُقَهاءِ المَدِينةِ، وأُمّهُ بُرَيْهةُ بِنْتُ عَبْدِ الرّحْمَنِ][٣] بنِ أَبِي ذِئْبٍ، وأمّا الزُّبَيرُ فذكَرَ أنَّ قَيصَرَ كانَ قَدْ تَوّجَ عُثْمانَ، ووَلّاهُ أمْرَ مَكّةَ، فلَمّا جاءَهُمْ بِذَلِكَ أَنِفُوا مِنْ أنْ يَدِينُوا لِمَلِكٍ، وصاحَ الأسْوَدُ ابنُ أَسَدِ بنِ عَبْدِ العُزّى: أَلا إِنَّ مَكّةَ حَيٌّ لَقاحٌ[٤] لا تَدِينُ لِمَلِكٍ، فلَمْ يَتِمَّ لَهُ مُرادُهُ، قالَ: وكانَ يُقالُ لَهُ: البِطْرِيقُ، ولا عَقِبَ لَهُ، وماتَ بِالشّامِ مَسْمُومًا، سَمّهُ عَمْرُو بنُ جَفْنَةَ الْغَسّاني المَلِكُ[٥].

فصْلٌ

وذَكَرَ اعْتِزالَ زَيْدٍ الأوْثانَ، وتَرْكَهُ طَواغِيتَهُمْ، وتَرْكَهُ أَكْلَ ما نَحَرُوا للنُّصُبِ. ورَوى البُخارِيُّ عَنْ مُحَمّدِ بن أبي بَكْرٍ، قالَ: حدّثنا فُضَيْلُ بنُ سُلَيْمانَ، قالَ:

(١) في «جمهرة ابن حزم» (ص: ١٦٨): «أبو ذؤيب»، ووردت هكذا في (ج) وحدها في ثلاثة مواضع، والصواب ما أثبت. انظر: «جمهرة النسب» للكلبي: (ص: ١١٠).
(٢) انظر: ترجمة أبي الحارث في «سير أعلام النبلاء» للذهبي: (٧: ١٣٩).
(٣) سقط من (أ).
(٤) قوم لَقاح: لم يدينوا للملوك، ولم يُملَكوا، ولم يصبهم في الجاهلية سِباء.
(٥) انظر: «نسب قريش» لمصعب الزبيري: (ص: ٢٠٩-٢١٠). وقصة عثمان بن الحارث في «المنمق» (ص: ١٥٤) وما بعدها.

حَدَّثَنا مُوسى [بنُ عُقبةَ](١)، قَال: حَدَّثَني سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، [عَنْ عَبْدِ اللهِ](٢) ابنِ عُمَرَ: أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ لَقِيَ زَيدَ بْنَ عَمْرِو بنِ نُفَيْلٍ بِأَسْفَلِ بَلْدَحَ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ على النَّبِيِّ ﷺ الوَحْيُ، فقُدِّمَتْ إلى النَّبِيِّ ﷺ سُفْرةٌ(٣)، أَوْ قَدَّمَها إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، فأبى أَنْ يَأْكُلَ مِنْها، ثُمّ قالَ زَيْدٌ: إِنِّي لَسْتُ آكُلُ ما تَذْبَحُونَ على أَنْصابِكُمْ، ولا آكُلُ إِلّا ما ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ. وأَنَّ زَيْدَ بنَ عَمْرِو بنِ نُفَيْلٍ كانَ يَعِيبُ على قُرَيْشٍ ذَبائِحَهُمْ، ويَقُولُ: الشّاةُ خَلَقَها اللهُ، وأَنْزَلَ لَها مِن السّماءِ الماءَ، وأَنْبَتَ لَها مِن الأَرْضِ الكَلأَ، ثُمّ تَذْبَحُونَها على غَيْرِ اسْمِ اللهِ؟! إِنْكارًا لِذَلِك، وإِعْظامًا لَهُ(٤).

قالَ مُوسى: حَدّثني(٥) سالِمُ بنُ عَبْدِ اللهِ، ولا أَعْلَمُ(٦) إلّا(٧) يُحدِّثُ بِهِ عَن ابنِ عُمَرَ: أَنَّ زَيْدَ بنَ عَمْرِو بنِ نُفَيْلٍ خَرَجَ إلى الشّام يَسْأَلُ عن الدِّينِ، ويَتبعُهُ، فلَقِيَ عالِمًا مِن اليَهُودِ فسَأَلَهُ عَنْ دِينِهِمْ، وقالَ لَهُ: إِنّي لَعَلِّي أَنْ أَدِينَ بِدِينِكُمْ، فأَخْبِرْنِي(٨)، فقالَ: لا تَكُونُ على دِينِنا حَتّى تَأْخُذَ بِنَصِيبِك مِنْ غَضَبِ اللهِ، قالَ زَيْدٌ: ما أَفِرُّ إلّا مِنْ غَضَبِ اللهِ، ولا أَحْمِلُ مِنْ غَضَبِ اللهِ شَيْئًا أَبدًا، وأَنّى أَسْتَطِيعُهُ؟! فهَلْ تَدُلُّنِي على غَيْرِهِ؟ قالَ: ما أَعْلَمُهُ إلّا أَنْ تَكُونَ حَنِيفًا، قالَ: وما الحَنِيفُ؟ قالَ: دِينُ إِبْراهِيمَ، لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا ولا نَصْرانِيًّا، ولا يَعْبُدُ

---

(١) عن (ب).

(٢) سقط من (أ)، (ج).

(٣) السفرة: طعام يتخذه المسافر.

(٤) «فتح الباري»، كتاب مناقب الأنصار: (٧: ١٤٢).

(٥) في (ف): «عن».

(٦) في (ب): «فلا أعلمه». وفي «البخاري»: «ولا أعلمه».

(٧) في (ف): «إلا أنه».

(٨) في غير (ب): «فأخبروني».

إلّا اللهَ، فخَرَجَ زَيْدٌ فلَقِيَ عالِمًا مِن النّصارى، فذَكَرَ مِثْلَهُ، فقالَ: لَنْ تكُونَ على دِينِنا حَتّى تَأْخُذَ بنَصِيبِك مِنْ لَعْنةِ اللهِ، قالَ: ما أفِرُّ إلّا مِنْ لَعْنةِ اللهِ، ولا أحْمِلُ مِنْ لَعْنةِ اللهِ ولا مِنْ غَضَبِهِ شَيْئًا أبَدًا، وأنّى أسْتَطِيعُ[١]؟! فهَلْ تَدُلُّنِي على غَيْرِهِ؟ قالَ: ما أعْلَمُه إلّا أن تكُونَ حَنِيفًا، قالَ: وما الحَنِيفُ؟ قالَ: دِينُ إبْراهِيمَ، لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا ولا نَصْرانِيًّا، ولا يَعْبُدُ إلّا اللهَ. فلَمّا رَأى زَيْدٌ قَوْلَهُمْ في إبْراهِيمَ خَرَجَ، فلَمّا بَرَزَ رَفَعَ يَدَيْهِ، فقالَ: اللهُمّ إنّي أُشْهِدُك أنّي على دِينِ إبْراهِيمَ[٢].

وقالَ اللّيْثُ: كَتَبَ إلَيّ هِشامُ بنُ عُرْوةَ، عَنْ أبِيهِ، عَنْ أسْماءَ بِنْتِ أبِي بَكْرٍ الصّدّيقِ قالَتْ: رَأيْت زَيْدَ بنَ عَمْرِو بنِ نُفَيْلٍ قائِمًا مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إلى الكَعْبةِ، يَقُولُ: يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، واللهِ ما مِنْكُمْ على دِينِ إبْراهِيمَ غَيْرِي، وكان يُحْيي المَوْؤُودةَ، يَقُولُ لِلرّجُلِ إذا أرادَ أنْ يَقْتُلَ ابنَتَهُ: لا تَقْتُلْها، أنا أكْفِيك مُؤنَتَها، فيَأْخُذُها، فإذا تَرَعْرَعَتْ قالَ لِأبِيها: إنْ شِئْتَ دَفَعْتُها إليكَ، وإنْ شِئْتَ كَفَيْتُك مُؤنَتَها[٣]. إلى ههُنا انْتَهى حَدِيثُ البُخارِيّ.

وَفيهِ سُؤالٌ [يُقالُ][٤]: كَيْفَ وفّقَ اللهُ زَيْدًا إلى تَرْكِ أكْلِ ما ذُبِحَ على النُّصُبِ، وما لَمْ يُذْكَر اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ، ورَسُولُ اللهِ ﷺ كانَ أوْلى بِهَذِهِ الفَضِيلةِ في الْجاهِلِيّةِ؛ لِمَا ثَبَتَ مِن عِصْمةِ الله لَهُ؟

فالجَوابُ مِنْ وجْهَيْنِ:

---

(١) في (ب): «أستطيعه».
(٢) «فتح الباري»، كتاب مناقب الأنصار: (٧: ١٤٢).
(٣) «فتح الباري»، كتاب مناقب الأنصار: (٧: ١٤٣).
(٤) عن (أ)، (هـ)، (ج).

[أَحَدُهُما][(١)]: أَنَّهُ لَيْسَ في الحَدِيثِ حِينَ لَقِيَهُ بِبَلْدَحَ فقُدِّمَتْ إِلَيْهِ السُّفْرَةُ: أَنَّ رسولَ الله ﷺ أَكَلَ مِنْها، وإِنّما في الحَدِيثِ أَنّ زَيْدًا قالَ حِينَ قُدِّمَت السُّفْرَةُ: لا آكُلُ مِمّا لَمْ يُذْكَر اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ.

الجَوابُ الثّانِي: أَنّ زَيْدًا إنّما فَعَلَ ذلك بِرأْيٍ رَآهُ، لا بِشَرْعٍ مُتَقَدِّمٍ، وإِنّما تَقَدَّمَ شَرْعُ إِبْراهِيمَ عليهِ السّلامُ بِتَحْرِيمِ المَيْتَةِ، لا بِتَحْرِيمِ ما ذُبِحَ لِغَيْرِ اللهِ، وإِنّما نَزَلَ تَحْرِيمُ ذَلِكَ في الإسْلامِ، وبَعْضُ الأُصُولِيِّينَ يَقُولُونَ: الأَشْياءُ قَبْلَ وُرُودِ الشَّرْعِ على الإِباحةِ، فإِنْ قُلْنا بِهَذا، وقُلْنا: إِنّ رسولَ الله ﷺ كانَ يَأْكُلُ مِمّا ذُبِحَ على النُّصُبِ، فإنّما[(٢)] فعَلَ[(٣)] أَمْرًا مُباحًا، وإِنْ كانَ لا يَأْكُلُ مِنْها فَلا إِشْكالَ، وإِنْ قُلْنا أَيْضًا: إِنّها لَيْسَتْ عَلى الإِباحةِ، ولا عَلى التَّحْرِيمِ - وهُوَ الصَّحِيحُ - فالذَّبائِحُ خاصّةً لَها أَصْلٌ في تَحْلِيلِ الشَّرْعِ المُتَقَدِّمِ، كالشّاةِ والبَعِيرِ، ونَحْوِ ذَلِكَ، مِمّا أَحَلَّهُ اللهُ تَعالى في دِينِ مَنْ كانَ قَبْلَنا، ولَمْ يَقْدَحْ في ذَلِكَ التَّحْلِيلِ المُتَقَدِّمِ ما ابْتَدَعُوهُ حَتّى جاءَ الإِسْلامُ، وأَنْزَلَ اللهُ سُبْحانَهُ: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ [الأنعام: ١٢١].

أَلا تَرى كَيْفَ بَقِيَتْ ذَبائِحُ أَهْلِ الكِتابِ عِنْدَنا على أَصْلِ التَّحْلِيلِ بِالشَّرْعِ المُتَقَدِّمِ، ولَمْ يَقْدَحْ في التَّحْلِيلِ ما أَحْدَثُوه مِن الكُفْرِ، وعِبادةِ الصُّلْبانِ؟ فكَذَلِكَ كانَ ما ذَبَحَهُ أَهْلُ الأَوْثانِ مُحَلَّلًا بِالشَّرْعِ المُتَقَدِّمِ، حَتّى خَصّهُ اللهُ[(٤)] بالتَّحريمِ.

---

(١) ليست في (ب).

(٢) في (ف): «وإنما».

(٣) في (أ): «كان يفعل».

(٤) في (ج)، (د): «خصه القرآن».

فَصْلٌ

وذكَرَ خبَرَ المَوْؤُودةِ، وَما كانَ زَيْدٌ يَفْعَلُ في ذَلِكَ، وقَدْ كانَ صَعْصَعةُ بنُ ناجيةَ جَدّ الفَرَزْدَقِ يَفْعَلُ مِثْلَ ذَلِكَ، ولَمّا أَسْلَمَ سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ: هَلْ لِي في ذَلِكَ مِنْ أجْرٍ؟ فقالَ لهُ في أَصَحّ الرّوايَتَيْنِ: «لَكَ أَجْرُهُ[1] إذا مَنّ اللهُ عَلَيْك بالإسْلامِ»[2]، وقالَ المُبَرّدُ في «الكامِلِ» عَن النّبِيّ ﷺ في هذا الحديثِ كَلامًا لَمْ يَصِحّ لَفْظُهُ ولا مَعْناهُ، ولا يَشْهَدُ لَهُ أَصْلٌ[3]، والأُصُولُ تَشْهَدُ لِهَذِهِ[4] الرّوايةِ الّتِي ذَكَرْناها: «لِما ثَبَتَ أَنّ الكافِرَ إذا أَسْلَمَ وحَسُنَ إسْلامُهُ، كُتِبَ لَهُ كُلّ حَسَنةٍ كانَ[5] زَلَفَها[6]، وغُفِرَ لهُ كلُّ سيِّئةٍ كانَ زلَفَها»، وهَذا الحَديثُ خَرَّجَهُ[7] البُخارِيّ، ولَمْ يَذْكُرْ فيهِ: «[كُتِبَ][8] لهُ كُلّ حَسَنةٍ كانَ زَلَفَها»، وذَكَرهُ الدّارَقُطْنِيّ وغَيْرُهُ، «ثُمّ يَكُونُ القِصاصُ بَعْدَ ذَلِكَ: الحَسَنةُ بعشْرِ أمْثالِها». والمَوْؤُودةُ: مَفْعُولةٌ مِنْ وأَدَهُ؛ إذا أَثْقَلَهُ، قالَ الفَرَزْدَقُ[9]: [من المتقارب]

وَمِنّا الّذِي مَنَعَ الوائِداتِ وأَحْيا الوَئِيدَ فلَمْ يُوأَدِ

---

(١) في (أ): «الأجر». وفي (هـ): «أجر».

(٢) أخرجه ابن الأثير في «أسد الغابة» (٣: ٢٣).

(٣) انظر: «الكامل» (٢: ٦٠٧-٦٠٨).

(٤) في (أ)، (د)، (ف): «بهذه».

(٥) في (ف): «كانت».

(٦) أي: قدّمها.

(٧) أخرجه الشيخان في كتاب الإيمان، «فتح الباري» (١: ٩٨).

(٨) سقط من (ب)، (ف).

(٩) «ديوانه» (١: ١٧٣).

يَعْنِي: جَدَّهُ صَعْصَعةَ بنَ مُعاويةَ بنِ [ناجِيةَ بنِ عِقالِ بنِ مُحَمّدِ بنِ سُفْيانَ][1] ابنِ مُجاشِعٍ. وقَدْ قِيلَ: كانُوا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ غَيْرةً على البَناتِ، وما قالَهُ اللهُ في القُرْآنِ هُوَ الحَقُّ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ [الإسراء: ٣١]، وذَكَرَ النَّقّاشُ في التَّفْسِيرِ: أَنَّهُمْ كانُوا يَئِدُونَ مِن البَناتِ ما كانَ مِنْهُنّ زَرْقاءَ، أَوْ بَرْشاءَ[2]، [أو شَيْماءَ][3]، أو كَسْحاءَ، تَشاؤُمًا مِنْهُمْ بِهَذِهِ الصِّفاتِ؛ قالَ اللهُ سبحانه: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾ [التكوير: ٨].

* * *

---

(١) سقط من (أ).

(٢) البرَشُ: لون مختلط، نقطة حمراء، وأخرى سوداء، أو غبراء، أو نحو ذلك.

(٣) ما بين المعقوفين ليس في (أ)، (د).

[شِعْرُ زَيْدٍ في فِراقِ دِينِ قَوْمِهِ]

وَقالَ زَيْدُ بنُ عَمْرِو بنِ نُفيلٍ في فِراقِ دِينِ قَوْمِهِ، وما كانَ لَقِيَ مِنْهُمْ في ذلك:

أَرَبًّا واحِــدًا أَمْ أَلْــفَ رَبٍّ ... أَدِيــنُ إذا تُقُسِّــمَت الأُمُورُ
عَزَلْتُ اللّاتَ والعُزّى جَمِيعًا ... كَذلك يَفْعَــلُ الجَلْدُ الصَّبُورُ
فَلا العُــزّى أَدِينُ ولا ابنَتَيْها ... ولا صَنَمَيْ بَــنِي عَمْرٍو أَزُورُ
وَلا هُبَــلًا أَدِيــنُ وكانَ رَبًّا ... لَنا في الدَّهْرِ إذْ حِلْمِي يَسِــيرُ
عَجِبْتُ وفي اللَّيالِي مُعْجِباتٌ ... وفي الأيّامِ يَعْرِفُهــا البَصِيرُ
بِــأَنَّ الله قَــدْ أَفْــنى رِجالًا ... كَثِيرًا كانَ شَــأْنَهُم الفُجُورُ
وَأَبْــقى آخَرِيــنَ بِــبِرِّ قَوْمٍ ... فَيَرْبُلُ مِنْهُــم الطِّفْلُ الصَّغِيرُ
وَبَيْنا المَرْءُ يَفْــترُ ثابَ يَوْمًا ... كَما يَــتَرَوَّحُ الغُصْنُ المَطِيرُ
وَلَكِنْ أَعْبُــدُ الرَّحْمَنَ رَبِّي ... لِيَغْفِــرَ ذَنْبِيَ الــرَّبُّ الغَفُورُ
فَتَقْوى اللهِ رَبِّكم احْفَظُوها ... مَتى ما تَحْفَظُوهــا لا تَبُورُوا
تَرى الأَبْرارَ دارُهُــمْ جِنانٌ ... ولِلْكُفّــارِ حامِيَــةً سَــعِيرُ
وَخِــزْيٌ في الحَياةِ وإنْ يَمُوتُوا ... يُلاقُوا مــا تَضِيقُ بِهِ الصُّدُورُ

فَصْلٌ

وذَكَرَ شِعْرَ زَيْدِ بنِ عَمْرٍو، وفيهِ: [من الوافر]

عَزَلْتُ الـــلّاتَ والعُزّى جَمِيعًا

فأمّا اللّاتُ فقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُها، وأمّا العُزّى، فكانَتْ نَخلاتٍ مُجْتَمِعةً، وكانَ عَمْرُو بنُ لُحَيٍّ قَدْ أخْبَرَهُمْ [فيما ذَكَروا][١] أنّ الرّبَّ يُشْتِي بالطّائِفِ عِنْدَ اللّاتِ، ويُصَيِّفُ بالعُزّى، فعظَّموها وبَنَوْا لَها بَيْتًا، وكانُوا يُهْدُونَ إلَيْها[٢] كَما يُهْدُونَ إلى الكَعْبةِ، وهِيَ الّتِي بَعَثَ[٣] رَسُولُ اللهِ ﷺ خالِدَ بنَ الوليدِ لِيَكْسِرَها، فقال له سادِنُها: يا خالِدُ، احْذَرْها؛ فإنَّها تُجَدِّع[٤] وتُكَنِّعُ[٥]، فهَدَمَها خالِدٌ وتَرَكَ مِنْها جِذْمَها وأساسَها، فقالَ قَيِّمُها: واللهِ لِتَعُودَنّ ولَتَنْتَقِمَنّ مِمّنْ فعَلَ بِها هَذا. فذَكَروا[٦] ـ واللهُ أعْلَمُ ـ أنّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ لِخالِدٍ: «هَلْ رَأيت فيها شَيْئًا؟» فقالَ: لا، فأمَرَهُ أنْ يَرْجِعَ، ويَسْتَأْصِلَ بَقِيّتَها بالهَدْمِ، فرَجَعَ خالِدٌ، فأخْرَجَ أساسَها، فوَجَدَ فيها امْرَأةً سَوْداءَ مُنْتَفِشةَ الشَّعْرِ تَخْدِشُ وجْهَها، فقَتَلَها وهَرَبَ القَيِّمُ، وهُوَ يَقُولُ: لا تُعْبَدُ العُزّى بَعْدَ اليَوْمَ. هَذا مَعْنى ما ذَكَرَ[٧] أبُو سَعِيدٍ النّيسابُورِيّ في المَبْعَثِ. وذَكَرَهُ الأزْرَقِيُّ[٨] أيْضًا ورَزِينٌ.

وقولُهُ: «ولا غَنْمًا[٩] أدِينُ» هو اسمُ صنمٍ كانَ لهم.

---

(١) سقط من (أ).

(٢) في (ف): «إليه».

(٣) بعده في (ف): «إليها».

(٤) الجَدْع: قطع الأنف أو الأذن أو الشفة، أو قطع الأطراف. انظر: «النهاية» لابن الأثير: (جدع). (ج)

(٥) أي: تصيبك بالشلل. انظر: «النهاية» لابن الأثير: (كنع). (ج)

(٦) في (أ)، (هـ)، (ف): «فذكر».

(٧) بعده في (ف): «ذكره».

(٨) في (أ): «ذكره غير الأزرقي».

(٩) كذا في الأصول، ومثله في أصل «السيرة»، وقد غيره المحققون إلى: «ولا هُبَلًا». وفي «تاج =

وقَوْلُهُ: [من الوافر]

فيَرْبُلُ مِنْهُم الطِّفْلُ الصَّغِيرُ

أَلْفَيْتُ في حاشِيةِ الشَّيْخِ أبي بَحْرٍ: رَبَلَ الطِّفْلُ يَرْبُلُ؛ إذا شَبَّ وعَظُمَ. وربلَ القومُ يَرْبُلون؛ إذا كَثُروا، ويَرْبَلُ بِفَتْحِ الباءِ؛ أيْ: يَكْبَرُ ويَنْبُتُ، ومِنْهُ أُخِذَ تَرْبِيلُ الأرْضِ.

وقَوْلُهُ: [من الوافر]

«... كَما يَتَرَوَّحُ الغُصْنُ...»

أيْ: يَنْبُتُ ورَقُهُ بَعْدَ سُقوطِه.

وَقَوْلُهُ: [من الوافر]

«ولِلْكُفّارِ حامِيةً سَعِيرُ»

نَصَبَ «حامِيةً» على الحالِ مِنْ «سَعِيرِ»؛ لِأنَّ نَعْتَ النَّكِرةِ إذا تَقَدَّمَ عَلَيْها نُصِبَ على الحالِ، وأنْشَدَ سِيبَوَيْهِ في مِثْلِهِ[1]: [من مجزوء الوافر]

«لِمَيَّةَ مُوحِشًا طَلَلُ»

وأنْشَدَ أيْضًا[2]: [من الطويل]

= العروس»: «وغنم: اسم صنم ذكره السهيلي».

(١) «الكتاب» (١: ٢٧٦)، وهو في «خزانة الأدب» (٣: ٢٠٩). ومن رواه: «لمية» قال: إنه لذي الرمة. ومن رواه «لعزة» نسبه إلى كثيِّر. وعجزه:

يلُوحُ كأنهُ خِلَلُ

ويروي البيت:

لِمَيّة مُوحشًا طللٌ قديمُ عفاهُ كلّ أسحم مُستديمُ

(٢) «الكتاب» (١: ٢٧٦)، وهو لذي الرمة. انظر: «ديوانه» (٢: ١٠٢٤).

وَتَحْتَ العَوالِي والقَنا مُسْتَكِنَّةً ظِباءٌ أعارَتْها العُيُــونَ الجَآذِرُ

والعامِلُ في هَذه الحالِ: الِاسْتِقْرارُ الَّذِي يَعْمَلُ في الظَّرْفِ ويَتَعَلَّقُ بِهِ حَرْفُ الجَرّ، وهَذه الحالُ على مَذْهَبِ أَبِي الحَسَنِ الأَخْفَشِ لا اعْتِراضَ فيها؛ لِأَنَّهُ يَجْعَلُ النَّكِرةَ الَّتِي بَعْدَها مُرْتَفِعةً بِالظَّرْفِ ارْتِفاعَ الفاعِلِ، وأمّا على مَذْهَبِ سِيبَوَيْه فالمسألةُ عَسِيرةٌ جِدًّا؛ لِأَنَّهُ يَلْزَمُهُ أَنْ يَجْعَلَها حالًا مِن المُضْمَرِ في الِاسْتِقْرارِ؛ لِأَنَّهُ مَعْرِفةٌ، فذَلِكَ أَوْلى مِنْ أَنْ تَكُونَ حالًا مِنْ نَكِرةٍ، فَإِنْ قُدِّرَ الِاسْتِقْرارُ آخِرَ الكَلامِ وبَعْدَ المَرْفُوعِ كانَ ذَلِكَ فاسِدًا[1]؛ لِتَقَدُّمِ الحالِ على العامِلِ المَعْنَوِيِّ، ولِلِاحْتِجاجِ لَهُ وعَلَيْهِ مَوْضِعٌ غَيْرُ هَذا[2].

* * *

(١) في (أ): «كان ذلك أصلًا فاسدًا».

(٢) انظر: «نتائج الفكر في النحو» للسهيلي: (ص: ٢٣٥-٢٣٦).

وَقالَ زَيْدُ بنُ عَمْرِو بنُ نُفيلٍ أيْضًا ـ قالَ ابنُ هِشامٍ: هِيَ لِأُمَيَّةَ بنِ أبي الصَّلْتِ في قَصِيدةٍ لَهُ، إلّا البَيْتَيْنِ الأوَّلَيْنِ والبَيْتَ الخامِسَ وآخِرَها بَيْتًا. وعَجُزُ البَيْتِ الأوَّلِ عَنْ غَيْرِ ابنِ إسْحاقَ ـ:

إلى اللهِ أُهْدِي مِدْحَتِي وثَنائِيا ... وقَوْلًا رَصِينًا لا يَنِي الدَّهْرَ باقِيا

إلى المَلِكِ الأعلى الَّذي لَيْسَ فوْقه ... إلَهٌ ولا رَبٌّ يَكُونُ مُدانِيا

ألا أيُّها الإنْسانُ إيّاكَ والرَّدى ... فإنَّكَ لا تُخْفي مِنَ اللهِ خافِيا

وَإيّاكَ لا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ غَيْرَهُ ... فإنَّ سَبِيلَ الرُّشْدِ أصْبَحَ بادِيا

حَنانَيْكَ إنَّ الجِنَّ كانَتْ رجاءَهم ... وأنت إلهي رَبَّنا ورَجائِيا

رَضِيتُ بِكَ اللهُمَّ رَبًّا فلَنْ أُرى ... أدِينُ إلَهًا غَيْرَكَ اللهُ ثانِيا

أدِينُ لِرَبٍّ يُسْتَجابُ ولا أُرى ... أدِينُ لِمَنْ لَمْ يَسْمَع الدَّهْرَ داعِيا

وَأنْتَ الَّذي مِنْ فضْلِ مَنٍّ ورَحْمةٍ ... بَعَثْتَ إلى مُوسى رَسُولًا مُنادِيا

فَقُلْتَ لَهُ: يا اذْهَبْ وهارُونُ فادْعُوَا ... إلى اللهِ فِرْعَوْنَ الَّذي كانَ طاغِيا

وَقُولا لَهُ: أأنْتَ سَوَّيْتَ هَذِهِ ... بِلا وتِدٍ حَتّى اطْمَأنَّتْ كَما هِيا؟!

وَقُولا لَهُ: أأنْتَ رَفَّعْتَ هَذِهِ ... بِلا عَمَدٍ أرْفِقْ إذا بِكَ بانِيا؟!

وَقُولا لَهُ: أأنْتَ سَوَّيْتَ وسْطَها ... مُنِيرًا إذا ما جَنَّهُ اللَّيْلُ هادِيا؟!

وَقُولا لَهُ: مَنْ يُرْسِلُ الشَّمْسَ غُدْوةً ... فيصْبِحُ ما مَسَّتْ مِنَ الأرْضِ ضاحِيا؟!

وَقُولا لَهُ: مَنْ يُنْبِتُ الحَبَّ في الثَّرى ... فيصْبِحُ مِنْهُ البَقْلُ يَهْتَزُّ رابِيا؟!

وَيُخْرِجُ مِنْهُ حَبَّهُ في رُؤُوسِهِ ... وفي ذاكَ آياتٌ لِمَنْ كانَ واعِيا

وَأنْتَ بِفَضْلٍ مِنْكَ نَجَّيْتَ يُونُسًا وقَدْ باتَ في أضْعافِ حُوتٍ لَيالِيا
وَإنِّي وَلَوْ سَبَّحْتُ بِاسْمِكَ رَبَّنا لَأُكْثِرُ إلّا ما غَفَرْتَ خَطائِيا
فَرَبَّ العِبادِ ألْقِ، سَيْبًا ورَحْمَةً عَلَيَّ وبارِكْ في بَنِيَّ وماليا

وَقالَ زَيْدُ بنُ عَمْرٍو يُعاتِبُ امْرَأتَهُ صَفيةَ بِنْتَ الحَضْرَمِيِّ.

[نَسَبُ الحَضْرَمِيِّ]

قالَ ابنُ هِشامٍ: واسْمُ الحَضْرَمِيِّ: عَبْدُ اللهِ بنُ عِمادِ بنِ أكْبَرَ، أحَدُ الصَّدِفِ، واسْمُ الصَّدِفِ: عَمْرُو بنُ مالِكٍ أحَدُ السَّكُونِ بنِ أشْرَسَ بنِ كِنْديٍّ، ويُقالُ: كِنْدةُ بنُ ثَوْرِ بنِ مُرَتِّعِ بنِ عُفيرِ بنِ عَدِيِّ بنِ الحارِثِ بنِ مُرَّةَ بنِ أدَدِ بنِ زَيْدِ بنِ مِهْسَعِ بنِ عَمْرِو بنِ عَرِيبِ بنِ زَيْدِ بنِ كَهْلانَ بنِ سَبَأٍ، ويُقالُ: مُرَتِّعُ بنُ مالِكِ بنِ زَيْدِ بنِ كَهْلانَ بنِ سَبَأٍ.

[شِعْرُ زَيْدٍ في عِتابَ زَوْجَتِهِ على اتِّفاقِها مَعَ الخَطّابِ في مُعاكَسَتِهِ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وكانَ زَيْدُ بنُ عَمْرٍو قَدْ أجْمَعَ الخُرُوجَ مِنْ مَكّةَ لِيَضْرِبَ في الأرْضِ يَطْلُبُ الحَنِيفيةَ دِينَ إبْراهِيمَ ﷺ، فكانَتْ صَفيةُ بِنْتُ الحَضْرَمِيِّ كُلَّما رَأتْهُ قَدْ تَهَيَّأ لِلْخُرُوجِ وأرادَهُ آذَنَتْ بِهِ الخَطّابَ بنَ نُفيلٍ، وكانَ الخَطّابُ ابنُ نُفيلٍ عَمَّهُ وأخاهُ لِأُمِّهِ، وكانَ يُعاتِبُهُ على فِراقِ دِينِ قَوْمِهِ، وكانَ الخَطّابُ قَدْ وكَّلَ صَفيةَ بِهِ، وقالَ: إذا رَأيْتِيهِ قَدْ هَمَّ بِأمْرٍ فآذِنِيني بِهِ؛ فقالَ زَيْدٌ:

لا تَحْبِسِينى في الهَوا نِ صَفِيّ ما دابِي ودابُهْ؟
إنِّي إذا خِفتُ الهوا نَ مُشَيَّعٌ ذُلُلٌ رِكابُهْ
دُعْموص أبْوابَ المُلو كِ وجائِبٌ لِلْخَرْقِ نابُهْ
قَطّاعُ أسْبابٍ تَذِلّ بِغَيْرِ أقْرانٍ صِعابُهْ

وَإنَّــمــا أَخَــذَ الهــوا نَ العَــيرُ إِذْ يُوهى إهابُهْ
وَيَقُــــولُ: إنِّي لا أذِلْ لُ بِصَكِّ جَنْبَيْهِ صِلابُهْ
وَأَخِي ابــنُ أمّي ثمَّ عمْـ ـــمِي لا يُواتِينِي خِطابُهُ
وَإذا يُعاتِبُــــنِي بِسُــــو ءٍ قُلْــتُ: أعْيانِي جَوابُهُ
وَلَــوْ أشــاءُ لَقُلْتُ ما عِنْدِي مَفاتِحُــهُ وبابُهُ

فَصْلٌ

وأنْشَدَ أَيْضًا لِزَيْدٍ: [من الطويل]

«إلى اللهِ أَهْدِي مِدْحَتِي وثَنائِيا»

وفيهِ: [من الطويل]

«أَلا أيّها الإنْسانُ إيّاكَ والرّدى»

تَحْذِيرٌ[1] مِن الرّدى، والرّدى: هُوَ المَوْتُ، فظاهِرُ[2] اللّفْظِ مَتْرُوكٌ، وإنّما هُوَ تَحْذِيرٌ مِمّا يَأْتِي بِهِ المَوْتُ ويُبْدِيهِ ويَكْشِفُهُ مِنْ جَزاءِ الأعْمالِ؛ ولِذَلِكَ قالَ: [من الطويل]

«فإنّك لا تُخْفي مِن اللهِ خافيا»

وفيهِ: [من الطويل]

وَإنّي وإنْ سَبّحْتُ بِاسْمِكَ رَبّنا لَأُكْثِـرُ إلّا ما غَفَـرْتَ خَطائِيا

---

(١) في (ب): «حذّر».
(٢) في (ب)، (هـ): «وظاهر».

مَعْنى البَيْتِ: إنّي لَأُكْثِرُ مِنْ هَذا الدّعاءِ الّذِي هُوَ باسْمِك رَبّنا إلّا ما غَفَرْت، و«ما» بَعْدَ «إلّا» زائِدةٌ، «وإنْ سَبّحْتُ»: اعْتِراضٌ بَيْنَ اسْمِ «إنّ» وخَبَرِها[١]؛ أيْ: لا أعْتَمِدُ وإنْ صَلّيْت إلّا على دُعائِك واسْتِغْفارِك مِنْ خَطاياي.

وَقَوْلُهُ: «حَنانَيْكَ» بِلَفْظِ التّثْنِيةِ، قالَ النّحْوِيّونَ: يُرِيدُ حَنانًا بَعْدَ حَنانٍ، كَأَنّهُمْ ذَهَبُوا إلى التّضْعِيفِ والتّكْرارِ، لا إلى القَصْرِ على اثْنَتَينِ[٢] خاصّةً دُونَ مَزِيدٍ.

قالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: ويَجُوزُ أنْ يُرِيدَ حَنانًا في الدّنْيا، وحَنانًا في الآخِرةِ، وإذا قِيلَ هَذا لِمَخْلُوقٍ نَحْو قَوْلِ طَرَفةَ[٣]: [من الطويل]

حَنانَيْكَ بَعْضُ الشّــرّ أهْوَنُ مِنْ بَعْضِ

فَإنّما يُرِيدُ: حَنانَ دَفْعٍ، وحَنانَ نَفْعٍ؛ لِأنّ كُلَّ مَنْ أمّلَ مَلِكًا، فإنّما يُؤَمّلُهُ لِيَدْفَعَ عنه ضَيرًا، أو لِيَجْلِبَ إلَيْهِ خَيرًا.

وفيهِ: «فلَنْ أرى أدِينُ إلَهًا»؛ أيْ: أدِينُ لِإلَهٍ، وحَذَفَ اللّامَ وعَدّى الفِعْلَ؛ لِأنّهُ في مَعْنى: أعْبُدُ إلَهًا.

وَقَوْلُهُ: «غَيْرَكَ اللهُ» برَفْعِ الهاءِ، أرادَ: يا أللهُ، وهَذا لا يَجُوزُ فيما فيهِ الألِفُ واللّامُ، إلّا أنّ حُكْمَ الألِفِ واللّامِ في هَذا الاسمِ المُعَظّمِ يُخالِفُ حُكْمَها في سائِرِ الأسْماءِ، أَلا تَرى أنّك تَقُولُ: أيّها[٤] الرّجُلُ، ولا يُنادى اسْمُ «اللهِ» تعالى بِـ«يا أيّها»؟ وتُقْطَعُ هَمْزَتُهُ في النّداءِ، فتَقُولُ: يا أللهُ، ولا يَكُونُ ذَلِكَ في اسْمٍ

(١) في (ب): «بين الاسم وخبرها».
(٢) في (أ)، (ج)، (هـ): «اثنين».
(٣) «ديوانه» (ص: ١٧٢)، وهو من «شواهد الكتاب» (١ : ٣٤٨)، وصدره:
أبا منذرٍ أفنيتَ فاســتبقِ بعضَنا
(٤) في (ف): «يا أيها».

غَيْرِهِ، إلى أحْكام كَثِيرةٍ يُخالِفُ فيها هَذا الِاسْمُ غَيْرَهُ[١] مِن الأسْماءِ المُعَرّفةِ، ولَعَلّ بَعْضَ ذَلِكَ أنْ يُذْكَرَ فيما بَعْدُ إنْ شاءَ اللهُ تعالى، وقد اسْتَوْفَيْناهُ في غَيْرِ هَذا الكِتابِ.

وفيهِ بَيْتٌ حَسَنٌ لَمْ يَذْكُرْهُ ابنُ إسْحاقَ، وذَكَرَهُ أبُو الفَرَجِ في أخْبارِ زَيْدٍ[٢]، وهُوَ: [من الطويل]

أدِيــنُ إلَهًا يُسْــتَجارُ ولا أرى أدِينُ لِمَنْ لَمْ يَسْمَع الدّهْرَ داعِيا

وَفيهِ: «فقُلْت لهُ: يا اذْهَبْ» على حَذْفِ المُنادى، كَأنّهُ قالَ: يا هذا اذْهَبْ، كما قُرِئَ[٣]: «أَلَا يا اسْجُدُوا» [النحل: ٢٥]، يُرِيدُ: يا قَوْمُ اسْجُدُوا، وكَما قالَ غَيْلانُ[٤]: [من الطويل]

ألا يا اسْلَمِي يا دارَ ميَّ على الْبِلى

وَفيهِ: «اذْهَبْ وهارُونُ»، عَطْفًا على الضّمِيرِ في «اذْهَبْ»، وهُوَ قَبِيحٌ؛ إذْ لَمْ[٥] يُؤَكّدْ، ولَوْ نَصَبَهُ على المَفْعُولِ مَعَهُ لَكانَ جَيّدًا.

وَقَوْلُهُ: «اطْمَأَنّتْ كَما هِيا»، وزْنُهُ: افْلَعَلّتْ؛ لِأنّ المِيمَ أصْلُها أنْ تَكُونَ بَعْدَ الألِفِ؛ لِأنّهُ مِنْ «تَطامَنَ»؛ أيْ: تَطَأْطَأَ، وإنّما قَدّمُوها لِتَتباعَدَ الهَمْزةُ الّتِي هِيَ عَيْنُ الفِعْلِ مِنْ هَمْزةِ الوَصْلِ، فتَكُونَ أخَفَّ عَلَيْهِمْ في اللّفْظِ كَما فعَلُوا في

---

(١) في الأصول: «لغيره».

(٢) «الأغاني» لأبي الفرج الأصبهاني: (٣: ١١٩). (ج)

(٣) هذه قراءة الكسائي. انظر: «الإقناع» (٢: ٧١٩).

(٤) هو ذو الرمة، والبيت في «ديوانه»، وعجزه:

ولا زال منهلًا بجَرْعائك القطرُ

(٥) في (ب): «إن لم».

أَشْياءَ حِينَ قَلَبُوها في قَوْلِ الخَلِيلِ وسِيبَوَيْهِ فِرارًا مِنْ تَقارُبِ الهَمْزَتَيْنِ[١].

وقولُهُ: «كَما هِيا» «ما»: زائِدةٌ لِتَكُفَّ الكافَ عَنِ العَمَلِ، وتُهَيِّئَها لِلدُّخُولِ على الجُمَلِ، وهِيَ: اسْمٌ مُبْتَدَأٌ، والخَبَرُ مَحْذُوفٌ، التَّقْدِيرُ: كَما هِيَ عَلَيْهِ، والكافُ في مَوْضِعِ نَصْبٍ على الحالِ مِن المَصْدَرِ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ «اطْمَأنَّ»، كَما تَقُولُ: سِرْتُ مِثْلَ سَيْرِ زَيْدٍ؛ فـ«مِثْلَ» حالٌ مِنْ سَيْرِك الَّذِي سِرْتَه.

وفيهِ: «أَرْفِقْ إذًا بِك بانِيا» «أَرْفِقْ»: تَعَجُّبٌ، و«بِك»: في مَوْضِعِ رَفْعٍ؛ لِأَنَّ المَعْنى: رَفَقْت، و«بانِيًا» تَمْيِيزٌ؛ لِأَنَّهُ يَصْلُحُ أَنْ يُجَرَّ بِـ«مِنْ»، كَما تَقُولُ: أَحْسِنْ بِزَيْدٍ مِنْ رَجُلٍ، وحَرْفُ الجَرِّ مُتَعَلِّقٌ بِمَعْنى التَّعَجُّبِ؛ إذ قد عُلِمَ أَنَّك مُتَعَجِّبٌ مِنْهُ، ولِبَسْطِ هَذا المَعْنى وكَشْفِهِ مَوْضِعٌ غَيْرُ هَذا إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

وبَعْدَ قَوْلِهِ: [من الطويل]

«وَقَدْ باتَ فــي أَضْعافِ حُوتٍ لَيالِيا»

بَيْتٌ لَمْ يَذْكُرْهُ ابنُ إسْحاقَ، ووَقَعَ في «جامِعِ ابنِ وهْبٍ»: [من الطويل]

وَأَنْبَــتَ يَقْطِينًا عَلَيْــهِ بِرَحْمةٍ ... مِن اللهِ لَوْلا ذاكَ أَصْبَحَ ضاحِيا

وَذَكَرَ صَفيّةَ بِنْتَ الحَضْرَمِيّ، واسْمُ الحَضْرَمِيّ: عَبْدُ اللهِ بنُ عَمّارٍ، وسَيَأْتِي ذِكْرُ نَسَبِها عِنْدَ ذِكْرِ أَخِيها بَعْدُ[٢].

وَقَوْلُهُ: «دُعْمُوصُ أَبْوابِ المُلُوكِ» يُرِيدُ: ولّاجًا في أَبْوابِ المُلُوكِ، وأَصْلُ الدُّعْمُوصِ: سَمَكَةٌ صَغِيرةٌ كَحَيّةِ الماءِ، فاسْتَعارَهُ هُنا، وكَذَلِكَ جاءَ مستعارًا

---

(١) نقل هـذا الزبيدي في «تـاج العـروس» (طمن). وانظر: «الكتـاب» (٤: ٣٨١)، و«شرح الشافية» للرضي: (١: ٢٢).

(٢) يرد ذكر الحضرمي في «السيرة» (١: ٦٠٢-٦٠٣).

في حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرةَ يَرْفَعُهُ: «صِغارُكُمْ دَعامِيصُ الجَنّةِ»[١]، وكَما اسْتَعارَتْ عائِشةُ رضيَ اللهُ عنها العُصْفُورَ حِينَ نَظَرَتْ إلى طِفْلٍ صَغِيرٍ قَدْ ماتَ، فقالَتْ: طُوبى لَهُ! عُصْفُورٌ مِنْ عَصافيرِ الجَنّةِ، لم يَعمَلْ سُوءًا[٢]. فقالَ لَها النّبيّ ﷺ: «وَما يُدْرِيكِ؟ إنّ اللهَ خَلَقَ الجَنّةَ وخَلَقَ لَها أَهْلًا، وخَلَقَ النّارَ وخَلَقَ لَها أَهْلًا». خَرَّجَهُ مُسْلِمٌ[٣].

وفي هَذِهِ الأبْياتِ خَرْمٌ في مَوْضِعَيْنِ؛ أَحَدُهُما قَوْله: [من مجزوء الكامل]

وَلَـوْ أشـاءُ لَقُلْتُ ما … عِنْـدِي مَفاتِحُهُ وبابُهْ

والآخَرُ قَوْلُهُ: [من مجزوء الكامل]

وَإنّمـا أخَـذَ الهَـوا … نَ العَيرُ إذْ يُوهى إهابُهْ

وَقَدْ تَقَدّمَ مِثْلُ هَذا في شِعْرِ ابنِ الزِّبَعْرى[٤]، وتَكَلّمْنا عَلَيْهِ هُنالِكَ بِما فيهِ كِفايةٌ، والْحمْدُ لله.

وقَوْلُهُ[٥]: «إنّي لا أذِلّ»؛ أيْ: يَقُولُ العَيرُ ذَلِكَ «بِصَكِّ جَنْبَيْهِ صِلابُهْ»، أيْ: صِلابُ ما يُوضَعُ عَلَيْهِ، وأضافَها إلى العَيرِ لِأنّها عِبْؤُهُ وحِمْلُه.

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه مسلم في كتاب البر، باب فضل من يموت له ولد فيحتسبه: (٤: ٢٠٢٩)، والإمام أحمد في «مسنده» عن أبي هريرة: (٢: ٤٨٨، ٥١٠).

(٢) بعده في (ف): «قط».

(٣) مسلم، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يُولَد على الفطرة: (٤: ٢٠٥٠).

(٤) انظر: (٢/ ٨٢).

(٥) في (أ)، (هـ): «ويقول».

[شِعْرُ زَيْدٍ حِينَ كانَ يَسْتَقْبِلُ الكَعْبَةَ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وحُدِّثْتُ عَنْ بَعْضِ أهْلِ زَيْدِ بنِ عَمْرِو بنِ نُفيلٍ: أنَّ زَيْدًا كانَ إذا اسْتَقْبَلَ الكَعْبَةَ داخِلَ المَسْجِدِ، قالَ: لَبَّيْكَ حقًّا حقًّا، تَعَبُّدًا ورِقًّا.

عُذْتُ بِما عاذَ بِهِ إبْراهِمُ مُسْتَقْبِلَ القِبْلَةِ وهْوَ قائِمُ

إذْ قالَ:

أنْفي لَكَ اللهُمَّ عانٍ راغِمُ مَهْما تُجَشِّمْنِي فإنِّي جاشِمُ

البِرَّ أبْغِي لا الخالَ، لَيْسَ مُهَجِّرٌ كَمَنْ قالَ.

قالَ ابنُ هِشامٍ: ويُقالُ: البِرُّ أبْقى لا الخالُ، لَيْسَ مُهَجِّرٌ كَمَنْ قالَ. قالَ: وقَوْلُهُ «مُسْتَقْبِلَ الكَعْبةِ» عَنْ بَعْضِ أهْلِ العِلْمِ.

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وقالَ زَيْدُ بنُ عَمْرِو بنُ نُفيلٍ:

وَأَسْلَمْتُ وجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ لَهُ الأرْضُ تَحْمِلُ صَخْرًا ثِقالا

دَحاهــا فلَمّا رَآها اسْــتَوَتْ على الماءِ أرْسى عَلَيْها الجِبالا

وَأَسْلَمْتُ وجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ لَهُ المُزْنُ تَحْمِـلُ عَذْبًا زُلالا

إذا هِيَ سِــيقَتْ إلى بَــلْدةٍ أطاعَتْ فصَبَّتْ عَلَيْها سِجالا

[وذكَرَ قَولَه][١]: «البرُّ أبْقى لا الخال». وقال ابنُ هِشامٍ: «البرَّ أبْغي»[٢] بالنّصْبِ، والخالُ: الخُيَلاءُ والكِبْرُ، وقَوْلُهُ: «لَيسَ مُهَجِّرٌ كَمَنْ قالَ»، أيْ: لَيْسَ مَنْ هَجَّرَ وتَكَيّسَ كَمَنْ آثَرَ القائِلَةَ والنّوْمَ، فهُوَ مِنْ: قالَ يَقِيلُ؛ وهُوَ ثُلاثِيّ، ولَكِنْ لا يُتَعَجَّبُ مِنْهُ، لا يُقالُ: ما أقْيَلَهُ! قالَ أهْلُ النّحْوِ: اسْتَغْنَوْا عَنْهُ بـ: ما أنْوَمَهُ[٣]، ولِذِكْرِ السِّرِّ في امْتِناعِ التّعَجُّبِ مِنْ هَذا الفِعْلِ مَوْضِعٌ غَيْرُ هَذا.

[الخَطّابُ ووُقُوفُهُ في سَبِيلِ زَيْدِ بنِ نُفيلٍ وخُرُوجُ زَيْدٍ إلى الشّامِ ومَوْتُهُ]

وَكانَ الخَطّابُ قَدْ آذى زَيْدًا حَتّى أخْرَجَهُ إلى أعلى مَكّةَ، فنَزَلَ حِراءً مُقابِلَ مَكّةَ، ووَكَّلَ بِهِ الخَطّابُ شَبابًا مِنْ شَبابِ قُرَيْشٍ وسُفَهاءَ مِنْ سُفَهائِها، فقالَ لَهُمْ: لا تَتْرُكُوهُ يَدْخُلُ مَكّةَ، فكانَ لا يَدْخُلُها إلّا سِرًّا مِنْهُمْ، فإذا عَلِمُوا بِذلك آذَنُوا بِهِ الخَطّابَ فأخْرَجُوهُ وآذَوْهُ؛ كَراهِيَةَ أنْ يُفْسِدَ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ، وأنْ يُتابِعَهُ أحَدٌ مِنْهُمْ على فِراقِهِ، فقالَ ـ وهُوَ يُعَظِّمُ حُرْمَتَهُ على مَن اسْتَحَلَّ مِنْهُ ما اسْتَحَلَّ مِنْ قَوْمِهِ ـ:

لاهُمَّ إنِّي مُحْــرِمٌ لا حِلَّهْ   وإنَّ بَيْتِي أوْسَطُ المَحَلَّهْ
عِنْدَ الصَّفا لَيْسَ بِذِي مَضَلَّهْ

وقَوْلُ زَيْدٍ: «إنِّي مُحْرِمٌ لا حِلّة» مُحْرِمٌ؛ أيْ: ساكِنٌ بِالحَرَمِ، والحِلّةُ: أهْلُ الحِلّ. ويُقالُ[٤] لِلْواحِدِ والجَمِيعِ: حِلّةٌ.

---

(١) مكانه في (أ): «وقوله».

(٢) في مطبوعة «السيرة»: «البرَّ أبغي... قال ابن هشام: البرّ أبقى». وهو عكس ما نسبه السهيلي إلى كل من ابن إسحاق وابن هشام. وتفسير السهيلي لرواية ابن هشام يوجب ما أثبتناه.

(٣) «الكتاب» (٤: ٩٩).

(٤) في (ب)، (ج): «يقال»، دون واو العطف.

ثُمَّ خَرَجَ يَطْلُبُ دِينَ إبْراهِيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ، ويَسْأَلُ الرُّهْبانَ والأحْبارَ، حَتّى بَلَغَ المَوْصِلَ والجَزِيرةَ كُلَّها، ثُمَّ أقْبَلَ فجالَ الشّامَ كُلَّهُ، حَتّى انْتَهى إلى راهِبٍ بِمِيفَعةٍ مِنْ أرْضِ البَلْقاءِ كانَ يَنْتَهِي إلَيْهِ عِلْمُ أهْلِ النَّصْرانِيّةِ فيما يَزْعُمونَ، فسَأَلَهُ عَنِ الحَنِيفيةِ دِينِ إبْراهِيمَ، فقالَ: إنَّكَ لَتَطْلُبُ دِينًا ما أنْتَ بِواجِدٍ مَنْ يَحْمِلُكَ عَلَيْهِ اليَوْمَ، ولَكِنْ قَدْ أظَلَّ زَمانُ نَبِيٍّ يَخْرُجُ مِنْ بِلادِكَ الَّتِي خَرَجْتَ مِنْها، يُبْعَثُ بِدِينِ إبْراهِيمَ الحَنِيفيةِ، فالْحَقْ بِها؛ فإنَّهُ مَبْعُوثٌ الآنَ، هذا زَمانُهُ. وقَدْ كانَ شامَّ اليَهُودِيّةَ والنَّصْرانِيّةَ، فلَمْ يَرْضَ شَيْئًا مِنْهُما، فخَرَجَ سَرِيعًا حِينَ قالَ لَهُ ذلك الرّاهِبُ ما قالَ يُرِيدُ مَكّةَ، حَتّى إذا تَوَسَّطَ بِلادَ لَخْمٍ عَدَوْا عَلَيْهِ فقَتَلُوهُ.

فَقالَ ورَقةُ بنُ نَوْفَلِ بنِ أسَدٍ يَبْكِيه:

وذَكَرَ لِقاءَ زَيْدٍ الرّاهِبَ بِمِيفَعةَ، [هَكَذا تَقَيّدَ في الأصْلِ بِكَسْرِ المِيمِ مِنْ مِيفَعةَ][١]، والقِياسُ فيها: الفَتْحُ؛ لِأنّهُ اسمٌ [لِلموضعِ][٢]؛ أُخِذ مِن اليَفاعِ، وهُوَ المُرْتَفِعُ مِن الأرْضِ. وحديثُ البخاريِّ الذي قدّمناهُ أوعبُ[٣] ممّا ذكرهُ ابنُ إسحاقٍ وأصحُّ، فلْيُنظَرْ فِيما تَقدَّمَ[٤].

وقَوْلُهُ: «شامَّ اليَهُودِيّةَ والنَّصرانيةَ»، هُوَ فاعِلٌ مِن الشّمّ، كَما قالَ يَزِيدُ بنُ شَيْبانَ حِينَ سَألَ النّسّابةَ: مَنْ قُضاعةُ؟ ثُمّ انْصَرَفَ، فقالَ لَهُ النّسّابةُ: شامَمْتَنا

(١) سقط من (أ).

(٢) سقط من (أ).

(٣) في (أ): «أوجه».

(٤) انظر: (٢/ ٣١٢).

مُشامّةَ الذّئْبِ الغَنَمَ، ثُمّ يَنْصَرِفُ[١]. في حديثٍ ذَكَره أبو عليٍّ في «النّوادِرِ»[٢]، ومَعْناهُ: اسْتَخْبَرَ، فاسْتَعارَهُ مِن الشّمّ، فنَصَبَ (اليَهُودِيّةَ والنصرانيةَ) نَصْبَ المَفْعُولِ، ومَنْ خَفَضَ جَعَلَ «شامَّ» اسْمَ فاعِلٍ مِنْ شَمِمْتُ، والفِعْلُ[٣] أَوْلى بِهَذا المَوْضِعِ، كَما تَقَدّمَ.

[رِثاءُ وَرَقَةَ لِزَيْدٍ]

رَشَدْتَ وأَنْعَمْتَ ابنَ عَمْرٍو وإنَّما ... تَجَنَّبْتَ تَنُّورًا مِنَ النّارِ حامِيا

بِدِينِكَ رَبًّا لَيْسَ رَبٌّ كَمِثْلِهِ ... وتَرْكِكَ أَوْثانَ الطَّواغِي كَما هِيا

وَإدْراكِكَ الدِّينَ الَّذي قَدْ طَلَبْتَهُ ... ولَمْ تَكُ عَنْ تَوْحِيدِ رَبِّكَ ساهِيا

فَأَصْبَحْتَ في دارٍ كَرِيمٍ مُقامُها ... تُعَلَّلُ فيها بِالكَرامَةِ لاهِيا

تُلاقِي خَلِيلَ اللهِ فيها ولَمْ تَكُنْ ... مِنَ النّاسِ جَبّارًا إلى النّارِ هاوِيا

وَقَدْ تُدْرِكُ الإنْسانَ رَحْمَةُ رَبِّهِ ... ولَوْ كانَ تَحْتَ الأَرْضِ سَبْعِينَ وادِيا

قالَ ابنُ هِشامٍ: يُرْوى لِأُمَيّةَ بنِ أبي الصَّلْتِ البَيْتانِ الأَوَّلانِ مِنْها، وآخِرُها بَيْتًا في قَصِيدةٍ لَهُ، وقَوْلُهُ: «أَوْثان الطَّواغِي» عَنْ غَيْرِ ابنِ إسْحاقَ.

وقَوْلُ ورَقةَ: «رَشَدْت وأَنْعَمْت ابنَ عَمْرٍو»، أيْ: رَشَدْت وبالَغْت في الرّشَدِ، كَما يُقالُ: أَمْعَنْت النّظَرَ وأَنْعَمْته.

وقَوْلُهُ: [من الطويل]

ولَوْ كانَ تَحْتَ الأَرْضِ سَبْعِينَ وادِيًا

---

(١) في «الأمالي»: «ثم انصرفت».

(٢) «النوادر» هو كتاب «الأمالي». ونص يزيد في: (٢: ٢٩٨).

(٣) في (ب) وحدها: «فالفعل».

نَصَبَ «سَبْعِينَ» على الحالِ؛ لِأَنّهُ قَدْ يَكُونُ[1] صِفةً لِلنّكِرةِ، كَما قالَ: [من الطويل]

فلَوْ كُنْت في جُبٍّ ثَمانِينَ قامةً

وما كانَ صِفةً لِلنّكِرةِ يَكُونُ حالًا مِنَ المَعْرِفةِ، وهُوَ هُنا حالٌ مِن البُعْدِ، كَأَنّهُ قالَ: ولَوْ بَعُدَ تَحتَ الأرْضِ سَبْعِينَ. كَما تَقُولُ: بَعُدَ طَوِيلًا؛ أيْ: [بعُدَ][2] بُعْدًا طَوِيلًا، وإذا حَذَفْتَ المَصْدَرَ، وأقَمْتَ الصِّفةَ مُقامَهُ لَمْ تكُنْ[3] إلّا حالًا، وقَدْ تقدَّمَ قولُ[4] سِيبَوَيْه في ذلك في مَسألةِ: سارُوا رُوَيْدًا، ونَحْو هَذا: دارِي خَلْفَ دارِكَ فرْسَخًا، لا يكونُ الفرْسخُ تَمْيِيزًا، كما زَعَموا، كما لا يَكونُ (السّبعين) و(الثّمانينَ) تَمْيِيزًا؛ وذلكَ أنّ معنى قولِك: داري خلفَ دارِك فرسخًا؛ أيْ: تَقْرُبُ مِنْها فرْسَخًا إنْ أرَدْت القُرْبَ، وكَذَلِكَ إنْ أرَدْت البُعْدَ، فالبُعْدُ والقُرْبُ مُقَدَّرانِ بِالفَرْسَخِ، فلَوْ قُلْت: دارِي تَقْرُبُ مِنْك قُرْبًا مُقَدّرًا بِفَرْسَخٍ، لَكانَ[5] بِمَنْزِلةِ مَنْ يَقُولُ: قُرْبًا كَثِيرًا أوْ قَلِيلًا، فالفَرْسَخُ مَوْضُوعٌ مَوْضِعَ كَثِيرٍ أوْ قَلِيلٍ[6]، فإعْرابُهُ كَإعْرابِهِ، وكَذَلِكَ قَوْلُ الشّاعِرِ: [من الكامل]

لا تَعْجَبُوا فلَوَ انّ طُولَ قَناتِهِ ... مِيلٌ إذًا نظمَ الفوارسَ مِيلا

أيْ: نَظَمَهُمْ نَظْمًا مُسْتَطِيلًا، [ووَضَعَ «مِيلًا» مَوْضِعَ مُسْتَطِيلًا][7]،

(١) في (ف): «تكون».
(٢) عن (هـ).
(٣) في (ف): «يكن».
(٤) انظر: (١/ ٤٠٧).
(٥) في (أ): «كان».
(٦) في (ب): «كثيرًا أو قليلًا».
(٧) سقط من (أ).

فإعْرابُهُ[١] كَإعْرابِهِ، فهُوَ وصْفٌ لِلْمَصْدَرِ، وإذا أُقِيمَ الوَصْفُ مُقامَ المَوْصُوفِ في هَذا البابِ لَمْ يَكُنْ حالًا مِن الفاعِلِ، لَكِنْ [مِنَ][٢] المصدر الذي يدلُّ الفِعْلُ عَلَيْهِ بِلَفْظِهِ، نَحْو: سارُوا طَوِيلًا، وسَقَيْتها أحْسَنَ مِنْ سَقْيِ إبِلِك، ونَحْو ذَلِكَ.

❋ ❋ ❋

---

(١) في (أ): «وإعرابه».

(٢) ليس في (أ).

صِفةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِن الإنْجِيلِ

[تَبْشِيرُ يُحَنَّسَ الحَوارِيِّ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وقَدْ كانَ ـ فيما بَلَغَنِي ـ عَمّا كانَ وضَعَ عِيسى بن مَرْيَمَ، فيما جاءَهُ مِن اللهِ في الإنْجِيلِ لِأَهْلِ الإنْجِيلِ، مِنْ صِفةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِمّا أَثْبَتَ يُحَنَّسُ الحَوارِيُّ لَهُمْ، حِينَ نَسَخَ لَهُم الإنْجِيلَ عَنْ عَهْدِ عِيسى ابن مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلامُ في رَسُولِ اللهِ ﷺ إلَيْهِمْ، أنَّهُ قالَ: مَنْ أَبْغَضَنِي فقَدْ أَبْغَضَ الرَّبَّ، ولَوْلا أنِّي صَنَعْتُ بِحَضْرَتِهِمْ صَنائِعَ لَمْ يَصْنَعْها أحَدٌ قَبْلِي، ما كانَتْ لَهُمْ خَطِيئةٌ، ولَكِنْ مِن الآنَ بَطِرُوا وظَنُّوا أَنَّهُمْ يَعُزُّونَنِي، وأَيْضًا لِلرَّبِّ، ولَكِنْ لا بُدَّ مِنْ أنْ تَتِمَّ الكَلِمةُ الَّتِي في النّامُوسِ: أَنَّهُمْ أَبْغَضُونِي مَجّانًا، أيْ: باطِلًا. فلَوْ قَدْ جاءَ المُنْحَمِنّا هذا الَّذي يُرْسِلُهُ اللهُ إلَيْكُمْ مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ، وَرُوحُ القُدُسِ، هذا الَّذي مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ خَرَجَ، فهُوَ شَهِيدٌ عَلَيَّ وأَنْتُمْ أيْضًا؛ لِأَنَّكُمْ قَدِيمًا كُنْتُمْ مَعِي في هذا، قُلْتُ لَكُمْ: لِكَيْما لا تَشْكُوا.

والمُنْحَمَنّا بِالسُّرْيانِيّةِ: مُحَمَّدٌ، وهُوَ بِالرُّومِيّةِ: البَرْقَلِيطَسُ ﷺ.

مَبْعَثُ النَّبِيِّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وعلى آلِهِ وسَلَّمَ تَسْلِيمًا

قالَ ابنُ إسْحاقَ: فلَمّا بَلَغَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ﷺ أرْبَعِينَ سَنةً، بَعَثَهُ اللهُ تَعالى رَحْمةً لِلْعالَمِينَ، وكافّةً لِلنّاسِ بَشِيرًا، وكانَ اللهُ تَبارَكَ وتَعالى قَدْ أخَذَ

المِيثاقَ على كُلِّ نَبِيٍّ بَعَثَهُ قَبْلَهُ بالإيمانِ بِهِ، والتَّصْدِيقِ لَهُ، والنَّصْرِ لَهُ على مَنْ خالَفَهُ، وأخَذَ عَلَيْهِمْ أنْ يُؤَدُّوا ذلك إلى كُلِّ مَنْ آمَنْ بِهِمْ وصَدَّقَهُمْ، فأدَّوْا مِنْ ذلك ما كانَ عَلَيْهِمْ مِن الحَقِّ فيهِ، يَقُولُ الله تَعالى لِمُحَمَّدٍ صَلّى الله عَلَيْهِ وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]، فأخَذَ الله مِيثاقَ النَّبِيِّينَ جَمِيعًا بِالتَّصْدِيقِ لَهُ، والنَّصْرِ لَهُ مِمَّنْ خالَفَهُ، وأدَّوْا ذلك إلى مَنْ آمَنْ بِهِمْ وصَدَّقَهُمْ مِنْ أهْلِ هَذَيْنِ الكِتابَيْنِ.

فَصْلٌ

وذَكَرَ يُحَنَّسَ الحَوارِيَّ، وسَيَأْتِي في آخِرِ الكِتابِ[1] ذِكْرُ الحَوارِيِّينَ كُلِّهِمْ بِأسْمائِهِمْ.

وذَكَرَ قَوْلَهُ: «أبْغَضْتُمُونِي مَجّانًا»؛ أيْ: باطِلًا، وكَذَلِكَ جاء في الحكمة: يا ابن آدَمَ عَلِّمْ مَجّانًا كَما عُلِّمْتَ مَجّانًا، أيْ: بِلا ثَمَنٍ، وفي وصايا الحُكَماءِ: شاوِرْ ذَوِي الأسنانِ وَالْعُقُولِ يُعْطوك مِن رَأْيِهِم مَجّانًا ما أَخَذُوهُ بِالثَّمَنِ، أيْ: بِطُولِ التّجارِبِ.

ومِنْ صِفةِ النّبيّ ﷺ في التّوراةِ: ما رواهُ البخاريُّ عنْ عَبْدِ الله بنِ عمرٍو، قال[2]: وجَدْتُ في التّوراةِ في صِفةِ النبيِّ ﷺ، يَقُولُ اللهُ سُبْحانَهُ: أنْتَ عَبْدِي

(١) وذلك عند الحديث عن رسل عيسى. انظر: «السيرة» (٢: ٦٠٨).

(٢) «فتح الباري»، كتاب البيوع، باب كراهية السخب في الأسواق: (٤: ٣٤٢-٣٤٣)، وكتاب التفسير، باب ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٨: ٥٨٥).

ورَسُولِي، سَمّيْتُك المُتَوَكِّلَ، لَيْسَ بِفَظٍّ ولا غَلِيظٍ، ولا سَخّابٍ في الأسْواقِ، ولا يَدْفَعُ السّيِّئةَ بالسّيِّئةِ، ولَكِنْ يَعْفُو ويَصْفَحُ، ولَنْ يَقْبِضَهُ اللهُ حَتّى يُقِيمَ بِهِ المِلّةَ العَوْجاءَ، فيَفْتَحَ بِهِ عُيُونًا عُمْيًا، وآذانًا صُمًّا، وقُلُوبًا غُلْفًا؛ بِأنْ يَقُولُوا: لا إلَهَ إلّا اللهُ.

ومِمّا وُجِدَ مِنْ صِفَتِهِ ﷺ عِنْدَ الأحْبارِ: ما ذَكَرَهُ الواقِدِيُّ مِنْ حَدِيثِ النّعْمانِ السّبئِيِّ[(١)]، قالَ: وكانَ مِنْ أحْبارِ يهودَ باليمَنِ، فلمَّا سمِعَ بذِكرِ النّبِيّ ﷺ قَدِمَ عَلَيْهِ، فسَألَهُ عَنْ أشْياءَ، [ثُمّ][(٢)] قالَ: إنّ أبِي كانَ يَخْتِمُ على سِفْرٍ، ويَقُولُ: لا تَقْرَأْهُ على يَهُودَ حَتّى تَسْمَعَ بِنَبِيٍّ قَدْ خَرَجَ مِن يَثْرِبَ، فإذا سَمِعْتَ بِهِ فافْتَحْهُ. قالَ نُعْمانُ: فلَمّا سَمِعْتُ بك فتَحْتُ السِّفْرَ، فإذا فيهِ صِفَتُك كَما أراك السّاعةَ، وإذا فيهِ: ما يَحِلُّ وما يَحرُمُ[(٣)]، وإذا فيهِ: أنّك[(٤)] خَيْرُ الأنْبياءِ، وأُمّتُك خَيْرُ الأُمَمِ، واسْمُك: أحْمَدُ ﷺ، وأُمّتُك الحمادون، قُرْبانُهُمْ: دِماؤُهُمْ، وأناجِيلُهُمْ: صُدُورُهُمْ، لا يَحْضُرون قِتالًا إلّا وجِبْرِيلُ مَعَهُمْ، يَتَحَنّنُ[(٥)] عَلَيْهِمْ كَتَحَنّنِ النَّسْرِ على فِراخِهِ، ثُمّ قالَ: إذا سَمِعْتَ بِهِ فاخْرُجْ إلَيْهِ، وآمِنْ بِهِ، وصَدّقْ بِهِ، فكانَ النّبِيّ ﷺ يُحِبّ أنْ يَسْمَعَ أصْحابُهُ حَدِيثَهُ، فأتاهُ يَوْمًا، فقالَ لَهُ النّبِيّ ﷺ: «يا نُعْمانُ حَدِّثْنا»، فابْتَدَأ النّعْمانُ الحَدِيثَ مِنْ أوّلِه، فرُئِيَ النبي ﷺ يَوْمَئِذٍ يَتَبَسّمُ، ثُمّ قالَ: «أشْهَدُ أنّي رَسُولُ اللهِ»، وهُوَ الّذِي قَتَلَهُ الأسْوَدُ العَنْسِيّ، وقَطّعَهُ عُضْوًا

(١) ترجم له ابن الأثير في «أسد الغابة» (٥: ٣٣٢)، ولم يزد على قوله: «قدِم على رسول الله ﷺ، ولما عاد إلى قومه قتله الأسود العنسي، ذكره الواقدي في كتاب «الردة» له».
(٢) ليس في (ب).
(٣) في (ب)، (ف): «ما تُحل وما تُحرم».
(٤) في (ب): «أنت».
(٥) في (ب)، (ف): «يتحنن الله...».

عُضْوًا، وهُوَ يَقُولُ: أشهد أنّ مُحَمّدًا رَسُولُ اللهِ، وإنّك كَذّابٌ مُفْتَرٍ على اللهِ، ثُمّ حَرّقَهُ[1] بالنارِ.

[أوّلُ ما بُدِئَ بِهِ الرّسُولُ ﷺ الرُّؤْيا الصّادِقةُ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: فذَكَرَ الزُّهْرِيُّ، عَنْ عُرْوةَ بنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْها أنَّها حَدَّثَتْهُ: أنَّ أوَّلَ ما بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِن النُّبُوّةِ حِينَ أرادَ اللهُ كَرامَتَهُ ورَحْمَةَ العِبادِ بِهِ: الرُّؤْيا الصّادِقةُ، لا يَرى رَسُولُ اللهِ ﷺ رُؤْيا في نَوْمِهِ إلّا جاءَتْ كَفَلَقِ الصُّبْحِ. قالَتْ: وحَبَّبَ اللهُ تَعالى إلَيْهِ الخَلْوةَ، فلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أحَبَّ إلَيْهِ مِنْ أنْ يَخْلُوَ وحْدَهُ.

[تَسْلِيمُ الحِجارةِ والشَّجَرِ عَلَيْهِ ﷺ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وحَدَّثَنِي عَبْدُ المَلِكِ بنُ عُبَيْدِ اللهِ بنِ أبي سُفيانَ بنِ العَلاءِ بن جارِيَةَ الثَّقَفِيُّ ـ وكانَ واعِيةً ـ عَنْ أهْلِ العِلْمِ: أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ حِينَ أرادَهُ اللهُ بِكَرامَتِهِ وابْتَدَأهُ بِالنُّبُوّةِ، كانَ إذا خَرَجَ لِحاجَتِهِ أبْعَدَ حَتّى تَحْسُرَ عَنْهُ البُيُوتُ ويُفْضِيَ إلى شِعابِ مَكّةَ وبُطُونِ أوْدِيَتِها، فلا يَمُرُّ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِحَجَرٍ ولا شَجَرٍ إلّا قالَ: السَّلامُ عَلَيْكَ يا رَسُولَ اللهِ. قالَ: فيلْتَفِتُ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَوْلَهُ، وعَنْ يَمِينِهِ وشِمالِهِ، وخَلْفَهُ، فلا يَرى إلّا الشَّجَرَ والحِجارةَ، فمَكَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ كذلك يَرى ويَسْمَعُ ما شاءَ اللهُ أنْ يَمْكُثَ، ثُمَّ جاءَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ بِما جاءَهُ مِنْ كَرامةِ اللهِ، وهُوَ بِحِراءٍ في شَهْرِ رَمَضانَ.

[ابْتِداءُ نُزُولِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلامُ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وحَدَّثَنِي وهْبُ بنُ كَيْسانَ مَوْلى آلِ الزُّبَيْرِ، قالَ: سَمِعْتُ

---

(١) في (ب): «حرقهم».

عَبْدَ الله بنَ الزُّبَيْرِ وهُوَ يَقُولُ لِعُبَيْدِ بنِ عُمَيْرِ بنِ قَتادةَ اللَّيْثِيِّ: حَدِّثْنا يا عُبَيْدُ، كَيْفَ كانَ بَدْءُ ما ابْتُدِئَ بِهِ رَسُولُ الله ﷺ مِن النُّبُوّةِ حِينَ جاءَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ؟ قالَ: فقالَ عُبَيْدٌ وأنا حاضِرٌ يُحَدِّثُ عَبْدَ الله بنَ الزُّبَيْرِ ومَنْ عِنْدَهُ مِن النّاسِ: كانَ رَسُولُ الله ﷺ يُجاوِرُ في حِراءٍ مِنْ كُلِّ سَنةٍ شَهْرًا، وكانَ ذلك مِمّا تَحَنَّثُ بِهِ قُرَيْشٌ في الجاهِلِيّة. والتحنُّثُ: التَّبَرُّر.

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وقالَ أبو طالِبٍ:

وَثَوْرٍ ومَنْ أَرْسى ثَبِيرًا مَكانَهُ ... وراقٍ لِيَرْقى في حِـراءٍ ونازِلِ

[بَحْثٌ لُغَوِيٌّ لِابنِ هِشامٍ في مَعْنى التَّحَنُّثِ]

قالَ ابنُ هِشامٍ: تَقُولُ العَرَبُ: التَّحَنُّثُ والتَّحَنُّفُ، يُرِيدُونَ: الحَنيفيّةَ، فيبْدِلُونَ الفاءَ مِن الثّاءِ، كَما قالُوا: جَدَثَ وجَدَفَ، يُرِيدُونَ القَبْرَ. قالَ رُؤْبةُ ابنُ العَجّاجِ:

لَوْ كانَ أَحْجارِي مَعَ الأَجْدافِ

يُرِيدُ: الأَجْداثَ. وهذا البَيْتُ في أُرْجُوزةٍ لَهُ.

وبَيْتُ أَبي طالِبٍ في قَصِيدةٍ لَهُ، سَأَذْكُرُها إنْ شاءَ الله في مَوْضِعِها.

قالَ ابنُ هِشامٍ: وحَدَّثَني أبو عُبَيْدةَ أَنَّ العَرَبَ تَقُولُ: «فُمَّ» في مَوْضِعِ «ثُمَّ»؛ يُبْدِلُونَ الفاءَ مِن الثّاءِ.

كِتابُ المَبْعَثِ

وذَكَرَ ابنُ إسْحاقَ أَنَّ رسولَ الله ﷺ بُعِثَ على رَأْسِ أَرْبَعِينَ مِنْ مَوْلِدِهِ

عَلَيْهِ السّلامُ، وهَذا مَرْوِيٌّ عَن ابنِ عَبّاسٍ، وجُبَيْرِ بنِ مُطْعِمٍ، وقَباثِ بنِ أَشْيَمَ، وعَطاءٍ، وسَعِيدِ بنِ المُسَيّبِ، وأَنَسِ بنِ مالِكٍ، وهُوَ صَحِيحٌ عِنْدَ أَهْلِ السِّيَرِ والعِلْمِ بِالأَثَرِ.

وقَدْ رُوِيَ أَنّهُ نُبِّئَ لِأَرْبَعِينَ وشَهْرَيْنِ مِنْ مَوْلِدِهِ.

وقِيلَ لِقَباثِ[1] بنِ أَشْيَمَ: مَنْ أَكْبَرُ، أَنْتَ أَمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ فقالَ: رَسُولُ اللهِ ﷺ أَكْبَرُ مِنّي، وأنا أسَنُّ منه، ووُلِدَ رسولُ اللهِ ﷺ عامَ الفيلِ، ووَقَفَتْ بِي أُمّي على رَوْثِ الفيلِ ـ ويُرْوى: خَذق الطّيْرِ ـ، فرَأَيْته أَخْضَرَ مُحِيلًا، أيْ: قَدْ أتى عَلَيْهِ حَوْلٌ[2].

وفي غَيْرِ رِوايةِ البَكّائِيّ مِنْ هَذا الكِتابِ: أَنّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ لِبلالٍ: «لا يَفُتْكَ صِيامُ يَوْمِ[3] الاِثْنَيْنِ؛ فإنّي وُلِدْت فيهِ، وبُعِثْت فيهِ، وأَمُوتُ فيهِ»[4].

فصلٌ

وَذَكَرَ ابنُ إسْحاقَ قَوْلَ اللهِ سُبْحانَهُ: «وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْناكم[5] مِنْ كِتابٍ وحِكْمةٍ» الآية [آل عمران: ٨١]. و«ما» في هَذِهِ الآيَةِ: اسْمٌ

---

(١) قَباث: بفتح القاف، كذا صححه ابن الأثير في «أسد الغابة» (٤: ٣٨٠)، ونقل عن ابن ماكولا أنه قال: بضمِّها.

(٢) أخرجه الترمذي في أبواب المناقب. انظر: «عارضة الأحوذي» (١٣: ١٠٥)، وفيه: «ورأيت خزءَ الفيل أخضر». وأبو نعيم في «دلائل النبوة» (ص: ١٤٣)، وفيه: «روث الفيل». والبيهقي في «الدلائل» (١: ٧٧)، وفيه: «خذق الفيل». والخذق: الروث.

(٣) «يوم» ليس في: (ف).

(٤) أصل الحديث عند مسلم، باب استحباب صوم ثلاثة أيام من كل شهر (١١٦٢)، وانظر: «سيرة ابن إسحاق» (ص: ١١٠).

(٥) كذا في (هـ). وهي قراءة نافع. انظر: «الإقناع» لابن الباذش: (٢: ٦٢١). وأثبتنا قراءة نافع =

مُبْتَدَأٌ بِمَعْنى: الّذِي، والتّقْدِيرُ: لَلّذِي آتَيْناكُمْ[١] مِنْ كِتابٍ وحِكْمةٍ، ولا يَصِحّ أنْ تَكُونَ في مَوْضِعِ نَصْبٍ على إضْمارِ فِعْلٍ، كَما يَنْتَصِبُ ما يَشتغِلُ عنه الفِعلُ بِضَمِيرِهِ؛ لِأنّ ما بَعْدَ اللّامِ الثّانِيةِ لا يَجُوزُ أنْ يَعْمَلَ فيما قَبْلَها، وما لا يَجُوزُ أنْ يَعْمَلَ فيما قَبْلَهُ، فلا يَجُوزُ أنْ يَكُونَ تَفْسِيرًا لِما يَعْمَلُ فيهِ، وقَدْ قِيلَ: إنّ «ما» هَذِهِ شَرْطٌ، والتّقْدِيرُ: لَمَهما آتَيْناكُمْ[٢] مِنْ كِتابٍ وحِكْمةٍ لَتُؤْمِنُنّ بِهِ. وهذا[٣] ظاهِرُ قَوْلِ سِيبَوَيْهِ؛ لِأنّهُ جَعَلَها بِمَنْزِلةِ «إن»، وقَوْلُ الخَلِيلِ: إنّها بِمَنْزِلةِ «الّذِي»، أيْ: إنّها اسْمٌ لا حَرْفٌ[٤]، ويُمْكِنُ الجَمْعُ بَيْنَ قَوْلَيْهِما على هَذا، فتَكُونُ اسْمًا، وتَكُونُ شَرْطًا، ويَحْتَمِلُ أيْضًا أنْ تَكُونَ على قَوْلِ الخَلِيلِ خَبَرِيّةً في مَوْضِعِ رَفْعٍ بالِابْتِداءِ، ويَكُونَ الخَبَرُ: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران: ٨١]، وإنْ كانَ الضّمِيرانِ عائِدَيْنِ على الرسول ﷺ، لا على «الّذِي»، ولَكِنْ لَمّا قالَ: ﴿رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ [آل عمران: ٨١]، ارْتَبَطَ الكَلامُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، واستُغْنِيَ بِالضّمِيرِ العائِدِ على الرّسولِ عن ضَمِيرٍ يَعودُ على المُبْتَدَأِ، ولَهُ نظائرُ في التّنْزِيلِ، مِنْها قَوْلُهُ تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾، خَبَرُهُ: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٤]، ولَمْ يَعُدْ على المُبْتَدَأ شَيْءٌ؛ لِتَشَبُّثِ الكَلامِ بَعْضِهُ بِبَعْضٍ.

وقَدْ لاحَ لِي بَعْدَ نَظَرِي في «الكِتاب»: أنّ الّذِي قالَهُ الخَلِيلُ وقَوْلَ سِيبَوَيْهِ قَوْلٌ واحِدٌ، غَيْرَ أنّهُ قالَ: ودُخُولُ اللّامِ على «ما» كَدُخُولِها على «إنْ»، يَعْنِي: في الجَزاءِ، ولَمْ يُرِدْ أنْ يَجعَلَ «ما» جَزاءً، وإنّما تكَلّمَ على اللّامِ خاصّةً. واللهُ أعْلَمُ.

= لما يأتي في تفسيرها.

(١) في (ب) وحدها: ﴿ءَاتَيۡتُكُم﴾، وقرأ بها باقي السبعة.

(٢) في (أ)، (ب): ﴿ءَاتَيۡتُكُم﴾.

(٣) في (ب): «وهو».

(٤) «الكتاب» (٣: ١٠٧).

وذكَرَ قولَ ابنِ إسحاقَ: «وللنُّبوّةِ أثْقالٌ ومُؤْنةٌ لا يَحْمِلُها ولا يَسْتَطِيعُها إلّا أهْلُ القُوّةِ والعَزْمِ مِن الرّسُلِ»، ووَقَعَ في رِوايةِ يُونسَ عَن ابنِ إسحاقَ في هذا الموضعِ عَنْ رَبيعةَ بْنِ أبِي عَبْدِ الرّحْمَنِ، قالَ: سَمِعْتُ وهْبَ بنَ مُنَبّهٍ وهُوَ في مَسْجِدِ مِنًى، وذُكِرَ لَهُ يُونُسُ النّبِيُّ عليه السلام، فقالَ: كانَ عَبْدًا صالِحًا، وكانَ في خُلُقِهِ ضِيقٌ، فلَمّا حُمّلَتْ عَلَيْهِ أثْقالُ النّبُوّةِ ـ ولَها أثْقالٌ ـ تَفَسّخَ تَحْتَها تَفَسُّخَ الرُّبَعِ[١] تَحْتَ الحِمْلِ الثّقِيلِ، فألْقاها عَنْهُ وخَرَجَ هارِبًا[٢]، وفي رِوايةِ يونسَ عَنِ ابنِ إسحاقَ: إنّ أُولِي العَزْمِ مِن الرّسُلِ هُم: نُوحٌ، وهُودٌ، وإبْراهِيمُ، ومحمّد. [قال][٣]: أمّا نُوحٌ فلِقَوْلِهِ: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ٧١]، وأمّا هُودٌ فلِقَوْلِهِ: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِۦ﴾ الآية [هود: ٥٤-٥٥]، وأمّا إبْراهِيمُ[٤] فلِقَوْلِهِ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية [الممتحنة: ٤]، وأمَرَ اللهُ محمدًا أنْ يَصْبِرَ كَما صَبَرَ هَؤُلاءِ، [ويَفعَلَ كما فَعَلوا، ويَتبرّأَ مِن المشركينَ كَما تَبَرَّؤُوا؛ قالَ اللهُ عزّ وجلّ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾][٥] [الأحقاف: ٣٥].

فَصْلٌ

وذَكَرَ ابنُ إسحاقَ: ما بُدِئَ بِهِ النّبِيُّ ﷺ مِن النُّبُوءَةِ؛ إذْ كانَ لا يَمُرّ بِحَجَرٍ

---

(١) الرُّبَع: هو الفصيل الذي ينتج في الربيع، أو ما وُلِد في أول النتاج.

(٢) «سيرة ابن إسحاق» (ص: ١١١).

(٣) عن (ب).

(٤) في (أ)، (د): «وأما إبراهيم فلقوله والذين معه: إنا...». وفي (هـ): «وأما قول إبراهيم والذين معه: إنا...».

(٥) عن (ب).

ولا شَجَرٍ إلّا قالَ: السّلامُ عَلَيْك يا رَسُولَ الله، وفي «مُصَنّفِ» التّرْمِذِيّ ومُسْلِمٍ أيْضًا: أنّ رسول الله ﷺ قال[١]: «إنّي لأَعْرِفُ حَجَرًا[٢] بِمَكّةَ كانَ يُسَلّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أنْ يُنَزَّلَ عَلَيَّ»، وفي بَعْضِ المُسْنَداتِ زِيادةٌ: أنّ هَذا الحَجَرَ الّذِي كانَ يُسَلّمُ عَلَيْهِ هُوَ الحَجَرُ الأسْوَدُ.

وهَذا التّسْلِيمُ الأظْهَرُ فيهِ أنْ يَكُونَ حَقِيقةً، وأنْ يَكُونَ اللهُ أنْطَقَهُ إنْطاقًا كَما خَلَقَ الحَنِينَ في الجِذْعِ، ولَكِنْ لَيْسَ مِنْ شَرْطِ الكَلامِ الّذِي هُوَ صَوْتٌ وحَرْفٌ: الحَياةُ والعِلْمُ والإرادَةُ، لِأنّهُ صَوْتٌ كَسائرِ الأصْواتِ، والصَّوتُ: عَرَضٌ في قَولِ الأكْثَرِينَ، ولَمْ يُخالِفْ فيهِ إلّا النَّظّامُ[٣]؛ فإنّهُ زَعَمَ أنّه جِسْمٌ[٤]، وجَعلَهُ الأشْعَرِيُّ[٥] اصطكاكًا في الجَواهِرِ بَعْضُها ببَعْضٍ، فهو عندَه مِنَ الأكْوان.

وقالَ أبُو بَكْرِ بنُ الطّيّبِ[٦]: لَيْسَ الصَّوْتُ نَفْسَ الاِصْطِكاكِ، ولَكِنّهُ مَعْنًى زائِدٌ عَلَيْهِ، ولِلِاحْتِجاجِ على القَوْلَيْنِ ولَهُما مَوْضِعٌ غَيْرُ هَذا، ولَوْ قَدّرْنا الكَلامَ صِفةً قائِمةً بِنَفْسِ الحَجَرِ والشّجَرِ، والصَّوتُ عِبارةٌ عَنْهُ، لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِن اشْتِراطِ الحَياةِ والعِلْمِ مَعَ الكَلامِ، واللهُ أعْلَمُ أيَّ ذَلِكَ كانَ؛ أكانَ كَلامًا مَقْرُونًا بِحَياةٍ وعِلْمٍ، فيَكُونَ الحَجَرُ بِهِ مُؤْمِنًا، أمْ كانَ صَوْتًا مُجَرّدًا غَيْرَ مُقْتَرِنٍ بِحَياةٍ؟ وفي كِلا الوَجْهَيْنِ هُوَ عَلَمٌ مِنْ أعْلامِ النّبُوّةِ.

---

(١) «عارضة الأحوذي»، أبواب المناقب: (١٣: ١١٠)، و«مسلم»، كتاب الفضائل: (٤: ١٧٨٢).

(٢) في (أ): «حجرًا كان يسلم عليّ بمكة».

(٣) أبو إسحاق إبراهيم بن سيار البصري، ومن أئمة المعتزلة، تُوفِّي سنة (٢٣١هـ).

(٤) انظر: «نهاية الإقدام» للشهرستاني: (ص: ٣١٨)، و«الملل والنحل» (ص: ٥٦)، و«نتائج الفكر» (ص: ٨٣).

(٥) أبو الحسن علي بن إسماعيل، مؤسس مذهب الأشاعرة، تُوفِّي سنة (٣٢٤هـ).

(٦) الباقلاني محمد بن الطيب، من كبار علماء الكلام، وانتهت إليه رئاسة مذهب الأشاعرة، تُوفِّي سنة (٤٠٣هـ).

وأمّا حَنِينُ الجِذْعِ فقَدْ سُمّيَ: حَنِينًا، وحَقِيقةُ الحَنِينِ تقْتَضِي شَرْطَ الحَياةِ، وقَدْ يَحْتَمِلُ تَسْلِيمُ الحِجارةِ أنْ يَكُونَ مُضافًا في الحَقِيقةِ إلى مَلائِكةٍ يَسْكُنُونَ تِلْكَ الأماكِنَ ويَعْمُرُونَها، فيَكُونُ مَجازًا مِنْ باب قَوْلِهِ: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]، والأوّلُ أظْهَرُ، وإنْ كانَتْ كُلّ صُورةٍ مِنْ هَذِهِ الصّوَرِ الّتِي ذَكَرْناها فيها عَلَمٌ على نُبُوّتِهِ عَلَيْهِ السّلامُ، غَيْرَ أنّهُ لا يُسَمّى مُعْجِزةً في اصْطِلاحِ المُتَكَلّمِينَ إلّا ما تَحَدّى به الخلْقَ، فعَجَزوا عَنْ مُعارَضَتِه.

وَذَكَرَ حَدِيثَ عُبَيْدِ بنِ عُمَيْرٍ[١]: أنَّ رسولَ الله ﷺ كانَ يُجاوِرُ في حِراءٍ ويَتَحَنّثُ فيهِ، قالَ: والتّحنّثُ: التّبرُّرُ. تَفَعّلٌ مِن البِرِّ، وتَفَعّلَ: يَقْتَضِي الدّخُولَ في الفِعْلِ، وهُوَ الأكْثَرُ فيها، مِثْلُ: تَفَقّهَ، وتَعَبّدَ، وتَنَسّكَ، وقَدْ جاءَتْ في ألْفاظٍ يَسِيرةٍ تُعْطِي الخُرُوجَ عَن الشّيْءِ واطّراحَهُ، كالتّأثُّمِ والتّحرُّجِ.

والتّحَنّثُ بِالثّاءِ المُثَلّثةِ؛ لِأنّهُ مِن الحِنْثِ، والحِنثُ: الحِمْلُ الثّقيل، وكذلك التّقَذّرُ، إنّما هُوَ تَباعُدٌ[٢] عَن القَذَرِ، وأمّا التّحَنّفُ بِالفاءِ، فهُوَ مِنْ بابِ التّبرّرِ؛ لِأنّهُ مِن الحَنِيفيّةِ دِينِ إبْراهِيمَ ﷺ، وإنْ كانَت الفاءُ مُبْدَلةً مِن الثّاءِ، فهُوَ مِنْ بابِ التّقَذّرِ والتّأثّمِ، وهُوَ قَوْلُ ابنِ هِشامٍ، واحْتَجّ بجَدَثٍ وجَدَفٍ، وأنْشَدَ قَوْلَ رُؤْبةَ:

[من الرجز]

لَوْ كانَ أحْجارِي مَعَ الأجْدافِ

وفي بَيْتِ رُؤْبةَ هَذا شاهِدٌ ورَدٌّ على ابنِ جِنّي؛ حَيْثُ زَعَمَ في «سِرِّ الصّناعةِ»[٣]

---

(١) في (ف): «عمير بن عبيد».

(٢) في (ف): «التباعد».

(٣) «سر الصناعة» (١: ٢٤٨). وانظر: «تاج العروس» (جدف)؛ فقد نقل ما تعقب به السهيلي على ابن جني.

لهُ: أنّ جَدَفًا بالفاءِ لا يُجْمَعُ على أجْدافٍ، واحْتَجَّ بِهَذا لِمَذْهَبِهِ[١] في أنّ الفاءَ هِيَ الأصْلُ، وقَوْلُ رُؤْبَةَ: «لو كان أَحْجارِي مَعَ الأَجْدافِ» فيه رَدٌّ عَلَيْهِ، والّذِي نَذْهَبُ إلَيْهِ أنّ الفاءَ هِيَ الأصْلُ في هَذا الحَرْفِ؛ لِأَنّهُ مِن الجَدْفِ[٢]، وهُوَ القَطْعُ، ومِنْهُ مِجْدافُ السّفينةِ، وفي حَدِيثِ عُمَرَ رضيَ اللهُ عنهُ في وصْفِ الجِنّة: «شَرابُهُم الجَدَفُ»[٣]، وهِيَ الرُّغْوةُ؛ لأنها تُجدَف عن الماءِ، وقِيلَ: هِيَ[٤] نَباتٌ يُقْطَعُ ويُؤْكَلُ.

وَقِيلَ: كُلُّ إناءٍ كُشِفَ عَنْهُ غِطاؤُهُ فهو جَدَفٌ، والجَدَفُ: القَبْرُ مِنْ هَذا، فلَهُ مادّةٌ وأصْلٌ في الِاشْتِقاقِ، فأجْدَرُ بِأنْ تَكُونَ الفاءُ هِيَ الأصْلَ، والثاءُ داخِلةً عَلَيْها.

وَقَوْلُهُ: «يُجاوِرُ في حِراءٍ» إلى آخِرِ الكَلامِ. الجِوار ـ بكسر الجيم ـ: في معنى المُجاوَرةِ، وهِيَ الِاعْتِكافُ، ولا فرْقَ بَيْنَ الجِوارِ والِاعْتِكافِ إلّا مِنْ وجْهٍ واحِدٍ؛ وهُوَ: أنّ الِاعْتِكافَ لا يَكُونُ إلّا داخِلَ المَسْجِدِ، والجِوارَ قَدْ يَكُونُ خارِجَ المَسْجِدِ، كَذَلِكَ قالَ ابنُ عَبْدِ البَرّ وغيرُه، ولِذَلِكَ لَمْ يُسَمَّ جِوارُهُ بِحِراءٍ اعْتِكافًا؛ لِأنّ حِراءً لَيْسَ مِن المَسْجِدِ، ولَكِنّهُ مِنْ جِبالِ الحَرَمِ، وهُوَ الجَبَلُ الّذِي نادى رَسُولَ اللهِ ﷺ حِينَ قالَ لَهُ ثَبِيرٌ وهُوَ على ظَهْرِهِ: اهْبِطْ عَنّي؛ فإنّي أخافُ أنْ تُقْتَلَ على ظَهْرِي فأُعَذَّبَ، فناداهُ حِراءٌ: إلَيَّ يا رَسُولَ اللهِ.

---

(١) في (أ): «في مذهبه».

(٢) في «النهاية» (جدف): «الذي جاء في «صحاح الجوهري» أن القطع هو الجَذْفُ، بالذال المعجمة، ولم يذكره في الدال المهملة، وأثبته الأزهري فيهما».

(٣) الأثر في «غريب الحديث» لأبي عبيد: (٢: ٤٢)، (٣: ٣٨١)، و«غريب الحديث» لابن قتيبة: (٢: ٣٨)، و«الفائق» للزمخشري: (١: ١٧٦)، و«النهاية» (جدف).

(٤) في (ف): «هو».

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وحَدَّثَنِي وهْبُ بنُ كَيْسانَ، قالَ: قالَ عُبَيْدٌ: فكانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُجاوِرُ ذلك الشَّهْرَ مِنْ كُلِّ سَنةٍ، يُطْعِمُ مَنْ جاءَهُ مِن المَساكِينِ، فإذا قَضى رَسُولُ اللهِ ﷺ جِوارَهُ مِنْ شَهْرِهِ ذلك، كانَ أَوَّلُ ما يَبْدَأُ بِهِ إذا انْصَرَفَ مِنْ جِوارِهِ الكَعْبةَ قَبْلَ أنْ يَدْخُلَ بَيْتَهُ، فيطُوفُ بِها سَبْعًا أوْ ما شاءَ اللهُ مِنْ ذلك، ثُمَّ يَرْجِعُ إلى بَيْتِهِ، حَتّى إذا كانَ الشَّهْرُ الَّذي أرادَ اللهُ تَعالى بِهِ فيهِ ما أرادَ مِنْ كَرامَتِهِ مِن السَّنةِ الَّتِي بَعَثَه اللهُ تَعالى فيها، وذلك الشَّهْرُ شَهْرُ رَمَضانَ، خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إلى حِراءٍ كَما كانَ يَخْرُجُ لِجِوارِهِ ومَعَهُ أَهْلُهُ، حَتّى إذا كانَت اللَّيْلةُ الَّتِي أكْرَمَهُ اللهُ فيها بِرِسالَتِهِ ورَحِمَ العِبادَ بِها، جاءَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ بِأمْرِ اللهِ تَعالى.

فَصْل

وذَكَرَ نُزُولَ جِبْرِيلَ على رَسولِ اللهِ ﷺ، قال في الحَدِيثِ: «فَأَتانِي وأنا نائِمٌ». وقالَ في آخِرِهِ: «فهَبَبْتُ مِنْ نَوْمِي، فكَأَنّما كُتِبَتْ[١] في قَلْبِي كِتابًا»، ولَيْسَ ذِكْرُ النَّوْمِ في حَدِيثِ عائِشةَ ولا غَيْرِها، بَلْ في حَدِيثِ عُرْوةَ عَنْ عائِشةَ رضيَ اللهُ عنها ما يَدُلّ ظاهِرُهُ على أنّ [نُزُولَ][٢] جِبْرِيلَ عليهِ السّلامُ حِينَ نَزَلَ بِسُورةِ «اقْرَأْ» كانَ في اليَقظةِ؛ لِأنّها قالَتْ في أوّلِ الحَدِيثِ: «أَوَّلُ ما بُدِئ به رسولُ اللهِ ﷺ الرُّؤْيا الصّادِقةُ؛ كانَ لا يَرى رُؤْيا إلّا جاءَتْ مِثْلَ فلَقِ الصّبْحِ، ثُمّ حُبِّبَ إلَيْهِ الخَلاءُ، إلى قَوْلِها: حَتّى فَجِئَهُ[٣] الحَقُّ، وهُوَ بِغارِ حِراءٍ، فجاءَهُ جِبْرِيلُ»[٤].

---

(١) في (ب)، (هـ): «كتب». يريد ﷺ: فكأنما كُتِبت هذه الآيات في قلبي كتابةً. و(الكتاب) من مصادر (كتب)، يقال: كتبه كَتْبًا، وكِتابًا، وكتابةً.

(٢) ليس في (ب).

(٣) فجِئَه ـ بكسر الجيم وبفتحها ـ: بَغتَه.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٦: ٢٣٢-٢٣٣)، والبخاري في كتاب بدء الوحي، =

فذَكَرَتْ في هَذا الحَدِيثِ أنّ الرّؤْيا كانَتْ قَبْلَ نُزُولِ جِبْرِيلَ على النّبيّ ﷺ بالقُرْآنِ، وقَدْ يُمْكِنُ الجَمْعُ بَيْنَ الحَدِيثَيْنِ بِأنْ يكونَ النّبيُّ ﷺ جاءَهُ جِبْرِيلُ في المَنامِ قَبْلَ أنْ يَأْتِيَهُ في اليَقظةِ؛ تَوْطِئةً وتَيْسِيرًا عليه، ورِفْقًا بِهِ؛ لِأنّ أمْرَ النّبُوّةِ عَظِيمٌ، وعِبْئَها ثَقِيلٌ، والبَشَرَ ضَعِيفٌ، وسَيأْتِي في حَدِيثِ الإسْراءِ مِنْ مَقالةِ العُلَماءِ ما يُؤَكّدُ هَذا الغرَضَ ويُصَحّحُهُ، وقدْ ثَبَتَ بِالطّرُقِ الصّحاحِ عَنْ عامِرٍ الشّعْبِيّ[١]: أنّ رَسُولَ اللهِ ﷺ وُكّلَ بِهِ إسْرافيلُ، فكانَ يَتراءى لَهُ ثَلاثَ سِنِينَ، ويَأْتِيهِ بِالكَلِمةِ مِن الوَحْيِ، ثُمّ وُكِّلَ بِهِ جِبْرِيلُ، [فجاءَهُ بِالقُرْآنِ والوَحْيِ][٢]، فعلى هَذا كانَ نُزُولُ الوَحْيِ عَلَيْهِ ﷺ في أحْوالٍ مُخْتَلِفةٍ، فمِنْها النّوْمُ، كَما في حَدِيثِ ابنِ إسْحاقَ.

وكَما قالَتْ عائِشةُ رضيَ اللهُ عنها أيضًا: أوّلُ ما بُدِئَ بِهِ[٣] رسولُ الله ﷺ الرّؤْيا الصّادِقةُ، وقَدْ قالَ إبْراهِيمُ عَلَيْهِ السّلامُ: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، فقالَ لَهُ ابنُهُ: ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُ﴾ [الصافات: ١٠٢]، فدَلّ على أنّ الوَحْيَ كانَ يَأْتِيهِمْ في النّومِ كَما يَأْتِيهِمْ في اليَقَظةِ.

وَمِنْها: أنْ يُنْفَثَ في رُوعِهِ الكَلامُ نَفْثًا، كَما قالَ عَلَيْهِ السّلامُ[٤]: «إنّ رُوحَ

= «فتح الباري» (١: ٢٢)، ومسلم في كتاب الإيمان: (١: ١٣٩-١٤٣).

(١) انظر: «سبل الهدى والرشاد» (٢: ٣٠٩-٣١٠).

(٢) سقط من (ب).

(٣) بعده في (ف): «الوحي».

(٤) ذكره ابن كثير في «تفسيره» عند آية البقرة: (٨٧)، وآية الشورى: (٥١)، وقال عند آية البقرة ـ وذلك في نشرتنا الثانية من هذا «التفسير» (١: ٣١٦) ـ: إنه في «صحيح ابن حبان»، أظنه عن ابن مسعود. وقد جهدت أن أخرجه من «الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان» فلم يتيسر لي، بيد أن في كتاب الزكاة عن جابر بن عبد الله من «الإحسان» (٥: ٩٨-٩٩) قريبًا من =

القُـدُسِ نَفَثَ في رُوعِـي: أنّ نَفْسًـا لَنْ تَمُـوتَ حَتّى تَسْتَكْمِلَ أجَلَها ورِزْقَها، [يقولُ اللهُ](١): فاتّقُوا اللهَ وأجْمِلُوا في الطَّلَبِ»(٢).

وقالَ مُجاهِدٌ وأكْثَرُ المُفَسِّرينَ في قَوْلِهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشورى: ٥١]، قالَ: هُوَ أنْ يَنْفُثَ في رُوعِهِ بالوَحْيِ.

وَمِنْها: أنْ يَأْتِيَهُ الوَحْيُ في مِثْلِ صَلْصَلةِ الجَرَسِ، وهُوَ أشَدُّهُ عَلَيْهِ، وقِيلَ: إنّ ذَلِكَ لِيَسْتَجْمِعَ قَلْبُهُ عِنْدَ تِلْكَ الصَّلْصَلةِ، فيَكُونَ أوْعى لِما يَسْمَعُ، وألْقَنَ لِما يُلْقى.

وَمِنْها: أنْ يَتَمَثَّلَ لَهُ المَلَكُ رَجُلًا؛ فقَدْ كانَ يَأْتِيهِ في صُورةِ دِحْيةَ بنِ خَلِيفةَ، ويُرْوى: أنّ دِحْيةَ كانَ إذا قَدِمَ المَدِينةَ لَمْ تَبْقَ مُعْصِرٌ(٣) إلّا خَرَجَتْ تَنْظُرُ إلَيْهِ؛ لِفَرْطِ جَمالِهِ. وقالَ ابنُ سَلامٍ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا﴾ [الجمعة: ١١]، قالَ: كانَ اللهْوُ نَظَرَهُمْ إلى وجْهِ دِحْيةَ لِجَمالِهِ.

وَمِنْها: أنْ يَتَراءى لَهُ جِبْرِيلُ في صُورَتِهِ الّتِي خَلَقَهُ اللهُ فيها؛ لَهُ سِتُّ مئة جَناحٍ، يَنْتَشِرُ مِنْها اللّؤْلُـؤُ والياقُوتُ.

وَمِنْها: أنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ مِنْ وراءِ حِجابٍ: إمّا في اليَقَظةِ، كَما كَلَّمَهُ في لَيْلةِ الإسْراءِ، وإمّا في النَّوْمِ، كَما قالَ في حَدِيثِ مُعاذٍ الّذِي رَواهُ..........

= لفظ الحديث. وقد خرجه ابن ماجه بنحوه في كتاب التجارات، باب الاقتصاد في طلب المعيشة: (٢: ٧٢٥) عن جابر أيضًا.

(١) عن (أ)، (هـ).

(٢) أخرجه البيهقي في «شُعب الإيمان» (٩٨٩١)، والبغوي في «شرح السنة» (١٤/ ٣٠٤) برقم (٤١١٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. وللحديث طرقٌ أخرى ذكرها الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ٧١).

(٣) أعصَرَت الفتاة: بلغت شبابها وأَدركَت.

التِّرْمِذِيّ[١]، قالَ: «أتانِي رَبِّي في أَحْسَنِ صُورةٍ، فقالَ: فيمَ يَخْتَصِمُ المَلأُ الأعْلى؟ فقُلْت: لا أدْري. فوَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ، فوَجَدتُ بَرْدَها بَيْنَ ثُنْدُوَتَيَّ[٢] وتَجَلّى لِي عِلْمُ كُلِّ شَيْءٍ، وقالَ لي: يا مُحَمّدُ، فيمَ يَخْتَصِمُ المَلأُ الأعْلى؟ فقُلْت: في الكَفّاراتِ، فقالَ: وما هُنّ؟ فقُلْت: الوُضُوءُ عِنْدَ الكَرِيهاتِ[٣]، ونَقْلُ الأقْدامِ إلى الحَسَناتِ، وانْتِظارُ الصّلَواتِ بَعْدَ الصّلَواتِ، فمَنْ فعَلَ ذَلِكَ عاشَ حَمِيدًا، وماتَ حَمِيدًا، وكانَ مِنْ ذَنْبِهِ كَيَوْمَ ولَدَتْهُ أُمّهُ»، وذَكَرَ الحَدِيثَ.

فهَذِهِ سِتّةُ[٤] أحْوالٍ، وحالةٌ سابِعةٌ قَدْ قَدّمْنا ذِكْرَها، وهي نُزولُ إسْرافيلَ عليه السلامُ بكَلِماتٍ مِن الوحْيِ قبْلَ جِبْريلَ؛ فهَذِهِ سَبْعُ صُوَرٍ في كَيْفيّةِ نُزُولِ الوَحْيِ على مُحَمّدٍ ﷺ، لَمْ أرَ أحَدًا جَمَعَها كَهَذا[٥] الجَمْعِ، وقَد اسْتَشْهَدْنا على صِحّتها بِما فيهِ غُنيةٌ.

وقَدْ أمْلَيْنا أيْضًا في حَقِيقةِ رُؤْيَتِهِ عَلَيْهِ السّلامُ رَبَّهُ في المَنام على أحْسَنِ صُورةٍ ـ ويُرْوى: «على صُورةِ شابٍّ» ـ مسألةً بَدِيعةً كاشِفةً لِقِناعِ اللَّبْسِ، فلْتُنْظَرْ هُنالِكَ، والحمدُ لله.

* * *

---

(١) «عارضة الأحوذي»، أبواب التفسير، تفسير سورة ص: (١٢: ١١١-١١٦).

(٢) في (ب) وحدها: «ثديّ». وكذلك هي في «سنن الترمذي». والثُّنْدُوة: ثدي الرجل.

(٣) الكريهات: الأوقات الباردة.

(٤) في (ف): «ست».

(٥) في (أ): «بهذا».

قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فجاءَنِي جِبْرِيلُ وأنا نائِمٌ بِنَمَطٍ مِنْ دِيباجٍ فيهِ كِتابٌ، فقالَ: اقْرَأْ»، قالَ: «قُلْتُ: ما أقْرَأُ؟» قالَ: «فغَتَّنِي بِهِ حَتّى ظَنَنْتُ أنَّهُ المَوْتُ، ثُمَّ أرْسَلَنِي، فقالَ: اقْرَأْ»، قالَ: «قُلْتُ: ما أقْرَأُ؟» قالَ: «فغَتَّنِي بِهِ حَتّى ظَنَنْتُ أنَّهُ المَوْتُ، ثُمَّ أرْسَلَنِي، فقالَ: اقْرَأْ»، قالَ: «قُلْتُ: ماذا أقْرَأُ؟» قالَ: «فغَتَّنِي بِهِ حَتّى ظَنَنْتُ أنَّهُ المَوْتُ، ثُمَّ أرْسَلَنِي، فقالَ: اقْرَأْ»، قالَ: «فقُلْتُ: ماذا أقْرَأُ؟ ما أقُولُ ذلك إلّا افْتِداءً مِنْهُ أنْ يَعُودَ لِي بِمِثْلِ ما صَنَعَ بِي، فقالَ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ * ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥]». قالَ: «فقَرَأْتُها، ثُمَّ انْتَهى فانْصَرَفَ عَنِّي، وهَبَبْتُ مِنْ نَوْمِي، فكَأنَّما كُتِبَتْ في قَلْبِي كِتابًا». قالَ: «فخَرَجْتُ حَتّى إذا كُنْتُ في وَسَطٍ مِن الجَبَلِ سَمِعْتُ صَوْتًا مِن السَّماءِ يَقُولُ: يا مُحَمَّدُ، أنْتَ رَسُولُ الله، وأنا جِبْرِيلُ»، قالَ: «فَرَفَعْتُ رَأْسِي إلى السَّماءِ أنْظُرُ، فإذا جِبْرِيلُ في صُورةِ رَجُلٍ صافٍّ قَدَمَيْهِ في أُفُقِ السَّماءِ يَقُولُ: يا مُحَمَّدُ، أنْتَ رَسُولُ اللهِ، وأنا جِبْرِيلُ». قالَ: «فوَقَفْتُ أنْظُرُ إلَيْهِ فما أتَقَدَّمُ وما أتَأخَّرُ، وجَعَلْتُ أصْرِفُ وجْهِي عَنْهُ في آفاقِ السَّماءِ»، قالَ: «فَلا أنْظُرُ في ناحِيةٍ مِنْها إلّا رَأيْتُهُ كَذلك، فما زِلْتُ واقِفًا ما أتَقَدَّمُ أمامِي وما أرْجِعُ ورائِي، حَتّى بَعَثَتْ خَدِيجةُ رُسُلَها في طَلَبِي، فبَلَغُوا أعلى مَكّةَ ورَجَعُوا إلَيْها وأنا واقِفٌ في مَكانِي ذلك، ثُمَّ انْصَرَفَ عَنِّي».

[رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُصُّ على خَدِيجةَ ما كانَ مِنْ أمْرِ جِبْرِيلَ مَعَهُ]

«وانْصَرَفْتُ راجِعًا إلى أهْلِي حَتّى أتَيْتُ خَدِيجةَ، فجَلَسْتُ إلى فخِذِها

مُضِيفًا إِلَيْها، فَقالَتْ: يا أبا القاسِمِ، أيْن كنت؟ فوالله لَقَدْ بَعَثْتُ رُسُلِي في طَلَبِكَ حَتّى بَلَغُوا مَكّةَ وَرَجَعُوا لِي، ثُمَّ حَدَّثْتُها بِالَّذِي رَأَيْتُ، فقالَتْ: أَبْشِرْ يا ابن عمّ واثبُتْ، فوَالّذي نَفْسُ خَدِيجَةَ بِيَدِهِ، إِنِّي لأَرْجُو أنْ تَكُونَ نَبِيَّ هَذِهِ الأُمّةِ».

[خَدِيجَةُ بَيْنَ يَدَيْ ورَقَةَ تُحَدِّثُهُ حَدِيثَ رَسُولِ اللهِ ﷺ]

ثُمَّ قامَتْ فجَمَعَتْ عَلَيْها ثِيابَها، ثُمَّ انْطَلَقَتْ إلى ورَقَةَ بنِ نَوْفَلِ بنِ أَسَدِ بنِ عَبْدِ العُزّى بنِ قُصَيٍّ، وهُوَ ابنُ عَمِّها، وكانَ ورَقَةُ قَدْ تَنَصَّرَ وقَرَأَ الكُتُبَ، وسَمِعَ مِنْ أَهْلِ التَّوْراةِ والإنْجِيلِ، فأَخْبَرَتْهُ بِما أَخْبَرَها بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ أنَّهُ رَأى وسَمِعَ، فقالَ ورَقَةُ بنُ نَوْفَلٍ: قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ، والَّذِي نَفْسُ ورقة بِيَدِهِ، لَئِنْ كُنْتِ صَدَقْتِنِي يا خَدِيجَةُ لَقَدْ جاءَهُ النّامُوسُ الأَكْبَرُ الَّذي كانَ يَأْتِي مُوسى، وإنَّهُ لَنَبِيُّ هَذِهِ الأُمّةِ، فقُولِي لَهُ: فلْيَثْبُتْ. فرَجَعَتْ خَدِيجَةُ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ فأَخْبَرَتْهُ بِقَوْلِ ورَقَةَ بنِ نَوْفَلٍ، فلَمّا قَضى رَسُولُ الله ﷺ جِوارَهُ وانْصَرَفَ، صَنَعَ كَما كانَ يَصْنَعُ؛ بَدَأَ بِالكَعْبَةِ فطافَ بِها، فلَقِيَهُ ورَقَةُ ابنُ نَوْفَلٍ وهُوَ يَطُوفُ بِالكَعْبةِ، فقالَ: يا ابن أَخِي، أَخْبِرْنِي بِما رَأَيْتَ وسَمِعْتَ، فأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فقالَ لَهُ ورَقَةُ: والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إنَّكَ لَنَبِيُّ هَذِهِ الأُمّةِ، ولَقَدْ جاءَكَ النّامُوسُ الأَكْبَرُ الَّذي جاءَ مُوسى، ولَتُكَذَّبَنَّهْ ولَتُؤْذَيَنَّهْ، ولَتُخْرَجَنَّهْ ولَتُقاتَلَنَّهْ، ولَئِنْ أنا أَدْرَكْتُ ذلك اليَوْمَ لأَنْصُرَنَّ الله نَصْرًا يَعْلَمُهُ، ثُمَّ أَدْنى رَأْسَهُ مِنْهُ، فقَبَّلَ يافُوخَهُ، ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ الله ﷺ إلى مَنْزِلِهِ.

[امْتِحانُ خَدِيجَةَ بُرْهانَ الوَحْيِ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وحَدَّثَنِي إسْماعِيلُ بنُ أَبي حَكِيمٍ مَوْلى آلِ الزُّبَيْرِ: أَنَّهُ

حُدِّثَ عَنْ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْها؛ أَنَّها قالَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: أي ابنَ عَمٍّ، أَتَسْتَطِيعُ أَنْ تُخْبِرَنِي بِصاحِبِكَ هذا الَّذي يَأْتِيكَ إذا جاءَكَ؟ قالَ: «نَعَمْ»، قالَتْ: فإذا جاءَكَ فأَخْبِرْنِي بِهِ. فجاءَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ كَما كانَ يَصْنَعُ، فقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِخَدِيجَةَ: «يا خَدِيجَةُ، هذا جِبْرِيلُ قَدْ جاءَنِي»، قالَتْ: قُمْ يا ابنَ عَمٍّ فاجْلِسْ على فخِذِي اليُسْرى، قالَ: فقامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فجَلَسَ عَلَيْها، قالَتْ: هَلْ تَراهُ؟ قالَ: «نَعَمْ»، قالَتْ: فتَحَوَّلْ فاجْلِسْ على فخِذِي اليُمْنى، قالَ: فتَحَوَّلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فجَلَسَ على فخِذِها اليُمْنى، فقالَتْ: هَلْ تَراهُ؟ قالَ: «نَعَمْ». قالَتْ: فتَحَوَّلْ فاجْلِسْ في حِجْرِي، قالَ: فتَحَوَّلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فجَلَسَ في حِجْرِها، قالَتْ: هَلْ تَراهُ؟ قالَ: «نَعَمْ»، قالَ: فَتَحَسَّرَتْ وأَلْقَتْ خِمارَها ورَسُولُ اللهِ ﷺ جالِسٌ في حِجْرِها، ثُمَّ قالَتْ لَهُ: هَلْ تَراهُ؟ قالَ: «لا»، قالَتْ: يا ابنَ عَمٍّ، اثْبُتْ وأَبْشِرْ؛ فواللهِ إنَّهُ لَمَلَكٌ وما هذا بِشَيْطانٍ.

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وقَدْ حَدَّثْتُ عَبْدَ اللهِ بنَ حَسَنٍ هذا الحَدِيثَ، فقالَ: قَدْ سَمِعْتُ أُمِّي فاطِمَةَ بِنْتَ حُسَيْنٍ تُحَدِّثُ بِهذا الحَدِيثِ عَنْ خَدِيجَةَ، إلّا أَنِّي سَمِعْتُها تَقُولُ: أَدْخَلَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَيْنَها وبَيْنَ دِرْعِها، فذَهَبَ عِنْدَ ذلك جِبْرِيلُ، فقالَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: إنَّ هذا لَمَلَكٌ وما هُوَ بِشَيْطانٍ.

فَصْلٌ

وذَكَرَ في الحَدِيثِ أنّ جِبْرِيلَ أَتاهُ بِنَمَطٍ مِنْ دِيباجٍ فيهِ كِتابٌ، فقالَ: «اقْرَأْ»، قالَ بَعْضُ المُفَسّرِينَ في قوله: ﴿ الٓمٓ * ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [البقرة: ١-٢]: إنّها إشارةٌ إلى الكِتابِ الّذي جاءَهُ بِهِ جِبْرِيلُ حِينَ قالَ: ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ [العلق: ١]، وفي

الآيةِ أقْوالٌ غَيْرُ هَذِهِ، مِنْها: أنّها إشارةٌ إلى ما تَضَمّنَهُ قَوْلُهُ سُبْحانَهُ: ﴿ الٓمٓ ﴾؛ لِأنّ هَذِهِ الحُرُوفَ تَضَمّنَتْ مَعانِيَ الكِتابِ كُلِّهِ، فهِيَ كالتّرْجَمةِ له.

وَقَوْلِهِ: «ما أنا بقارئٍ»؛ أيْ: إنّي أُمّيّ، فلا أقْرَأُ الكُتُبَ، [قالَها ثَلاثًا][(١)]، فقِيلَ لَهُ: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾ [العلق: ١]، أيْ: إنّك لا تَقْرَؤُهُ بحَوْلِك، ولا بصِفةِ نَفْسِك، ولا بمَعْرِفَتِك[(٢)]، ولَكِن اقْرَأْ مُفْتَتِحًا باسْمِ رَبّك، مُسْتَعِينًا بِهِ، فهُوَ يُعَلِّمُك كَما خَلَقَك، وكَما نَزَعَ عنك علَقَ الدَّم، ومَغمزَ الشَّيطانِ بعدما خَلَقه فيكَ، كَما خَلَقَهُ في كُلِّ إنْسانٍ. فالآيَتانِ المُتقدِّمتان لِمُحَمّدٍ، والآخِرَتانِ لِأُمّتِهِ، وهُما قَوْلُهُ: ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ٤-٥]؛ لِأنّها كانَتْ أُمّةً أُمّيّةً لا تَكْتُبُ، فصارُوا أهْلَ كِتابٍ، وأصْحابَ قَلَمٍ، فتَعَلّمُوا القُرْآنَ بالقَلَمِ، وتَعَلّمَهُ نَبيّهُمْ ﷺ تَلْقِينًا[(٣)] مِنْ جِبْرِيلَ عليه السلام، نَزّلَهُ على قَلْبِهِ بإذْنِ اللهِ؛ لِيَكُونَ مِن المُرْسَلِينَ.

فَصْلٌ

وفي قَوْلِهِ: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾ [العلق: ١] مِن الفِقْهِ: وُجُوبُ اسْتِفْتاحِ القِراءةِ بِـ«بَسْمِ اللهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ»، غَيْرَ أنّهُ أمْرٌ مُبْهَمٌ لَمْ يُبَيَّنْ لَهُ بِأيِّ اسْمٍ مِنْ أسماء ربِّه يَفتتِحُ[(٤)]، حَتّى جاءَ البَيانُ بَعْدُ [في قَوْلِهِ]: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ﴾ [هود: ٤١]، ثُمّ قَوْله تَعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ [النمل: ٣٠].

ثُمّ كانَ بَعْدَ ذَلِكَ يَنْزِلُ جِبْرِيلُ [عَلَيْهِ][(٥)] بِـ«بَسْمِ اللهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ» مَعَ كُلّ

---

(١) ليس في (أ)، (هـ).

(٢) في (ب): «ولا بمعرفة نفسك، ولكن اقرأ».

(٣) في (ف): «تلقيا».

(٤) في (ف): «بأي اسم من أسمائه يفتتح».

(٥) سقط من (أ).

سُورةٍ، وقَدْ ثَبَتَتْ في سَوادِ المُصْحَفِ بإجْماعٍ مِن الصّحابةِ على ذَلِكَ، وما ذَكَرَهُ البُخاريّ عنْ مُصْحَفِ[1] الحَسَنِ البَصريّ فشُذُوذٌ؛ فهِيَ على هَذا مِن القُرْآنِ؛ إذْ لا يُكْتَبُ في المُصْحَفِ ما لَيْسَ بقُرْآنٍ، ولا نَلْتَزِمُ قَوْلَ الشّافِعِيّ: إنّها آيةٌ مِنْ كُلّ سُورةٍ، ولا إنّها آيةٌ مِن الفاتِحةِ، بَلْ نَقُولُ: إنّها آيةٌ مِنْ كِتابِ اللهِ، مُقْتَرِنةٌ مَعَ السّورةِ، وهُوَ قَوْلُ داوُدَ وأبي حَنِيفةَ، وهُوَ قَوْلٌ بَيِّنُ القُوّةِ لِمَنْ أنْصَفَ، واللهُ المُسْتعانُ.

وحِينَ نَزَلَتْ «بِسْمِ اللهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ» سَبّحَت الجِبالُ، فقالَتْ قُرَيْشٌ: سَحَرَ مُحَمّدٌ الجِبالَ، ذَكَرَهُ النّقّاشُ، وإنْ صَحّ ما ذَكَرَهُ، فلِمَعْنًى ما سَبّحَتْ عِنْدَ نُزُولِها خاصّةً؛ وذَلِكَ أنّها آيةٌ أُنْزِلَتْ على آلِ داوُدَ، وقَدْ كانَت الجِبالُ تُسَبّحُ مَعَ داوُدَ، كَما قالَ اللهُ تَعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ﴾ [ص: ١٨]، وقالَ: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [النمل: ٣٠].

وَفي الحَدِيثِ ذِكَرَ نَمَطَ الدِّيباجِ مع الكِتابِ، وفيهِ دليلٌ وإشارةٌ إلى أنّ هَذا الكِتابَ بِهِ يُفْتَحُ على أُمّتِهِ مُلْكُ الأعاجِمِ، ويَسْلُبُونَهُم الدّيباجَ والحَرِيرَ الّذِي كانَ زِيَّهُمْ وزِينَتَهُمْ، وبِهِ أيْضًا يُنالُ[2] مُلْكُ الآخِرةِ ولِباسُ الجَنّةِ، وهُوَ الحَرِيرُ والدّيباجُ.

وفي «سِيَرِ مُوسى بنِ عُقْبةَ»، و«سِيَرِ سُلَيْمانَ بنِ المُعْتَمِرِ» زِيادةٌ؛ وهي أنّ جِبْرِيلَ أتاهُ بدُرْنُوكٍ[3] مِنْ دِيباجٍ مَنْسُوجٍ بالدُّرِّ والياقُوتِ، فأجْلَسَهُ عَلَيْهِ، غَيْرَ أنّ مُوسى بنَ عُقْبةَ قالَ: «بِبِساطٍ»، ولم يقُلْ: دُرْنُوكٍ، وقال في «سير ابنِ المُعْتَمِرِ»: فمَسَحَ جِبْرِيلُ صَدْرَهُ، وقالَ: اللهُمّ اشْرَحْ صَدْرَهُ، وارْفَعْ ذِكْرَهُ، وضَعْ عنه

(١) انظر: «تفسير الطبري» (١: ٤٨)، و«ابن كثير» (١: ١٤٢)، و«القرطبي» (١: ٩٢-٩٤)، و«روح المعاني» (١: ٣٩)، و«التحرير والتنوير» (١: ١٣٨-١٤٤).

(٢) في (ف): «وبه ينال أيضًا».

(٣) الدُّرْنوك: ضربٌ من البُسُط ذو خَمْلٍ، وتُشبّه به فروة البعير.

وِزْرَه. ويُصحِّحُ ما رواهُ ابنُ المُعْتَمِرِ: أنّ اللهَ أنْزَلَ عَلَيْهِ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ الآياتِ، كَأنّهُ يُشِيرُ إلى ذَلِكَ الدّعاءِ الّذِي كانَ مِنْ جِبْرِيلَ، واللهُ أعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ في الحَدِيثِ: «فغَطَّنِي»[١]، ويُرْوى: «فسَأبَنِي»، ويُرْوى: «سَأتَنِي»، وأحْسَبُهُ أيْضًا يُرْوى: «فذَعَتَنِي»، وكُلّها بِمَعْنًى واحِدٍ، وهُوَ الخَنْقُ[٢] والغَمّ، ومِن (الذَّعْتِ) حَدِيثُهُ الآخَرُ: أنّ الشّيْطانَ عَرَضَ لَهُ وهُوَ يُصَلّي، قالَ: «فذَعَتُّهُ حَتّى وجَدْت بَرْدَ لِسانِهِ على يَدي، ثُمّ ذَكَرْت قَوْلَ أخِي سُلَيْمانَ: ﴿هَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ [ص: ٣٥]»[٣] الحَدِيث.

وكأنَّ في ذَلِكَ إظْهارًا لِلشّدّةِ والجِدِّ في الأمْرِ، وأنْ يَأْخُذَ الكِتابَ بِقُوّةٍ ويَتْرُكَ الأناةَ؛ فإنّهُ أمْرٌ لَيْسَ بِالهُوَيْنى، وقَد انْتَزَعَ بَعْضُ التّابِعِينَ - وهُوَ شُرَيْحٌ القاضِي - مِنْ هَذا: أَلّا يُضرَبَ الصَّبيُّ على القرآنِ إلّا ثَلاثًا، كَما غَطّ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السّلامُ مُحَمّدًا ﷺ ثَلاثًا، وعلى روايةِ ابنِ إسحاقَ أنّ ذَلِكَ في نَوْمِهِ، كأنْ يَكُونَ في تِلْكَ الغَطّاتِ الثّلاثِ مِن التّأْوِيلِ ثَلاثُ شَدائِدَ، يُبْتَلى [بِها][٤] أوّلًا، ثُمّ يَأْتِي الفَرَجُ والرَّوْحُ.

وكَذَلِكَ كانَ لَقِيَ هُوَ وأصْحابُهُ شِدّةً مِن الجُوعِ في شِعْبِ الخَيْفِ[٥]، حِينَ تَعاقَدَتْ قُرَيْشٌ ألّا يَبِيعوا منهم، ولا يَتْرُكوا مِيرةً[٦] تَصِلُ إليهم، وشِدَّةً أُخرى

(١) في مطبوعة «السيرة»: «ففتني» بالتاء. وفي «النهاية» (غتت): الغت والغط سواءٌ.

(٢) في (ف): «الحنق».

(٣) أخرجه الشيخان، «فتح الباري»، كتاب العمل في الصلاة (٣: ٨٠)، ومسلم كتاب المساجد: (١: ٣٨٤).

(٤) ليس في (أ).

(٥) في (ب): «الخوف».

(٦) المِيرة: الطعام، ويقال: مار أهله: إذا جَلَب لهم الخير والطعام.

من الخوفِ والإبعادِ بالقَتْلِ، وشِدّةً أُخرى مِن الإجْلاءِ عَنْ أحَبّ الأوْطانِ إلَيْهِ، ثُمّ كانَت العاقِبةُ لِلْمُتّقِينَ، والحَمْدُ لله رَبّ العالَمِينَ.

وَقَوْلُهُ في حديثِ ابنِ إسْحاقَ: «اقْرَأْ، قالَ: ما أَقْرَأُ؟» يَحْتَمِلُ أنْ تكُونَ «ما» اسْتِفْهامًا، يُرِيدُ: أيّ شَيْءٍ أقْرَأُ؟ ويَحْتَمِلُ أنْ تكُونَ نَفْيًا، ورِوايةُ البُخارِيّ ومُسْلِمٍ تَدُلّ على أنّهُ أرادَ النّفْيَ، أيْ: ما أُحْسِنُ أنْ أقْرَأ، كَما تَقَدّمَ[١] مِنْ قَوْلِهِ: «ما أنا بقارِئٍ».

وَذَكَرَ رُؤْيَتَهُ لِجِبْرِيلَ وهُوَ صافٌّ قَدَمَيْهِ، وفي حَدِيثِ جابِرٍ: أنّهُ رَآهُ على رَفْرَفٍ بَيْنَ السّماءِ والأرْضِ، [ويُرْوى: على عَرْشٍ بَيْنَ السّماءِ والأرْضِ][٢].

وفي حَدِيثِ البُخارِيّ الّذِي ذَكَرَهُ في آخِرِ «الجامِعِ»[٣] أنّهُ حين فَتَرَ عنهُ الوَحْيُ، كانَ يَأْتِي شَواهِقَ الجِبالِ يَهُمُّ أنْ يُلْقِي نَفْسَهُ مِنْها، فكانَ جِبْرِيلُ يَتَراءى لَهُ بَيْنَ السّماءِ والأرْضِ، يَقُولُ لَهُ: يا محمّدُ، أنْتَ رَسُولُ اللهِ، وأنا جِبْرِيلُ.

واسْمُ جِبْرِيلَ سُرْيانِيّ، ومَعْناهُ: عَبْدُ الرّحْمَنِ، أوْ عَبْدُ العَزِيزِ. هَكَذا جاءَ عَن ابنِ عَبّاسٍ مَوْقُوفًا ومَرْفُوعًا أيْضًا، والوَقْفُ أصَحّ. وأكْثَرُ النّاسِ على أنّ آخِرَ الِاسْمِ مِنْهُ هُوَ اسْمُ اللهِ، وهُوَ: إيلُ، وكانَ شَيْخُنا [أبو بكرٍ][٤] رَحِمَهُ اللهُ يَذْهَبُ مَذْهَبَ طائِفةٍ مِنْ أهْلِ العِلْمِ في أنّ[٥] هَذِهِ الأسْماءَ إضافَتُها مَقْلُوبةٌ،

(١) انظر: (٢/ ٣٥٣).

(٢) سقط من (أ).

(٣) «فتح الباري»، كتاب التعبير: (١٢: ٣٥١-٣٥٢)، و«مسند أحمد» (٦: ٢٣٣).

(٤) عن (د)، (هـ).

(٥) في (ب)، (ج): «بأن».

وكَذَلِكَ الإضافةُ في كَلامِ العَجَم، يَقولُونَ في غُلامِ زَيْدٍ: زَيْدٌ غُلامٌ، فعلى هَذا يَكُونُ «إيل» عِبارةً عَن العَبْدِ، ويَكُونُ أوّلَ الاِسْمِ عَبّارةً عَن اسْمٍ مِنْ أَسْماءِ اللهِ تَعالى، أَلا تَرى كَيْفَ قالَ في حَدِيثِ ابنِ عَبّاسٍ: جِبْرِيلُ ومِيكائِيلُ، كَما تَقُولُ: عَبْدُ اللهِ وعبد العزيز وعَبْدُ الرّحْمَنِ، أَلا تَرى أَنَّ لَفْظَ «عَبْدٍ» يَتَكَرّرُ إذا قلتَ: عبدالله، وعبد العزيز، وعبْد الرّحمن، كما أنّ «إيل» في هذه الأسماء يُكرّر[١] بِلَفْظٍ واحِدٍ، والأَسْماءُ أَلْفاظُها مُخْتَلِفةٌ[٢]؟

وَأمّا «إلّ» بِالتّشْدِيدِ مِنْ قَوْلِهِ تَعالى: ﴿ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ [التوبة: ٨]، فحذارِ حَذارِ مِنْ أنْ تَقُولَ[٣]: هُوَ اسْمُ اللهِ، فتُسَمّي اللهَ بِاسْمٍ لَمْ يُسَمِّ بِهِ نَفْسَهُ؛ أَلا تَرى أنّ جَمِيعَ أَسْماءِ اللهِ تَعالى مُعَرّفةٌ[٤]، و«إلٌّ» نَكِرةٌ، وحاشا لله أَنْ يَكُونَ اسْمُهُ نَكِرةً، وإنّما الإلُّ: كُلّ ما لَهُ حُرْمةٌ وحَقٌّ، فمِمّا لَهُ [حُرمةٌ و][٥] حَقٌّ ويَجِبُ تَعْظِيمُهُ: القَرابةُ والرّحِمُ، والجِوارُ والعَهْدُ، وهُوَ مِنْ أَلَلْتُ[٦]؛ إذا اجْتَهَدْتَ في الشّيْءِ وحافَظْتَ عَلَيْهِ، ولَمْ تُضَيّعْهُ، ومِنْهُ: الألّ في السّيْرِ، وهُوَ الجَدُّ، ومِنْهُ قَوْلُ الكُمَيْتِ[٧]: [من البسيط]

وَأنْتَ ما أنتَ في غَبْراءَ مُجْدبةٍ إذا دَعتْ أَلَلَيْها الكاعِبُ الفُضُلُ

---

(١) في (ف): «يتكرر».
(٢) انظر: «المعرب» للجواليقي، تحقيق: د. ف عبد الرحيم: (ص: ٢٥٨-٢٥٩).
(٣) في (أ): «من قول من يقول».
(٤) هذا قول الفراء. انظر: «اللسان» (ألل).
(٥) عن (أ).
(٦) يقال: ألّ يئِل ألًّا، وأَلَلًا، وأليلًا: وهو أن يرفع صوته بالدعاء. قال أبو عبيد في «غريب الحديث» (٢: ٢٧٠): «قد يكون أراد الألل، ثم ثنّاه، كأنه يريد صوتًا بعد صوت».
(٧) «ديوانه» (١: ٣٢٧). والكاعب: التي نهد ثديُها. وامرأة فُضُل: إذا توشحت بثوب واحد تخالف بين طرفيه على عاتقها.

يُرِيدُ: اجْتَهَدْتَ في الدّعاءِ. وإذا كانَ «الألّ» بِالفَتْحِ المَصْدَرَ، فالإلّ بالكَسْرِ هو[1] الاسم، كالذِّبح من الذَّبْحِ، فهُوَ إذًا الشّيْءُ المُحافَظُ عَلَيْهِ، المُعظَّمُ حقُّه.

وقَوْلُ الصّدِّيقِ: «هَذا كَلامٌ لَمْ يَخْرُجْ مِنْ إلٍّ ولا بِرٍّ»؛ أيْ: لَمْ يَصْدُرْ عَنْ رُبُوبِيّةٍ؛ لِأنّ الرّبُوبِيّةَ حَقّها واجِبٌ مُعَظّمٌ، وكَذَلِكَ فَسّرَهُ أَبُو عُبَيْدٍ[2].

واتُّفِقَ في اسْمِ «جِبْرِيلَ» عَلَيْهِ السّلامُ أَنّهُ مُوافِقٌ مِنْ جِهةِ العَرَبِيّةِ لِمَعْناهُ، وإنْ كانَ أَعْجَمِيًّا؛ فإنّ الجَبْرَ هُوَ إصْلاحُ ما وهى، [وجِبْرِيلُ مُوَكَّلٌ بِالوَحْيِ، وفي الوَحْيِ إصْلاحُ ما فسَدَ، وجَبْرُ ما وهى][3][4]، ولَمْ يَكُنْ هذا الاسمُ مَعْرُوفًا بِمَكّةَ ولا بِأرْضِ العَرَبِ، فلَمّا أَخْبَرَ النّبِيّ ﷺ خَدِيجةَ [بِهِ][5] انْطَلَقَتْ تَسْأَلُ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمٌ [مِنَ][6] الكِتابِ كَعَدّاسٍ[7] ونَسْطُور الرّاهِبِ، فقالا لَها: قُدّوسٌ قُدّوسٌ! أنّى لِهَذا الاسمِ أنْ يُذْكَرَ في هَذِهِ البِلادِ؟! وقَدْ قَدّمْنا هَذا الخَبَرَ عَنْها، وهُوَ في «سِيَرِ التَّيْمِي» كما ذَكَرْناهُ قَبْل، وفي كِتابِ المُعَيطِي: عَنْ أَشْهَبَ، قالَ: سُئِلَ مالِكٌ عَن التّسَمّي بِجِبْرِيلَ، أوْ مَنْ يُسَمّي بِهِ ولَدَهُ، فكَرِهَ ذَلِكَ ولَمْ يُعْجِبْهُ.

وقَوْلُ ورَقةَ: «لَقَدْ جاءَهُ النّامُوسُ الأكْبَرُ الّذِي كانَ يَأْتِي مُوسى عليه السّلام».

---

(١) في (أ): «اسم».

(٢) انظر: «غريب الحديث» لأبي عبيد: (١: ١٠٠)، (٣: ٢٣٠).

(٣) سقط من (أ).

(٤) بعده في (ف): «من الدين».

(٥) ليس في (أ)، (ب).

(٦) عن (هـ)، (ب).

(٧) عدّاس: غلام نصراني مذكور في «السيرة» في خبر الرسول ﷺ مع ثقيف: (١: ٤٢١)، ونسطورا: قيل: هو الراهب المذكور كذلك في «السيرة» في خبر تزوج الرسول خديجة: (١: ١٨٨).

النّامُوسُ: صاحِبُ سِرّ المَلِكِ، وقالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ صاحِبُ سِرّ الخَيْرِ، [والجاسُوسُ: هُوَ صاحِبُ سِرّ الشَّرِّ][١]. وقَدْ فسّرَهُ أبُو عُبَيْدٍ، وأنْشَدَ[٢]: [من الطويل]

فَأبْلِغْ يَزِيـدَ إنْ عَرَضْتَ ومُنْذِرًا وعَمَّيهما[٣] والمُسْتَسرَّ المُنامِسا

وَإنّما ذَكَرَ ورَقةُ مُوسى، ولَمْ يَذْكُرْ عِيسى وهُوَ أقْرَبُ؛ لِأنّ ورَقةَ كانَ [قَدْ][٤] تَنَصّرَ، والنّصارى لا يَقُولُونَ في عِيسى عليه السّلام: إنّهُ نَبِيٌّ يَأْتِيهِ جِبْرِيلُ، إنّما يَقُولُونَ فيهِ: إنّ[٥] أُقْنُومًا مِن الأقانِيمِ الثّلاثةِ اللّاهُوتِيّةِ حَلّ بناسُوتِ المَسِيحِ واتّحَدَ بِهِ، على اخْتِلافٍ بَيْنَهُمْ في ذَلِكَ الحُلُولِ، وهُوَ أُقْنُومُ الكَلِمةِ، والكَلِمةُ عِنْدَهُمْ: عِبارةٌ عَن العِلْمِ؛ فلِذَلِكَ كانَ المَسِيحُ - في زَعْمِهم - يَعْلَمُ الغَيْبَ، ويُخْبِرُ بما في غَدٍ، فلَمّا كانَ هَذا مِنْ مَذْهَبِ النّصارى الكَذَبةِ على [اللهِ][٦]، المُدّعِينَ المُحالَ، عَدَلَ عن ذِكْرِ عِيسى إلى ذِكْرِ مُوسى عليهما السّلامُ؛ لِعِلْمِهِ، أوْ لِاعْتِقادِهِ[٧] أنّ جِبْرِيلَ كانَ يَنْزِلُ على مُوسى، لَكِنْ ورَقةُ قَدْ ثَبَتَ إيمانُهُ بِمُحَمّدٍ ﷺ، وقَدْ قَدّمْنا[٨] حَدِيثَ التّرْمِذِيّ: أنّ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَآهُ في المَنامِ وعَلَيْهِ ثِيابٌ بِيضٌ... إلى آخِرِ الحَدِيثِ.

---

(١) سقط من (ب).

(٢) الكميت، «ديوانه» (ص: ٣٦٥). و«اللسان» و«التاج» (نمس). يقال: نمَسْتُ الرجلَ ونامسته: إذا ساررته.

(٣) في (ف): «وعمهما».

(٤) عن (ب).

(٥) وعُدِّل النص في (أ) إلى: «إنه أقنوم».

(٦) ليس في (ب).

(٧) في (ف): «اعتقاده».

(٨) انظر: (٢/ ٢٤١).

حَوْلَ هاءِ السّكْتِ والفِعْلِ (تُدْرِكُ):

وَقَوْلُ ورَقةَ: «لَتُكَذَّبَنّهْ، ولَتُؤْذَيَنّهْ» لا يُنْطَقُ بِهَذِهِ الهاءِ إلّا ساكِنةً؛ لِأنّها هاءُ السّكْتِ، ولَيْسَتْ بِهاءِ إضْمارٍ. وقَوْلُهُ: «إنْ أُدْرِكْ ذَلِكَ اليَوْمَ أنْصُرْك نَصْرًا مُؤَزّرًا»[١]، وقالَ في الحَدِيثِ الصحيح: «إنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُك»[٢]، وهُوَ القِياسُ؛ لِأنّ ورَقةَ سابِقٌ بِالوُجُودِ، والسّابِقُ هُوَ الّذِي يُدْرِكُهُ مَنْ يَأْتِي بَعْدَهُ، كَما جاءَ: «أشْقى النّاسِ مَنْ أدْرَكَتْهُ السّاعةُ وهُوَ حَيٌّ»، ورِوايةُ ابنِ إسْحاقَ أيْضًا لَها وجهٌ؛ لأنَّ الْمَعْنى: إنْ أرَ ذَلِكَ اليَوْمَ، فسَمّى رُؤْيَتَهُ: إدْراكًا، وفي التّنْزِيلِ: ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ ﴾ [الأنعام: ١٠٣]؛ أيْ: لا تَراهُ، على أحَدِ القَوْلَيْنِ. وقَوْلُهُ: «مُؤَزَّرًا» مِن الأزْرِ، وهُوَ القُوّةُ والعَوْنُ[٣].

فَصْلٌ

وفي حَدِيثِ البُخارِيّ: أنّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال لِوَرَقةَ: «أوَمُخْرِجِيَّ هم؟!»[٤]، لا بُدّ مِنْ تَشْدِيدِ الياءِ في «مُخْرِجِيَّ»؛ لِأنّهُ جَمْعٌ، والأصْلُ: مُخْرِجُويَ، فأُدْغِمَت الواوُ في الياءِ، وهُوَ خَبَرُ ابْتِداءٍ مُقَدّمٌ، ولَوْ كانَ المُبْتَدَأُ اسْمًا ظاهِرًا لجازَ تَخْفِيفُ الياءِ، ويَكُونُ الِاسْمُ الظّاهِرُ فاعِلًا لا مُبْتَدَأً، كَما تَقُولُ: أضارِبِيَّ قَوْمُك؟ أخارِجٌ إخْوَتُك؟ فتُفْرِدُ؛ لِأنّك رَفَعْتَ بِهِ فاعِلًا، وهُوَ حَسَنٌ في مَذْهَبِ سِيبَوَيْهِ والأخْفَشِ، ولَوْلا الِاسْتِفْهامُ ما جازَ الإفْرادُ إلّا على

(١) انظر: مطبوعة «السيرة»: «ولئن أنا أدركتُ ذلك اليوم لأنصرنّ الله نصرًا يعلمه».

(٢) أخرجه الشيخان، «فتح الباري»، كتاب بدء الوحي: (١: ٢٢)، ومسلم، كتاب الإيمان: (١: ١٤٢).

(٣) في (ب): «والغوث».

(٤) «فتح الباري»، كتاب بدء الوحي: (١: ٢٢).

مَذْهَبِ الأخْفَشِ[(١)]؛ فإنّهُ يَقولُ: قائِمٌ الزّيْدُون، دُونَ اسْتِفْهام، فإنْ كانَ الإسْمُ المُبْتَدَأُ مِن المُضْمَراتِ ـ نَحْوُ: أخارِجٌ أنْتَ؟ وأقائِمٌ هُوَ؟ ـ لَمْ يَصِحّ فيهِ إلّا الابْتِداءُ؛ لِأنّ الفاعِلَ إذا كانَ مُضْمَرًا لَمْ يَكُنْ مُنْفَصِلًا، لا تَقُولُ: قامَ أنا، ولا ذَهَبَ أنت، وكَذَلِكَ لا تَقُولُ: أذاهِبٌ أنْتَ؟ على حَدِّ الفاعِلِ، ولَكِنْ على حدِّ المُبْتَدَأ، [وإذا كانَ على حَدِّ الْمُبْتَدأ][(٢)]، فلا بُدّ مِنْ جَمْعِ الخَبَرِ، فعلى هَذا تَقُولُ: أمُخْرِجِيَّ[(٣)] هم؟ تُريد: أمُخْرِجون؟ ثمّ أضفْتَ إلى الياءِ، وحذفتَ النّونَ، وأدْغَمتَ الواوَ كَما يَقْتَضِي القِياسُ، وهذا فصْلٌ بَديعٌ مِن النّحوِ قلَّ مَن تَنبَّهَ إليه وشَرَحهُ بهذا البيانِ.

فَصْلٌ

وذَكَرَ أنّ ورَقةَ لَقِيَ رسول الله ﷺ، فقَبّلَ يافُوخَهُ. قَدْ تَقَدّمَ[(٤)] ذِكْرُ اليافُوخِ، وأنّهُ يَفْعُولٌ مَهْمُوزٌ، وأنّهُ لا يُقالُ في رَأْسِ الطّفْلِ: يأفُوخٌ حَتّى يَشْتَدّ. وإنّما يُقالُ لَهُ: الغاذِيَةُ[(٥)]، وذَكَرْنا قَوْلَ العَجّاجِ: [من الرجز]

«ضَرْبٌ إذا صابَ اليَآفيخَ حَفَرْ»

ولَوْ كانَ يافُوخٌ فاعُولًا ـ كَما ظَنّ بَعْضُهُمْ ـ لَمْ يَجُزْ هَمْزُهُ في الواحِدِ [ولا في الجَمْعِ][(٦)].

---

(١) انظر: «نتائج الفكر في النحو» للسهيلي: (ص: ٤٢٥-٤٢٦)، و«الكتاب» (٢: ٤٥)، و«ارتشاف الضرب» (٣: ١٠٨٢-١٠٨٣).

(٢) سقط من (ب).

(٣) في (ف): «مخرجي».

(٤) انظر: (١/ ٢٧٠).

(٥) بعده في (ف): «بغين معجمة وبياء منقوطة بعد الذال والذال معجمة أيضًا».

(٦) سقط من (أ).

وفي رِوايةِ يُونُسَ عَن ابنِ إسْحاقَ، بِسَنَدِهِ[١] إلى أبِي مَيْسَرة عَمْرِو بنِ شُرَحْبِيلَ: أنّ رَسُولَ الله ﷺ قالَ لِخَدِيجةَ: «إنّي إذا خَلَوْتُ وحْدِي سَمِعْت نِداءً، وقَدْ خَشِيتُ واللهِ أنْ يَكُونَ لِهَذا أمْرٌ». قالَتْ: مَعاذَ اللهِ! ما كانَ الله لِيَفْعَلَ ذلك بكَ؛ فوَالله إنّك لَتُؤَدّي الأمانةَ، وتَصِلُ الرّحِمَ، وتَصْدُقُ الحَدِيثَ[٢]. فلما دخَلَ [أبو بكرٍ، ولَيْسَ][٣] رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَمّ، ذَكَرَتْ خَدِيجةُ لَهُ فقالَتْ: يا عَتِيقُ، اذْهَبْ مَعَ مُحَمّدٍ إلى ورَقةَ، فلَمّا دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أخَذَ أبو بكرٍ بِيَدِهِ. فقالَ: انْطَلِقْ بِنا إلى ورَقةَ. فقالَ: «ومَنْ أخْبَرَك؟» قالَ: خَدِيجةُ، فانْطَلَقا إلَيْهِ، فقَصّا عَلَيْهِ، فقالَ: «إنّي إذا خَلَوْتُ وحْدِي سَمِعْت نِداءً خَلْفي: يا مُحَمّدُ يا مُحَمّدُ، فأنْطَلِقُ هارِبًا في الأرْضِ». فقالَ لَهُ: لا تَفعَلْ؛ إذا أتاك فاثبت، حَتّى تَسْمَعَ ما يَقُولُ لَك. ثُمّ ائْتِنِي، فأخْبِرْنِي، فلَمّا خَلا ناداهُ: يا مُحَمّدُ قُلْ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حَتّى بَلَغَ: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ١-٧]. قال: قُلْ: لا إلَهَ إلّا اللهُ. فأتى ورَقةَ، فذَكَرَ له ذَلِكَ، فقال له وَرَقةُ: أبْشِرْ، ثمّ أبشِرْ؛ فأنا أشْهَدُ أنّك الّذِي بَشّرَ بِهِ ابنُ مَرْيَمَ، وأنّك على مِثْلِ نامُوسِ مُوسى، وأنّك نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وأنّك سَتُؤْمَرُ بِالجِهادِ بَعْدَ يَوْمِك هَذا، ولَئِنْ أدْرَكَنِي ذَلِكَ لأُجاهِدَنّ مَعَك. فلَمّا تُوُفّيَ ورَقةُ قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَقَدْ رَأيت القَسّ في الجَنّةِ وعَلَيْهِ ثِيابُ الحَرِيرِ؛ لِأنّهُ آمَنَ بِي وصَدّقني»، يعني: وَرَقةَ.

وفي رواية يُونُسَ أيْضًا: أنّهُ عَلَيْهِ السّلامُ قالَ لِرَجُلٍ سَبّ ورَقةَ: «أما عَلِمْتَ أنّي رَأيْتُ لِوَرَقةَ جنّةً أو جنّتَين»، وهذا الحديثُ الأخيرُ قدْ أسْنَدَه البزّارُ[٤].

---

(١) في (ف): «يسنده».

(٢) «سيرة ابن إسحاق» (ص: ١١٢-١١٣).

(٣) سقط من (ج).

(٤) «كشف الأستار عن زوائد البزار» (ص: ٢٨١)، و«أسد الغابة» (٢: ٤٤٨).

فَصْلٌ

وفي الصّحِيحِ أنّهُ قالَ لِخَدِيجةَ(١): «لَقَدْ خَشِيتُ على نَفْسِي»، وتكَلّمَ العُلَماءُ في مَعْنى هَذِهِ الخَشْيةِ [بأقْوالٍ كَثِيرةٍ؛ فذَهَبَ أبو بكرٍ الإسْماعِيلِيّ إلى أنّ هَذِهِ الخَشْيةَ](٢) كانَتْ مِنْهُ قَبْلَ أنْ يَحْصُلَ لَهُ [العِلْمُ الضّروريُّ](٣) بأنّ الّذِي جاءَهُ مَلَكٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ، وكانَ أشَقُّ شَيْءٍ عَلَيْهِ أنْ يُقالَ عَنْهُ: مَجْنُونٌ، ولَمْ يَرَ الإسْماعِيلِيّ أنّ هَذا مُحالٌ في مَبْدَأ الأمْرِ؛ لِأنّ العِلْمَ الضّرُورِيَّ قَدْ لا يَحْصُلُ دَفْعةً واحِدةً، وضَرَبَ مَثَلًا بالبَيْتِ مِن الشِّعْرِ تَسْمَعُ أوّلَهُ، فلا تَدْرِي أنَظْمٌ هُوَ أمْ نَثْرٌ، فإذا اسْتَمَرّ الإنْشادُ، عَلِمْت قَطْعًا أنّهُ قُصِدَ بِهِ قَصْدَ الشِّعْرِ، كَذَلِكَ لَمّا اسْتَمَرّ الوَحْيُ واقْتَرَنَتْ بِهِ القَرائِنُ المُقْتَضِيةُ لِلْعِلْمِ القَطْعِيّ، حَصَلَ العِلْمُ القَطْعِيّ، وقَدْ أثْنى اللهُ عَلَيْهِ بِهَذا العِلْمِ، فقالَ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ إلى قَوْلِهِ: ﴿وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فإيمانُه عليه السلام بِاللهِ ومَلائِكَتِهِ(٤) إيمانٌ كَسْبِيٌّ مَوْعُودٌ عَلَيْهِ بالثّوابِ(٥) الجَزِيلِ، كَما وُعِدَ على سائِرِ أفْعالِهِ المُكْتَسَبةِ، كانَتْ مِنْ أفْعالِ القَلْبِ أوْ من أفْعالِ الجَوارِحِ.

وقَدْ قِيلَ في قَوْلِهِ ﷺ: «لَقَدْ خَشِيت على نَفْسِي»، أيْ: خَشِيت ألّا أنْهَضَ بِأعْباءِ النّبُوّةِ، وأنْ أضْعُفَ عَنْها، ثُمّ أزالَ اللهُ خَشْيَتَهُ، ورَزَقَهُ الأيْدَ والقُوّةَ، والثّباتَ والعِصْمةَ.

---

(١) أخرجه الشيخان، «فتح الباري»، كتاب بدء الوحي: (١: ٢٢)، ومسلم، كتاب الإيمان: (١٠: ١٤١).

(٢) سقط من (أ).

(٣) عن (ج)، (د).

(٤) في (ف): «وبملائكته».

(٥) في (ف): «الثواب».

وقَدْ قِيلَ: إنّ خَشْيَتَهُ كانَتْ مِنْ قَوْمِهِ أنْ يَقْتُلُوهُ، ولا غَرْوَ؛ فإنّهُ بَشَرٌ يَخْشى مِن القَتْلِ والإذايةِ الشّدِيدةِ ما يَخْشاهُ البَشَرُ، ثُمّ يُهَوِّنُ عَلَيْهِ الصّبْرُ في ذاتِ اللهِ كُلَّ خَشْيةٍ، ويَجْلِبُ إلى قَلْبِهِ كُلَّ شَجاعةٍ وقُوّةٍ. وقَدْ قِيلَ في مَعْنى الخَشْيةِ أقْوالٌ غَيْرُ هَذِهِ، رَغِبتُ عن الإطالةِ بذِكْرِها.

* * *

ابْتِداءُ تَنْزِيلِ القُرْآنِ

قالَ ابنُ إسْحاقَ: فابْتُدِئَ رَسُولُ الله ﷺ بِالتَّنْزِيلِ في شَهْرِ رَمَضانَ بِقَوْلِ الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقالَ الله تَعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ * لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ * سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [القدر: ١-٥]، وقالَ الله تَعالى: ﴿حمٓ * وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ * إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [الدخان: ١-٥]، وقالَ تَعالى: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: ٤١]. وذلك مُلْتَقى رَسُولِ اللهِ ﷺ والمُشْرِكِينَ بِبَدْرٍ.

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وحَدَّثَني أبو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بنُ عَلِيِّ بنِ حُسَيْنٍ: أنَّ رَسُولَ الله ﷺ التقى هُوَ والمُشْرِكُونَ بِبَدْرٍ يَوْمَ الجُمُعةِ صَبِيحةَ سَبْعَ عَشْرَةَ مِنْ رَمَضانَ.

قالَ ابنُ إسْحاقَ: ثُمَّ تَتامَّ الوَحْيُ إلى رَسُولِ الله ﷺ وهُوَ مُؤْمِنٌ باللهِ مُصَدِّقٌ بِما جاءَهُ مِنْهُ، قَدْ قَبِلَهُ بِقَبُولِهِ، وتَحَمَّلَ مِنْهُ ما حَمَلَهُ على رِضا العِبادِ وسَخَطِهِمْ، والنُّبُوّةُ أثْقالٌ ومُؤْنةٌ، لا يَحْمِلُها ولا يَسْتَطِيعُ بِها إلّا أهلُ القوّةِ

والعزْمِ مِن الرُّسُلِ بِعَوْنِ اللهِ تَعالى وتَوْفيقِهِ؛ لَمَا يَلْقَوْنَ مِن النّاسِ وما يُرَدُّ عَلَيْهِمْ مِمّا جاؤُوا بِهِ عَن اللهِ سُبْحانَهُ وتَعالى.

قالَ: فمَضى رَسُولُ اللهِ ﷺ على أمْرِ اللهِ على ما يَلْقى مِنْ قَوْمِهِ مِن الخِلافِ والأذى.

فَصْلٌ

وذَكَرَ قَوْلَ اللهِ تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ [البقرة: ١٨٥] إلى آخِرِ الآياتِ، وسُورةَ القدْرِ كلَّها، والدُّخان [١-٥]، والأنفال [٤١]، مُسْتَشْهِدًا بِذَلِكَ على أنّ القُرْآنَ أُنْزِلَ في شَهْرِ رَمَضانَ، وفي لَيْلةِ القَدْرِ مِنْ رَمَضانَ، ويَحْمِلُ هَذا تَأْوِيلَيْنِ:

أحَدُهُما: أنْ يَكُونَ أرادَ بَدْءَ النّزُولِ وأوّلَهُ؛ لِأنّ القُرْآنَ نَزَلَ في أكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ سَنةً في رَمَضانَ وغَيْرِهِ.

والثّانِي: ما قالَهُ ابنُ عَبّاسٍ: إنّهُ نَزَلَ جُمْلةً واحِدةً إلى سَماءِ الدّنْيا، فجُعِلَ في بَيْتِ العِزّةِ مَكْنُونًا[1] في الصّحُفِ المُكَرّمةِ، المَرْفُوعةِ المُطَهّرةِ، ثُمّ نَزَلَتْ مِنْهُ الآيةُ بَعْدَ الآيةِ، والسّورةُ بَعْدَ السّورةِ في أجْوِبةِ السّائِلِينَ، والنّوازِلِ الحادِثةِ، إلى أنْ تُوُفّيَ ﷺ. وهَذا التّأْوِيلُ أشْبَهُ بِالظّاهِرِ، وأصَحّ في النّقْلِ. واللهُ أعْلَمُ.

فَصْلٌ

وفي قَوْلِه سُبحانهُ وتعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فذَكَرَ الشّهْرَ مُضافًا

(١) في (ف): «مكتوبا».

إلى «رَمَضانَ»، واخْتارَ الكُتّابُ والمُوَثِّقُونَ النُّطْقَ بِهِ بِهَذا اللّفْظِ دُونَ أنْ يَقُولُوا: كُتِبَ في رَمَضانَ. وتَرْجَمَ البُخارِيّ والنَّسَوِيّ على جَوازِ اللّفْظَيْنِ جَمِيعًا[١]، وأوْرَدا حَدِيثَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «مَنْ صامَ رمضان»، و«إذا جاءَ رَمَضانُ»، ولَمْ يَقُلْ: شَهْرُ رَمَضانَ، وقَدْ بيّنْت[٢] أنّ لِكُلّ مَقام مقالًا، ولا بُدّ مِنْ ذِكْرِ «شَهْرٍ» في مَقام، ومِنْ حَذْفِهِ في مَقامٍ آخَرَ، والحِكْمةُ في ذِكْرِهِ إذا ذُكِرَ في القُرْآنِ وغَيْرِه، والحِكْمَةُ أيْضًا في حَذْفِهِ إذا حُذِفَ مِن اللَّفْظِ، وأيْنَ يَصْلُحُ الحَذْفُ، ويَكُونُ أبْلَغَ مِن الذّكْرِ؟ كُلّ هَذا مُبَيَّنٌ في كِتابِ «نَتائِجِ الفِكَرِ»[٣]، فهُنالكَ أوْرَدْنا فيهِ فوائِدَ تَعْجِزُ عَنْها هِمَمُ أهْلِ هَذا العَصْرِ، أدْناها تُساوِي رِحلةً عِنْدَ مَنْ عَرَفَ قَدْرَها، والحمدُ لله.

غَيْرَ أنّا نُشِيرُ إلى بَعْضِها، فنَقُولُ: قالَ سِيبَوَيْهِ[٤]: ومِمّا لا يَكُونُ العَمَلُ إلّا فيهِ كُلّهِ: المُحَرّمُ وصَفَرٌ، يُرِيدُ أنّ الِاسْمَ العَلَمَ يَتَناوَلُه[٥] اللّفْظُ كُلُّهُ، وكذَلِكَ إذا قُلْت: الأحَدُ والِاثْنَيْنِ، فإنْ قُلْت: يَوْمُ الأحَدِ أوْ شَهْرُ المُحَرّمِ، كانَ ظَرْفًا، ولَمْ يَجْرِ مَجْرى المَفْعُولاتِ، وزالَ العُمُومُ مِن اللّفْظِ؛ لِأنّك تُرِيدُ: في الشّهْرِ وفي اليَوْمِ، وكذَلِكَ[٦] قالَ عَلَيْهِ السّلامُ: «مَنْ صامَ رَمَضانَ»، ولَمْ يَقُلْ: شَهْرَ

---

(١) «فتح الباري»، كتاب الصوم، باب هل يقال: رمضان أو شهر رمضان؟ ومن رأى كله واسعًا: (٤: ١١٢)، و«سنن النسائي»، باب الرخصة في أن يقال لشهر رمضان: رمضان، وذكر حديثَين بعده: (١: ٣٠٠).

(٢) في (أ)، (هـ): «ثبت».

(٣) انظر: «نتائج الفكر في النحو» للسهيلي: (ص: ٣٨٤-٣٨٦).

(٤) انظر: «الكتاب» (١: ٢١٦).

(٥) في (ب): «يتناول». ولعل الصواب: «يتناوله الفعلُ كلُّه». يقول السهيلي في «النتائج» (ص: ٣٨٢): «واعلم أنه ما كان من الظروف له علم، فإن الفعل إذا وقع فيه تناول جميعه، وكان الظرف مفعولًا على سعة الكلام».

(٦) في (ف): «ولذلك».

رَمَضانَ؛ لِيَكُونَ العَمَلُ فيهِ [كُلِّهِ][١]، وهَذِهِ إشارةٌ إلى بَعْضِ تِلْكَ الفَوائِدِ الَّتِي أحكَمْناها في غيرِ هذا الكتابِ.

بَقِيّةٌ مِنْ حَدِيثِ ورَقَةَ: وذَلِكَ أنّهُ قالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: «لَتُكَذَّبَنّهْ»، فلَمْ يَقُلْ لَهُ النّبيّ ﷺ شَيْئًا. ثُمّ قالَ: «ولَتُؤْذَيَنّهْ»، فلَمْ يَقُلْ لَهُ النبيُّ ﷺ شَيْئًا، ثُمّ قالَ: «ولَتُخْرَجَنّهْ»، فقالَ[٢]: «أوَمُخرجيّ هُمْ؟» ففي هَذا دَلِيلٌ على حُبّ الوَطَنِ وشِدّةِ مُفارَقَتِهِ على النّفسِ، وأيْضًا فإنّهُ حَرَمُ اللهِ وجِوارُ بَيْتِهِ، وبَلْدةُ أبيهِ إسْماعِيلَ، فلِذَلِكَ تَحرَّكَت نفْسُه عِند ذِكرِ الخروج منه ما لم يَتحرَّكْ[٣] قبْلَ ذلك، فقال: «أوَمُخرجيَّ هُمْ؟» والمَوْضِعُ الدّالّ على تَحرّكِ النّفْسِ وتَحرّقِها: إدْخالُ الواوِ بَعْدَ أَلِفِ الِاسْتِفْهامِ مَعَ اخْتِصاصِ الإخْراجِ بِالسّؤالِ عَنْهُ؛ وذَلِكَ أنّ الواوَ تُرَدّ إلى الكَلامِ المُتَقَدّمِ، وتُشْعِرُ المُخاطَبَ بِأنّ الِاسْتِفْهامَ على جِهةِ الإنْكارِ، أو[٤] التّفَجُّعِ لِكَلامِهِ، والتّألُّمِ[٥] مِنْهُ.

فَصْلٌ

وذَكَرَ عَبْدَ اللهِ بنَ حَسَنِ بنِ حَسَنِ بنِ عَلِيّ بنِ أبي طالِبٍ، وقَوْلَهُ: «حَدّثَتْنِي أُمّي فاطِمةُ بِنْتُ الحُسَيْنِ: أنّ خَدِيجةَ أدخَلَتْهُ بَيْنَ ثَوْبيها...» الحَدِيث.

عَبْدُ اللهِ هَذا[٦] هُوَ: عَبْدُ اللهِ بنُ حَسَنِ بنِ حَسَنِ بنِ عَلِيّ بنِ أبِي طالِبٍ

(١) ليس في (أ).
(٢) في (ف): «قال».
(٣) في (ف): «تتحرك».
(٤) في (ف): «و».
(٥) في (ج): «أو التألم».
(٦) انظر: «نسب قريش» (ص: ٥١).

رضيَ اللهُ عنهُ، وأُمّهُ: فاطِمةُ بِنْتُ الحُسَيْنِ بنِ عليٍّ أُخْتُ سُكَيْنَةَ، واسْمُها: آمِنةُ، وسُكَيْنةُ لَقَبٌ لَها[١] الّتِي كانَتْ ذاتَ دُعابةٍ ومَزْحٍ، وفي سُكَيْنةَ وأُمّها الرَّبابِ[٢] يَقُولُ الحُسَيْنُ بنُ عَلِيّ رَضِيَ اللهُ عنه: [من الوافر]

كَأنّ اللّيْلَ مَوْصُولٌ بِلَيْلٍ إذا زارَتْ سُكَيْنةُ والرَّبابُ

أي: زارتْ[٣] قَوْمَها، وهُمْ: بَنُو عُلَيْمِ بنِ جَنابٍ، مِنْ كلْبٍ، ثمَّ مِن بني كَعْبِ ابنِ عُلَيْمٍ، ويُعْرَفُ بَنُو كَعْبِ بنِ عُلَيْمٍ بِبَنِي زَيْدَ، غَيْرَ مَصْرُوفٍ؛ لِأنّهُ اسْمُ أُمّهِمْ.

وعَبْدُ اللهِ بنُ حَسَنٍ هُوَ والِدُ الطّالِبِيّينَ القائِمِينَ على بَنِي العَبّاسِ، وهُمْ: مُحَمّدٌ ويَحْيى وإدْرِيسُ، ماتَ إدْرِيسُ بِإفْرِيقِيّةَ فارًّا مِن الرّشِيدِ، وماتَ مَسْمُومًا في دُلّاعةٍ[٤] أكَلَها.

ووَقَعَ في «كِتابِ الزّبَيْرِ بنِ أَبِي بَكْرٍ» قالَ: قالَ عَبْدُ الرّحْمَنِ بنُ زَيْدٍ: قالَ آدَمُ عَلَيْهِ السّلامُ: مِمّا فُضِّلَ بِهِ عَلَيَّ ابْنِي صاحِبُ البَعِيرِ أنّ زَوْجَهُ كانَتْ عَوْنًا لَهُ على تَبْلِيغِ أمْرِ اللهِ، وأنّ زَوْجِي كانَتْ عَوْنًا لِي على المَعْصِيةِ[٥].

* * *

(١) في (ب): «وهي التي».
(٢) انظر: «المؤتلف والمختلف» للدارقطني: (١ : ٤٦٨).
(٣) في (ف): «أي إذا زارت».
(٤) الدُّلاعة: واحدة الدلاع. وهو البطيخ الشامي، بلغة المغرب. وفي «تاج العروس»: «وفي تواريخهم: سُمَّ مولاي إدريس في دلاعة».
(٥) أخرجه ابن عساكر. انظر: «الدر المنثور» (١ : ١٣٣)، ولفظه: «إن آدم ذكر محمدًا رسول الله ﷺ فقال: إن أفضل ما فُضِّل به عليَّ ابني صاحب البعير...».

إِسْلامُ خَدِيجةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ

وَآمَنَتْ بِهِ خَدِيجةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وصَدَّقَتْ بِما جاءَهُ مِن اللهِ، ووازَرَتْهُ على أمْرِهِ، وكانَتْ أوَّلَ مَنْ آمَنَ باللهِ وبِرَسُولِهِ، وصَدَّقَ بِما جاءَ مِنْهُ، فخَفَّفَ اللهُ بذلك عَنْ نَبِيِّهِ ﷺ؛ لا يَسْمَعُ شَيْئًا مِمّا يَكْرَهُهُ مِنْ رَدٍّ عَلَيْهِ وتَكْذِيبٍ لَهُ، فيُحْزِنُهُ ذلك، إلّا فرَّجَ اللهُ عَنْهُ بِها إذا رَجَعَ إلَيْها، تُثَبِّتُهُ وتُخَفِّفُ عَلَيْهِ، وتُصَدِّقُهُ وتُهَوِّنُ عَلَيْهِ أمْرَ النّاسِ رَحِمَها اللهُ تَعالى.

[تَبْشِيرُ الرَّسُولِ لِخَدِيجةَ بِبَيْتٍ مِنْ قَصَبٍ]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: وحَدَّثَنِي هِشامُ بنُ عُرْوةَ، عَنْ أبيهِ عُرْوةَ بنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ جَعْفَرِ بنِ أبي طالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أُمِـرْتُ أنْ أُبَشِّرَ خَدِيجةَ بِبَيْتٍ مِنْ قَصَبٍ، لا صَخَبَ فيهِ ولا نَصَبَ».

قالَ ابنُ هِشامٍ: القصَبُ ههُنا: اللُّؤْلُؤُ المُجَوَّفُ.

فَصْلٌ

وذَكَرَ حَدِيثَ عَبْدِ اللهِ بنِ جَعْفَرِ بنِ أبِي طالِبٍ: أنّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أُمِرَ أنّ يُبَشِّرُ خَدِيجةَ بِبَيْتٍ مِنْ قصبٍ، لا صَخَبَ فيهِ ولا نَصَبَ. هَذا حَدِيثٌ مُرْسَلٌ، وقَدْ رَواهُ مُسْلِمٌ مُتّصِلًا عَنْ هِشامِ بنِ عُرْوةَ، عَنْ أبِيهِ، عَنْ عائِشةَ، قالَتْ: ما غِرْتُ على أحدٍ ما غِرْتُ على خَدِيجةَ، ولَقَدْ هَلَكَتْ قَبْلَ أنْ يَتَزَوَّجَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ

بِثَلاثِ سِنِينَ، ولَقَدْ أُمِرَ أَنْ يُبَشِّرَها بِبَيْتٍ مِنْ قَصَبٍ في الجَنَّةِ(١).

وَفي حَدِيثٍ آخَرَ: أَنّ عائِشَةَ قالَتْ لهُ: ما تَذْكُرُ مِنْ عَجُوزٍ حَمْراءِ الشِّدْقَيْنِ هَلَكَتْ في الدّهْرِ، قَدْ أَبْدَلَك اللهُ خَيْرًا مِنْها؟! فغَضِبَ، وقالَ: «واللهِ ما أَبْدَلَنِي اللهُ خَيْرًا مِنْها؛ آمَنَتْ بِي حِينَ كَذَّبَنِي النّاسُ، وآسَتْنِي(٢) بِمالِها حِينَ حَرَمَنِي النّاسُ، ورُزِقْتُ مِنْها الوَلَدَ وحُرِمْتُه مِنْ غَيْرِها»(٣).

ورَوى يُونُسُ عَنْ عَبْدِ الواحِدِ بن أيمَنَ المخزوميِّ، قال: حَدَّثَنا أبو نَجِيحٍ والدُ عبْدِ الله بن أبي نَجِيحٍ، قالَ: أُهْدِيَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ جَزُورٌ أَوْ لَحْمٌ، فأَخَذَ [رَسُولُ اللهِ](٤) ﷺ عَظْمًا مِنْها، فناوَلَهُ الرّسُولُ بِيَدِه، فقالَ [لَهُ](٥): «اذْهَبْ بِهَذا إلى فُلانةَ»، فقالَتْ عائِشةُ لهُ: لِمَ غَمَرْتَ(٦) يَدَكَ؟ فقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إنّ خَدِيجةَ أَوْصَتْنِي بِها»، فغارَتْ عائِشةُ، وقالَتْ: لَكَأَنّهُ لَيسَ(٧) في الأَرْضِ امْرَأَةٌ إلّا خَدِيجةُ، فقامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُغْضَبًا، فلَبِثَ ما شاءَ اللهُ ثُمّ رَجَعَ، فإذا أُمُّ رُومانَ، قالَتْ: يا رَسُولَ اللهِ، ما لَكَ ولِعائِشةَ؟! إنّها حَدَثةٌ(٨)، وأنتَ أحَقّ

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب فضائل الصحابة: (٤: ١٨٨٨).

(٢) في (أ)، (هـ): «وواستني».

(٣) أخرجه الإمام أحمد: (٦: ١١٨)، والبخاري ومسلم، «فتح الباري»، كتاب مناقب الأنصار: (٧: ١٣٤)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة: (٤: ١٨٨٩).

(٤) ليس في (أ).

(٥) في «سيرة ابن إسحاق»: «فقالت».

(٦) في (أ): «لقد غمرت». تأخذ عليه ﷺ أنه أوسع لها في العطاء، فمن شأن الآخذ كثيرًا من الإناء أنه يغمس يده في أسفله ويغمره فيه، وقد قالوا: هو أغمرهم يدًا؛ أي: أوسعهم فضلًا.

(٧) في (ف): «ليست».

(٨) في «سيرة ابن إسحاق»: «حدث». وفي «تاج العروس»: «وكل فتيٍّ من الناس والدواب والإبل: حدث، والأنثى: حدثة».

مَنْ تَجاوَزَ عَنْها، فأخَذَ بِشِدْقِ عائِشةَ، وقالَ: «ألَسْتِ القائِلةَ: كَأنّما لَيْسَ على الأرْضِ امْرَأةٌ إلّا خَدِيجةُ؟ واللهِ لَقَدْ آمَنَتْ بِي إذْ كَفَرَ قَوْمُكِ، ورُزِقَت مِنّي الوَلَدَ وحُرِمْتُمُوهُ»(١).

وفي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»: أنّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ: «خَيْرُ نِسائِها: مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرانَ، وخَيْرُ نِسائِها(٢): خَدِيجةُ»، [والهاءُ في «نِسائِها» حِينَ ذَكَرَ مَرْيَمَ عائِدةٌ على السّماءِ، والهاءُ في «نِسائِها»](٣) حِينَ ذَكَرَ خَدِيجةَ عائِدةٌ على الأرْضِ؛ وذَلِكَ أنّ هَذا الحَدِيثَ رَواهُ وكِيعٌ، وأبُو أُسامةَ، وابنُ نُمَيْرٍ في آخَرِينَ، وأشارَ وكِيعٌ مِنْ بَيْنِهِمْ حِينَ حَدّثَ بالحَدِيثِ بِإصْبَعِهِ إلى السّماءِ عِنْدَ ذِكْرِ مَرْيَمَ، وإلى الأرْضِ عِنْدَ ذِكْرِ خَدِيجةَ، وهَذِهِ إشارةٌ لَيْسَتْ مِنْ رَأْيِهِ، وإنما هي زِيادةٌ في حَدِيثِهِ [عَنِ النّبِيِّ](٤) ﷺ، وزِيادةُ العَدْلِ مَقْبُولةٌ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يَكُونَ مَعْنى إشارَتِهِ إلى السّماءِ والأرْضِ عِنْدَ ذِكْرِهِما، أيْ: [هُما](٥) خَيْرُ نِساءٍ بَيْنَ السّماءِ والأرْضِ، وهَذا أشبهُ عِنْدِي بِظاهِرِ الحَدِيثِ. ولَعَلّنا أنْ نَذْكُرَ اخْتِلافَ العُلَماءِ في التّفْضِيلِ بَيْنَ مَرْيَمَ رضيَ اللهُ عنها، وبَيْنَ خَدِيجةَ وعائِشةَ وأزْواجِ النّبِيِّ ﷺ، وما نَزَعَ بِهِ كُلُّ فرِيقٍ مِنْهُمْ(٦).

وأما قَولُه: «بِبَيتٍ مِن قَصَبٍ»، فقد رواهُ الخَطّابِيّ مُفَسَّرًا، وقالَ فيهِ: قالَتْ خَدِيجةُ: يا رَسُولَ اللهِ، هَلْ في الجَنّةِ قَصَبٌ؟ فقالَ: «إنّهُ قَصَبٌ مِنْ لُؤْلُؤٍ

---

(١) «سيرة ابن إسحاق» (ص: ٢٢٧-٢٢٨).

(٢) مسلم، كتاب فضائل الصحابة: (١٨٨٦).

(٣) سقط من (ب).

(٤) في (أ): «عنه».

(٥) ليس في (ب).

(٦) بعده في (ف): «إن شاء الله».

مُجَبًّى». قالَ الخَطَّابِيّ: يَجُوزُ أنْ يَكُونَ مَعْناهُ: مُجَوَّبٍ مِنْ قَوْلِك: جُبْتُ الثَّوْبَ؛ إذا خَرَقْتَه، فيَكُونُ مِن المَقْلُوبِ[1]، ويجوزُ أنْ يكونَ الأصْلُ: مُجبَّبًا، بباءَيْنِ مِن الجَبِّ، وهُوَ القَطْعُ؛ أيْ: قد قُطِعَ داخِلُهُ، وقُلِبَت الباءُ ياءً مِن أجلِ التَّضعيفِ، كَما قالُوا: تَظَنَّيْتُ، مِن الظَّنّ، وقَصّيْتُ أظْفارِي.

وتكَلَّمَ أصْحابُ المَعانِي في هذا الحَدِيثِ، وقالُوا: كَيْفَ لَمْ يُبَشِّرْها إلّا بِبَيْتٍ، وأدْنى أهْلِ الجَنّةِ مَنْزِلةً مَنْ يُعْطى مَسِيرةَ أَلْفِ عامٍ في الجَنّةِ، كَما في حَدِيثِ ابنِ عُمَرَ، خَرّجَهُ التّرْمِذِيُّ[2]؟! وكَيْفَ لَمْ يُنْعَتْ هَذا البَيْتُ بِشَيْءٍ مِنْ أوْصافِ النّعِيمِ والبَهْجةِ أكْثَرَ مِنْ نَفْيِ الصّخَبِ، وهُوَ رَفْعُ الصّوْتِ؟!

فأمّا أبُو بَكْرٍ الإسْكافُ فقالَ في كِتابِ «فوائِدِ الأخْبارِ» لَهُ: مَعْنى الحَدِيثِ: أنها بُشِّرَتْ بِبَيْتٍ زائِدٍ على ما أعَدّه اللهُ لَها مِمّا هُوَ ثَوابٌ لِإيمانِها وعَمَلِها؛ ولِذَلِكَ قالَ: «لا صَخَبَ فيهِ ولا نَصَبَ»؛ أيْ: لَمْ تَنْصَبْ فيهِ، ولَمْ تَصْخَبْ؛ أيْ: إنّما أُعْطِيَتْه زِيادةً على جَمِيعِ العَمَلِ الّذِي نَصِبَتْ فيهِ.

قالَ المُؤَلّفُ عفا اللهُ عنه: لا أدْرِي ما هَذا التّأْوِيلُ، ولا يَقْتَضِيهِ ظاهِرُ الحَدِيثِ، ولا يُوجَدُ شاهِدٌ يَعْضُدُهُ. وأمّا الخَطّابِيّ فقالَ: «البَيْتُ ههُنا عِبارةٌ عَنْ قَصْرٍ»[3]، وقَدْ يُقالُ لِمَنْزِلِ الرّجُلِ: بَيْتُهُ. والّذِي قالَهُ صَحِيحٌ، يُقالُ في القَوْمِ: هُمْ أهْلُ بَيْتِ شَرَفٍ وعِزٍّ[4]، وفي التّنْزِيلِ: ﴿ غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الذاريات: ٣٦]، ولكن لِذِكْرِ البيتِ ههنا بِهَذا اللّفْظِ ولِقَوْلِهِ: «بِبَيْتٍ»، ولَمْ يَقُلْ:

---

(١) «غريب الحديث» للخطابي: (١: ٤٩٥-٤٩٦).
(٢) «عارضة الأحوذي»، أبواب صفة الجنة: (١٠: ١٩)، وأبواب التفسير: (١٢: ٢٣٠).
(٣) في (أ)، (هـ): «القصر».
(٤) في (أ): «هم أهل شرف وبيت عز». وفي (ب): «هم أهل بيت شرف وبيت عز».

«بِقَصْرٍ» مَعْنًى لائِقٌ بِصُورةِ الحالِ؛ وذَلِكَ أنّها كانَتْ رَبّةَ بَيْتِ إسْلامٍ لَمْ يَكُنْ على الأرْضِ بَيْتُ إسْلامٍ إلّا بَيْتُها حِينَ آمَنَتْ، وأيْضًا فإنّها أوّلُ مَنْ بَنى بَيْتًا في الإسْلامِ بِتَزْوِيجِها رَسُولَ اللهِ ﷺ ورَغْبَتِها فيهِ، وجَزاءُ الفِعْلِ يُذْكَرُ بِلَفْظِ الفِعْلِ، وإنْ كانَ أشْرَفَ مِنْهُ، كما جاءَ: «مَنْ كَسا مُسْلِمًا على عُرْيٍ كَساهُ اللهُ مِنْ حُلَلِ الجَنّةِ، ومَنْ سَقى مُسْلِمًا على ظَمَأٍ سَقاهُ اللهُ مِن الرّحِيقِ»[١].

ومِنْ هَذا البابِ قولُه عليه السلامُ: «مَن بنى لله مَسْجِدًا بَنى اللهُ لَهُ مِثْلَهُ في الجَنّةِ»[٢]، لَمْ يُرِدْ مِثْلَهُ في كَوْنِهِ مَسْجِدًا، ولا في صِفَتِهِ، ولَكِنْ قابَلَ البُنْيانَ بِالبُنْيانِ، أيْ: كما بنى بُني لَهُ، كَما قابَلَ الكِسْوةَ بِالكِسْوةِ، والسّقْيَ بِالسّقْيِ، فههُنا وقَعَت المُماثَلةُ، لا في ذاتِ المَبنِيّ أو المَكْسُوِّ.

وإذا ثبَتَ هذا، فمِن ههنا اقْتَضَت الفَصاحةُ أنْ يُعبّرَ لَها عَمّا بُشّرَتْ بِهِ بِلَفْظِ البَيْتِ، وإنْ كانَ فيهِ ما لا عَيْنٌ رَأتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ.

ومِنْ تَسْمِيةِ الجَزاءِ على الفِعْلِ بِالفِعْلِ في عَكْسِ ما ذَكَرْناهُ قولُه: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤].

وَأمّا قَوْلُهُ: «لا صَخَبَ فيهِ ولا نَصَبَ»، فإنّهُ أيْضًا مِنْ بابِ ما كُنّا بِسَبِيلِهِ؛ لِأنّهُ عَلَيْهِ السّلامُ دَعاها إلى الإيمانِ[٣]، فأجابَتْهُ عَفْوًا، لَمْ تُحْوِجْهُ إلى أنْ يَصْخَبَ كَما يَصْخَبُ البَعْلُ إذا تَعَصّتْ عَلَيْهِ حَلِيلَتُهُ، ولا أنْ يَنْصَبَ، بَلْ أزالَتْ عَنْهُ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بإسناده إلى أبي سعيد الخدري، وفيه: أراه رفعه إلى النبي ﷺ، «المسند» (٣: ١٣-١٤)، و«سنن أبي داود»، كتاب الزكاة: (٢: ١٣٠)، و«عارضة الأحوذي»، أبواب صفة القيامة: (٩: ٢٧٥-٢٧٦).

(٢) أخرجه الشيخان. انظر: «فتح الباري» كتاب الصلاة: (١: ٥٤٤)، ومسلم، كتاب المساجد: (١: ٢٣٨٧).

(٣) في (ب): «الإسلام».

كُلّ نَصَبٍ، وآنَسَتْهُ مِنْ كُلّ وحْشةٍ، وهَوّنَتْ عَلَيْهِ كُلّ مَكْرُوهٍ، وأراحَتْهُ بمالِها مِنْ كُلّ كَدٍّ ونَصَبٍ، فوَصَفَ مَنْزِلَها الّذِي بُشّرَتْ بِهِ بالصّفّةِ المُقابِلةِ لِفَعالِها[1] وصُورَتِهِ.

وَأمّا قَوْلُهُ: «مِنْ قَصَبٍ»، ولَمْ يَقُلْ: مِنْ لُؤْلُؤٍ، وإنْ كانَ المَعْنى واحِدًا، ولَكِنْ في اخْتِصاصِهِ هَذا اللّفْظ مِن المُشاكَلةِ المَذْكُورةِ والمُقابَلةِ بلَفْظِ الجَزاءِ لِلَفْظِ العَمَلِ: أنّها رَضِيَ اللهُ عَنْها كانَتْ قَدْ أحْرَزَتْ قَصَبَ السّبْقِ إلى الإيمانِ، دُونَ غَيْرِها مِن الرّجالِ والنّسْوانِ. والعَرَبُ تُسَمّي السّابِقَ مُحْرِزًا لِلْقَصْبِ.

قالَ الشّاعِرُ: [من الطويل]

مَشى ابنُ الزّبَيْرِ القَهْقَرى وتَقَدّمَتْ   أُمَيّـةُ حَتّـى أحْـرَزُوا القَصَبـاتِ

فاقْتَضَت البَلاغـةُ أنْ يُعبّرَ بِالعِبـارةِ المُشاكِلةِ لِعَمَلِها في جَمِيـعِ ألْفـاظِ الحديثِ، فتَأمّلْهُ.

* * *

(١) في (أ): «لفعلها».

[جِبْرِيلُ يُقْرِئُ خَدِيجَةَ السَّلامَ]

قالَ ابنُ هِشامٍ: وحَدَّثَنِي مَنْ أثِقُ بِهِ، أنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلامُ أتى رَسُولَ اللهِ ﷺ، فقالَ: أَقْرِئْ خَدِيجَةَ السَّلامَ مِنْ رَبِّها. فقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يا خَدِيجَةُ، هذا جِبْرِيلُ يُقْرِئُكَ السَّلامَ مِنْ رَبِّكَ»، فقالَتْ خَدِيجَةُ: اللهُ السَّلامُ، ومِنْهُ السَّلامُ، وعلى جِبْرِيلَ السَّلامُ.

فَصْلٌ

وذَكَرَ قَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِخَدِيجَةَ: «هَذا جِبْرِيلُ يُقْرِئُكِ السّلامَ مِنْ رَبّك[1]...» الحَدِيث، يُذْكَرُ عَنْ أَبِي بَكْرِ بن داودَ[2] أنه سُئِلَ: «أعائِشَةُ أَفْضَلُ أَمْ خَدِيجَةُ؟ فقالَ: عائِشَةُ أَقْرَأَها رَسُولُ اللهِ ﷺ السّلامَ مِنْ جِبْرِيلَ، وخَدِيجَةُ أَقْرَأَها جِبْرِيلُ السّلامَ مِنْ رَبّها على لِسانِ مُحَمّدٍ ﷺ، فهِيَ أَفْضَلُ. قِيلَ لَهُ: فمَنْ أَفْضَلُ: خَدِيجَةُ أَمْ فاطِمَةُ؟ فقالَ: إنّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «إنّ فاطِمَةَ بَضْعَةٌ مِنِّي»، فلا أَعْدِلُ بِبَضْعَةٍ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أحَدًا»، وهَذا اسْتِقْراءٌ حَسَنٌ، ويَشْهَدُ لِصِحّةِ هَذا الِاسْتِقْراءِ أنّ أبا لُبابَةَ حِينَ ارْتَبَطَ نَفْسَهُ، وحَلَفَ ألّا يَحُلَّهُ إلّا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فجاءَتْ فاطِمَةُ لِتَحُلَّهُ، فأبى مِنْ أجْلِ قَسَمِهِ، فقالَ رَسُولُ اللهِ

---

(١) في (ف): «يقرئك من ربك السلام».

(٢) هو محمد ابن الإمام داود بن علي بن خلف الظاهري، صاحب كتاب «الزهرة في الآداب والشعر»، وكان يُضرَب به المثل في الذكاء، حدث عن أبيه، ومات قبل الكهولة، تُوفِّي في سنة (٢٩٧هـ). انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٣: ١٠٩).

ﷺ: «إنّما فاطِمةُ مُضْغةٌ مِنّي»[١]، فحَلّتْهُ، وسَنَذْكُرُ الحَديثَ بإسْنادِهِ في مَوْضِعِهِ إنْ شاءَ اللهُ تَعالى.

ويَدُلّ أيْضًا على تَفْضِيلِ فاطِمةَ قَوْلُهُ ﷺ [لَها][٢]: «أَما تَرْضَيْنَ أنْ تكُوني سَيّدةَ نِساءِ أَهْلِ الجَنّةِ إلّا مَرْيَمَ[٣]؟» فدَخَلَ في هَذا الحَدِيثِ أُمُّها وأخَواتُها.

وقَدْ تكَلّمَ النّاسُ في المَعْنى الّذِي سادَتْ بِهِ فاطِمةُ غَيْرَها دُونَ أَخَواتِها، فقِيلَ: إنّها ولَدَتْ سَيّدَ هَذِهِ الأُمّةِ، وهُوَ الحَسَنُ [بنُ عليٍّ][٤] الّذِي يَقُولُ فيهِ النّبيّ ﷺ: «إنّ ابنِي هَذا سَيِّدٌ»، وهُوَ خَلِيفةٌ، وبَعْلُها خَلِيفةٌ أيْضًا، وأحْسَنُ مِنْ هَذا القَوْلِ قَوْلُ مَنْ قالَ: سادَتْ أخَواتها وأُمّها؛ لِأَنّهُنّ مُتْنَ في حَياةِ رسول الله ﷺ، فكُنَّ في صَحِيفَتِهِ، وماتَ أبُوها ـ وهُوَ سَيّدُ العالَمِينَ ـ فكانَ رُزْؤُهُ في صَحِيفَتِها ومِيزانِها.

وقَدْ رَوى البَزّارُ مِنْ طَرِيقِ عائِشَةَ: أَنّهُ عليه السلام قالَ لِفاطِمةَ: «هِيَ خَيْرُ بَناتِي؛ إنّها أُصِيبَتْ بي»، فحُقَّ لِمَنْ كانَتْ هَذِهِ حالها أنْ تسُودَ نِساءَ أَهْلِ الجَنّةِ. وهَذا قولٌ حَسَنٌ، واللهُ أعْلَمُ.

ومِنْ سُؤْدَدِها أيْضًا: أنّ المَهْدِيَّ المُبَشَّرَ بِهِ آخِرَ الزّمانِ مِنْ ذُرّيّتِها، فهِيَ مَخْصُوصةٌ بِهَذا كُلّهِ رضيَ اللهُ عنها، والأحادِيثُ الوارِدةُ في أمْرِ المَهْدِيّ كَثِيرةٌ، وقَدْ جَمَعَها أبُو بَكْرِ بنُ أبِي خَيْثَمةَ فأكْثَرَ.

ومِنْ أغْرَبِها إسنادًا ما ذَكَرَهُ أبو بكرٍ الإسْكافُ في «فوائِدِ الأخْبارِ» [لهُ][٥]

---

(١) أخرجه الشيخان في فضائل الصحابة. انظر: «فتح الباري» (٧: ٧٨)، ومسلم: (٤: ١٩٠٢).
(٢) عن (ب).
(٣) أخرجه الترمذي في أبواب المناقب. انظر: «عارضة الأحوذي» (ص: ٢٥٠-٢٥١).
(٤) عن (ب).
(٥) عن (ب).

مُسْنَدًا إلى مالِكِ بنِ أنَسٍ، عَنْ مُحَمّدِ بنِ المُنْكَدِرِ، عَنْ جابرٍ، قالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ كَذّبَ بالدّجّالِ فقَدْ كَفرَ، ومَنْ كَذّبَ بالمَهْدِيّ فقَدْ كفَرَ»، وقالَ في طُلُوعِ الشّمْسِ مِنْ مَغْرِبِها مِثْلَ ذَلِكَ فيما أحسَبُ.

وذكرَ قَوْلَ خَدِيجةَ: «اللهُ السّلامُ، ومِنْهُ السّلامُ، وعلى جِبْرِيلَ السّلامُ»، عَلِمَتْ بِفِقْهِها أنّ اللهَ سُبْحانَهُ لا يُرَدُّ عَلَيْهِ السّلامُ كما يُرَدُّ على المَخْلُوقِ؛ لِأنّ السّلامَ دُعاءٌ بِالسّلامةِ، فكانَ مَعْنى قَوْلِها: اللهُ السّلامُ، فكَيْفَ أقُولُ: عليه السلام، والسلام منه يُسأَلُ، ومِنْهُ يَأْتِي؟ ولَكِنْ على جِبْرِيلَ السّلامُ.

فالّذِي تَحَصَّلَ مِنْ هَذا الكَلامِ مِن الفِقْهِ: أنّهُ لا يَلِيقُ باللهِ سُبْحانَه إلا الثّناءُ عليه، فجَعَلَتْ مَكانَ رَدِّ التّحِيّةِ على اللهِ ثَناءً عَلَيْهِ، كَما عُلِّموا في التّشَهّدِ حِينَ قالُوا[1]: السّلامُ على اللهِ مِنْ عِبادِهِ، السّلامُ على فُلانٍ، فقِيلَ لَهُمْ: لا تَقُولُوا هَذا، ولَكِنْ قُولُوا: «التّحِيّاتُ للهِ»، وقَدْ ذَكَرْنا في غَيْرِ هَذا الكِتابِ فوائِدَ جَمّةً في مَعْنى «التّحِيّاتِ» إلى آخِرِ التّشَهّدِ.

وقَوْلُها: «ومِنْهُ السّلامُ»، إنْ كانت أرادت بالسّلامِ: التَّحية، فهو خبرٌ يُرادُ به الشُّكرُ، كَما تَقُولُ: هَذِهِ النّعْمةُ مِن اللهِ، وإنْ كانَتْ أرادَتْ بالسّلامِ: السّلامةَ مِنْ كلِّ سُوءٍ، فهو خَبرٌ يُرادُ به المسألةُ، كما تَقولُ: مِنْه يُسألُ الخَيْرُ.

وذَهَبَ أكْثَرُ أهْلِ اللّغةِ إلى أنّ السّلامَ والسّلامةَ بمَعْنًى واحِدٍ، كالرَّضاع والرَّضاعةِ، ولَوْ تَأمّلُوا كَلامَ العَرَبِ وما تُعْطِيهِ هاءُ التّأْنِيثِ مِن التّحْدِيدِ، لَرَأَوْا أنّ بَيْنَهُما فرْقًا[2] عَظِيمًا، وأنّ الجَلالَ أعَمُّ مِن الجَلالةِ بكَثِيرٍ، وأنّ اللَّذاذَ أبْلَغُ مِن اللّذاذةِ، وأنّ الرَّضاعةَ تَقَعُ على الرّضْعةِ الواحِدةِ، والرَّضاعُ أكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ،

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأذان. انظر: «فتح الباري» (٢: ٣٢٠).
(٢) في (د): «فرقًا بعيدًا عظيمًا».

فكَذَلِكَ السّلامُ والسّلامةُ، وقِسْ على هَذا على تَمْرةٍ وتَمْر، ولِقاءة ولِقاء، وضَرْبةً وضَرْب، إلى غَيْرِ ذَلِكَ(١).

وتَسَمّى سُبْحانَهُ بِالسّلام؛ لِما شَمِلَ جَمِيعَ الخَلِيقةِ وعَمّهُمْ مِن السّلامةِ مِن الاِخْتِلالِ والتّفاوُتِ؛ إذ الكُلّ جارٍ على نِظامِ الحِكْمةِ، وكَذَلِكَ سلِمَ الثّقَلانِ مِنْ جَوْرٍ وظُلْمٍ أنْ يَأْتِيَهُمْ مِنْ قِبَلِهِ سُبْحانَهُ، فإنّما الكُلّ مُدَبَّرٌ بفَضْلٍ أوْ عَدْلٍ، أمّا الكافِرُ فلا يَجْرِي عَلَيْهِ إلّا عَدْلُهُ، وأمّا المُؤْمِنُ فيَغْمُرُهُ فضْلُهُ، فهُوَ سُبْحانَهُ في جَمِيعِ أفْعالِهِ سَلامٌ، لا حَيْفَ ولا ظُلْمَ، [ولا تَفاوُتَ](٢) ولا اخْتِلالَ.

ومَنْ زَعَمَ مِن المُفَسّرِينَ لِهَذا الِاسْمِ أنّهُ تَسَمّى بِهِ لِسَلامَتِهِ مِن العُيوبِ والآفاتِ، فقَدْ أتى بِشَنِيعٍ مِن القَوْلِ؛ إنّما السّلامُ مَنْ سُلِمَ مِنْهُ، والسّالِمُ مَنْ سَلِمَ مِنْ غَيْرِهِ، وانْظُرْ إلى قَوْلِهِ سُبْحانَهُ: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، وإلى قوله: ﴿سَلَٰمٌ هِىَ﴾ [القدر: ٥]، ولا يُقالُ أيضًا في الحائِطِ: سالِمٌ مِن العَمى، ولا في الحَجَر: إنّهُ سالِمٌ مِن الزّكام، أوْ مِن السُّعالِ، إنّما يُقالُ: سالِمٌ فيمَنْ(٣) يَجُوزُ عَلَيْهِ الآفةُ، ويَتَوَقّعُها ثُمّ يَسْلَمُ مِنْها، والقُدّوسُ سُبْحانَهُ مُتَعالٍ عَنْ تَوَقّعِ الآفاتِ، مُتَنَزّهٍ عَنْ جَوازِ النّقائِصِ، ومَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ لا يُقالُ: سَلِمَ منها، ولا يَتَسَمّى بِسالِمٍ، وهُمْ قَدْ جَعَلُوا سَلامًا بِمَعْنى سالِمٍ، والّذِي ذَكَرْناهُ أوّلُ هُوَ مَعْنى قَوْلِ أكْثَرِ السّلَفِ: والسّلامةُ خَصْلةٌ واحِدةٌ مِنْ خِصالِ السّلامِ، فاعْلَمْهُ، والحمدُ للهِ.

* * *

(١) انظر: «نتائج الفكر في النحو» للسهيلي: (ص: ٣٢١-٣٢٢).

(٢) ليس في (ب).

(٣) في (ب): «في نحو من تجوز».

[فَتْرةُ الوَحْيِ ونُزُولُ سُورةِ الضُّحى]

قالَ ابنُ إسْحاقَ: ثُمَّ فترَ الوَحْيُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فتْرةً مِنْ ذلك، حَتّى شَقَّ ذلك عَلَيْهِ فأحْزَنَهُ، فجاءَهُ جِبْرِيلُ بِسُورةِ الضُّحى، يُقْسِمُ لَهُ رَبُّهُ ـ وهُوَ الَّذي أكْرَمَهُ بِما أكْرَمَهُ بِهِ ـ ما ودَّعَهُ وما قَلاهُ، فقالَ تَعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ * وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ١-٣]، يَقُولُ: ما صَرَمَكَ فتَرَكَكَ، وما أبْغَضَكَ مُنْذُ أحبَّكَ، ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤]، أيْ: لَما عِنْدِي مِنْ مَرْجِعِكَ إلَيَّ خَيْرٌ لَكَ مِمّا عَجَّلْتُ لَكَ مِن الكَرامةِ في الدُّنْيا، ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٥] مِن الفُلْجِ في الدُّنْيا، والثَّوابِ في الآخِرةِ، ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ﴾ [الضحى: ٦-٨] يُعرِّفُهُ اللهُ ما ابْتَدَأهُ بِهِ مِنْ كَرامَتِهِ في عاجِلِ أمْرِهِ، ومَنِّهِ عَلَيْهِ في يُتْمِهِ وعَيْلَتِهِ وضَلالَتِهِ، واسْتِنْقاذِهِ مِنْ ذلك كُلِّهِ بِرَحْمَتِهِ.

[تَفْسِيرُ ابنِ هِشامٍ لِمُفْرَداتِ سُورةِ الضُّحى]

قالَ ابنُ هِشامٍ: سَجى: سَكَنَ. قالَ أُميّةُ بنُ أبي الصَّلْتِ الثَّقَفي:

إذْ أتى مَوْهِنًا وقَدْ نامَ صَحْبِي وسَجا اللَّيْلُ بِالظَّلامِ البَهِيمِ

وَهذا البَيْتُ في قَصِيدةٍ لَهُ، ويُقالُ لِلْعَيْنِ إذا سَكَنَ طَرْفُها: ساجِيةٌ، وسَجا طَرْفُها.

قالَ جَرِيرُ بنُ الخَطَفى:

وَلَقَدْ رَمَيْنَكَ حِينَ رُحْنَ بِأَعْيُنٍ يَقْتُلْنَ مِنْ خَلَلِ السُّتُورِ سُواجِي

وَهذا البَيْتُ فِي قَصِيدةٍ لَهُ.

والعائِلُ: الفَقِيرُ. قالَ أبو خِراشٍ الهُذَلِيُّ:

إلى بَيْتِهِ يَأْوِي الضَّرِيكُ إذا شَتا وَمُسْتَنْبِحٌ بالِي الدَّرِيسَيْنِ عائِلُ

وَجَمْعُهُ: عالَةٌ وعُيَّلٌ. وهذا البَيْتُ في قَصِيدةٍ لَهُ سَأَذْكُرُها في مَوْضِعِها إنْ شاءَ اللهُ.

والعائِلُ أيْضًا: الَّذِي يَعُولُ العِيالَ. والعائِلُ أيْضًا: الخائِفُ. وفي كِتابِ اللهِ تَعالى: ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا ﴾ [النساء: ٣]. وقالَ أبو طالِبٍ:

بِمِيزانِ قِسْطٍ لا يُخِسُّ شَعِيرةً لَهُ شاهِدٌ مِنْ نَفْسِهِ غَيْرُ عائِلِ

وَهذا البَيْتُ في قَصِيدةٍ لَهُ سَأَذْكُرُها إنْ شاءَ اللهُ في مَوْضِعِها.

والعائِلُ أيْضًا: الشَّيْءُ المثقِلُ المُعْيِي. يَقُولُ الرَّجُلُ: قَدْ عالَنِي هذا الأمْرُ؛ أيْ: أثْقَلَنِي وأعْيانِي.

قالَ الفَرَزْدَقُ:

تَرى الغُرَّ الجَحاجِحَ مِنْ قُرَيْشٍ إذا ما الأمْـــرُ في الحَدَثانِ عالا

وَهذا البَيْتُ في قَصِيدةٍ لَهُ.

﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ [الضحى: ٩-١٠]، أيْ: لا تَكُنْ جَبّارًا ولا مُتَكَبِّرًا، ولا فحّاشًا فظًّا على الضُّعَفاءِ مِنْ عِبادِ اللهِ، ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى: ١١]، أيْ: بِما جاءَكَ مِن اللهِ مِنْ نِعْمَتِهِ وكَرامَتِهِ مِن النُّبُوَّةِ

فحَدِّثْ، أي: اذْكُرْها وادْعُ إلَيْها.

فجَعَلَ رَسُولُ الله ﷺ يَذْكُرُ ما أنْعَمَ الله بِهِ عَلَيْهِ وعلى العِبادِ بِهِ مِن النُّبُوّةِ سِرًّا إلى مَنْ يَطْمَئِنُّ إلَيْهِ مِنْ أهْلِهِ.

فَصْلٌ

وذَكَرَ فتْرةَ الوَحْيِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، ولَمْ يَذْكُرْ مِقْدارَ مُدّةِ الفَتْرةِ، وقَدْ جاءَ في بَعْضِ الأحادِيثِ المُسْنَدةِ: أنّها كانَتْ سَنَتَيْنِ ونِصْفَ سَنةٍ[١]، فمِنْ هَهُنا يَتّفِقُ ما قالَهُ أنَسُ بنُ مالِكٍ: إنّ مُكْثَهُ بِمَكّةَ كانَ عَشْرَ سِنِينَ، وقَوْلُ ابنِ عباس: ثلاثَ عشْرة سَنةً[٢]، وكان قد ابتُدِئَ بِالرّؤْيا الصّادِقةِ سِتّةَ أشْهُرٍ، فمَنْ عَدّ مُدّةَ الفَتْرةِ، وأضافَ إلَيْها الأشْهُرَ السّتّةَ، كانَتْ كَما قال ابنُ عَبّاسٍ، ومَنْ عَدّها مِنْ حِينِ حَمِيَ الوَحْيُ وتَتابَعَ ـ كَما في حَدِيثِ جابِرٍ ـ كانَتْ عَشْرَ سِنِينَ.

ووَجْهٌ آخَرُ في الجَمْعِ بَيْنَ القَوْلَيْنِ أيْضًا: وهُوَ أنّ الشّعْبِيّ قالَ: وُكِّلَ إسْرافيلُ بِنُبُوّةِ مُحَمّدٍ ﷺ ثَلاثَ سِنِينَ، ثُمّ جاءَهُ جِبْرِيلُ بِالقُرْآنِ، وقَدْ قَدّمْنا هَذا الحَدِيثَ، ورَواهُ أبُو عُمَرَ في كِتابِ «الاسْتِيعابِ»، وإذا صَحّ فهُوَ أيْضًا وجْهٌ مِن الجَمْعِ بَيْنَ الحَدِيثَيْنِ، واللهُ أعْلَمُ.

فَصْلٌ

وذَكَرَ ابنُ هشامٍ قَوْلَ أبِي خِراشٍ خُوَيْلِدِ بنِ مُرّةَ الهُذَلِيّ: [من الطويل]

---

(١) انظر ما ذكره الصالحي في «سبل الهدى» (٢: ٣٦٣) وما بعدها.

(٢) انظر في ذلك: «مسلم» في كتاب الفضائل: (٤: ١٨٢٤)، و«الموطأ» في صفة النبي ﷺ: (٢: ٩١٩)، و«الترمذي» في أبواب المناقب: (١٣: ١٠٨).

إلى بَيْتِهِ يَأْوِي الضَّرِيكُ إذا شَتا ومُسْتَنْبِحٌ بالِي الدَّرِيسَيْنِ عائِلُ

الضَّرِيكُ: الضَّعِيفُ المُضْطَرّ، والمُسْتَنْبِحُ: الَّذِي يَضِلّ عَن الطَّرِيقِ في ظُلْمةِ اللَّيْلِ، فيَنْبَحُ ـ لِيُسْمَعَ ـ نُباحَ كَلْبٍ، والدَّرِيسُ: الثَّوْبُ الخَلَقُ. وقَولَ الْفَرَزْدَقِ[1]: [من الوافر]

تَرى الغُرَّ الجَحاجِحَ مِنْ قُرَيْشٍ إذا ما الأمْـرُ في الحَدَثانِ عالا
قِيامًـا يَنْظُـرُونَ إلـى سَـعِيدٍ كَأَنَّهُـمُ يَـرَوْنَ بِـهِ هِـلالا

يَعْنِي: سَعِيدَ بنَ العاصِي بنِ [سعيدِ بْن العاصي بنِ][2] أُمَيَّةَ، ويُقال: إنّ مَرْوانَ بنَ الحَكَمِ حِينَ سَمِعَ الفَرَزْدَقَ يُنْشِدُ سعيدًا هَذا البَيْتَ حَسَدَهُ عليه، فقالَ: قُلْ: «قُعُودًا يَنْظُرُونَ إلى سَعِيدٍ» يا أبا فِراسٍ. فقالَ لَهُ الفَرَزْدَقُ: لا واللهِ يا أبا عَبْدِ المَلِكِ إلّا قِيامًا على الأقْدامِ.

وَذَكَرَ [سَبَبَ][3] نُزُولِ سُورةِ (والضّحى)، وأنَّ ذَلِكَ لِفَتْرةِ الوَحْيِ عَنْهُ، وخَرَّجَ البُخارِيُّ مِنْ طَرِيقِ جُنْدُبِ بنِ سُفْيانَ: أنْ رَسُولَ اللهِ ﷺ اشْتَكى، فلَمْ يَقُمْ لَيْلَتَيْنِ أوْ ثَلاثًا، فقالَتْ لَهُ امْرَأَةٌ: إنّي لأَرْجُو أنْ يَكُونَ شَيْطانُك قَدْ تَرَكَك، فأنْزَلَ الله تَعالى سُورةَ (والضُّحى)[4].

[تمَّ الجزء الثاني بعون الله تعالى ورِعايته][5]

---

(١) «ديوانه» (٢: ٧٠-٧١)، و«نسب قريش» لمصعب: (ص: ١٧٦).
(٢) عن (ب). وانظر: «نسب قريش» لمصعب: (ص: ١٧٦).
(٣) ليس في (أ).
(٤) «فتح الباري»، كتاب التفسير: (٨: ٧١)، و«فضائل القرآن» (٩: ٣).
(٥) هذه العبارة من صنيعنا. (ج)

فهرس الموضوعات

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

الموضوع | الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**



الموضوع **الصفحة**

❋ ❋ ❋